

تفسير القشيري

المستقى

لطائف الاشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن قواز بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلوه عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

المجتمعة الثانية

المترى :

أول سورة يونس - آخر سورة العنكبوت



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsīr al-Quṣayri

"Laṭā'f al-'iṣārāt"

(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran

Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Quṣayri

Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Rahmān

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Pages: 1408 (3volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري

المسمى: لطائف الإشارات

التصنيف: تفسير قرآن

المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري

المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)

سنة الطباعة: 2007

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الثانية



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel : +961 5 804 810/11/12

Fax: +961 5 804813

P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon

Riyad al-Saloh Beirut 1107 2290

عربون ، القبعة

مبنى دار الكتب العلمية

هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٠ / ١١ / ١٢

فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٣

ص. ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

رياض السلاخ - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)

ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)

9 00000



9 782745 128379

<http://www.al-ilmiyah.com>

sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

سورة يونس عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة سماعها يوجب شفاء كل عابد، وضياء كل قاصد، وعزاء كل فاقد، وبلاء كل واجد، وهُدُو كل خائف، وسُلُو كل عارف. وأمان كل تائب، وبيان كل طالب. قلوب العارفين لا تفرح إلا بسم الله، وكروب الخائفين لا تبرح إلا عند سماع بسم الله.

قوله جل ذكره: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

الألف مفتاح اسم «الله»، واللام مفتاح اسم «اللطيف» والراء مفتاح اسم «الرحيم». أقسم بهذه الأسماء إن هذه الكتاب هو الموعود لكم يوم الميثاق. والإشارة فيه أنا حققنا لكم الميعاد، وأطلعنا لكم عنان الوداد... وانقضى زمان الميعاد، فالعصاة مُلقاة، والأيام بالسرور مُتلقاة، فبادروا إلى شرب كأسات المحاب، واستقيموا على نهج الأحباب.

قوله جل ذكره: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾.

تعجبوا من ثلاثة أشياء: من جواز البعث بعد الموت، ومن إرسال الرسل إلى الخلق، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة من بين الخلق. ولو عرفوا كمال ملكه لم يُنكروا جواز البعث، ولو علموا كمال ملكه لم يجحدوا إرسال الرسل إلى الخلق، ولو عرفوا أن له أن يفعل ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد ﷺ بالنبوة من بين الخلق، ولكن سُدت بصائرهم فتأهوا في أودية الحيرة، وعثروا - من الضلالة - في كل هذبة. وكان الأستاذ أبو علي الدقاق - رحمه الله - يقول: جَوَّزُوا أن يكون المنحوت من الخشب والمعمول من الصخر إلهاً معبوداً، وتعجبوا أن يكون مثل محمد ﷺ - في جلاله قَدْرُه رسولاً...!! هذا هو الضلال البعيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسِّرِ الْذِّكْرَ ءَامِنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

وهو ما قدّمه لأنفسهم من طاعات أخلصوا فيها، وفنون عبادات صدّقوا في القيام بقضائها.

ويقال هو ما قدم الحق لهم يوم القيامة، مع مقتضى العناية بشأنهم، وما حكّم لهم من فنون إحسانه بهم، وصنوف ما أفردهم به من امتنانهم.

ويقال: ﴿قَدَّمَ صِدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: هو ما رفعوه من أقدامهم في بدايتهم في زمان إرادتهم، فإن لأقدام المرادين المرفوعة لأجل اللّهِ حُرْمَةٌ عند الله، ولأيامهم الخالية في حال تردّدهم، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حُرْقَةٍ تحيرهم... مقادير عند الله. وقيل:

مَنْ يَنْسَ دَارًا قَدْ تَخَوَّنَهَا رَيْبُ الزَّمَانِ فَإِنِّي لَسْتُ أَنْسَاكَ
وقيل:

تلك العهود تشدّها لتخلّها عندي كما هي عقدها لم يخلل
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَوْمَ ذَٰلِكُمْ أَنَّهُ رُبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

لا يحتاج فعله إلى مُدَّة، وكيف ذلك ومن جملة أفعاله الزمان والمدة؟ فخلّق السموات والأرض في ستة أيام، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خلّق الله سبحانه وتعالى.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت. وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهور للحشَم والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهِمْ في ألوان مشاهدهم. فأخبر الحق - سبحانه - بما يُقْرَب من فهم الخلق ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراجه بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدّس الجبّار عن الأقطار، والمعبود عن الحدود.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: أي الحادثات صادرة عن تقديره، وحاصلة بتدبيره، فلا شريك يعضده، وما قضى فلا أحد يرده. ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَوْمَ﴾: هو الذي يُنْطِقُ مَنْ يخاطبه، وهو الذي يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطَالِيهِ.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: تعريف وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: تكليف؛ فحصول التعريف بتحقيقه، والوصول إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوفيقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

الرجوع يقتضي ابتداء الأرواح قبل حصولها في الأشباح، فإن لها في مواطن

التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحبيه وذويه، كما قيل:

أيا قداماً من سَفَرَةِ الهجر مرحباً أناديك لا أنساك ما هبَّت الصُّبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزُّلفى، والثواب والحسنى. والعاصي إذا رجع إلى ربه فبُغِبَ الإفلاس وخسران الطريق؛ فيتلقي لباس الغفران، وخُلَّة الصفع والأمان، فرحمة مولاه خيرٌ له من نُسكِهِ وتقواه.

قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾: موعودُ المطيع الفراديسُ العُلَى، وموعودُ العاصي الرحمة والرِّضَى. والجنة لُطْفُ الحقِّ والرَّحمةُ وصفُ الحقِّ؛ فاللُّطْفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل، والتَّعْتُ لم يزل.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: مَنْ كان له في جميع عمره نَفْسٌ على وصفٍ ما ابتدأ الحقُّ سبحانه به ففي الإشارة: تكون لذلك إعادة، وأنشدوا:

كلُّ نَهْرٍ فِيهِ مَاءٌ قَدْ جَرَى فإِلَيْهِ الْمَاءُ يَوْمًا سَيَعُودُ
قوله جلَّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرُوا مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أنوار العقول نجومٌ وهي للشياطين رجوم، وللعلوم أقمار وهي أنوار واستبصار، وللمعارف شمس ولها على أسرار العارفين طلوع، كما قيل:

إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيْبُ

وكما أَنَّ في السماء كوكبين شمساً وقمرأ؛ الشمسُ أبداً بضياؤها، والقمرُ في الزيادة والنقصان؛ يُسْتَرُّ بمحافه ثم يكمل حتى يصير بدرأ بنعت إشراقه، ثم يأخذ في النقص إلا أن لا يبقى شيء منه لتمام امتحاقه، ثم يعود جديداً، وكل ليلة يجد مزبداً، فإذا صار بدرأ تماماً، لم يجد أكثر من ليلةٍ لِكَمَالِهِ مقاماً، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يَخْفَى شَخْصُهُ وَيَتِمَّ نَقْصُهُ.

كذلك مِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ قَبْضِهِ وَبَسْطِهِ، وَصَخْرِهِ وَمَخْرِهِ، وَذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ؛ لَا فَنَاءَ فَيَسْتَرِيحُ، وَلَا بَقَاءَ لَهُ دَوَامٌ صَحِيحٌ، وَقِيلَ:

كَلَّمَا قُلْتُ قَدْ دَنَا حُلَّ قَيْدِي كَبَّلُونِي فَأَوْثَقُوا الْمِسْمَارَا

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

اخْتَصَّ النَّهَارُ بَضِيَاءَهُ، وَانْفَرَدَ اللَّيْلُ بِظُلُمَانِهِ، مِنْ غَيْرِ اسْتِجَابٍ لَذَلِكَ، وَمِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقِ عِقَابٍ لِهَذَا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّدَّ وَالْقَبُولَ، وَالْمَنْعَ وَالْوَصُولَ، لَيْسَتْ

معلولة بسبب، ولا حاصلة بأمرٍ مُكْتَسَبٍ؛ كلاً.. إنها إرادةٌ ومشيئةٌ، وحُكْمٌ وقضية.
النهارُ وقتُ حضورِ أهلِ الغفلة في أوطانِ كَسْبِهِمْ، ووقتُ أربابِ القرية والوصلة
لانفرادهم بشهود ربِّهم، قال قائلهم:
هو الشمس، إلا أن للشمسِ غيبَةً وهذا الذي نعنیه ليس يغيبُ
والليلُ لأحدِ شخصين: أمّا للمُجِبِّ فَوَقْتُ النُّجُوى، وأمّا للعاصي فَبِتُّ
الشكوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ أَلَا نَارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

أنكروا جوازَ الرويةِ فلم يرجوها، والمؤمنون آمنوا بِجَوَازِ الرؤيةِ فأملوها.
ويقال: لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشتاقوا إليه، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يُحِبُّوه
لأنهم لم يعرفوه، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أراد ألا يطلبوه، قال
تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهْنَ﴾ [النجم: ٤٢].

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه، ولو طلبوا لعرفوا، ولو عرفوا لأحبُّوا، ولو
أحبُّوا لاشتاقوا، ولو اشتاقوا لرجوا، ولو رجعوا لأملوا لقاءه، قال تعالى: ﴿وَكَلَّوْا شَنَاةً
لَّا يَنَالُنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدْنَهَا﴾ [السجدة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾: أصحاب الدنيا رضوا بالحياة الدنيا
فَحَرَمُوا الجنةَ، والزُّهَادُ والعَبَادُ رَكَنُوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة، وقد
علِمَ كلُّ أناسٍ معشرهم، ولكلِّ أحدٍ مقام.

ويقال إذا كانوا لا يرجون لقاءه فمأواهم العذاب والفرقة، فدلُّلُ الخطاب أن
الذي يرجو لقاءه رآه، ومآله ومتناه الوصلة واللقاء والزُّلفَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ
مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

كما هداهم اليوم إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير
نصيرٍ من المخلوقين ولا وسيلة.

ويقال أمّا المطيعون فنورهم يسعى بين أيديهم وهم على مراكب طاعتهم،
والملائكة تتلقاهم والحق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَخْتَرُ الْمَتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مریم: ٨٥]
نحشرهم، والعاصون يَبْقَوْنَ منفردين متفرقين، لا يقف لهم العابدون، ويتطوِّحون
في مطاحات^(١) القيامة.

(١) المطاح والمطاحة: المسلك الوعر المهلك (ج) مطروح.

والحق - سبحانه - يقول لهم: عبادي، إن أصحاب الجنة - اليوم - في شغل عنكم، إنهم في الثواب لا يتفرغون إليكم، وأصحاب النار من شدة العذاب لا يرقبون لكم معاشر المساكين .

كيف أنتم إن كان أشكالكم وأصحابكم سبقوكم؟ وواحد منهم لا يهديكم فانا أهديكم . لأنني إن عاملتكم بما تستوجبون . . . فأين الكرم بحقنا إذا كنا في الجفاء مثلهم وهجرناكم كما هجروكم؟

قوله جل ذكره: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

قالتهم الشاء على الله، وذلك في حال لقائهم . وتحيتهم في تلك الحالة من الله: «سلام عليكم» ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: والحمد ها هنا بمعنى المدح والثناء، فيثنون عليه ويحمدونه بحمد أبدى سرمدي، والحق - سبحانه - يُحييهم بسلام أزلي وكلام أبدي، وهو عزيز صمدي ومجيد أحدي .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِّى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَبُذِّرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

أي لو أجبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند غيظهم وضجرهم لعجلنا إهلاكهم، ولكن تحملنا ألا ننجيهم، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءهم . وربما يشكو العبد بأن الرب لا يجيب دعاءه، ولو علم أنه ترك إجابته لظفاً منه وأن في ذلك بلاء لو أجابه، كما قيل:

أُتِيسَ أَعْرَضُوا عَنَّا بَلَاجُزْمٍ وَلَا مَعْنَى
أَسَاءُوا ظَنُّهُمْ فِينَا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

إذا امتحن العبد وأصابه الضر أزعجته الحال إلى أن يروم التخلص مما ناله، فيعلم أن غير الله لا يُنجيه، فتحمله الضرورة على صدق الالتجاء إلى الله، فإذا كشف الله عنه ما يدعو لأجله شغلته راحة الخلاص عن تلك الحالة، ورأيه ذلك الالتجاء، وصار كأنه لم يكن في بلاء قط:

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَغْرُ يَوْمًا إِذْ اكْتَسَبَى وَلَمْ يَكْ صَعْلُوكًا إِذَا مَا تَمَوَّلَا

ويقال بلاء يُلجئك إلى الانتصاب بين يدي معبودك أجدى لك من عطاء ينسبك ويكفيك عنه .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أخبر الحق سبحانه بإهلاك الظالمين، كما في الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنة لسلط الله عليه الخراب». والظلم وضع الشيء في غير موضعه، فإذا وضع العبد قُضده - عند حوائجه - في المخلوقين، وتعلق قلبه بهم في الاستعانة، وطلب المأمول فقد وضع الشيء في غير موضعه، وهو ظلم؛ فعقوبة هذا الظلم خراب القلب، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانه وكفاه، ولكنه يصير على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله، ولا ترتفع حاجته من غيره، وكان من فقره وحاجته في مَصْرَةٍ. فإن صار إلى مصرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنة عظيمة.

وعلى هذا القياس إذا أحب مخلوقاً فقد وضع محبته في غير موضعها، وهذا ظلم؛ وعقوبته خراب روحه لعدم صفاء وده ومحبته لله، وذهاب ما كان يجده من الأنس بالله، إذا بقي عن الله يذيقه الحق طعم المخلوقين، فلا له مع الخلق سلوة، ولا من الحق إلا الجفوة، وعدم الصفوة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. عرفناكم بسير من قبلكم، وما أصابهم بسبب ذنوبهم، فإذا اعتبرتم بهم نجوئهم، ومن لم يعتبر بما سمعه اعتبر به من تبعه. ويقال أحللتنا بهم من العقوبة ما يعتريكم، ومن لم يعتبر بمن سبقه اعتبر به من لحقه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِشْرَآءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْنَا إِنَّ عَصِيتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

إذا اقترحوا عليك بأن تأتيهم بما لم تأمر به، أو تزيهم ما لم تظهر عليك من الآيات... فأخبرهم أنك غير مُستقل بك، ولا موكل إليك؛ فنحن القائم عليك، المصرف لك، وأنت المتبع لما تُجرى عليك غير مُبتدع لما يحصل منك.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قد عشت فيكم زماناً، وعرفت أحوالي فيما تطلبون مني عليه برهاناً، فما أفتيموني (...)(١) بل وجدتموني في السداد مستقيماً، وللرشاد مستديماً، فلولا أن

(١) بياض في الأصل.

الله تعالى أرسلني، ولَمَّا حَمَلَنِي مِنْ تَكْلِيفِهِ أَهْلَنِي لَمَّا كُنْتُ بِهَذَا الشَّرْعِ آتِيًّا وَلَا لِهَذَا الْكِتَابِ تَالِيًّا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما لكم تعترضون؟ ولا لأنفسكم تنظرون؟
قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ الْجُبْنُ وَلَا يَكْفِيهِمُ الْغَسَقُ﴾.

الكذب في الشرع قبيح، وإذا كان على الله فهو أقبح.
ومن المفترين على الله: الذين يُظهرون من الأحوال ما ليسوا فيه صادقين، وجزاؤهم أَنْ يُخْرَمُوا ذَلِكَ أَبَدًا، فلا يصلون إلى شيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَبَعَثْنَا هَارُونَ شُعْبُونًَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُشْرِكُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَكْفُرُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

دَمَهُمْ على عبادة ما ليس منه ضَرٌّ ولا نَفْعٌ.
فدليل الخطاب يقتضي أَنْ يَكُونَ المعبودُ منه الضَّرُّ والنفع، ومن قَرِط غباوتهم أنهم انتظروا في المآلِ الشفاعةَ ممن لا يوجدُ منه الضَّرُّ والنفع في الحال. ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذي قالوا معلوماً، ولو كان كما قالوا لَعَلِمُوا أنه سبحانه لا يَغْرُبُ عن علمه معلوم.

ومعنى قوله: ﴿لَا يَكْفُرُ﴾: خلافه. ومن تَعَلَّقَ قلبه بالمخلوقين في استدفاع المضار واستجلاب المنار فكالسالك سبيل مَنْ عَبَدَ الأصنام؛ إذ المُنشِئ والموجد للشيء من العدم هو الله - سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وذلك من زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا، والحق - سبحانه - سبق قضاؤه بتأخير حسابهم إلى الآخرة، ولذلك لا يُجِيبُهُمْ إلى ما يستعجلونه من قيام القيامة.
وإنما اختلفوا لأن الله خَصَّ قومًا بعنائه وقبوله، وآخرين بإهوانه وإبعاده، ولولا ذلك لَمَا كانت بينهم هذه المخالفة.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

أخبر أنه - عليه السلام - في سِرِّ الغيبة وخفاء الأمر عليه في الجملة لتقاصر

علمه عما سيحدث، فهو في ذلك بمنزلتهم، إلا في مواطن التخصيص بأنوار التعريف، فكما أنهم في الانتظار لما يحدث في المستأنف فهو أيضاً في انتظار ما يوجد - سبحانه - من المقادير. والفرق بينه - عليه السلام - وبينهم أنه يشهد ما يحصل به - سبحانه - ومنه، وهم مُتَطَوِّحُونَ في أودية الجهالة؛ يُحِيلُونَ الأمر مرةً على الدهر، ومرةً على النجم، ومرةً على الطبع. . . وكل ذلك حَيْرَةٌ وَعَمَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَمَرُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

يعني إذا أصابهم ضرٌّ ومحنة فرحمتهم وكشفنا عنهم، أحالوا الأمر على غيرنا، وتوهموه مما هو سوانا مثل قولهم: «مُطَرِّزْنَا بنوء كذا»^(١)، ومثل قولهم إن هذه سعادة نجم أو مساعدة دولة أو تأثير فلّك أو خيرات دهر.

فهذا كان مكْرهم أما مكْر الله - سبحانه - بهم فهو جزاؤهم على مكْرهم. والإشارة في هذا أنه ربما يكون للمريد أو للطالب حجة أو فترة. . . فإذا جاء الحق بكشف أو تجلّ أو إقبال فمن حقهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها، لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحق مكّر الله بهم بأن شتّهم في تلك الأحوال من غير ترقّ عنها أو وجود زيادة عليها، وهذا مكْرهُ بِخَوَاصِّهِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفِكَ وَجَرَيْنَ بِحَمِ يَرْبِحُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رَيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَنْ أُنْجِيَنَّا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

يريد أنهم يُصْبِحُونَ في النعم يجرون أذيالهم، ثم يُمَسُونَ ليكون لِيَالِيَهُمْ. وقد يَبِثُونَ والبهجة ملكتهم ثم يصبحون وخفايا التقدير أهلكتهم، وأنشدوا:

أَقَمْتُ زَمَانًا وَالْعَيُونُ قَرِيرَةٌ وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا وَالْجَفُونَ سَوَافِكُ

فإذا رجعوا إلى الله بإخلاص الدعاء يجود عليهم بكشف البلاء.

فلما أنجاهم بالإجابة لدعائهم إذا هم إلى غيره يرجعون، وعلى مناهجهم - في تمردهم يسلكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أُنْجِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّخُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِآيَاتِنَا النَّاسُ لَمَّا

(١) أخرجه البخاري (أذان ١٥٦)، (استسقاء ٢٨)، (مغازي ٣٥)، ومسلم (إيمان ١٢٥)، وأبو داود (طب ٢٢)، والترمذي (تفسير سورة ٤٠٥٦)، والنسائي (استسقاء ١٦)، والدارمي (رفاق ٤٩)، والموطأ (استسقاء ٤)، وأحمد بن حنبل ١، ٨٩، ١٠٨، ١٣١، ٢، ٤١٥، ٤٥٥، ٥٢٥، ٣، ٤٢٩، ٤، ١١٧.

بَعِيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنْفِثْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾
 ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ لِمَا بَعِيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ معناه: تُمَتِّعُكُمْ أَيَّاماً قَلِيلًا، ثُمَّ تُلْقُونَ غِبًّا
 ذَلِكَ وَتَبْدَأُونَ تَقَاسُونَ عَذَابًا طَوِيلًا.

قوله جل ذكره: ﴿لَمَّا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
 مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا
 أُنْزِلْنَا أَثَرَهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْصَ بِالْأَلَمِيسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ﴾.

شَبَّهَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالماءِ الْمُنْزَلِ مِنَ السَّمَاءِ يَنْبُتُ بِهِ النَّبَاتُ وَتَخْضِرُ الْأَرْضُ وَتُظْهِرُ
 الثَّمَارَ، وَيُوْطِنُ أَرْبَابُهَا عَلَيْهَا نَفْسَهُمْ، فَتَصِيبُهُمْ جَائِحَةٌ سَمَاقِيَّةٌ بَغْتَةً، وَتَصِيرُ كَأَن لَّمْ
 تَكُنْ.

كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ كَمَالِ سِنِّهِ وَتَمَامِ قُوَّتِهِ وَاسْتِجْمَاعِ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ فِيهِ
 تَخْتَرِمُهُ الْمَنِيَّةُ^(١)، وَكَذَلِكَ أُمُورُهُ الْمُنْتَظِمَةُ تَبْطُلُ وَتَخْتَلُ لُوفَاتِهِ، كَمَا قِيلَ:

فَقَدَرْتَاهُ لَمَّا تَمَّ وَاخْتَمَّ بِالْعُلَى كَذَلِكَ كَسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ

وَمِنْ وَجْهِ تَشْبِيهِ الْأَحْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِالماءِ الْمُنْزَلِ مِنَ السَّمَاءِ أَنَّ الْمَطَرَ لَا يَنْزِلُ
 بِالْحِيلَةِ، كَذَلِكَ الدُّنْيَا لَا تَسَاعِدُهَا إِلَّا الْقِسْمَةُ.

ثُمَّ إِنْ الْمَطَرُ إِنْ كَانَ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالتَّقْدِيرِ فَقَدْ يُسْتَنْقَى.. كَذَلِكَ الرِّزْقُ - وَإِنْ
 كَانَ بِالْقِسْمَةِ - فَقَدْ يُلْتَمَسُ مِنَ اللَّهِ وَيُسْتَعْطَى.

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ فِي مَوْضِعِهِ سَبَبُ حَيَاةِ النَّاسِ، وَفِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ سَبَبُ خَرَابِ
 الْمَوْضِعِ، كَذَلِكَ الْمَالُ لِمُسْتَحَقِّهِ سَبَبُ سَلَامَتِهِ، وَانْتِفَاعِ الْمُتَصِلِينَ بِهِ، وَعِنْدَ مَنْ لَا
 يَسْتَحِقُّهُ سَبَبُ طَغْيَانِهِ، وَسَبَبُ بَلَاءٍ مَنْ هُوَ مُتَّصِلٌ بِهِ، كَمَا قِيلَ: نَعْمُ اللَّهُ لَا تُعَابُ وَلَكِنَّهُ
 رُبَّمَا اسْتَعْجَلَ عَلَى إِنْسَانٍ، وَكَمَا قِيلَ:

يَا دَوْلَةً لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْمَعَالِي شَظِيَّةٌ زُولَى فَمَا أَنْتَ إِلَّا عَلَى الْكِرَامِ بَلِيَّةٌ^(٢)

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ بِمَقْدَارٍ كَانَ سَبَبُ الصَّلَاحِ، وَإِذَا جَاوَزَ الْحَدَّ كَانَ سَبَبُ
 الْخَرَابِ.. كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا كَانَ بِقَدْرِ الْكَفَايَةِ وَالْكَفَافِ فَصَاحِبُهُ مُنْعَمٌ، وَإِذَا زَادَ وَجَاوَزَ
 الْحَدَّ أَوْجَبَ الْكُفْرَانَ وَالطَّغْيَانَ.

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ مَا دَامَ جَارِيًا كَانَ طَيِّبًا، فَإِذَا طَالَ مَكْثُهُ تَغَيَّرَ.. كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا

(١) اخترمت المنية فلاناً: أخذته.

(٢) الشظية: عظم الساق أو العظم الصغير الوحشي من عظمي الساق.

أنفقه صاحبه كان محموداً، فإذا أدخره وأمسكه كان معلولاً مذموماً.

ومنها أن الماء إذا كان طاهراً كان حلالاً يصلح للشرب ويصلح للظهور وإزالة الأذى، وإذا كان غير طاهر فبالعكس. . كذلك المال إذا كان حلالاً، وبعكسه لو كان حراماً.

ويقال كما أن الربيع تتورد أشجاره، وتظهر أنواره، وتخضر رباغته، وتزوين بالنبات وهأذه وتلاعه^(١) لا يؤمن أن تصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن في الحساب. كذلك من الناس من تكون له أحوال صافية، وأعمال بشرط الخلو صافية؛ غصون أنسه متذلية، ورياض قربه موقنة. . ثم تصيبه عين فيذبل عود وصاله، وتنسد أبواب عوائد إقباله، كما قيل:

عين أصابتك إن العين صائبة والعين تسرع أحياناً إلى الحسد
قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

دعاهم إلى دار السلام، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجب لهم الوصول إلى دار السلام؛ وهو اعتناق أوامره والانتهاة عن زواجه. والدعاء من حيث التكليف، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف.

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص.

ويقال التكليف بحق سلطانه، والتعريف بحكم إحسانه.

ويقال الدعاء قوله والهداية طوله؛ دخل الكل تحت قوله، وانفرد الأولياء بتخصيص طوله. دار السلام دار الله لأن السلام اسم من أسمائه.

ويكون السلام بمعنى السلامة فهي دار السلامة أي أهلها سالمون فيها؛ سالمون من الحرقة وسالمون من الفرقة؛ سلموا من الحرقة فحصلوا على لذة عطائه، وسلموا من الفرقة فوصلوا إلى عزيز لقائه.

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سلمت نفسه عن السجود للصنم، وسلم قلبه عن الشرك والظلم.

ويقال تلك الدار درجات؛ والذي سلم قلبه عن محبة الأغيار درجته أعلى من درجة من سلمت نفسه من الذنوب والأوصار.

ويقال قوم سلمت صدورهم من الغل والحسد والحقد؛ وسلم الخلق منهم؛

(١) التلاع: (ج) التلعة: ما ارتفع من الأرض وأشرف، أو هي ما انهبط منها (ضد).

فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة، وليس لهم على أحد شيء؛ «فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمحسن من سلم الخلق بأجمعهم من قلبه»^(١).

﴿أَلَصِّرْطَ الْمُسْتَقِيمِ﴾: طريق المسلمين، فهذا للعوام بشرط علم اليقين، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان، وهم الذين قال ﷺ فيهم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُحْسَنٍ وَزِيَادَةٌ﴾.

﴿أَحْسَنُوا﴾: أي عملوا وأحسنوا إذ كانت أفعالهم على مقتضى الإذن.

ويقال: «أحسنوا»: لم يقصروا في الواجبات، ولم يخلوا بالمندوبات.

ويقال: «أحسنوا»: أي لم يبق عليهم حق إلا قاموا به؛ إن كان حق الحق فمين

غير تقصير، وإن كان من حق الخلق فأداء من غير تأخير.

ويقال «أحسنوا»: في المال كما أحسنوا في الحال؛ فاستداموا بما فيه

واستقاموا، والحسنى التي لهم هي الجنة وما فيها من صنوف النعم.

ويقال: الحسنى في الدنيا توفيق بدوام، وتحقيق بتمام، وفي الآخرة غفران

مُعَجَّل، وبيان على التأييد مُحَصَّل.

قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: فعلى موجب الخبر وإجماع السلف النظر إلى الله. ويحتمل

أن تكون «الحسنى»: الرؤية، «والزيادة»: دوامها. ويحتمل أن تكون «الحسنى»:

اللقاء، «والزيادة»: البقاء في حال اللقاء.

ويقال الحسنى عنهم لا مقطوعة ولا ممنوعة، والزيادة لهم لا عنهم محجوبة ولا

مسلوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذُلٌّ أَتِلَّكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري (إيمان ٥)، (رقاق ٢٦)، ومسلم (إيمان ٦٤ - ٦٥)، وأبو داود (جهاد، ٢)

والترمذي (قيامة ٥٢)، (إيمان ١٢)، والنسائي (إيمان ٨، ٩، ١١)، والدارمي (رقاق ٤، ٨)

وأحمد بن حنبل ١٦٠/٢، ١٦٣، ١٨٧، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢،

٢١٥، ٢٢٤، ٣٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٤٤/٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/١٠)، وابن خزيمة في

(الصحيح ٢٢٤٤)، والهيثمي في (موارد الظمان ١٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٥١٣/٨)

والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٣٤/٨، ٩٤/١٠)، وابن كثير في (التفسير ٣٥٦/٦)،

والمفتي الهندي في (كتر العمال ٥٢٤٩، ٥٢٥٤).

لا يقع عليهم غبارُ الحجاب، وبعبكسه حديث الكفار حيث قال: ﴿وَوُجُوهُ يُؤْمَدُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠].

«والذلة» التي لا تصيبهم أي لا يُردُّوا من غير شهود إلى رؤية غيره، فهم فيها خالدون في فنون أفضالهم، وفي جميع أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَتْ أَغْشِيَتٌ وَجُوهَهُمْ قُطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

والذين كسبوا السيئات وعملوا الزلات لهم جزاء سيئة مثلها، والباء في «بمثلها»: صلة أي للواحد واحد.

﴿وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: هو تأييد العقوبة.

﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي ما لهم من عذابه من عاصم، سيموا ذل الحجاب، ومثوا بتأييد العذاب، وأصابهم هوان البعاد. وأثار الحجاب على وجوههم لائحة فإرا الأسيرة تدل على السرية.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَيَذَرُوكُمْ بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَتَّبِعُونَ فَكُفَىٰ لِلَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

يجمع بين الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله، فتقول الأصنام: ما أمرناكم بعبادتنا. فيدعون على الشياطين التي أطاعوها، وعلى الأصنام التي أمرتهم أن يعبدوها، وتقول الأصنام: كفى بالله شهيداً، على أننا لم نأمركم بذلك؛ إذ كنّا جماداً. وذلك لأنّ الله يُخَيِّبُها يوم القيامة ويُنطِقُها.

وفي الجملة... يتبرأ بعضهم من بعض، ويدوق كل وبال فعله.

وفائدة هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وبال عليهم؛ فاشتغالهم - اليوم - بذلك مُحَالٌ، ولهم في المآل - من ذلك - وبالٌ.

قوله جل ذكره: ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُبَدِّلُونَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

إنما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طعم هوانهم؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا إلا البعد عن الله، والطرز من قبل الله، وذلك جزاء من أثر على الله غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

كما تَوَحَّدَ الحقُّ - سبحانه - بكونه خالقاً تَفَرَّدَ بكونه رازقاً، وكما لا خالقٌ سواه فلا رازقٌ سواه.

ثم الرزق على أقسام: فللأشباح رزق: وهو لقوم توفيق الطاعات، ولآخرين خذلان الرِّلات. وللأرواح رزق: وهو لقوم حقائق الوصلة، ولآخرين - في الدنيا - الغفلة وفي الآخرة العذاب والمهلة.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾: فيكمل بعض الأبصار بالتوحيد، وبعضها يعميها عن التحقيق.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ... ولكن ظناً... لا عن بصيرة، ونطقاً... لا عن تصديق سريرة.

قوله جل ذكره: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَإِنْ تُصْرَفُونَ﴾. ما يكون من موضوعات الحق، ومتعلقات الإرادة، ومتناولات المشيئة، ومُجَسَّسات التقدير، ومُصَرِّقات القدرة - فهي أشباح خاوية، وأحكام التقدير عليها جارية.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. سبق لهم الحكم، وصدق فيهم القول؛ فلا لحكمه تحويل ولا لقوله تبديل، فإنَّ العلل لا تُغَيِّرُ الأزل.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَإِنَّهُ تَوَفَّكَونَ﴾.

كشَفَ قبيح ما انطوت عليه عقائدهم من عبادتهم ما لا يصحُّ منه الخلق والإعادة، وأثبت أن المعبود من منه الخلق والإعادة.

قوم جعلوا له في الإيجاد شركاء بدعوى القدر، وقوم منعوا جواز قدرته على الإعادة. وكل هذا جنوح إلى الكفر وذهاب عن الدين.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلْكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

الحق اسم من أسمائه سبحانه، ومعناه أنه موجود، وأنه ذو الحق، وأنه مُجِئُ الحق.

والحق من أوصاف الخلق ما حسن فعله وصحُّ اعتقاده وجاز النطق به.

﴿اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾: أي إلى الحق هدايته . وهداه له وهداه إليه بمعنًى؛ فَمَنْ هُده الحَقُّ لِلْحَقِّ وَفَقَّهَ عَلَى الْحَقِّ، وَعَزِيزٌ مَنْ هُده الحَقُّ إِلَى الْحَقِّ لِلْحَقِّ، فَمَالَهُ نَصِيبٌ وَمَا لَهُ حَظٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

الظَّنُّ يُنافي اليقين، فإنه ترجيح أحد طَرَفَيِ الحكم على الآخر من غير قَطْع . وأرباب الحقائق على بصيرة وقطع؛ فالظَّنُّ في أوصاف الحقّ معلول، والقطع - في أوصاف النَّفْسِ - لكل أحدٍ معلول . والعَبْدُ يجب أن يكون في الحال خالياً عن الظن إذ لا يَعْرِفُ أَحَدٌ غَيْبَ نَفْسِهِ فِي مَالِهِ .

وفي صفة الحقّ يجب أن يكون العبدُ على قطع وبصيرة؛ فالظَّنُّ في الله معلول، والظن فيما من الله غير محمود . ولا يجوز بوجه من الوجوه أن يكون أهل المعرفة به سبحانه - فيما يعود إلى صفته - على الظن، كيف وقد قال الله تعالى فيما أمر نبيه - عليه السلام - أن يقول: ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي﴾ [يوسف: ١٠٨]؟ وكما قلنا:

وَأَتَى الْيَقِينَ فَلَاتٍ حِينَ حِجَاجٍ	طَلَعَ الصَّبَاحُ فَلَاتٍ حِينَ سَرَاةٍ
مَنْ عَقَدَ الْوَيْةَ وَحَلَّ رَتَاجَ ^(١)	حَصَلَ الَّذِي كُنَّا نَوُمِّلُ نَيْلَهُ
وَالْوَصْلُ وَكَذَّ سَجْلَهُ ^(٢) بِعَاجِ ^(٣)	وَالْبَعْدَ قَوْضَ بِالذَّنُو خِيَامِهِ
لَهُوَاجِمِ الْأَحْزَانِ بِالْإِزْعَاجِ	قَدْ حَانَ عَهْدُ لِلْسُرُورِ فَحِيَهْلَا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

انسَدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عمى على عمى، كما أن أهل الحقيقة ما ازدادوا إلا هُدًى على هدى، فسبحان مَنْ جعل سماعَ خطابه لقوم سببَ تحيُّرهم، ولآخرين موجبَ تبصُّرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتَّبَعْنَا عِيسَى وَنُوحًا وَآدَمَ مَا يَشْكُرُ لَكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(١) الرتاج: الباب العظيم . أو الباب المفلق وعليه باب صغير (ج) رُتِج .

(٢) السَّجْلُ: الدلو العظيمة مملوءة . أو فيها ماء قل أو كثر (ج) سجال وسجول .

(٣) العجاج: خيط أو سير يُشدُّ في أسفل الدلو ثم يُشدُّ في عروتها أو عرقوتها (اللسان ٢/ ٣٣٠) .

كَلَّتِ الْقَرَائِحُ، وَخَمَدَتْ نيرانُ الفصاحة، واعترف كلُّ خطيبٍ ومصفّعٍ بالعجز عن معارضة هذا الكتاب، فلم يتعرض لمعارضته إلا مَنْ افتضح في قائلته.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ أَزْدَى مِنَ قبلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

قابلوا الحقّ بالتكذيب لتقاصر علومهم عن التحقيق، فالتحقيق من شرط التصديق، وإنما يؤمن بالغيّب مَنْ لَوْح - سبحانه - لقلبه حقائق البرهان، وصرف عنه دواعي الرّيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

فأما الذين آمنوا فهم الذين كحلّ الحقّ أبصار قلوبهم بنور اليقين، والذين لم يؤمنوا فهم الذين وسّم قلوبهم بالعمى فزلّوا - بالضلالة - عن الهدى. . . تلك سنّة الله في الطائفتين، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

برح الخفاء، واستبانة الحقائق، وامتاز الطريقان، فلا المحسن يجرم المسيء معاقب، ولا المسيء يجرم المحسن معاتب، كلٌّ على حدة بما يعمله وعلى ما يفعله محاسب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

من استمع بتكلفه ازداد في تخلفه بزيادة تصرفه، ومن استمع الحقّ بتفضله - سبحانه - استغنى في إدراكه عن تعلمه. والحقّ - سبحانه - يُسمع أوليائه ما يناجيهم به في أسرارهم، فإذا سمعوا دعاء الوسطة قابلوه بالقبول لما سبق لهم من استماع الحقّ. ومن عديم استماع الحقّ إياه من حيث التفهيم لم يزدّه سماع الخلق إلا جحداً على جحد، ولم يخطّ به إلا بُعداً على بُعد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

من شدّت بصيرته بالغفلة والغبية لم يزدّه إدراك البصر إلا حجةً على حجية، ومن لم ينظر إلى الله بالله، ولم يسمع من الله بالله، فقصاراه العمى والصمم، ﴿فَأَن تَبْهَلَ أَعْمَىٰ أَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله: «فبي يسمع وببي يبصر»^(١).

(١) هذا حديث قدسي يُروى هكذا «فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به...» أخرجه البخاري (رقاق ٣٨).

وأنشد قائلهم:

تأمل بعين الحق إن كنت ناظراً إلى منظرٍ منه إليه يعود
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

نفى عن نفسه ما يستحيل تقديره في نعته، وكيف يوصف بالظلم وكل ما يتوهم أن لو فعله كان له ذلك؟ إذ الحق حقه والمُلك ملكه. ومن لا يصح تقدير قبيح منه - أتى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرُبِّهِمْ كَيْدٌ وَاسِعٌ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

الأيام والشهور، والأعوام والدهور بعد مضيتها في حكم اللحظة لمن تفكر فيها، ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها؟ والآتي من الوقت قريب، وكأن قذر الماضي من الدهر لم يُعْهَد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا نُزُتُّكَ بِعَصَى الَّذِي نَعُدُّمْ أَوْ نَنْفُتُّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾.

معناه أن خبره صدق، ووعدته ووعدته حق، وبعد النشْر حشْر، وفي ذلك الوقت مُطالَبَةٌ وحساب، ثم على الأعمال ثواب وعقاب، وما أسرع ما يكون المعلوم مُشَاهِداً موجوداً!

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لم يُخل زماناً من شرع، ولم يُخلِ شرعاً من حكم، ولم يُخلِ حكماً مما يُعْهَد من ثواب وعقاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب الكذب، فأما أهل التحقيق فليس لهم لوارِد يَرُدُّ عليهم اشتغال قبل وجوده، أو استعجال على حين كونه، ولا إذا وَرَدَ استقال لما تضمنه حكمه؛ فهم مطروحون في أسر الحكم، لا يتحرك منهم - باختيارهم - عِزٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي صَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْرِجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾.

الملك متى يكون له ملك؟!

وإذا كان سيّد البرايا - عليه الصلاة والسلام - لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً .
فَمَنْ نَزَلَتْ رُبُّنَتُهُ، وتفاصرت حالته متى يملك ذرة أو تكون باختياره وإيثاره شمة؟
طاح الذي لم يكن - في التحقيق، وتفرد الجبار بنعت الملكوت .
قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

مَنْ عَرَفَ كَمَالَ الْقُدْرَةِ لَمْ يَأْمَنْ فَجَاءَةً الْأَخْذِ بِالشَّدَّةِ، وَمَنْ خَافَ الْبَيَّاتِ لَمْ يَسْتَلْذِ السُّبُاتِ .
ويقال مَنْ تَوَسَّدَ الْغَفْلَةَ أَيْقَظَتْهُ فَجَاءَةُ الْعُقُوبَةِ، وَمَنْ اسْتَوَطِنَ مَرْكَبَ الزَّلَّةِ عَثَرَ فِي وَهْدَةِ الْمَحْنَةِ .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ مِنْكُمْ يَوْمَ آتَيْنَاكُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .
بعد انتهاك سِرِّ الْغَيْبِ لَا يُقْبَلُ تَضَرُّعُ الْمَعَاذِيرِ .

ويقال لَا حُجَّةَ بَعْدَ إِزَاحَةِ الْعِلَّةِ، وَلَا عَذْرَ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ .
قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا تَجَرُّعَ مَا مِنْهُ سَقَتْ، وَلَا يَحْصِدُ زَارِعٌ غَلَّةَ مَا مِنْهُ زَرَعَ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا:

سَنَنْتَ فِينَا سَنَنًا قَذَفَ الْبَلَايَا عَقْبَهُ
يَصْبِرُ عَلَى أَهْوَالِهَا مَنْ بِرَّ يَوْمًا رُبَّهُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَيْحٍ إِنْهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ .

صَرَخَ بِالْإِخْبَارِ عِنْدَ اسْتِخْبَارِهِمْ، وَأَغْلِمَ بِمَا يَزِيلُ الشُّبْهَةَ عَمَّا التَّبَسَّ عَلَى جُهَاِلِهِمْ، وَأَكْثَدَ إِخْبَارَكَ بِمَا تَذَكَّرَهُ مِنَ الْقَسَمِ وَالْيَمِينِ، مُضَافًا ذَلِكَ إِلَى مَا تُسَلِّفُهُ مِنَ التَّبْيِينِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ نُضْحُكَ، وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِمْ وَعْظُكَ . . . كَيْفَ لَا؟ وَقَدْ جَرَّعُوا شَرَابَ الْحُجْبَةِ، وَوَسَّموا بِكَيْيِ الْفُرْقَةِ؛ فَلَا بِصِيرَةَ لَهُمْ وَلَا (....) (١) وَلَا فَهَمَ وَلَا حَصَافَةَ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنُوا بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

(١) بياض في الأصل .

لا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَذْلٌ وَلَا سَرَفٌ^(١)، ولا يحصل فيما سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الوَعِيدِ خَلْفٌ .
ولا ندامة تنفعهم وإنْ صَدَقُوا، ولا كرامة تنالهم وإنْ طَلَبُوهَا، ولا ظَلَمٌ يجري عليهم
ولا حيف، كلا... بل هو اللَّهُ الْعَدْلُ في قضائه، الْقَرْدُ في علائه بنعت كبريائه .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

الحادثات بأمرها لله مُلْكًا، وبه ظهوراً، ومنه ابتداء، وإليه انتهاء؛ فقولُه حَقٌّ،
ووعدهُ صِدْقٌ، وأمره حَتْمٌ وقضاؤه بَأْتٌ . وهو الْعَلِيُّ، وعلى ما يشاء قويٌّ .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .
يحيي القلوب بأنوار المشاهدة، ويميت النفوس بأنواع المجاهدة فنفسُ
العابدين تَلْفُها فنون المجاهدات، وقلوب العارفين شَرْفُها عيون المشاهدات .
ويقال يحيي مَنْ أَقْبَلَ عليه، ويميت مَنْ أَعْرَضَ عنه .

ويقال يحيي قلوب قوم بجميل الرجاء، ويميت قلوب قوم بِوَسْمِ القنوط^(٢) .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكُفُّهُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

الموعظة للكافة . . ولكنها لا تنجع في أقوام، وتنفع في آخرين؛ فَمَنْ أَصْغَى
إليها بَسْمَعِ سِرِّهِ اتضح نورُ التحقيق في قلبه، وَمَنْ أَسْمَعَ إليها بنعتِ غَيْبَتِهِ ما اتصف
إلا بدوام حجبته .

ويقال الموعظة لأرباب الغيبة لِيُؤْوُوا، وَالشِّفَاءُ لأصحاب الحضور ليُطِيبُوا .
ويقال «الموعظة»: للعوام، «والشفاء»: للخواص، «والهدى» لخاص الخاص،
«الرحمة» لجميعهم، وبرحمته وَصَلُوا إلى ذلك .

ويقال شفاء كُلِّ أَحَدٍ عَلَى حَسَبِ دَائِهِ، فشفاء المذنبين بوجود الرحمة، وشفاء
المطيعين بوجود النعمة، وشفاء العارفين بوجود القربة، وشفاء الواجدین بشهود
الحقيقة .

ويقال شفاء العاصين بوجود النجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات، وشفاء
العارفين بالقرب والمناجاة .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ .
«الفضل»: الإحسانُ الذي ليس بواجبٍ على فاعله «والرحمة» إرادة النعمة وقيل
هي النعمة .

(٢) القنوط: اليأس .

(١) السرف: مجاوزة الحد .

والإحسان على أقسام كذلك النعمة، ونِعَمُ اللَّهِ أكثر من أَنْ تَحْصِيَ.
ويقال الفضل ما أتاح لهم من الخيرات، والرحمة ما أراح عنهم من الآفات.
ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجزاء الطاعات، ورحمته مَا عَصَمَهُمْ بِهِ مِنْ
ارتكاب الزَّلَّات. ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق.
ويقال فضل الله ما يُخَصُّ بِهِ أَهْلُ الطاعات من صنوف إحسانه، ورحمته يَخَصُّ
بِهِ أَهْلُ الزَّلَّات من وجوه غفرانه.

ويقال فضل الله الرؤية، ورحمته إبقاؤهم في حالة الرؤية.
ويقال فضل الله المعرفة في البداية، ورحمته المغفرة في النهاية.
ويقال فضل الله أَنَّ أَقَامَكَ بِشُهُودِ الطَلَب، ورحمته أَنْ أَشْهَدَكَ حَقَّهُ بِحُكْمِ الْبَيَان
إِلَى أَنْ تَرَاهُ غَدًا بِكَشْفِ الْعَيَان.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَإِنَّكَ لَتَافِتِرُهُمْ﴾ أي بما أَهْلَهُمْ لَهُ، لَا بِمَا يَتَكَلَّفُونَ مِنْ
حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، أَوْ يَصِلُونَ إِلَيْهِ بِنَوْعٍ مِنْ تَكْلِفِهِمْ وَتَعْمَلِهِمْ. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ﴾: أي مَا تُتَحَفُّونَ بِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ الزَّكَايَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ الْوَافِيَةِ.
ويقال الذي لَكَ مِنْهُ - فِي سَابِقِ الْقِسْمَةِ - خَيْرٌ مِمَّا تَتَكَلَّفُهُ مِنْ صُنُوفِ الطَّاعَةِ
وَالْخِدْمَةِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ
مَّا اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرُّونَ﴾.

يَعْتَقُهُمْ وَيَقْرَعُهُمْ^(١) عَلَى مَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَيُظْهِرُ كَذِبَهُمْ فِيمَا
تَقُولُوهُ مِنْ نَسَبَتِهِمْ ذَلِكَ إِلَى إِذْنِ وَشَرِّعِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

هذا على جهة التهويل والتعظيم لما أسلفوه من الكذب.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فِي إِمْهَالِ مَنْ أَجْرَمَ، وَالْعِصْمَةِ لِمَنْ لَمْ
يُجْرِمْ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا فِي السَّمَاءِ
وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

(١) قرّعه: عتقه وأوجعه باللوم والعتاب.

خَوْفَهُمْ بما عرفَهُمْ من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم، ورؤية ما سيفعلونه من فتون أعمالهم. والعَلَمُ بأنه يراهم يوجب استحياءهم منه، وهذه حال المراقبة، والعبد إذا عَلِمَ أن مولاه يراه استحي منه، وترك متابعة هواه، ولا يحوم حول ما نهاه، وفي معناه أنشدوا:

كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ حَالٌ بِمَهْجَتِي إِذَا رُمْتُ تَسْهِيلاً عَلَيَّ تَصَعُّباً
وَأَنشَدُوا:

أَعَاتِبُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي كُلِّ خَضَلَةٍ تَعَاتِبُنِي فِيهَا وَأَنْتَ مُقِيمٌ
﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: وكيف يخفى ذلك عليه، أو يتقاصر علمه عنه، وهو منشئه وموجدُه؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة، وإنما قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: ردَّهم إلى كتابته ذلك عليهم - لعدم اكتفائهم في الامتناع عما نُهِوا عنه - برؤيته وعلمه.

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَىَٰ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾.
الوليُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل، وهو مَنْ تَوَالَّت طَاعَاتُهُ، من غير أن يتخللها عصيان.

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول؛ فيكون الوليُّ مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وأفضاله، ويكون بمعنى كونه محفوظاً في عامة أحواله من المحن.

وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصي فيعصمه الحقُّ - سبحانه - على دوام أوقاته من الزلات.

وكما أن النبيَّ لا يكون إلا معصوماً فالوليُّ لا يكون إلا محفوظاً.
والفرق بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يَلُمُّ بِذَنْبِ الْبَيْتَةِ، والمحفوظ قد تحوَّل منه هَنَات، وقد يكون له - في الندرة - زَلَّاتٌ، ولكن لا يكون له إصرار: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَىَٰ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

حسنٌ ما قيل إنه ﴿لا خوف عليهم﴾: في الدنيا، ﴿ولا هم يحزنون﴾: في العاقبة. ولكن الأولى أن يقال إن الخواص منهم لا خوف عليهم في الحال - لأن حقيقة الخوف توقع محذور في المستقبل، أو ترهب محبوب يزول في المستأنف. - وهم يحكم الوقت؛ ليس لهم تطلع إلى المستقبل. والحزن هو أن تنالهم حُزونة في الحال، وهم في رَوْح الرضا بكل ما يجري فلا تكون لهم حُزونة الوقت. فالوليُّ لا خوف عليه في الوقت، ولا له حزن بحال، فهو بحكم الوقت.

ولا يكون ولياً إلا إذا كان موفّقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات. وكلُّ خُصْلَةٍ حميدة يمكن أن يُعْتَبَرَ بها فيقال هي صفة الأولياء. ويقال الولي مَنْ فيه هذه الخصلة.

ويقال الولي مَنْ لا يُقْصَر في حقِّ الحق، ولا يؤخّر القيام بحق الخلق؛ يطيع لا لخوف عقاب، ولا على ملاحظة حسن مآب، أو تطلع لعاجل اقتراب، ويقضي لكلِّ أحدٍ حقاً يراه واجباً، ولا يقتضي من أحدٍ حقاً له، ولا ينتقم، ولا ينتصف ولا يشمت ولا يحقد، ولا يقلد أحداً مئةً، ولا يرى لنفسه ولا لما يعملُه قذراً ولا قيمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

هذه صفة الأولياء؛ آمنوا في الحال، واتقوا الشُّرك في المآل. ويقال ﴿ءَامَنُوا﴾ أي قاموا بقلوبهم من حيث المعارف. ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف.

ويقال «آمنوا» بتلقي التعريف. «واتقوا»: بالتقوى عن المحرمات بالتكليف.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ أَلْفَوْزٌ الْعَظِيمُ﴾.

القيام بالأمر يدل على الصحة؛ فإذا قاموا بما أمروا به، واستقاموا بِتَرْكِ ما رُجروا عنه بِشَرَّتْهُمْ الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام، وبشَرَّتْهم الحقيقة باستجباب الإكرام، بما كوشفوا به من الإعلام.. وهذه هي البُشرى في عاجلهم. وأما البُشرى في آجلهم: فالحق - سبحانه - يتولّى ذلك التعريف، قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١].

ويقال البشارة العُظْمَى ما يجدون في قلوبهم مِنْ ظَفَرِهِمْ بنفوسهم بسقوط مآربهم، وأيّ مُلْكٍ أتم من سقوط المآرب، والرضا بالكائن؟ هذه هي النعمة العظمية، ووجدان هذه الحالة هو البُشرى الكبرى.

ويقال الفرق بين هذه البشارة التي لهم وبين البشارة التي للخلق أنّ للخلق عِدَّةً بالجميل، والذي له نَقْدٌ ومحصول.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ جَمِيعٌ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

العبد ما دام متفرقاً يضيّق صدره ويستوحش قلبه بما يسمع ويشهد من الأغيار والكفار ما تَقَدَّسَ عنه صفة الحق، فإن صار عارفاً زالت عنه تلك الصفة لتحقيقه بأنّ الحق سبحانه وراء كل طاعة وزلّة، فلا له - سبحانه - من هذا استيحاش، ولا بذلك استئناس.

ثم يتحقق العارف بأن المُجَرِّي لطاعة أرباب الوفاق - الله، والمنشئ لأحوال أهل الشقاق - الله. لا يبالي الحق بما يجري ولا يبالي العبد بشهود ما يجري، كما قيل:

بنو حق قضاوا بالحق صرفاً فَنَعَتْ الخَلْقَ فِيهِمْ مُسْتَعَار
قوله جل ذكره: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

لله مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض ملكاً، ويبيدي عليهم ما يريد، حكماً جزماً؛ فلا لقبوله علة، ولا موجب لردّه زلة، كلا... إنها أحكام سابقة، لم تُوجِبها أجرام لاحقة، ولا طاعات وعبادات صادقة.

قوله جل ذكره: ﴿مُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِلَهَ لَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الليل لأهل الغفلة بُغْدٌ وغيبة، ولأهل الندم توبة وأوبة^(١)، وللمحبين زُلْفَةٌ وقربة؛ فالليل بصورته غير مؤنس، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل:

وكم لظلام الليل عندي من يدٍ تُخْبِرُ أن المانوية تكذب^(٢)
قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الولدُ بعض الوالد، والصمدية تجلُّ عن البعضية، فتزّه الله نفسه عن ذلك بقوله ﴿سبحانه﴾.

ثم إنه لم يعجل لهم العقوبة - مع قبيح قائلهم ومع قدرته على ذلك - تنبيهاً على طريق الحكمة لعباده.

ولا تجوز في وصفه الولادة لِتَوَحُّده، فلا قسيم له، ولا يجوز في نعته التبني أيضاً لِتَفَرُّده وأنه لا شبيه له.

قوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾: الغنى نفى الحاجة، وشهوة المباشرة حاجة، ويتعالى عنها سبحانه.

(١) الأوبة: المرة من الأوب. والأوب: العادة أو الجهة والناحية.

(٢) المانوية: أتباع ماني بن فاتن وهو رجل ظهر في زمن سابور بن أردشير بعد عيسى عليه السلام وادعى النبوة وأحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام، وقال: إن العالم مصنوع من النور والظلمة وأنهما لم يزالا قديمين حساسين سميعين بصيرين. المانوية مذهب تأثر بالبوذية والغنوصية، كما أخذ عن الزرداشتية قضت النصرانية على هذا المذهب حوالي ٥٠٠ م. (صبح الأعشى ١٣/٢٩٨).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

ليس لهم بما هم فيه استمتاع، إنما هو أيام قليلة ثم تتبعها آلام طويلة، فلا قدم لهم بعد ذلك ترفع، ولا ندم ينفع.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذَرْنَا عَلَيْهِمْ نَارًا تُوقَى إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُونَ إِنْ كَانَتْ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾.

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبيه - ﷺ - لما كان يمسه من مقاساة الشدة من قومه، فإن أيام نوح - وإن طالت - فما لبثت كثيراً إلا وقد زالت، كما قيل:

وأحسن شيء في النوائب أنها إذا هي نابت لم تكن خلداً

ثم بين أنه كان يتوكل على ربه مهما فعلوا. ولم يحتشم عبداً - ما وثق بربه - من كل ما نزل به. ثم إن نوحاً - عليه السلام - قال: «إني توكلت على الله»^(١) وهذا عين التفرقة، وقال لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] وهذا عين الجمع فبانت المزية وظهرت الخصوصية.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأِمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

إذا كان عمله لله ثم يطلب الأجر عليه من غير الله، وهكذا سئته في جميع أولياء الله.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبُوا فَتَجَنَّبَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلَيْنِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾.

أغرق قومه بأموال القطرة، وفي الحقيقة أغرقهم بأموال الأحكام والقدرة، وحفظ نوحاً - عليه السلام - وقومه في السفينة، وفي الحقيقة نجّاهم في سفينة السلامة. وكان نوح في سابق حكمه من المحروسين، وكان قومه في قديم قضائه من جملة المغرّقين، فجرت الأحوال على ما جرت به القسمة في الأزل.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

(١) أخرجه أبو داود (أدب ١٠٣)، والترمذي (دعاء ٣٤)، وابن ماجه (دعاء ١٨)، وأحمد بن حنبل ١/

قص عليه - صلوات الله عليه وسلامه - أنباء الأولين، وشرح له جميع أحوال الغابرين، ثم فضله على كافتهم أجمعين، فكانوا نجوماً وهو البدر، وكانوا أنهاراً وهو البحر، ثم به انتظم عقدهم، وبنوره أشرق نهارهم، وبظهوره خيم عددهم، كما قيل:

يَوْمَ وَحَسِبُ الدَّهْرَ مِنْ أَجَلِهِ حَيًّا غَدًا وَالتَّفَتِ الْأَمْسُ

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْئٌ﴾.

ما زادهم الحق سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغياناً، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَهُ في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجاج هدى إلا ويزيد في قلوبهم غمماً، ثم خفي عليهم قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين^(١).

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَعْيِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]: نظروا من حيث كانوا لم يعرفوا طعماً غير ما ذاقوا، وكذا صفة من أقصته السوابق، وردته المشيئة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ركنوا إلى تقليد آبائهم فيما عليه كانوا، واستحبوا استدامة ما عليه كانوا... فلحقهم شؤم العقيدة وسوء الطريقة حتى توهموا أن الأنبياء عليهم السلام إنما دعوهم إلى الله لتكون لهم الكبرياء على عباد الله، ولم يعلموا أنهم إنما دعوهم إلى الله بأمر الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾.

لما استعان في استدفاع ما استقبله بغير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تَبَرَّأ منهم وتوعدهم بقوله: لأفعلن ولأصنعن، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت في غير الله فإنها تؤول إلى العداوة والبغضة، قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أمرهم أمراً يُظْهِرُ به بطلانهم ليدخل الحق على ما أتوا به من التمويه، فلذلك قال موسى عليه السلام: «إن الله سيبطله»؛ فلما التفت عصا موسى - جميع ما جاءوا به من جبالهم وعصيتهم - حين قلبها الله حية... علموا أن الله أبطل تلك الأعيان وأفناها.

قوله جل ذكره: ﴿وَيُخَيِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكَلِّمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُعْرِضُونَ﴾.

من جملة ما أحقه أن السحرة كان عندهم أنهم يَنْصُرُونَ فرعون ويحيونه فكانوا يُقْسِمُونَ بِعِزَّتِهِ حيث قالوا «بِعِزَّةِ فرعون إنا لنحن الغالبون» وقال الحق - سبحانه: بعزتي إنكم لمغلوبون، فكان على ما قال تعالى: دون ما قالوه، وفي معناه قالوا:

كم رَمَتْنِي بِأَسْهُمٍ صَائِبَاتٍ وَتَعَمَّدَتْهَا بِسَهْمٍ فطاشا
قوله جل ذكره: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِم أَن يَقْبَلَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أهل الحقيقة في كل وقت قليل عددهم، كبير عند الله خطرهم.
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُومٌ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾.
بين أن الإيمان ليس من حيث الأقوال.. بل لا بد فيه من صدق الأحوال قصداً.
وحقيقة التوكل توصل تقديمه متصلاً، ثم يعلم أنه بفضل - سبحانه - تحصل نجاته، لا بما يأتي به من التكلف - هذه هي حقيقة التوكل^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.
تبرأنا مما مِنَّا مِنَ الحُزْلِ والمُتَّةِ، وتحققنا بما منك من الطُول والمِئَّةِ.
فلا تجعلنا عرضةً لسهام أحكامك في عقوبتك بانتقامك، وأرحمنا بلطفك وإكرامك، ونجنا مِمَّنْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ فَأَذَلَّلْتَهُمْ، وبِكَيْ فراقك وَسَمْتَهُمْ^(٢).
قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَكُسِّرِ الْقُرْآنَ﴾.

مهذ إليهم لعبادتنا محال وهي نفوسهم، ولمعارفنا منازل وهي قلوبهم، ولمحبتنا مواضع وهي أرواحهم، ولمشاهدتنا معاهد وهي أسرارهم؛ فنفس العابدين بيوت الخدمة، وقلوب العارفين أوطان الحشمة، وأرواح المهيمين مشاهد المحبة، وأسار الموحيين منازل الهيبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن التوكل بالرسالة ص ١٦٢.

(٢) الآية (٨٦) لم ترد.

لما يئس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإنزال السخطة وإذافة الفرقه. ومن المعلوم أن الأنبياء - عليهم السلام - من حقهم العصمة، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قِبَل الله تعالى في الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَمَنَّآ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود، ولا ينسقط الاستعجال من القلب إلا بوجودان السكينة فيه، ولا تكون تلك السكينة إلا بحسن الرضاء بجميع ما يبدو من الغيب.

ويقال ينبغي للعبد أن يستقل بالله ما أمكنه فعند هذا يقل دعاءه. ثم إذا دعا بإشارة من الغيب - في جوازه - فالواجب ألا يستعجل، وأن يكون ساكن الجأش.

ويقال من شرط الدعاء صدق الافتقار في الابتداء، ثم حُسْن الانتظار في الانتهاء، وكمال هذا الرضاء بجريان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار.

ويقال الاستقامة في الدعاء سقوط التقاضي على الغيب، والخمود عن الاستعجال بحسن الثقة، وجميل الظن.

ويقال في الآية تنبيه على أن للأمور آجالاً معلومة، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسوم في الوقت المعلوم.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَقًّا إِذْ أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

حَمَلَتِ الْعِزَّةُ فِرْعَوْنَ عَلَى تَقَحُّمِ الْبَحْرِ عَلَى إِثْرِهِمْ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ الْهَلَاكُ حَمَلَتْهُ ضَرُورَةُ الْحِيلَةِ عَلَى الاستعاذة، فلم ينفعه ذلك لفوات وقت الاختيار.

ويقال لما شهد صَوْلَةُ التقدير أفاق من سُكْرِ الغلطة، لكن: «بعد شهود البأس لا ينفع التخاشع والابتاس».

قوله جل ذكره: ﴿ءَالْتَمَنَّا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أَبْعَدَ طَوْلُ الإِمْهَالِ، والاصرار على ذميم الأفعال، والرَّكُضِ في ميدان الاغترار، وانقضاء وقت الاعتذار؟! هيهات! لقد استوجبت أن تُرَدَّ في وجهك، فلا لِعُذْرِكَ قَبُولٌ، ولا لَكَ إلى ما ترومه وصول.

قوله جل ذكره: ﴿قَالِ يَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ﴾.

لنُشِيرَنَّ تَعْدِيكَ، ونُظْهِرَنَّ - لِمَنْ اسْتَبَصَرَ - تَأْدِيكَ، لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ عِبْرَةً، وتزداد حين أَفْقَتَ أَسْفًا وحسرةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَازِلَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْعَلَيْكِ فَمَا أَخْلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أَذَلَّلْنَا لَهُمُ الْيَاسَ، وأكثرنا لديهم الإنعام، وأكرمنا لهم المقام، وأتخنا لهم فنون الحسان، وأدمننا لهم جميع الخيرات... فلما قابلوا النعمة بالكفران، وأصروا على البغي والعدوان أذقناهم سوء العذاب، وسدّنا عليهم أبواب ما فتحنا لهم من التكرم والإيجاب، وذلك جزاء مَنْ حَادَ عن طريق الوفاق، وجَنَحَ إلى جانب الشقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

ما شكّ - ﷺ - فيما عليه أنزل، ولا عن أحدٍ منهم ساءل، وإنما هذا الخطاب على جهة التحويل، والمقصود منه تنبيه القوم على ملازمة نهج السبيل.

ويقال صفة أهل الخصوص ملاحظة أنفسهم وأحوالهم بعين الاستصغار.

ويقال فإن تَنَزَّلَتْ منزلة أهل الأدب في ترك الملاحظات فسل عمن أرسلنا قبلك فهل بلغنا أحداً منزلتك؟ وهل خَصَصْنَا أحداً بمثل تخصيصك؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ما كان منهياً عنه، وكان قبيحاً فبالشرع كان قبيحاً، فلا بد من ورود الأمر به حتى تكون منه طاعة وعبادة. وإنما لم يَجْزُ في صفته - ﷺ - التكذيب بآيات الله؛ لأنه نُهي عنه لا لكونه قبيحاً بالعقل حتى يقال كيف نُهي عنه وكان ذلك بعيداً منه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فالأعداء^(١) حَقَّتْ عليهم كلمة بالعقاب، والأولياء حقت عليهم كلمة بالشواب؛ فالكلمة أزلية، والأحكام سابقة، والأفعال في المستأنف على ممر الأوقات على موجب القضية لاحقة، فالذين نصيبهم من القسمة الشقوة لا يؤمنون وإن شاهدوا كل دلالة، وعاینوا كل معجزة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِثَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قوم يونس تداركتهم الرحمة الأزلية فيما أجرى عليهم من توفيق التضرع،

(١) الآية (٩٧) لم ترد.

فَكَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَصَرَفَ عَنْهُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِقَابَةِ بَعْدَ مَا عَانُوا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ؛ فَبِرَحْمَتِهِ وَصَلُوا إِلَى تَضَرُّعِهِمْ، لَا بِتَضَرُّعِهِمْ وَصَلُوا إِلَى رَحْمَتِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

كيف يعتصي عليه سبحانه مراد - والذي يبقى شيء عن مراده ساء أو مغلوب؟ والذي يستحق جلال العزة لا يفوته مطلوب.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَأَنَّ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لا يمكن حمل الإذن في هذه الآية إلا على معنى المشيئة؛ لأنه للكافة بالإيمان، والذي هو مأمور بالشيء لا يقال إنه غير مأذون فيه. ولا يجوز حمل هذه الآية على معنى أنه لا يؤمن أحد إلا إذا ألجأ الحق إلى الإيمان واضطره - لأن موجب ذلك ألا يكون أحد في العالم مؤمناً بالاختيار، وذلك خطأ، فدل على أنه أراد به إلا أن يشاء الله أن يؤمن هو طوعاً. ولا يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحد أن يؤمن طوعاً ثم لا يؤمن؛ لأنه يبطل فائدة الآية، فصَحَّ قول أهل السنة بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الأدلة - وإن كانت ظاهرة - فما تُغني إذا كانت البصائر مسدودة، كما أن الشمس - وإن كانت طالعة - فما تُغني إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل:

وما انتفاع أخي الدنيا بمقلته إذا استوت عند الأنوار والظلم؟
قوله جل ذكره: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ يَوْمَ الْفُتُورِ﴾.

تمني أطاف أنوار الحقيقة تعن في تسويل، واستناد إلى غير تحصيل، وتماد في تضليل.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.
حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا﴾ ها هنا معناها «مثلاً»، فلا شيء يجب على الله لكونه إلهاً ملكاً، فيجب الشيء من الله - لصدقه - ولا يجب عليه - لِعِزَّتِهِ.

وكما لا يجوز أن يَدْخُلَ نبيٌّ من الأنبياء - عليهم السلام - في النار لا يجوز أن يُخَلَّدَ واحدٌ من المؤمنين في النار لأنه أخبر أنه يُنْجِي الرسلَ والمؤمنين جميعاً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

إن كنتم في غطاء الرئيب فانا في ضياء من الغيب، إن كنتم في ظلمة الجهل فانا في شمس الوضيل، إن كنتم في سدة الضلالة فانا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة.

ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق: فأنتم وقعتم في هدة العوج، وأنا ثابت على سواء النهج.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْ أَقْدَرُ مِنْكَ لِلَّذِينَ حَبِيبًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾.

أي أخلص قلبك للذين، وجرد قلبك عن إثبات كل ما لحقه قهر التكوين، وكن مائلاً عن الزيف والبدع، داخلاً في جملة من أخلص في الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

لا تعبد ما لا تنفعك عبادته ولا تضرَّك عبادته، وتلك صفة كل ما يعبد من دون الله. واستعانة الخلق بالخلق تمحيق للوقت بلا طائل؛ فمن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً كيف يستعين به من هو في مثل حاله؟ وإذا انضاف الضعيف إلى الضعيف ازداد الضعف.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

كما تفرد بإبداع الضر واختراعه فلا شريك يعضده.. كذلك توحد بكشف الضر وصرفه فلا نصير ينجده.

ويقال هوَّن على المؤمن الضر بقوله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ حيث أضافه إلى نفسه، والحنظل يستلذ من كف من تحبه.

وفرق بين الضر والخير بإضافة الضر إليه فقال: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولم يقل: وإن يردك بضر - وإن كان ذلك الضر صادراً عن إرادته - وفي ذلك من حيث اللفظ دقة.

ويقال: عذب الضر حيث كان نفعه؛ فلما أوجب مقاساة الضر من الحرب أبدل مكانه السرور والطرب.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

مَنْ استَبَصَّرَ رِيحَ رُشْدٍ نَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَقَدْ زَاغَ عَنْ قُضْدِهِ؛ فِهَذَا بَلَاءٌ اِكْتَسَبَ، وَذَلِكَ ضِيَاءٌ وَشِفَاءٌ اِجْتَلَبَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

قِفْ عِنْدَ جَرِيَانِ أَحْكَامِنَا، وَانْسَلِخْ عَنِ مَرَادِكِ الْكَلِيَّةِ، لِيُنْجِرِيَ عَلَيْكَ مَا يَرِيدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

السورة التي يذكر فيها هود عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه كلمة استولت على عقول قوم فَبَصَّرْتَهَا، وعلى قلوب آخرين فَجَرَدْتُهَا،
فالتى بَصَّرْتُهَا فبنور برهانه، والتي جَرَدْتُهَا فبقهر سلطانه. . فعالمٌ سَلَكَ سَبِيلَ بحثه
واستدلّاه فَسَكَنَ لَمَّا طَلَعَتْ نَجُومُ عقله تحت ظلال إقباله، وعارِفٌ تعرَّضَ إلى وصاله
فطاح لَمَّا لاحَت لَمَعَةٌ ممن تقدَّس بالإعلام باستحقاق جلاله.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿الرَّ كَنُتْ أَخَكَمْتُ ءَايَتُهُمْ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾.

الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية.

واللام إشارة إلى لُطْفِهِ بأهل التوحيد.

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البرية.

وهي في معنى الْقَسَمِ: أي أقسم بانفرادي بالربوبية ولطفي بمن عَزَفَنِي
بالأحدية، ورحمتي على كافة البرية - إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ أَخَكَمْتُ آيَاتُهُ.

ومعنى ﴿أَخَكَمْتُ ءَايَتُهُمْ﴾: أي حَفِظْتُ عن التبديل والتغيير، ثم فَصَّلْتُ ببيان نعوتِ
الحقِّ فيما يتصف به من جلال الصمدية، وتعبَّد به الخلق من أحكام العبودية، ثم ما
لاح لقلوب الموحِّدين والمحبين من لطائف القربة، في عاجِلِهِم البُشرى بما وَعَدَهُم به
من عزيز لقائه في آجِلِهِم، وخصائصهم التي امتازوا بها عَمَّن سِوَاهُمْ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرَّ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي فَصَّلْتُ آيَاتُهُ بآلا تعبدوا إلا الله.

ويقال معناه في هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله، إني لكم منه «نَذِيرٌ» مبينٌ
بالفرقة، «وبَشِيرٌ» بدوام الوصلة، (فالفرقة بل في عاجله واحداً).

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ﴾.

استغفروا رَبَّكُمْ أولاً ثم توبوا إليه بعده.

والاستغفار طلب المغفرة، يعني قبل أن تتوبوا اطلبوا منه المغفرة بحسن النَّظَرَةِ،

وَحَمَلَ الرِّجَاءَ وَالثَّقَةَ بِأَنَّهُ لَا يُخَلِّدُ الْعَاصِيَ فِي النَّارِ، فَلَا مُحَالَةَ يُخْرِجُهُ مِنْهَا. . فابْتَدِئُوا بِاسْتِغْفَارِكُمْ، ثُمَّ تَوَبُوا بِتَرْكِ أَوْزَارِكُمْ، وَالتَّنَقُّيْ عَنْ إِصْرَارِكُمْ.

وَيَقَالُ اسْتَغْفِرُوا فِي الْحَالِ مِمَّا سَلَفَ، ثُمَّ إِنَّ أَلَمَّكُمْ بِزَلَّةٍ أُخْرَى فِتَبَّوْا. وَيَقَالُ اسْتَغْفِرُوا فِي الْحَالِ ثُمَّ لَا تَعُودُوا إِلَى ارْتِكَابِ الزَّلَّةِ فَاسْتَدِيمُوا التَّوْبَةَ - إِلَى مَا لَكُمْ - مِمَّا أَسْلَفْتُمْ مِنْ قَبِيحِ أَعْمَالِكُمْ.

وَيَقَالُ ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾: الْاسْتِغْفَارُ هُوَ التَّوْبَةُ، وَالتَّنَقُّيْ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، ثُمَّ «تَوَبُوا» مَنْ تَوَّهْمَ أَنَّكُمْ تُجَابُونَ بِتَوْبَتِكُمْ، بَلْ اَعْلَمُوا أَنَّهُ يُجِيبُكُمْ بِكَرَمِهِ لَا بِأَعْمَالِكُمْ. وَيَقَالُ «الاسْتِغْفَارُ»: طَلَبُ حُظُوظِكُمْ مِنْ عَفْوِنَا. . فَإِذَا فَعَلْتُمْ هَذَا فَتَوَبُوا عَنْ طَلَبِ كُلِّ حِظٍّ وَنَصِيبٍ، وَارْجِعُوا إِلَيْنَا، وَاكْتَفُوا بِنَا، رَاضِينَ بِمَا تَحُوزُونَهُ مِنَ التَّجَاوُزِ عَنْكُمْ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَخْرِجُكُمْ بِهِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَمُتُّكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أَيُّ نَعْيَشْكُمْ عَيْشًا طَيِّبًا حَسَنًا مَبَارَكًا.

وَيَقَالُ هُوَ إِعْطَاءُ الْكَفَايَةِ مَعَ زَوَالِ الْحَرَصِ.

وَيَقَالُ هُوَ الْقَنَاعَةُ بِالْمَوْجُودِ.

وَيَقَالُ هُوَ أَلَّا يَخْرِجَهُ إِلَىٰ مَخْلُوقٍ، وَلَا يَجْعَلُ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ مِثَّةً لَا سِيَمًا لِلثِّمِ.

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ يَوْفِقَهُ لِاصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ إِلَى الْمُسْتَحْقِينَ.

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ تُقْضَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ حَوَائِجُ النَّاسِ.

وَيَقَالُ هُوَ أَلَّا يَلْمَ فِي حَالِ شِبَاهِهِ بِزَلَّةٍ، وَأَلَّا يَتَصَفَّ بِأَنَّهُ عَنْ اللَّهِ فِي غَفْلَةٍ.

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ نَوْعِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَرَوَّيْتُ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

كَبِيرٍ﴾.

مَنْ زَادَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ أَعْطَاهُ جَزَاءً مَا فَضَّلَ لَهُ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَمَنْ زَادَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ كَافَاهُ بِمَا يَسْتَوْجِبُهُ مِنْ زِيَادَةِ السَّيِّئَاتِ. . . هَذَا بَيَانُ التَّفْسِيرِ.

وَيَقَالُ مَنْ فَضَّلَهُ بِحَسَنِ تَوْفِيقِهِ أَوْصَلَهُ إِلَى مَا يَسْتَوْجِبُهُ مِنْ لُطْفِهِ وَيَزِيدُهُ. .

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ يَسْتَرَّ عَلَيْهِ فَضْلُهُ حَتَّى لَا يَلَاحِظَ حَالَهُ وَمَقَامَهُ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ،

وَمَا مِنْهُ وَمَا لَهُ. . بِعَيْنِ الْاسْتِحْقَارِ وَالْاسْتِصْغَارِ.

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ يَرْقِيَهُ عَنِ التَّعْرِيجِ فِي أَوْطَانِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى طَاعَاتِ شُهُودِ الْأَحْدِيَّةِ،

وَيُنْقِيَهُ عَنْ (.....) ^(١) الْبَشَرِيَّةِ، وَالتَّكْدُرِ بِمَا يَبْدُو مِنْ مَفَاجَأَتِ التَّقْدِيرِ.

ويقال هو ألا يُوجِّهَ شيء بما يجري في الوقت .

ويقال هو أن يُحَقَّقَ له ما تسمو إليه همته، ويُبَلِّغَهُ فوق ما يستوجبه محلّه .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

تنقطع الدعاوى عند الرجوع إلى الله، وتنتفي الظنون، ويحصل اليأس من غير الله بكل وجه، ويبقى العبدُ بنعتِ الاضطرار، والحق يُجْزِي عليه ما سَبَقَتْ به القسمة من أنواع الأقدار .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ السُّدُورِ﴾ .

أي يسترون ما تنطوي عليه عقائدهم، ويضمّرون للرسول - عليه السلام - وللمؤمنين خلاف ما يُظْهِرون، والحق - سبحانه - مُطَّلِعٌ على قلوبهم، ويعلم خفايا صدورهم، فتلبسهم لا يُغْنِي عنهم من الله شيئاً، وكان الله - سبحانه - يُطَّلِعُ رسوله - عليه السلام - على ما أخْفَوْهُ إمّا بتعريف الوحي، أو بإشهاد لِقْوَةِ نور، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراصة، فكل مؤمن له بِقَدَرٍ حاله من الله هداية، قال ﷺ: «اتقوا فراصة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله»^(١) ولقد قال قائلهم .

أَبْعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بِفُؤَادِي؟ كل ما في الفؤاد للعين باد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ .

أراح القلوب من حيرة التقسيم، والأفكار من نَصَبِ التفكير في باب الرزق. حيث قال: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فَسَكَنَتِ الْقُلُوبُ لِمَا تَحَقَّقَتْ أَنَّ الرزق على الله .

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحانوتِ في غَلَطٍ من حسبانهِ . ثم إن الله سبحانه بيّن أَنَّ الرزق الذي «عليه» ما حاله فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وما كان في السماء لا يوجد في السوق، ولا في التّطواف في الغرب والشرق .

ويقال الأرزاق مختلفة فَرِزْقُ كل حيوانٍ على ما يليق بصفته .

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧)، وأبو حنيفة في (المسند ١/١٨٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٩٤/٤، ١١٨/٦)، والطبراني في (المعجم الكبير ٨/١٢١)، (البغوي ١٤/٣١)، وابن كثير في (التفسير ١/٤٧٩، ٤/٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٥٤٤، ٧/٢٥٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٢/٣٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٧٣٠)، وابن حجر في (لسان الميزان ٥/١١٥٤)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٨٠٩٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/٤٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/١٠٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/١٢٩) .

ويقال للنفوس رزق هو غذاء طريقه الخلق، وللقلوب رزق وهو ضياء موجد الحق.

ويقال لم يقل ما يشتهي أو مقدار ما يكفيه بل هو موكول إلى مشيئته؛ فمن موسع عليه ومن مقتر.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمَ مُنْقَرَمًا وَمُسْتَوْدَعًا كُلَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

قيل أراد به به أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، أو الدنيا والآخرة. ويقال مستقر المريد بباب شيخه كمستقر الصبي بباب والديه. ويقال مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد، فالمساجد مستقر نفوس العابدين، والمشاهد مستقر قلوب العارفين.

ويقال مستقر المحب رأس سكة محبوبه لعله يشهده عند عبوره.

ويقال المساجد للعبدين مستقر القدم، والمشاهد للعارفين مستقر الهمم، والفقراء مستقرهم سدة الكرم.

ويقال الكل له مثنوى ومستقر، أما الموحد فإنه لا مأوى له ولا مستقر ولا مثنوى ولا منزل.

ويقال النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قبل الله.

ويقال القلوب مستودع المعرفة؛ فالمعرفة وديعة فيها. والأرواح مستودع المحبة فالمحبات ودائع فيها. والأسرار مستودع المشاهدات فالمشاهدات ودائع فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وأحسن الأعمال موافقة الأمر، ولم يقل أكثر عملاً.

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبه أشد إخلاصاً فيه.

ويقال أحسنهم عملاً أبعدهم عن ملاحظة أعماله.

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار.

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلب صاحبه عليه عوضاً.

ويقال أحسن الأعمال ما غاب عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود.

قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ الابتلاء من قبله تعريف الملائكة حال من يبتليه في الشكر عند اليسر والصبر عند العسر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

استبعدوا الشّر لتفاضر علومهم عن التحقق بكمال قدرة الحق، ولو عرفوا ذلك

لَا يَقْنُتُوا الْبَعْثَ لَيْسَ بِمُعْتَصِرٍ فِي الْإِبْجَادِ وَلَا يُمْسَحِلُ فِي التَّقْدِيرِ .
قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أَنُتَوَّعِدُوهُ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ إِلَّا يَوْمَ
يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

يقول: إِنْ أَمَهَلْنَا، وَأَخْرَأْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ لَا يَزْعَوُونَ، بَلْ يَسْتَعْجِلُونَ الْعُقُوبَةَ .
وَلَيْنَ عَجَّلْنَا لَهُمُ الْعُقُوبَةَ لَا يَتُوبُونَ وَلَا يَسْتَغْفِرُونَ . . . اسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْجَهْلُ فِي
الْحَالِيزِ، وَعَمِيَتْ بِصَائِرِهِمْ عَنْ شُهُودِ التَّقْدِيرِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ فِي النُّوعَيْنِ . وَيَوْمَ
يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَلَا مَنَاصَ وَلَا مَنَاجَاةَ وَلَا مَرَاخَ لَهُمْ مِنْهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ
كَفُورًا﴾ .

تَكْذُرُ مَا صَفَا مِنَ النِّعَمِ، وَتَغْيِرُ مَا أُتِيحَ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْمِنَّةِ حَالٍ مَعْهُدَةٍ وَخُطَّةٍ
عَامَةٍ، فَلَا أَحَدَ إِلَّا وَلَهُ مِنْهَا خِطَّةٌ^(١) فَمَنْ لَمْ يَرْجِعْ بِالتَّأْسُفِ قَلْبَهُ، وَلَمْ يَتَضَاعَفْ فِي
كُلِّ نَفْسٍ تَلَهُّفُهُ وَكَرْبُهُ فِي دِيْوَانِ النِّسْيَانِ، وَأُثْبِتَ اسْمُهُ فِي جَمَلَةِ أَهْلِ الْهَجْرَانِ . وَمَنْ
اسْتَمْسَكَ بِعُرْوَةِ التَّضَرُّعِ، وَاعْتَكَفَ بِعُقُوبَةِ التَّذَلُّلِ، احْتَسَى كَاسَاتِ الْحُسْرَةِ عُذْلًا بَعْدَ
نَهْلِ طَاعَتِهِ لِلْحَقِّ بِنَعْتِ الرَّحْمَةِ، وَجَدَّ لَهُ مَا انْدَرَسَ مِنْ أَحْوَالِ الْقُرْبَةِ، وَأُطْلِعَ عَلَيْهِ
شَمْسَ الْإِقْبَالِ بَعْدَ الْأَفُولِ وَالْغَيْبَةِ، كَمَا قِيلَ .

تَقَشَّعَ غَيْمُ الْهَجْرِ عَنْ قَمَرِ الْحَبِّ وَأَشْرَقَ نَوْرُ الصَّبْحِ فِي ظِلْمَةِ الْغَيْبِ
وَلَيْسَ لِلْأَحْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ خَطَرٌ فِي التَّحْقِيقِ، وَلَا يُعَدُّ زَوَالُهَا وَتَكْذُرُهَا مِنْ جَمَلَةِ
الْمَحْنِ عِنْدَ أَرْبَابِ التَّحْصِيلِ، لَكِنَّ الْمَحْنَةَ الْكُبْرَى وَالرِّزْيَةَ الْعَظْمَى ذَبُولُ غَصَنِ
الْوَصَالِ؛ وَتَكْذُرُ مَشْرَبِ الْقُرْبِ، وَأَفْوَلُ شَوَارِقِ الْأُنْسِ، وَرَمَدُ بَصَائِرِ أَرْبَابِ
الشُّهُودِ . . . فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُومُ قِيَامَتُهُمْ، وَهَنَّاكَ تُسْكِبُ الْعَبْرَاتِ . وَيُقَالُ إِذَا نَعَقَ فِي
سَاحَاتِ هَوْلٍ غَرَابُ الْبَيْنِ ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ نَوَاحُ أَسْرَارِهِمْ بِالْوَيْلِ، وَمِنْ جَمَلَةِ مَا
يَبْثُونَ نَحِيْبِهِمْ مَا قُلْتُ :

قَوْلَا لَمِنْ سَلَبَ الْفَوَازَ فِرَاقُهُ	وَلَقَدْ عَهِدْنَا أَنْ يُبَاحَ عِتَاقُهُ
بَعْدَ الْفِرَاقِ . . . فَبِالَّذِي هُوَ بَيْنَنَا	هَلَّا رَحِمْتُمْ مَنْ دَنَا إِزْهَاقُهُ؟
عَهْدِي بِمَنْ جَعَلَ الْهُوَى أَزْمَانُ كُـ	نَا بِالصَّبَابَةِ - لَا يَضِيقُ نِطَاقُهُ
وَالْآنَ مُذْ بَخِلَ الزَّمَانُ بِوَصْلَانَا	ضَاقَ الْبَسِيطَةُ حِينَ دَامَ فِرَاقُهُ

(١) الْخُطَّةُ: الْحَالُ وَالْأَمْرُ وَالْخُطْبُ، وَالْخُطَّةُ: الْأَرْضُ تَنْزُلُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْزِلَهَا نَازِلٌ قَبْلَ ذَلِكَ وَقَدْ خَطَّهَا
لِنَفْسِهِ خَطًّا وَاخْتَطَّهَا وَهُوَ أَنْ يَعْلَمَ عَلَيْهَا عِلَامَةً بِالْخَطِّ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ احْتَازَهَا لِيَبْنِيهَا دَارًا . (لسان
العرب ٢٨٨/٧ - ٢٩٠) .

هل تُرْتَجَى من وصل عِزُّكَ رجعةً تحنو على قمرٍ يدوم محاقه؟
 إن كان ذاك كما تروم فأخبروا أئلى له أن يعودَ شروقه؟
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

إذا كشفنا الضرَّ عنهم رحمةً مِنَّا عادوا إلى تهتكهم بدلاً من أن يتقربوا إلينا، وأساءوا بخلع عذارهم بدل أن يقوموا بشكرنا، وكلما اتَّخَنَّا لهم من إمهالنا أميناً لمكرنا، ولم يخافوا أن نأخذهم فجأةً بقهرنا.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الإنسان في الآية السابقة اسم جنس.

ولإلا للاستثناء منه، وقيل بمعنى «لكن»، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا، إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك، أي لكنَّ الذين آمنوا بخلاف ذلك، فإنهم لصبرهم على ما به أمروا، وعما عنه زُجروا، ولمعانقتهم للطاعات ومفارقتهم الزلات.. فلهم مغفرة وأجر، مغفرة لعصيانهم، وأجرٌ على إحسانهم. والفريقان لا يستويان، قال قائلهم.

أخْبَابُنَا شَتَّانَ وَاوٍ وَنَاقِصٌ ولا يستوي قطُّ مُحِبٍّ وَبَاغِضٍ
 قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾.

اقترحوا عليه أن يأتي بكتاب ليس فيه سبُّ آلهتهم، وبين الله - سبحانه - له ألا يترك تبليغ ما أنزل عليه. لأجل كراهتهم، ولا يُبَدَّلُ ما يُوحَىٰ إليه.

قوله جل ذكره: ﴿وَصَاحِقٌ لَهُ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَّا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وهذا على وجه الاستبعاد؛ أي لا يكون منك ترك ما أوجي إليك، ولا يضيق صدرك بما يبدو من الغيب.. ومن شرح الله بالتوحيد صدره، ونور بشهود التقدير سيره - متى يلحقه ضيق صدرٍ أو استكراه أمرٍ؟ ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: أي أنت بالإرسالِ منهوبٌ، وأحكامُ التقدير عليك مُجْرَاءَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ قَاتِلُوا عَشْرَ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

في الآية بيان أنَّ المكلَّفَ مُزَاحَ الْعِلَّةِ لِمَا أُقِيمَ له من البرهانِ وأُهْلَ له من

التحقيق . وأنَّ الإيمانَ بالواسطة - صلى الله عليه وسلم وآله - واجبٌ لما خُصَّ به من المعجزات التي أوضحها الكتابُ المُنزَّلُ والقرآنُ المُفَصَّلُ الذي عجز الكفار عن معارضته .

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ظُلْمًا مِّنَ اللَّهِ أَنزَلَ عَلَيْهِمُ الْغُلُوبَ﴾ .

يعني فإن لم يستجيبوا لكم يعني إلى الإتيان بمثله - وهم أهل بلاغة - فتحققوا أنه من قِبَلِ الله ، وليس على سنة التحقيق (.....) ^(١) إنما العمى في بصائر من ضلُّوا عن الحق ، وتاهوا في سدفه الحيرة .

قوله جلَّ ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ .

مَنْ قَنَعَ مِنْهُمْ بِدُنْيَا الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَشَغِنَا عَلَيْهِ فِي الِاسْتِمْتَاعِ بِأَيَّامِ فِيهَا ، وَلَكِنْ عَقِبَ اكْتِمَالِهَا سِيرَى زَوَالِهَا ، وَيَذُوقُ بَعْدَ عَسَلِهَا حَنْظَلَهَا .

قوله جلَّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَابَتْ آمَالُهُمْ ، وَظَهَرَتْ لَهُمْ - بخلاف ما احتسبوا - آلامُهُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَحَاقَ بِهِمْ سُوءُ حَالِهِمْ .

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى يَتْنٍ مِّن رَّيٍّ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

فيه إضمار ومعناه أفمن كان على يَتْنٍ كمن ليس على بينة .. لا يستويان .
والْبَيِّنَةُ لأقوام برهان العلم ، ولآخرين بيان الأمر بالقطع والجزم ؛ يُشْهِدُهُمُ الْحَقُّ ما لا يطلع عليه غيرهم ، كما قلت :

ليلى من وجهك شمس الضحا (.....) ^(١)

فالناس في الظلمة من ليلهم ونحن من وجهك في الضوء والشاهد

فالذي يتولاه فهو مشاهدٌ ، وفي الخبر «أولياء الله الذين إذا أرادوا ذكر الله.....» ^(٢)

(٢) أخرجه الألباني في (السلسلة الصحيحة ١٧٣٣) .

(١) بياض في الأصل .

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمْسَكْنَهُمْ فَلَمَرَقْنَهُمْ بِسِمْهَةٍ﴾ [محمد: ٣٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

مَنْ ادّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افتري على الله كذباً، واستوجب المقت، وعقوبته ألا يُرزق بركة في أحواله، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبه، فيفضحه بين الخلق، والشهداء قلوب الأولياء، ومن شهدت القلوب عليه بالردّ فهو غير مقبول عند الحقّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية.

هذا من جملة صفات المفترين على الله الكذب، ومن صدّهم عن السبيل أن يُظهروا من أنفسهم أحوالاً تُخلّ بأحكام الشريعة، ولا يرون ذلك كبيرة في الطريقة، ويوهمون المستضعفين من أهل الاعتراض عليهم أن لهم في ذلك رخصة، فيضلّون ويضلّون. ومن جملة صدّهم عن السبيل تفريرهم بالناس، وإيقاعهم في الغلط، ويرتفقون بشيء مما في أيديهم من حطام الدنيا، ولا يستحون من أخذ شيء لا يستوجبونه بأي وجه حقّ، ويداهنون في دين الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية.

من هذه^(١) صفتهم لا يربحون في تجارتهم، ولا يلحقون غاية طلبوها؛ فيبقون عن الحق، ولا يبارك لهم فيما اعتاضوا من صحبة الخلق. خسرث صفتهم، وبازث بضاعتهم، لقوا الهوان، وذاقوا اليأس والحرمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾.

لا محالة أنهم في الآخرة أشدّ خسراناً، وأوفر - من الخيرات - نقصاناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا﴾.

الإخباتُ التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار، ومن علامته الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستغاثة بالسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى... وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ...﴾

الآية.

مثل الكافر في كفره كالأعمى والأصم، ومثل المؤمن في إيمانه كالسميع والبصير - هذا بيان التفسير.

والإشارة فيه أن الأعمى من عَمِيَ عن الإبصار بصره، والأصم الذي طرّش بسمع

قلبه؛ فلا باستدلاله شهيد سر تقديره في أفعاله، ولا بنور فراسة توهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه، ولا بسمع القبول استجاب لدواعي الشريعة، ولا بحكم الإنصاف انقاد لما يتوجب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسْرِهِ من تلويحات الحقيقة.

وأما البصير فهو الذي يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين، ويشهد صفاته بعين اليقين، ويشهد ذاته بحق اليقين، والغائبات له حضور، والمستورات له كشف. فالذي يسمع فَصِيَّتَهُ ألا يسمع هواجس النَّفْسِ ولا وساوس الشيطان؛ فيسمع من دواعي العلم شرعاً، ثم من خواطر التعريف قدراً، ثم يكشف بخطاب من الحق سِرّاً^(١).
فهؤلاء لا يستويان، ولا في طريق يلتقيان:

رَاحَتْ مُشْرِقَةٌ وَرُخْتُ مُغْرِبًا فَمَتَى التَّقَاءُ مُشْرِقٍ وَمُغْرِبٍ؟!
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ إِلِيمٍ﴾.

كان نوح عليه السلام أطول الأنبياء عُمرًا وأشدَّهم بلاءً، وسمي نوحاً لكثرة تَوَجُّهٍ على نفسه.. وسبب ذلك أنه مرَّ بكلِّ فقال: ما أقبحه! فأوحى الله إليه أن اخلق أنت أحسن من هذا. فأخذ يبكي وينوح على نفسه كلَّ ذلك التَّوْح. فكيف بحال مَنْ لم يذكر يوماً مما مضى من عمره في مدة تكليفه - ولم يحصل منه لله كثير من ولاية؟!.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

أنكروا صحة كونه نبياً لمشاكلته إياهم في الصورة، ولم يعلموا أن المباني بالسريرة لا بالصورة.

ثم قال: ﴿وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾: نظروا إلى أتباعه نَظْرَةً استصغارٍ، ونَسَبُوهم إلى قِلَّةِ التحصيل.. وما استصغر أحدٌ أحدًا من حيث رؤية الفضل عليه إلا سَلَطَ اللُّهُ عليه، وأذاقه ذُلَّ صَغَارِهِ، فبالمعاني يحصل الامتياز لا بالمباني:

تري الرجل النحيف فتزدريه وفي أنسوابه أسد هصور

(١) انظر الرسالة القشيرية عن حديث القشيري عن السماع ص ٣٣٥.

فإن أک فی شرارکم قليلاً فإني في خيارکم كثير
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَاقُوتَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَوٍ مِنْ رَبِّي وَآلَتْنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي
فَعَبَّيْتَ مَلَائِكَتِي أَلَّا يَكُونُوا نَارًا فَتَلْزَمُوهَا وَأَتَتْهَا كَذِبُونَ﴾.

الصُّبْحُ لَا خَلَلَ فِي ضِيَائِهِ لِيَكُونَ النَّاظِرِينَ عَمِياناً، وَالسَّيْفُ لَا خَلَلَ فِي مَضَائِهِ
لِيَكُونَ الضَّارِبِينَ صَبِيحَاناً... وَكَيْفَ لِيُشِيرَ مِنْ قَدَرَةٍ عَلَى هِدَايَةِ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ - وَلَوْ كَانَ
نَبِيّاً؟

هيئات لا ينفع مع الجاهل نُضْحٌ، وَلَا يَنْجِعُ فِي الْمَصِيرِ وَعِظٌ!
قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَنْتَوٍ لَا أَتْلُوكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقَوْنَ رَبِّهِمْ وَلَكِنْفَتَ أَرْكَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾.

سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَلَا يَطْلُبُوا عَلَى رِسَالَتِهِمْ أَجْرًا، وَأَلَّا يُؤْمَلُوا
لِأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ قَدْرًا، عَمَلُهُمْ اللَّهُ لَا يَطْلُبُونَ شَيْئاً مِنْ غَيْرِ اللَّهِ. فَمَنْ سَلَكَ مِنْ
الْعُلَمَاءِ سَبِيلَهُمْ خَشِرَ فِي زِمْرَتِهِمْ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى صِلَاحِهِ مِنْ أَحَدٍ عِوَضًا، أَوْ اكْتَسَبَ
بِسَدَادِهِ جَاهًا لَمْ يَزَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا هَوَانًا وَصَغَارًا،

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَنْتَوٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.
مَجَالِسَةُ الْفُقَرَاءِ الْيَوْمَ - وَهُمْ جُلَسَاءُ الْحَقِّ غَدًا - أَجْدَى مِنْ مَجَالِسَةِ قَوْمٍ مِنْ
الْأَغْنِيَاءِ هُمْ مِنْ أَهْلِ الرَّدِّ.

وَمَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَهُ اللَّهُ وَأَدْنَاهُ اسْتَوْجِبَ الْخِزْيَ فِي دُنْيَاهُ، وَالصُّغَارَ فِي عَقْبَاهُ..
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٌ﴾.

لَا أَتَخْطِي خَطِيئَةً عَمَّا أَبْلَغْتَ مِمَّا حَمَلْتُ مِنْ رِسَالَتِي، وَلَا أَتَعْدِي مَا كُفِّتُ بِهِ،
وَلَا أَزِيدُ عَمَّا أُمِرْتُ، وَلَنْ أَخْرَجَ عَنِ الَّذِي أَنْبَأُونِي، بَلْ أَنْتَصِبُ بِشَاهِدِي فِيمَا أَقَامُونِي.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي
أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الْظَالِمِينَ﴾.

إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي أَثْوَابِهِمْ وَلَا يَرَاهُمْ إِلَّا مَنْ قَارَبَهُمْ فِي مَعْنَاهُمْ. اللَّهُ أَعْلَمُ
بِأَحْوَالِهِمْ، وَفِي الْجُمْلَةِ: طَيْرُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَفْهَاءِ تَقَعُ.
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَنْتَوٍ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَنَّا بِمَا تَقْدَرُ إِن كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

أَوْضَحْ لَهُمْ مِنَ الْبَرَاهِينِ مَا لَوْ أَنْعَمُوا النَّظَرَ فِيهِ لَتَمَّ لَهُمُ الْيَقِينُ، وَلَكِنْهُمْ أَصْرُوا

على الجحود، ولم يقنعوا من الموعود بغير المشهود.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَايُكُم بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

أقر بالعبودية، وتبرأ عن الحول والقوة، وأحال الأمر على المشيئة. ولقد أنصف من لم يجاوز حده في الدعوى. والأنبياء عليهم السلام - وإن كانوا أصحاب التحدي للناس بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

من لم يساعده تعريف الحق - بما له بحكم العناية - لم ينفعه نصح الخلق في النهاية.

ويقال من لم يوصله الحق للوصال في آزاله لم ينفعه نصح الخلق في حاله.

ويقال من سبق الحكم له بالضلالة أتى ينفعه النصح وبسط الدلالة؟

ويقال من لم تساعده قسمة السوابق لم ينفعه نصح الخلائق.

قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾: من المحال اجتماع الهداية والغواية؛ فإذا أراد الله بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية.

ثم بين المعنى في ذلك بأن قال: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ ليعلم العالمون أن الرب تعالى له أن يفعل بعباده ما شاء بحكم الربوبية.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْعُرُونَ﴾.

ومهما وصفتوني فإني أجيب الله.. وكلُّ مُطَالِبٍ بفعله دون فعلٍ صاحبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا نُوْحَ أَنَّكَ كُنْ يَوْمَكَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا يَتَسَوَّىٰ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

عرفه الحق أنه غني عن إيمانهم، فكشفت له أحكامهم، وأن من لم يؤمن منهم قد سبق الحكم بشقائهم، فعند ذلك دعا عليهم نوح - عليه السلام - بالإهلاك.

ويقال لم يدع عليهم ما دام للمطمع في إيمانهم مساعاً، فلما حصل العكس نطق بالتماس هلاكهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْحَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾.

أي قم - بشرط العبودية - بصنع السفينة بأمرنا، وتحقق بشهودنا، وأنتك بمرأى

منا. وَمَنْ عَلِمَ اِطْلَاعَهُ عَلَيْهِ لَمْ يَلَا حِظَّ نَفْسِهِ وَلَا غَيْرَهُ، لَا سِيَّما وَقَدْ تَحَقَّقَ بِأَنَّ الْمُجْرِي هُوَ سَبْحَانَهُ.

وقال له: رَاعِ حَدَّ الْأَدَبِ، فما لم يكن لك إذنٌ منا في الشفاعة لأحدٍ فلا تُخاطِبُنَا فيهم.

ويقال سبق لهم الحكمُ بِالْعَرَقِ - وأمواج بحر التقدير تتلاطم - فكلُّ في بحار القدرة مُعْرِفُونَ إِلَّا مِنْ أَهْلِهِ الْحَقُّ بِحُكْمِهِ فَحَمَلَهُ فِي سَفِينَةِ الْعَنَاءِ.

ويقال كان قومُ نوحٍ مِنَ الْعَرَقَى في بحار القَطْرَةِ، وَمِنْ قَبْلُ كانوا غرقى في بحار القدرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَصَّغُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

لما تَحَقَّقَ بما أمر الله به لم يأبَهُ عند إِمضاء ما كُلِّفَ به بما سَمِعَ من القيل، ونظر إلى الموعود بطَرْفِ التصديق فكان كالمُشَاهِدِ له قَبْلَ الوجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾. لا طاعةَ لمخلوقٍ في مقاساة تقديره - سبْحَانَهُ - إِلَّا مِنْ تَحْمِلِ عَنْهُ بِفَضْلِهِ ما يَحْمِلُهُ بِحُكْمِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾.

طال انتظارهم لِمَا كَانَ يَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَى وَجْهِ الاستبعاد، ولم يَزِدْهُمْ تَطَاوُلُ الْأَيَّامِ إِلَّا كُفْرًا، وَصَمُّوا عَلَى عَقْدِ تَكْذِيبِهِمْ.

ثم لَمَّا أَنَاهُم الموعودُ إِيَّاهُمْ بَغْتَةً، وَظَهَرَ مِنَ الْوَضْعِ الَّذِي لَمْ يُجِبُوهُ فَآرَ الْمَاءِ مِنَ التَّنُّورِ الْمَسْجُورِ^(١)، وَجَادَتِ السَّمَاءُ بِالْمَطَرِ الْمَعْبُورِ.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: استبقاءً للتناسل.

ويقال: قد يُوْتَى الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ؛ فَإِنْ إِبْلِيسَ جَاءَ إِلَى نوحٍ - عَلَيْهِ السَّلامُ -.

وقال: اخْمِلْنِي فِي السَّفِينَةِ فَأَبَى نوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ: أَمَّا عَلِمْتَ أَنِّي مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمٍ مَعْلُومٍ، وَلَا مَكَانَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا فِي سَفِينَتِكَ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نوحٍ أَنْ يَحْمِلْهُ مَعَهُ.

(١) التَّنُّور: ضرب من الكوانين يُخْبِزُ فِيهِ، أَعْلَاهُ أَصْبِقٌ مِنْ أَسْفَلِهِ (اللسان ٩٥/٤) الْمَسْجُور: المملوء (اللسان ٣٤٥/٤).

ويقال لم يكن لابن نوح معه مكان، وأُمِرَ بِحَمْلِ إبليس وهو أصعب الأعداء! وفي هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجري على قياس الخلق؛ كأنه قيل له: يا نوح.. ابنك لا تحمله، وعدوك فأدخله، فالحمد لله سبحانه فعلاً لما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بالشقاوة. وفيه تعريف بأن حُكْمَ الْأَزْلِ لا يُرَدُّ، والحق - سبحانه - لا يُنَازَعُ، والجبار لا يُخَاصَمُ، وأن مَنْ أَقْصَاهُ رَبُّهُ لَمْ يُذْنِبْ تَنْبِيْهُ وَلَا يَرْ وَلَا وَغَط.

﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولكن بَارَكَ الحق - سبحانه - في الذين نجَّاهم من نَسْلِهِ، ولم يدخل خَلْلٌ في الكون بعد هلاك مَنْ أَهْلَكَ مِنْ قَوْمِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ أَزْكِبُ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بَحْرِنَهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

عَرَفَ أَنْ نَجَاتِهِ مِنَ الْقَطْرَةِ لَمَّا تَقَاطَرَتْ لَيْسَتْ بِالْحَيْلِ - وَإِنْ تَنَوَّعَتْ وَكَثُرَتْ، فباسم الله سلامته، وبتوكيله على الله نجاته وراحته، وبتفضله - سبحانه - صلاحه وعافيته.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ بَحْرِي يَهْمُ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَكَأَذَى نُوحٍ ابْنُهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْقَى أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

وكان في معزل بظاهره، وكان في سرِّ تقديره أيضاً بمعزل عما سبق لنوح وقومه من سابق فضله. فحينما نطق بلسان الشفقة وقال: ﴿يَبْقَى أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ - لم يقل له: ولا تكن من الكافرين؛ لأن حالته كانت مُتَنَبِّسَةً على نوح إذ كان ابنه ينافقه - فقيل له: يا نوح إنه مع الكافرين لأنه في سابق حُكْمِنَا من الكافرين.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَمَا بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

أَخْطَأ مِنْ وَجْهَيْنِ: رَأَى الْهَلَاكَ مِنَ الْمَاءِ وَكَانَ مِنَ اللَّهِ، ورأى النجاة والعصمة من الجبل وهما من الله، فقال له نوح: لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ. قيل أراد لا معصوم اليوم من الله. وقيل لا أَحَدٌ يَعْصِمُ أَحَدًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، لكن مَنْ رَجَعَ رَبُّهُ فَهُوَ معصوم من ذلك، وله عَاصِمٌ وهو الله.

ولقد كان نوح - عليه السلام - مع ابنه في هذه المخاطبات فجاءت أمواج الماء وحالت بينهما وصار من الْمُغْرَقِينَ، فلا وعظه ونُصْحُهُ نفعاه، ولا قوله وتذكيره نَجَّيَاهُ وَخَلَّصَاهُ.

ويقال احتمل أن لو قيل له يا نوح عَرَفْنَا الْعَالَمَ بدعائك ولا عليك إن عَرَفَ .
قوله جل ذكره: ﴿وَقِيلَ يَتَاَرْضُ أَلَيْسَ لَكَ وَكُتْمَاءٌ أَقْلَى وَغِيصٌ أَلْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَأُسْرَتٌ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

فلما غَرِقَ ابنُ نوحَ سَكَنَ الموجَ ونَضَبَ الماءَ وأقْلَعَتِ السماءُ، وكأنه كان
المقصودُ من الطوفانِ أن يغرقَ ابنُ نوحَ - عليه السلام - وقيل :

عَجِبْتُ لِسُغْيِ الدهرِ بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ
قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي
أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ .

خَاطَبَ الحقَّ - سبحانه - في باب ابنه، واستعطفَ في السؤال فقال :
﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ : فقال له : إنه ليست من أهل الوصلة قِسْمَتُهُ - وإن كان من
أَهْلِكَ نَسَباً وَلَحْمَةً، وإن خطابك في بابه عملٌ غيرُ صالح، أو إنه أيضاً عَمِلَ غيرَ
صالح .

﴿فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ : أي سَتَرْتُ غَيْبِي في حال أوليائي وأعدائي، فلا
يُغْلَمُ سِرُّ تَقْدِيرِي .

قوله : ﴿إِنَّي أَعْطَاكَ﴾ : وذلك لِحُزْمَةِ شَيْخُوخَتِهِ وَكِبَرِهِ، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له في
وَلَدِهِ، فتَذَارَكَ بِحُسْنِ الْخُطَابِ قَلْبَهُ .

وقيل إن ابنَ نوحَ بَنِيَ من الزَّجَاجِ بيتاً وقتَ اشتغال أبيه باتخاذ السفينة، فلما
ركب نوحُ السفينةَ دَخَلَ ابنه في البيت الذي اتخذهُ من الزَّجَاجِ، ثم إن الله تعالى سَلَطَ
عليه البَوْلَ حتى امتلأَ بَيْتُ الزَّجَاجِ من بَوْلِهِ؛ فَغَرِقَ الكلُّ في ماء البحر، وغرق ابنُ
نوحٍ في بَوْلِهِ! لِيُغْلَمَ أَنَّهُ لَا مَفْرَءَ مِنَ الْقَدَرِ .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي
وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

نَسِيَ نوحٌ - عليه السلام - حديثَ ابنه في حديث نفسه، فاستعاذَ بفضله واستجارَ
بِلَطْفِهِ، فوجد السلامةَ من رَبِّهِ في قوله جل ذكره :

﴿قِيلَ يَتُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَسِتْمُوهُمْ ثُمَّ
يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

طَهَّرَ وَجْهَ الْأَرْضِ من أعدائه، وحفظَ نوحاً عليه السلام من بلائه، هو ومن معه
من أصدقائه وأقربائه .

والأُمم التي أخبر أنه سَيَمْتَعُهُمْ ثم يَمَسُّهُمْ العذاب هم الذين ليسوا من أهل السعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُؤْتَفِكِينَ﴾.

أعلمناك بهذه الجملة، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلمه من شخص، أو من قراءة كتاب؛ فإنّ قبلك قومك بالتكذيب فاصبر، فعن قريب تنقلب هذه الأمور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

كَلَّفَ الأنبياء - عليهم السلام - بالذهاب إلى الخلق لا سيما وقد عاينوا - بالحق - مَنْ تَقَدَّمَهُمْ من فترة الملأ، ولكنهم تَحَمَّلُوا ذلك حين أمرهم الحق بالتوجه إليهم فَرَضُوا، وأظهروا الدلالة، وأدّوا الرسالة، ولكن ما زاد الناس إلا نفرة على نفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَنْفَوِرَ لَا اسْتَكْبَرَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

لم يأت نبي من الأنبياء - عليهم السلام - إلا وأخبر أنه ليس له أن يطلب في الجملة أجراً إلا من الله لا من غير الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَنْفَوِرَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار، من توهمكم أن نجاتكم باستغفاركم. بل تَحَقَّقُوا بأنكم لا تجدون نجاتكم إلا بفضل ربكم؛ فَبِغْضِهِ وبِتَوْفِيقِهِ توصلتم إلى استغفاركم لا باستغفاركم، وصلتم إلى نجاتكم، وبرحمته أهلككم إلى استغفاركم، وإلا لَمَا وصلتم إلى توبتكم ولا إلى استغفاركم.

والاستغفار قَرَعَ باب الرزق، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه، فتح عليه أبواب رحمته، وَيَسَّرَ له أسباب نعمته.

ويقال يُنْزَلُ على ظواهركم أمطار النعمة، وعلى ضمائركم وسرائركم يُنْزَلُ أنواع المنة، ويزيدكم قوة على قوة؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرزق، وقوة تحصلون بها تحسين أصناف الخلق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ما زادهم هودٌ عليه السلام بسُطا في الآية وإيضاحاً في المعجزة إلا زادهم الله تعالى عَمَى على عَمَى، ولم يرزقهم بصيرةً ولا هديً، ولم يزدوا في خطابهم إلا بما دلُّوا على قُرْطِ جهالتهم، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وانتهاهم، وقالوا:

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وكيف ظنُّوا أنَّ آلِهَتَهُمْ تَمْسُ أَعْدَاءَهُمْ بِسُوِّ وهي لا تضرُّ أَعْدَاءَهَا ولا تنفع أولياءها؟ فهؤلاء الغواية عليهم مُسْتَوَلِيَةٌ. ثم إن هوداً عليه السلام أَفْصَحَ عن فضل ربه عليه؛ وَصَرَّحَ بإخلاصه وحُسن يقينه فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ثم قال:

﴿مِنْ دُونِي فَكَذَّبُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾.

فلم يَخْتِجْ معهم إلى تضرع واستخاء، ولا راوَدَهُم في سلم واستمهال، ولم يَتَّصِفْ في ذلك بركونٍ إلى حَوْلِهِ وَمُتْنِهِ، ولم يستند إلى جِدِّهِ وَقُوَّتِهِ بَلْ قال:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أخبر أنه بموعودِ الله له بضرتِّهِ واثق، وأنه في خلوص طاعته لربه وفي صفاء معرفته (غير مُقَارِقٍ).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾.

أوحينا إليه أن قل لهم: إِنْ تَوَلَّوْا ولم تُؤْمِنُوا بي فقد بَلَّغْتُ ما حُمِّلْتُ من رسالتي، وإني واثق بأنَّ الله إذا أهلككم يأتِ بأقوام آخرين سواكم أطوعَ له منكم، وإن أفتاكم ما اختلَّ مُلْكُهُ؛ إذ الحقُّ - سبحانه - بوجود الأغيار لا يلحقه زينٌ - وإن وُحِدُوا، ويفقدهم لا يُمْسِه شَيْئٌ - وإن جحدوا وألحدوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نَجَّيْنَا هُودًا والذين آمنوا برحمتنا، ولم يقل باستحقاقه النجاة بوسيلة بُيُوتِهِ، أو لجسامة طاعته ورسالته بل قال: ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾، لِيَعْلَمَ الكافة أنَّ الأنبياء - عليهم السلام - ومن دونهم عتيق رحمتِهِ، وغريق مُتْنِهِ، لا لاستحقاقٍ أحدٍ ولا لواجبٍ على الله في شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عَادٌ جَمْعُوهَا بِأَيَّتِ رَيْبِهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيلٍ﴾.

في إنزال قصصهم تسلياً للرسول - صلى الله عليه وسلم وآله - فيما كان يقاسي من العناء، وللمؤمنين فيما بذلوا من حسن البلاء، والعِدَّةُ بتبديل - ما كانوا يلقونه من الشدة - بالرجاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾.

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة، أمّا في هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تبعه من اللعنة، ثم ما يلقونه في الآخرة من تأييد العقوبة. وبقاؤهم عن رحمة الله أصعب من صنوف كل تلك المحنة، وكما قيل:

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْسَرْتَا لِمَنْ ابْتَغَى عَوْضًا لِسُلْمَى فَلَمْ يَجِدْ

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَمَرُوا صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ بِإِذْنِي إِنَّ رَبِّي بِصَوَّافٍ قَدْ كُنْتُ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَاغْذُكُمُ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَفَعَلُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَمِيعٌ كَأَن لَّمْ يَتَوَلَّوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِمُؤَدٍ﴾.

عَقِيبَ ما مضى من قصة عادٍ ذكر ثمود، وثمودهم قوم لصالح، وقد انخرطوا في الغي في سلك من سبقهم، فَلَحِقَتْ العقوبة بجميعهم. ثم أخبر أنهم قابلوا نبيهم - عليه السلام - بالكذيب، ولم يقفوا على ما نبههم عليه من التوبة والتصديق، وأصرُّوا على الإقرار أنهم في شأنه لفي شكٍ مرِيبٍ.

ثم بيَّن أنَّ صالحاً لم يُعْرَجْ - في التبليغ - على تقصير.

وبَعْدَ تَمَرُّدِهِمْ وامتناعهم عن الإنابة، وإصرارهم على ترك الإجابة حقَّ عليهم ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب، ونَجَّى نبيهم - عليه السلام -، ونَجَّى مَنْ اتَّبَعَهُ من كل عقوبة. . . سُنَّةٌ منه - سبحانه - في إنجاء أوليائه أمضاها، وعادةً في تطفه ورحمته بالمستحقين أجراها.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ

جَاءَ بِعِجْلِ حَنِيزٍ فَلَمَّا رَآَ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿١٠﴾

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيم - عليه السلام - بالبشارة. وأخبر أن إبراهيم - عليه السلام - أنكرهم، ولم يعرف أنهم ملائكة. فيحتمل أنه - سبحانه - أراد أن تكون تلك البشارة فجأة من غير تنبيه لتكون أتم وأبلغ في إيجاد السرور، ولا سيما وقد كانت بعد خوف لأنه قال: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

ويقال إن إبراهيم - عليه السلام - كان صاحب النبوة والخلة والرسالة فلا بُدَّ أن تكون فراسته أعلى من فraise كل أحد، ولكنه في هذه الحالة لم يعرف الملائكة ليُعلم أن الحق - سبحانه وتعالى - إذا أراد إمضاء حكم يسدُّ على مَنْ أرادَ عيون الفراسة، وإن كان صاحب الفراسة هو خليل الله، كما سدَّ الفراسة على نبينا - ﷺ - في قصة الإفك إلى الوقت الذي نزل فيه الوحي، وكذلك التبس على لوط - عليه السلام - إلى أن تبين له الأمر.

وتكلموا في هذه «البشرى» ما كانت؛ ففيل كانت البشارة بإسحاق؟ أنه سيولد له ولد ومن نسله وسلالته؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَثَةِ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾.

ويقال بسلامة قومه - حيث كانوا مُرسلين بإهلاك قوم لوط - عليه السلام. ويقال بشارة بالخلة وتمام الرصلة.

ويقال إن الخلة والمحبة بناؤهما كتمان السر؛ فَيَعْلَمُ أنهم أُرْسِلُوا بشارية ما ولم يكن للغير اطلاع، قال قائلهم:

بين المحبين قول لست أفهمه

ويقال إن تلك البشارة هي قولهم: «سلاماً» وأن ذلك كان من الله، وأي بشارة أتم من سلام الحبيب؟ وأي صباح يكون مُفْتَتاً بسلام الحبيب فصباح مبارك، وكذلك المبيت بسلام الحبيب فهو مبارك.

قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلِ حَنِيزٍ﴾ [هود: ٦٩]: لما توهمهم أضيفاً قام بحق الضيافة، فقدّم خير ما عنده مما شكره الحق عليه حيث قال في موضع آخر: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. والمحبة توجب استكثار القليل من الحبيب واستقلال ما منك للحبيب، وفي هذا إشارة إلى أنه إذا نزل الضيف فالواجب المبادرة إلى تقديم السفرة^(١) ممّا حضر في الوقت.

(١) السفرة: طعام يتخذه المسافر وأكثر ما يُحمل في جلد مستدير فنقل اسم الطعام إليه وقيل: السفرة: التي يؤكل عليها سميت سفرة لأنها تبسط إذا أكل عليها. (اللسان ٤/ ٣٦٨ - ٣٦٩).

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] تمام إحسان الضيف أن تتناول يده ما يُقدَّم إليه من الطعام، والامتناع عن أكل ما يُقدَّم إليه معدود في جملة الجفاء في مذهب أهل الظرف. ^(١) والأكل في الدعوة واجب على أحد الوجهين.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي خاف أنه وقع له خلل في حاله حيث امتنع الضيفان عن أكل طعامه؛ فأوجس الخيفة لهم لا منهم.

وقيل إن الملائكة في ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جهراً إلا لعقوبة؛ فلما امتنعوا عن الأكل، وعلم أنهم ملائكة خاف أن يكونوا قد أُرسلوا لعقوبة قومه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَتُولَّى آلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَنْتَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حِيدٌ مَحِيدٌ﴾.

كانت امرأته قائمة بخدمة الأضياف، فضحكت تعجباً من أن يكون لمثلها في هذه السن ولد.

وقيل كان سرورها السلامة. ويحتمل أنها ضحكت تعجباً من امتناع الضيفان عن الأكل. أو تعجبت من كون الملائكة في صورة البشر لما علمت أنهم ملائكة. ويحتمل أنها ضحكت لاستبشارها بالولد وقد بُشِّرَتْ باستحقاقه ومن ورائه يعقوب، ثم أفصح عما ينطوي عليه قلبها من التعجب فقالت: ﴿ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾!

فأحال الملائكة خلق الولد على التقدير: ﴿قَالُوا أَنْتَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؟﴾ فزال موضع التعجب، وقالوا: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فبقي الدعاء في شريعتنا بآخر الآية حيث يقول الداعي: كما صَلَّيْتُ وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

والبركة الزيادة؛ فقد اتصل النسل من الخليل، وبنو إسرائيل منهم - وهم خلق كثير، والعرب من أولاد إسماعيل - وهم الجَمُ الغفير ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾. لما كانت مراجعته مع الله في أمر قوم لوط بحق الله لا لحظ نفسه سليم له الجدال، وهذا يدل على علو شأنه حيث تجاوز عنه ذلك.

(١) الظرف: البراعة وذكاء القلب. فالظرف في اللسان البلاغة، وفي الوجه الحسن، وفي القلب الذكاء. (لسان العرب ٩/ ٢٢٨ - ٢٢٩ مادة: ظرف).

(٢) الجَمُ الغفير: الجمع الكثير (ج) جمام وجموم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

والإشارة فيه أنه كان يقابل ما وُردَّ على ماله ونفسه وولده بالاحتمال، ولمَّا كان حقُّ الحقِّ في حديث قوم لوط أخذ في الجدالِ إلى أن أبان له سلامة لوط - عليه السلام - وقال الله سبحانه: -

قوله جل ذكره: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَنِيبٌ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾

يا إبراهيم أعرض عن هذا فإنَّ الحكمَ بعذابهم قد نزل، ووقت الانتقام منهم قد حصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَ إِلَيْهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

أي أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يجري عليهم من قومه ما لا يجوز في دين الله؛ فذلك الحزن كان لحقِّ الله لا لنصيبٍ له أو حظٍّ لنفسه، ولذلك حُمِدَ عليه لأنَّ مقاساة الحزن لحقِّ الله محمودة.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي صَیْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

قوله ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: قيل إنه أراد به نساء أمته، فنبى كل أمة مثل الوالد لأولاده في الشفقة والنصيحة.

ويقال إنه أراد بناته من صلبه.

«أليس منكم رجل رشيد» يرتدي جلباب^(١) الحشمة، ويؤثر حقُّ الله على ما هو مقتضى البشرية، ويرعى حق الضيافة، ويترك معصية الله؟.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾.

أصروا على عصيانهم، وزهدوا في المأذون لهم شرعاً، وانجروا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً، وهذه صفة البهائم؛ لا يزدعها عقل، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رَبِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ﴾ [هود: ٨٠].

لو أن لي قوة فأمنعكم عن ارتكاب المعصية؛ فإنَّ أهمَّ الأشياء على الأولياء ألا يجري من العصاة ما ليس الله فيه لا رضاء.

(١) الجلباب: القميص أو الثوب المشتمل على الجسد كله.

ويقال: لو كان لي قدرة لإيصال الرحمة إليكم - مع ارتكابكم المعاصي - لَرَجَمْتُكُمْ وَتَجَاوَزْتُ عَنْكُمْ.

ويقال لو أنَّ لي قوة لَهَدَيْتُكُمْ إِلَى الدِّينِ، وَلَعَصَمْتُكُمْ عَنْ ارْتِكَابِ الْمَخَالَفَاتِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

لَمَّا ضَاقَ بِهِ الْأَمْرُ كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ الضَّرَّ فَعَرَّفَ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَقَالُوا: لَا عَلَيْكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ بِسُوءٍ، وَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ جِئْنَا لِإِهْلَاكِهِمْ، فَاخْرُجْ أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي عَمَلِهِمْ بَنُوْعَ فَلَهُ مِنَ الْعَذَابِ حِصَّةٌ. وَمَنْ جَمَلْتَهُمْ أَمْرَاتُكَ الَّتِي كَانَتْ تَدُلُّ الْقَوْمَ عَلَى الْمَلِكِ لِفَعْلَةِ الْفَاحِشَةِ، وَإِنَّ الْعُقُوبَةَ لَاحِقَةٌ بِهَا، مُذِرَّةٌ لَهَا.

والإشارة منه أن الجسارة على الرِّثْلَةِ وخيمة العاقبة - ولو بعد حين، ولا ينفع المرة اتصاله بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

ما هو كائنٌ فقريب، والبعيد ما لا يكون. وَإِنَّ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى مُحْظُورٍ ثُمَّ حُوسِبَ عَلَيْهِ - ولو بعد دهورٍ خالية وأعوام غير محصورة ماضية - تصور له الحال كأنه وقتٌ مُبَاشَرَتِهِ لَتِلْكَ الرِّثْلَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مُّنْهُودٍ﴾.

سُئِلَ اللَّهُ فِي عِبَادِهِ قَلْبُ الْأَحْوَالِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِنْقِلَابُ مِنْ سِمَاتِ الْحُدُوثِ، أَمَّا الَّذِي لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ فَهُوَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِنُعْوَتِهِ الصَّمْدِيَّةِ.

وَإِنَّ مَنْ عَاشَ فِي السُّرُورِ دَهْرًا ثُمَّ تَبَدَّلَ يُسْرُهُ عُسْرًا فَكَمَنْ لَمْ يَرَ قَطُّ خَيْرًا، وَالَّذِي قَاسَى طَوْلَ عَمْرِهِ ثُمَّ أُعْطِيَ يُسْرًا فَكَمَنْ لَمْ يَرَ عُسْرًا.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ﴾.

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم، ثم أخبر أن تلك العقوبة لاحقة بمن سلك سبيلهم تحذيراً لمن لم يعتبر بهم إذا عرف طريقهم، كما قيل:

وَمَنْ يَرْنِي وَلَمْ يَعْتَبِرْ بَعْدِي فَإِنَّ لِكُلِّ مَعْصِيَةٍ عِقَابًا

قوله جل ذكره: ﴿وَإِلَىٰ مَنِّنٍ أَنَا هُمْ شُعَبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمَكْبَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَوِّرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَتَقَوَّمُ أَوْثُوا الْمَكْبَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝﴾ .

أخبر سبحانه عن قصتهم ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، وما نالهم من البلاء العظيم .

وفي الظاهر لهم كانت أجرامهم كاليسيرة، ولعدم الفهم يعدون أمثالها صغيرة، ولا يقولون إنها كبيرة، وإن ذلك تظيف في المكيال.

وليس قَدْرُ الْأَجْرَامِ لِأَعْيَانِهَا، وَلَكِنْ لِمَخَالَفَةِ الْجَبَارِ عَظَمَ شَأْنُهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

ولما أن قال لهم شعيب:

﴿يَقِيتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

يعني القليل من الحلالِ أجدى من الكثير المُغفَب للوَبَالِ لم يقابلوا نصيحتَه لهم إلا بالعناد والتماذي فيما هو دائمٌ من الجحد^(١) والكنود^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُكَ ثَمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

استوطئوا مركب الجهل، واستحلبوا مشرب التقليد، وأغفوا قلوبهم من استعمال الفكر، واستبصار طريق الرشد.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اَرَأَيْتُمْ اِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتَهُ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.

الْبَيِّنَةُ نَوْرٌ تَسْتَبْصِرُ بِهِ مَا خَفِيَ عَلَيْكَ تَحْتَ غِطَاءِ الْغَفْلَةِ.

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية،
وَحُسْنُ تَوَلِيهِ لَشَأْنِكَ - في جميع ما فيه صلاحك - من إتمام النعمة ودوام العصمة .

وقيل الرزق الحسنُ ما تعني صاحبه لطلبه، ولم يصبه نصيبٌ بسببه.

وقيل الرزق الحسنُ ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التمتع بوجود الرزاق .

(١) الجحد: قلة الخير، والجحود: الإنكار مع العلم.

(۲) الکنود کند النعمة: جعدها ولم يشكرها.

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنسي الرزاق، ويحمل صاحبه على التوسعة والإنفاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِنْ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ﴾.

يمكن للواعظ أو الناصح أن يساهل المأمور في كل ما يأمره به، ولكن يجب ألا يجيز له ما ينهيه عنه؛ فإنّ الإتيان بجميع الطاعات غير مُمكن، ولكنّ التجرّد عن جميع المحرّمات واجب.

ويقال مَنْ لم يكن له حُكْم على نفسه في المنع عن الهوى لم يكن له حُكْم على غيره فيما يرشده إليه من الهدى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

مَذَارُ الأمرِ إلى الأغراض المقضية حُسْنُ القصد بالإصلاح؛ فيَقْرُنُ اللَّهُ به حسن التيسير، وَمَنْ انطوى على قصدٍ بالسوء وَكَلَّ الحقُّ بشأنه التعويق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

حقيقة التوفيق ما ينفق به الشيء، وفي الشريعة التوفيق ما تنفق به الطاعة، وهو قدرة الطاعة، ثم كل ما تقرب العبد به من الطاعة من توفير الدواعي وفنون المنهيات يُعدُّ من جملة التوفيق - على التوسع.

والتوفيق باللّهِ ومن اللّهِ، وهو - سبحانه - بإعطائه متنضلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

التوكل تفويض الأمر إلى الله، وأمارته ترك التدبير بشهود التقدير، والثقة بالموعد عند عدم الوجود. ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب.

ويقال التوكل السكون، والثقة بالمضمون.

ويقال التوكل سكون القلب بمضمون الرّب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَنْقُزُ لَآ بَجْرَمَكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾.

تورثكم مخالفتكم إياي فيما أدعوكم إليه من طاعة الله أن يلحقكم من أليم العقوبة ما أصاب مَنْ تقدّمكم من الذين سبّزتم على مناهجهم، وما عهدكم ببعيد بمن تحققت كيف خلّث بهم العقوبة، وكيف أنهم ما زادتهم كثرة النصيحة إلا غلّوا في ضلالتهم، وغتّوا في جهالتهم، وكما قيل.

وكم صُغْتُ في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصّح

قوله جل ذكره: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

الاستغفار هو التوبة.

ومعنى قوله ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي توبوا ثم لا تَنْقُصُوا توبتكم؛ فهو أمرٌ باستدامة التوبة؛ فإذا لم يتصل وفاء المآل بصفاء الحال لم يحصل قَبُولٌ، وكأن لم يكن لِمَا سَلَفَ حصولٌ.

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: يرحم العصاة ويودهم.

ويقال يرحمهم ولذلك يودونه؛ فالودود يكون بمعنى المودود كَحُلُوبٍ بمعنى محلوب. والرحمة تكون للعاصي لأن المطيع بوصف استحقاقه للشواب على طاعاته، ثم ليس كل من يُحِبُّ السلطان في محل الأكابر، فالأصاغر من الجند قد يحبون الملك، وأنشدوا:

أَلَا زُبَّ مَنْ يَدْنُو وَيَزْعَمُ أَنَّهُ يُوَدُّكَ، وَالتَّائِي أُوْدُ وَأَقْرَبُ
قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَسْتَعْجِلُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَحَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

لاحظوا شعبياً بعين الاستصغار فخرموا فهم معاني الخطاب، وأقرؤا على أنفسهم بالجهل، وأحالوا إعفاءهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهطه وعشيرته، فعاتبهم عليه:

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَنْفَقُوا أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ زُرَّاءَ كُمْ ظَهَرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أترون من حق رهطي^(١) ما لا ترون من حق ربي؛ وإن ربي يكافنكم على أعمالكم بما تستوجبون في جميع أحوالكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَنْفَقُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِّن بَآئِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبِيًّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِيَّتٍ كَانَ لَرَّ يَفْتَنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِّمَن كَانَ بَعْدَتْ نَحْوُهُ﴾.

أرعى لهم ستر الإمهال فلما أصرؤا على تماديهم في الغواية حلت بهم العقوبة، وصاروا وكأن لم يكن بينهم نافخ نار، ولا في ديار الظالمين ديار، قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكْفُلِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

(١) الرُّهط: ما دون العشرة من الرجال، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته والأقربون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.

كرّر قصة موسى عليه السلام تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لأمره، وتنبهياً على علوّ قدره عند الله وعلى مكانة الآيات التي أرسله بها، ومعجزاته الباهرة، وبراهينه القاهرة. ويقال أصعبُ عدوّ قَهْرُهُ أولاً نَفْسُهُ، وقد ذلّه - سبحانه - على ذلك لما قال: إلهي! كيف أطلبك؟

فقال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

فَنَبَّهَهُ إلى استصغاره لنفسه، وانكساره لله بقلبه، فزادت ضلّته لما صار معصوماً عن شهود فضل لنفسه؛ والسلطان الذي خَصَّهُ به استولى على قلوب مَنْ رآه، كما قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩] فما رآه أحدٌ إلا أَحَبَّهُ، ثم إنه لم يأخذه في الله ضعفٌ، مثلما لَطَمَ وجهَ فرعون - وهو رضيع - كما في القصة، وَلَطَمَ وجهَ مَلِكٍ الموت لما طالبه بقبض روحه. . كما في الخبر، «وأخذ برأس أخيه يجره إليه لما رجع من سماع الخطاب عند المعاتبة، وأقدم بالجسارة على سؤال الرؤية، وقتل القبطي لما استعان به مَنْ وافقه في العقيدة، وقال الله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] لما أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة. . . ففي جميع هذا تَجَاوَزَ اللَّهُ عنه لما أعطاه من السلطان والقوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَتَّبَعُوا آثَرَ فِرْعَوْنَ وَمَا آثَرُ فِرْعَوْنَ إِلَّا رِشْدٌ يَدُومُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَرْزُودُ﴾.

رضوا بمتابعة فرعون، فاستحقوا ما استحقه. لم يشعروا بخطيئهم، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعاً. وإذا ما أوردتهم النار فهو إمامهم، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران حين لا ينفع تضرعهم وبكاؤهم ولا ينقطع عذابهم وعناؤهم، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم - وذلك جزاء مَنْ كَفَرَ بمعبوده، وأسرف في مجاوزة حدوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَقْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْسُ الزُّفَرُ الْمَرْفُودُ﴾.

بَعُدُوا في عاجلهم من الإيمان، وفي آجلهم من الغمران والجنان. والذي لهم في الحال من الفُرقة أعظم - في التحقيق - من الذي لهم في المآل من الحُرقة، وهذه صفة مَنْ امتحنه الله باللعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

لم يكن في جملة مَنْ قُصَّ عليه مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عليهم السلام - مَنْ أكثر منه تبجيلاً، ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أمته تفضيلاً، فكما تَقَدَّمَ على الأنبياء - عليهم السلام تَقَدَّمَتْ أمته على الأمم، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١].

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَابَعًا﴾ [هود: ١٠١].

لا يجوز الظلم في وصفه؛ فتنصره في ملكه بحق إلهيته - مطلق؛ يحكم بحسب إرادته ومشيته، ولا يتوجه حق عليه، فكيف يجوز الظلم في وصفه؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوق مع مخلوق لأشبه العذر، ولكن في صفته لا يجوز العذر إذ الخلق خلقه، والمُلكُ مُلكه، والحُكمُ حُكمه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾.

إنَّ الحقَّ - سبحانه - يمهّل ولكن لا يهمل، ويحكم ولكن لا يعجل، وهو لا يُسأل عما يفعل.

وقيل إذا أخذ النفوس بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها، وإذا أخذ القلوب بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾.

مشهود يشهده مَنْ خُشِرَ من جميع الخلائق في ذلك اليوم.

ويقال الأيام ثلاثة: يوم مفقود وهو أمس ليس بيدك منه شيء، ويوم مقصود وهو غد لا تدري أتدركه أم لا، ويوم مشهود وهو اليوم الذي أنت فيه؛ فالمفقود لا يرجع، والمقصود ربما لا تبلغ، والمشهود وقتك وهو معرض للزوال. فاستغله فيما ينفع.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ﴾.

الْأَجَلُ لا يَتَقَدَّمُ ولا يتأخر لكل (...)^(١)، والآجال على ما علمها الحق - سبحانه - وأرادها جارية؛ فلا طلب يُقَدَّمُ أو يؤخر وقتاً إذا جاء أجله، وكذلك للوصول وقت، فلا طلب مع رجاء الوصول، ولا طلب مع خوف الزوال، ولقد قيل:

عيبُ السلامة أن صاحبها متوقع لقواصم الظاهر
وفضيلة البلوى ترقب أهلها عقيب البلاء - مسرة الدهر

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

الشقي من قسِم له الحرمان في حاله، والسعيد من رُزق الإيمان في ماله.

ويقال الشقاء على قسمين: قوم شقاؤهم غير مؤبد، وقوم شقاؤهم على التأبید وكذلك القول في السعادة. الشقي مَنْ هو في أسر التدبير ونسيان جريان التقدير، والسعيد مَنْ رَجَعَ من ظلمات التدبير، وحصل على وصف شهود التقدير.

ويقال الشقي من كان في رق العبودية ظاناً أنَّ منه طاعاته، والسعيد مَنْ تحرر عن رق البشرية وَعَلِمَ أن الحادثات كلها لله سبحانه.

وأما الأشقياء - على التأبید - فهم أهل الخلود في مقتضى الوعيد، والسعداء - على التأبید - من قال الله تعالى في صفتهم: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَلَدُوا فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أن يزيد على مدة السموات والأرض.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أن ينقلهم إلى نوع آخر من العذاب غير الزفير والشهيق.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أن يُدْخِلَهُم النار؛ فلا استثناء لبعض أوقاتهم من العقوبة لا قَبْلَ إدخالهم فيها ولا بعده.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

فيه إشارة إلى أن الذي يحصل لهم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَلَدُوا فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾.

لهم اليوم جنات القربة، ولهم غداً جنات المثوبة. والكفار اليوم في عقوبة الفرقة، وغداً في عقوبة الحرق.

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنة أو بعده. أو يحتمل أنه يزيد على مدة السموات والأرض.

وفي قوله ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ - أي عطاء غير مقطوع - دليل على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَسْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْصُورٍ﴾.

لا يريد أنه عليه السلام في شك، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مضاهين لأبائهم، كما تقول: لا شك أن هذا نهار.

ويقال الخطاب له والمراد به لأُمَّتِهِ .

﴿وَإِنَّا لَمَوُفُّوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ : تجازيهم على الخبر بخير وعلى الشر بضر .
قوله جلّ ذكره : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّ يَنْبَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ .

اختلفوا في الكتاب الذي أوتي، وهو التوراة .
واختلفوا في كونه رسولاً، فَمِنْ مُصَدِّقٍ وَمِنْ مُكَذِّبٍ .
ثم أخبر أنه - سبحانه - حَكَمَ بتأخير العقوبة، ولولا حِكْمَتُهُ لعَجَّلَ لهم العقوبة .
وفائدة الآية من هذا التعريف التخفيف على المصطفى - ﷺ - فيما كان يلقاه من قومه من التكذيب، ففي سماع قصة الأشكال - وبعضهم من بعض - سلوة، ولقد قيل :

أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب
قوله جلّ ذكره : ﴿وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا لِيُوقِنْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَسِيرٌ﴾ .

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب، وكرّر ذلك في القرآن في كثير من المواضع إبلاغاً في التحذير، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير .

ثم إن الجزاء على الأعمال معجل ومؤجل، وكلٌّ مَنْ أَعْرَضَ عن الغفلة وجَنَحَ إلى وصف التيقظ وَجَدَ في معاملاته - عاجلاً - الربح لا الخُسران، وآجلاً الزيادة لا النقصان، وما يجده المرء في نفسه أتمّ مما يدركه بعلمه بشواهد برهانه .

قوله جلّ ذكره : ﴿فَأَسْتَوِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

يحتمل أن تكون السين في الاستقامة سين الطلب؛ أي سَلْ من الله الإقامة لك على الحق .

ويحتمل أن تكون الإقامة في الأمر بمعنى أقام عليه .
وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحَقِّها من غير إخلالٍ بها، فلا يكون في سلوك نهج الوفاق انحراف عنه .
ويقال المستقيم مَنْ لَا يَنْصَرِفُ عن طريقه، يواصل سيره بمسراه، وورعه بتقواه ويتابع في ترك هواه .

ويقال استقامة النفوس في نفي الرُّذلة، واستقامة القلوب في نفي الغفلة، واستقامة الأرواح بنفي العلاقة، واستقامة الأسرار بنفي الملاحظة .

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسهم عن العبادة وألا يُخْلُوا بأدائها، ويقضون عسيرها ويسيرها . واستقامة الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها . واستقامة

التائبين ألا يُلْمُوا بعقوبة زلة فَيَدْعُونَ صَغِيرَهَا وكَبِيرَهَا... وعلى هذا النحو استقامة كلِّ أحدٍ. قوله ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾: أي فَلَيْسَتْكُمْ أيضاً مَنْ مَعَكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَنَسِكُمْ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

لا تعملوا أعمالهم، ولا ترضوا بأعمالهم، ولا تمدحوهم على أعمالهم، ولا تتركوا الأمر بالمعروف لهم، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم، ولا تساكنوهم بقلوبكم، ولا تخالطوهم، ولا تعاشرهم... كل هذا يحتمله الأمر، ويدخل تحت الخطاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾.

أي استغفرني جميع الأوقات بالعبادات، فإن إخلالك لحظة من الزمان بفرض تؤديه، أو تفعل تأتية حسرة عظيمة وخسراً مبيئاً.

قوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ الحسنات ما يجود بها الحق، والسيئات ما يذنبها العبد، فإذا دخلت حسنة على قبائح العبد مَحَتْهَا وَأَبْطَلَتْهَا.

ويقال حسنة القربة تذهب سيئات الزلة.

ويقال حسنة الندم تذهب سيئات الجرم.

ويقال (انسكاب) العبرة تذهب العثرة.

ويقال حسنة العرفان تذهب سيئات العصيان.

ويقال حسنة الاستغفار تذهب سيئات الإصرار.

ويقال حسنة العناية تذهب سيئات الجناية.

ويقال حسنة العفو عن الإخوان تذهب الحقد عليهم.

ويقال حسنة الكرم تذهب سيئات الخدم.

ويقال حسن الظن يذهب سواتهم بكم.

ويقال حسنة الفضل من الله تذهب سيئات حسان الطاعة من أنفسكم.

ويقال حسنة الصدق تذهب سيئات الإعجاب.

ويقال حسنة الإخلاص تذهب سيئات الرياء.

قوله جل ذكره: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الصبر تجرع كاسات التقدير من غير تعيس.

ويقال الصبر حسن الإقبال على معانقة الأمر ومفارقة الزجر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المحسن: العامل الذي يعلم أن الأجر على الصبر والطاعة بفضلِه - سبحانه - لا باستحقاق عمل.

قوله جل ذكره: ﴿قُلُوبًا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

معناه لم يكن فيكم من هؤلاء الذين كانوا يتهون عن القبائح إلا قليل.
وقيل معناه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم من ينهى عن الفساد، ويحفظ الدين، ويطيعون أنبياءهم - إلا قليل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.
أي لم يهلك الله أحداً كان مصلحاً وإنما أهلك من كان ظالماً.
ويقال معناه: لو أهلك الله أهل القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظلماً من الله؛ لأن الملك ملوكه، والخلق عبيده.

ويقال «المصلح» من قام بحق ربه دون طلب حظّه.
ويقال: «المصلح» من أثر نجاته على هلاكه.
ويقال مصلحٌ تُصلح نفسه طاعته، ومصلحٌ تُصلح قلبه معرفة سيده. ومصلحٌ تُصلح سرّه مشاهدة سيده.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.
لو شاء لجعلهم أرباب الوفاق ثم لا يوجبون لملكه زينا، ولو شاء لجعلهم أرباب الخلاف ثم لا يوجبون لملكه شينا.
ثم قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لأنه كذلك أراد بهم.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩] في سباق حكمه فعصمهم عن الخلاف في حاصل أمورهم، وأقامهم به، ونصبهم له، وأثبتهم في الوفاق والمحبة والتوحيد.
قوله جل ذكره: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.
أي لا تبديل لقوله، ولا تحويل لحكمه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.
سكن قلبه بما قص عليه من أنباء المرسلين، وعرفه أنه لم يرق أحداً إلى المحل الذي رقاؤه إليه، ولم يُنعم على أحد بمثل ما أنعم عليه.

ويقال قص عليه قصص الجميع، ولم يذكر قصته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً.
ويقال لم يكن ثبات قلبه بما قص عليه ولكن لاستقلال قلبه بمن كان يقص عليه،

وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يَقَعَلُ بِمَا يَسْمَعُ وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَقِلُّ بِمَنْ مِنْهُ يَسْمَعُ، وَأَنْشَدُوا:
 وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدَّتَنِي حَنِينًا فَرَدَّنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ
 قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾.

إن الذين يجحدون التوحيد، ويؤثرون على الحق غير الحق، ولم يصدقوا
 الوعيد، يوشك أن ينصب عليهم الانتقام فيغرقون في بحار العقوبة، ويسقطون في
 وهاد الهوان، فلا لويلهم انتهاء، ولا لذلهم انقضاء.
 قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ
 عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

عمى عن قلوبهم العواقب، وأخفى دونهم السوابق، وألزمهم القيام بما كلفهم
 في الحال، فقال: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ فإن تقسم القلب وترجم الظن وخيف سوء العاقبة..
 فتوكل عليه أي استدفع البلاء عنك بحسن الظن، وجميل الأمل، ودوام الرجاء.
 ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أحاط بكل شيء علماً، وأمضى في كل أمر
 حكماً.

السورة التي يذكر فيها يوسف عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاسم مِنْ وَسَمَ؛ فَمَنْ وَسَمَ ظاهره بالعبودية، وسرائره بمشاهدة الربوبية فَقَدْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إلى المراتب العَلِيَّةِ، وَأَزْلَفَتْ رَبَّتَهُ من المنازل السَّنِيَّةِ.
أو أن الاسم مشتق من السُّمة أو من السمو.

وقَدَّمَ الله - سبحانه - اسمَ اللّٰهِ في هذا المحل على اسميه الرحمن والرحيم على وجه البيان والحكم، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية.
والإشارة من الباء - التي هي حرف التضمين والإلصاق - إلى أنَّ «به» عَرَفَ مَنْ عَرَفَ، و «به» وقف مَنْ وقف؛ فالواصل إليه محمولٌ بإحسانه، والواقف دونه مربوط بخذلانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

التخاطبُ بالحروف المتفرقة غير المنظومة سُنةُ الأحباب في سُرِّ المحاب؛ فالقرآن - وإن كان المقصودُ منه الإيضاح والبيان - ففيه تلويح وتصريح، ومُقْصَلٌ ومُجْمَلٌ، قال قائلهم:

أبكي إلى الشرق إن كانت منازلُكم مما يلي الغربَ خوفَ القيل والقال
ويقال وقفت فهوُ الخلق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه - ﷺ -
-، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة أفرد الحبيبَ بفهمه، فهو سِرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب، يقول قائلهم:

بين المحيين سِرٌّ ليس يُفْشيه قولٌ، ولا قلم للخلق يحكيه
وفي إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة: وهي أنَّ مَنْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعاني، ومن كان بالغية والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير؛ ذاك لكمال عقله وهذا لتمام وُضْله؛ فأنزل اللّٰهُ هذه الحروف التي لا سبيلَ إلى الوقوف على معانيها، ليكون للأحباب فُرْجةً حينما لا يقفون على معانيها

يَعْدَمُ السَّبِيلَ إِلَيْهَا فَلَا تَتَوَجَّهْ عَلَيْهِمْ مُطَالِبَةً بِالْفَهْمِ، وَكَانَ ذَلِكَ لَانْتِفَاقاً بِأَحْوَالِهِمْ إِذَا كَانُوا مُسْتَغْرِقِينَ فِي عَيْنِ الْجَمْعِ، وَلِذَا قِيلَ: اسْتَراحَ مِنَ الْعَقْلِ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خَبَرُ الوعد الذي وعدناك.

وقيل هذا تعريفنا: إليك بالتخصيص، وإفراؤنا لك بالتقريب - قد حَقَّقْنَاهُ لَكَ؛ فهذه الحروف بيانٌ للإنجاز ولتحقيق الموعود.

والإشارة من ﴿الْكِتَابِ الْأَمِينِ﴾ هنا هنا إلى حُكْمِهِ السَّابِقِ لَهُ بِأَنَّهُ يُرْقِيهِ إِلَى الرِّبَةِ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] أَي حِينَ كَلَّمْنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَخْبَرْنَاهُ بَعْلُو قَدْرِكَ، وَلَمْ تَكُنْ حَاضِراً، وَأَخْبَرْنَاهُ بِأَنَّا نُبَلِّغُكَ هَذَا الْمَقَامَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ الْآنَ. وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أَوْحِينَا إِلَيْهِ ذِكْرَنَا لَهُ قِصَّتِكَ، وَشَرَحْنَا لَهُ خِلَقَتَكَ، فَالْآنَ وَقْتُ تَحْقِيقِ مَا أَخْبَرْنَا بِهِ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا:

سُفِيّاً لِمَعْهَدِكَ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ قَلْبِي لِلصَّبَابَةِ مَعْهَدًا

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يعني بعد التوراة ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يعني أمة محمد.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فِي أَنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ، وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ - تَحْقِيقٌ لِأَحْكَامِ الْمَحَبَّةِ، وَتَأَكِيدُ لِأَسْبَابِ الْوَصْلَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ عَدِمَ حَقِيقَةَ الْوُصُولِ اسْتَأْنَسَ بِالرَّسُولِ، وَمَنْ بَقِيَ عَنْ شُهُودِ الْأَحْبَابِ تَسَلَّى بِوُجُودِ الْكِتَابِ، قَالَ قَائِلُهُمْ:

وَكُتُبُكَ حَوْلِي لَا تُفَارِقُ مُضْجِعِي ففِيهَا شِفَاءٌ لِلَّذِي أَنَا كَاتِمٌ

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: لَخْلُوهُ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الَّذِي سَمَاعُهُ يُوجِبُ اشْتَغَالَ الْقَلْبِ بِمَا هُوَ يَعْزُضُ لَوْ قَوَّعَ التَّقْصِيرِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: فِيهِ ذِكْرُ الْأَحْبَابِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: لِأَنَّهُ فِيهِ عَفْوُ يُوسُفَ عَنْ جَنَائِبِ إِخْوَتِهِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: لِمَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ تَرْكِ يُوسُفَ لَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَإِعْرَاضِهِ عَنْهَا عِنْدَمَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا سَأَلُوهُ أَنْ يَقْصَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: لِأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

ويقال لما أخبره الله - سبحانه - أن هذه القصة أحسن القصص وجد رسول الله - ﷺ - لنفسه مزايا وزوائد لتخصيصه؛ فعلم أن الله تعالى لم يرق أحدًا إلى مثل ما رقاها.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِ﴾.

أي الذاهبين عن فهم هذه القصة. أي ما كنت إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها، أي إنك لم تصل إلى معرفتها بكذك وجهدك، ولا بطلبك وجدك.. بل هذه مواهب لا مكاسب؛ فبعطائنا وجدتها لا بعنائك، وبتفضلنا لا بتعلمك، وبتلطفنا لا بتكلفك، وبنا لا بك.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

لما ذكر يوسف - عليه السلام - رؤياه لأبيه علم يعقوب - عليه السلام - صدق تعبيرها، ولذلك كان دائم التذكر ليوسف مدة غيبته، وحين تناولت كان يذكره حتى قالوا: ﴿تَاللَّهِ تَقْصُوا تَذَكُّرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥] فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦] فهو كان على ثقة من صدق رؤياه.

فإن قيل: فإذا كان الصبي لا حُكْم لفعله فكيف يكون حكم لرؤياه؟ وما الفرق؟ فيقال: إن الفعل بتعمد يحصل فيكون معرضاً لتقصير فاعله، أما الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى نقصان.

ويقال إن حق السر ولو كان على من هو قريب منك؛ فإن يوسف لما أظهر سر رؤياه على أبيه اتصل به البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَبْنَؤُ لَا نَقْصُ رُبَّكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

إذا جاء القضاء لا ينفع الوعظ والحدز؛ فإن النصيحة والحدز لا يزيدان على ما نصح يعقوب ليوسف عليهما السلام، ولكن لما سبق التقدير في أمر يوسف - عليه السلام - حصل ما حصل.

ويقال إن يوسف خالف وصية أبيه في إظهار رؤياه إذ لو لم يظهرها لما كادوا له، فلا جرم بسبب مخالفته لأبيه - وإن كان صبياً صغيراً - لم يغر من البلايا.

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويله سجود الإخوة له رأى ما تعبیره: وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾؛ فدخل الإخوة الحسد. أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لفرط شفقة الأبوة.

ويقال صَدَقَ تعبيره في الإخوة فسجدوا له حيث قال: ﴿وَحَرُّوا لِمَ سَجَدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يسجد الأب ولا خالته حيث قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] فإن يوسف صانعهما عن ذلك مراعاة لحشمة الأبوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

أي كما أملك بهذه الرؤيا التي أراكها يجتبيك ويحسن إليك بتحقيق هذه الرؤيا، وكما أكرمك بوعده النعمة أكرمك بتحقيقها.

ويقال الاجتناء ما ليس للمخلوق فيه أثر، فما يحصل للعبد من الخيرات - لا بتكلفه ولا بتعمده - فهو قضية الاجتناء.

ويقال من الاجتناء المذكور أَنَّ عَصَمَهُ عن ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه.

ويقال من قضية الاجتناء إسباله السر على فعل إخوته حيث قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يذكر خلاصه من البئر ومن قضية الاجتناء توفيقه لسرعة العفو عن إخوته حيث قال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

أي لتعرف قَدْرَ كُلِّ أَحَدٍ، وتقف على مقدار كل قائل بما تسمع من حديثه.. لا من قوله بل لِحَدِّ كِيَاستك وفرط فراستك.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبُّنَا يُعْمَلُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ الْإِزْهَامِ وَالصِّقَاقِ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

من إتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة، ومن إتمام النعمة صَوْنُهَا عن السلب والتغيير، ومن إتمام النعمة التَّحَرُّزُ^(١) منها حتى تَسْهَلَ عَلَيْكَ السَّامِحَةُ بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِّينَ﴾.

يعني لكل ذي مِحْنَةٍ حتى يعلم كيف يصبر، ولكل ذي نعمة حتى يعلم كيف يشكر.

ويقال في قصتهم كيفية العفو عن الزَّلَّةِ، وكيفية الخَجَلَةِ لأهل الجفاء عند اللقاء.

ويقال في قصتهم دلالات لطف الله سبحانه بأوليائه بالعصمة، وآيات على أَنَّ المحبة (...)^(٢) من المحنة.

ويقال فيها آيات على أَنَّ من صَدَقَ في رجائه يُخْتَصُّ - يوماً - ببلائه.

(٢) بياض في الأصل.

(١) تحرز منه: توفاه.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

عُرِفُوا عَلَى مَا سَتَرُوهُ مِنَ الْحَسَدِ، وَلَمْ يَحْتَالُوا فِي إِخْرَاجِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِالْوَقِيعَةِ فِي أَبِيهِمْ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

ويقال لما اعترضوا بقلوبهم على أبيهم في تقديم يوسف في المحبة عاقبهم بأن أمهلهم حتى بسطوا في أبيهم لسان الوقيعه فوصفوه بلفظ الضلال، وإن كان المراد منه الذهاب في حديث يوسف عليه السلام، ولما حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يَرْضَ - سبحانه - حتى أقامهم بين يدي يوسف عليه السلام، وخروا له سُجْدًا لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْحَسَدَ لَا يَسُودُ.

ويقال أطول الناس حُزْنًا مَنْ لَاقَى النَّاسَ عَنْ مَرَارَةٍ، وَأَرَادَ تَأْخِيرَ مَنْ قَدَّمَهُ اللَّهُ أَوْ تَقْدِيمَ مَنْ أَخَّرَهُ اللَّهُ؛ فإخوة يوسف - عليه السلام - أرادوا أن يجعلوه في أسفل الجُبِّ فرفعه الله فوق السريرا!

قوله جل ذكره: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ إِلَيْكُمْ﴾.

أَي يَخْلُصْ لَكُمْ إِقْبَالُ أَبِيكُمْ عَلَيْكُمْ، وَقَدِيمًا قِيلَ: مَنْ طَلَبَ الْكُلَّ فَاتَهُ الْكُلُّ؛ فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ إِقْبَالُ يَعْقُوبَ - عليه السلام - بِالْكَلِيَّةِ - عَلَيْهِمْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ويقال كَانَ قَصْدُهُمْ أَلَّا يَكُونَ يُوسُفُ أَمَامَ عَيْنِهِ فَقَالُوا: إِمَّا الْقَتْلَ وَإِمَّا التَّفْيَ، وَلَا بَأْسَ بِمَا يَكُونُ بَعْدَ أَلَّا يَكُونَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَكَوَّنُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

عَجَّلُوا بِالْحَرَامِ، وَعَلَّقُوا التَّوْبَةَ بِالتَّسْوِيفِ وَالْعِزْمِ، فَلَمْ يَمَحْ مَا أَجَلُوا مِنَ التَّوْبَةِ مَا عَجَّلُوا مِنَ الْحَوْبَةِ^(١).

ويقال لَمْ تَطِبْ نَفْسُهُمْ بِأَنْ يَذْهَبُوا عَنْ بَابِ اللَّهِ بِالْكَلِيَّةِ فَدَبَّرُوا لِحُسْنِ الرُّجُوعِ قَبْلَ ارْتِكَابِ مَا دَعَتْهُ إِلَيْهِ نَفْسُهُمْ، وَهَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَقْتُلُ يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

إخوة يوسف - وإن قابلوه بالجفاء - مَنَعَتْهُمْ شَفَقَةُ النَّسَبِ وَحُرْمَةُ الْقَرَابَةِ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى قَتْلِهِ؛ فَقَالُوا لَا تَقْتُلُوهُ وَغَيَّبُوا شَخْصَهُ.

(١) الحوب: الإثم والهلاك.

ويقال إنما حَمَلَهُمْ عَلَى إلقاءهم مرادهم أن يخلو لهم وجه أبيهم، فلمَّا أرادوا حصول مرادهم في تغييره لم يبالغوا في تعذيبه.

ويقال لمَّا كان المعلوم له - سبحانه - في أمر يوسف تبليغَه إياه تلك القربة ألقى الله في قلب قائلهم حتى قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾. ثم إنه - وإن أبلاه في الحال - سهَّل عليه ذلك في جنب ما رَقَّاه إليه في المآل، قال قائلهم:

كَمْ مَرَّةً حَفَّتْ بِكَ الْمَكَارِهِ خَارَ لَكَ اللَّؤْلُ - وأنت كاره

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾.

كلام الحسود لا يسمع، ووعده لا يُقبل - وإن كانا في مَعْرِضِ النُّصْحِ؛ فَإِنَّهُ يُطْعِمُ الشَّهْدَ وَيَسْقِي الصَّابَ.

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب - عليه السلام - ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرَّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] ولكن إذا جاء القضاء فالبصيرةُ تصير مسدودةً.

ويقال من قَبِلَ على محبوبه حديث أعدائه لَقِيَ ما لَقِيَ يعقوبُ في يوسف - عليهما السلام - من بلائه.

قوله جل ذكره: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾.

يقال أطمعوا يعقوبَ عليه السلام في تمكينهم من يوسف بما فيه راحة نفس في اللعب، فطابَتْ نَفْسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه - وإن كان يشقُّ عليه فراقه، ولكنَّ المحبَّ يؤثِّرُ راحة محبوبه على محبة نفسه.

ويقال ما رَكَنَ إلى قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ - أي مِنْ قَبْلِهِمْ - حتى قالوا: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْنِعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]؛ فَمَنْ أَسْلَمَ حَبِيبَهُ إِلَى أعدائه غُصَّ بتحسِّي بلائه.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

يَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ لَأَنِّي لَا أَصْبِرُ عَنْ رُؤْيَيْهِ، وَلَا أَطِيقُ عَلَى فُرْقَتِهِ... هذا إذا كان الحال سلامته.. فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب؟!

ويقال: لما خاف عليه من الذئب امتُحِنَ بحديث الذئب، ففي الحبر ما معناه: «إنما يُسَلِّطُ على ابن آدم ما يخافه»^(١) وكان في حقه أن يقول أخاف الله لا الذئب، وإن

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كتر العمال ٣٧٢٥٧)، وابن حجر في (لسان الميزان ١٨٣/٢).

كانت مَحَالَّ الأنبياء عليهم السلام - محروسةً من الاعتراض عليها .
ويقال لَمَّا جرى على لسان يعقوب - عليه السلام - من حديث الذئب صار
كالتلقين لهم ، ولو لم يسمعه ما اهْتَدَوْا إلى الذئب .

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذَا لَخِئْرُونَ﴾ .

لَحِقَ إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا:
﴿إِنَّا إِذَا لَخِئْرُونَ﴾ : لَأَنَّ مَنْ بَاعَ أَخًا مِثْلَ يَوْسُفَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الثَّمَنِ حَقِيقٌ بِأَن
يقال قد خسرت صفقته .

ويقال لَمَّا عُدُّوا القوة في أنفسهم حين قالوا: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ خُذِلُوا حتى
فعلوا .

ويقال لَمَّا رَكَنَ يعقوب - عليه السلام - إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ لَقِيَ مَا
لَقِيَ .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ
لَتَنِتْنَهُمْ يَأْمُرُهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

الجواب فيه مُقَدَّرٌ ؛ ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه في البئر
فعلوا ما عزموا عليه . أو فلَمَّا ذهبوا به وألقوه في غيابة الجُبِّ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ؛ فتكون الواو
صلة . والإشارة فيه أنه لَمْ حَلَّتْ به البلوى عَجَلْنَا له التعريف بما ذكرنا من البُشْرَى ؛
ليكون محمولاً بالتعريف فيما هو متحمل له من البلاء العنيف .

ويقال حين انقطعت على يوسف عليه السلام مراعاة أبيه حَصَلَ له الوحي مِّن
قِبَل مولاه ، وكذا سُئِنَتْ تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاء إِلَّا فَتَحَ على
قلوبهم أبواب الصفاء ، وفنون لطائف الولاء .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ .

تمكينُ الكذاب من البكاء سِمَةٌ خذلان الله تعالى إياه ، وفي الخبر: «إِذَا كَمَلَ
نفاق المرء مَلَكَ عَيْنُهُ حتى يبكي ما شاء» .

ويقال: لا يَبْعُدُ أَنْ يقال إنهم وَإِنْ جَنَوْا على يوسف عليه السلام فقد ندموا على
ما فعلوا ، فَعَلَّاهُمُ البكاء لندمهم - وَإِنْ لَمْ يُظْهَرُوا لأبيهم - وَتَقَوْلُوا على الذئب .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ .

لم يُؤْثِرْ تزوير قَالِهِمْ في إيجاب تصديق يعقوب - عليه السلام - لكذبهم بل أخبره
قلبه أَنَّ الأمر بخلاف ما يقولونه فقال:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ .

فَعَلِمَ عَلَى الْجَمَلَةِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ عَلَى التَّفْضِيلِ . . . وهكذا تفرع قلوب الصديقين عواقب الأمور على وجه الإجمال، إلى أَنْ تَتَضَخَّ لَهُمْ تَفَاصِيلُهَا فِي الْمُسْتَأْنَفِ .

ويقال عوقبوا على ما فعلوه بأن أغفلوا عن تمزيق قميصه حتى علم يعقوب نَقُولُهُمْ فِيمَا وَصَفُوا .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

ليس كل من طلب شيئاً يُعْطَى مراده فقط بل ربما يُعْطَى فوق مأموله؛ كالسيارة كانوا يقنعون بوجود الماء فوجدوا يوسف عليه السلام .

ويقال ليس كل مَنْ وَجَدَ شيئاً كان كما وجده السيارة؛ توهموا أنهم وجدوا عبداً مملوكاً وكان يوسف - في الحقيقة - حُرّاً .

ويقال لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى خَلاصَ يَوْسُفَ - عليه السلام - من الجُبِّ أزعج خواطر السَّيَّارَةِ في قصد السفر، وأعدمهم الماء حتى احتاجوا إلى الاستقاء لِیَصِلَ يوسف عليه السلام إلى الخلاص، ولهذا قيل: أَلَا رُبُّ تَشْوِيشٍ يَقَعُ فِي الْعَالَمِ، والمقصودُ منه سَكُونٌ وَاحِدٌ . كما قيل: رُبُّ سَاعٍ لَهُ قَاعِدٌ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسَرُّهُ بِضَاعٍ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ . لم يعرفوا خسرانهم في الحال ولكنهم وقفوا عليه في المآل .

ويقال قَدْ يَبْتَاعُ مثل يوسف عليه السلام بثمن بخس، ولكن إذا وقعت الحاجةُ إليه فعند ذلك يعلم ما يلحق من الْعَبَثِ .

ويقال: لم يحتشموا من يوسف - عليه السلام - يوم باعوه ثمن بَخْسٍ، ولكن لما قال لهم: أنا يوسف - وقع عليهم الخجل، ولهذا قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء .

ويقال لَمَّا خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ بَاعَ أَخَاهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .

ويقال لَمَّا وَصَلَ النَّاسُ إِلَى رَفَقِ يَوْسُفَ عَاشُوا فِي نِعْمَتِهِ، واحتاجوا إلى أَنْ يَقِفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي مَقَامِ الذُّلِّ قَائِلِينَ ﴿مَسْنَا وَأَهْلُنَا أَلْفُ رُكُوفٍ﴾ [يوسف: ٨٨]، وفي معناه أنشدوا:

سَتَسْمَعُ بِي وَتَذْكُرْنِي وَتَطْلُبْنِي فَلَا تَجِدِ

ويقال ليس الْعَجَبُ مَنْ يَبِيعُ مثل يوسف - عليه السلام - بثمن بَخْسٍ إنما الْعَجَبُ مَنْ (. . .)^(١) مثل يوسف - عليه السلام - بثمن بخس، لا سَيِّمًا ﴿وَكَانُوا

(١) بياض في الأصل .

فِيهِ مِنَ الزَّهْدِ ﴿١٠﴾ الخرق لا غاية له، وكذا العجب لا نباته له.

ويقال ليس العجب ممن يبيع يوسف - عليه السلام - بثمان بخص، إنما العجب ممن يبيع وقته الذي أعز من الكبريت الأحمر بعرض حقير من أعراض الدنيا. ويقال إن السيارة لم يعرفوا قيمته فزهدوا في شرائه بدراهم، والذين وقفوا على جماله وشيء من أحواله غالوا - بمصر - في ثمنه حتى اشتروه بزنه دراهم ودنانير مرات - كما في القصة، وفي معناه أنشدوا:

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ يَا مَوْلَايَ مُطَّرِحًا فعند غيرك محمولٌ على الحَدَقِ^(١)
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

لما نودي على يوسف في مصر بالبيع لم يرض الحق - سبحانه - حتى أصابتهم الضرورة ومستهم الفاقة حتى باعوا من يوسف - عليه السلام - جميع أملاكهم، ثم باعوا كلهم منه أنفسهم - كما في القصة - وفي آخر أمرهم طلبوا الطعام، فصاروا بأجمعهم عبيده، ثم إنه عليه السلام لما ملكهم من عليهم فأعتقهم؛ فليكن مر عليه بمصر يوم نودي فيه عليه بالبيع؛ فقد أصبح بمصر يوماً آخر وقد ملك جميع أملاكهم، وملك رقاب جميعهم؛ فيوم بيوم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] يومان شتان بينهما!

ثم إنه أعتقهم جميعاً... وكذا الكريم إذا قدر غفر.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾. أراد من حسده ألا تكون له فضيلة على إخوته وذويه، وأراد الله أن يكون له ملك الأرض، وكان ما أراد الله لا ما أراد أعداؤه.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

أرادوا أن يكون يوسف عليه السلام في الجب، وأراد الله - سبحانه - أن يكون يوسف على سرير الملك؛ فكان ما أراد الله، والله غالب على أمره. وأرادوا أن يكون يوسف عبداً لمن ابتاعوه من السيارة، وأراد الله أن يكون عزيز مصر - وكان ما أراد الله.

ويقال العبرة لا ترى من الحق في الحال، وإنما الاعتبار بما يظهر في سر تقديره في المال.

(١) الحدق: (ج) الحدقة: السواد المستدير وسط العين. و (في الطب): فتحة مستديرة ضيقة وسط قرينة العين.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

من جملة الحكم الذي آتاه الله نفوذ حكمه على نفسه حتى غلب شهوته، وامتنع عما رآودته تلك المرأة عن نفسه؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكم له على غيره.

ويقال إنما قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حين استوى شبابه واكتملت قوته، وكان وقت استيلاء الشهوة، وتوفر دواعي مطالبات البشرية - آتاه الله الحكم الذي حبسه على الحق وصرفه عن الباطل، وعلم أن ما يعقب اتباع اللذات من هواجم الندم أشد مقاساة من كلفة الصبر في حال الامتناع عن دواعي الشهوة. . . فآثر مشقة الامتناع على لذة الاتباع. وذلك الذي أشار إليه الحق - سبحانه من جميل الجزاء الذي أعطاه هو إمداده بالتوفيق حتى استقام في التقوى والورع على سواء الطريق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] أي الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة لنهدينهم سبل الصبر على الاستقامة حتى تتبين لهم حقائق المواصلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَادَوْتُهُ أَلَيَّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾.

لما علقت عليه أبواب المسكن فتح الله عليه باب العصمة، فلم يضربه ما أغلق بعد إكرامه بما فُتح.

وفي التفسير أنه حفظ حُرمة الرجل الذي اشتراه، وهو العزيز.

وفي الحقيقة أشار بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ إلى ربه الحق تعالى: هو مولاي الحق تعالى، وهو الذي خلصني من الجُب، وهو الذي جعل في قلب العزيز لي محلاً كبيراً فأكرم مثواي فلا ينبغي أن أقدم على عصيانه - سبحانه - وقد غمرني بجميل إحسانه. ويقال إن يوسف عليه السلام قال لها: إن العزيز أمرني أن أنفعه. ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ فلا أخونه في حُرْمته بظهر الغيب.

ويقال لما حفظ حُرمة المخلوق بظهر الغيب أكرمه الحق سبحانه بالإمداد بالعصمة في الحال ومكّنه من مواصلتها في المال على وجه الحلال.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوَّهَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوَّ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه - بغير اختياره ولا بكسبه - كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف، فلم يكن «الهم» منه ولا منها زلة، وإنما الزلة من المرأة كانت من حيث عَزَمَتْ على ما هَمَّتْ، فأما نفس الهم فليس مما يكسبه العبد.

ويقال اشتركا في الهم وأُفرد - يوسف عليه السلام - بإشهاد البرهان.

وفي تعيين ذلك البرهان - ما الذي كان؟ - تكلف غير محمود إذ لا سبيل إليه إلا بالخبر المقطوع به.

وفي الجملة كان البرهان تعريفاً من الحق إياه بآية من آيات صنعه، قال تعالى: ﴿سَرَّيْهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ صَرَفَ عنه السُّوءَ حتى لم يوجد منه العزم على ذلك الفعل - وإن كان منه هم - إلا أن ذلك لم يكن جُزْماً كما ذكرنا.

والصَّرْفُ عن الطريق بعد حصول الهم - كشف، والسوء المصروف عنه هو العزم على الزنا والفحشاء أو نفس الزنا، وقد صرفهما الله تعالى عنه.

قوله: ﴿إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِلِينَ﴾: لم تكن نجاته في خلاصه، ولكن في صرف السوء عنه واستخلاصه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾.

استبقا، هذا ليَهْرَبَ، وهذه للفعلة التي كانت تطلب.

ولم يضر يوسف - عليه السلام - أَنْ قَدَّتْ ^(١) قميصه وهو لِبَاسُ دنياه بعد ما صحَّ عليه قميصُ تقواه.

ويقال لم تَقْصِدْ قَدْ القميصَ وإنما تَعَلَّقْتَ به لِتُخَيِّسَهُ على نفسها، وكان قصدها بقاء يوسف - عليه السلام - معها، ولكن صار فعلها وبِالْأَعْلَى نَفْسِهَا، فكان بلاؤها من حيث طَلَبَتْ راحتها وشفاءها.

ويقال تولد انخراقُ القميص من قبضها عليه وكان في ذلك افتضاح أمرها؛ لأن قَبْضَهَا على قميصه كان مزجوراً عنه. . لِيُعْلَمَ أَنَّ الْفَاسِدَ شُجْهٌ ^(٢) فاسدٌ.

ويقال لشدة استيلاء الهوى عليها لم تعلم في الحال أنها تقدت قميصه من ورائه أو من قُدَامِهِ. . كذلك صاحبُ البلاء في الهوى مسلوبُ التمييز.

ويقال لما لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قميصه ليكون لها في إلقائها الذنب على يوسف - عليه السلام - حُجَّةٌ، فَقَلَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ حتى صار ذلك عليها حجة، وليوسف دلالة صدق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾: لَمَّا فَتَحَا الْبَابَ وجدا سيدها لدى الباب، والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد؛ إذا خَرَجَ الْعَبْدُ عن الذي هو عليه من التكليف في الحال وقع في ضيق السؤال.

(١) انقد الثوب: انشق.

(٢) شجه: جرح وجهه أو رأسه.

ويقال قال: ﴿وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا﴾ ولم يقل سيدهما لأن يوسف في الحقيقة كان حراً ولم يكن العزيز له سيداً.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

شغلته بإغرائها إياه بيوسف عن نفسها بأن سبقت إلى هذا الكلام.

ويقال لقنته حديث السجن أو العذاب الأليم لثلاث يقصد قتله؛ ففي عين ما سعت به نظرت له وأبقت عليه.

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترض بذلك، وستزيد؛ فالعذاب الأليم يعني الضرب المبرح. . كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدرج.

ويقال أوقعت السجن الذي يبقى مؤجلاً في مقابلة الضرب الأليم المعجل ليغلم أن السجن الطويل - وإن لم يكن فيه في الظاهر ألم - فهو في مقابلة الضرب الشديد الموجع؛ لأنه - وإن اشتد فلا يقابله.

ويقال قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ فذكر الأهل ها هنا غاية تهيج الحمية وتذكير بالأنفة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيِّمُكُمْ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَيِّمُكُمْ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَىٰ قَيِّمُكُمْ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أفصح يوسف عليه السلام بجزئها إذ ليس للفاسق حزمة يجب حفظها، فلم يبال أن هتك سترها فقال: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فلما كان يوسف صادقاً في قوله؛ ولم يكن له شاهد أنطق الله الصبي الصغير الذي لم يبلغ أو أن النطق. ولهذا قيل إذا كان العبد صادقاً في نفسه لم يبال الله أن ينطق الحجر لأجله.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَيِّمُكُمْ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ...﴾ لما اتضح الأمر واستبان الحال وظهرت براءة ساحة يوسف عليه السلام قال العزيز: ﴿إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُنَّ﴾: دلت الآية على أن الزنا كان محرماً في شرعهم.

قوله جل ذكره: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

لم يرز أن يهتك ستر امرأته فقال ليوسف: أعرض عن هذا الحديث، ثم قال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾: دل على أنه لم يكن في شرعهم على الزنا حد - وإن كان محرماً حيث عدّه ذنباً.

ويقال ليس كل أحد أهلاً للبلاء؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء، فأما

الأجانب فَيَتَجَاوَزُ عنهم وَيُخْلَى سبيلهم - لا لكرامة محلهم - ولكن لحقارة قدرهم، فهذا يوسف عليه السلام كان بريء الساحة، وظهرت للكل سلامته جانبه واثباته بالسجن. وامرأة العزيز في سوء فعلها حيث قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾، وقال لها: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ﴾. . ثم لم تنزل بها شظية من البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ يَسُوفاً فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

إن الهوى لا ينكتم، ولا تكون المحبة إلا وأبيح لها لسان عذول، فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النسوة فيها لسان الملامة.

ولما كانت أحسن منهن قيمة - فقد كن من جملة خدَمِها - كانت أسرع إلى الملامة.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكاً وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُورٌ لِّنُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

أرادت أن يغلب عليهن استحقاق الملامة، وتنفى عن نفسها أن تكون لها أهلاً، ففعلت بهن ما عَمِلَتْ، فلما رأينه تَغَيَّرْنَ وتحَيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز، فقلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾: وقد كان بشراً، وقلن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: ولم يكن ملكاً.

قوله: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾: أثرت رؤيتهن له فيهن فَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بدل الثمار، ولم يشعرن، وضعفن بذلك عندها فقالت: ألم أقل لكن؟ أنتن لم تتمالكن حتى قَطَّعْنَ أَيْدِيَكُنَّ! فكيف أصبر وهو في منزلي؟! وفي معناه أنشدوا:

(أنت عند الخصام عدوي) (١).

ويقال (٢) إن امرأة العزيز كانت أتم في حديث يوسف - عليه السلام - من النسوة فَأَثَرَتْ رؤيته فيهن ولم تُؤَثِّرْ فيها، والتَغْيَرُ صفة أهل الابتداء في الأمر، فإذا دام المعنى زال التغير؛ قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الإسلام: هكذا كُنَّا حتى قَسَتْ القلوب. أي وَقَرَّتْ وَصَلَبَتْ. وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسْمَعُ له صوت فإذا تَعَوَّدَ شَرَبَ الماء سَكَنَ فلا يُسْمَعُ له صوت.

(١) بياض في الأصل.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٧٨ - ٨٠ عند حديث القشيري عن التلوين والتمكين مركزاً على رأي الدقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

الاختبار مقرون بالاختيار؛ ولو تمنى العافية بدل ما كان يُدعى إليه لعله كان يُعافى، ولكنه لما قال: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ طُوبِ بِصِدْقِ مَا قَالَ .
ويقال إن يوسف عليه السلام نطق من عين التوحيد حيث قال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ فقد علم أن نجاته في أن يَصْرِفَ - سبحانه - البلاء عنه لا بتكليفه ولا بتجنبه .

ويقال لما أثر يوسف - عليه السلام - لحوق المشقة في الله على لذة نفسه أثره غرضه حتى قيل له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١] .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

لما رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيك الإغاثة . . . كذلك ما اغبر لأحد - في الله تعالى - قَدَمٌ إِلَّا رَوْحَهُ بِكَرَمِهِ وتولاه بِنِعْمِهِ - إنه هو ﴿السَّمِيعُ﴾ لأقوال السائلين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ .

لما سَجَنَ يوسف - عليه السلام - مع ظهور براءة ساحته اتقاء على امرأته أن يَهْتَكَ سِتْرُهَا حَوْلَ اللَّهِ مُلْكَةً إِلَيْهِ، ثم في آخر الأمر حَكَمَ اللَّهُ بأن صارت امرأته بعد مقاساتها الضرر . . . وهذا جزاء مَنْ صَبَرَ .

ويقال لما ظَلِمَ يوسف عليه السلام بما نُسِبَ إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت في آخر أمرها بما كان فيه هتك سترها، فقالت: ﴿أَلَنْ حَصَحَّ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١] .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

لصحبة السجن أثر يظهر ولو بعد حين؛ فإن يوسف عليه السلام لما قال لصاحبه اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فبقي يوسف في السجن زماناً، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال: فأرسلوا إلى يوسف وقيل له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ . . . أَقْتَنَا﴾ الآية [يوسف: ٤٦] فالصحبة تُغْطِي بَرَكَاتِهَا وإن كانت تُبْطِئُ .

قوله: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: الشهادة بالإحسان للمحسن ذريعة، بها يتوسل إلى استجلاب إحسانه .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

التَّيَبُّتُ في الجواب دون التسرع من أمارات أهل المكارم، كيوسف عليه السلام وعدهما أن يجييهما ولم يُسرِعْ الإجابة في الوقت.

ويقال لما أَخَّرَ الإجابة عَلَّقَ قلوبهما بالوعد؛ وإذا لم يكن نَقْدُ فليكن وَعْدُ.

ويقال لما فاتحوه بسؤالهم قَدَّمَ على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد فقال: ﴿ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ...﴾ ثم قال:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

ولما فَرَّغَ من تفسير التوحيد، والدعاء إلى الحق سبحانه أجابهما فقال:

﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَبْرَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَتَيَبُّوهُمَا اشْرَ وَابْتَأُكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ أَمْرٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ آفَقَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكت حين أخذ في شرح التوحيد وذكر المعبود، وفي الخبر: «مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ».

قوله جل ذكره: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الظُّبُرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

اشتركا في السؤال واشتركا في الحكم وفي دخول السجن، ولكن تباينا في المآل؛ واحدٌ صُلِبَ، وواحدٌ قُرِبَ وَوُهِبَ. وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق؛ فَمِنْ مرفوع: فوق السَّمَاءِ^(١) مَطْلَعُهُ، ومن مدفون: تحت التراب مضجَعُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَمَّا فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

يتبين أن تعبير الرؤيا - وإن كان حقا - فهو بطريق غَلَبَةِ الظَّنِّ دون القطع.

ثم إنه عاتب يوسف عليه السلام لأنه نَسِيَ في حديثه مَنْ يستعين به حين قال: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

(١) السَّمَاءُ: السماكان: نجمان نيران. يقال لأحدهما السماك الرامح وللآخر السماك الأعزل. يقال: بلغ فلان السماك؛ أي: بلغ رتبة عالية. (اللسان ١٠/٤٤٣).

ويقال إنه طَلَبَ من بَشَرٍ عَوَضاً على ما عَلَّمَهُ، وفي بعض الكتب المنزلة: يا ابن آدم، عَلَّمْ مَجَاناً كما عَلَّمْتَ مَجَاناً.

ولما استعان بالمخلوق طال مُكُثُهُ في السجن، كذلك يجازي الحق - سبحانه - مَنْ يُعَلِّقُ قلبه بمخلوق.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَنَعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَنَعٌ عَبَاقُ وَسَنَعٌ سُئِلْتُ خُضِرَ وَأُخِرَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُؤْيَى إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

كان ابتداء بلاء يوسف - عليه السلام - بسبب رؤيا رآها فَنَشَرَهَا وأظهرها، وكان سبب نجاته أيضاً رؤيا رآها الملك فأظهرها، لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يفعل ما يريد؛ فكما جعل بلاءه في إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا؛ لِيُعْلَمَ الكافة أن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعِلْمٍ﴾.

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ في التعبير؛ فإنَّ القومَ حكموا بأن رؤياه أضغاث أحلام^(١) فلم يُضِرْهُ ذلك، ولم يؤثر في صحة تأويلها.

قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعِلْمٍ﴾: مَنْ طَلَبَ الشيءَ مِنْ غيرِ موضِعِهِ لم يَنَلْ مطلوبه، ولم يَسْعِدْ بمقصوده.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونْ﴾.

لَمَّا كَانَ المعلومُ لله والمحكومُ أن يوسفَ عليه السلام يكون في ذلك الوقت هو مَنْ يُعَبِّرُ الرؤيا - قَبَضَ القلوبَ حتى خَفِيَ عليها تعبيرُ تلك الرؤيا، ولم يحصل للملك ثَلَجُ الصَّدْرِ إلا بتعبير يوسف، لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ - سبحانه - إذا أراد أمراً سهَّلَ أسبابه.

ويقال: إن الله تعالى أفرد يوسفَ عليه السلام من بين أشكاله بشيئين: بخُشْنِ الخَلْقَةِ وبزيادة العلم؛ فكان جماله سببَ بلائه، وصار علمه سببَ نجاته، لِيُعْلَمَ مزية العلم على غيره، لهذا قيل: العلم يُعْطِي وإن كان يُبْطِئ.

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلم بالمولى أولى أن يوجب العقبى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نِعَمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَنَعٌ سَيْنٍ دَابَّاً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾^(٢).

(١) أضغاث أحلام: الرؤيا التي لا يصح تأويلها لاختلاطها. (اللسان ١٦٣/٢).

(٢) الآية (٤٦) لم ترد.

لم يقدم الدعاء إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى، لأن هذا السائل هو الذي دعاه في المرة الأولى. فإما أنه قد قُبِلَ في المرة الثانية، وإما أنه لم يقبل فَيَبَسَ منه فأهمله.

وصاحب الرؤيا الثانية كانت المَلِكُ وكان غائباً، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا في المشاهدة دون المغاية.

ويقال يحتمل أن يكون قد تفرّس في القَتَيان قبول التوحيد فإن الشباب أَلِينُ قلوباً، أمّا في هذا الموضع فقد كان المَلِكُ أصْلَبَ قلوباً وأفظَ جانبياً؛ فلذلك لم يَدْعُهُ إلى التوحيد لِمَا تفرّسَ فيه من الغِلظة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا وَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْأَنْسُوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾^(١).

أراد عليه السلام ألا يلاحظه المَلِكُ بعين الخيانة فيُسْقِطَهُ عِيَهُ من قلبه؛ فلا يؤثر فيه قوله، فلذلك ثَوَّقَ حتى يَظْهَرَ أمرُهُ للمَلِكِ وتنكشف براءةُ ساحته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

الحقائق لا تنكتم أصلاً ولا بُدَّ من أن تَبِينَ . . ولو بعد حين.

نُسِبَ يوسفُ إلى ما كان منه بريئاً، وأُنْبِ على ذلك مدة، وكان أمرُهُ في ذلك خَفِيّاً. ثم إن الله تعالى دَفَعَ عنه التهمة ورفع عنه المَظَنَّةَ، وأنطقَ عِذَالَهُ، وأظهر حالَهُ، عما فرق به سرباله^(٢)؛ فَقُلْنَ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنَادِقِينَ﴾.

لَمَّا كانت امرأة العزيز غيرَ تَامَةٍ في محبة يوسف تركت ذنبَهَا عليه وقالت لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ ولم يكن ليوسف عليه السلام ذنب. ثم لَمَّا تناهت في محبته أَقْرَت بالذنبِ على نفسها فقالت: ﴿الْفَنِّ حَصَصَ الْحَقُّ . . .﴾ فالتناهي في الحب يوجب هتكَ الستر، وقلة المبالاة بظهور الأمر^(٣) والسُر، وقيل:

لِيُقْلَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ فَلِإِنِّي لَا أَبَالِي

(١) الآيتان (٤٨ - ٤٩) لم تردا.

(٢) السربال: ما يُلبس من قميص أو درع (ج) سراويل.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٣١٧ - ٣٢٩ عند حديث القشيري عن المحبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾.

إنما أراد الله أن يُظهر براءة ساحة يوسف، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على ما يبسطون فيه من لسان الملامة وذكر القبيح، ولم يُردّ يوسف أن يصيهم بسببه - من قبل الله - عذاب شَفَقَةً منه عليهم، وهذه صفة الأولياء: أن يكونوا خَصَمَ أَنْفُسِهِمْ، ولهذا قيل: الصوفي دمه هَذَرٌ وَمِلْكُهُ مُبَاخٌ^(١) - ولذلك قال:

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لَمَّا تَمَدَّحَ بقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ كأنه نوّدي في سرّه: ولا حين هَمَمْتُ؟ فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾.

ويقال: قوله ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بيان الشكر على ما عصمه الله، وقوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ بيان العذر لما قصّر في أمر الله، فاستوجب شكره زيادة الإحسان، واستحقّ بعذره العفو.

والعفو بادٍ من قوله:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ أَستَخْلُصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

لما إتضحت للملك طهارة فعله ونزاهة حاله استحضره لاستصفائه لنفسه، فلمّا كَلَّمَهُ وَسَمِعَ بيانه رَفَعَ محلّه ومكانه، وضمنه برّه وإحسانه، فقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

إنما سأل ذلك ليضع الحقّ موضعه، وليصل نصيب الفقراء إليهم، فَطَلَبَ حقّ الله تعالى في ذلك، ولم يطلب نصيباً لنفسه.

ويقال لم يقل إني حَسَنٌ جميلٌ بل قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي كاتِبٌ حاسِبٌ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الفضل في المعاني لا في الصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لَمَّا لم تكن له دواعي الشهوات من نفسه مَكَّنَهُ الله من مُلْكِهِ - قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْقَرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهَا فِيهَا﴾ [الشورى: ٦٣] - فقال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد، وبَيَّن أنه إنما يوفّي عباده من الطافه بفضله لا

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٨١ فهذا تعريف سهل بن عبد الله للصوفي.

بفعلهم، وبرحمته لا يخدمتهم؛ فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتَا مَنْ نَشَاءُ﴾ ثم يرقى همهم عما أولاهم من النعم فقال:

﴿وَلَا جَرْءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾.

لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّقْوَى وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾.

عَرَفَ يُوسُفَ - عليه السلام - إِخْوَتَهُ وَأَنْكَرُوهُ، لِأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ فِي رِقِّ الْعِبُودِيَّةِ لَمَّا بَاعُوهُ، بَيْنَمَا يُوسُفَ - فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ - كَانَ قَاعِداً بِمَكَانِ الْمَلِكِ. فَمَنْ طَلَبَ الْمَلِكُ فِي صِفَةِ الْعَبِيدِ مَتَى يَعْرِفُهُ؟

وكذلك مَنْ يَعْتَقِدُ فِي صِفَاتِ الْمَعْبُودِ مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ... متى يكون عارفاً؟ هيهات هيهات لما يحسبون!

ويقال لَمَّا أَخْفَوْهُ صَارَ خِفَاؤُهُ حِجَاباً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِمْ إِيَّاهُ، كَذَلِكَ الْعَاصِي.. بخطاياهم وزلاته تقع غَبْرَةً عَلَى وَجْهِ مَعْرِفَتِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَنْعَامٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآلَا تَرَوْتُمْ أَنَّيُ أُوفِي الْكَيْلُ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

الْمَحِبُّ غَيْرُ؟ فَلَمَّا كَانَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ تَسَلَّى عَنْ يُوسُفَ بِرُؤْيَا ابْنِهِ بَنِيَامِينَ غَارَ يُوسُفَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ يَعْقُوبُ^(١).

ويقال تَلَطَّفَ يُوسُفَ فِي اسْتِحْضَارِ بَنِيَامِينَ بِالْتَّرَغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَأَمَّا التَّرَغِيبُ فَفِي مَالِهِ الَّذِي أَوْصَلَهُ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿أَلَا تَرَوْتُمْ أَنَّيُ أُوفِي الْكَيْلُ﴾ وَفِي إِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ وَفِي إِكْرَامِهِ لَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

وَأَمَّا التَّرْهِيبُ فَبِمَنْعِ الْمَالِ وَهُوَ يَقُولُ:

﴿فَإِنْ لَرَأَوْنِي يَوْمَ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾.

أَيُ فَإِنْ لَمْ تَوَافِقُونِي عَلَيْهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي، وَأَمْنَعُ الْإِكْرَامِ وَالْإِقْبَالَ عَنْكُمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا سَتَرْنَا عَنْهُ آيَاتِنَا وَلَئِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾.

لَمَّا عَلِمَ يُوسُفُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ بَاعُوهُ بِشَيْءٍ يَخْسِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَأْتُونَهُ بِأَخِيهِمْ طَمَعاً فِي إِيفَاءِ الْكَيْلِ، فَلَنْ يَضَعُ عَلَيْهِمُ الْإِتْيَانَ بِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٥٤ - ٢٥٩ حديث القشيري عن الغيرة.

جَعَلُ بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ - فِي بَابِ الْكَرَمِ - أَتَمُّ مِنْ أَنْ لَوْ وَهَبَهَا لَهُمْ جَهْرًا؛
لأنه يكون حينئذ فيه تقليد منه بالمواجهة، وفي تمليكها لهم بإشارة تجرؤ من تكلف
تقليد منه بالمحاضرة.

ويقال عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِلُّونَ مَالَ الْغَيْرِ قَدَسَ بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لكن إذا
رَأَوْهَا قَالُوا: هَذَا وَقَعَ فِي رِحَالِنَا مِنْهُمْ بِعَلَطٍ، فالواجب علينا ردُّها عليهم. وكانوا
يرجعون بسبب ذلك شاءوا أم أبوا.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مِثْلَ مَا الْكَيْلُ فَأَرْسَلَ مَعَنَا
أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾.

لم يمنع يوسف منهم الكيل، وكيف منع وقد قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ؟﴾
ولكنهم تجاوزوا في ذلك تفخيماً للأمر حتى تسمح نفس يعقوب عليه السلام
بإرسال بنيامين معهم.

ويقال أرادوا بقولهم: ﴿مِثْلَ مَا الْكَيْلُ﴾ في المستقبل إذا لم تجمله إليه.
ويقال إنهم تَلَطَّفُوا في القول ليعقوب - عليه السلام - حيث قالوا: ﴿أَخَانَا﴾
إظهاراً لشفتهم عليه، ثم أَكْدُوا ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾.
مَنْ عَرَفَ الْخِيَانَةَ لَا يَلَاظِ الْأَمَانَةَ، ولذا لم تَسْكُنْ نَفْسُ يَعْقُوبَ بِضَمَانِهِمْ لِمَا
سَبَقَ إِلَيْهِ مِنْ شَأْنِهِمْ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿قَالَ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.
﴿قَالَ خَيْرٌ حَافِظًا﴾: يحفظ بنيامين فلا يصيبه شيء مِنْ قِبَلِهِمْ.

ولم يقل يعقوب فإله خير مَنْ يَرُدُّهُ إِلَيَّ، ولو قال ذلك لعلَّه كان يرده إليه
سريعاً.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَا
بَنَيْ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ
يَسِيرٍ﴾.

بَيْنَ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ حِينَ عَامَلَهُمْ لَمْ يَخْتِجْ إِلَى عَوَضٍ يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ،
فَلَمَّا بَاعَهُمْ وَجَمَعَ لَهُمُ الْكَيْلَ مَا أَخَذَ مِنْهُمْ ثَمَنًا، وَالْإِشَارَةُ مِنْ هَذَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿إِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ لَهُمْ وَإِنْ أَهْمَنْتَ لَأَهْمَنْتَ بِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وَكُلُّ مَنْ خَطَا لِلدِّينِ خَطْوَةً كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَجَازَاهُ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ رَوْحِ الطَّاعَةِ
وَلَذَّةِ الْعَيْشِ مِنْ حَيْثُ الْخِدْمَةُ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِوَدِّهِ إِلَّا أَنْ يَحْطَأَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ .

إِنَّ الْحَذَرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدَرِ . وقد عَمِلَ يعقوب - عليه السلام - معهم في باب بنيامين ما أمكنه من الاحتياط ، وأخذ الميثاق ولكن لم يُغْنِ عنه اجتهاذه ، وَحَصَلَ ما حكم به الله .

قوله جل ذكره: ﴿يَنْبَغِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

يحتمل أن يكون أراد تفريقهم في الدخول لعل واحداً منهم يقع بصره على يوسف ، فإن لم يره أحدهم قد يراه الآخر .

ويقال ظنَّ يعقوب أنهم في أمر يوسف كانوا في شدة العناية بشأنيه ، ولم يعلم أنهم كارهون لمكانه .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

إن لم يحصل مقصود يعقوب عليه السلام في المال حصل مراده في الحال ، وفي ذلك القدر لأرباب القلوب استقلال .

ويقال على الأصغر حفظ إشارات الأكابر ، والقول فيما يأمر به هل فيه فائدة أم لا - تَرْكُ للدُّب .

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ويتمنى به حصول مراده . .

ثم لا يحصل مراده عليم أنه لا ينبغي أن يُعْتَقَدَ في الشيوخ أن جميع ما يريدون يتفق كونه على ما أرادوا ؛ لأنَّ الذي لا يكون إلا ما يريده واجباً وما أراداه فهو كائن . . هو الله الواحد القهار .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَيْتَ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

حديث المحبة وأحكامها أقسام : اشتاق يعقوب إلى لقاء يوسف عليهما السلام فَبَقِيَ سنين كثيرة ، واشتاق يوسف إلى بنيامين فَرَزَقَ رؤيته في أَوْجَزِ مدة . وَهَكَذَا الأمر ؛ فمنهم موقوف به ، ومنهم صاحب بلاء .

ويقال لئن سَخِنْتَ^(١) عين يعقوب عليه السلام بمفارقة بنيامين فلقد قَرَّتْ عَيْنُ يوسفَ بلفائه . كذا الأمر : لا تَغْرُبْ الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين .
قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ عِيزُ لَكُمْ لَسْرِقُونَ ﴾ .

احتمل بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعدما التقى مع يوسف .
ويقال : ما نُسِبَ إليه من سوء الفعل هان عليه في جنب ما وجد من الوصال .
ويقال لئن نَسَبَ أخاه للسرقة تعرّف إليه بقوله : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ - سِرّاً ، فكان مُتَحَمِّلاً لأعباء الملامة في ظاهره ، محمولاً بوجدان الكرامة في سِرِّه ، وفي معناه أنشدوا :

أَجِدُ الملامةَ في هواك لذيذةً حُبّاً لذكرك فَلْيَلْمُنِي اللُّومُ
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُسِِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾^(٢) .

يعني حُسْنُ سيرتنا في سير المعاملة يدلکم على حسن سيرتنا في الحالة .
ويقال لو كُنَّا نسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولَمَّا وجدتموه في رحالنا بعد أن غَبْنَا عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .
تَجَاسَرَ إخوة يوسف بجريان جزاء السرقة عليهم ثقة بأنفسهم أنهم لم يباشروا الزُّلَّةَ ، وكان بنيامين شريكهم في براءة السَّاحَةِ ، فلما اسْتُخْرِجَ الصَّاعُ مِنْ وعائه بَسَطَ الإخوةُ فيه لسان الملامة ، وبقي بنيامين فلم يكن له جوابٌ كَأَنَّهُ أَقَرَّ بالسرقة ، ولم يكن ذلك صدقاً إذ أنه لم يَسْرِقْ ، ولو قال : لم أَفْعَلْ لأفشى سِرَّ يوسف عليه السلام الذي احتال معهم ذلك لأجله حتى يُبَيِّقَهُ معه ، فَسَكَتَ لسان بنيامين ، وتحقَّق بالحالِ قَلْبُهُ .
ويقال لم يستصعب الملامة - وإن كان بريئاً - مما قُرِنَ به ، ولا يَضُرُّ سوء المقالة بالمكاشفين بعد حُسْنِ الحالةِ مع الأحباب .

ويقال سيئ بما أَظْهَرَتْ عليه المقالة ، ولكن حَصَلَ له بذلك صفاء الحالة .
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾^(٣) .

(١) سخنت العين سخناً : لم تفرّ ، فهي سخيّة .

(٢) الآيتان (٧١ - ٧٢) لم تردا . (٣) الآيتان (٧٥ ، ٧٦) لم تردا .

كان بنيامينُ بُرِيئاً مما رُمِيَ به من السرقة، فأنتقمهم الله تعالى حتى رَمَوْا يوسف عليه السلام بالسرقة، واحدٌ بواحد ليغْلَمَ العالمون أنَّ الجزاء واجبٌ.

ويقال كان القَرْحُ بالقَدَحِ^(١) أوجَعَ ما سَمِعَهُ يوسف منهم حيث قالوا:
﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلٍ﴾ فقد كان ذلك أشدَّ تأثيراً في قلبه من الجفاء الأول.

ويقال إذا حَقَقَ عليك المَلِكُ فلا تأمَنَ غِبَّهُ - وإن طالت المدة - فإن يوسف عليه السلام حَقَقَ عليهم فلقوا في المستأنف منه ما ساءَهم مِنْ حَبْسِ أخيه، وما صاحبهم من الحَجَل من أبيهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَكْفَىٰ عَذَابَ الْعَزِيزِ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لم تنفعهم كثرةُ التَّنْصُلِ^(٢)، وما راموا به من ذكر أبيهم ابتغاءَ التوسُّلِ، ولم ينفعهم ما قيل منهم حين عَرَضُوا عليه أن يأخذَ أحدهم في البَدَلِ... كذلك فكلُّ مُطَالِبٍ بفعل نفسه: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ٦٤]؛ فلا الأب يُؤْخَذُ بِدَلِّ الولد، ولا القريبُ يُرَضَى به عوضاً عن أحد؛ لذلك قال يوسف عليه السلام:

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَيْكَ تَوَدُّوا أَنْ الْحَدِيثَ مَعَهُمْ مِنْ حَيْثُ مَعَامِلَةُ الْأَمْوَالِ، فَعَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ كَيْ يُؤْخَذَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِدَلِّ أَخِيهِمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَادَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ مَقْصُودَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا اسْتَكْرَأَ فِي قَلْبِهِ مِنْ حُبِّ لِأَخِيهِ، وَكَلَّا... أَنْ يَكُونَ عَنِ الْمَحْبُوبِ بِدَلٍّ أَوْ لِقَوْمٍ مَقَامُ أَحَدٍ... وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا:

إِذَا أَوْصَلْتَنَا الْخُلْدَ كَيْمَا تُذِيقَنَا أَبِينَا وَقُلْنَا: أَنْتَ أَوْلَى الْقَلْبِ
وقيل:

أَحِبُّ لِنَلَى وَبُغِضْتَ إِلَيَّ نِسَاءً مَا لِهِنَّ ذُنُوبٌ
قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

لما عَلِمُوا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضهم ببعض

(١) القَرْحُ: الجُرْحُ (ج) قروح. القَدَحُ: الطعن والذم.

(٢) تنصل فلان من ذنبه: تبرأ.

فعملت فيهم الخجلة، وعلموا أن يعقوب في هذه الكرّة يتجدد له مثلما أسلفوه من تلك الفعلة، فلم يرجع، أكبرهم إلى أبيهم، وتناهى إلى يعقوب خبرهم، فاتهمهم وما صدقهم، واستخونهم وما استوثقهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

كان لهم في هذه الكرّة حجة على ما قالوه، ولكن لم يسكن قلب يعقوب عليه السلام إليها، فإنّ تعيين الجرم في المرة الأولى أوجب التهمة في الكرّة الأخرى.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْلَنَّا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾. ما ازدادوا إقامة حجة إلا ازداد يعقوب - عليه السلام - في قولهم شبهة. ويقال: في مسألة الأطلال أخذ لقلوب الأحباب، وسلوة لأسرارهم.. وهذا الباب مما للشرح فيه مجال.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

لجأ إلى قُرب خلاصه من الضّر بالصبر.

ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يُمس حتى قال: ﴿يَتَأَسَّى عَلَىٰ يَوْسُفَ﴾ لِيُغْلَمَ أَنَّ عَزْمَ الأحباب على الصبر منقوض غير محفوظ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأَسَّى عَلَىٰ يَوْسُفَ وَابْتِغَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَاطِمٌ﴾.

تولّى عن الجميع - وإن كانوا أولاده - لِيُغْلَمَ أَنَّ المحبة لا تَبْقَى ولا تَذَرُ.

ويقال أراد إخوة يوسف أن يكون إقبال يعقوب عليهم بالكلية فأغرض، وتولّى عنهم، وفاتّهم ما كان لهم، ولهذا قيل: مَنْ طَلَبَ الْكُلَّ فَاتَهُ الْكُلُّ.

(١) قال القشيري في رسالته موضحاً هذا المعنى: واعلم أن الصبر على ضربين: صبر العابدين وصبر المحبين فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً، وفي هذا المعنى أنشدوا:

تَبَيَّنَ يَوْمَ الْبَيِّنِ أَنَّ اعْتِزَامَهُ عَلَى الصَّبْرِ مِنْ إِحْدَى الظُّنُونِ الْكُؤَادِبِ
وفي هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: أصبح يعقوب عليه السلام وقد وعد الصبر في نفسه، فقال: (فصبر جميل) أي فشاني صبر جميل، ثم لم يمس حتى قال: (يا أسفاً على يوسف). (الرسالة القشيرية ص ١٨٨ - ١٨٩).

ويقال لم يَجِدْ يعقوبُ مُسَاعِدًا لِنَفْسِهِ على تأسفه على يوسف فتولَّى عن الجميع، وانفرد بإظهار، أسفه، وفي معناه أنشدوا:

فريدٌ عن الخِلَانِ في كل بلدةٍ إذا عَظَمَ المطلوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ

ويقال كان بكاء داود عليه السلام أكثرَ من بكاء يعقوب عليه السلام، فلم يذهب بَصَرُ داود وذهب بَصَرُ يعقوب؛ لأن يعقوب عليه السلام بكى لأجل يوسف ولم يكن في قَدْرَةِ يوسف أن يحفظَ بصره من البكاء لأجله، وأمَّا داود فقد كان يبكي الله، وفي قَدْرَةِ الله - سبحانه - ما يحفظ بَصَرَ الباكي لأجله.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق - رحمه الله - يقول ذلك، وقال رحمه الله: إن يعقوب بكى لأجل مخلوقٍ فذهب بَصَرُهُ، وداود بكى لأجل الله فبقي بَصَرُهُ.

وسمعتُه - رحمه الله - يقول: لم يقل الله: «عَمِيَ يعقوب» ولكن قال: ﴿وَأَيُّضْتُ عَيْنَاهُ﴾، لأنه لم يكن في الحقيقة عَمَى، وإنما كان حجاباً عن رؤية غير يوسف.

ويقال كان ذهابُ بصرِ يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف، لأنه لا شيء أشدَّ على الأحبابِ من رؤية غير المحبوب في حال فراقه، وفي معناه أنشدوا:

لما تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرْكُمْ أَغْمَضْتُ عَيْنِي فلم أنظر إلى أحد

وسمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: كان يعقوب عليه السلام يتسلَّى برؤية بنيامين في حال غيبة يوسف، فلما بقي عن رؤيته قال: ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ أي أنه لما مُنِعَ من النظر كان يتسلَّى بالآخر، فلما بقي عن النظر قال: يا أسفا على يوسف.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا نَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

هددوه بأن يصير حرضاً - أي مريضاً مشفياً على الهلاك - وقد كان، وخوفوه مما لم يبال أن يصيبه حيث قالوا ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

ويقال أطيب الأشياء في الهلاك ما كان في حكم الهوى - فكيف يُخَوِّفُ بالهلاك من كان أحب الأشياء إليه الهلاك؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

شكا إلى الله ولم يَشْكُ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ شكا إلى الله وَصَلَ، وَمَنْ شكا من الله انفصل.

ويقال لما شكَا إلى الله وَجَدَ الْخَلْفَ من الله .

ويقال كان يعقوب - عليه السلام - مُتَحَمِّلاً بنفسه وقلبه، ومستريحاً محمولاً بِسِرِّهِ وروحه؛ لأنه عَلِمَ من الله - سبحانه - صِدْقَ حَالِهِ فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي معناه أنشدوا:

إذا ما تَمَنَّى النَّاسُ رَوْحاً وَرَاحَةً تَمَنَيْتُ أَنْ أَشْكُو إِلَيْكَ فَتَسْمَعَا
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

كان يعقوب عليه السلام يبعث بنيه في طلب يوسف، وكان الإخوة يخرجون بطلب المسيرة وفي اعتقادهم هلاك يوسف . . وكلُّ إنسانٍ وهمه .

ويقال قوله ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسهم؛ بِالْبَصَرِ لَعَلَّهُمْ تَقَعُ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ، وَبِالسَّمْعِ لَعَلَّهُمْ يَسْمَعُونَ ذِكْرَهُ، وَبِالشَّمِّ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ رِيحَهُ؛ وقد تَوَهَّمُ يعقوب أنهم مثله في إِرَادَةِ الْوُقُوفِ عَلَى شَأْنِهِ. ثم أحالهم على فضل الله حيث قال: ﴿لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

ويقال لم يكن ليعقوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف، فَظَهَرَ مِنْ قِلَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ ما ظهر، وَآثَرَ غِيَّةَ الْبَاقِينَ مِنَ الْأَوْلَادِ فِي طَلَبِ يُوْسُفَ عَلَى حُضُورِهِمْ عنده . . فَشَتَّانَ بَيْنَ حَالِهِ مَعَهُمْ وَبَيْنَ حَالِهِ مَعَ يُوْسُفَ! واحدٌ لم يَرَهُ فَايْتَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ بِفِرْقَتِهِ، وَآخَرُونَ أَمْرُهُمْ - باختياره - بِغِيْبَتِهِمْ عنه .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعٍ مُزَيَّنَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ .

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضُّرِّ، ومقاساة الجوع والفقر، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام، وما لأجله وَجَّهَهُمْ أبوهم .

ويقال استلطفوه بقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم .

ويقال لما طالعو فقرهم نظفوا بقدرهم فقالوا: وجئنا ببضاعة مزجاة - أي رديئة - ولما شاهدوا قدر يوسف سألوا على قدره فقالوا: ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ﴾ .

ويقال قالوا كلنا كيلاً يليق بفضلك لا بفقركنا، وبكرمك لا بعدمنا، ثم تركوا هذا اللسان وقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾: نَزَّلُوا أَوْضَعَ مَنَزِلٍ؛ كأنهم قالوا: إن لم نستوجب معاملة البيع والشراء فقد استحققنا بذل العطاء، على وجه المكافأة والجزاء .

فإن قيل كيف قالوا وتصدق علينا وكانوا أنبياء - والأنبياء لا تحل لهم الصدقة؟

فيقال لم يكونوا بعد أنبياء، أو لعلّه في شرعهم كانت الصدقة غير مُحَرَّمَةٍ على الأنبياء.

ويقال إنما أرادوا أن من وراثنا من تحلّ له الصدقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

افتضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فعرفهم فعلمهم ووقفهم عند أحدهم فقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ يعني إن من عامِل يوسف وأخاه بمثل معاملتكم فلا ينبغي له أن يتجاسر في الخطاب كتجاسركم.

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لهم: أنهيتكم كلامكم، وأكثرتم خطابكم، فما كان في حديثكم إلا ذكر ضرورتكم.. أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف؟! وذلك في باب العتاب أعظم من كل عقوبة.

ولما أخرجهم حديث العتاب لم يَرْضَ يوسف حتى بسط عندهم فقال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

في الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له في الخطاب: «يا أيها العزيز» فلما عرفوه قالوا: ﴿أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾؛ لأنه لما ارتفعت الأجنبية سقط التكلف في المخاطبة، وفي معناه أنشدوا:

إِذَا صَفَّتِ الْمَوَدَّةُ بَيْنَ قَوْمٍ ودام ودادهم قُبِحَ الثَّنَاءُ

ويقال إن التفاضل والتفارق بين يوسف وإخوته سبقا التواصل بينه وبين يعقوب عليهما السلام؛ فالإخوة خبره عرفوه قبل أن عرّفه أبوه ليعلم أن الحديث بلا شك.

ويقال لم يتقدموا على أبيهم في استحقاق الخبر عن يوسف ومعرفته، بل إنهم - وإن عرفوه - فلم يلاحظوه بعين المحبة والخلة، وإنما كان غرضهم حديث الميرة والطعام فقط، فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾: يعني إني لأخٍ لِمِثْلِ هذا لمثلكم؛ ولذا قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾، ولم يقل وأنتم إختوتي، كأنه أشار إلى طرف من العتاب، يعني ليس ما عاملتموني به فَعَلَ الإخوة.

ويقال هَوَّنَ عليهم حالَ بَدَاهَةِ^(٢) الخجلة حيث قال ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ بقوله:

(١) هنا القشيري يطبق فكرة القبض والبسط (انظر الرسالة القشيرية ص ٥٨ - ٦٠).

(٢) البداهة: ما يفجأ من الأمر.

﴿وَهَذَا أَخِي﴾، وكأنه شغلهم بقوله: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسِكُ﴾ [طه: ١٧] إنه سبحانه شغل موسى عليه السلام باستماع: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسِكُ﴾ [طه: ١٧] بمطالعة العصا في عين ما كوشف به من قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

ثم اعترف بوجدان الجزاء على الصبر في مقاساة الجهد والعناء فقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق - رحمه الله - يقول لما قال يوسف: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أحال في استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر... فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يعني ليس بصبرك يا يوسف ولا بتقواك، وإنما هو بإيثار الله إياك علينا؛ فيه تقدمت علينا بحمدك وتقواك. فقال يوسف - على جهة الانقياد للحق: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ﴾؛ فأسقط عنهم اللوم، لأنه لما لم ير تقواه من نفسه حيث نبهوه عليه نطق عن التوحيد، وأخبر عن شهود التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾.

اعترفوا بالفضل ليوسف - عليه السلام - حيث قالوا: لقد آثرك الله علينا، وأكدوا إقرارهم بالقسم بقوله ﴿تَاللَّهِ﴾ وذلك بعد ما جحدوا فضله بقولهم: ﴿لِيُؤْسَفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْكَ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وهكذا من جحد فلأنه ما شهد، ومن شهد فما جحد.

ويقال لما اعترفوا بفضله وأقرؤا بما اتصفوا به من جزمهم بقولهم: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وجدوا التجاوز عنهم حين قال يوسف:

﴿قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

أسرع يوسف في التجاوز عنهم، ووعد يعقوب لهم بالاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ لأنه كان أشد حبا لهم فعاتبهم، وأما يوسف فلم يرههم أهلا للعتاب فتجاوز عنهم على الوهلة، وفي معناه أنشدوا:

ترك العتاب إذا استحق أخ منك العتاب ذريعة الهجر

ويقال أصابهم - في الحال - من الخجلة مقام كل عقوبة، ولهذا قيل:

كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء.

قوله جل ذكره: ﴿أَذْهَبُوا بِمِصْرِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى رَبِّي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفَّ بِأَمْرِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

البلاء إذا هَجَمَ هَجَمَ مَرَّةً، وإذا زال بالتدريج؛ حلَّ البلاء يعقوب مرةً واحدةً حيث قالوا: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنَبُ﴾ ولما زال البلاء.. فأولاً وَجَدَ رِيحَ يوسُفَ عليه السلام، ثم قميص يوسف، ثم يوم الوصول بين يدي يوسف، ثم رؤية يوسف. ويقال لما كان سببُ البلاء والعمى قميص يوسف أراد الله أن يكونَ به سببُ الخلاص من البلاء.

ويقال علم أن يعقوب عليه السلام - لِمَا يلحقه من فَرْطِ السرور - لا يطيقه عند أخذ القميص فقال: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾. ويقال القميص لا يصلح إلا للباس إلا قميص الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان ريح الأحباب. ويقال كان العمى في العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجد الشفاء من العمى.

ويقال لما كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في الإلقاء على العين التي في الوجه، وفي معناه أنشدوا:

وما بات مطوياً على أريحية عُقَيْبِ الثَّوَى إِلَّا فَتَى ظِلٌّ مَغْرَمَا
وقوله ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: لما عَلِمَ حزنَ جميعِ الأهلِ عليه أراد أن يشترك في الفرح جميعُ من أصابهم الحزن.

ويقال عَلِمَ يوسف أن يعقوب لن يطيق على القيام بكفاية أمور يوسف فاستحضره، إبقاءً على حاله لا إخلالاً لِقَدْرِهِ وما وَجَبَ عليه من إجلاله. قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْغَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. ما دام البلاء مُقْبِلاً كان أمرُ يوسف وحديثه - على يعقوب - مُشْكِلاً، فلما زالت المحنة بعثت بكل وجه حاله.

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه في الجُبِّ ولكن اشتبه عنيهِ خَبَرُهُ وحالُهُ، فلما زال البلاء وَجَدَ رِيحَهُ وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً - من مصر إلى كنعان.

ويقال إنما انفرد يعقوب عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفراده بالأسف عند فقدان يوسف. وإنما يجد ريح يوسف مَنْ وَجَدَ على فراق يوسف؛ فلا يعرف ريح الأحباب إلا الأحباب، وأما على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِلٌ.. إذ أنى يكون للإنسان ريح؟!.

ويقال لفظ الريح ها هنا توسع، فيقال هبَّتْ رياحُ فلانٍ، ويقال إنني لأجدُ ريح الفتنة.. وغير ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفِيدُون﴾.

تَفَرَّسَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ يَبْسُطُونَ لِسَانَ الْمَلَامَةِ فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ قَوْلُهُ، فزادوا في الملامة فقالوا: -

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْكَدِيرِ﴾.

قرنوا كلامهم بالشتم، ولم يحتشموا أباهم، ولم يُراعوا حَقَّهُ في المخاطبة، فوصفوه بالضلال في المحبة.

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرَّف من الريح نسيم يوسف عليه السلام، وخبر يوسف كثير حتى جاء الإذن للرياح، وهذه سُنةُ الأحباب: مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال وفي معناه أنشدوا:

وَإِنِّي لَأَسْتَهْدِي الرِّيحَ نَسِيمَكُمْ إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ نَحْوَكُمْ بِهُبُوبٍ
وَاسْأَلَهَا حَمْلَ السَّلَامِ إِلَيْكُمْ فَإِنَّ هِيَ يَوْمًا بَلَّغَتْ فَأَجِيبُوا
قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لو أَلْقَى قَمِيصُ يَوْسُفَ عَلَى وَجْهِ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعَمِيَانِ لَمْ يَرْتَدَّ بَصَرُهُمْ، وإنما رجع بصرُ يعقوب بقميص يوسف على الخصوص؛ فَإِنَّ بَصَرَ يَعْقُوبَ ذَهَبَ لفراق يوسف، وَلَمَّا جَاءُوا بِقَمِيصِهِ أَتُطَقُّ لِسَانُهُ، وَأَوْضَحَ بَرَاهَانَهُ، فقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عن حياة يوسف، وفي معناه أنشدوا:

وَجْهُكَ الْمَأْمُولُ حُجَّتُنَا يَوْمَ يَأْتِي النَّاسُ بِالْحَجَجِ
قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

كُلُّ إِنْسَانٍ وَهْمُهُ؛ وَقَعَ يَعْقُوبُ وَيَوْسُفُ عَلَيْهَا السَّلَامُ فِي السَّرُورِ وَالِاسْتِبْشَارِ، وَأَخَذَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ فِي الْإِعْتَادِ وَطَلَبَ الْإِسْتِغْفَارَ.

ويقال إخوة يوسف - وَإِنْ سَلَفَتْ مِنْهُمْ الْجَفْوَةُ كُلُّمُوا أَبَاهُمْ بِلِسَانِ الْإِنْسِاطِ لتقديم شفقة الأبوة على ما سَبَقَ مِنْهُمْ مِنَ الْخَطِيئَةِ.

ويقال يومَ بيوم؛ اليوم الذي كان يعقوب محزوناً بغيبة يوسف فلا جَرَمَ اليوم كان يعقوب مسروراً بقميص يوسف، وكان الأخوة في الحُجْلة مما عملوا بيوسف.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وَعَدَهُمُ الْإِسْتِغْفَارَ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْرُغْ مِنْ اسْتِبْشَارِهِ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ.

ويقال لم يُجِبْهُمْ عَلَى الْوَهْلَةِ لِيَدْلَهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوا مِنْ سُوءِ الْفَعْلَةِ؛ لِأَنَّهُ يَوْسُفُ

كان غائباً وقتل، فزعمهم الاستغفار في المستأنف - إذا رضي عنهم يوسف حيث كان الحق أكثره له، ولو كان كله ليعقوب لوهمهم على الفور.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ وَكَانَ آدَخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾.

اشتركوا في الدخول ولكن تباينوا في الإيواء فانفرد الأبوان به ليغديهما عن الجفاء، كذلك غداً، إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون في وجود الجنان، ولكنهم يتباينون في بساط القرية فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ﴾.

أوقف كلاً بمحله؛ فرفع أبويه على السرير، وترك الإخوة نازلين بأماكنهم. قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾: كان ذلك سجود تحية، فكذلك كانت عادتهم. ودخل الأبوان في السجود - في حق الظاهر - لأن قوله ﴿وَخَرُّوا﴾ إخبار عن الجميع، ولأنه كان عن رؤياه قد قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال ها هنا: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

شهد إحسانه فشكره.. كذلك من شهد النعمة شكر، ومن شهد المنعم حمده.

وذكر حديث السجن - دون البئر - لطول مدة السجن وقلة مدة البئر.

وقيل لأن فيه تذكيراً بجُرم الإخوة وكانوا يخلجون. وقيل لأن ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾. وقيل لأن كان في البئر مرفوقاً به والمبتدىء يرفق به وفي السجن فقد ذلك الرفق لقوة حاله؛ فالضعيف مرفوق به والقوي مُشدَّد عليه في الحال، وفي معناه أنشدوا:

وأسررتني حتى إذا ما سببتني بقول يحل الغضب سهل الأباطح^(١)

تجافيت عني حين لا لي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وفي قوله: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ إشارة إلى أنه كما سرَّ برؤية أبويه سرَّ بإخوته - وإن كانوا أهل الجفاء، لأن الأخوة سبقت الجفوة.

(١) الأباطح: (ج) الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى والتراب.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر، فقال كان الذي جرى منهم من نزعات الشيطان، ثم لم يرض بهذا حتى قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ يعني إن وجد الشيطان سبيلاً إليهم، فقد وجد أيضاً إلي حيث قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

ثم نطق عن عين التوحيد فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ فبلطفه عصمهم حتى لم يقتلونني.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

في حرف تبيين؛ لأن الملك - بالكمال - لله وحده.

ويقال الملك الذي أشار إليه قسمان: ملكه في الظاهر من حيث الولاية، وملك على نفسه حتى لم يعمل ما هم به الزلة.

ويقال ليس كل ملك المخلوقين الاستيلاء على الخلق، إنما الملك - على الحقيقة - صفاء الخلق.

قوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: التأويل للخواص، وتفسير التنزيل للعوام.

قوله جل ذكره: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - هذا ثناء، وقوله: ﴿تَوَفَّنِي﴾ - هذا دعاء.

فقدّم الثناء على الدعاء، كذلك صفة أهل الولاية.

ثم قال: ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ هذا إقرار بقطع الأسرار عن الأغيار.

ويقال معناه: الذي يتولّى في الدنيا والآخرة بعرفانه أنت؛ فليس لي غيرك في الدارين.

قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾: قيل عليم أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال فسأل الوفاة.

وقيل من أمارات الاشتياق تمنّي الموت على بساط العوافي مثل يوسف عليه السلام ألقى في الجُب فلم يقل توفني مسلماً، وأقيم فيمن يزيد فلم يقل توفني مسلماً، وحبس في السجن سنين فلم يقل توفني مسلماً، ثم لما تم له الملك، واستقام الأمر، ولقي الإخوة سجداً، وألقى أبويه معه على العرش قال:

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾^(١) فعلم أنه كان يشاق للقاءه (سبحانه).

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق - رحمه الله يقول - قال يوسف ليعقوب: عَلِمْتُ

أنا نلتقي فيما بعد الموت.. فلم بكيت كل هذا البكاء؟

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٣١.

فقال يعقوب، يا بُنَيَّ إِنَّ هَٰذَا طَرَفًا، خِفْتُ أَنْ أَسْلَكَ طَرِيقًا وَأَنْتَ تَسْلِكُ طَرِيقًا، فقال يوسف عند ذلك: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.

ويقال إن يوسف - عليه السلام - لما قال: توفني مسلماً، فلا يبعد من حال يعقوب أن لو قال: يا بني دَغْنِي أَشْتَفِي بِلِقَائِكَ مِنَ الَّذِي مُنِيتُ بِهِ فِي طَوْلِ فِرَاقِكَ، فَلَا تُسَمِّعْنِي - بهذه السرعة - قَوْلَكَ: تَوَفَّنِي مُسْلِمًا. قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

تبيين للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أميٍّ لا يكون إلا بتعريف سماوي.

ويقال كونُ الرسولِ - ﷺ - أمياً في أول أحواله علامة شرفه وعلو قدره في آخر أحواله، لأنَّ صِدْقَهُ فِي أَنَّ هَٰذَا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ إِنَّمَا عُرِفَ بِكَوْنِهِ أَمِيًّا، ثُمَّ أَتَى بِمِثْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ مَدَارَسَةٍ كِتَابٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أخبر عن سابق علمه بهم، وصادق حُكْمِهِ حَكَمَتِهِ فِيهِمْ.

ويقال معناه: أَقْمَتُكَ شَاهِداً لِإِرَادَةِ إِيْمَانِهِمْ، وَشِدَّةِ الْجُرْصِ عَلَى تَحَقُّقِهِمْ بِالْإِيمَانِ، وَإِقْنَانِهِمْ. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ، وَأَخْبَرْتُكَ بِذَٰلِكَ، وَفَرَضَ عَلَيْكَ تَصْدِيقِي بِذَٰلِكَ، وَفَرَضْتُ عَلَيْكَ إِرَادَتِي كَوْنُ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

هذه سُئَلَهُ اللَّهُ - سبحانه - مع أنبيائه حيث أَمَرَهُمْ بِالْأَخْذِ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ عَوَضًا وَلَا أَجْرًا، وَكَذَٰلِكَ أَمَرَهُ لِلْعُلَمَاءِ - الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِالْأَخْذِ مِنَ الْخَلْقِ عَوَضًا عَلَى دَعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ. فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ حَظًّا مِنَ النَّاسِ لَمْ يُبَارَكْ لِلْمُسْتَمِيعِ فِيمَا يَسْمَعُ مِنْهُ؛ فَلَا لَهُ أَيْضًا بَرَكَةٌ فِيمَا يَأْخُذُ مِنْهُمْ فَتَنْقَطِعَ بِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

الآيات ظاهرة، والبراهين باهرة، وكلُّ جُزْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ شَاهِدٌ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ كَمَا أَنَّ مَنْ أَغْمَضَ عَيْنَهُ لَمْ يَسْمَعْ بِضَوءِ نَهَارِهِ فَكَذَٰلِكَ مَنْ قَصَرَ فِي نَظَرِهِ وَاعْتَبَرَهُ لَمْ يَحِظْ بِعِرْفَانِهِ وَاسْتَبْصَارِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

الشُّرْكُ الْجَلِيُّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِهِ - سبحانه - معبوداً، والشُّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَتَّخِذَ بَقَلْبِهِ عِنْدَ حَوَائِجِهِ مِنْ دُونِهِ - سبحانه - مقصوداً.

ويقال شركُ العارفين أن يتخذوا من دونه مشهوداً، أو يطالعوا سواه موجوداً.
ويقال من الشرك الخفي الإحالة على الأشكال في تجنيس الأحوال، والإخلاد
إلى الاختيار والاحتياال عند تراحم الأشغال.
قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ﴾.

أفأمن الذي اغترَّ بطول الإمهال ألا يُبتلى بالاستئصال، أفأمن من اغترَّ بطول
السلامة ألا يقوم البلاء عليه يوم القيامة.
ويقال الغاشية حجاب من القسوة يحصل في القلب، لا يزول بالتضرع ولا
ينقشع بالتخشع.
ويقال الغاشية من العذاب أن تزول من القلب سرعة الانقلاب إلى الله تعالى،
حتى إذا تمادى صاحب الغفلة استقبله في الطريق ما يوجب قنوطه من زواله، وفي
معناه أنشدوا:

قلتُ للنفس إن أردت رجوعاً فارجعي قبل أن يسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

«البصيرة»: اليقين الذي لا مِرْيَةَ فيه، والبيان الذي لا شك فيه. البصيرة يكون
صاحبها مُلَاطِفاً بالتوفيق جَهراً، ومكاشفاً بالتحقيق سراً.
ويقال البصيرة أن تطلع شمسُ العرفان؛ فتندرج فيها أنوارُ نجومِ العقل.
قوله: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي ذلك سبيلي، وسبيل من اقتدى بهديي فهو أيضاً
على بصيرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

تعجبوا أن يبعث الله إلى الخلق بشراً رسولاً، فبين أنه أجرى سُنَّتَهُ - فيمن تقدَّم
من الأمم - ألا يكون الرسول إليهم بشراً، فإما أن جحدوا جواز بعثة الرسول أصلاً،
أو أنهم استنكروا أن يبعث بشراً رسولاً.

ثم أمرهم بالاستدلال والتفكير والاعتبار والنظر فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ...﴾.

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وتيقنوا أنهم كذبوهم - والظن ها هنا بمعنى اليقين - فعند ذلك جاءهم نصرنا؛ للرسل بالنجاة ولأقوامهم بالهلاك، ولا مرد لبأسنا.

ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين شيئاً من الأحوال إلا بعد يأسهم منها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨]، فكما أنه ينزل المطر بعد اليأس فكذلك يفتح الأحوال بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

عبرة منها للملوك في بسط العدل كما بسط يوسف عليه السلام، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم، وأعتقهم حين ملكهم. وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى؛ فإن يوسف لما ترك هواه رقا الله إلى ما رقاؤه.

وعبرة لأهل الهوى فيما في اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لما تبعت هواها لقيت الضر والفقر.

وعبرة للمماليك في حضرة السادة، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا ملك ملك العزيز، وصارت زليخا امرأته حلالاً.

وعبرة في العفو عند المقدرة، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته. وعبرة في ثمره الصبر، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام.

السورة التي يذكر فيها «الرعد»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«بسم الله» كلمة سماعها يُورث لقوم طلباً ثم طرباً، ولقوم حزنناً ثم هرباً، فَمَنْ سَمِعَ بشاهد الرجاء طلب رجود رحمته فأذنه لها طَرَبَ، وَمَنْ سَمِعَ بشاهد الرهبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ لَمِئْتَ الْكِتَابُ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾.

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إِنَّ هذه آيات الكتاب الذي أخبرْتُ أَنِّي أُنْزِلُ عَلَيْكَ.

فالألف تشير إلى اسم «الله»، واللام تشير إلى اسم «اللطيف»، والميم تشير إلى «المجيد»، والراء تشير إلى اسم «الرحيم» قال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آيات الكتاب الذي أخبرْتُ أَنِّي أُنْزِلُ عَلَيْكَ مُحَمَّدٌ - ﷺ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ بِالْوَاوِ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ هو حق وصدق، لأنه أنزله على نبيه - ﷺ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به، فَهُمُ الْكَافِرُونَ عِدْداً، وَالْأَقْلُونَ قُدْرًا وَخَطَرًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

دَلَّ عَلَى صفاته وذاته بما أخبر به من آياته، ومن جملة ما رفع السموات وليس تحتها عمادٌ يَشُدُّهَا، وَلَا أوتادٌ تُمَسِّكُهَا. وأخبر في غير هذه المواضع أَنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ بِكَوَاكِبِهَا، وَخَصَّ الْأَرْضَ بِجَوَانِبِهَا وَمَنَاقِبِهَا.

و﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: أي احتوى على مُلْكِهِ احتواء قُدْرَةٍ وتدبير. والعرش هو الْمُلْكُ حيث يقال: اندك عرش فلان إذا زال مُلْكُهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾.

كلٌّ يجري في فلكٍ. ويدل كل جزء من ذلك على أَنَّهُ فِعْلٌ فِي مُلْكِهِ غير مشترك.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

بَسَطَ الْأَرْضَ ودحاها، والجبالَ أرساها، وفَجَّرَ عيونها، وأجرى أنهارها، وَجَسَّسَ بحارها، وَنَوَّعَ من الحيوانات ما جعل البحرَ قرارها، وأنبَت أشجارها، وَصَنَّفَ أزهارها وثمارها، وكوَّر عليها ليلها ونهارها. . ذلك تقديرُ العزيز العليم.

قوله جل ذكره: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صَيَّوْنٌ وَعَيْرٌ صَيَّوْنٌ يُنسَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فَمِنْ سِبْخٍ^(١) ومن حَجَرٍ ومن رمل. . أنواع مختلفة، وأزواج متفقة. وزروع ونبات وأشجار أشنات، وأصل الكل واحد، فأجزاؤها متماثلة، وأبعاضها متشاكلة، ولكن جعل بعضها غدقاً^(٢)، وبعضها قشراً، وبعضها عُصْناً، وبعضها جذعاً، وبعضها أزهاراً، وبعضها أوراقاً. . ثم الكل واحد، وإن كان لكل واحد طبعٌ مخصوص وشكلٌ مخصوص، ولونٌ مخصوص وقشرٌ مخصوص مع أنها تُسْقَى بماءٍ واحد؛ إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدارٌ ما يحتاج إليه، ﴿وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّارًا لَّي خَلْقٌ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وإن تعجب - يا محمد - لقولهم فهذا موضعٌ يتعجبُ منه الخلق، فالعجبُ لا يجوز في صفة الحق، إذ إن التعجب الاستبعادُ والحق لا يَسْتَبْعِدُ شيئاً، وإنما أثبت موضعَ التعجب للخلق، وحَسَّنَ ما قالوا: «إنما تعجب من حجب» لأنَّ مَنْ يَنْتَلِ عيونَ البصيرة لا يتعجبُ مِنْ شيءٍ.

وقومٌ أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة أي إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له.

وإطلاق هذا - وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة - لا يجوز، والأدبُ السكوتُ عن أمثال هذا. والقوم عبَّروا عن ذلك فقالوا: أعجبُ العجبِ قول ما لا يجوز في وصفه العجب. . وإن تعجب.

(١) السَّبْخُ: المكان يسبح فيه فيُنْبِت الملح وتسوخ فيه الأقدام (لسان العرب ٢٤ مادة: سبخ).

(٢) الغدق: من العشب: بلله ورَّيه. (اللسان ٢٨٢/١٠ مادة: غدق).

وقوله تعالى: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ أَوْثَارًا لَخَلْقِ جَدِيدٍ﴾: استبعادهم النشأة الثانية - مع إقرارهم بالخلق الأول وهما في معنى واحد - موضع التعجب، إذ هو صريح في المناقضة، وكان القوم أصحاب تمييز وتحصيل، فقياس مثل هذا يدعو إلى العجب. ولكن لولا أن الله - سبحانه - لبس عليهم كما قال: ﴿فَأَعْيَيْنَاهُمْ فِيهِمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [يس: ٩] - وإلا ما كان ينبغي أن يخفي عليهم جواز هذا مع وضوحه^(١).

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

الكناية في: ﴿لَهُمْ مَعْقَبَاتٌ﴾ راجعة إلى العبد، أي أن الله وكل بكل واحد منهم معقبات وهم الملائكة الذين يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلف وذلك من أمر الله، أي من البلاء الذي بقدرة الله. يحفظونهم بأمر الله من أمر الله، وذلك أن الله - سبحانه - وكل لكل واحد من الخلق ملائكة يدفعون عنهم البلاء إذا ناموا وغفلوا، أو إذا اتبهوا وقاموا ومشوا... وفي جميع أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾.

إذا غيروا ما بهم إلى الطاعات غير الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة، وإذا كانوا في نعمة فغيروا ما بهم من الشكر لله تغير عليهم ما من به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أخذوا في التضرع، وأظهروا العجز غير ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل.

ويقال إذا غيروا ما بألستهم من الذكر غير الله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم به النسيان والغفلة، فإذا كان العبد في بسطة وتقريب، وكشف بالقلب وترقب... فالله لا يغير ما بأنفسهم بترك أدب، أو إخلال بحق، أو إلمام بذنب.

ويقال لا يكف ما أتاه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يترك ويغير ما هو به من الشكر والحمد. فإذا قابل النعمة بالكفران، وأبدل حضور القلب بالنسيان وما يطيح به من العصيان... أبدل الله تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان، وسلبه ما كان يعطيه من الإحسان.

ويقال إذا توالى المحن وأراد العبد زوالها فلا يصل إليه التفتُّ^(٢) منها إلا بأن يغير ما هو به؛ فيأخذ في السؤال بعد السكوت، وفي إظهار الجزع بعد السكون، فإذا أخذ في التضرع غير ما به من الصبر.

(١) الآيات: من (٥ - ١٠) لم ترد.

(٢) التفتُّ: نفث الرجل من مرضه: برىء منه.

قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقْوَمُ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾: يقال إذا أراد الله بقوم بلاء وفتنة فما تعلقت به المشيئة لا محالة يجري.

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءاً (١) أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، ويسعون - في الحقيقة - في ذمهم كما قال قائلهم:

إلى حَتْفِي مَشَى قَدَمِي إِذَا قَدَمِي أَرَاكَ دَمِي
قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.

كما يريهم البرق - في الظاهر - فيكونون بين خوف وطمع؛ خوف من إحباس المطر وطمع في مجيئه. أو خوف للمسافر من ضرر مجيء المطر، وطمع للمقيم في نفعه. كذلك يريهم البرق في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم كالبرق في الصفاء، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة.

﴿خَوْفًا﴾: من أن ينقطع ولا يبقى، ﴿وَطَمَعًا﴾: في أن يدوم فيه نقل صاحبه من المحاضرة إلى المكاشفة، ثم من المكاشفة إلى المشاهدة، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود ثم إلى كمال الخمود.

ويقال: ﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾: من حيث البرهان، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان، ثم يصير إلى نهار العرفان. فإذا طلعت شمس التوحيد فلا خفاء بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشمس، كما قيل:

هي الشمس إلا أن للشمس غيبة وهذا الذي نغنيه ليس يغيب
ويقال تبدو لهم أنوار الوصال فيخافون أن تجن عليهم ليالي الفرقة، فقلما تخلو فرحة الوصال من أن تعقبها موجة الفراق، كما قيل:

أي يوم سررتني بوصول لم تدعني ثلاثة بصدود؟!
قوله جل ذكره: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.

إذا انتاب السحابة في السماء ظلام في وقت فإنه يعقبه بعد ذلك ضحك الرياض، فما لم تبتك السماء لا يضحك الروض، كما قيل:

ومأت في السماء تبكي والأرض من تحتها عروس
كذلك تنشأ في القلب سحابة الطلب، فيحصل للقلب تردد الخاطر، ثم يلوح

(١) بياض في الأصل.

وجه الحقيقة، فتضحك الروح لفنون راحات الأتس، وصنوف أزهار الفُزْب.

قوله جل ذكره: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾.

أي الملائكة أيضاً تسبح من خوفه تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾.

قد يكون في القلب حنين وأنين، وزفير وشهيق. والملائكة إذا حصل لهم على قلوب المريرين - خصوصاً - اطلاع يكون ذمّاً لأجلهم، لا سيما إذا وقعت لواحد منهم فترة، والفترة في هذه الطريقة الصواعق التي يصيب بها من يشاء، وكما قيل:

ما كان ما أوليت من وُضِلنا إلا سراجاً لاح ثم انطفأ

قوله جل ذكره: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمَقِ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَتَلَعَ فَأَهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغٍ﴾.

دواعي الحق تصير لائحة في القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها بسمع الفهم، استجاب لبيان العلم. وفي مقابقتها دواعي الشيطان التي تهتف بالعبد بتزيين المعاصي، فمن أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت الغي، ومعها دواعي النفس وهي قائدة للعبد بزمام الحظوظ، فمن ركن إليها ولا حظها وقع في هوان الحجاب.

ودواعي الحق تكون بلا واسطة ملك، ولا بدالة عقل، ولا بإشارة علم، فمن أسمع الحق ذلك استجاب لا محالة لله بالله.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

هواجس النفس ودواعيها تدعو - في الطريقة - إلى الشرك، وذلك بشهود شيء منك، وحسبان أمر لك، وتعريج في أوطان الفرق، والعمى عن حقائق الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا إِنَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾.

المؤمن يسجد لله طوعاً، وإذا نزل به ضر الجاه إلى أن يتواضع ويسجد، وذلك معنى سجوده كرهاً - وهذا قول أهل التفسير. والكافر يسجد طائعاً مختاراً، ولكن لما كان سجوده لطلب كشف الضر قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَسْجُدُ كَرْهًا﴾ على مقتضى هذا كل من يسجد لا ابتغاء عوض أو لكشف محنة.

ويقال السجود على قسمين: ساجد بنفسه وساجد بقلبه؛ فسجود النفس معهود، وسجود القلب من حيث الوجود. وفرق بين من يكون بنفسه، وواجد بقلبه.

ويقال الكل يسجدون لله؛ إما من حيث الأفعال بالاختيار، أو من حيث الأحوال

بنعت الافتقار والاستبشار: سجود من حيث الدلالة على الوجدانية؛ فكل جزء من عين أو أثر فعلى الوجدانية شاهد، وعلى هذا المعنى لله ساجد. وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأُنْفِثَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

سَلِّمْ - يا محمد - مَنْ موجد السموات والأرض ومقدِّرها، ومُخْتَرِعُ ما يحدث فيها ومدبرها؟ فَإِنْ أَسْكَنْتَهُمْ عن الجواب ما استكنَّ في قلوبهم مِنَ الجَهْلِ فَقُلِ اللهُ منشيها ومجريها.

ثم قال: ﴿أَفَاتَّخَذْتُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾: يعني الأصنام، وهي جمادات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، ويلتحق في المعنى بها كل مَنْ هو موسوم برقم الحدود، فَمَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْحَدَثَانِ سَاوَى - مِنْ وَجْهِ - مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾. الأعمى مَنْ على بصيرته غشاوة وحجة، والبصير مَنْ كَحَلِّ الْحَقِّ بصيرة سِرِّهِ بنور التوحيد... لا يستويان!

ثم هل تستوي ظلمات الشرك وأنوار التوحيد؟ ومن جملة النور الخروج إلى ضياء شهود التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

أي لو كان له شريك لَوَجَبَ أن يكون له نِدْ مُضَاهٍ، وفي جميع الأحكام له مواز، ولم يُجَدِ حينئذ التمييز بين فِعْلِيَّهِمَا.

وكذلك لو كان له نِدْ... فَإِنْ إِبْتَاهُمَا شَيْئَيْنِ اثْنَيْنِ يَوْجِبُ اشْتِرَاكُهُمَا فِي اسْتِحْقَاقِ كُلِّ وَصْفٍ، وَأَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا كصاحبه أيضاً مستحقاً له، وهذا يؤدي إلى ألا يُعْرَفَ الْمَحَلُّ... وذلك محال.

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ تدخل فيه المخلوقات بصفات وأفعالها، والمخاطب لا يدخل في الخطاب.

﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾: الذي لا خَلْفَ عنه ولا بَدَل، الواحد الذي في فضله منزّه عن فضل كل أحد، فهو الكافي لكل أحد، ويستعين به كل أحد.

﴿الْقَهْرُ﴾: الذي لا يجري بخلاف حكمه - في ملكه - نفس .

قوله جل ذكره: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ .

هذه الآية تشتمل على أمثال ضربها الله لتشبيه القرآن المنزل بالماء المنزل من السماء، وشبه القلوب بالأودية، وشبه وساوس الشيطان وهواجس النفس بالزبد^(١) الذي يعلو الماء، وشبه الخلق بالجواهر الصافية من الخبث كالذهب والفضة والنحاس وغيرها. وشبه الباطل بخبث هذه الجواهر. وكما أن الأودية مختلفة في صغرها وكبرها وأن بقدرها تحتل الماء في القلة والكثرة - كذلك القلوب تختلف في الاحتمال على حسب الضعف والقوة. وكما أن السيل إذا حصل في الوادي يطهر الوادي فكذلك القرآن إذا حصل حفظه في القلوب نفي الوسواس والهوى في الوادي عنها، وكما أن الماء قد يصحبه ما يكدره، ويخلص بعضه مما يشوبه - فكذلك الإيمان وفقهم القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من نزغات الشيطان ومن الخواطر الرديئة، فالقلوب بين صاف وكدير.

وكما أن الجواهر التي تتخذ منها الأواني إذا أذيت خلصت من الخبث كذلك الحق يتميز من الباطل، ويبقى الحق ويضمحل الباطل.

ويقال إن الأنوار إذا تلالأت في القلوب نفت آثار الكلفة، ونور اليقين ينفي ظلمة الشك، والعلم ينفي تهمة الجهل، ونور المعرفة ينفي أثر النكرة، ونور المشاهدة ينفي آثار البشرية، وأنوار الجمع تنفي آثار التفرقة. وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحظوظ؛ وأنوار طلوع الشمس من حيث العرفان تنفي سدقة الليل من حيث حسابان أثر الأغيار.

ثم الجواهر التي تتخذ منها الأواني مختلفة فمن إناء يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص، إلى غيره، كذلك القلوب تختلف، وفي الخبر: «إن الله تعالى أواني وهي القلوب»^(٢)؛ فزاهد قاصد ومحب واجد، وعابد خائف وموحد عارف، ومتعبد متعفف ومتعبد متصوف، وأنشدوا:

لوائها شتى الفنون وإنما تُسقى بماء واحدٍ من مَسْهِلٍ

(١) الزبد: ما يعلو الماء وغيره من الرغوة.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٠٩/٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ

﴿الْحُسْنَىٰ﴾: الوعد بقبول استجاباتهم، وذلك من أجل الأشياء عندهم؛ فلا شيء أعزُّ على المحبِّ من قبول محبوبه منه شيئاً.

أما الذين لم يستجيبوا له فلو أنَّ لهم جميع ما في الأرض وأنفقوه عمداً لا يُقبل منهم، ولهم سوء الحساب، وهو المناقشة في الحساب، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب.

قوله جل ذكره: ﴿۞ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ﴾.

استفهام في معنى النفي، أي لا يستوي البصير والضرير، ولا المقبول بالمردود بالحجة، ولا المؤمل بالتقريب بالمُعَرَّضٍ للتعذيب، ولا الذي أقصيناه عن شهودنا بالذي هديناه بوجودنا. إنما يتعظُّ مَنْ عقله له تشريف، دون مَنْ عقله له سبب إقصاء وتعنيف.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْعَيْثَ﴾.

الوفاء بالعهد باستدامة العرفان، والوفاء بشرط الإحسان، والتوقُّي من ارتكاب العصيان - بذلك أبرم العقد يوم الميثاق والضمان.

وميثاق قوم ألا يعبدوا شيئاً سواه، وميثاق قوم ألا يسألوا سواه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

الذين يصلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل.

ويقال الذين يصلون أنفاسهم بعضاً ببعض؛ فلا يتخلَّلُها نفسٌ لغير الله، ولا بغير الله، ولا في شهود غير الله.

ويقال يصلون سائرهم بسراهم في إقامة العبودية، والتبرِّي من الحول والقوة.

وقوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: الخشية لجأماً يُوقِفُ المؤمنَ عن الرُّكُضِ في ميادين الهوى، وزمأمَ يَجُرُّ إلى استدامة حكم التقي.

وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبَعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التي لأجلها يصبر الصابر، فالعباد يصبرون

لخوف العقوبة، والزهاد يصبرون طمعاً في المثوبة، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وشرط هذا النوع من الصبر رَفُضُ ما يمنع من الوصول، واستدامة التوقي منه، فيدخل فيه ترك الشهوات، والتجرد عن جميع الشواغل والعلاقات، فيصبر عن العلة والزلة، وعن كل شيء يشغل عن الله.

ومما يجب عليه الصبر الوقوف على حكم تعزير الحق، فإنه - سبحانه - يتفضل على الكافة من المجتهدين، ويتعزز - خصوصاً - على المريرين، فيمنحهم الصبر في أيام إرادتهم، فإذا صدقوا في صبرهم جاد عليهم بتحقيق ما طلبوا.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

الأغنياء ينفقون أموالهم. والعباد ينفقون نفوسهم ويتحملون صنوف الاجتهاد، ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد. والمريدون ينفقون قلوبهم فيسرعون إلى أداء الفرائض والأوراد ويصبرون إلى أن يبوح علم من الإقبال عليهم. وأما المحبون فينفقون أرواحهم.. وهي كما قيل:

أَلَسْتُ لِي خَلْفًا؟ كَفَى شَرْفًا فما وراءك لي قِصْدٌ ومطلوبٌ

قوله جل ذكره: ﴿وَيَذَرُونِ الْيَسَنَةَ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلَتْكَ لَمْ عَقَى الدَّارِ﴾.

يعاشرون الناس بحسن الخلق؛ فيبدأون بالإنصاف ولا يطلبون الانتصاف، وإن عاملهم أحد بالجفاء قابلوه بالوفاء، وإن أذنب إليهم قوم اعتذروا عنهم، وإن مرضوا عادوهم.

قوله جل ذكره: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

يتم النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين من يحبون صحبتهم من أقاربهم وأزواجهم، وقد ورد في الخير: «المرء مع من أحب»^(١) فمن كان محبوبه أمثاله وأقاربه حُشِرَ معهم، ومن كان اليوم بقلبه مع الله، فهو غداً مع الله، وفي الخبر: «أنا جليس من ذكرني»^(٢). وهذا في العاجل، وأما في الآجل، ففي الخبر: «الفقراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة».

(١) أخرجه البخاري (أدب ٩٦)، ومسلم (بز ١٦٥)، والترمذي (زهد ٥٠)، (دعوات ٩٨) والدارمي (رقائق ٧١)، وأحمد بن حنبل ٣/٣٩٢، ١٠٤/٣، ١١٠، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٩٤، ٤، ١٠٧، ١٦٠، ٢٣٩، ٢٤٩، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٠٥.

(٢) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٢٨٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٢٤).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

من كفر بعد إيمانه نقض عهده الإسلام في الظاهر، ومن رجع إلى أحكام العادة بعد سلوكه طريق الإرادة، فقد نقض عهده في السرائر... فهذا مرتدٌ جهراً، وهذا مرتدٌ سراً، والمرتد جهراً عقوبته قطع رأسه، والمرتد سراً عقوبته قطع سببه. وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾، هو نقض قوله: ﴿يُصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١].

ويقال نقض العهد هو الاستعانة بالأغيار، وترك الاكتفاء بالله الجبار. ويقال نقض العهد الرجوع إلى الاختيار والتدبير بعد شهود الأقدار، وملاحظة التقدير.

ويقال نقض العهد بترك نفسه، ثم يعود إلى ما قال بتركه.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

يسبط الرزق للأغنياء ويطلبهم بالشكر؛ ويضيق على الفقراء ويطلبهم بالصبر. وعدّ الزيادة للشاكرين، ووعد المعية للصابرين. للأغنياء الأموال بمزیدها، وللفقراء التجرد في الدارين عن طريفها وتليدها.

قوله جل ذكره: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾.

فرح الأغنياء بزكاء أموالهم، وفرح الفقراء بصفاء أحوالهم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ قليل بالإضافة إلى ما وعدهم الله؛ فأموال الأغنياء - وإن كثرت - قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من وجود أفضل، وأحوال الفقراء - وإن صفت - قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من شهود جماله وجلاله.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾.

﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾: وهم الذين لم يشهدوا ما أعطى نبينا - ﷺ - من الشواهد والبرهان حتى (١) الزيادة.

﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٤٦]: وهم الذين أبصروا بعيون أسرارهم ما

خص به من الأنوار فسكنوا بنور استبصارهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ﴾.

قومٍ اطمأنت قلوبهم بذكرهم الله، وفي الذكر وَجَدُوا سَلَوَتَهُمْ، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم. وقومٍ اطمأنت قلوبهم بذكر الله فَذَكَرَهُمُ اللهُ - سبحانه - بلطفه، وأثبت الطمأنينة في قلوبهم على وجه التخصيص لهم.

ويقال إذا ذكروا أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَهُمْ استروحت قلوبهم، واستبشرت أرواحهم، واستأنست أسرارهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ لِمَا نالت بِذِكْرِهِ من الحياة، وإذا كان العبد لا يطمئن قلبه بذكر الله، فذلك لِخَلَلٍ في قلبه، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَتَى﴾ طابت أوقاتهم وطابت نفوسهم.

ويقال طوبى لمن قال له الحق: طوبى.

طوبى لهم في الحال، وَحَسُنَ الْمَأْتِ فِي الْمَالِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أَمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَىٰ ظُهُورِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آيَاتِنَا هُكَايَاتٍ﴾

لئن أرسلناك بالنبوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل، ولئن أصابك منهم بلاء فلقد أصاب مَنْ قَبْلَكَ كثيرٌ من البلاء، فاضبر كما صَبَرُوا تُؤْجَرُ كما أُجِرُوا. قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾.

لئن كفروا بنا فآمن أنت، وإذا آمنت فلا تبالِ بِمَنْ جَحَدَ، فإنك أنت المقصود من البرية، والمخصوص بالرسالة والمحبة.

لو كان يجوز في وصفنا أن يكون لنا غرض في أفعالنا.

ولو كان الغرض في الخلق فانت سيد البشر، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن الإقبال، فهذا مخلوق يقول في مخلوق:

وكننت أخزئت أوطاري لوقت فكان الوقت وقتك والسلام^(١)

وكننت أطالب الدنيا بحُبِّ فكانت الحُبِّ.. وانقطع الكلام

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلْمُوتُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

(١) الأوطار: (ج) الوطر: الحاجة والبيعة.

لو كان شيء من المخلوقات يظهر يغيرنا في الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن، ولكن المنشئ الله، والخير والشر جملة من الله، والأمر كله لله. فإذا لم يكن شيء من الحدثان بالقرآن - والقرآن كلام الله العزيز - فلا تكون ذرة من النفي والإثبات لمخلوق.. فإن ذلك محال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

معناه أفلم يعلم الذين آمنوا، ويقال أفلم يأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق فهو المهتدي؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

يعني شؤم كفرهم لا يزال واصلاً إليهم، ومقتض فعلهم لا حق بهم أبداً.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول - ﷺ - عما كان يلاقيه منهم. وكما أن هؤلاء في التكذيب جرّوا على نهجهم فنحن أذمنا سئتنا في التعذيب معهم.
قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَننْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

الجواب فيه مضمّر؛ أي أفمن هو مُجْرِي ومنشئ الخلق والمُطْلِع عليهم، لا يخفى عليه منهم شيء كمن ليس كذلك؟ لا يستويان غداً أبداً.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

قُل لهم أروني أي تأثير منهم، وأي نفع لكم فيهم، وأي ضرر لكم منهم؟ اتقولون ما يعلم الله بخلافه؟ وهذا معنى قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾.
قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾.

أي قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان، وزين للذين كفروا مكرهم، وصاروا مصدودين عن الحق، مسدودة عليهم الطرُق، فإن من أضله حُكْمُه - سبحانه - لا يهديه أحد قطعاً^(١).

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

المَثَلُ أي الصفة، فصفة الجنة التي وعد المتقون هي أنها جنة تجري من تحتها الأنهار، وأكلها دائم وظلها دائم؛ أي أن اللذات فيها متصلة. وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة، فالمؤجلة ما ذكره الله - سبحانه - في نص القرآن، والمعجلة جنة الوقت. والدرجات - من حيث البسط - فيها متصلة، ونفحات الأنس لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرُحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.

يريد بهم مؤمني أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق يقينهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾.

أي الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لمّا نزل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾. قل يا محمد: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾. والعبودية المبادرة إلى ما أُمِرْتُ به، والمحاذرة مما زُجِرْتُ عنه، ثم التبرّي عن الحَوْل والمُنَّة، والاعتراف بالطول والمِئنة.

وأصل العبودية القيام بالوظائف، ثم الاستقامة عند رَوْح اللطائف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

أي حُكْمًا ببيان العرب؛ لأنّ الله تعالى أرسل الرسل في كلّ وقت كلّاً بلسان قومه ليَهْتَدُوا إليه.

ويقال من صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الذمام، وهذه الأشياء مندوب إليها في الشريعة.

﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: أي ولئن وافقتهم، ولم تعتصم بالله، ووقعت على قلبك حشمة من غير الله - فَمَا لَكَ من وَاقٍ من الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَحَلَّلْنَا لَهُمْ أَوْبَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي أرسلنا رسلاً من قبلك إلى قومهم، فلم يكونوا إلا من جنسك، وكما لكم

أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية، ولم يكن ذلك قادحاً في صحة رسالتهم، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم.

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر في حاله؛ ولا يضره ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

أي لكل شيء أجل مثبت في كتاب الله وهو المحفوظ، وله وقت قُسم له، وأنه لا اطلاع لأحد على علمه، ولا اعتراض لأحد على حكمه.

قوله جل ذكره: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

المشيئة لا تتعلق بالحدوث، والمحو والإثبات متصلان بالحدوث.

صفات ذات الحق - سبحانه - من كلامه وعلمه، وقوله وحُكمه لا تدخل تحت المحو والإثبات، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله؛ المحو يرجع إلى العدم، والإثبات إلى الإحداث، فهو يمحو من قلوب الزهاد حُب الدنيا ويُثَبِّتُ بَذْلَهُ الزهد فيها، كما في خبر حارثة: «عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حَجَرُهَا وَذَهَبُهَا».

ويمحو عن قلوب العارفين الحفظ، ويُثَبِّتُ بدلها حقوقه تعالى، ويمحو عن قلوب المُوحِّدين شهوة غير الحق ويثبت بَذْلَهُ شهود الحق، ويمحو آثار البشرية ويثبت أنوار شهود الأحدية.

ويقال يمحو العارفين عن شواهدهم، ويثبتهم بشاهد الحق.

ويقال يمحو العبد عن أوصافه ويثبته بالحق فيكون محواً عن الخلق مثبتاً بالحق للحق.

ويقال يمحو العبد فلا يجري عليه حكم التدبير، ويكون محواً بحسب جريان أحكام التقدير، ويثبت سلطان التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء.

ويقال يمحو عن قلوب الأجانب ذِكْرَ الحق، ويثبت بَذْلَهُ غلبات الغفلة وهواجِم النسيان.

ويقال يمحو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوازم الإرادة، ويثبت بدلها الرجوع إلى ما خرجوا عنه من أحكام العادة.

ويقال يمحو أَوْضَارَ^(١) الرُّؤْة عن نفوس العصاة، وآثار العصيان عن ديوان

(١) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

المذنبين (ويثبت) يدل ذلك لَوَعَةَ الثُّدَمِ، وانكسار الحَسْرَةِ، والخمودُ عن متابعة الشهوة.

ويقال يمحو عن ذنوبهم السيئة، ويثبت بدلها الحسنة، قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدِدُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ويقال يمحو الله نضارة الشباب ويثبت ضعف المشيب.

ويقال يمحو عن قلوب الراغبين في مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إثارة صحتهم، ويثبت بدلاً منه الزهد في صحتهم والاشتغال بعشرتهم.

ويقال يمحو الله ما يشاء من أيام صَفَتْ من الغيب، وليالٍ كانت مُضَاءَةً بالزلزلة والقربة ويثبت بدلاً من ذلك أياماً في أشد ظلاماً من الليالي الحنادس^(١)، وزماناً يجعل سَعَةً الدنيا عليهم محابس.

ويقال يمحو العارفين بكشف جلاله، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله.

ويقال يمحوهم إذا تجلَّى لهم، ويثبتهم إذا تعزَّز عليهم.

ويقال يمحوهم إذا ردَّهم إلى أسباب التفرقة لأنهم يبصرون بنعت الافتقار والانكسار، ويثبتهم إذا تجلَّى لقلوبهم فيبصرون بنعت الاستبشار، ويشهدون بحكم الافتخار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

قيل اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما سبق به علمه وحُكِّمَ مما لا تبديل ولا تغيير فيه.

ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ مَا نَرِيكَ بِعَضِّ أَلَدِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

نفي عنه الاستعجال أمراً، و (.....)^(٢) في قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعد جهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

في التفاسير: بموت العلماء، وفي كلام أهل المعرفة بموت الأولياء، الذين إذا أصاب الناس بلاءٌ ومحنةٌ فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلاء عنهم.

(١) الحنادس: (ج) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٢) بياض في الأصل.

ويقال هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشد في طريق الله لم يجد من يهديه إلى الله .

ويقال: في كل زمان لسان ينطق عن الحق سبحانه، فإذا وقعت فترة سكن ذلك اللسان - وهذا هو النقصان في الأطراف الذي تشير إليه الآية، وأنشد بعضهم:

طوى العصران ما نشره مني وأبلى جدتي نشر وطى
أراني كل يوم في انتقاص ولا يبقى مع النقصان شيء
ويقال ينقصها من أطرافها أي بفتح المدائن وأطراف ديار الكفار، وانتشار الإسلام، قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرُوا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

ويقال ينقصها من أطرافها بخراب البلدان، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فمعوذ الحق خراب العالم وفناء أهله، ووعدته حق لأن كلامه صدق، والله يحكم لا معقب لحكمه، ولا ناقض لما أبرمه، ولا مبرم لما نقضه، ولا قابل لمن رده، ولا راد لمن قبله ولا معز لمن أهانه، ولا مدلل لمن أعزّه.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]: لأن ما هو آت قريب.

ويقال ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] في الدنيا؛ لأن الأولياء إذا ألموا بشيء، أو هموا لمزجور غويوا في الوقت، وطولوا بخسب الرجعي.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعْلُهُ الْكُفْرَ لِمَنْ عَقَبَ الدَّارِ﴾.

مكرهم إظهار الموافقة مع إسرارهم الكفر، ومكر الله بهم توثمهم أنهم مخسبون في أعمالهم، وحسبانهم أنهم سنا من أحوالهم، وظنهم أنه لا يحق بهم مكرهم، وتخليته إياهم - مع مكرهم - من أعظم مكره بهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

وبال تكذيبهم عائد إليهم، فإن الله شهيد لك بصدقك. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو الله سبحانه وتعالى عنده علم جميع المؤمنين. فالمعنى كفى بالله شهيداً فعنده علم الكتاب وكفى بالمؤمنين شهيداً؛ إذ المؤمنون يعلمون ذلك.

السورة التي يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله معناه بالله؛ فقلوب العارفين بالله إشراقها، وقلوب الوالهيين بالله احتراقها، لهؤلاء فا (....)^(١) محبته، ولهؤلاء شوقاً إلى عزيز رؤيته.

وأصحاب الوصول قالوا: بالله.. فوصل من الطالبيين مَنْ وصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿الرَّكَتُبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

أقسم بهذه الحروف: إنه لكتاب أنزل إليك لتخرج الناس به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دعاوى النفس إلى نور معارف القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجمع - بإذن ربهم، وبإرادته ومشيتته، وسابق حكمه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَبَدِئَ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

عرّف الخلق أن الله هو الذي له ما في السموات وما في الأرض.

فمن عرف فله المآب الحميد، ومن جحد فله العذاب الشديد؛ وذلك العذاب هو جهله بأنه - سبحانه - من هو.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَبِعَثْوَتِهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

ثم ذكر ذمهم أخلاقهم، فقال: هم الذين يؤثرون اليسير من خطام الدنيا على الخطير من نعم الآخرة، وذلك من شدة جحدهم، ويبغون للدنّ عوجاً بكثرة جمعهم، أولئك لهم في الدنيا الفراق وهو أشد عقوبة، وفي الآخرة الاحتراق وهو أجل محنة ومصيبة.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

إنما كان كذلك ليكون آكد في إلزام الحجة: وأتى ينفع ذلك إذا لم يُوقَفُوا لِسُلُوكِ المحجَّة؟ فأهل الهداية فازوا بالعناية السابقة، وأصحاب الغواية وقعوا في ذل العداوة: فلا اعتراض عليه فيما يصنع، ولا يُسأل عما يفعل أو لم يفعل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أخرج قومك بدعوتك من ظلمات شكهم إلى نور اليقين، ومن إشكال الجهل إلى رُوح العلم. وذكّرهم بأيام الله؛ ما سلف لهم من وقت الميثاق، وما رفع عنهم من البلاء في سابق أحوالهم.

ويقال ذكّرهم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها في الأشباح:

سقياً لها ولطيبها ولحسنها وبهائها

أيام لــــم (.....)^(١)

ويقال ذكّرهم بأيام الله وهي التي كان العبد فيها في كتم العدم، والحق يتولّى عباده قبل أن يكون للعباد فعل؛ فلا جهد للسابقين، ولا عناء ولا ترك للمقتصدين، ولا وقع من الظالم لنفسه ظلم.

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة، والحكم على الإرادة.. ولم يكن للعبد اختيار في تلك الأيام.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿صَبَّارٍ﴾: راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيد العيش يسره.

﴿شَكُورٍ﴾: محجوبٌ بشهود النعم عن استغراقه في ظهور حقه.. هذا واقف مع صبره وهذا واقف مع شكره، وكلٌّ مُلْزَمٌ بحده وقدره: والله غالب على أمره، مقدّسٌ في نفسه مُتَعَزِّزٌ بجلال قُدْسيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْخِلُونَ أَسْنَاءَكُمْ وَيَسَاءُكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

تَذَكَّرُ مَا سَلَفَ مِنَ النُّعْمِ يُوَجِبُ تَجْدِيدَ مَا سَبَقَ مِنَ الْمَحَبَةِ، وفي الخبر: «جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا»^(١)؛ فالحقُّ أَمَرَ موسى عليه السلام بتذكير قومه ما سبق إليهم من فنون إنعامه، ولطائف إكرامه. . وفي بعض الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام: «عبدني، أنا لك مُجِبٌّ فبحقي عليك كن لي محباً». قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

إن شكرتم لأزيدنكم من إنعامي وإكرامي، وإن كفرتم بإحساني لأعذبنكم اليوم بامتحاني، وغداً بفراقي وهجراني.

لئن عرفتم وصالي لأزيدنكم من وجود نوالي إلى شهود جمالي وجلالي. ويقال لئن شكرتم وجوه توفيق العبادة لأزيدنكم بتحقيق الإرادة. ويقال لئن شكرتم شهود المكافي لأزيدنكم بشهود أوصافي. ويقال لئن شكرتم صنوف إنعامي لأزيدنكم بشهود إكرامي ثم إلى شهود إقدامي.

ويقال لئن شكرتم مختص نعمائي لأزيدنكم مُنْتَظَر آلائي. ويقال لئن شكرتم مخصوص نعمي لأزيدنكم مأمول كرمي. ويقال لئن شكرتم ما حوّلناكم من عطائي لأزيدنكم ما وعدناكم من لقائي. ويقال لئن شكرتم ما لوأخْتُ في سرائركم زِدناكم ما ألبسنا من العصمة لظواهركم.

ويقال لئن كفرتم نغمتي بأن توهمت استحقاقها لَجُرْعناكم ما تَسْتَمِرُّون مذاقها. قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَا اللَّهُ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾.

إن اجتمعتم أنتم ومن عاصدكم، وكل من غاب عنكم وحضركم، والذين

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٥٤/٩)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٥٨/١١، ١٢/١٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٤١٠٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٢٧٧/٤، ٩٤/١١)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١٢١/٤)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٧٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٦٧)، والفنّي في (تذكرة الموضوعات ٦٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٨٢)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٣٩٥/١)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٢٥٢٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٦٠٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧٠١/٢).

يقتفون أثركم - على أن تكفروا بالله جميعاً، وأخذتم كل يوم شركاء قطعاً - ما أوجهتم لِعِزَّنَا شَيْنًا، كما لو شكرتم ما جعلتم بِمُلْكِنَا زِينًا. والحق بنعوته ووصف جبروته عليّ وعن العالم بأسره غنيّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَهَمُودُ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

استفهام في معنى التقرير. أخبره أنه لما جاءتهم الرسل قابلوهم بالكند. وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم في أفواههم، وحذوا سبيل أمثالهم في الكفر، وبنوا على الشك والريبة قواعدهم، وأسسوا على الشرك والغيّ مذاهبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

استفهام والمراد منه توبيخ ونفي. سبحانه لا يتحرك نفس إلا بتصرّيفه.

وكيف يبصر جلال قدره إلا من كحله بنور برّه؟

ثم قال. ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: ليس العجب ممن تكلف لسيده المشاق وتحمل ما لا يطاق، وألا يهرب من خدمة أو يجنح إلى راحة. . إنما العجب من سيد عزيز كريم يدعو عبده ليغفر له وقد أخطأ، ويعامله بالإحسان وقد جفا. والذي لا يكف عن العناد، ولا يؤثر رضاء سيده على راحة نفسه لا يحمل هذا إلا على قسمة بالشقاء سابقة. . وإن أحكام الله برده صادقة. ثم أخبر أنهم قالوا لِرُسُلِهِمْ: .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم، ولم يعرفوا سرائرهم، ومالوا إلى تقليد أسلافهم، وأصروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قالت لهم الرسل ما نحن إلا أمثالكم، والفرق بيننا أنه - سبحانه - من علينا بتعريفه، واشتخلصنا بما أقرّدنا به من تشريفه. والذي اقترحتهم علينا من ظهور الآيات

فليس لنا إلى الإتيان به سبيلٌ إلا أن يُظهره الله علينا إذا شاء بما شاء - وهو عليه قدير .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ : وقد رقنا من حدّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان، فكفانا من مهان الشان . ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ : وقد حقّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان، وكفاية ما أظّلنا من الامتنان . ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ ولم نخرج إلى التقاضي على الله فيما وعدنا الله .

قوله: ﴿وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا﴾ : والصبر على البلاء يهون إذا كان على رؤية المبلي، وفي معناه أنشدوا:

يستقدمون بلاياهم كأنهم لا يياسون من الدنيا إذا قبلوا
قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ .

لما عجز الأعداء عن معارضة الأنبياء عليهم السلام في الإتيان بمثل آياتهم أخذوا في الجفاء معهم بأنواع الإنذار، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان، والتشريد في البلدان . وبسط الله على قلوبهم بوعده نصره ولقائه ما أظلم من الأمر، ومكّن لهم من مساكن أعدائهم بما قوى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾، وقال:

﴿وَلَنَسْجَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ .
﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ : أي خاف مقامه في محل الحساب غداً فأنا ب إلى نفسه على وجه التخصيص .

ويقال خاف مقامي أي هاب إطلاعي عليه، فالأول تذكير المحاسبة في الآجل، والثاني تحقيق المراقبة في العاجل .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ .
الاستفتاح طلب الفتح، والفتح القضاء، واستعجلوا حلول القضاء مثل قولهم: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا جَحَازَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وغيره فلما نزل بهم البلاء، وتحقق لهم الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم، ولم تقبل منهم صدقتهم وفداؤهم، وندموا حين لا ندامة، وجزعوا بعدما عديموا السلامة .
ويقال: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ : بغير الرسل، ولما وجد الرسل إصرار قومهم سألوا

النصرة عليهم من الله كقول نوح - عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ﴾ [يوسف: ٨٨] فأجابهم الله بإهلاكهم.

ويقال إذا اشتد البلاء وصدق الدعاء قَرَبَ النَّجَاء.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ زَايَاهُ جَهَنَّمَ وَنُفْسٍ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِيقُهُ﴾.

لفظ «وراء» يقع على ما بين يديه وعلى ما خلف، والوراء ما توارى عليك أي استتر؛ يريد الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان، وعلى ما خلفه؛ أي لأجل ما سلف من الماضي من قبيح أفعاله، وِنُفْسٍ من النار ما يشربه جرعة بعد جرعة، فلصعوبته ومرارته لا يشربه مرة واحدة.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَمِيتٍ وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

يرى العذاب - من شدته - في كل عضو، وفي كل وقت، وفي كل مكان. وليس ذلك الموت؛ لأن أهل النار لا يموتون، ولكنه في الشدة كالموت. ثم ﴿وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾: وهو الخلود في النار، وهذا جزاء مَنْ اغترَّ بأيام قلائل ساعدته المشيئة فيها، وانخدع فلم يشرع بما يليها.

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

أي وفيما يُتْلَى عليك - يا محمد - مثل لأعمال الكفار في تلاشيها، وكيف أنه لا يُقْبَلُ شيءٌ منها كَرَمَادٍ في يوم عاصف، فإنه لا يَبْقَى منه شيء - كذلك أعمالهم. وَمَنْ كان كذلك فقد خاب في الدارين، وحلَّ عليه الويل.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحُكْمِ الْحَقِّ، أي له ذلك بحق ملكه، وخلقهما بقوله الحق؛ فجعل كل جزء منهما على وحدانيته دليلاً، وَلِمَنْ أراد الوصول إلى ربه سبيلاً. ثم قال: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ بِالْإِفْنَاءِ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ فِي الْإِنْشَاءِ، وليس ذلك عليه بعزيز... وأنى ذلك وهو على كل شيء قدير؟! (١).

قوله جل ذكره: ﴿وَيَرْزُقُ اللَّهُ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَوِنَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾.

لم يكونوا عن الحق - سبحانه - مستترين حتى يظهروا له، ولكن معناه صارت معارفهم ضرورية فحصلوا في مواطن لم يكن لغير الله فيها حكم، فصاروا كأنهم ظهروا لله. فقال الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا﴾ توهماً أن يرفعوا عنهم شيئاً من العناء، فأجابهم المتكبرون: إِنَّا جميعاً في العذاب مشتركون، ولو أمكننا أن نرفع عنكم من العذاب، وقدرنا على أن نهديكم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكوتهم، وأجبناكم إلى ما سألتهم، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين، ولا نحن لكم بمغيثين، ولا لما تدعوننا إليه بمستجيبيين...

فلا تلوมนา ولوموا أنفسكم، ولات حين ملام! إنما ينفع لوم النفس فيما تتعاطاه من الإساءة في زمان السهلة وأوقات التكليف؛ فإن أبواب التوبة مفتوحة، ولكن لمن لم يترع روحه^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَدْخِلْ آلَ زَيْدٍ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

ذلك الذي مضى ذكر صفه الكفار والأعداء. وأما المؤمنون والأولياء، فقال: ﴿وَأَدْخِلْ آلَ زَيْدٍ ءَامَنُوا﴾ والإيمان هو التصديق، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تحقيق التصديق. ويدخل في جملة الأعمال الصالحة ما قل أو كثر من وجوه الخيرات حتى القدر تميطه^(٢) عن الطريق.

و ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ - وكذلك قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، فالوصف العام والتحية لهم من الله السلام.

ويقال إن أحوالهم متفاوتة في الرتبة؛ فقوم سلموا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من الحجاب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْثَلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

هذا مثل ضربه الله للإيمان والمعرفة به سبحانه، فشبهه بشجرة طيبة، وأصل تلك الشجرة ثابت في الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية. تؤتى أكلها كل وقت، ويتنفع بها أهلها كل حين.

(٢) أماطة: نحاء وأبعد.

(١) الآية (٢٢) لم ترد.

وأصل تلك الشجرة المعرفة، والإيمان مُصَحَّحاً بالأدلة والبراهين. وفروعها الأعمال الصالحة التي هي الفرائض ومجانبة المعاصي.

والواجب صيانة الشجرة مما يَضُرُّ بها مثل كشف القِشْر وقَطْع العِرْق وإملاق الغصن وما جرى مجراه.

وأوراق تلك الشجرة القيام بآداب العبودية، وأزهارها الأخلاق الجميلة، وثمارها حلاوة الطاعة ولذة الخدمة.

وكما أن الثمار تختلف في الطعم والطبع والرائحة والصورة.. كذلك ثمرات الطاعات ومعاني الأشياء التي يجدها العبدُ في قلبه تختلف من حلاوة الطاعة وهي صفة العابدين، والبسط الذي يجده العبدُ في وقته وهو صفة العارفين، وراحة في الضمير وهو صفة المريدين، وأنس يناله في سرّه وهو صفة المحبين. وقلق واهتياج يجدهما ولا يعرف سببهما، ولا يجد سبيلاً إلا سكونه وهو صفة المشتاقين... إلى ما لا يفي بشرحه نطق، ولا يستوفيه تكلفُ قول. وذكر من لوائح ولوامع، وطوارق وشوارق، كما قيل:

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتُظهِرُ كتماننا وتُخْبِرُ عن جمع

ثم إن ثمرات الأشجار في السنة مرة، وثمرات هذه الشجرة في كل لحظة كذا كذا مرة. وكما قال الله تعالى في ثواب الجنة: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] كذا لطائف هذه الشجرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وقلوب أهل الحقائق عنها لا مصروفة، ولا محجوبة، وهي في كل وقت ونفس تبدو لهم غير محجوبة.

وثمرات الشجرة أشرف الثمار، وأنوارها ألطف وأظرف الأنوار، وإشارات أهل هذه القصة وألفاظهم في مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والثور.

ويقال الكلمة الطيبة هي الشهادة بالإلهية، وللرسول - ﷺ - بالنبوة. وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سرٍّ مخلص.

والشجرة الطيبة المعرفة، وأصلها ثابت في أرض غير سبخة، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق، فالإيمان لا ينبت في قلبيهما كما أن الشجرة في الأرض السبخة لا تنبت. ثم لا بدّ للشجرة من الماء، وماء هذه الشجرة دوام العناية، وإنما تُورق بالكفاية، وتورّد بالهداية.

ويقال ماء هذه الشجرة ماء الندم والحياء والتلهف والحسرة والأمانة والخشوع وإسبال الدموع.

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم؛ فمنها التوكل

والتفويض والتسليم، والمحبة والشوق والرضا، والأحوال الصافية الوافية، والأخلاق العالية الزكية.

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هي كلمة الكفر، وخبيثها ما صاحبها من نجاسة الشُّرك، فَخُبِثَ الكلمة لصدورها عن قلبٍ هو مُسْتَقَرُّ الشُّركِ ومنبعه.

والشجرة الخبيثة هي الشُّركُ اجْتَثَّ^(١) من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَّهَ بأباطيل وضلال، تقتضي وساوس وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبِّهِ واهية وأصول فاسدة.

قوله جل ذكره: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة، وترك العوج.

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة.

ويقال القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان.

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذي لا يجوز عليه الفناء والبطول فهو بالشبوت أَوْلَى من قول العبد؛ لأن قولَ العبد أثَرٌ، والآثار لا يجوز عليها الشبوت والبقاء وإنما يكون باقياً حُكْماً ثباتَ العبد لقول الله؛ وهو حكمه بالإيمان وأخباره أنه مؤمن وتسميته بالإيمان. وقول الله لا يزول؛ ففي الدنيا يثبت حتى لا بدْعَةً تعتريه، وفي الآخرة يثبت برسله من الملائكة، وفي القيام يثبت عند السؤال والمحاسبة وفي الجنة يثبت لأنه لا يزول حمد العبد لله، ومعرفته به. وإذا تنوعت عليه الخواطر ورفع إليه - سبحانه - دعاءه ثُبَّتْ حتى لا يحيد عن النهج المستقيم والدين القويم. ويقال إذا دَعَتْهُ الوسواسُ إلى متابعة الشيطان، وصيرته الهواجسُ إلى موافقة النَّفْسِ فالحق يثبت على موافقة رضاءه.

ويقال إذا دَعَتْهُ دواعي المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا، أو محبة الأولاد والأقارب والأموال والأحباب أعانته الحقُّ على اختيار النجاة منها، فيترك الجميع، ولا يَتَحَسَّنُ إلا دواعي الحق - سبحانه كما قيل:

إذا ما دَعَتْنا حاجةٌ كي تردَّنا أبينا وقلنا: مطلبُ الحقِّ أولاً

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

(١) الجث: القطع أو انتزاع الشجر من أصله.

وضعوا الكفران محل الشكر، فاستعملوا النعمة للكفر، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغي لها من الشكر. واستعمال النعمة في المعصية من هذه الجملة، فأعضاء العبد كلها نِعَمٌ من الله على العبد، فإذا استعمل العاصي بَذَلَهُ في الزَّلَّة بدلاً من أن يستعملها في الطاعة فقد بَذَلَ النعمة كُفْراً، وكذلك إذا أودع الغفلة قلبه مكان المعرفة، والعلاقة فيه مكان الانقطاع إليه، وعَلَّقَ قلبه بالأغيار بَذَلَ الثقة به، وَلَطَّخَ لسانه بذكر المخلوقين وَمَذْجَهُمْ بَذَلَ ذكر الله واشتغل بغير الله دون العناء في ذكره... كلُّ هذا تبديل نِعَمِ الله كُفْراً. وإذا كان العبد منقطعاً إلى الله، مكفياً من قِبَلِ الله.. وَجَدَ في فراغه مع الله راحةً عن الخَلْق، ومن إقباله عليه - سبحانه - كفاية، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة، ووقع في بحار الاشتغال ومعاملة الخلق ومدحهم وذمهم فقد أحلَّ قومه دار البوار؛ على معنى إيقاعه قلبه ونَفْسَهُ وجوارحه في المذلة من الخَلْق، والمضرة في الحال، وشأنه كما قيل:

ولم أرَ قَبْلِي مَنْ يُفَارِقُ جَنَّةً ويقرّع بالتطفيل باب جهنم
قوله جلّ ذكره: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيُنَكِّسُ الْقَرَارُ﴾.

وهي الجحيم المُعَجَّل.. وعذابها بها الفُرْقَةُ لا الحُرْقَةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

رضوا بأن يكون معمولُهم معبودهم، ومنحوثُهم مقصودهم، فضلُّوا عن نهج الاستقامة، ونأوا عن مقر الكرامة وسيلقون غِبَّ ما صنعوا يوم القيامة كما قيل:

قد تركناك والذي تريد. فعسى أن تَمَلُّهُم فتعودوا

قل تمتعوا أياماً قليلة فأيام السرور قصار، ومَتَّعَ الغفلة سريعة الانقضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾.

جعل الله راحة العبد - اليوم - بكمالها في الصلاة؛ فإنَّها محل المناجاة، قال الرسول ﷺ: «أَرَحْنَا يَا بَلال بالصلاة»^(١) والصلاة استفتاح باب الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢].

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣٦٤/٥ - ٣٧١)، والطبراني في (المعجم الكبير ٣٤٠/٦) وابن كثير في (التفسير ٤٥٦/٥)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١٤٥/١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤٤٣/١٠ - ٤٤٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١٦٥/١)، (تحذير الخواص ٣٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٣٧/٣).

وفي الصلاة يبث العبد أسرارَه مع الحق؛ فإذا كان لقاء الإخوان - كما قالوا - منسلةً لهم فكيف بمناجاتك مع الله، ونشر قصتك بين يديه؟ كما قيل:

قُلْ لِي بِالسَّنةِ التَّنَفُّسِ كيف أنت وكيف حالك؟

﴿وَيُفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: أمرهم بإنفاق اللسان على ذكره، وإنفاق البدن على طاعته، والوقت على شكره، والقلب على عرفانه، والروح على حبه، والسرُّ على مشاهدته. . ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب، وتقف على البساط بالشاهد الذي آتاك. . يقول العبد المسكين: لو كان لي نفس أطوع من هذه لأتيت بها، ولو كان لي قلب أشدَّ وفاءً من هذا لجُذْتُ به، وكذلك بروحي وسِرِّي، وقيل:

يفديك بالروح صَبُّ لو أنَّ له أعز من روحه شيئاً فذاك به

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُ﴾: وفي هذا المعنى أنشدوا:

قلْتُ لِلنَّفْسِ إِنْ أَرَدْتَ رَجوعاً فارجمي قبل أن يُسَدَّ الطريق

قوله جلَّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

في الظاهر رفع السماء فأعلاها، والأرض من تحتها دحاها، وخلق فيها بحاراً، وأجرى أنهاراً، وأنبت أشجاراً، وأثبت لها أنوار وأزهاراً، وأمطر من السماء ماء مدراراً. وأخرج من الثمرات أصنافاً، ونوع لها أوصافاً، وأفرد لكل منها طعاماً مخصوصاً، ولإدراكه وقتاً معلوماً.

وأما في الباطن فسماء القلوب زَيَّنَّها بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد، وقمر العرفان. ومَرَجَ في القلوب بحري الخوف والرجاء، وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان؛ فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف، كما جاز في الخبر: «لو وزنا لاعتدلا»^(١) - هذا لعوام المؤمنين، فأما للخواص فالقبض والبسط، ولخاص الخاص فالهبة والأنس والبقاء والفناء.

وسَخَّرَ لهم الفلك في هذه البحار ليعبروها بالسلامة، وهي فلك التوفيق والعصمة، وسفينة الأنوار والحفظ. وكذلك ليالي الطلب للمريدين، وليالي الطرب لأهل الأنس من المحبين، وليالي الحرب للتائبين، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند متوع نهار اليقين.

(١) للحديث رواية أخرى تقول: «قال ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا» أخرجه السيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكُم لَإِلَيْهِ لَاطِلُونَ﴾.

ما سَمَّيْتُ إِلَيْهِ هِمَّتُكُمْ، وتعلّق به سؤالُكم، وخطر تحقيق ذلك ببالكم، أنلناكم فوق ما تَوَمَّلُون، وأعطيناكم أكثر مما تَرْجُونَ، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقرأ بعض القراء: ﴿مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فَيَتَوَنُّ قوله: كلّي، ويجعل ما سألتموه (ما) للنفي أي كل شيء مما لم تسألوه.

كذلك جاز أن يكون المعنى، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني - وهذا لأرباب الطاعات، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني - وهذا لأصحاب الزلات. عِلِمَ قصور لسان العاصي وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكّر ما عمله من الزلات، فأعطاه غفرانه، وكفاه حشمة السؤال، والتفضل؛ فقال: غفرت لكم قبل أن تستغفروني.

ولكن متى يخطر على قلب العبد ما أهله الحق - سبحانه - من العرفان؟ وكيف يكون ذلك الحديث؟... قَبْلَ أَنْ كَانَ لَهُ إِمْكَانٌ، أو معرفة وإحسان، أو طاعة أو عصيان، أو عبادة وعرفان، أو كان له أعضاء وأركان، أو كان العبد شيخاً أو عيناً أو أثراً... لا بَلْ:

أتاني هواها قبل أَنْ أَعْرِفَ الْهُوَى فصادف قلباً خالياً قَتَمَكُنَا
قوله جل ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكُم لَإِلَيْهِ لَاطِلُونَ﴾.

كيف يكون شكركم كفاء نِعَمِهِ...؟ وشكرُكم نَزَرٌ يسير، وإنعامه وافر غزير.
وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإنعام؟
إِنَّ نِعَمَهُ عُلُومُكُمْ عن تفصيلها متقاصرة، وفُهوْمُكُمْ عن تحصيلها متأخرة.
وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له... فكيف يأتي الحصر والإحصاء على ما لا يتناهى؟
وكما أن النِّفْعَ من نِعَمِهِ فالدفع أيضاً من نعمه.

ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما ينعم به الحق على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه إلا بتوفيق آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَصْلَحَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن يَتَعَبَى فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

كما سأل أن يجعل مكة بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبه محلاً آمناً؛ أي لا يكون فيه شيء إلا بالله. ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: والصنم ما يعبد من دونه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾ [الجاثية: ٢٣] فصنم كل أحد ما يشغله عن الله تعالى من مالٍ وولَدٍ وجاهٍ وطاعة وعبادة.

ويقال إنه لما بنى البيت استعان بالله أن يجردّه من ملاحظة نفسه وفعله.

ويقال إنه - ﷺ - كان متردداً بين شهود فضل الله وشهود رفق نفسه، فلما لقي من فضله وجوده قال من كمال بسطه: ﴿وَأَغْفِرْ لِي إِنَّكَ كَانِ مِنَ الصَّالِينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]. ولما نظر من حيث فقر نفسه قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

ويقال شاهد غيره فقال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، وشاهد فضله ورحمته ولطفه فقال: ﴿وَأَغْفِرْ لِي إِنَّكَ كَانِ مِنَ الصَّالِينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّكَ مَعِيَّ فَإِنَّهُ مَعِيَّ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿فَإِنَّهُ مَعِيَّ﴾: أي موافق لي ومن أهل ملتي، ومن عصاني خالفني وعصاك.

قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: طلب للرحمة بالإشارة، أي فازحمهم.

وقال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾... ولم يقل: مَنْ عصاك، وإن كان من عصاه فقد عصى الله، ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه، ولم ينتصر لنفسه بل قابلهم بالرحمة.

ويقال إن قول نبينا ﷺ في هذا الباب أتم في معنى العفو حيث قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وإبراهيم - عليه السلام - عرّض وقال: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ويقال لم يجزم السؤال لأنه بدعاء الأدب فقال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله: ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ وإنما رأى الرفق بهم في الجوار لا في المَبَار فقال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ ثم قال: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أي أسكنتهم لإقامة حقك لطلب حظوظهم.

ويقال اكتفى أن يكونوا في ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعمته.

ثم قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي ليستغلوا بعبادتك، وأقم قومي - ما بقوا - بكفايتك، ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: فإن مَنْ قام بحق الله أقام الله

بحقه قَوْمَهُ، واستجاب الله دعاءه فيهم، وصارت القلوب من كل بر وبحر كالمجبولة على محبة تلك النسبة، وأولئك المتصلين، وسكان ذلك البيت.

ويقال قوله: ﴿يَوَادُّ غَيْرَ ذِي ذَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]: أي أسكنتهم بهذا الوادي حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبهم، ولا تشتغل بشيء أفكارهم وأسرارهم، فهم مطروحون ببابك، مصنونون بحضرتك، مرتبطون بحكمتك؛ إن راعيتهم كفيتهم وكانوا أعز خلق الله، وإن أقصيتهم ونفيتهم كانوا أضعف وأذل خلق الله.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

استأثرت بعلم الغيب فلا يغزب عن علمك معلوم، وحالي لا تخفى عليك، فهي كما عرفت، أنت تعلم سرِّي وعَلَنِي.. ومن عرف هذه الجملة استراح من طوارق الأغيار، واستروح قلبه عن ترجُّم الأفكار، والتقسُّم في كون الحوادث من الأغيار.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

أسعده بمنحه الولد على الكبر، ويلتحق ذلك بوجه من المعجزات؛ فحمد عليه. ولما كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدَّم من ذكر نعمته - سبحانه - عليه، وأكرامه بأنواره، وهذا يكون بمعنى الملق^(١)، ويكون استدعاء نعمة بنعمة، فكانه قال: كما أكرمتني بهبة الولد على الكبر؛ فأكرمني بهذه الأشياء التي سألتها.

ويقال الإشارة في هذا أنه قال: كما مننت عليَّ فوهبتي عليَّ الكبر هذه الأولاد فأجيبنا أن نعبد الأصنام لتكون النعمة كاملة. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].. إشارة إلى هذه الجملة.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾.. إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة، فمعناه اجعل صلاتي، والجلُّ والخلق بمعنى، فإذا جعله مقيم الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاة.

وقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: أي اجعل منهم قوماً يصلُّون، لأنه أخبره في موضع آخر بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

(١) الملق: الزيادة في التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغي (اللسان ٣٤٧/١٠ مادة: ملق).

ثم قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وهذا قبل أن يعلم أنه لا يؤمن.

ويقال إن إجابة الدعاء ابتداءً فضل منه. ولا ينبغي للعبد أن يتكبر على دعاء أحد وإن كان عليّ الشأن، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله؛ فلا دعاء أتم من دعاء إبراهيم عليه السلام، ولا عناية أتم من عنايته بشأن أبيه، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له. ويقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطع رجاءه في ألا يستجيب الله دعاءه، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام دعا لأبويه فلم يُستجب له، ثم إنه لم يترك الدعاء، وسأل حينما لم يُجب فيه. فلا غضاضة على العبد ولا تناله مدّة إن لم يُجبه مولاه في شيء؛ فإن الدعاء عبادة لا بد للعبد من فعلها، والإجابة من الحقّ فضل، وله أن يفعل وله ألا يفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾.

هذا وعيدٌ للظالمين وتسليّة للمظلومين؛ فالمظلوم إذا تحقّق بأنه - سبحانه - عالم بما يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته، وحق عليه تحمله. والظلم على وجوه؛ ظلم على النفس بوضع الرّلة مكان الطاعة، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الرديّة منه، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين. ويقال من جملة الظالمين الشيطان، فالعبد المؤمن مظلوم من جهته، والحقّ - سبحانه - ينتصف له منه غداً، وذلك إن لم يتبّع اليوم، ودفعه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِي...﴾.

وهذا للعوام من المؤمنين، علّق قلوبهم بالانتقام منهم في المستأنف، وأمّا الخواص فإذ علموا أنه - سبحانه - عالم بهم وبحالهم فإنهم يعفون ويكتفون بذلك، وأمّا خواص الخواص فإذ علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن ظلمهم حتى يستغفر لهم، كما قال النبي - ﷺ -: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وفي معناه أنشدوا:

وما رضوا بالعفو عن ذي زلة حتى أنالوا كفه وازدادوا

وأما أصحاب التوحيد فإذ علموا أنه المنشئ، وألا مخترع سواء فليس بينهم وبين أحد محاسبة، ولا مع أحد معاتبة، ولا منه مطالبة، لأنهم يعدّون إثبات الغير في الظن والحسبان شركاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْنَا

أَجَلٍ قَرِيبٍ يُجِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَّلَمَ نَكُونُوا أَفْسَمْتُمْ مِن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

أفسدوا في أول أمورهم، وقصّروا في الواجب عليهم، ولم يكن للخَلَلِ في أحوالهم جبران، ولا لعذرهم قبول لتصحّ الحجة عليهم، فافتضح المجرم منهم، وخاب الكافر، وحقّ الحكم عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾.

أحللنا بهم العقوبة، وأشهدناكم ذلك مما اعتبرتم، وجريتم على منهاجهم، وفعلتم مثل فعلهم، وبإمهالنا لكم اغتررتم. . فانتظروا مثلاً ما عاملناكم به جزاء لكم على ما أسلفتم.

ويقال إن معاشرة أهل الهوى والفسق ومجاورتهم مُشَارَكَةٌ لهم في فعلهم، فيستقبل فاعل ذلك استقبالهم، وَمَنْ سَلَكَهُمْ يَنْخَرُطُ فِي التَّرْدِي نَحْوَ وَهْدَةٍ هَلَكَهٖ مِثْلَهُمْ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أي لا تحسبته يخلف رسله وعده؛ لأنه لا يخلف الوعد لصدقه في قوله، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقه في ملكه، وهو ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يصل إليه أحد، وإن كان ولياً. ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لا يفوته أحد وإن كان (...).^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

لا يختلف غيئها وإنما تختلف صورتها، وكذلك إذا انكدرت النجوم، وانشت السماء يقال ما بدّل عينها وإنما بدّل الأزمان والمكان على الناس باختلاف أحوالهم في السرور والمحن؛ كَمَنْ صار من الرخاء إلى البلاء يقول: تغيّر الزمان والوقت. . . وكذلك من صار من البلاء إلى الرخاء.

ويقال إن آدم لما قتل أحد ابنه الآخر قال:

تغيرت البلادُ ومن عليها فوجه الأرض مُغْبَرٌ قبيحٌ

وفي هذه القصة من كان صاحب بسطٍ فردّ إلى حال القبض، ومن كان صاحب أنسٍ فصار صاحب حجاب - يصحّ أن يقال بدل له الأرض، قال بعضهم:

ما الناس بالناس الذي عهّي بهم ولا البلاد بتلك التي كنت أعرفها

وكذلك العبد المريد إذا وقعت له وقفة أو فترة كانت الشمس له كاشفة، وكانت الأرض به راجفة، وكان النهار له ليلاً، وكان الليل له ويلاً، وكما قيل:

(١) الآية (٤٦) لم ترد.

(٢) بياض في الأصل.

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا بِطَلْقٍ وَلَا مَاءِ الْحَيَاةِ بِبَارِدٍ
 قوله جل ذكره: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ
 وَتَقَنَّى وُجُوهُهُمُ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .
 الأصفاة الأغلال . الأصفاة تجمعهم ، والسلاسل تقيدهم ، والقطران سراويلهم ،
 والحميم شربهم ، والنار محيطه بهم . . . وذلك جزاء من خالف إلهه .
 قوله جل ذكره: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو
 الْأَلْبَابِ﴾ .

الحجج ظاهرة ، والأمارات لائحة ، والدواعي واضحة ، والمهلة متسعة ،
 والرسول عليه السلام مبلّغ ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد . ولكن القسمة
 سابقة ، والتوفيق عن القيام ممنوع ، والرب - سبحانه - فعّال لما يريد ، فمن اعتبر نجا ،
 ومن غفل تردى . والله الأمر من قبل ومن بعد ، والله أعلم .

السورة التي يذكر فيها الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة، لئُغْلَمَ أن الإثبات والإسقاط بلا علة؛ فلم يَقْبَلْ من قَبْلِ لاستحقاق علة، ولا رَدَّ مَنْ رَدَّ لاستيجاب علة. فَإِنْ قِيلَ الْعِلَّةُ فِي إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال في كتابتها. أَشْكِلُ بِأَنَّ الباء من بسم الله زيد في كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة. فَإِنْ قِيلَ الْعِلَّةُ فِي زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أَشْكِلُ بحذف ألف الوصل لأن الاتصال بها موجود، فلم يبقَ إِلَّا أن الإثبات والنفي ليس لها علة؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾.

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعَةً على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة في الخطاب، فأعرضوا عن كل شيء وسمعوا لها. ونبههم القرآن إلى أن هذه التي يسمعونها آيات الكتاب، فقال لهم لما حضرت ألبابهم، واستعدت لسماع ما يقول آذانهم: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾.

ووصف القرآن بأنه مبين؛ لأنه يُبَيِّنُ للمؤمنين ما يسكن قلوبهم، وللمريدين ما يقوي رجاءهم، وللمحسنين ما يهيج اشتياقهم، وللمشتاقين ما يشير لواعج أسرارهم، ويبين للمصطفى - ﷺ - تحقيق ما مَنَعَ غَيْرَهُ بعد سؤاله. ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام: «لن تراني» بعد سؤاله: ﴿رَبِّ ارْزُقْنِي أَتَنظَرُ لِإِيَّتِكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

إذا عرفوا حالهم وحال المسلمين يوم القيامة لعلموا كيف شقوا، وأي كأس رشفوا. ويقال إذا صارت المعارف ضرورية أحرقت نفوس أقوام العقوبة، وقطعت قلوبهم الحسرة.

ويقال لو عرفوا حالهم وحال المؤمنين لَعَلِمُوا أن العقوبة بإهلاكهم حاصلة لقوله تعالى بعدئذ:

قوله جل ذكره: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيَلْتَمِئُوا الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قيمة كل امرئ على حسب همته؛ فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يحاسب، وعلى العقل لا يطالب؛ فالتكليف يتبعه التشريف! وغداً سوف يعلمون.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ مَّا تَسْقِي مِنْ أَمَةِ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾.

الآجال معلومة، والأحوال مقسومة؛ والمشيتة في الكائنات ماضية، ولا تخفى على الحق خافية.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

الجنون معنى يوجب إسناد ما ينكشف للعقل من التحصيل على صاحبه، فلمّا كانوا بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أولى بما وصوفه به، فهم كان في المثل: رَمَتْنِي بِذَاتِهَا وَأَنْسَلْتُ.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ مَا نُزِّلَ الْمَلَكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾.

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بعد ما أزيحت العلة عليهم بما أُيد به معجزاته، فيتوجب اللؤم عليهم لسوء أدبهم. وأخبر الحق - سبحانه - أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر الملائكة لأبصار بني آدم فيكون ذلك عند استبصارهم؛ لأنه تصير المعرفة ضرورية. وفي المعلوم أنه لم يكن ذلك الوقت أوّان هلاكهم؛ ليعلمه أن في أصلاهم من يؤمن بالله سبحانه في المستأنف.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحٰفِظُونَ﴾.

أنزل التوراة وقد وكل حفظها إلى بني إسرائيل بما استحفظوا من كتاب الله، فحرفوا وبدّلوا، وأنزل الفرقان وأخبر أنه حافظه، وإنما يحفظه بقراه؛ فقلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضيع كتابه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب، وأنه أدام سنته معهم في التعذيب. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: وهم لا يؤمنون به لأنه أراح قلوبهم عن شهود الحقيقة، وسدّ - بالحرمان - عليهم سلوك الطريقة، ويئن أنه لو أراهم الآيات عياناً ما

ازدادوا إلا عتواً وطغياناً، وأن مَنْ سَبَقَ له الحُكْمُ بالشقاء فلا يزداد على ممر الأيام إلا ما سَبَقَ به القضاء .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْبَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ .

مَنْ عليه التقدير كان بأمر التكليف مدعواً، وبأمر التكوين مقضياً . فمتى ينفع فيه النصيح؟ ومتى يكون للوعظ فيه مساع؟ كلا . . إن البصيرة له مسدودة، و (. . .)^(١) الخذلان بَقَدَمِهِ مسدودة، فهو يحمل النصيحة له على الوقيعة، والحقيقة على الخديعة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِقَهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ .
بروجاً أي نجوماً هي لها زينة، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾ .

إذا رام الشياطين أن يسترخوا السمع كانت النجوم لها رجوماً .
كذلك للقلوب نجومٌ وهي المعارف وهي في الوقت ذاته رجوم على الشياطين؛ فلو دنا إبليس وجنوده من قلب ولي من الأولياء أحرقتَه بل محقته نجومٌ عقليه وأقمارٌ عليه وشموسٌ توحيده .
وكما أن نجوم السماء زينة للناظرين إذا لاحظوها فقلوب العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهي زينة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ .
النفوس أرض عبادة العابدين، وقلوب العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة، والخوف، والرجاء لها رواسٍ . وكذلك الرغبة والرهبة .
ويقال من الرواسي التي أثبتتها في الأرض الأولياء فيهم يثبت الناس إذا وَقَعَ بهم الفزعُ ومن الرواسي العلماء الذين بهم قِوَامُ الشريعة؛ فعلماء الأصول هم قِوَامُ أصل الدين، والفقهاء بهم نظامُ الشرع، قال بعضهم:

واحسرتنا من فراق قوم هم المصابيخُ والأمنُ والمُزُنُ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْثِقِينَ﴾ .

كما أنبت فنونا من النبات ذات أنوار^(٢) أنبت في القلوب صنوفاً في الأنوار،

(١) بياض في الأصل .

(٢) أنوار: (ج) نور: الزهر أو الأبيض منه، الواحدة: نورة .

منها نور اليقين ونور العرفان، ونور الحضور ونور الشهود، ونور التوحيد... إلى غير ذلك من الأنوار.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا لَكَ فِيهَا مَعِيْشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَكُمْ رِزْقَيْنِ﴾.

سبب عيش كل مختلف؛ فغيش المرادين من إقباله، وعيش العارفين التجمل بأفضاله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

خزائنه في الحقيقة مقدراته، وهو - سبحانه - قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث.

ويقال خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله، وفي الخزانة جواهر في كل صنف؛ فحقائق العقل جواهر وضعها في قلوب قوم، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة، وأسرار العارفين مواضع سره، والنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزانه ذكره.

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خطاه عن التردد على منازل الناس في طلب الإرفاق منهم، وسعى في الآفاق في طلب الأرزاق منها، قاطعاً أمله عن الخلق، مفرداً قلبه لله متجرداً عن التعلق بغير الله.

قوله ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: عَرَفَ الْقِسْمَةَ مِنْ اسْتِرَاحٍ عَنْ كَدِّ الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ الْمَعْلُومَ لَا يَتَغَيَّرُ، وَالْمَقْسُومَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَإِذَا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ لِأَحَدٍ فَبِقُدْرَتِهِ عَلَى إِجَابَةِ الْعَبْدِ إِلَى طَلْبَتِهِ لَا يَتُوجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

ويقال أراح قلوب الفقراء مِنْ تَحْمِيلِ الْمِنَّةِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ مِمَّا يَعْطُونَهُمْ، وَأَرَّاحَ الْأَغْنِيَاءَ مِنْ مَطَالِبَةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ شَيْئاً، فَلَيْسَ لِلْفَقِيرِ صَرْفُ الْقَلْبِ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ وَاعْتِقَادُ مِنَّةٍ لِأَحَدٍ، إِذِ الْمُلْكُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالْأَمْرُ بِيَدِ اللَّهِ، وَلَا قَادِرَ عَلَى الْإِبْدَاعِ إِلَّا اللَّهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

كما أن الرياح في الآفاق مُقَدِّمَاتُ الْمَطَرِ كَذَلِكَ الْأَمَالُ فِي الْقُلُوبِ، وَمَا يَقْرَبُ الْعَبْدَ مِمَّا يَتَوَارَدُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ مَبْشَرَاتِ الْخَوَاطِرِ، وَنَسِيمِ النِّجَاةِ فِي الطَّلَبِ يَحْصُلُ، فَيَسْتَرْوِحُ الْقَلْبُ إِلَيْهِ قَبْلَ حَصُولِ الْمَأْمُولِ مِنَ الْكِفَايَةِ وَاللَّطْفِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنْشَأْنَاهُ كُفُوًا وَمَا أَنْشَأْنَاهُ لَمْ يَخْزِنِينَ﴾.

أسفاه إذا جعل له الشقيا؛ كذلك يجعل الحق - سبحانه - لأوليائه أطافاً معلومة في أوقات محدودة! كما قال في وصف أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

كذلك يجعل من شراب القلوب لِكُلِّ ورداً معلوماً، ثم قضايا ذلك تختلف:
فَمِنْ شراب يُسَكِّرُ، ومن شراب يُخَضِّرُ، ومن شراب يزيل الإحساس، كما قيل:
فصحوك من لفظي هو الصحو كله وسُكْرُكَ من لحظي يبيح لك الشُّربا
ويقال إذا هبت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية، فلا للأغيار فيها
أثر، ولا عن الخلائق لهم خير.

ويقال إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عَطَّرَتْهَا بنفخات الأنس،
فَيَسْنَقُونَ في نسيمها على الدوام، وفي معناه أنشدوا:
وهبَّتْ شمال آخر الليل قُرَّةً ولا ثوبَ إلا بُرْدَةً وردائيا^(١)
وما زال بُرْدِي لينا من ردائها إلى الحولِ حتى أصبح البُرْدُ باليا
ويقال إذا هبَّت رياح العناية على أحوال عبد عادت مَسَاوِيه مَنَاقِبِهِ ومثالبه
محاسنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾.
نحيي قلوبهم بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة.
ويقال نحييهم بأن نفيتهم بالمشاهدة، ونميتهم بأن نأخذهم عن شواهدهم.
ويقال يحيي المرئدين بذكره، ويميت الغافلين بهجره.
ويقال يحيي قوماً بموافقة الأمر في الطاعات، ويميت قوماً بمتابعة الشهوات.
ويقال يحيي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن
أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِيرِينَ﴾.
العارفون مستقدمون بِهِمَّتِهِمْ، والعابدون مستقدمون بَقَدَمِهِمْ، والتائبون بندمهم
وأقوام مستأخرون بقدمهم وهم العُصاة، وآخرون مستأخرون بهمومهم وهم الراضون
بخسائس الحالات.
ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الخيرات، والمستأخرون المتكاسلون عن
الخيرات.

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون خواطر الحق - من غير تعريج إلى تفكير،
والمستأخرون الذين يرجعون إلى الرُّخَصِ والتأويلات.
ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق، والمستأخرون الذين
تشبطهم مشقة الخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

يبعث كلاً على الوصل الذي خرجوا من الدنيا عليه: فمن منفرد القلب بربه، ومن مُتَطَوِّح في أودية التفرقة، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ وَالْجَنَّاتِ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾.

ذَكَرَهُمْ بِخَسَمِهِمْ لئلا يُعْجَبُوا بحالتهم.

ويقال القيمة في القربة لا بالثربة؛ والنسب تربة ولكن النعت قربة.

﴿وَالْجَنَّاتِ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾: وإذا انطفأت النار صارت رماداً لا يجيء منها شيء، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه، كذلك العدو لما انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجر بعده، وأما آدم - عليه السلام فلما اغترّ جبره ماء العناية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنَبْهُ رَبُّهُ﴾ [طه: ١٢٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَكِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

أظهرهم بهذا القول، وفي عين ما أظهرهم سترهم.

ويقال ليست العبرة بقوالبهم. إنما الاعتبار بالمعاني التي أودعها فيهم.

ويقال الملائكة لاحظوه بعين الخلق فاستضغروا قُدْرَهُ وحالَهُ، ولهذا عَجِبُوا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ - سبحانه - لهم بالسجود له، فكشف لهم شظية مما اختصّه به فسجدوا له.

قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾: وكذا أمرُ مَنْ حُجِبَ عَنْ أحواله ادّعى الخيرة وبقي في ظلمة الخيرة.

ويقال بَخِلَ بسجدة واحدة، وقال: أَسْتَكْبِفُ أَنْ أَسْجُدَ لغير الله. ثم من شقاوته لا يبالي بكثرة معاصيه، فإنه لا يَغْصِي أحدٌ إلا وهو سببٌ وسواسه، وداعيه إلى الزلّة.. وذلك هو عين الشقوة وقضية الخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَبْنَطُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَامْرُؤُا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾.

سأله ومعلوم له حاله، ولو ساعدته المعرفة لقال: قُلْ لي مالِك؟ وما مَنَعَكَ؟ وَمَنْ مَنَعَكَ حتى أقول أنت.. حيث أَشَقَّيْتَنِي، وبَقَهْرِكَ أَغْوَيْتَنِي، ولو رَجَمْتَنِي، لَهَدَيْتَنِي وفي كنف عصمتك آويتني... ولكن الحرمان أدركه حتى قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

ولما أبعد الحق - سبحانه - عن معرفته، وأفرده باللعة استنظره إلى يوم القيامة والبعث، فأجابه. وظنَّ اللعين أنه حصل في الخير مقصوده، ولم يعلم أنه أراد بذلك تعذيبه عذاباً شديداً، فكأنه كان في الحقيقة مكرراً - وإن كان في الحال في صورة إجابة السؤال بما يشبه اللطف والبر.

وبعض أهل الرجاء يقول: إن الحق - سبحانه - حينما يهين عدوه لا يردُّ دعاءه في الإمهال ولا يمنعه من الاستنظار؛ فالمؤمن - إذ أمره الاستغفار والسؤال بوصف الاقتدار - أولى ألا يقنط من رحمته، لأنَّ إنظار اللعين زيادة شقاء له تحقيق عطاء.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَوَيْتُكَ لِأَرْضِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الباء في: ﴿يَا أَخَوَيْتُكَ﴾ باء القسم، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يُقسم به لولا قرطُ جهله. ثم هو في المعنى صحيح، لأنَّ الإغواء مما يتفرَّد بالحق بالقدرة عليه، ولا يشاركه فيه أحد، ولكن اللعين لا يعرف الله الحقيقة، إذ لو عرّفه لم يدعُ إلى الضلال، لأنه لو قدر على إضلال غيره لاستبقى على الهداية نفسه. وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك خدساً وهو لم يعرف الله - على الحقيقة - قط.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

الإخلاص هو تصفية الأعمال عن الغين وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال. وقد عَلِمَ اللعين أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لما تحقّق من عناية الحق بشأنهم.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ تهديد، كما تقول: افعل ما شئت.. وهذا طريقي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

السلطان الحجة، وهي الله على خلقه، وليس للعدو حجة على مخلوق، إذ لا تتعدى قدرته محله، فلا تسلط - في الحقيقة - لمخلوق بالتأثير فيه.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾: إذا سمى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخاص، وهم الذين محاهم عن شواهدهم، وحفظهم وصانهم عن أسباب التفرقة وجردهم عن حولهم وقوتهم، وكان النائب عنهم في جميع تصرفاتهم وحالاتهم، وحفظ عليهم آداب الشرع، وألبسهم صدار الاختيار في أوان أداء التكليف، وأخذهم عنهم باستهلاكهم في شهوده، واستغراقهم في وجوده.. فأَيُّ سبيل للشيطان إليهم؟ وأي يد للعدو عليهم؟

وَمَنْ أَشْهَدُ الْحَقِّ حَقَائِقَ التَّوْحِيدِ، ورأى العالمَ مُصَرِّفًا في قبضة التقدير، ولم يكن نهياً للأغيار... فمتى يكون للعين عليه تسلط، وفي معناه قالوا:

جَحُودِي فِيكَ تَقْدِيرُ عَقْلِي فِيكَ تَهْوِيرُ
فَمَنْ آدَمَ إِلَّاكَ وَمَنْ فِي الْبَيْتِ إِبْلِيسُ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْشُورٌ﴾.

اجتمعوا اليوم في أصل الضلالة، ثم الكفر مللٌ مختلفة، ثم يجتمعون غداً في العقوبة وهم زُمَرٌ مختلفون، لكلُّ ذَرَكَةٍ من دركات جهنم قوم مُخْصُونَ.
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

المتقي مَنْ وقَّاه الله بفضله لا مَنْ اتَّقَى بِتَكْلُفِهِ، بل إنه ما اتقى بتكلفه إلا بعد أن وقَّاه الحقّ - سبحانه - بفضله. هم اليوم في جنات ولها دَرَجَاتٌ بعضها أرفع من بعض، كما أنهم غداً في جنّات ولها درجات بعضها فوق بعض.

اليوم لقوم درجة حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة، ولقوم درجة البسط والراحة، ولآخرين درجة الرجاء والرغبة، ولآخرين درجة الأنس والقربة، قد علم كلُّ أناسٍ مشربهم ولزم كلُّ قوم مذهبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾.

معناه يقال لهم: ﴿أَدْخُلُوهَا﴾، وأَجْمَلَ ذلك ولم يقل مَنْ الذي يقول لهم. ويرى قوم أن المَلِكَ يقول لهم: أَدْخُلُوهَا.

ويقال إذا وافوا الجنة وقد قطعوا المسافة البعيدة، وقاسوا الأمور الشديدة، فَمِنْ حَقِّهِمْ أن يدخلوا الجنة، خاصة وقد علموا أَنَّ الجنةَ مُبَاحَةٌ لهم، ولعلمهم لا يفقهون حتى يقال لهم.

ويقال يحتمل أنهم لا يدخلونها بقول المَلِكِ حتى يقول الحقّ: أَدْخُلُوهَا، كما قالوا:

وَلَا أَلْبَسُ الثُّعْمَى وَغَيْرِكَ مُلْبَسٌ وَلَا أَقْبِلُ الدُّنْيَا وَغَيْرِكَ وَاهِبٌ

قوله: ﴿بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾: بمعنى السلامة، وهي الأمان، فيأمنون أنهم لا يخرجون منها.

ويقال كما لا يخرجون من الجنة لا يخرجون عما هم عليه من الحال؛ فالرؤية لهم وما هم فيه من الأحوال الوافية - مديدة.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾.

أَمَرَ الخليل عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦]، وأمر جبريل عليه السلام حتى غَسَلَ قلب المصطفى - ﷺ - فطَهَّرَهُ. وتولَّى هو - سبحانه - بنفسه تطهير قلوب العاصين، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧] وذلك رفقاً بهم، فقد يصنع الله بالضعيف ما يتعجب منه القوي، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبهم، فتولَّى ذلك بنفسه رفقاً بهم.

ويقال قال: ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ ولم يقل ما في قلوبهم لأن القلوب في قبضته يقلبها، وفي الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١) يريد بذلك قدرته، فاستعمل لفظ الإصبع لذلك توسعاً. وقيل بين إصبعين أي نعمتين.

قوله جل ذكره: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

قابل بعضهم بعضاً بالوجه، وحفظ كل واحد عن صاحبه سيره وقلبه، فالنفوس متقابلة ولكن القلوب غير متقابلة؛ إذ لا يشتغل بعضهم ببعض، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾.

أي لا يلحقهم تعب؛ لا بنفوسهم ولا بقلوبهم. وإذا أرادوا أمراً لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكان إلى مكان، ولا تحار أبصارهم، ولا يلحقهم ذهش، ولا يتغير عليهم حال عما هم عليه من الأمر، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق.

﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ أي لا يلحقهم ذل الإخراج بل هم بدوام الوصال.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْنِي عِبَادِي أَزِيدُ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ حديث المتقين وما لهم من علو المنزلة انكسرت قلوب العاصين، فتدارك الله قلوبهم، وقال لنبيه - ﷺ - أخبر عبادي العاصين أنني غفور رحيم، وأني إن كنت الشكور الكريم بالمطيعين فأنا الغفور الرحيم بالعاصين.

ويقال مَنْ سَمِعَ قوله: ﴿أَنَا﴾ بسمع التحقيق لا يبقى فيه مسأغ لسماع المغفرة والرحمة؛ لأنه يكون عندئذ مُخْتَطِفاً عن شاهده، مُسْتَهْلِكاً في أنيته.

(١) للحديث رواية أخرى: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن». أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٨/٢، ٩)، وابن أبي عاصم في (السنة ٩٩/١)، والطبري في (التفسير ١٢٦/٣) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٤١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/٢٥٥٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

العذاب الأليم هنا هو الفراق، ولا عذاب فوق الفراق في الصعوبة والألم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَنْبِئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾.

ألا عرفهم كيف كانت فتوة الخليل في الضيافة، وقيامه بحق الضيفان، وكان الخليل عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان، فلمّا سلموا من جانبهم وردّ عليهم وانفضوا عن تناول طعامه:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾.

وجِلون أي خائفون، فإنّ الإمساك عن تناول طعام الكرام موضع للريبة. ولمّا علّم أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين. ولكن سكن رَوْعُهُ عندما قالوا له:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

فليس لك موضع للوجل لكن موضع للفرح؛ فإنّا جئناك مبشرين، وإن كُنّا لغيرك معذّبين.

نحن ﴿نبشرك بغلام عليم﴾: أي يعيش حتى يعلم، لأن الطفل ليس من أهل العلم، وكانت بشارتهم بالولد وبقاء الولد هي العجب فقال:

﴿قَالَ أَبَشِرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا يُبَشِّرُونَ قَالَوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

قال أبشروني وقد مسني الكبر؟ وإنّ الكبر قد فاته الوقت الذي يفرح فيه من الدنيا بشيء. بماذا تبشروني وقد طعنْتُ في السنّ، وعن قريب أرتحل إلى الآخرة؟ قالوا: بشرك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من ضالّ.

قال: كيف أخطأ ظنكم في فتوهمتم أنني أقنط من رحمة ربي؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث، وعرف أنه لن يُصيبه ضررٌ منهم سألهم عن حالهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ مُجْرِمِينَ إِلَّا نَالُ لُوطٍ إِنَّا لَمَجْنُونٌ أَجْمَعُونَ إِلَّا أَمْرًا قَدَرْنَا لَهَا لَئِنْ الْفَنَاءُ﴾.

قال ما شأنكم؟ وإلى أين قصدكم؟

قالوا: أُرسلنا لعذاب قوم لوط، ولننجي أهله إلا امرأته لمشاركتها معهم في الفساد، وكانت تدل على أضيافه، فاستوجبت العقوبة.

فلما وافى المرسلون من آل لوط أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر، وتفرّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمرٍ عظيم، قالوا: بل جئناك بما كان قومك يَشْكُونَ فيه مِنْ تعذيبنا إياهم، وآتيناك بالحق، أي بالحكم الحق^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَاعْتَصِرْ بِيَنَّا حَبْلَ الْوُثْقَى﴾.

فأسر بأهلك بعدما يمضي شيء من الليل، وامش خلفهم، وقدمهم عليك، واتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب، وإنا ننقذك وأهلك إلا امرأتك، فإننا نعذبها لمشاركتها مع قومك في العصيان. ﴿وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَرَّوْا﴾ فلکم السلامة ولقومكم العقوبة.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي علمناه وعرفناه: ﴿أَنْتَ دَائِرَ هَوَاؤِكَ مَقْطُوعٌ﴾؛ أي أنهم مهلكون ومُستأصلون بالعقوبة.

ثم لما نزل الملائكة بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافي، فلا تعرضوا لهم فتفضحوني، واتقوا الله، وذروا مخالفة أمره ولا تخجلوني. فقال قومه: ألم ننّهك عن أن تحمي أحداً، وأمرناك ألا تمنع منا أحداً؟ فقال: هؤلاء بناتي يعني نساء أمتي. وقال قوم: أراد بناته من صلبه، عرّضهن عليهم لئلا يُلْمُوا بتلك الغلطة الفحشاء، فلم تنجح فيهم نصيحة، ولم يُقْلِعُوا عن خبيث قُصْدِهِمْ.

فأخبره الملائكة ألا يخاف عليهم، وسكنوا من رَوْعِهِ حين أخبروه بحقيقة أمرهم، وأنهم إنما أرسلوا للعقوبة^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّمَتَّ لِفِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾.

أقسم بحياته تخصيصاً له في شرفه، وتفضيلاً له على سائر البرية، فقال وحياتك - يا محمد - إنهم لفي ضلالتهم وسكرة غفلتهم يتردّون، وإنهم عن شِرْكِهِمْ لا يُقْلِعُونَ.

ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن في وقته حياة أشرف من حياته - إنهم في حُمارٍ سُكْرِهِمْ، وغفلة ضلالتهم لا يترقبون عقوبة، ولا يخافون سوءاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

باتوا في حبور وسرور، وأصبحوا في محنة وثبور^(٣)، وخزّت عليهم سقوفهم،

(١) الآيات من (٦١ - ٦٤) لم ترد.

(٢) الآيات من (٦٧ - ٧١) لم ترد.

(٣) الثبور: الهلاك.

وجعلنا مَذْتَبَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وأمطرنا عليهم من العقوبة ما لم يَتَّقِ عِناً وَلَا أَثْراً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنِ اعْتَبَرَ، ودلالة ظاهرة لمن استبصر، ﴿وَأَنَّا لِنَسِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَغْتَبِرَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

جاء في التفسير «المتفرسين»، والفراشة خاطرٌ يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهور يرهان عليه، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة. مشتق من فريسة الأسد إذ لفريسته يقهر. والحق - سبحانه - يُطْلِعُ أولياءه على ما خفي على غيرهم. وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس في جميع الأشياء وفي جميع الأوقات؛ بل يجوز أن تُسَدَّ عليه عيونُ الفراسة في بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام؛ فَبَيَّنَّا - ﷺ - كان يقول لعائشة - رضي الله عنها - في زمان الإفك: «إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ فَتَوْبَى إِلَى اللَّهِ». وكإبراهيم ولوط - عليهما السلام - لم يعرفا الرسل.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِيَا مَامِرٌ مُّبِينٌ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجَبْرِ الْمُرْسَلِينَ وَأَنتَنَّهُمْ مَا بَيْنَنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ فَآخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُصِيبِينَ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

أصحاب الأيكة^(١) هم قوم شعيب، وكان شعيب - عليه السلام - مبعوثاً لهم فكذبوه، فانتقمنا منهم.

قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعني مدين والأيكة... ﴿لِيَا مَامِرٌ مُّبِينٌ﴾: أي بطريق واضح مَنْ قصده (...)^(٢).

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر^(٣) - وهم ثمود - كذبوا المرسلين إليهم، وأنهم أعرضوا عن الآيات التي هي المعجزات كنافه صالح وغيرها، وأنهم كانوا أخذوا إلى الأرضين وكانوا مُفْتَرِّينَ بطول إمهال الله إياهم من تأخير العقوبة عنهم، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُونَ من الموت والعذاب. ثم أخبر أنهم أَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ على بغتة، ولم تُغْنِ عنهم حيلتهم لَمَّا حَلَّ حَيْثُهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

(١) الأيكة: الشجر الكثير الملتف. وأصحاب الأيكة: قوم شعيب عليه السلام كانت مساكنهم كثيفة الأشجار.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام. (معجم البلدان ٢/ ٢٢١).

دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ أَكْسَابَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ لِأَنَّهَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ .

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: أي وأنا مُحَقِّقٌ فيه ويقال ﴿بِالْحَقِّ﴾: بِالْأَمْرِ الْعَظِيمِ الْكَائِنِ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ يَعْنِي الْقِيَامَةَ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ .

يقال الصَّفْحُ الْجَمِيلُ الَّذِي تَذَكُرُ الرَّزَّةُ فِيهِ .

ويقال الصَّفْحُ الْجَمِيلُ سَحْبُ ذَيْلِ الْكَرَمِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ عَقْدِ الرَّزَّةِ، بَلَا ذِكْرٍ لِمَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَا قِيلَ:

تعالوا نصطليح ويكون مئنا

(.....) (١)

ويقال الصَّفْحُ الْجَمِيلُ الْإِعْتِذَارُ عَنِ الْجُزْمِ بَلَا عُدَّ الذُّنُوبِ مِنَ الْمَجْرَمِ، وَالْإِقْرَارُ بِأَنَّ الذَّنْبَ كَانَ مِنْكَ لَا مِنَ الْعَاصِي، قَالَ قَائِلُهُمْ:

(وَتُذْنِبُونَ فَنَنْسِي وَنَعْتَذِرُ)

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ .

﴿هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾: إِذْ لَا يَصِحُّ الْفِعْلُ بِوَصْفِ الْإِنْتِظَامِ وَالِاتِّسَاقِ مِنْ غَيْرِ عَالِمٍ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَاقِبِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ .

أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، وَسَمِيَتْ مِثْلَئِهَا لِأَنَّهَا نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِمَكَّةَ وَمَرَّةً بِالْمَدِينَةِ، وَلِأَنَّهَا شَيْءٌ فِي كُلِّ صَلَاةٍ يَتَكَرَّرُ، مِنْ «الثَّنِيَّةِ» وَهِيَ التَّكْرِيرُ، أَوْ لِأَنَّ بَعْضَهَا يُضَافُ إِلَى الْحَقِّ وَبَعْضُهَا يُضَافُ إِلَى الْخَلْقِ . . وَمَعْنَى هَذَا مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ التَّفَاسِيرِ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ .

لَمْ يُسَلِّمْ لَهُ إِشْبَاعَ النَّظَرِ إِلَى زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا .

وَيُقَالُ غَارَ عَلَى عَيْنَيْهِ - ﷺ - أَنْ يَسْتَعْمَلَهَا فِي النَّظَرِ إِلَى الْمَخْلُوقَاتِ .

وَيُقَالُ أَذَبَهُ اللَّهُ - سَبَحَانَهُ - بِهَذَا التَّأْدِيبِ حَتَّى لَا يُعَيِّرَ طَرَفَهُ مِنْ حَيْثُ الْإِسْتِنَاسُ بِهِ .

وَيُقَالُ أَمَرَهُ بِحِفْظِ الْوَفَاءِ لِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ الْيَوْمَ سَبِيلَ أَحَدٍ إِلَى رُؤْيَيْهِ، فَلَا تَمْدَنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَلَا حِظَةٍ شَيْءٍ مِنْ جُمْلَةٍ مَا حَوَّلْنَاهُمْ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

لَمَّا تَبَيَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرْكُمْ أَغْمَضْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

ويقال شَتَّانَ بينه وبين موسى - عليه السلام! قال له: ﴿كَانَ تَرْبَنِي وَلَكِنْ أَنْظَرْنَا إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ونبينا - ﷺ - مَنَعَهُ من النظر إلى المخلوقات بوصفٍ هو تمام النظر فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨].

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بظاهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى غير الله؟!

ويقال لما أُمِرَ بِغَضِّ بَصَرِهِ عما يَتَمَتَّع به الكفار في الدنيا تَأَدَّبَ - عليه السلام - فلم ينظر ليلة المعراج إلى شيء مما رأى في الآخرة، فأثنى عليه الحقُّ بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] وكان يقول لكل شيءٍ رآه: «التحيات لله»^(١) أي المُلْكُ لله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أدبه حتى لا يتغير بصفة أحد، وهذه حال التمكن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَنَّهُمْ جَنَّاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي أَلَمِنَ لهم جانبك. وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة^(٢) في الشافعة إلى مواليتها يمضي معها. . إلى غير ذلك من حسن خُلُقٍ - صلوات الله عليه - وكان في الخبر إنه كان يخدم بتيه وكان في (مهنة) أهله. وتولّى خدمة الوفد، وكان يقول: «سيد القوم خادمهم»^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

لَمَّا لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه - سبحانه وتعالى - سَلَّمَ له أن يقول: إني وأنا. وفي الخبر: أن جابراً^(٤) دَقَّ عليه الباب، فقال: مَنْ؟ قال: أنا. . فقال النبي عليه السلام: «أنا أنا». . بكانه كرهها.

(١) أخرجه التبريزي في (مشكاة المصابيح ٩١٠)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٤٧٢/٣).

(٢) الوليدة: الجارية المولودة بين العرب. (اللسان ٤٦٩/٣ مادة: ولد).

(٣) أخرجه السيوطي في (الحاوي للفتاوى ١٠١/٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٣٩٢٥) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٥١٦ - ١٧٥١٨ - ١٧٥١٩ - ٢٤٨٣٤ - ٢٤٨٣٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٨٧/١)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٩٥) والمجلوني في (كشف الخفاء ٥٦١/١ - ٥٦٢).

(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي (١٦ ق هـ - ٧٨ هـ = ٦٠٧ - ٦٩٧ م صحابي، من المكشزين في الرواية عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من الصحابة، له ولأبيه صعبة غزا تسع عشرة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً. وله «مسند».

الأعلام ١٠٤/٢، والإصابة ٢١٣/١، وذيل المذيل ٢٢، وتهذيب الأسماء ١٤٢/١.

ويقال: قُلْ لَا حُدَّ لَاسْتِهْلَاكَ فِينَا، سَلَّمْنَا أَنْ تَقُولَ: إِنِّي أَنَا، لَمَا كُنْتُ بِنَا وَلَنَا.
قوله جلّ ذكره: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾.

أي قل إني أنا لكم مُنْذِرٌ بعذابٍ كالعذاب الذي عَذَّبْنَا بِهِ الْمُقْتَسِمِينَ؛ وهم الذين تقاسموا بالله لنبيّه في قصه صالح عليه السلام. وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله؛ فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

ويقال إني لكم نذير أخوفكم عقوبة المقتسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة في الموسم، وصدوا الناس. وكان الواحد منهم يقول لِمَنْ مَرَّ بِهِ: لَا تُؤْمِنُ بِمُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ سَاحِرٌ، ويقول الآخر: إِنَّهُ كَاهِنٌ ويقول ثالث: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، فهم بِأَقْسَامِهِمْ: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^(١).

ففرقوا القول فيه، فقال بعضهم إنه شعر، وقال بعضهم إنه سحر، وقال بعضهم إنه كهانة... إلى غير ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَذَّهَنَّ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم.
ويقال يسأل قوماً عن حركات ظواهرهم، ويسأل آخريين عن خطرات سرائرهم.
ويسأل الصديقين عن تصحيح المعاني بفعالهم، ويسأل المدّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيفاً لهم.

ويقال سماع هذه الآية يوجب لقوم أنساً وسروراً حيث علموا أنه يكلمهم وتُسَمِّعُهُمْ خُطَابَهُ لاشتياقهم إليه، وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَالْمَخْلُوقُ يَقُولُ فِي مَخْلُوقٍ:
فِي الْخَفِرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ جَلِيسُهَا إِذَا مَا انْتَهَتْ أَخْذُوئُهُ لَوْ تُعِيدُهَا^(٢)
فَلَا أَسْعَدُ مِنْ بَشَرٍ يَعْرِفُ أَنَّ مَوْلَاهُ غَدَاً سَيَكْلَمُهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

كُنْ بِنَا وَقُلْ بِنَا، وَإِذَا كُنْتَ بِنَا وَلَنَا فَلَا تَجْعَلْ حِسَاباً لغيرنا، وَصَرِّحْ بِمَا خَاطَبْنَاكَ بِهِ، وَأَفْصِحْ عَمَّا نَحْنُ خُصْمُكَ بِهِ، وَأَعْلِنْ مُحِبَّتَنَا لَكَ:

فَسُبِّحْ بِاسْمِ مَنْ تَهْوَى وَدَعْنَا مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ بَعْدِهَا سَتَرُ
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

(١) عضين: (ج) عضة: القطعة. وعضة نقصانها الواو أو الهاء، وهي من الأسماء الناقصة، وأصلها عضة. (اللسان ٦٨/١٥ مادة: عضا).

(٢) الخفريات: (ج) الخفرة: الشديدة الحياء (اللسان ٢٥٣/٤ مادة: خفر).

الذين دَفَعْنَا عَنْكَ عَادِيَّةً^(١) شَرُّهُمْ، وَذَرَأْنَا عَنْكَ سُوءَ مَكْرِهِمْ، وَنَصَرْنَاكَ بِمُوجِبِ عَنَائِتِنَا بِشَأْنِكَ.. فلا عليك فيما يقولون أو يفعلون، فما العقبي إلا لك بالنصر والظفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وقال: ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ ولم يقل يضيق قلبك؛ لأنه كان في محل الشهود، ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله، ولا تكون مع اللقاء وحشة.

ويقال هَوْنٌ عليه ضيق الصدر بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ ويقال إن ضاق صدرُك بسماع ما يقولون فيك من ذمّك فارتفع^(٢) بلسانك في رياض تسييحنا، والثناء علينا، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك؛ وسلوة لك بما تتذكر من جلال قدرنا وتقديسنا، واستحقاق عزنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. قف على بساط العبودية معتنقاً للخدمة، إلى أن تجلس على بساط القرية، وتطالب بآداب الوصلة.

ويقال التزم شرائط العبودية إلى أن ترقى بل تكفَى بصفات الحرية. ويقال في ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٣): إن أشرف خصالك قيامك بحق العبودية.

(١) يقال: دفعت عنك عادية فلان؛ أي: ظلمه وشره (ج) عواد.

(٢) الصواب أن تكون: فارتفع. قال القشيري برسالته عند حديثه عن الذكر: وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الجنة فارتعوا فيها، فقليل له: وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر» الحديث رواه أنس بن مالك وأخرجه الترمذي رقم ٣٥٠٥ في الدعوات باب رقم (٨٧) وقال: إنه حديث حسن. (الرسالة القشيرية ص ٢٢٢).

(٣) قال القشيري برسالته عند حديثه عن العبودية: سمى الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودية لمن له حق اليقين. (الرسالة القشيرية ص ١٩٧).

السورة التي يذكر فيها النحل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ألف الوصل في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لم يكن لها في التحقيق أصل، جُلِبَتْ للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالسّاكن، وإذا وقع ذلك أنفأ عنها أُسْقِطَتْ في الإدراج، ولكن كان لها بقاء في الخط وإن لم يكن لها ظهور في اللفظ، فلما صارت إلى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أُسْقِطَتْ من الخط كذلك. . . وكذلك من ازداد صحبةً استأخر رتبةً.

ويقال أي استحقاق لو او عمرو حتى ثبتت في الخط؟ وأي استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا؟ وأي موجب لحذف الألف من السموات؟

طاحت العللُ في الفروق، وليس إلا اتفاق الوضع. . . كذلك الإشارة في أرباب الردِّ والقول، قال تعالى ﴿إِنْ رِبْكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

صيغة أتى للماضي، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة، والمعنى «سيأتي» أمر القيامة، والكائنات كلها والحادثات بأسرها من جملة أمره؛ أي حصل أمرُ تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصلٌ بتقديره وتيسيره، وقضائه وتدبيره؛ فما يحصل من خير وشرٍّ، ونفع وضرٍّ، وحلو ومُرٍّ. فذلك من جملة أمره تعالى.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات، وهم خامدون تحت جريان تصرّيف الأقدار؛ فليس لهم إشار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً، وإذا أمَلُوا شيئاً، أو أخبروا بحصول شيءٍ فلا استعجال لهم، بل شأنهم التأنّي والثبات والسكون. وإذا بدأ من التقدير حُكِمَ فلا استعجال لهم لما يَرُدُّ عليهم، بل يتقبلون مفاجأة التقدير بوجهٍ ضاحك، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الردِّ والقبول، والمنع والفتوح بوصف الرضاء، ويحمدون الحق - سبحانه وتعالى - على ذلك.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تعالى عما يشركون بربهم، والكفار لم ييسر لهم حتى أنه لا سكنَ لقلوبهم من حديثه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَزِلُّ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

ينزل الملائكة على الأنبياء - عليهم السلام - بالوحي والرسالة، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المُحَدَّثُونَ. وإنزال الملائكة على قلوبهم غير مردود لكنهم لا يُؤْمَرُونَ أن يتكلموا بذلك، ولا يكملون رسالة إلى الخلق.

ويُراد بالروح الوحي والقرآن، وفي الجملة الروح ما هو سبب الحياة؛ إمّا حياة القلب أو حياة الدنيا.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

خَلَقَهَا بِالْحَقِّ، وَيَحْكُمُ فِيهَا بِالْحَقِّ، فهو مُجِبُّ في خَلْقِهَا لَأَنَّ له ذلك، ويدخل في ذلك أمره بتكليف الخلق، وما يَغْفُبُ ذلك التكليف من الحَشْرِ والنَّشْرِ، والثواب والعقاب.

﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تقديساً وتشريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه ملك.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

تعرّف إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب، والتأليف اللطيف؛ من نطفة متماثلة الأجزاء، متشاكلة في وقت الإنشاء، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء، والخروج من الخفاء. ثم رَكَّبَ فيه من تمييز وعقل، وَبَسَّرَ له النقط والفعل، والتدبير في الأمور، والاستيلاء على الحيوانات على وجه التسخير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْأَنْفُسَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْعَفٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ذَكَّرَهُمْ بما تَفَضَّلَ عليهم، وأخبرهم بما للحيوانات من النعم، وما لهم فيها من وجوه الانتفاع في جميع الأحوال، كالخجل وكالسفر عليها وقطع المسافات، والتوصل على ظهورها إلى مآربهم، وما لِنَسْلِهَا ولدَرْهَا من المنافع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الغني له جمال بماله، والفقر له استقلال بحاله. . . وشئان ما هما! فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يسرحون، والفقراء يستقبلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون. أولئك تحمل أنفالهم جمالهم، وهؤلاء يحمل الحق عن قلوبهم أنفالهم.

﴿لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾: قوم أحوالهم مقاساة الشدائد؛ يَصِلُونَ سيرهم بسرهم، وقوم في حمل مولاهم؛ بعيدون عن كد التدبير، مستريحون بشهود التقدير، راضون باختيار الحق في العسير واليسير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فالنفوس في حَمَلِهَا كالدواب، والقلوب معتقة عن التعني^(١) في الأسباب. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: كما أن أهل الجنة من المؤمنين يجدون في الآخرة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشرٍ فكذلك أرباب الحقائق يجدون - اليوم - ما لم يخطر قط على بال، ولا قرأوا في كتاب، ولا تلقنوه من أستاذ، ولا إحاطة بما أخبر الحق أنه لا يعلم تفصيله سواه... وكيف يعلم من أخبر الحق - سبحانه - أنه لا يعلم؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قومٌ هداهم السبيل، وعَرَفَهُم الدليل، فصرفَ عن قلوبهم خواطر الشك، وعَصَمَهُم عن الجُحْدِ والشُّكِّ، وأطْلَعَ في قلوبهم شمسَ العرفان، وأفردهم بنور البيان. وآخرون أضلَّهُم وأغواهم، وعن شهود الحُجَجِ أعماهم، وفي سابق حُكْمِهِ من غير سببٍ أذلَّهُم وقمعهم، ولو شاء لعرفهم وهداهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْثِي لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أنزل المطر وجعل به سُقيا النبات، وأجرى العادة بأن يديم به الحياة، وينبت به الأشجار، ويخرج الثمار، ويجري الأنهار.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ثم قال بعده بآيات: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾. وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة؛ فأولاً التفكر ثم العلم ثم التذكر، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن في نظره خللٌ وجب له العلم لا محالة، ولا فرق بين العلم والعقل في الحقيقة، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر.

ويقال إنما قال: ﴿لَآيَتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير عارفاً، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل، فللعالم حتى يكون عارفاً بربه آياتٌ ودلائل، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة؛ فبدليل واحد يعلم وجهة النظر، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَرَّ لَكُمْ أَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

الليل والنهار ظرفا الفعل، والناس في الأفعال مختلفون: فموفقٌ ومخذولٌ؛ فالموفقٌ يجري وقته في طاعة ربه، والمخذولٌ يجري وقته في متابعة هواه.

(١) تعنى: تعب تعباً شديداً. وتعنى الأمر: تكلفه على مشقة.

العابد، يكون في فَرْضٍ يقيمه أو ثَقْلٍ يديمه، والعارف في ذكره وتحصيل أوراده بما يعود على قلبه فيؤنسه، وأما أرباب التوحيد فهم مُخْتَفِقُونَ عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يَرِدُ عليهم من الأحوال كما قيل:

لَسْتُ أَدْرِي أَطَالَ لَيْلِي أَمْ لَا كيف يدري بذاك مَنْ يَتَقَلَّى؟
لَوْ تَفَرَّغْتُ لَاسْتَطَالَةَ لَيْلِي ورعيت النجوم كنت مُخِلًّا
قوله جلّ ذكره: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

هذا في الظاهر، وفي الباطن نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾.

أقوامٌ خَلَقَ لهم في الأرض الرياض والغياض^(١)، والدور والقصور، والمساكن والمواطن، وفنون النعم وصنوف القسَم. . وآخرون لا يقع لهم طير على وكر، ولا لهم في الأرض شِبر؛ لا ديار تملكهم، ولا علاقة تُمسِكُهم - أولئك سادات الناس وضياء الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
سخر البحر في الظاهر، وسَهَّلَ ركوبه في الفُلْكَ، ويسَّرَ الانتفاع بما يستخرج منه من الحِلْيَةِ كاللؤلؤ والدرّ، وما يفتات به من السمك وحيوان البحر.

ومن وجوه المعاني خلق صنوفاً من البحر، فقومٌ غَزَقُوا في بحار الشغل وآخرون في بحار الحزن، وآخرون في بحار اللهو. فالسلامة من بحر الشغل في ركوب سفينة التوكل، والنجاة من بحر الحزن في ركوب سفينة الرضا، والسلامة من بحر اللهو في ركوب سفينة الذكر، وأنشد بعضهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوَايَا أَن يَمِيدَ بِكُمْ وَانْهَرُوا وَلَسَ لَكُمْ تَهْتِدُونَ﴾.
الرواسي في الظاهر الجبال، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخلق، بهم يرحمهم، وبهم يغيثهم. . ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب. وفي الخبر: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾

(١) الغياض: جمع غيضة وهي الشجر الملتف. (اللسان ٢٠٢/٧ مادة: غيظ).

(٢) للحديث رواية أخرى: «الشيخ في أهله كالنبي في أمته». أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٤٢٦٣٢)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢٢)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٢٩)، (أحاديث القصاص ٢٤).

[الأنفال: ٣٣]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَّرَبَّاهُمْ أَنْ تَعْلَمُوهُمْ﴾، [الفتح: ٤٥]، وأنشد بعضهم:

واحسرتا من فراق قوم هم المصابيح والأمن والمزن
قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَأْتِجُمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الكواكب نجوم السماء ومنها رجوم للشياطين، والأولياء نجوم في الأرض. وكذلك العلماء وهم أئمة في التوحيد وهم رجوم للكفار والملحدين.

ويقال فرّق بين نجوم يهتدى بها في فجاج الدنيا، ونجوم يهتدى بهم إلى الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

تدل هذه الآية على نفي التشبيه بينه - سبحانه - وبين خلقه. وصفات القدم لله مستحقة، وما هو من خصائص الحدّثان وسمات الخلق يتقدّس الحق - سبحانه - عن جميع ذلك. ولا تشبّه ذات القديم بذوات المخلوقين، ولا صفاته بصفاتهم، ولا حكمه بحكمهم، وأصل كل ضلالة التشبيه، ومن فُتِح ذلك وفساده أن كل أحد يتبرأ منه ويستنكف من انتحاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الموجودات لا تحصوها لتقاصر علومكم عنها، وما هو من نعم الدفع فلا نهاية له. وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره، ويرضى بمعرفتكم (...)(١) لكم عن شكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص.. فلا يخفى عليه حسابان، وما تعلنون من الوفاق والشقاق، والإحسان والعصيان. والآية توجب تخويف أرباب الرّذائل، وتشريف أصحاب الطاعات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أخبر أن الأصنام لا يصحّ منها الخلق لكونها مخلوقة، ودلت الآية على أن من وُجِدَتْ له سمة الخلق لا يصحّ منه الخلق، والخلق هو الإيجاد؛ ففي الآية دليل على خلق الأعمال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْثَلُكُمْ غَيْرِ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

لَأَنَّ مَنْ لِحَقِّهِ وَصَفُ التَّكْوِينِ لَا يَصِحُّ مِنْهُ الْإِبْجَادُ. وفي التحقيق كُلُّ مَنْ عَلِقَ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ، وَتَوَهَّم مِنْهُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ بِظَنِّهِ، وإنما التوحيد تجريد القلب عن حسابان شظيئة من النفي والإثبات من جميع المخلوقين والمخلوقات.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

لَا قَسِيمَ لِذَاتِهِ جَوَازًا أَوْ وَجُوبًا، وَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ. . . وَمَنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ قَطْعًا، وَبِشَهَادَةِ الْبَرَاهِينِ لَهُ تَفْصِيلًا فَهُوَ فِي دَرَكَاتِ الشُّرْكِ وَاقِعٌ، وَعَنْ حَقَائِقِ التَّوْحِيدِ بِمَعزَلٍ، قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْكُفَّارِ: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أَي فِي أَسْرِ الشُّرْكِ وَغَطَاءِ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَيْسَ فِيهِ اتِّصَافٌ لَطَلَبِ الْعِرْفَانِ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ - لِمَنْ أَرَادَ الْمَعْرِفَةَ - مُتَاحَةٌ، وَأَدْلَةُ الْخُلُقِ لَاحِظَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿لَا جَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

فِيضْحِكُهُمْ وَيُبَيِّنُ نِفَاقَهُمْ، وَيُعْلِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ كُفْرَهُمْ وَشِقَاقَهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

دَلِيلُ الْخُطَابِ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمَتَوَاضِعِينَ الْمُتَخَاشِعِينَ، وَيَكْفِيهِمْ فَضْلًا بَشَارَةَ الْحَقِّ لَهُمْ بِمُحِبَّتِهِ لَهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

لِحَقِّهِمْ شَوْمُ تَكْذِيبِهِمْ، فَأَصْرُوا عَلَى إِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّظَرِ، وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ تَجْنَحْ إِلَى الْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ، فَلَبَّسُوا عَلَى مَنْ يَسْأَلُهُمْ، وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ أَكَاذِيبِ الْعَجَمِ^(١). فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوَّلِهَا أَلَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾.

لَمَا سَعَوْا فِي الدُّنْيَا لِغَيْرِ اللَّهِ لَمْ تُضَفْ أَعْمَالُهُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ حَمَلُوا مَعَهُمْ أَوْزَارَهُمْ. . . أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

اتَّصَفُوا بِالْمَكْرِ فَحَاقَ بِهِمْ مَكْرُهُمْ، وَوَقَعُوا فِيهَا حُفْرُهُ لَغَيْرِهِمْ، وَاغْتَرَوْا بِطَوْلِ الْإِمْهَالِ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ مَأْمَنِهِمْ، وَاشْتَغَلُوا بِلَهْوِهِمْ فَتَغَصَّ عَلَيْهِمْ أَطْيَبُ عَيْشِهِمْ:

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنَّى لِلَّهِ بُيُوتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

(١) العجم: من ليسوا عرباً، الواحد: عجمي نطق بالعربية أو لم ينطق.

الذي وصف نفسه به في كتابه من الإتيان فمنعاه العقوبة، وذلك على عادة العرب في التوسع في الخطاب.

وهو سبحانه يكشف الليل ببذره ثم يأخذ الماكر بما يليق بمكره، وفي معناه قالوا:

وَأَمِنْتُهُ فَأَتَانِي مَنْ مَأْمَنِي مَكْرًا، كَذَا مَنْ يَأْمَنُ الْإِيمَا
قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْتُقُونَ
فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَىٰ أَلْيَمُ وَالْأُولَىٰ خَيْرٌ﴾.

في الدنيا عاجل بلانهم، وبين أيديهم آجله. وخسرة المفلس تتضاعف إذا ما
حوسب، وشاهد حاصله.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾: يُسْمِعُ الْكَافِرِينَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُبَيِّنُ لِلْكَافَةِ
صِدْقَهُمْ. ويقع الندم على جاهلهم. وأما اليوم فعليهم بالصبر والتحمل، وعن قريب
ينكشف الغطاء، وأنشد بعضهم:

خليلي لو دارت على رأسي الرحي من الذل لم أجزع ولم أتكلّم
وأطرقت حتى قيل لا أعرف الجفا ولكنني أفصحت يوم التكلّم
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّعْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِيًّا أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْلَا السَّعَاءُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ
سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿طَالِيًّا أَنْفُسِهِمْ﴾: بارتكاب المعاصي وهم الكفار.

﴿قَالُوا لَوْلَا السَّعَاءُ﴾: انقادوا واستسلموا لحكم الله.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾: جحدوا وأنكروا ما عملوا من المخالفات.

﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: هكذا قالت لهم الملائكة، ثم يقولون
لهم: ﴿فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ...﴾: وكذلك الذين تقسو نفوسهم بإعراضهم عن الطاعات إذا
نزلت بهم الوفاة يأخذون في الجزع وفي التضرع، ثم لا تطيب نفوسهم بأن يُقرؤوا
بتفاصيل أعمالهم عند الناس، فيما يتعلق بإرضاء خصومهم لما أخلوا من معاملاتهم،
ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير، والنقيير والقطمير، ثم يبقون أبداً في وبال ما
أحقبوه، لأن شؤم ذلك يلحقهم في أخراهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَبَرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

أما المسلمون فإذا وردوا عليهم، وسألوهم عن أحوال محمد - ﷺ، وعما أنزل الله عليه، قالوا: دينه حق، والله أنزل عليه الحق. . والذين أحسنوا في الدنيا يجذون الخير في الآخرة.

ويقال في هذه الدنيا حسنة، وهي ما لهم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصح أن تكون تلك الحسنة زيادة التوفيق لهم في الأعمال، وزيادة التوفيق لهم في الأحوال.

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُوفَّقهم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان.

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُبلِّغهم منازل الأكابر والسادة.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَدُّوْنَ بِأَمْثَلِ مَا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للمريدين، وما يجري على من اتبعهم مما أخذوه وتعلموه منهم، قال النبي ﷺ: «لأن يهتدي بهداك رجل خير لك من حمر النعم»^(١).

ثم قال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، لأن ما فيها يبقى، وليس فيها خطر الزوال. ولأن في الدنيا مشاهدة وفي الآخرة معاينة.

قوله جل ذكره: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

كما أن الإرادات والهمم تختلف في الدنيا فكذلك في الآخرة، وفي الخبر: «من كان بحالة لقي الله بها» فمن يريد يكتفي من الجنة بورودها، ومن يريد لا يكتفي من الجنة دون شهود رب الجنة.

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما فاتهم من قصورهم، وما وجدوا في ذلك من صعبة اللعين في سائر أحوالهم وأمورهم يسلم لهم ذلك، ومن شاء لمن تدوم رؤيته، ويتأبد سماع خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدنيا مزيد، وهو ما لم يخطر ببال أحد.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّقْنَاهُمْ أَلَمَّكَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يقبض أرواحهم طيبة. أو يقال: ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال.

والأسباب التي تطيب بها قلوبهم وأرواحهم مختلفة، فمنهم من طاب وقته لأنه قد غفرت ذنوبه، وسُترت عيوبه، ومنهم من طاب قلبه لأنه سَلَّمَ عليه محبوبه، ومنهم من طاب قلبه لأنه لم يَفُتْه مطلوبه.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٥٨/٤ - ٢٧٣، ٢٣/٥ - ١٧١)، ومسلم في الصحيح (فضائل الصحابة ب ٤ رقم ٣٤).

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى ثوابه، ويصل إلى حُسن مآبه.

ومنهم من يطيب قلبه لأنه أمين من زوال حاله، وحظي بسلامة مآله، ومنهم من يطيب قلبه لأنه وصل إلى أفضاله، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله، وثالث لأنه خُصَّ بكشف جلاله - قد عَلِمَ كُلُّ أَنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ.

ويقال: ﴿تَوَفَّنَهُ الْمَلَكُ﴾ طيبة نفوسهم أي طاهرة من التدنُّس بالمخالفات، وطاهرة قلوبهم عن العلاقات، وأسرارهم عن الالتفات إلى شيء من المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ إخطأوا بالجنة، منهم مَنْ يخاطبه بذلك المَلَكُ، ومنهم مَنْ يَكَاثِفُهُ بذلك المَلَكُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِمْ يَسْتَخِرُونَ﴾.

القوم ينتظرون مجيء المَلَكِ لأنهم لم يعرفوه ولم يعتقدوا كونه. ولكن لما كانوا يستعجلون معتقدين أن الرسل غيرُ صادقين، ولما سلكوا مسلكَ أضرابهم من المتقدمين - عوملوا بمثل ما لقي أسلافهم، وما كان ذلك من الله ظلماً، لأنه يتصرف في مُلكه من غير حُكْمٍ حاكمٍ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

خَبَثَ قصودهم فيما قالوا على وجه التكذيب والاستهزاء، وغَلَبَتْ على نطقهم ظلمات جهلهم وجحدهم، وانكشف عدمُ صِدْقِهِمْ في أحوالهم.

وقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ يشبه قولهم: ﴿أَنْطَعُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]. ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

لم يُخل زماناً من الشرع توضيحاً لحجته، ولكن فرَّقهم في سابق حُكْمِهِ؛ ففريقاً هداهم، وفريقاً حَجَبَهُم وأعماهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُصِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

ألزمهم الوقوف على حدِّ العبودية في إرادة هدايتهم ومعرفتهم حقائق الربوبية فقال: **إِنَّكَ وَإِنَّا كُنَّا بِأَمْرِنَا لَكَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَتِهِمْ؛ فَإِنْ مِنْ قَسَمْتُ لَهُ الضَّلَالُ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ غَيْرُ مَا قَسَمْتُ لَهُ.**

ويقال من ألبسته صدرَ الضلال لا تنزعه وسيلة ولا شفاعة.

قوله **جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.**

القسم يؤكد الخبر، ولكنَّ يمين الكاذب توجب ضَعْفَ قوله؛ لأنه كلما زاد في جحد الله ازداد القلب نفرةً من قوله:

قوله **جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾.**

إذا بيَّن الله صدق ما ورد به الشرع في الآخرة بكشف الغيب زاد افتضاح أهل التكذيب فيكون في ذلك زيادة لهم في التعذيب.

قوله **جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.**

فيكون بالسمع علمٌ تعلّق قوله بما يفعله، وحمله قومٌ على أن معناه أنه لا يتعسر عليه فعلُ شيءٍ أَرَادَهُ، فالآية على القولين جميعاً.

والذي لا يحتاج في فعله إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدة يقع الفعل فيها. وتدل الآية على أنَّ قوله ليس بمخلوق؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولاً له: كن، وذلك القول يجب أن يكون مقولاً له بقول آخر... وهذا يؤدي إلى أن يتسلسل ما يحصل إلى ما لا نهاية له.

قوله **جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجَرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.**

مَنْ هَاجَرَ عَنْ أوطانِ السوء - في الله - أبدل له الله في جوار أوليائه ما يكون له في جوارهم معونةً على الزيادة في صفاء وقته. وَمَنْ هَجَرَ أوطانَ الغفلة مَكَّنَهُ الله مِنْ مشاهدِ الوصلة. وَمَنْ فَارَقَ مجالسة المخلوقين، وانقطع بقلبه إليه - سبحانه - باستدامة ذكره - فكما في الخبر: «أنا جليس من ذكرني». وبداية هؤلاء القوم نهاية أهل الجنة؛ ففي الخبر «الفقراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة». ويقال القلب مظلومٌ من جهة النفس لما تدعوه إليه من شهواتها، فإذا هجرها أورث الله القلب أوطانَ النفس حتى تنقاد لما يطالب به القلب من الطاعة؛ فبعد ما تكون أوطان الزَّلَّة بدواعي الشهوة تصير أوطان الطاعة لسهولة أدائها.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء، والتوكل التوقي بالله بحسن الرجاء.

ويقال صبروا في الحال، وتوكلوا على الله في تحقيق الآمال.

ويقال الصبر تحسُّي كاسات المقدور، والتوكل الثقة في الله في استدفاع المحذور.

ويقال الصبرُ تجرُّعُ ما يُسْقَى، والتوكل الثقة بما يرجو.

ويقال إنما يقوُّون على الصبر بما حققوا من التوكل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمُ فَهُمْ أَهْلُ الذِّكْرِ إِن

كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تعجبوا أن يكون من البشرُ رُسلاً، فأخبر أن الرسلَ كلهم كانوا من البشر، وأن

فيمن سبق من أقرَّ بذلك. ﴿أَهْلُ الذِّكْرِ﴾ هم العلماء؛ والعلماء مختلفون: فالعلماء

بالأحكام إليهم الرجوعُ في الاستفتاء من قِبَلِ العوامِ فَمَنْ أَشْكَلَ عليه شيءٌ من أحكام

الأمر والنهي يرجع إلى الفقهاء في أحكام الله، ومن اشتبه عليه شيءٌ من علم السلوك

في طريق الله يرجع إلى العارفين بالله، فالفقيه يوقِّع عن الله، والعارف ينطق - في آداب

الطلب وأحكام الإرادة وشرائط صحتها - عن الله، فهو كما قيل: أليس حقاً نطقت بين

الورى فاشتهرت، كاشفها يعلم ما منَّ عليها فجرت، فهي عناء به عينه قد طهرت.

قوله جل ذكره: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي إن البيان إليك، فأنت الواسطة بيننا وبينهم، وأنت الأمين على وحينا.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ

الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَحَوُّفٍ فَإِنَّ

رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

العبدُ في جميع أحواله عُزْضَةٌ لِسَهَامِ التقدير، فينبغي أن يستشعر الخوفَ في كلِّ

نَفْسٍ من الإصابة بها، وألاً يَأْمَنَ مَكْرَ الله في أي وقت، وأكثر الأسنة تعمل في الموطأة

نفوسهم وقلوبهم على ما عَوَّدَهُم الحقُّ من عوائد المِثَّة، ولكن كما قيل:

يا راقداً الليلِ مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرُقن أسحارا

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَفْسٍ يَنْفَعُوا ظِلَالُهُمُ مِنَ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ

سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

كل مخلوقٍ من عين أو أثر، مِنْ حَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ أَوْ غَيْرِ فَلله - من حيث البرهان -

ساجد، ومن حيث البيان على الوجدانية شاهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة، فإذا امتنعت عن إقامة الشهادة لقوم قاله، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

يخافون الله أن ينزل عليهم عذاباً من فوق رؤوسهم.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لا يعصونه ولا يحدون عن طاعته.

ويقال خير شيء للعبد في الدنيا والآخرة الخوف؛ إذ يمنعه من الزلة ويحمله على الطاعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَحِيدٌ فَإِنِّي فَأَرْحَبُكُمْ وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الحاجة إلى إثبات صانع واحد داعية، وما زاد على الواحد (فالا...) (١) فيه متساوية.

ويقال إثبات الواحد ضرورة، وقُدْرَةُ الاثنين محصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾.

له الدين خالصاً وله الدين دائماً، وله الدين ثابتاً، فالطاعة له واجبة. فلا تتقوا غيره، وأطيعوا شرّعه بخلاف هواكم، واعبدوه وخذوه، واستجيبوا له في المَسْرَةِ والمَضَرَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

النعمة ما يُقَرَّبُ العبد من الحق، فأما ما لا يوجب النسيان والطغيان، والغفلة والعصيان فأولّى أن يكون محبة.

ويقال ما للعبد فيه نفع، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة؛ سواء كان دينياً أو دنيوياً، فالعبد مأمور بالشكر على كل حال. وأكثر الناس يشكرون على نعم الإحسان، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] على كل حال.

وفائدة الآية قَطْعُ الأسرارِ عن الأغيارِ في حالتي اليُسْرِ والعُسْرِ، والثقة بأن الخير والشر، والنفع والضرر كلاهما من الله تعالى.

(١) بقية الكلمة بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾.

إذ ليس لكم سواه؛ فإذا أظلت العبد هواجس الاضطراب التجأ إلى الله في استدفاع ما مسّه من البلاء ثم إذا منّ الحق عليه، وجاد عليه بكشف بلائه صار كأن لم يمسه سوء أو أصابه همّ كما قيل:

كأن الفتى لم يغر يوماً إذا اكتسى ولم يك صعلوكاً إذا ما تمّ ولا
وقال:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الخطاب عام، وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾: لأنّ القوم منهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَّهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

في هذا تهديد أي أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندامة، ويعتذرون حين لا يقبل لهم عذر. . . وَمَنْ زَرَعَ شَرًّا فَلَنْ يَخْصُدَ إِلَّا جَزَاءَ عَمَلِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ﴾.

أي يجعلون لما لا يعلمون - وهي أصنامهم التي ليس لها استحقاق العلم - نصيباً من أرزاقهم؛ فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا.

﴿تَاللَّهِ﴾ أقسم إنهم سيلقون عقوبةً فاعلمهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

من فُرِط جهلهم وصفوا المعبود بالولد، ثم زاد الله في خذلانهم حتى قالوا: الملائكة بنات الله. وكانوا يكرهون البنات، فرضوا الله بما لم يرضوا لأنفسهم. ويلتحق بهؤلاء في استحقاق الدّم كل من أثر خطئ نفسه على حق مولاه، فإذا فعل ماله فيه نصيب وغرض كان مذموم الوصف، ملوماً على ما اختاره من الفعل.

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه ويتصفون به من كراهة أن تولد لهم الإناث فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُرُ عَلَىٰ هُوبٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

اسولت عليهم رؤية الخلق، وملكتهم الحيرة، فلحقوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهن وتمكين البغل فيهن. . . وهذه نتائج الإقامة في أوطان التفرقة، والغيبة عن شهود الحقيقة.

ثم قال: ﴿أَتُنْسِكُمْ عَلَىٰ هُوٍبٍ﴾ أي يحبس المولود إذا كان أنثى على مذلة، ﴿أَوْ يَدُشُّمُ فِي الرَّأْيِ﴾ ليموت؟ وتلك الجفوة في أحوالهم جعلت - من قساوة قلوبهم في أحوالهم - العقوبة أشد مما كانت بتعجيلها لهم. وجعلهم فرط غيظهم، وفقد رضائهم، وشدة حنقهم على من لا ذنب له من أولادهم - من أهل النار في ذركات جهنم، وتكدر عليهم الوقت، واستولت الوحشة. . ونعوذ بالله من المثل السوء!

قوله جل ذكره: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمَ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾.

مثل السوء للكفار الذين جحدوا توحيدَه فلهم صفة السوء.

ولله صفات الجلال ونعوت العز، ومن عرفَه بنعت الإلهية تمت سعادته في الدارين، وتعلجت راحته، وتزهر سيره على الدوام في رياض عرفانه، وطربت روحه أبداً في هيجان وجده.

أما الذين وسُموا بالشرك ففي عقوبة مُعَجَّلَة وهموم مُحَصَّلة. ﴿وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ...﴾ أي لو عاملهم بما استحقوا عاجلاً لحل الاستئصال بهم، ولكن الحكم سبق بامهالهم، وسيلقون غب أعمالهم في مآلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُشْرِكِينَ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾.

انخدعوا لما لأن لهم العيش، فظنوا أنهم ينجون، وبما يؤملونه يحيطون؛ فحسنت في أعينهم مقايص صفاتهم، ويوم يكشف الغطاء عنهم يعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة، فلا تسمع منهم دعوة، ولا تتعلق بأحدهم رحمة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْفُرْقَانَ إِذْ أَخْبَرْنَا أَنَّهُ يُوَافِقُ الْفُجُورَ فَأَنزَلْنَا سَاءَ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَكْبَرُ ۚ﴾.

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للنبي - ﷺ؛ وذلك أنه أخبر أن من تقدمه من الأمم كانوا في سلوك الضلالة، والانخراط في سيل الجهالة كما كان من قومه، ولكن الله - سبحانه - لم يعجز عنهم. وكما سؤل الشيطان لأُمِّه، وكان ولياً لهم، فهو ولي هؤلاء. وأما المؤمنون بالله وليهم، والكافرون لا مولى لهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا إِتْبَاعًا لِّمَا هَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أنت الواسطة بيننا وبين أوليائنا، ولك البرهان الأعلى والنور الأوفى؛ تُبْلَغُ عَنَّا وتُؤَدِّي مِثْلًا، فأنت رحمة أرسلناك لأوليائنا. . . فَمَنْ تَبِعَكَ اهْتَدَى، وَمَنْ عَصَاكَ فَفِي هَلَاكِهِ سَعَى.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أحياء بماء التوفيق لقلوب العابدين فَجَنَحَتْ إلى جانب الوفاق، وأحياء بماء التحقيق أرواح العارفين فاستروحت على بساط الوصال، وأحياء بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت من رِقِّ الآثار، وانفردت بحقائق الاتصال.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِقًا لِلشَّارِبِينَ.

سَخَّرَهَا لَكُمْ، وهياها للانتفاع بلحمها وشحمها، وجِلْدَهَا وشَعْرَهَا ودَرَّهَا، وأصلها ونَسْلُهَا. ثم عجيب ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن - مع صفائه وطعمه ونفعه - من بين الروث^(١) والدم، وذلك تقدير العزيز العليم. والذي يقدر على حفظ اللبن بين الروث والدم يقدر على حفظ المعرفة بين وحشة الرُّلَّةِ من وجوها المختلفة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَخِذُونَ مِنْهُ حَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

مَنْ عَلَى العباد بما خَلَقَ لهم من فنون الانتفاع بثمرات النخيل كالتمر والرطب واليابس. . . وغير ذلك.

والرزق الحسن ما كان حلالاً. ويقال هو ما أُنَاكَ من حيث لا تحتسب، ويقال هو الذي لا مِثَّةَ لمخلوق فيه ولا تَبِعَةَ عليه.

ويقال هو ما لا يعصي الله مكتسبه في حال اكتسابه.

ويقال هو ما لا يَنْسَى الله فيه مُكْتَسِبُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أوحى إلى النحل: أَرَادَ به وحي إلهام. . . ولما حَفِظَ الأمر وأكل حلالاً، طَابَ مأكُله وجعل ما يخرج منه شفاء للناس.

(١) الروث: رجيع ذي الحافر، والجمع أرواث. (اللسان ١٥٦/٢ - ١٥٧ مادة: روث).

ثم إن الله - سبحانه - عَرَفَ الْخَلْقَ أَنَّ التفضيل ليس من جهة القياس والاستحقاق؛ إذ أن النحل ليس له خصوصية في القامة أو الصورة أو الزينة، ومع ذلك جعل منه العسل الذي هو شفاء للناس.

والإنسان مع كمال صورته، وتمام عقله وفطنته، وما اختص به الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الخصائص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى.. فأئى فضيلة للنحل؟ وأئى ذنب للإنسان؟ ليس ذلك إلا اختياره - سبحانه -.

ويقال إن الله - سبحانه - أجرى سُنَّتَهُ أَنْ يُخْفِيَ كُلَّ شَيْءٍ عَزِيزٍ فِي شَيْءٍ حَقِيرٍ؛ فجعل الإبريسم^(١) في الدود وهو أضعف الحيوانات، وجعل العسل في النحل وهو أضعف الطيور، وجعل الدر في الصدف^(٢) وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، وكذلك أودع الذهب والفضة والفيروزج^(٣) في الحجر... كذلك أودع المعرفة به والمحبة له في قلوب المؤمنين وفيهم من يعصي وفيهم من يخطيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمَنَّ بِنُورِهِ عَلَى الَّذِينَ يَهْتَدُونَ لِرَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ فَذِيرٌ﴾.

خلق الإنسان في أحسن تركيب، وأملح ترتيب، في الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، والنور والضياء، والفهم والذكاء. ورزقه من العقل والتفكير، والعلم والتبصر، وفنون المناقب التي خُصَّ بها من الرأي والتدبير، ثم في آخر عمره يجعله إلى أرذل العمر مردوداً، ويرى في كل يوم أَلَمًا جديداً.

ويقال ﴿وَمَنَّ بِنُورِهِ عَلَى الَّذِينَ يَهْتَدُونَ لِرَبِّهِمْ﴾: وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق؛ فهو يكون في أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير في آخر عمره عاصياً.

ويقال أرذل العمر أن يرغب في عنفوان شبابه في الإرادة، ويسلك طريق الله مدة، ثم تقع له فترة، فيفسخ عقد إرادته، ويرجع إلى طلب الدنيا. وعند القوم هذه ردة في هذا الطريق.

ويقال أرذل العمر رغبة الشيخ في طلب.

ويقال أرذل العمر حُبُّ المرء للرياسة.

ويقال أرذل العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يُرضي خصومه.

(١) الإبريسم: أحسن الحرير (معربة فارسية).

(٢) الصدف: صدف الدرة: غشاؤها (اللسان ٩/ ١٨٨ مادة: صدف).

(٣) الفيروزج: حجر كريم غير شفاف، أزرق اللون، بلون السماء أو أميل إلى الخضرة يُحَلَّى به (مع).

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

أرزاق المخلوقات مختلفة؛ فَمِنْ مَضَيَّقٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مُوسَّعٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمِنْ أَرزَاقٍ هِيَ أَرزَاقُ النُّفُوسِ، وَأَرزَاقٍ لِلْقُلُوبِ وَأَرزَاقٍ لِلْأَرْوَاحِ، وَأَرزَاقٍ لِلْأَسْرَارِ؛ فَأَرزَاقُ النُّفُوسِ لِقَوْمٍ بِتَوْفِيقِ الطَّاعَاتِ، وَلآخرين بِخِذْلَانِ الْمَعَاصِي. وَأَرزَاقُ الْقُلُوبِ لِقَوْمٍ حُضُورُ الْقَلْبِ بِاسْتِدَامَةِ الْفِكْرِ، وَلآخرين بِاسْتِيلَاءِ الْغَفْلَةِ وَدَوَامِ الْقَسْوَةِ. وَأَرزَاقُ الْأَرْوَاحِ لِقَوْمٍ صَفَاءِ الْمَحَبَّةِ، وَلآخرين اشْتِغَالِ أَرْوَاحِهِمْ بِالْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَشْكَالِهِمْ، فَيَكُونُ بِلَاؤُهُمْ فِي مَحَبَّتِهِمْ لِأَمْثَالِهِمْ. وَأَرزَاقُ الْأَسْرَارِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمُشَاهَدَةِ الْحَقِّ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَسْرَارِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

شَغَلَ الْخَلْقَ لِأَنَّ الْجِنْسَ أَوَّلَى بِالْجِنْسِ. وَلَمَّا أَرَادَ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - بَقَاءَ الْجِنْسِ هَيئًا سَبَبَ التَّنَاسُلِ وَالتَّنَاسُلَ لِاسْتِيفَاءِ مِثْلِ الْأَصْلِ. ثُمَّ مَنْ عَلَى الْعُضْبِ بِخَلْقِ الْبَنِينَ، وَابْتَلَى قَوْمًا بِالْبَنَاتِ - كُلٌّ بِتَقْدِيرِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَيَا أَبْطِلُ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

وَالرِّزْقُ الطَّيِّبُ لِعِبَادٍ مَا تَسْتَطِيعُ نَفْسُهُ، وَلآخر مَا يَسْتَطِيعُ سِرُّهُ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَطِيعُ مَأْكُولًا وَمَشْرُوبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَطِيعُ خُلُوءًا وَصَفُوءًا... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَرزَاقِ.

﴿أَفَيَا أَبْطِلُ يُؤْمِنُونَ﴾، وَهُوَ حِسَابَانِ حَصُولِ شَيْءٍ مِنَ الْأَغْيَارِ، وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهِمْ اسْتِكْفَاءً مِنْهُمْ أَوْ اسْتِدْفَاعًا لِمَحْذُورٍ أَوْ اسْتِجْلَابًا لِمُحِبِّبٍ.

﴿وَيَنْعَمَ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ وَالنِّعْمَةُ الَّتِي كَفَرُوا بِهَا هِيَ الثِّقَةُ بِاللَّهِ، وَانْتِظَارُ الْفَرَجِ مِنْهُ، وَحَسْنُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وَمَنْ يَتَعَلَّقُ بِشَخْصٍ أَوْ بِسَبَبٍ مُضَاهٍ لِعِبَادِ الْأَصْنَامِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَضِيعُ وَقْتُهُ فِيمَا لَا يُعِينُهُ، فَالرِّزْقُ، مِنَ اللَّهِ - فِي التَّحْقِيقِ - مُقَدَّرٌ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

كَيْفَ تُضَرِّبُ الْأَمْثَالَ لِمَنْ لَا يَسَاوِيهِ أَحَدٌ فِي الْذَاتِ وَالصِّفَاتِ وَأَحْكَامِ الْأَفْعَالِ؟ وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْحَقِّ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقُ وَقَعَ فِي ظُلُمَاتِ التَّشْبِيهِ، وَبَقِيَ عَنْ مَعْرِفَةِ الْمَعْبُودِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِيَنَّ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

شَبَّهَ الكافرَ بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ولا ملك له في الشرع، والمؤمن المخلص بمن رزقه الخيرات ووفقه إلى الطاعات ثم وعده الثواب وحسن المآب على ما أنفق.

ثم نفى عنهما المساواة إذ ليس من كان بنفسه، ملاحظاً لأبناء جنسه، متمادياً في حسابان مغاليطه كمن كان مذكراً بربه مضطماً عن شاهده، غائباً عن غيره، والمُجْري عليه ربه ولا حول له إلا به.

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَاجِلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْتُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

هذا المثل أيضاً للمؤمن والكفار؛ فالكافر كالجاهل الأبيكم الذي لا يجيء منه شيء، ولا يحصل منه نفع، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حوله وقوته، ولا يعترف إلا بطوله - سبحانه - وميته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

استأثر الحق - سبحانه - بعلم الغيبات، وسرّها على الخلق؛ فيخرج قوماً في الضلالة ثم ينقلهم إلى صفة الولاية، ويقيم قوماً برقم العداوة ثم يردهم إلى وصف الولاية... فالعواقب مستورة، والخواتيم مبهمة، والخلق في غفلة عما يراود بهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

خلقهم من غير أن شاورهم، وأثبتهم - على الوصف الذي أراه - دون أن خيّرهم، ولم يعلموا بماذا سبق حكمهم... أبا لسعادة خلقهم أم على الشقاوة من العدم أخرجهم من بطون أمهاتهم؟ فلا صلاح أنفسيهم علموا، ولا صفة ربهم عرفوا. ثم بحكم الإلهام هداهم حتى قبل الصبي ثدي أمه وإن لم يكن قد تقدمه تعريف أو تخويف أو تكليف أو تعنيف.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾: لتسمعوا خطابه، ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتبصروا أفعاله، ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتعرفوا حقه، ثم لتشكروا عظيم إنعامه عليكم بهذه الحواس.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الطائر إذا حلق في الهواء يبقى كالواقف ولا يسقط، وقد قامت الدلالة على أن الحق - سبحانه - متفرد بالإيجاد، ولا يخرج حادث عن قدرته، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَادِهَا وَأَوْبَارِهَا أَثْنًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

للنفوس وطن، وللقلوب وطن. والناس على قسمين مستوطن ومسافر: فكما أن الناس بنفوسهم مختلفون فكذلك بقلوبهم؛ فالمريد أو الطالب مسافر بقلبه لأنه يتلَوُّ، ويرتقي من درجة إلى درجة، والعارف مقيم ومستوطن لأنه واصل متمكن. والطريق منازل ومراحل، ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس وإنما تقطع بالقلوب، والمريد سالك والعارف واصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَفِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَفِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

في الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ونحوها ظلالاً.. كذلك جعل في ظل عنايته لأوليائه مثوى وقراراً.

وكما ستر ظواهركم بسرابيل تفيكم الحرَّ وسرابيل تفيكم بأس عدوكم - كذلك ألبس سرائركم لباساً يلفكم به في السراء والضراء، ولباس العصمة يحميكم من مخالفتها، وأظلكم بظلال التوفيق مما يحملكم على ملازمة عبادته، وكساكم بخلل الوصل مما يؤهلكم لقربه وصحبته.

قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ...﴾، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتهم مختومة بالخير، ويكفيهم أمور الدين والدنيا، ويصونهم عن اتباع الهوى، ويسددهم حتى يؤثر ما يوجب من الله الرضاء.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

إذا بلغت الرسالة فما جعلنا إليك حكم الهداية والضلالة.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُوا أَلْكَافِرُونَ﴾.

يَسْتَوْفِقُونَ إِلَى الطاعة، فإذا فعلوا أعجبوا بها^(١).

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن المقام: سمعت الشيخ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: =

ويقال يستغيثون، فإذا أجابهم قَصَّروا في شكره.

ويقال إذا وَقَعَتْ لهم محنة استجاروا بربهم، فإذا أزال عنهم تلك المحن نسوا ما كانوا فيه من الشدة، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التي أوجبت لهم تلك الحالة. ويقال يعرفون في حال توبتهم قُبْح ما كانوا فيه حال زلتهم، فإذا نقضوا توبتهم صاروا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

إذا كان يوم الحشر سأل الرسل عن أحوال أممهم، فمن نطق بحجة أكرم، ومن لم يذل بحجة لا تراعى له حُرمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾. أي يَشَدُّ عليهم الأمر ولا يسهل.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

تمنوا أن يَنْقِمُوا من إخوانهم الذين عاشروهم، وحملوهم على الزلة، فيتبرأون من شركائهم، ويلعن بعضهم بعضاً، وتضيق صدورهم من بعض.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾.

واستسلموا لأمر الله وحكمه، ويومئذ لا تضرع منهم يري، ولا مِحنة - يصرخون من ويلها - عنهم تُكْشَف.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

تأتي - يوم القيامة - كل أمة مع رسولها، فلا أمة كهذه الأمة فضلاً، ولا رسول كرسولنا ﷺ رتبةً وقدرًا.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن تبياناً لكل شيء، فيه للمؤمنين شفاء، وهو لهم ضياء، وعلى الكافرين بلاء، وهو لهم سبب محنة وشقاء.

= لما دخل الراسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها، وإنما أراد الراسطي بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب، لا تمرجأ في أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب. (الرسالة القشيرية ص ٥٧).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

العدل ما هو صواب وحسن، وهو نقيض الجور والظلم. أمر الله الإنسان بالعدل فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين الخلق؛ فالعدل الذي بينه وبين نفسه مَنَعُهَا عما فيه هلاكها، قال تعالى: ﴿وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وكمال عدله مع نفسه كي غرور طمعه. والعدل الذي بينه وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضا مولاه على ما سواه، والتجرد عن جميع المزاج، وملازمة جميع الأوامر. أو العدل الذي بينه وبين الخلق يكون ببذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل أو كثر، والإنصاف بكل وجه وألا تشي إلى أحد بالقول أو بالفعل، ولا بالهم أو العزم. وإذا كان نصيب العوام بذل الإنصاف وكف الأذى فإن صفة الخواص ترك الانتصاف، وإسداء الإنعام، وترك الانتقام، والصبر، على تحمّل، ما يصيبك من البلوى. وأما الإحسان فيكون بمعنى العلم - والعلم مأمور به - أي العلم بحدوث نفسه، وإثبات مَحْدِثِهِ بصفات جلاله، ثم العلم بالأمور الدينية على حسب مراتبها. وأما الإحسان في الفعل فالحسن منه ما أمر الله به، وأذن لنا فيه، وحكم بمدح فاعله. ويقال الإحسان أن تقوم بكل حق وجب عليك حتى لو كان لطير في ملكك، فلا تقصر في شأنه.

ويقال أن تقضي ما عليك من الحقوق وألا تقتضي لك حقاً من أحد. ويقال الإحسان أن تترك كل ما لك عند أحد، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً. وجاء في الخبر: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وهذه حال المشاهدة التي أشار إليها القوم.

قوله: ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ إعطاء ذي القرابة، وهو صلة الرّجيم، مع مقاساة ما منهم من الجور والجفاء والحسد.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: وذلك كل قبيح مزجور عنه في الشريعة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

يُفْرَضُ على كافة المسلمين الوفاء بعهد الله في قبول الإسلام والإيمان، فتجب عليهم استدامة الإيمان. ثم لكل قوم منهم عهد مخصوص عاهدوا الله عليه، فهم مُطَالَبُونَ بالوفاء به؛ فالزاهد عهده ألا يرجع إلى الدنيا، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد

نَقَضَ عَهْدَهُ وَلَمْ يَفِ بِهِ. وَالْعَابِدُ عَاهِدَهُ فِي تَرْكِ الْهَوَى. وَالْمُرِيدُ عَاهِدَهُ فِي تَرْكِ الْعَادَةِ، وَآثَرَهُ بِكُلِّ وَجْهٍ. وَالْعَارِفُ عَهْدَهُ التَّجَرُّدَ لَهُ، وَإِنْكَارَ مَا سِوَاهُ. وَالْمُحِبُّ عَهْدَهُ تَرْكُ نَفْسِهِ مَعَ كُلِّ وَجْهٍ وَالْمُوَحِّدُ عَهْدَهُ الْامْتِنَاءَ^(١) عَنْهُ، وَإِفْرَادَهُ إِيَّاهُ بِجَمِيعِ الْوُجُوهِ وَالْعَبْدُ مَنِّهِيٌّ عَنْ تَقْصِيرِ عَهْدِهِ، مَأْمُورٌ بِالْوَفَاءِ بِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أَرَقٍ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ أَفْسَدَ بِأَخْرِ أَمْرِهِ أَوَّلَهُ، وَهَدَمَ بِفِعْلِهِ مَا أَسَّسَهُ، وَقَلَعَ بِيَدِهِ مَا غَرَسَهُ، وَكَانَ كَمَنْ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَائًا^(٢) أَي مِنْ بَعْدِ مَا أُبْرِمَتْ فَتْلَهُ.

وإِنَّ السَّالِكَ إِذَا وَقَعَتْ لَهُ فِتْرَةٌ، وَالْمُرِيدُ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ فِي الطَّرِيقِ وَقْفَةٌ، وَالْعَارِفُ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ حُجْبَةٌ، وَالْمُحِبُّ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ فِرْقَةٌ - فَهَذِهِ مِحْنٌ عَظِيمَةٌ وَمَصَائِبٌ فَجِيعَةٌ، فَكَمَا قِيلَ:

فَلَا بُكْيَيْنَ عَلَى الْهَلَالِ تَأْسُفًا خَوْفَ الْكَسُوفِ عَلَيْهِ قَبْلَ تَمَامِهِ

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تُكْشَفَ شَمْسُهُمْ، وَيَنْطَفِئَ - فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ - سِرَاجُهُمْ، وَيَتَشَتَّتَ مِنَ السَّمَاءِ نَجُومُهُمْ، وَيَصِيبَ أَزْهَارَ أَنْسِهِمْ وَرَبِيعَ وَضْلِهِمْ إِعْصَارٌ فِيهِ بَلَاءٌ شَدِيدٌ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ. فَإِنَّ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ بَلَاءً فَكَمَا يَقُولُهُ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُؤُنَا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فَإِنَّ آثَارَ سُخْطِ الْمَلُوكِ مُوجِعَةٌ، وَقِصَّةُ إِعْرَاضِ السُّلْطَانِ مُوَحِّشَةٌ وَكَمَا قِيلَ:

وَالصَّبْرُ يَخْسُنُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ - فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ^(٣)

هَنَالِكَ تَنْسَكِبُ الْعِبْرَاتُ، وَتُشَقُّ الْجُيُوبُ، وَتُلْطَمُ الْخُدُودُ، وَتُعْطَلُ الْعِشَارُ، وَتَحْرَبُ الْمَنَازِلُ، وَتَسْوَدُّ الْأَبْوَابُ، وَيَنُوحُ النَّائِحُ:

وَأَتَى الرَّسُولَ فَأَخْبَرَ جَرَّ أَنْهُمْ رَحَلُوا قَرِيبًا رَجَعُوا إِلَى أَوْطَانِهِمْ فَجَرَى لَهُمْ دَمْعِي صَبِيبًا

(١) قَالَ الْقَشِيرِيُّ بِرِسَالَتِهِ: مِنْ أَقَاوِيلِ الشُّيُخِ بِالْمَحَبَّةِ: مَحَوَ الْمَحَبِّ لَصِفَاتِهِ، وَإِثْبَاتِ الْمَحْبُوبِ. (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٣٢١).

(٢) الْأَنْكَاتُ: وَاحِدُهَا نَكْتٌ: وَهُوَ الْغَزْلُ مِنَ الصُّوفِ أَوْ الشَّعْرِ، تُبْرَمُ وَتُنْسَجُ، فَإِذَا خَلَقَتْ النَّسِيجَةُ قُطِّعَتْ قِطْعًا صَغِيرًا، وَنَكَّتْ خِيوطُهَا الْمَبْرُومَةَ، وَخُلِطَتْ بِالصُّوفِ الْجَدِيدِ، وَنَشِيبَتْ بِهِ، ثُمَّ ضُرِبَتْ بِالْمِطَارِقِ وَغَزِلَتْ ثَانِيَةً وَاسْتَعْمِلَتْ، وَالَّذِي يَنْكُتُهَا يُقَالُ لَهُ: نَكَّاتٌ وَمِنْ هَذَا نَكَّتَ الْعَهْدَ وَهُوَ نَقَضَهُ بَعْدَ إِحْكَامِهِ، كَمَا تُنَكَّتُ خِيُوطُ الصُّوفِ الْمَغْزُولِ بَعْدَ إِبْرَامِهِ. (لِسَانُ الْعَرَبِ ١٩٧/٢ مَادَّةُ: نَكَّتَ).

(٣) رَوَايَةُ الْبَيْتِ فِي الرِّسَالَةِ الْقَشِيرِيَّةِ ص ١٨٤:

الصَّبْرُ يَجْمَلُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَجْمَلُ

وتركن ناراً في الضلوع وزر عن في رأسي مشيباً
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ﴾.

بلاء كل واحد على ما يليق بحاله؛ فمن كان بلاؤه بحديث النفس أو ببقائه عن هواه، وبحرمانه لكرائمه في عُقباه فاسم البلاء في صفته مجاز، وإنما هذا بلاء العوام. ولكن بلاء الكرام غير هذا فهو كما قيل:

مَنْ لَمْ يَبْتَ - وَالْحُبُّ مِلْءُ فُوَادِهِ لَمْ يَذَرْ كَيْفَ تَفَقُّثُ الْأَكْبَادِ
قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ليست واقعة القوم بخسرانٍ يُصيبهم في أموالهم، أو من جهة تقصيرهم في أعمالهم ولما صنَّعوه من أحوالهم. فهذه - لعمرى - وجوه وأسباب، ولكن سيرُ القصة كما قيل:

أَنَا صَبٌّ لِمَنْ هَوَيْتُ وَلَكِنْ مَا احتيالي بسوء رأي الموالي؟
قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: لو شاء الله سعادتهم لرجمهم، وعن المعاصي عصمتهم، وبدوام الذكر - بدل الغفلة - ألهمهم. ولكن سبقت القسمة في ذلك، وما أحسن ما قالوا:

شكا إليك ما وجد من خانه فيك الجلد
حيران.. لو شئت اهتدى ظمآن.. لو شئت ورذ
قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ بِكُمْ فَكُلُّ بَئٍ بَرِيءٍ وَتَذَوُّوا أَلْسِنَهُ يَمَّا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أبعدكم عذم صدقكم في إيمانكم عن تحقيقكم ببرهانكم، لأنكم وقفتم على حد التردد دون القطع والتعيين، فأفضى بكم ترددكم إلى أوطان شريككم، إذ الشك في الله والشرك به قرينان في الحكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَعْدٍ إِلَهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

لا تبتاعوا على القيام بحق الله والوفاء بعهده عوضاً يسيراً مما تنتفعون به من حطام دنياكم من حلالكم وحرامكم، فإن ما أعد الله لكم في جناته - بشرط وفائكم لإيمانكم - يوفي ويربو على ما تتعجلون به من حظوظكم.

قوله جل ذكره: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الذي عندكم عَرَضٌ حادث فان، والذي عند الله من ثوابكم في مآلكم نِعَمٌ مجموعة، لا مقطوعة ولا ممنوعة.

ويقال ما عندكم أو ما منكم أو مالكم أفعال معلولة وأحوال مدخولة، وما عند الله فنوابٌ مقيمٌ ونعيمٌ عظيمٌ.

ويقال ما منكم من معارفكم ومحابكم آثارٌ متعاقبة، وأصناف متناوبة، أعيانها غيرُ باقية وإن كانت أحكامها غير باطلة والذي يتصف الحقُّ به من رحمته بكم ومحبه لكم وثباته عليكم فصفاً أزلية ونعوتٌ سرمدية.

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فمُعَرَّضٌ للزوال، وقابلٌ للانقضاء، وما وَصَفْنَا به أَنْفُسًا من الإقبال لا يتناهي وأفضال لا تَفْنَى، كما قيل:

ألا طال شوقُ الأبرار إلى لقائي وإني لللقائهم لأشدُّ شوقاً

قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا...﴾: جزاء الصبر الفوزُ بالطلبَةِ، والطَّفَرُ بالْبَغْيَةِ. ومآلهم في الطلبات يختلف: فَمَنْ صَبَرَ على مقاساة مشقة في الله. فِعْوَضُهُ وثوابه عظيمٌ من قِبَلِ الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وَمَنْ صَبَرَ عن اتباع شهوة لأجل الله، وعن ارتكاب هفوة مخافةً لله فجزاؤه كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا زَوْجَةً وَكَانَتْ سُلَاسًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

وَمَنْ صَبَرَ تحت جريان حُكْمِ الله، متحققاً بأنه بِمَرَاةٍ من الله فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١) [البقرة: ١٥٣].

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الصالح ما يصلح للقبول، والذي يصلح للقبول ما كان على الوجه الذي أمر الله به. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾: في الحال، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾: في المآل؛ فصفاً الحال يستوجبُ وفاة المآل، والعملُ الصالحُ لا يكون من غير إيمان، ولذا قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

ويقال ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مصدقٌ بأن إيمانه من فضل الله لا بعمله الصالح. ويقال

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٨٣ - ١٨٩ حديث القشيري عن الصبر.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مصدق بأن عمله بتوفيق الله وإنشائه وإبدائه. قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّكُمْ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾: الفاء للتعقيب، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ...﴾ الواو للعطف ففي الأولى مُعَجَّل، وفي الثانية مُؤَجَّل، ثم ما تلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعْرَف بالنطق، وإنما يعرف ذلك بالذوق؛ فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة، وقوم قالوا إنه القناعة، وقوم قالوا إنه الرضا، وقوم قالوا إنه النجوى، وقوم قالوا إنه نسيم القرب... والكل صحيح ولكل واحد أهل.

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب، وفي معناه قالوا:

نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلا بكم يَسِمُ السرور
عَيْنُ ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غُيِبَ ونحن حُضُور

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ولا مطالبة؛ وفرق بين من له إرادة فترفع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً^(١)، الأولون قائمون بشرط العبودية، والآخرون مُعْتَقُونَ بشرط الحرية.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

شيطان كل واحد ما يشغله عن ربه، فمن تَسَلَّطَتْ عليه نفسه حتى شَعَلَتْه عن ربه ولو بشهود طاعة أو استحلاء عبادة أو ملاحظة حال - فذلك شيطانه. والواجب عليه أن يستعيذ بالله من شر نفسه، وشر كل ذي شر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أنى يكون للشيطان سلطاناً على العبد والحق - سبحانه - متفرد بالإبداع، متوحد بالاختراع؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُمْ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

إنما سلطانه على الذين هم في غطاء غفلتهم، وستر ظنونهم ومشتبهاتهم. فأما أصحاب التوحيد فإنهم يرون الحادثات بالله ظهورها، ومن الله ابتداءها، وإلى الله مآلها وانتهائها.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَرِّقٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الإرادة بهذا الصدد: والمريد على موجب الاشتقاق من له إرادة، كما أن العالم من له علم، لأنه من الأسماء المشتقة، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً. (الرسالة القشيرية ص ٢٠١).

ما ازدادوا في طول مدتهم إلا شكاً على شك، وجحداً على جحد، وجزواً على منهاجهم في التكذيب، فلم يُصدقوه ﷺ، وما زادوا في ولايته إلا شكاً ومُزياً:

وكذا الملول إذا أَرَادَ قَطِيعَةً مَلَّ الرِّصَال وقال كان وكانا

قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾: ردُّ على فرط جهلهم بربهم، وبُعْدِ رتبته عن التحصيل، فلمَّا كانوا متفرقين في شهود المَلِكِ رُدُّوا في حين التعريف إليهم بِذِكْرِ الْمَلِكِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

لم يستوحش الرسول - ﷺ - من تكذيبهم، وخفاء حاله وقدره عليهم. . . وأي ضرر يلحق مَنْ كانت مع السلطان مُجَالَسَتُهُ إِذَا خَفِيََتْ عَلَى الْأَخْسَ مِنَ الرِّعْيَةِ حالته؟ ثم إنه أقام الحجة في الردِّ عليهم حيث قال: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾: فَمِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ تَوَهَّمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ - الذي عجز كافة الخلق عن معارضته في فصاحته وبلاغته - مقولٌ وحاصلٌ باتصاله بِمَنْ هو أعجمي النطق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إِنَّ مَنْ سَبَقَتْ بِالشَّقَاوَةِ قِسْمَتُهُ لَمْ تَتَّعِلْ مِنَ الْحَقِّ - سبحانه - به رحمته، وَمَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ فِي عَاجِلِهِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ لَا يَهْدِيهِ اللَّهُ فِي آجِلِهِ إِلَى جَنَّتِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

هذا من لطائف المعارض؛ إذ لَمَّا وصفوه - عليه السلام - بالافتراء أثار الحق - سبحانه - في الجواب، فقال: لست أنت المفتري إنما المفتري مَنْ كَذَّبَ مَعْبُودَهُ وَجَهِلَ تَوْحِيدَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ عَبْدِهِ بقلبه، وإخلاصه في عقده، ولحقته ضرورة في حاله خَفَّفَ عَنْهُ حُكْمَهُ، وَدَفَعَ عَنْهُ عَنَاءَهُ فَلَا يَلْفِظُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ إِلَّا مُكْرَهًا - وهو مُرَحِّدٌ، وهو مستحقُّ العَذْرِ فيما بينه وبين الله تعالى. . . وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم،

وتجردوا لسلوك طريق الله ثم عَرَضَتْ لهم أسباب، واتفقت لهم أَعْذار؛ كأن يكون لهم ببعض الأسباب اشتغال أو إلى شيء من العلوم رجوع... لم يكن ذلك قادحاً في صحة إرادتهم، ولا يُعَدُّ ذلك فسخاً لعهودهم، ولا ينفي بذلك عنهم سِمَةَ الْقَصْدِ إلى الله تعالى.

أما ﴿مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾: فرجع باختياره، ووضع قَدَمًا - كان قد رَفَعَهُ في طريق الله - بِحُكْمِ هواه فقد تَقَضَّ عَهْدُ إرادته، وَفَسَخَ عَقْدَهُ، وهو مستوجب (...)(١) إلى (...)(١) تتداركه الرحمة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

السالك إذا أثر الحظوظ على الحقوق بقي عن الله، ولم يبارك له فيما آثره على حق الله، ولقد قالوا:

قد تركناك والذي تريد فعسى أن تَمْلَهُمْ فتعود
قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَتْهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾.

إذا تمادى في غفلته، ولم يتدارك حاله بملازمة حَسْرَتِهِ، ازداد قسوة على قسوة، ولم يستمتع بما هو فيه من قوة، وكما قال جل ذكره:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

هم في الآخرة محجوبون، وبئذ البعد موسومون.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَّهُدُوا وَصَكَبُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وَمَنْ صَبَرَ حين عزم الأمر، ولم يجنح إلى جانب الرُّخْصِ، وأخذ في الأمور بالَأَشَقِّ أكرم الله حَقَّهُ، وقرب مكانه، ولَفَّاهُ في كل حالة بالزيادة، وربحت صفقته حين خسر أشكاله، وتقدَّم على الجملة وإن قلَّ احتياله.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

غداً كل مشغول بنفسه، ليس له فراغ إلى غيره. وعزيز عبد لا يشتغل بنفسه، قال ﷺ: «من كان بحالٍ لقي الله بها». إنما يكون الفارغ غداً من كان اليوم فارغاً،

ويجادل عن نفسه من كان له اليوم اهتمام بنفسه. والمؤمن لا نفس له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] اشتراها الحق منهم، وأودعها عندهم، فليس لهم فيها حق، وإنما يراعون فيها أمر الحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر عبد بهذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانجرف في فساد الشهوة، شوش الله عليه قلبه، وسلبه ما كان يجده من صفاء وقته؛ لأن طوارق النفس توجب غروب شوارق القلب، وفي الخبر: «إذا أقبل الليل من ها هنا أدير النهار من ها هنا»^(١). وكذلك القلب إذا انقطع عنه معهود ما كان الحق أتاحه له أصابه عطش شديد ولهب عظيم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

كما جاءهم الرسول جهراً فإنه تتأذى إليهم من قبل خواطرهم إشارات تترى، فمن لم يستجب لتلك الإشارات بالوفاق والإعتاق أخذه العذاب من حيث لا يشعر.

قوله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الحلال الطيب ما يتناوله العبد على شريطة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب في ترك الشبهة، وحقيقة الشكر على النعمة الغيبة عن شهود النعمة بالاستغراق في شهود المنعم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَى اللَّهِ عَنْقُورٌ رَجِيمٌ﴾.

يباح تناول المحرمات عند هجوم الضرورات حسب بيان الشرع، ولا يرخص في ذلك إلا على أوصاف مخصوصة، ويقدر ما يسد الرَّمق، كذلك عند استهلاك العبد

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤٦/٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢١٦/٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٨٥)، والبغوي في (شرح السنة ٢٥٩/٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٣٨٧٦)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٣١٣/٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢٠٠)، والمراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/١٩٥)، والطبري في (التفسير ١٠٣/٢) (بغوي ١/١٦٤)، والزبيدي في (تحاف السادة المتقين ٣/٣٥٢)، والحلي في (المسند ٢٠).

بغلبات الحقيقة لا بدّ من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدي الفرض الواجب عليه، ثم لا يُمكن من التعرّيج في أوطان التفرقة والتمييز بعد مضي أوقات الصحو من أجل أداء الشرع^(١)، كما قيل:

فإنّ تلك منه غيبة بعد غيبة فإنّ إليه بالوجود إيابي
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الصدق في كل شيء أولى من الكذب، وكثير من أقوالهم في الاعتراض عيّنات^(٢) من الكذب.

والصديق لا يكذب صريحاً، ولا يتداول أقوال كاذب مهين. وصاحب الكذب تظهر عليه المذلة لما هو فيه من الزلة، وله في الآخرة عذاب أليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

بيّن أنه أوضح لمن تقدّم الحلال والحرام، فمنهم من أتى بما أمّر به ومنهم من خالف. وكلّ عومل بما استوجبه؛ فمن أطاع قلبه قرّبته، ومن عصى رّده وحجّبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ يَجْعَلُهُمْ تَاجِرًا سُوْءًا وَمِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.

إذا ندموا على قبيح ما قدّموا، وأسفوا على كثير مما أسلفوا وفيه أسرقوا، ومخا صدق عبرتهم آثار غشّرتهم - نظّر الله إليهم بالرحمة، فتاب عليهم إذا أصلحوا، ونجّاهم إذا تضرّعوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِتْرَاهِيْرَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾.

قيل آمن بالله وحده فقام مقام الأمة، وفي التفسير: كان معلماً - للخير - لأمة.

ويقال اجتمع فيه من الخصال المحمودّة ما يكون في أمة متفرقاً.

ويقال لما قال إبراهيم لكل ما رآه: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧] ولم ينظر إلى المخلوقات من حيث هي بل كان مُستهلكاً في شهود الحق، ورأى الكون كلّّه بالله، وما ذكر حين ذكر غير الله. . كذلك كان جزاء الحق فقال: أنت الذي تقوم مقام الكلّ، ففي القيام بحق الله منك على الدوام غنيّة عن الجميع.

(١) هذه هي حالة الفرق الثاني (انظر الرسالة القشيرية ص ٦٦).

(٢) العيّنات: (ج) العينة: جزء من المادة يؤخذ يؤخذ منها نموذجاً لسايرها.

و «الحنيف»: المستقيم في الدين، أو المائل إلى الحق بالكلية.

قوله جل ذكره: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

الشاكِرُ في الحقيقة - مَنْ يرى عَجْزَهُ عن شكره، ويرى شُكْرَهُ من الله عز وجل، لِتَحَقُّقِهِ أنه هو الذي خَلَقَهُ، وهو الذي وَفَّقَهُ لشكره، وهو الذي رزقه الشكر، وهو الذي اجتباه حتى كان بالكلية له - سبحانه.

﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي تحقَّق بأنه عَبْدُهُ، وأنه رَقَّاهُ إلى محلِّ الأَكابر.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لِنَصْلِيبِينَ﴾.

الحسنة التي آتاه الله هي دوام ما آتاه حتى لم تنقطع عنه.

ويقال هي الخلعة. ويقال هي النبوة والرسالة.

ويقال آتيانه في الدنيا حسنة حتى كان لنا بالكلية، ولم تكن فيه لغير بقية.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي الكون بالحق، والامتحاء عن شاهد نفسه؛ فكان نبينا - ﷺ -

في اتباعه إبراهيم مؤتمراً بأمر الله. وكانت ملة إبراهيم - عليه السلام - الخلق والسخاء والإيثار والوفاء، فاتبعه الرسول ﷺ وزاد عليه، فقد زاد على الكافة شأنه، وبانت مَزِيَّتُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قَوْمٌ حَرَّمُوا العمل فيه وقَوْمٌ حللوه معصية منهم، وقيل جعل الجمعة لهم فقالوا:

لا نريد إلا يوم السبت. . فهذا اختلافهم فيه.

والإشارة من ذلك أنهم حادوا عن موجب الأمر، ومالوا إلى جانب هواهم. ثم

إنهم لم يراعوها حق رعايتها فصار سبب عصيانهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

الدعاء إلى سبيل الله بحث الناس على طاعة الله، وزجرهم عن مخالفة أمر الله.

والدعاء بالحكمة ألا يخالف بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق.

والموعظة الحسنة مما يكون صادراً عن علم وصواب، ولا يكون فيها تعنيف.

﴿وَحَدِّثْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: بالحجة الأقوى، والطريقة الأوضح. قال تعالى:

﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]: فَشَرَطُ الأمر بالمعروف

استعمال ما تأمر به، والانتهاز عما تنهى عنه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبَتُهُمْ يَعْنِي مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

إذا جرى عليكم ظلم من غيركم وأردتم الانتقام . . فلا تتجاوزوا حد الإذن بما هو في حكم الشرع.

﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ﴾: فتركتم الانتصاف لأجل مولاكم فهو خير لكم إن فعلتُم ذلك . والأسباب التي قد يترك لأجلها المرء الانتصاف مختلفة؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً في الثواب غداً فإنه أوفر وأكثر، ومنهم من يترك ذلك طمعاً في أن يتكفل الله بخصومه، ومنهم من يترك ذلك لأنه مُكْتَفٍ بعلم الله تعالى بما يجري عليه، ومنهم من يترك ذلك لِكِرَمِ نَفْسِهِ، وتَحَرُّرِهِ عن الأخطار ولاستحبابه العفو عند الظفر، ومنهم مَنْ لا يرى لنفسه حقاً، ولا يعتقد أَنَّ لأحد هذا الحق فهو على عقد إرادته بِتَرْكِ نَفْسِهِ؛ فَمِلْكُهُ مُبَاحٌ وَدَمُهُ هَذَرٌ. ومنهم من ينظر إلى خصمه - أي المتسلط عليه - على أَنَّ فِعْلَهُ جزاء على ما عمله هو من مخالفة أمر الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. فاشتغاله باستغفاره عن جُزْئِهِ يَمْنَعُهُ عن انتصافه من خصمه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

«واصبر» تكليف، «وما صبرك إلا بالله»: تعريف. «واصبر» تحقق بالعبودية، «وما صبرك إلا بالله» إخبار عن الربوبية.

«ولا تحزن عليهم . .» أي طالع التقدير، فما لا نجعل له خطراً عندنا لا ينبغي أن يوجب أثراً فيك، فَمَنْ أَسْقَطْنَا قُدْرَهُ فَاسْتَضْعِفَ أَمْرَهُ. وإذا عرفت انفرادنا بالإيجاد فلا يضيق قلبك بشدة عداوتهم، فَإِنَّا ضَمَمْنَا كِفَايَتَكَ، وَأَلَا نُشِيتُهُمْ بِكَ، وَأَلَا نَجْعَلُ لَهُمْ سَبِيلاً إِلَيْكَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾.

إن الله معهم بالنصرة، ويحيطهم بالإحسان والبسطة.

«الذين اتقوا» رؤية النصرة مِنْ غَيْرِهِ، والذين هم أصحاب التبري من الحَوْلِ

والقوة.

والمحسن الذي يعبد الله كأنه يراه، وهذه حال المشاهدة:

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل

قوله تعالى وتقدس: ﴿يَسِّرْ أَقْرَبَ الْبَصِيرِ﴾.

كلمة ما سمعها عابد إلا شكر عصمته، وما سمعها سالك إلا وجد رحمته، وما تحقّقها عارف إلا تطعّر قلبه بنسيم قربته، وما شهدا موحد إلا تقطّر دمه لخوف فرقته.
قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ قُرَيْبًا مِنْ دَاوُدَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

افتتح السورة بذكر الشاء على نفسه فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾ [الإسراء: ١]: الحقّ سبح نفسه بعزیز خطابه، وأخبر عن استحقاقه لجلال قدره، وعن توخّده بعلوّ نُعوته.
ولما أراد أن يعرف العباد ما خصّ به رسوله - ﷺ - ليلة المعراج من علو ما رقاؤه إليه، وعظم ما لقاه به أزال الأعجوبة بقوله: ﴿أَسْرَى﴾، ونفى عن نبيه خطر الإعجاب بقوله: ﴿بِعَبْدِهِ﴾؛ لأنّ من عرف ألوهيته، واستحقاقه لكمال العز فلا يتعجّب منه أن يفعل ما يفعل، ومن عرف عبودية نفسه، وأنه لا يملك شيئاً من أمره فلا يُفجّب بحاله. فالآية أوضحت شيئين اثنين: نفى التعجّب من إظهار فعل الله عز وجل، ونفى الإعجاب في وصف رسول الله عليه السلام.

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام - حين أكرمه بإسماعه كلامه من غير واسطة - فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأخبر عن نبينا ﷺ بأنه ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وليس من جاء بنفسه كمن أسرى به ربّه، فهذا مُتَحَمِّلٌ وهذا محمول، هذا بنعت الفرق وهذا بوصف الجمع، هذا مُريدٌ وهذا مُراد.

ويقال جعل المعراج بالليل عند غفلة الرُقباء وغيبّة الأجانب، ومن غير ميعاد، ومن غير تقديم أهبة واستعداد، كما قيل:

ويقال جعل المعراج بالليل ليظهر تصديق من صدّق، وتكذيب من تعجّب وكذب أو أنكر وجحد.

ويقال لما كان تعبده ﷺ وتهجّده بالليل جعل الحق سبحانه المعراج بالليل.

ويقال:

ليلة الوضلي أضفى من شهور ودهور سواها

ويقال أرسله الحق - سبحانه - ليتعلم أهل الأرض منه العبادة، ثم رَقَاهُ إِلَى السَّمَاءِ لِيَتَعَلَّمَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ آدَابِ الْعِبَادَةِ، قال تعالى في وصفه - ﷺ -: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، فَمَا التَّفَتَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وما طمع في مقامٍ ولا في إكرام؛ تجرّد عن كل طلبٍ وأربٍ.

قوله: ﴿لِتُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾: كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كَشَفَ بالذات. ويقال من الآيات التي أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثله - سبحانه - شيء في جلاله وجماله، وعِزُّه وكبريائه، ومجده وسنائه.

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عَرَفَ به صلوات الله عليه - أنه ليس أحدٌ من الخلائق مثله في نبوته ورسالته وعلو حالته وجلال رتبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾.

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا ﷺ، ولكن نبيّنا - صلوات الله عليه - كان أوفى - سماعاً، فإنَّ الشَّمْسَ في طلوعها وإشراقها تكون أقرب ممن طلعت له من حقائقها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

أي يا ذرية مَنْ حملنا مع نوح - على النداء.. إنه كان عبداً شكوراً.

والشكور الكثير الشكر؛ وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان يضرب في كل (....)^(١) كما في القصة - سبعين مرة، وكان يشكر. كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه: أنه لن يؤمن إلا من قد آمن، وأمر حين دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]

ويقال الشكور هو الذي يكون شكره على توفيقِ اللَّهِ له لشكره، ولا يتقاصر عن شكره لِنِعَمِهِ.

ويقال الشكور الذي يشكر بماله، ينفقه في سبيل الله ولا يدخره، ويشكر بنفسه فيستعملها في طاعة الله، ولا يُبْقِي شيئاً من الخدمة يدخره، ويشكر بقلبه ربّه فلا تأتي عليه ساعة إلا وهو يذكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْكَافِرِينَ لَنُفَسِّدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرْبِّينَ وَلَنُعَلِّمَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

(١) بياض في الأصل.

القضاء ها هنا بمعنى الإعلام، والإشارة في تعريفهم بما سيكون في المُستأنفِ منهم وما يستقبلهم، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخبروا به، وليكون أبلغ في لزوم الحجة عليهم، وليحترزوا من مخالفة الأمر بجحدهم، وليعلموا أن ما سبق به القضاء فلا محالة يحصل وإن ظنَّ التباعُد عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَشَأًا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

إن الله سبحانه يُعدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

يدلُّ على أنه مُقدَّرُ أعماله العباد، ومدبِّرُ أفعالهم؛ فإنَّ انتصارهم على أعدائهم من جملة أكسابهم، وقد أخبر الحقُّ أنه هو الذي تولاه بقوله: ﴿زَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَبَرُّرًا﴾.

إن أحسستم فتوايكم كسبتم، وإن أسأتم فعداءكم جلبتكم - والحقُّ أعزُّ من أن يعود إليه من أفعال عباده زينٌ أو يلحقه شينٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم﴾.

كلمة ﴿عَسَىٰ﴾ فيها ترجية وإطماع، فهو - سبحانه - وقفهم على حد الرجاء والأمل، والخوف والوجل.

وقوله ﴿عَسَىٰ﴾: ليس فيه تصريح بغفرانهم، ورحمتهم، وإنما فيه للرجاء موجب قوي؛ فبلطفه وعد أن يرحمكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾.

أي إن عُدْتُمْ إلى الزَّلَّةِ عُدْنَا إلى العقوبة، وإن استقمتم في التوبة عدنا إلى إدامة الفضل عليكم والمثوبة.

ويقال إن عُدْتُمْ إلى نقضِ العهدِ عُدْنَا إلى تشديدِ العذاب.

ويقال: إن عُدْتُمْ للاستجارة عدنا للإجارة.

ويقال إن عُدْتُمْ إلى الصفاء عدنا إلى الوفاء.

ويقال إن عُدْتُمْ إلى ما يليق بكم عُدْنَا إلى ما يليق بكرمنا .

﴿وَحَمَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ ، لأنهم (....) ^(١) وهم ناس كثير فهذه جهنم ومن يسكنها من الكافرين .

و ﴿حَصِيرًا﴾ أي محبساً ومصيراً . فالمؤمن - وإن كان صاحب ذنوب وإن كانت كبيرة - فإنَّ مَنْ خرج من دنياه على إيمانه فلا محالة يصل يوماً إلى غفرانه .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ .

القرآن يدل على الحق والصواب . و﴿أَقْوَمُ﴾: هنا بمعنى المستقيم الصحيح كأكبر بمعنى الكبير؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب، ولكن الخلل من جهة المُسْتَدِلِّ لا الدليل، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكن المستدل مغرض، وبآداب النظر مُخِلٌّ، فيكون العيب في تقصيره لا في قصور الدليل .

القرآن نور؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ من ظُلُمَاتِ جَهْلِهِ، وخرج من غمار شكّه . وَمَنْ رَمَدَتْ عَيُونُ نَظَرِهِ التبس رُشْدُهُ .

ويقال الحَوْلُ ضَرَرُهُ أَشَدُّ من الْعَمَى؛ لأنَّ الأعمى يعلم أنه ليس يُبْصِرَ فَيَتَّبِعُ قَائِدَهُ، ولكن الأحوال يتوهَّم الشيء شيئين، فهو بتخيله وحسبانه يماري مَنْ كان سليماً . كذلك المبتدِعُ إذا سَلَكَ طريقَ الجَدَلِ، ولم يضع النظر موضعه بَقِيَّ في ظُلُمَاتِ جَهْلِهِ، وصال بباطل دعواه على خَصْمِهِ، كما قيل:

بأطراف المسائل كيف يأتي - ولا أَدْرِي لَعَمْرُكَ - مُبْطِلُوهَا؟

قوله جل ذكره: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ ^(٢) .

من الأدب في الدعاء ألا يسأل العبد إلا عند الحاجة، ثم ينظر فإن كان شيء لا يعنيه ألا يتعرَّضَ له؛ فإنَّ في الخير: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ^(٣) . ثم من آداب الداعي إذا سأل من الله حاجته ورأى تأخيراً في الإجابة إلا يَتَّهَمُ الحقَّ - سبحانه - ويجب أن يعلم أن الخير في ألا يجيبه، والاستعجال - فيما يختاره العبد - غير محمود، وأولى الأشياء السكون والرضا بحُكْمِهِ سبحانه، إن لم يساعده الصبرُ وسأل فالواجب تَرْكُ الاستعجال، والثقة بأنَّ المقسوم لا يفوته، وأنَّ اختيار الحق للعبد خير له من اختياره لنفسه .

(١) بياض في الأصل . (٢) الآية (١٠) لم ترد .

(٣) أخرجه ابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ٩٠٧، ٤/ ١٥٨٨، ٦/ ٢٣٤١)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٨/ ١٨)، وأحمد بن حنبل في (المستند ١/ ٢٠)، والمتقي الهندي في (كتر العمال ٣/ ٨٢٩١) .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ مَّحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَّهُ تَفْصِيلًا﴾.

جعل الليل والنهار علامة على كمال قدرته، ودلالة على وجوب وحدانيته؛ في تعاقبهما وتناوبهما، وفي زيادتهما ونقصانهما.

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته؛ فالعبادة شرطها الدوام والاتصال، والوظائف حقها التوفيق والاختصاص.

ولو وقع في بعض العبادات تقصير أو حصل في أداء بعضها تأخير تَذَارَكَ بالقضاء حتى يَتَلَفَّى التقصير.

ويقال من وجوه الآيات في الليل والنهار إفراد النهار بالضياء من غير سبب، وتخصيص الليل بالظلام بغير أمر مكتسب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: وهو اختلاف أحوال القمر في إشراقه ومحاقه، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة، بل هو في كل ليلة في منزل آخر، إما بزيادة أو بنقصان.

وأما الشمس فحالها الدوام.. والناس كذلك أوصافهم؛ فأرباب التمكين الدوام شرطهم، وأصحاب التلويح التنقل حقهم، قال قائلهم:

ما زلت أنزل من وداك منزلاً
تتحير الألباب دون نزوله
قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طَعَامُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾.

ألزم كل أحد ما ليس بجيده. فالذين هم أهل السعادة أسرج لهم مركب التوفيق، فيسير بهم إلى ساحات النجاة، والذين هم أهل الشقاوة أركبهم مطيئة الخذلان فأقعدهتهم عن النهوض نحو منهج الخلاص، فوقعوا في وَهْدَةِ الهلاك.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾.

من ساعدته العناية الأزلية حفظ عند معاملاته مما يكون وبالاً عليه يوم حسابه، ومن أبلاه بخكمه رده وأمهله، ثم تركه وعمله، فإذا استوفى أجله عرف ما ضيعه وأهمله، ويومئذ يحكمه في حال نفسه، وهو لا محالة يحكم بنفسه باستحقاقه لعذابه عندما يتحقق من قبيح أعماله... فكم من حسرة يتجرعها، وكم من خيبة يتلقاها!

ويقال من حاسبه بكتابه فكتابه ملازمه في حسابه فيقول: رَبِّ: لا تحاسبني بكتابي.. ولكن حاسبني بما قلت: إِنَّكَ غَافِرُ الذُّنُوبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ.. لا تعاملني بمقتضى كتابي: ففيه بوري وهلاكي.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَلَنَمَّا يُهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلَنَمَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

قضايا أعمال العبد مقصورة عليه؛ إن كانت طاعة فضاياها لأصحابها، وإن كانت زلة فبلاؤها لأربابها. والحق غني مقدس، أخدي منزه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

كُلُّ مُطَالَبٍ بِجَرِيرَتِهِ. وكلُّ نَفْسٍ تحمل أوزارها لا وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَى. . . ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾: دل ذلك على أن الواجبات إنما تتوجه من حيث السمع. قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

إذا كثر أهل الفساد غلبوا، وقُلُّ أهل الصلاح وفقدوا: فعند ذلك يغمر الله الخلق ببلائه، ولا يكون للناس ملجأ من أوليائه ليتكلموا في بابهم، ولا فيهم من يتהל إلى الله فيسمع دعاؤه، فيخترم أوليائه، ويبقى أرباب الفساد، وعند ذلك يشتد البلاء وتغظم المعصية إلى أن ينظر الله تعالى إلى الخلق نظراً الرحمة والمنة.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

في الآية تسليّة للمظلومين إذا استبطأوا هلاك الظالمين، و (. . .)^(١) قصر أيديهم عنهم. فإذا فكروا فيما مضى من الأمم أمثالهم وكيف بنوا مشيداً، وأملوا بعيداً. . . فبادوا جميعاً، يعلمون أن الآخرين - عن قريب - سينخرطون في سلكهم، ويمنتحون بمثل شأنهم. وإذا أظلمت سحُب الوحشة فاءوا إلى ظل شهود التقدير، فتزول عنهم الوحشة، وتطيب لهم الحياة، وتحصل الهيبة.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾.

مَنْ رَضِيَ بِالْحَظِّ الْخَسِيسِ مِنْ عَاجِلِ الدُّنْيَا بَقِيَ عَنْ نَفِيسِ الْآخِرَةِ، ثُمَّ لَا يَحْظَى إِلَّا بِقَدْرِ مَا اشْتَمَهُ، ثُمَّ يَكُونُ آنَسٌ مَا بِهِ قَلْباً وَأَشَدُّ مَا يَكُونُ بِهِ سَكُوناً. . . ثُمَّ يُخْتَلَفُ عَنْ نِعْمَتِهِ، وَلَا يَخْصُهُ شَيْءٌ مِمَّا جَمَعَ مِنْ كَرَامَتِهِ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ قُرْبِهِ فِي الْآخِرَةِ. . . ولقد قيل:

يا غافلاً عن سماع الصوت إن لم تبادر فهو الفوت

من لم تزل نعمته عاجلاً أزاله عن نعمته الموت

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

علامة مَنْ أراد الآخرة - على الحقيقة - أن يسعى لها سَعْيَهَا؛ فإرادة الآخرة إذا تجرّدت عن العمل لها كانت مجرد إرادة، ولا يكون السعي مشكوراً. قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أي من المآل كما أنه مؤمن في الحال. ويقال وهو مؤمن أن نجاته بفضل لا بسببه.

﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ أي مقبولا، ومع القبول بكون التضعيف والتكثير؛ فكما أن الصدقة يُزيها كذلك طاعة العبد يُكثرها ويُتميها.

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا تُمِذُّ هَتُولَاءُ وَهَتُولَاءُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

يجازي كلاً بِقَدْرِهِ؛ فَلِقَوْمٍ نَجَاةٍ وَلِقَوْمٍ دَرَجَاتٍ، وَلِقَوْمٍ سَلَامَةٍ وَلِقَوْمٍ كَرَامَةٍ، وَلِقَوْمٍ مَثْوًى، وَلِقَوْمٍ قَرْبَةً.

قوله جل ذكره: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

التفضيل على أقسام، فالعُباد فَضِّلَ بعضهم على بعض ولكن في زكاء أعمالهم، والعارفون فَضِّلَ بعضهم على بعض ولكن في صفاء أحوالهم، وزكاء الأعمال بالإخلاص، وصفاء الأحوال بالاستخلاص؛ فقَوْمٌ تفاضلوا بصدق القَدَم، وقوم تفاضلوا بعلو الهِمَم. والتفضيل في الآخرة أكبر: فالعُبادُ تفاضلهم بالدرجات، قال ﷺ: «إنكم لتَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ كما ترون الكوكبَ الدريَّ في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم»^(١).

وأهل الحضرة تفاضلهم بلطائفهم من الأُنس بنسيم القربة بما لا بيان يصفه ولا عبارة، ولا رمز يدرکه ولا إشارة. منهم من يشهده ويراه مرة في الأسبوع، ومنهم من لا يغيب من الحضرة لحظة، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفاوتون في نصيب كل أحد، وليس كل مَنْ يراه بالعين التي بها يراه صاحبه، وأنشد بعضهم:

لو يسمعون - كما سمعت حديثها - خَرُّوا لِعَزَّةٍ رُكْعاً وسجوداً

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

الذي أشرك بالله أصبح مذموماً من قِبَلِ الله، ومخذولاً من قِبَلِ مَنْ عِبَدَهُ من دون الله.

(١) أخرجه مسلم (جدة ١٠، ١١)، والدارمي (رقاق ١٠٧)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٣٩، ٣، ٢٦، ٥٠، ٦١، ٥، ٣٤٠.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

أمر بإفراده - سبحانه - بالعبادة، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبد منها، وأن يكون مغلوباً باستيلاء سلطان الحقيقة عليه بما يحفظه عن شهود عبادته.

وأمر بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقهما، والوقوف عند إشارتهما، والقيام بخدمتهما، وملازمة ما كان يعود إلى رضاها وحسن عشرتهما ورعاية حرمتها، وألا يبدي شواهد الكسل عند أوامرها، وأن يتبدل المكتنة فيما يعود إلى حفظ قلوبهما... هذا في حال حياتهما، فأما بعد وفاتهما فيصدق الدعاء لهما، وأداء الصدقة عنهما، وحفظ وصيتهما على الوجه الذي فعلاه، والإحسان إلى من كان من أهل ودهما ومعارفهما.

ويقال إن الحق أمر العباد بمراعاة حق الوالدين وهما من جنس العبد... فمن عجز عن القيام بحق جنسه أتى له أن يقوم بحق ربه؟

قوله جل ذكره: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ﴾ بحسن المداراة ولين المنطق، والبدار إلى الخدمة، وسرعة الإجابة، وترك البرم بمطالبهما، والصبر على أمرهما، وألا تدخر عنهما ميسوراً.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّكَ أَغْلَىٰ بِمَا فِي نَفْسِكَ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾.

إذا علم الله صدق قلب عبد أمده بحسن الأمجاد، وأكرمه بجميل الامتداد، ويسر عليه العسير من الأمور، وحفظه عن الشرور، وعطف عليه قلوب الجمهور.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقًّا وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا يُبْدِرُ تَبْدِيرًا﴾.

إيتاء الحق يكون من المال ومن النفس ومن القول ومن الفعل، ومن نزل على اقتضاء حقه، وبذل الكل لأجل ما طالبه به من حقوق. فهو القائم بما ألزمه الحق سبحانه بأمره.

والتبذير مجاوزة الحد عما قدره الأمر والإذن. وما يكون لحظ النفس - وإن كان سمسمة^(١) - فهو تبذير، وما كان له - وإن كان الوفاء بالنفس - فهو تقصير.

(١) السمسمة: واحدة السمسم: نبات له حب صغير دهنه زيت الشيرج.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُبِذِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.

إنما كانوا إخوان الشياطين لأنهم أنفقوا على هواهم، وجروا في طريقهم على دواعي الشياطين ووساوسهم، ولما أفضى بهم ذلك إلى المعاصي فقد دعاهم إخوان الشياطين.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضَنَّهُمْ لَمَّا نَبَاَهُنَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُنَّ فَأَقِلَّ عَنْهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا﴾.

إن لم يساعذك الإمكان على ما طالبوك من الإحسان فاصرفهم عنك بوعيد جميل إن لم تسعفهم بنقد جزيل. . . وإن وعد الكرام أهنأ من نقد اللئام.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾.

لا تمسك عن الإعطاء فتكدي^(١)، ولا تسرف في البذل بكثرة ما تسدي، واسلك بين الأمرين طريقاً وسطاً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ كَانُمْ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

إذا بسط لا تبقى فاقة، وإذا قبض استنفد كل طاقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾.

من عرف أن الرازق هو الله خف عن قلبه هم العيال - وإن كثروا، ومن خفي عليه أنه قسّم - قبل الخلق - أرزاقهم تطوح في متاهات مغاليطه، فيقع فيها بالقلب والبذل ثم لا يكون غير ما سبق به التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ قَرْحَةً وَكَاةً سَيِّئًا﴾.

ترجح الزنا على غيره من الفواحش لأن فيه تضييع حُرمة الحق، وهتك حُرمة الخلق، ثم لما فيه من الإخلال بالنسب، وإفساد ذات البين من مقتضى الأنفة والغضب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّمَا كَانَ مَنصُورًا﴾.

لا يجوز قتل نفس الغير بغير الحق، ولا للمرء أن يقتل نفسه أيضاً بغير الحق. وكما أن قتل النفس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات مُحَرَّم فكذلك القصد إلى هلاك المرء مُحَرَّم.

(١) كدى الرجل يكدي وأكدى: قلل عطاءه، وقيل: بخل (اللسان ٥/٢١٦ مادة: كدا).

ومن انهمك في مخالفة ربه فقد سعى في هلاك نفسه. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾: أي تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه، وعلى معنى الإشارة: إلى النصر من قِبَلِ الله: ومنصور الحق لا تنكسر سيئاته، ولا تطيش سيئاته. قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

لما لم يكن لليتم من يهتم بشأنه أمر - سبحانه - الأجنبي الذي ليس بينه وبين اليتيم سبب أن يتولى أمره، ويقوم بشأنه، وأوصاه في بابه؛ فالصبي قاعد بصفة الفراغ والهويني^(١)، والولي ساع بمقاساة العنا. فأمر الحق - سبحانه - للولي أخطى للصبي من شفقة إله عليه في حال حياتهم. قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْقِمْ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

كما تدين تدان، وكما تعامل تجازي، وكما تكيل يُكَالُ لك، وكما تكونون يكون عليكم، ومن وفى وفوا له، ومن خان خانوا معه، وأنشدوا: أسأنا فساءوا.. عذْلُ بلا حيف ولو عذَلْنَا لَخُلُصْنَا مِنَ الْمِحْنِ قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

إذا غلبت عليك مجوزات الظنون، ولم يُطْلَعَكِ الحق على اليقين فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان، وإذا أشكل عليك شيء من أحكام الوقت فارجع إلى الله؛ فإن لاح لقلبك وجة من الدليل على حد الالتباس فكل عِلْمَهُ إلى الله، وقف حيثما وقفت.

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أن العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بعلمهم، وأصحاب الحق يجري عليهم يحكم التصريف شيء لا عِلْمَ لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يكشف لهم وجهه، وربما يجري على ألسنتهم شيء لا يدرون وجهه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه، ودليل ما نطقوا به من شواهد العلم^(٢).

(١) الهويني: الخفض والدعة.

(٢) فرق القشيري بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق. قال في رسالته عند حديثه عن الوصية للمريدين: ولم يكن عصر في الحكم الإسلامي إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة، فمن له علوم التوحيد وإمامة القوم، إلا وأتمه ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك =

قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ﴾ هذه أمانة الحق - سبحانه - عند العبد، وقد تقدم في بابها بما أوضحت به إيهام الشريعة.

ومن استعمل هذه الجوارح في الطاعات، وصانها عن استعمالها في المخالفات فقد سلم الأمانة على وصف السلامة، واستحق المدح والكرامة. ومن ذنسها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة، واستوجب الملامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ أَهَّ نَّ وَلَكِن تَبْلُغُ الْحَبَالُ طُولًا﴾.

الخِيَلَاءُ والتَجَبُّرُ، والمدح والتكبر - كل ذلك نتائج الغيبة عن الذكر، والحجة عن شهود الحق؛ «فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّى لشيء خضع له»^(١) بذلك وَرَدَ الخبر. فأما في حال حضور القلب واستيلاء الذكر وسلطان الشهود. فالقلب مُطَرِّقٌ، وَحُكْمُ الهَيِّبَةِ غَالِبٌ. ونعت المدح وصفة الزُّهُوِّ وأسباب التفرقة - كل ذلك ساقط.

والنَّاسُ - في الخلاص من صفة التكبر - أصناف: فأصحاب الاعتبار إذ عرفوا أنهم مخلوقون من نطفة أمشاج^(٢)، وما تحمله أبدانهم مما يترشح من مسامهم من بقايا طعامهم وشرابهم. . . تعلقوهم عن التضييق والتدنيق^(٣)، وَيَبْعُدُ عن قلوبهم قيام أخطار للأشياء، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر، وينزع عنهم لباس التجبر.

وأما أرباب الحضور فليس في طلوع الحق إلا انخناس^(٤) النفس، وفي معناه قالوا:

إِذَا مَا بَدَا لِي تَعَاظُمْتُه فَأَصْدَرَ فِي حَالٍ مَنْ لَمْ يَرِدْ

= الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به، ولولا مزية لهم وخصوصية وإلا كان الأمر بالعكس، هذا أحمد بن حنبل كان عند الشافعي رضي الله عنهما، فجاء شيبان الراعي، فقال أحمد: أريد يا أبا عبد الله أن أتبه هذا على نقصان علمه، ليشغل بتحصيل بعض العلوم، فقال الشافعي: لا تفعل، فلم يقع، فقال لشيبان: ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة، ولا يدري أية صلاة نسيتها، ما الواجب عليه يا شيبان؟ فقال شيبان: يا أحمد هذا قلب غفل عن الله تعالى، فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعد، فغشي على أحمد، فلما أفاق. قال له الشافعي: ألم أقل لك لا تحرك هذا، وشيبان الراعي كان أميًا، فإذا كان الأمي منهم هكذا فما الظن بأئمتهم. (الرسالة القشيرية ص ٣٧٨، ٣٧٩).

(١) أخرجه النسائي (كسوف ١٦)، وابن ماجه (إقامة ١٥٢)، وأحمد بن حنبل ٤، ٢٦٧، ٢٦٩.

(٢) الأمشاج: هي الأخلاط: ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة (لسان العرب ٣٦٧/٢ مادة: مشج).

(٣) التدنيق: المداقة والاستقصاء كتابات عن البخل والشح. (اللسان ١٠٦/١٠ مادة: دنق).

(٤) الانخناس: التأخر والتخلف.

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِنَّا وَتُوحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتَنِي فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

إذا سَعِدَتْ الأقدامُ بحضورِ ساحاتِ الشهود، وعَطِرَتْ الأسرارُ بنسيمِ القُربِ تجرَّدَتْ الأوقاتُ عن الحجة، واستولى سلطان الحقيقة، فيحصل التنفُّي من هذه الأوصاف المذمومة.

وقال تعالى لنبيه: ﴿ذَلِكَ مِنَّا وَتُوحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾: بالوحي والإعلام، ولأوليائه تعريف بحكم الإلهام.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَصْفَنَّاكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُم لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

جَوَّزُوا أَنْ يَكُونََ اللَّهُ - سبحانه - وَلَدًا، وفكروا في ذلك، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا له ما استنكفوا منه لأنفسهم، فما زادوا في تَمَرُّدِهِمْ إِلَّا عُتُوًّا، وفي طغيانهم إِلَّا غُلُوًّا، وعن قبول الحقِّ إِلَّا بُتُوًّا.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَاتَّبَعْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَنَهُمُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾^(١).

بَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الصَّانِعُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ لَجَرَىٰ بَيْنَهُمْ تَضَادٌّ وَتَمَانُعٌ، وصحَّ عند ذلك في صفتهم العجزُ، وذلك من سِمَاتِ المحدثات.

ثم قال سبحانه - تنزيهاً له عن الشُّريك والظهير، والمعين والنظير.

قوله جل ذكره: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

الأحياء من أهل السموات والأرض يُسَبِّحُونَ له تسبيحاً قاله، وغير الأحياء يسبح من حيث البرهان والدلالة. وما من جزءٍ من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية، ولكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا - لجهلهم وتَعَسَّرَ إدراكهم - وأنكروا.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

أي أدخلناك في إيواءِ حِفْظِنَا، وضربنا عليك سَرَادِقَاتِ^(٢) عصمتنا، ومنعنا الأيدي الخاطئة عنك بلطفنا.

(١) الآية (٤١) لم ترد.

(٢) السرادقات: (ج) السرادق: الخيمة الواسعة أو ما يُعَدُّ فوق صحن الدار وهو ستر الدار.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَنْ أَدْبَرْتَهُمْ نُفُورًا﴾.

صَرَّحَ بأنه خالق ضلالتهم، وهو المبدأ في قلوبهم ما استكن فيها من فرط غوايتهم. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ﴾ أحبوا أن تذكر آلهتهم، قد ختم الله على قلوبهم فلا حديث يُعْجِبُهُمْ إِلَّا مِنْ لِهِمْ شَكْلٌ وَمِثْلٌ.

قوله جل ذكره: ﴿تَنْحَنُّ أَعْلَىٰ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾.

لَبَّسُوا على رسول الله - ﷺ - أحوالهم، وأظهروا الوفاق من أنفسهم، ففَضَّحَهُم اللَّهُ تعالى، وكشَفَ أسرارهم، وَبَيَّنَّ مقابحهم، وَهَتَكَ أَسْتَارَهُمْ، فما تنطوي عليه السرية لا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ لأهل البصيرة بما يبدو على الأسيرة.

قوله جل ذكره: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

عابوه بما ليس بنقيصة في نفسه حيث قالوا: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي ذا سِحْرِ. وأي نقيصة كانت له إذا كان ﷺ - من جملة البشر؟ والحق سبحانه وتعالى متولٍ نصرته، ولم يكن تخصيصه ببنية، ولا بصورة، ولا بحرفة، ولم يكن منه شيء بسببه وإنما بآن شرفه لجملة ما تعلَّقه به لُطْفُهُ القديم - سبحانه - ورحمته.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَقًا أَوَإِنَّا لَبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

أَفْرُوا بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ، ثم أنكروا قدرته على إعادتهم بعد عَدَمِهِمْ، ولكن... كما جاز أن يوجدهم أولاً وهم في كتم العدم ولم يكن لهم عين ولا أثر، ولكنهم كانوا في متناول القدرة ومتعلق الإرادة، فَمِنْ حَقِّ صاحب القدرة والإرادة أن يعيدهم إلى الوجود مرة أخرى.. وهكذا إذا رَمَدَتْ عَيْنُ قَلْبٍ لَمْ يَسْتَبْصِرْ صاحبه.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِصُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

أخبر - سبحانه وتعالى - أنه لا يتعصى عليه مقدور لأنه موصوف بقدرة أزلية، وَقُدْرَتُهُ عَامَّةُ التعلق: فلا المشقة تجوز في صفته ولا الرفاهية. فالخلق الأول والإعادة عليه سيان؛ لا مِنْ هَذَا عَائِدٌ إِلَيْهِ وَلَا مِنْ ذَاكَ، لأن قِدَمَهُ يمنع تأثير الحدوث فيه.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون. فالحمد بمعنى الشكر، وإنما يشكر العبد على النعمة والآية تدل على أنهم - وهم في قبورهم - في نعمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

القول الحسن ما يكون للقاتل أن يقوله. ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحسن، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركه. ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه. ويقال الأحسن من القول إقرار المُجِبِّ بعبودية محبوبة.

ويقال أحسن قول من المذنبين الإقرار بالجُرم، وأحسن قول من العارفين الإقرار بالعجز عن المعرفة، قال ﷺ: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

سَدَّ على كلِّ أحدٍ طريق معرفته بنفسه ليتعلّق كلُّ قلبه بربه. وجعل العواقب على أربابها مشبهة، فقال ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾. ثم قدّم حديث الرحمة على حديث العذاب، فقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ وفي ذلك تَرْجُّحٌ للأمل أن يقوى.

ويوصف العبدُ بالعلم ويوصف الربُّ بالعلم، ولكن العبد يعلم ظاهر حاله، وعلمُ الرب يكون بحاله وبمآله، ولهذا فالواجب على العبد أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، وهذا معنى: ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا نَبَأُ دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

فَضَّلَ بعضُ الأنبياء على بعض في النبوة والدرجة، وفي الرسالة واللطائف والخصائص. وجعل نبينا - ﷺ - أفضلهم؛ فهم كالنجوم وهو بينهم بَدْرٌ، وهم كالبدور وهو بينهم شمس، وهم شمسٌ وهو شمسُ الشمس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

استعينوا فيما يستقبلكم بالأصنام التي عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنفعكم عبادة شيء من دون الله، ولا يضركم ترك ذلك، ولقد قيل في الخبر: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (صلاة ٢٢٢)، وأبو داود (صلاة ١٤٨)، (وتر، ٥) والنسائي (قيام الليل ٥١) والترمذي (دعوات ٧٥ - ١١٢)، وابن ماجه (دعاء، ٣)، (إقامة ١١٧)، والموطأ (مس القرآن ٣١)، وأحمد بن حنبل ١، ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦، ٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي (زهد، ١١)، وابن ماجه (فتن ١٢)، والموطأ (حسن الخلق ٣)، (كلام ١٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

يعني الذين يعبدونهم ويدعونهم - كالمسيح وعزير والملائكة - لا يملكون نفعا لأنفسهم ولا ضرا، وهم يطلبون الوسيلة إلى الله أي يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاء إحسان الله، وطمعاً في رحمته، ويخافون العذاب من الله... فكيف يرفعون عنكم البلاء وهم يرجون الله ويخافونه في أحوال أنفسهم؟

ويقال في المثل: تعلق الخلق بالخلق تعلق مسجون بمسجون.

ويقال: إذا انضم الفقير إلى الفقير ازدادا فاقة.

ويقال إذا قاد الضريز ضريراً سقطاً معاً في البئر، وفي معناه أنشدوا:

إذا التقى في حدبٍ واحدٍ سبعون أعمى بمقادير

وسَّيَّروا بعضهم قائداً فكلُّهم يسقط في البير

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَن مِّن قَرِيْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلَافِكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

العذاب على أقسام: فالألم الذي يرد على النفوس والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى ما يرد على القلوب والسرائر؛ فعذاب القلوب لأصحاب الحقائق أحد في الشدة مما يصيب أصحاب الفقر والقلة.

ثم إن الحق سبحانه أجرى سُنَّته بأن من وصلت منه إلى غيره راحة انعكست الراحة إلى موصلها، وبخلاف ذلك من وصلت منه إلى غيره وخشة عادت الوحشة إلى موصلها. ومن سام الناس ظلماً وخسفاً فبقدر ظلمه يعذبه الله - سبحانه وتعالى - في الوقت بتنغيص العيش^(١) واستيلاء الغضب من كل أحد عليه، وتترجم ظنونه وتنقسم أفكاره في أحواله وأشغاله، ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية لعلم ما طعم الحياة... ولكن حرموا النعم، وما علموا ما مُنوا به من النعم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا نُمُودَ الْأَنَافَةِ مُبِيرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

أجرى الله سُنَّته أنه إذا أظهر آية افترحنّها أمة من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أن يعجل لها العقوبة، وكان المعلوم والمحكوم به ألا يجتاح العذاب القوم الذين كانوا في وقت الرسول - عليه السلام - لأجل من في أصلابهم من الذين علم أنهم يؤمنون؛ فلذلك أجّر عنهم العذاب الذي تعجلوه.

(١) تنغص العيش: تكدر.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تُرِيدُ بِالْأَيْكَةِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله؛ فإن لم يخافوا وَقَعَ عليهم العذاب. ثم إنه عَلِمَ أنه لا يفوته شيء بتأخير العقوبة عنهم فَأَخَّرَ العذاب. وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حُكْمِهِ وَعِلْمِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

الإيمان بما خَصَّصْنَاكَ به امتحان لهم وتكليف، لِيَتَمَيَّزَ الصَّادِقُ مِنَ الْمُنَافِقِ، والمؤمن من الجاحد؛ فالذين تَذَارَكْتُهُمُ الحماية وقفوا وثبتوا، وَصَدَّقُوا بما قيل لهم وحققوا. وأما الذين خَامَرَ الشُّكُّ قُلُوبَهُمْ، ولم تَبَاشِرْ خلاصته التوحيد أسرارهم، فما ازدادوا بما امْتَحِنُوا به إلا تَحِيرًا وضلالاً وَتَبَلُّدًا.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

امتنع الشقي وقال: لا أسجد لغيرك بوجه سَجَدْتُ لَكَ به، وكان ذلك جهلاً منه، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثراً، ولمحيط نفسه تاركاً.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَخْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

لو علقت به ذرّة من المعرفة والتوحيد لم يحطب على نفسه بالإضلال والإغواء، لكنّه أقامه الحقّ بذلك المقام، وأنطقه بما هو لقلوب أهل التحقيق مُتَضَحٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَأَسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَلْبَبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَّلِكَ وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

هذا غاية التهديد، وفيه إشارة وبيان بألا مرأى ولا تفويت، ولو أخر عقوبة قوم فإن ذلك إهمال لا إهمال، ومكر واستدراج لا إنعام وإكرام.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾: أي افعل ما أمكنك، فلا تأثير لفعلك في أحد، فإن المنشئ والمبدع هو الله.. وهذا غاية التهديد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

السلطان الحجة، فالآية تدل على العموم، ولا حجة للمعذر على أحد، بل الحجة لله وحده.

ويقال السلطان هو التَّسَلُّط، وليس لإبليس على أحد تسلط؛ إذ المقدور بالقدرة الحادثة لا يخرج عن محل القدرة الإلهية، فالحادثات كلها تحدث بقدرة الله؛ فلا لإبليس ولا لغيره من المخلوقين تسلط من حيث التأثير في أحد، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم.

ويقال أراد بقوله: ﴿عِبَادِي﴾ البخواص من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة والرعاية من قِبَلِ الله؛ فإن وساوس الشيطان لا تضرهم لالتجائهم إلى الله، ودوام استجارتهم بالله، ولهذا فإن الشيطان إذا قَرُبَ من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم.

ويقال إن فرار الشيطان من المؤمنين أشد من فرار المؤمنين من الشيطان. والخواص من عباده هم الذين لا يكونون في أسر غيره، وأما من استعبده هواه، واستمكنت منه الأطماع، واسترقت كل خسيصة ونقيصة فلا يكون من جملة خواصه. وفي الخبر «تَعَسَّ عبد الدرهم تعس عبد الدينار»^(١).

ويقال في ﴿عِبَادِي﴾ هم الْمُتَفَيِّثُونَ في ظلال عنايته، الْمُتَبَرِّونَ عن حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، المتفردون بالله بحسن التوكل عليه ودوام التعلق به.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

تعرف إلى عباده بخلقه وإنعامه، فما من حادث من عين أو أثر أو طلل أو غبر إلا وهو شاهد على وحدانيته، دال على ربوبيته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُنا فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾.

جبل الإنسان على أنه إذا أصابته نقمة، أو مسته محنة فزع إلى الله لاستدفاعها، وقد يُعْتَقَد أنهم لن يعودوا بعدها إلى ما ليس فيه رضاء الله، فإذا أزال الله تلك النقمة وكشفت تلك المحنة عادوا إلى ما عنه تابوا، كأنهم لم يكونوا في ضرر مسهم، وفي معناه أنشدوا:

فكم قد جهلتم ثم عُدنا بِجِلْمِنا أحباءنا كم تجهلون! وتَحْلُم!

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤١٣٥، ٤١٣٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٥٩/٩، ٢٤٥/١٠) والهيثم في (مجمع الزوائد ٢٤٨/١٠، ٢٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣٥٦/٥، ٨/١٥٢)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢٤٧/٢)، وابن كثير في (التفسير ١٧٦/٢، ٢٩٣/٧)، والقرطبي في (التفسير ٢٣٣/١٦، ١٤١/١٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ١١٥/٢)، وابن حجر في (تغليق التعليق ٩٥٢)، وفي (فتح الباري ٢٥٣/١١، ٢٥٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٦١)، والشجري في (الأمالي ١٥٤/٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/٤٦، ٢٣٠/٣، ٣٧٦/٤)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٥٣/٨).

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنْتُ أَنْ يَخِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ۝﴾.

الخوف ترُفُّ العقوبات مع مجاري الأنفاس - كذلك قال الشيخ^(١). وأعرفهم بالله أخوفهم من الله. وصنوف العذاب كثيرة؛ فكم من مسرورٍ أوَّلَ ليله أصبح في شدة! وكم من مهموم بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جاءته البشرى بكمال النعم! وفي معناه قالوا: إن من خاف البيات لا يأخذه السُّبات. ووصفوا أهل المعرفة فقالوا:

مستوفزون على رَجُلٍ كأنهمو يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝﴾.

المراد من قوله: ﴿بَنِي آدَمَ﴾ هنا المؤمنون لأنه قال في صفة الكفار: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. والتكريم التكثير من الإكرام، فإذا حَرَمَ الكافر الإكرام.. فمتى يكون له التكريم؟

ويقال إنما قال: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابل فعلٍ، أو مُعلَّلاً بِعِلَّةٍ، أو مُسَبَّباً باستحقاقٍ يوجب ذلك التكريم.

ومن التكريم أنهم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة.

ومن التكريم أنه على أي وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه خَاطَبُهُ، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سألَهُ.

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته، فلو تكرر منه جُرْمُهُ ثم توبته يضاعف له قبوله التوبة وعفوهُ.

ومن التكريم أنه إذا شَرَعَ في التوبة أَخَذَ بيده، وإذا قال: لا أعود - يقبل قوله وإن عَلِمَ أنه ينقض توبته.

ومن التكريم أنه زَيْنَ ظاهِرهم بتوفيق المجاهدة، وَحَسَنَ باطنهم بتحقيق المشاهدة.

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم، وغفر لهم قبل استغفارهم، كذا في

(١) هذا القول للجنيد (انظر الرسالة القشيرية ص ١٢٧) وهو فيها: سُئل الجنيد عن الخوف فقال: توقع العقوبة مع مجاري الأنفاس.

الأثر: «أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني».

ومن تكريم جملتهم أنه قال لهم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن.

وكما خَصَّ بني آدم بالتكريم خَصَّ أمة محمد - ﷺ - منهم بتكريم مخصوص، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] و ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] وقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن التكريم قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه.

ومن التكريم لقوم توفيق صِدْقِ الْقَدَم، ولقوم تحقيق علو الهِمَم. قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: سَخَّرَ الْبَحْرَ لَهُمْ حتى ركبوا في السفن، وسَخَّرَ الْبَرَّ لَهُمْ حتى قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧].

ويقال محمول الكرام لا يقع، فإن وَقَعَ وَجَدَ مَنْ يأخذ بيده.

ويقال الإشارة في حملهم في البر ما أوصل إليهم جهراً، والإشارة بحديث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سراً.

ويقال لَمَّا حَمَلَ بَنُو آدَمَ الْأَمَانَةَ حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ، فَحَمَلٌ هُوَ جَزَاءُ حَمَلٍ، حَمَلٌ هُوَ فِعْلٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ وَحَمَلٌ هُوَ فَضْلٌ مَنْ لَمْ يَزَلْ.

قوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: الرزق الطيب ما كان على ذكر الرازق؛ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ غَائِباً بقلبه^(١) ولا غافلاً عن ربّه استطاب كُلَّ رزقٍ، وأنشدوا:

يا عاشقي إني سَعِذْتُ شَرَاباً لو كان حتى علقماً أو صاباً

قوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾: أي الذين فضلناهم على خلق كثير، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كُلِّ مَنْ خَلَقْنَا، وذلك التفضيل في الخلقة. ثم فاضل بين بني آدم في شيء آخر هو الخلق الحسن، فَجَمَعَهُمْ فِي الْخُلُقَةِ - التي يفضلون بها سائر المخلوقات - ومايز بينهم في الخلق.

ويقال: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾: هذا اللفظ للعموم، والمراد منه الخصوص، وهم

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الغيبة: هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحسن بما ورد عليه، ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكير عقاب. (الرسالة القشيرية ص ٦٩).

المؤمنون، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين، فَفُضِّلَ أوليائه على كثير ممن لم يبلغوا استحقاقَ الولاية.

ويقال فضّلهم بالألّا ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئَاتٍ مِمَّنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ يَمِينُهُ ۖ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ قِتْلًا﴾ .

إِمَامٌ كُلُّ أَحَدٍ مَن يَفْتَدِي بِهِ، وَلَكِنْ.. مِنْ إِمَامٍ يَهْتَدِي بِهِ مُقْتَدِيهِ، وَمِنْ إِمَامٍ يَتَرَدَّى بِهِ مُقْتَدِيهِ.

﴿فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ، فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ : لِكَمَالِ صَحْوِهِمْ وَقِيَادَةِ عَقْلِهِمْ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ كِتَابَهُمْ بِيَمِينِهِمْ فَهُمْ لَخَوْفِهِمْ وَتَرَدُّدِهِمْ لَا يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ .
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَصْدَى سَبِيلًا﴾ .
فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى عَنْ مَعَايِنَتِهِ بِبَصِيرَتِهِ .

في الآخرة عذابه الفرقة وتضاف إليها الحزقة - لهذا فهو ﴿وَأَصْلُ سَيِّئًا﴾ .
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُ
 وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ .

ضربنا عليك سראقات العصمة، وآويناك في كنف الرعاية، وحفظناك عن خطر اتباعك هواك، فالزلة منك محال، والافتراء في نعتك لا يجوز. . . ولو جَنَحْتَ لحظَةً إلى الخلاف لَضَاعَفْتَ عليك تشديدات البلاء، لكمالِ قَدْرِكَ وَعُلُوِّ شأنِكَ؛ فَإِنَّ مَنْ كان أعلى درجةً فَدُنِيَهِ - لو حصل - أشدُّ تأثيراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَا أَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

لو وكلناكَ وَنَفْسَكَ، ورفعنا عنكَ ظِلَّ الْعَصْمَةِ لِأَلَمَنْتَ بِشَيْءٍ مِمَّا لَا يَجُوزُ مِنْ مَخَالَفَةِ أَمْرِنَا، وَلَكِنَّا أَفْرَدْنَاكَ بِالْحِفْظِ، فَلَا تَتَقَاصِرُ عَنْكَ آثَارُهُ، وَلَا تَغْرُبُ عَنْ سَاحَتِكَ أَنْوَارُهُ.

قوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ...﴾ الآية هبوط الأكابر على حسب صعودهم، ومِخْنُ الأَحِبَّةِ وَإِنْ قُلْتُ جَلْتُ، وفي معناه أنشدوا:

أنت عيني وليس من حق عيني
غضُّ أجفانها على الأقداء^(١)

(١) الاقضاء: (ج) القذى: ما يقع في العين وما ترمى به (اللسان ١٥/١٧٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَسْتَمْتَعُ بِحَيَاتِهِ بَعْدَ مَضِيِّ الْأَعْزَةِ وَالْأَكَابِرِ غَلِطَ فِي حَسَابِهِ، وَإِنْ الْحَسُودَ لَا يَسُودُ:

وفي تعبٍ مَنْ يَخْشُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرْبٍ
وَالْأَرْضُ كُلُّهَا مِلْكٌ لَنَا، وَتُقَلَّبُ أَوْلِيَاءُنَا فِي تَرَدُّدِهِمْ فِي الْبِلَادِ وَتَطَوُّفِهِمْ فِي
الْأَقْطَارِ، تَرَدُّدًا عَلَى بَسَاطِنَا، وَتُقَلَّبُ فِي دِيَارِنَا؛ فَالْبَقَاعُ لَهُمْ سَوَاءٌ، وَأَنْشَدُوا:

فَسِرْ أَوْ أَقِمْ وَقِفْ عَلَيْكَ مَحَبَّتِي مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَصُونُ
قوله جلّ ذكره: ﴿سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.
الْحَقُّ أَمْضَى سُنَّتِهِ مَعَ الْأَوْلِيَاءِ بِالْإِنْعَامِ، وَمَعَ أَعْدَائِهِ بِالْإِدْغَامِ^(١)، فَلَا لِهَذِهِ أَوْ
هَذِهِ تَحْوِيلٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ لَكَ عَسَى أَنْ يَلَيْلَ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ
الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

الصَّلَاةُ قَرْعُ بَابِ الرِّزْقِ. وَالصَّلَاةُ الْوُقُوفُ فِي مَحَلِّ الْمُنَاجَاةِ.

وَالصَّلَاةُ اعْتِكَافُ الْقَلْبِ فِي مَشَاهِدِ التَّقْدِيرِ.

وَيُقَالُ هِيَ الْوُقُوفُ عَلَى بَسَاطِ النَّجْوَى. وَفَرَّقَ أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ لِيَكُونَ لِلْعَبْدِ عَوْدٌ
إِلَى الْبَسَاطِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مَرَاتٍ.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - عَلَى لِسَانِ الْعِلْمِ.
وَأَمَّا عَلَى لِسَانِ الْقَوْمِ فَإِنَّ قُرْآنَ الصَّبْحِ - الَّذِي هُوَ وَقْتُ إِتْيَانِهِ - يُبْعَدُ مِنَ النَّوْمِ وَكَسَلِ
النَّفْسِ فَلَهُ هَذِهِ الْمِزْيَةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا﴾.

اللَّيْلُ لِأَحَدِ أَقْوَامٍ: لِطَالِبِي النِّجَاةِ وَهُمْ الْعَاصُونَ مَنْ جَنَحَ مِنْهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ، أَوْ
لِأَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ وَهُمْ الَّذِينَ يَجِدُّونَ فِي الطَّاعَاتِ، وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، أَوْ
لِأَصْحَابِ الْمُنَاجَاةِ مَعَ الْمَحْبُوبِ عِنْدَمَا يَكُونُ النَّاسُ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْغِيْبَةِ.

وَيُقَالُ اللَّيْلُ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ: لِلْمَطِيعِ وَالْعَاصِي: هَذَا فِي احْتِيَالِ أَعْمَالِهِ، وَهَذَا فِي
اعْتِدَارِهِ عَنْ قَبِيحِ أَعْمَالِهِ.

(١) الدغم: أن يميل وجه الفرس إلى السواد.

والمقام المحمود هو المخاطبة في حال الشهود، ويقال الشهود.

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر. ويقال هو انفراده يوم القيامة بما حُصَّ به - ﷺ - بما لا يشاركه فيه أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾.

أي ادخليني إدخال صدقي وأخرجني إخراج صدقي. والصدق أن يكون دخوله في الأشياء بالله لا لغيره، وخروجه عن الأشياء بالله ﷺ لا لغيره.

﴿وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾: فلا ألاحظ دخولي ولا خروجي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوْقًا﴾.

أراد بالحق ما هنا الإسلام والدين، وأراد بالباطل الكفر والشرك، والحق المطلق هو الموجود الحق، والحق المقيد ما كان حسناً في الاعتقاد والفعل والنطق، والباطل نقيض الحق. واللّه حق: على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحِقُّ الحق.

ويقال الحق ما كان لله، والباطل ما كان لغير الله.

ويقال الحق من الخواطر ما دعا إلى الله، والباطل ما دعا إلى غير الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ وَلَا يَزِيْدُ الظَّٰلِمِيْنَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

القرآن شفاء من داء الجهل للعلماء، وشفاء من داء الشرك للمؤمنين، وشفاء من داء النكرة للعارفين، وشفاء من لواجع الشوق للمحبين، وشفاء من داء الشطط للمريدين والقاصدين، وأنشدوا:

وَكُتِبَكَ حَوْلِي لَا تَفَارِقْ مُضْجِعِي وفيها شفاء للذي أنا كاتِمٌ

قوله: ﴿وَلَا يَزِيْدُ الظَّٰلِمِيْنَ إِلَّا خَسَارًا﴾: الخطاب خطاب واحد، والكتاب كتاب واحد، ولكنه لقوم رحمة وشفاء، ولقوم سخط وشفاء. قوم أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء، وقوم أغشى على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شفاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا أُنْمِتْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ عُرْصًا وَتَوَّجَّاهُ بَحَائِبُهُ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾.

إذا نزعنا عنه موجبات الخوف، وأرخبنا له حبل الإمهال، وهياً له أسباب الرفاهية اعترته مغاليط النسيان، واستولت عليه دواعي العصيان، فأعرض عن الشكر، وتباعد عن بساط الوفاق.

ويقال إعراضه في هذا الموضوع نسيائه، ورؤية الفضل منه لا من الحق، وتوهمه أن ما به من النعم فباستحقاق طاعة أخلصها أو شدة قاساها. . وهذا في التحقيق شيزك.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾.

كُلٌّ يترشح بمودع باطنه، فالأسيرة تدل على السريرة، وما تُكِنُّه الضمائر يلوح على السرائر، فَمَنْ صفاً مِنَ الكدورة جوهره لا يفوح منه إلا نُشْرُ مناقبه، وَمَنْ طَبَعَتْ على الكدورة طينته فلا يشمُّ مَنْ يحوم حوله إلا ريح مثالبه.

ويقال حركات الظواهر تدلُّ وتُخْبِرُ عن بواطن السرائر.

ويقال حَبٌّ (....) ^(١) لا يُنْبِتُ غَضُّ العود.

ويقال من عُجِنَتْ بماء الشقوة طينته، وطَبَعَتْ على النكرة جِبِلَّتُهُ ^(٢) لا تسمح بالتوحيد قريحته، ولا تنطق بالتوحيد عبارته.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أرادوا أن يجادلوه ويُغْلَطُوهُ فَأَمَرَهُ أن ينطق بلفظ يُفَصِّحُ عن أقسام الروح؛ لأنَّ ما يُطْلَقُ عليه لفظُ ﴿الرُّوحِ﴾ يدخل تحت قوله تعالى:

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القلب، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق المحموده، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرؤية والأذن محلَّ السمع... إلى آخره، والبصير والسامع إنما هو الجملة - وهو الإنسان - فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح، ومحل الأوصاف المذمومة النفس، والحكم أو الاسم راجع إلى الجملة) ^(٣).

وفي الجملة الروح مخلوقة، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح في جسده.

والروح لطيفة تقررت للكافة طهارتها ولطافتها، وهي مخلوقة قبل الأجساد بالوف من السنين. وقيل إنه أدركها التكليف، وإن لها صفاء التسبيح، وصفاء المواصلات، والتعريف من الحق.

(١) بياض في الأصل.

(٢) الجبلَّة: الخلقة (ج) جيلات.

(٣) ما بين قوسين صُحِّح استناداً للرسالة القشيرية ص ٨٧.

﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْغَيْرِ إِلَّا قَلِيلًا﴾: لأن أحداً لم يشاهد الروح ببصره .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِأَلَدِيَّ أَوْحِيَانًا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾.

سُئِلَ الحقّ - سبحانه - مع أحبائه وخواص عبادِهِ أن يُدِيمَ لهم افتقارهم إليه، ليكونوا في جميع الأحوال مُنفادين لجريانِ حُكْمِهِ، وألا يتحركَ فيهم عِزُّ بخلافِ اختيارِهِ، وعلى هذه الجملة خاطب حبيبَهُ - صلوات الله عليه - بقوله: ﴿وَلَكِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِأَلَدِيَّ أَوْحِيَانًا إِلَيْكَ﴾: فمن كان استقلاله بالله يقدّم مرادَ سيده - في العزل والولاية - على مراد نفسه .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَافٍ﴾ .
والمقصودُ من هذا إدامةُ تَفَرُّدِ سِرِّهِ ﷺ به - سبحانه - دونَ غيره .
قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَّيْنِ أَجْتَمَعَتِ آلاُئِشٌ وَآلِهِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ .

سائر الأنبياء معجزاتهم باقيةٌ حُكْمًا، ونبينا - ﷺ - معجزته باقيةٌ عينًا، وهي القرآن الذي نتلوه، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفِهِ .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ .

لا شيءَ أَخْطَى عند الأحباب من كتاب الأحباب، فهو شفاء من داء الضنى، وضيء لأسرارهم عند اشتداد البلاء، وفي معناه أنشدوا:

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتم
قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمُتَكَبِّرَ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُفُوقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ .

افترحوا الآيات بعد إزاحة العِلَّةِ وزوالِ الحاجة، فَرَكَّضُوا في مضمارِ سوء الأدب، وحَرَمُوا الوُضْلَةَ والقُرْبَةَ . ولو أُجِيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُحْدًا ونكْرَةً، وقد قيل:

إنَّ الكريمَ إذا حباك بوْدَه سَتَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا
وكذا المملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كان وکانا

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾: قل يا محمد: سبحان ربي! من أين لي الإتيان بما سألتكم من جهتي؟ فهل وُضِفي إلا العبودية؟ وهل أنا إلا بشر؟ قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾.

تعجبوا مما ليس بمحلّ شبهة، ولكن حملهم على ذلك فرطُ جهلهم، ثم أصرّوا على تكذيبهم وجحدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾.

الجنسُ إلى الجنسِ أميلُ، والشكلُ بالشكلِ آنسُ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ ملائكةً لجعلنا الرسولَ إليهم ملكًا، فلمّا كانوا بشرًا فلا ينبغي أن يُستبعدَ إرسالُ البشرِ إلى البشرِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

الحقُّ - سبحانه - هو الحاكم وهو الشاهد، ولا يُقاسُ حُكْمُهُ على حُكْمِ الخلقِ، ولا يجوز في صفَةِ المخلوقِ أن يكونَ الحاكمُ هو الشاهد، فكما لا تشبه ذاته ذاتُ الخلقِ لا تشبه صفته صفَةُ الخلقِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنْذِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

مَنْ أَرَادَهُ بالسعادة في آزاله استخلصه في آباده بأفضاله، وَمَنْ عَلِمَهُ في الأزل بالشقاء وَسَمَهُ وفي أيده بِسِمَةِ الأعداء. فلا لِحُكْمِهِ تحويل، ولا لِقَوْلِهِ تبديل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا زُرْقًا أَنَا وَمَنْ لَنَا مِنْ آيَاتِهِ إِلَّا الظُّلُمَاتُ الْوَسْطَىٰ﴾.

لَمَّا أَصْرُوا على تكذيبهم جازاهم الحقُّ بإدامة تعذيبهم، ولو ساعدهم التوفيقُ لَوَجَدَ منهم التحقيق، لكنهم عَدِمُوا التأييد فحَرِمُوا التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفْرًا﴾.

مَهَّدَ بهذه الآية طريق إثبات القياس، فلم يغادر في الكتاب شيئاً من أحكام الدين لم يؤيده بالدليل والبيان، فَعَلِمَ الكُلُّ أن الركونَ إلى التقليد عينُ الخطأ والضلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾.

إذ البُخلُ غريزة الإنسان، والشحُّ سجيته [.....] ^(١) المعروف لا يعرف الخلقه ^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

هي أمارات كرامته وعلامات محبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَّابِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَسْحُورًا﴾.

أنت - يا فرعون - سلكت طريق الاستدلال فَعِلِمْتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا مِنْ قِبَلِ الله، ولكِنَّكَ رَكَنْتَ إلى الغفلة في ظلمات الجهل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعَزَّنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾.

أراد فرعون إهلاك بني إسرائيل واستئصالهم، وأراد الحق - سبحانه - نصرتهم وبقائهم، فكان ما أراد الحق لا ما كاد اللعين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

أورثهم منازل أعدائهم، ومكنهم من ذخائرهم ومساكنهم، واستوصى بهم شُكْرَ نعمته، وعَرَّفهم أنهم إن سلَكوا في العصيان مَسْلَكَ مَنْ تَقَدَّمهم ذاقوا من العقوبة مثل عقوبتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا﴾.

القرآن حق، ونزوله بحق، ومُنَزَّلُه حق، والمُنَزَّلُ عليه حق، فالقرآن بحق أنزل ومن حق أنزل وعلى حق أنزل. وقد فَرَّقَ القرآن لِيُهَيِّئَ عليه - صلوات الله عليه - جَفَظَه، وليكثر تردد الرسول من ربه عليه، وليكون نزوله في كل وقت وفي كل حادثة وواقعة دليلاً على أنه ليس مما أعان عليه غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ آمِنُوا بِمَا أَوْحَى إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمُ إِنَّ الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْعِلمِ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ

يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠﴾

إن آمنتم حصل النفع لكم، وإن جحدتم ففي إيمان من آمن من أوليائنا عنكم خلف، وإن الضّرر عائد عليكم.

وإن من أضأننا عليهم شمس إقبالنا لتشرق أنوار معارفهم؛ فإذا ثلثت عليهم آياتنا سجدوا بذل جحدهم، واستجابوا بدل تمردهم، وقابلوا بالتصديق ما يقال لهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

تأثيره في قلوب قوم يختلف؛ فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصّر، وتأثير السماع في أنوار الموحدين بالتحير؛ تبصّر العلماء بصحة الاستدلال، وتحير الموحدين في شهود الجمال والجلال.

وبكاء كل واحد على حسب حاله: فالتائب يبكي لخوف عقوبته لما أسلفه من زلته وخوبته، والمطيع يبكي لتقصيره في طاعته، ولكيلا يفوته ما يأمله من مثته.

وقوم يبكون لاستبهاام عاقبتهم وسابقتهم عليهم.

وآخرون بكاؤهم بلا سبب متعين. وآخرون يبكون تحسراً على ما يفوتهم من الحق.

والبكاء عند الأكابر معلول، وهو في الجملة يدل على ضعف حال الرجل، وفي معناه أنشدوا:

خُلِقْنَا رَجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْأَسَى وتلك الغواني للبكا والمآثم

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾.

من عظيم نعمته - سبحانه - على أوليائه تنزّههم بأسرارهم في رياض ذكره بتعداد أسمائه الحسنی من روضة إلى روضة، ومن مأنس إلى مأنس.

ويقال الأغنياء ترددهم في بساتينهم، والأولياء تنزههم في مشاهد تسبيحهم، يستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

لا تجهر بجميعها، ولا تخافت بكّلها، وارفع صوتك في بعضها دون بعض.

ويقال ولا تجهر بها جهراً يسمعه الأعداء، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾: يكون للأحباب مسموعاً، وعن الأجانب ممنوعاً.

ويقال ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾: بالنهار، ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾: بالليل.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾.

أَحْمَدُهُ بِذِكْرِ تَقْدِسِهِ عَنِ الْوَلَدِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَلَا وَلِيَّ لَهُ مِنَ الذَّلِّ؛ إِمَّا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَذَلَّ فَيَحْتَاجُ إِلَى وَلِيٍّ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُوَالَ أَحَدًا مِنْ أَجْلِ مَذَلَّةٍ بِهِ فَيُدْفَعُهَا بِمَوَالِيهِ. وَيُقَالُ اشْكُرْهُ عَلَى نِعْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ حَيْثُ عَرَّفَكَ بِذَلِكَ.

وَيُقَالُ لَهُ الْأَوْلِيَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْتَرِبُهُمْ بِذُلِّهِمْ، إِذْ يَصِيرُونَ بِعِبَادَتِهِ أَعِزَّةً.

﴿وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ بَأَنَّ تَعْلَمَ أَنَّكَ تَصِلُ إِلَيْهِ بِهِ لَا بِتَكْبِيرِكَ.

السورة التي يذكر فيها الكهف

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّحْلَيْنِ الرَّحِيرِ﴾.

ما سَعِدَتْ القلوبُ إلا بسماع اسم الله، وما استنارت الأسرارُ إلا بوجود الله، وما طَرِبَتْ الأرواحُ إلا بشهود جلال الله.

سماع ﴿يَسِّرْ اللَّهُ﴾ راحةً القلوبِ وضياؤها، وشفاء الأرواح ودواؤها.
﴿يَسِّرْ اللَّهُ﴾ قُوَّةُ العارفين؛ بها يزول كدُّهم وعناؤهم، وبها استقلالهم وبقاؤهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

إذا حُمِلَ ﴿الْحَمْدُ﴾ هنا على معنى الشكر فإنزال الكتاب من أجل نِعَمِهِ، وكتاب الحبيب لدى الحبيب أجلُّ مَوْقِعٍ وأشرف محلٍّ، وهو من كمال إنعامه عليه، وإن سَمَاءَ - عليه السلام - عَبْدُهُ فهو من جلائل نِعَمِهِ عليه لأنَّ من سَمَاءَ عَبْدُهُ جَعَلَهُ من جملة خواصّه.

وإذا حُمِلَ ﴿الْحَمْدُ﴾ في هذه الآية على معنى المدح كان الأمر فيه بمعنى الشناء عليه - سبحانه، بأنّه المَلِكُ الذي له الأمرُ والنهيُّ والحكمُ بما يريد، وأنه أَعَدَّ الأحكامَ التي في هذا الكتاب للعبيد، وسَمَاءَ ﷺ عَبْدُهُ لَمَّا كان فانيًا عن حظوظه، خالصًا لله بقيامه بحقوقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَنَّمَا لِيُذْنِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾.

﴿فَتَنَّمَا﴾: أي صانه عن التعارض والتناقض، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربِّ عزيز.

«والْيَاسُ الشَّدِيدُ»: مُعْجَلُهُ الفراق، ومُؤَجَّلُهُ الاحتراق.

ويقال هو البقاء عن الله تعالى، والابتلاء بغضب الله.

ومعنى الآية لينذرهم بئاس شديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَبْشِرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْمُكُونَ الصَّلَاحَ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

والعملُ الصالحُ ما يصلح للقبول، وهو ما يُؤدَّى على الوجه الذي أُمِرَ به. ويقال العمل الصالح ما كان بنعت الخلوص، وصاحبُه صادق فيه.

ويقال هو الذي لا يستعجل عليه صاحبه حَظًّا في الدنيا مِنْ أَخَذِ عِوَضٍ، أو قَبُولِ جَاوٍ، أو انعقادِ رياسة... وما في هذا المعنى.

وحصلت البشارة بأنَّ لهم أجراً حسناً، والأجرُ الحَسَنُ ما لا يجري مع صاحبه استقصاء في العمل.

ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل.

ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذَكَّرُ صاحبه تقصيره، ويستر عنه عيوب عمله.

قوله جل ذكره: ﴿تَكُنَّ فِيهِ أَبَدًا﴾.

البشارة منه أنَّ تلك النعم على الدوام غير منقطعة، وأعظم من البشارة بها قوله: ﴿وَنُذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

قالتهم القبيحة نتيجة جهلهم بوحداية الله، ولقد توارثوا ذلك الجهل عن أسلافهم؛ والحيَّة لا تَلِدُ حَيَّةً!

كَبُرَتْ كلمتهم في الإثم لما خَصَّت في المعنى. وَمَنْ نطق بما لم يحصل له به إذن لِحَقِّه هذا الوصف. وَمَنْ تكلَّم في هذا الشأن قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء. قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا كَبُرَتْ نَفْسُكَ عَلَى أَنْ تُثَرِّمَهُمْ إِنْ لَمْ يَأْمُرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أُسْفًا﴾.

مِنْ فَرَطِ شفقته - ﷺ - داخله الحزن لامتناعهم عن الإيمان، فهوَن الله - سبحانه - عليه الحال، بما يشبه العتاب في الظاهر؛ كأنه قال له: لِمَ كل هذا؟ ليس في امتناعهم - في عَدْنَا - أثر، ولا في الذين من ذلك ضرر. فلا عليك من ذلك.

ويقال أشهده جريان التقدير، وعَرَفَه أنه - وإن كان كُفَرُهم منهياً عنه في الشرع - فهو في الحقيقة مُرَادُ الحق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾.

ما على الأرض زينة لها تُذَكِّرُ بالأبصار، وممن على الأرض من هو زينة لها يُعَرِّفُ بالأسرار. وإنَّ قيمة الأوطان لِقُطَانُها، وزينة المساكن في سُكَّانها.

ويقال العُباد بهم زينة الدنيا، وأهل المعرفة بهم زينة الجنة.

ويقال الأولياء زينة الأرض وهم أمانُ مَنْ في الأرض.

ويقال إذا تلالأت أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضيائهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَنَبْلُوَنَّ هُمْ أَخْسَنُ عَمَلًا﴾.

أحسنهم عملاً أصدقهم نيةً، وأخلصهم طوية^(١).

ويقال أحسنهم عملاً أكثرهم احتساباً؛ إذ لا ثواب لمن لا حصة له، وأعلى من هذا بل وأولى من هذا فأحسنهم عملاً أشدّهم استصغاراً لفعله، وأكثرهم استحقاراً لطاعته؛ لشدة رؤيته لتقصير فيما يعمله، ولانتقاصه أفعاله في جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره.

ويقال أحسنُ أعمال المرءَ نظرُهُ إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصغار، لقول الشاعر:

وأكبرُهُ من فِعْلِهِ وأعظمُهُ تصغيرُهُ فِعْلُهُ الذي فَعَلَهُ
معناه: أكبرُ مِنْ فعلِهِ - الذي هو عطاؤه وبَذْلُهُ - تَقْلِيلُهُ واستصغارُهُ لِمَا يُعْطِيهِ
ويجود به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُؤًا﴾.
كَوْنُ ما على الأرض زينةً لها في الحال سَلَبَ قَدْرُهُ بما أخبر أنه سيفنيه في المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾.
أزال الأعجوبة عن أوصافهم بما أضافه إلى ربّه بقوله: ﴿مِنْ ءَايَاتِنَا﴾؛ فَقَلَبَ
العادة مِنْ قِبَلِ اللَّهِ غَيْرَ مُسْتَكْرٍ وَلَا مُبْتَدِعٍ.

ويقال مكثوا في الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهم فقال: ﴿أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾،
وللنفوس مَحَالًّا، وللقلوب مَقَارًّا، وللهمم مَجَالًّا، وحيثما يعتكف يُطْلَبُ أبداً صاحبه.
ويقال الإشارة فيه ألا تَتَعَجَّبَ من قصتهم؛ فحالك أعجب في ذهابك إلينا في
شطر من الليل حتى قاب قوسين^(٢) أو أدنى، وهم قد بقوا في الكهف سنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءِإِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

أواهم إلى الكهف بظاهريهم، وفي الباطن فهو مُقِيلُهُمْ في ظِلِّ إقباله وعنايته، ثم
أخذهم عنهم، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم.
وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله: ﴿رَبَّنَا ءِإِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾:

(١) الطَّوِيَّةُ: الضمير ينطوي عليه الإنسان. يقال: فلان حسن الطوية، أي: النية والضمير (ج) طوايا.

(٢) القاب: المقدار، أو ما بين نصف وتر القوس وطرفه. يُقال: هو على قاب قوسين: كناية عن القرب.

أي أنهم أَخَذُوا فِي التَّبَرِّي مِنْ حَوْلِهِمْ وَقَوَّيْتَهُمْ، ورجعوا إلى الله بِصِدْقِ قَاتِيهِمْ، فاستجاب لهم دَعْوَتَهُمْ، ودفع عنهم ضرورَتَهُمْ، وبَوَّأَهُمْ فِي كَنْفِ الْإِبْوَاءِ مَقِيلًا حَسَنًا. قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائق ما كاشفناهم به من شهود الأُحدية، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿ثُمَّ بَشَّرْتَهُمْ لِنَعْلَةِ آئِ الْخَزِينِ أَحْصَى لِمَا لَسَوْا أَمَدًا﴾.

أي رددناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم، وأقمناهم بشواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿ثُمَّ نَفَّسْ عَلَىكَ نَبَاهُهم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾.

لَمَّا كَانُوا مَأْخُودِينَ عَنْهُمْ تَوَلَّى الْحَقَّ - سبحانه - أَنْ قَصَّ عَنْهُمْ، وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ كَانَ عَنْ نَفْسِهِ وَأَوْصَافِهِ قَاصًّا؛ لِبَقَائِهِ فِي شَاهِدِهِ وَكَوْنِهِ غَيْرَ مُتَنَفٍّ بِجُمْلَتِهِ. . . وبين مَنْ كَانَ مَوْصُوفًا بِوَاسِطَةِ غَيْرِهِ؛ لِفَنَائِهِ عَنْهُ وَامْتِحَانِهِ مِنْهُ وَقِيَامِ غَيْرِهِ عَنْهُ.

ويقال لَا تَسْمَعُ قِصَّةَ الْأَحْيَاءِ أَعْلَى وَأَجَلٌ مِمَّا تَسْمَعُ مِنَ الْأَحْيَاءِ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ثُمَّ نَفَّسْ عَلَىكَ﴾، وَأَنشَدُوا:

وَحَدَّثْتَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدْتَنِي حَنِينًا فَرَدْتَنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

قوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾: يُقَالُ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا - عَلَى الْوَهْلَةِ - بِرَبِّهِمْ، آمَنُوا مِنْ غَيْرِ مَهَلَةٍ، لَمَّا أَتَتْهُمْ دَوَاعِي الْوَصْلَةِ^(١).

ويقال فِتْيَةٌ لِأَنَّهُمْ قَامُوا لِلَّهِ، وَمَا اسْتَقَرُّوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى اللَّهِ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَرَبَّطْنَا هُذَى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

لَأَطْفَهُمْ بِإِحْضَارِهِمْ، ثُمَّ كَاشَفَهُمْ فِي أَسْرَارِهِمْ، بِمَا زَادَ مِنْ أَنْوَارِهِمْ، فَلَقَّاهُمْ أَوَّلًا التَّبَيُّنَ، ثُمَّ رَقَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِالْيَقِينِ.

﴿وَرَبَّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: بِزِيَادَةِ الْيَقِينِ حَتَّى مَتَعَ نَهَارًا^(٢) مَعَارِفَهُمْ، وَاسْتِضَاءَتِ

شَمْسِ تَقْدِيرِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ لِلتَّرَدُّدِ مَجَالٌ فِي خَوَاطِرِهِمْ، وَ (. . .)^(٣) فِي التَّجْرِيدِ أَسْرَارِهِمْ، وَتَمَّتْ سَكِينَةُ قُلُوبِهِمْ.

(١) انظر حديث القشيري برسالته ص ٢٢٦ عن الفتوة.

(٢) فَتَحَ نَهَارَهُ: كُنَايَةٌ عَنْ اسْتِمْرَارِ الْعَطَاءِ الْإِلَهِيِّ وَالْكَشْفِ الرَّبَّانِيِّ بِتَمْدِيدِ وَقْتِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ، حَتَّى يَنْعَدِمَ اللَّيْلُ.

(٣) بَيَاضٌ فِي الْأَصْلِ.

ويقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: بأن أفنيانهم عن الأغيار، وأغنيانهم عن التفكير بما أوليناهم من أنوار التبصّر.

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنّا فيها من شواهد الغيب، فلم تسنح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قاموا لله بالله، ومن قام بالله فقد عمّا سوى الله.

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله.

ويقال قعدت عنهم الشهوات فصَحَّ قيامهم بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾.

من أحال الشيء على الحوادث فقد أشرك بالله، ومن قال إنّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً من دون الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

لما لم يكن لهم حجة اتضح فيما ادعوه كذبهم، فمن اكتفى بنفي القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معلول في نحلته.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟ فمن ذكر في الدين قولاً لم يؤيد ببرهان عقلي أو نقلي فهو مفتر، ومن أظهر من نفسه حالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مفتر. والذي يصدق في قوله - في هذه الطريقة - فهو الذي يسمع من الحق بسرّه، ثم ينطق بلفظه^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ افْتَرَسُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّاا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾.

العزلة عن غير الله توجبّ الوصلة بالله. بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله.

ويقال لما اعتزلوا ما عبّد من دون الله آواهم الحق إلى كنف رعايته، ومهد لهم مثنوى في كهف عنايته.

ويقال من تبرأ من اختياره في احتياله، وصدق رجوعه إلى الله في أحواله، ولم يستعجن - بغير الله - من أشكاله وأمثاله آواه إلى كنف أفضاله، وكفاه جميع أشغاله، وهباً له محلاً يتفيؤ فيه في بزدٍ ظلاله، بكمال إقباله.

(١) انظر حديث القشيري عن الصدق بالرسالة ص ٢١٠ - ٢١٤.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ^(١) عَنْ كَهْفَيْهِمَا ذَاتِ اللَّيْلِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

كانوا في مُتَسَعٍ من الكهف، ولكن كان شعاع الشمس لا ينسبط عليهم مع هبوب الرياح عليهم.

ويقال أنوار الشمس تنقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم.

إن نور الشمس ضياء يستضيء به الخلق، ونور معارفهم أنوار يُعرف بها الحق، فهذا نور يظهر في الصورة، وهذا نور يلوح في السريرة. وينور الشمس يدرك الخلق وينورهم كانوا يعرفون الحق.

وفي قوله - عز اسمه: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أن في الأمر شيئاً بخلاف العادة، فيكون من جملة كرامات الأولياء؛ ويحتمل أن يكون شعاع الشمس إذا انتهى إليهم ازور عنهم، ومضى دونهم بخلاف ما يقول أصحاب الهبة، ليكون فعلاً ناقضاً للعادة فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُستهلك في النور الذي عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾.

فالله يهدي قوماً بالأدلة والبراهين، وقوماً بكشف اليقين؛ فمعارف الأولين قضية الاستدلال، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال، فهؤلاء مع برهان، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان:

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ: أَي مَنْ وَسَمَهُ بِسِمَةِ الحرمان فلا عرفان ولا علم ولا إيمان.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ وَيَقْلِبُهُمْ ذَاتِ اللَّيْلِ وَذَاتِ الشَّمَالِ﴾.

هم مسلوبون عنهم، مُخْتَطَفُونَ منهم، مُسْتَهْلَكُونَ فيما كوشفوا به من وجود الحق؛ فظاهرهم - في رأي الخلق - أنهم بأنفسهم، وفي التحقيق: القائم عنهم غيرهم. وهم محو فيما كوشفوا به من الحقائق.

ثم قال: ﴿وَيَقْلِبُهُمْ ذَاتِ اللَّيْلِ وَذَاتِ الشَّمَالِ﴾: وهذا إخبار عن حُسن إيوائه لهم؛ فلا كشفة الأمهات بل أتم، ولا كرحمة الآباء بل أعز... وبالله التوفيق.

ويقال إن أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق - سبحانه - في صفة أصحاب الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ﴾ فهم بشواهد الفرق في ظاهرهم، لكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به في سرائرهم، يُجْرِي عليهم أحوالهم وهم غير متكلفين، بل هم يشبتون - وهم خمود عما هم به - أن تصرفاتهم القائم بها عنهم سواهم، وكذلك في نطقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ نُضْبًا﴾.

كما ذكّرهم ذكر كلبهم، ومن صدق في محبة أحد أحب من انتسب إليه وما ينسب إليه.

ويقال كلب خطا مع أحبائه خطوات فإلى القيامة يقول الصبيان - بل الحق يقول بقوله العزيز -: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ﴾ فهل ترى أن مسلماً يصحب أولياءه من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يرده يوم القيامة خائباً؟ إنه لا يفعل ذلك.

ويقال في التفاسير إنهم قالوا للراعي الذي تبعهم والكلب معه: اصرف هذا الكلب عنا. فقال الراعي: لا يمكنني، فإني أنا ديتة.

ويقال أنطق الله سبحانه - الكلب فقال لهم: لم تضربوني؟ فقالوا: لئنصرف عنا.

فقال: لا يمكنني أن أنصرف.. لأنه رباني.

ويقال كلب بسط يده على وصيد^(١) الأولياء فإلى القيامة يقال ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾... فهل إذا رفعها مسلم إليه خمسين سنة ترى يردها خائبة؟ هذا لا يكون.

ويقال لما صحبهم الكلب لم تضره نجاسة صفتيه، ولا خساسة قيمته.

ويقال قال في صفة أصحاب الكهف إن كانوا ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، أو ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فقد قال في صفة هذه الأمة: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وشتان ما هما!

ويقال كل يعامل بما يليق به من حالته ورتبته؛ فالأولياء قال في صفتهم: ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، والكلب قال في صفتة: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

ويقال كما كرّر ذكرهم، كرر ذكر كلبهم.

وجاء في القصة أن الكلب لما لم ينصرف عنهم قالوا: سبيلنا إذا لم ينصرف عنا أن نحمله حتى لا يستدل علينا بأثر قدمه فحملوه، فكانوا في الابتداء (بل إياه) وصاروا في الانتهاء مطاياه.. كذا من اقتفى أثر الأحباب.

(١) الوصيد: فناء الدار والبيت.

ويقال في القصة إن الله أنطق الكلب معهم، وَيُنْطِقُهُ رَبُّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِأَنْ إِزْدَادُوا يَقِينًا بِسَمَاعِ نَطْقِهِ، فقال: لِمَ تَضْرِبُونِي؟ فقالوا: لتصرف، فقال: أَنْتُمْ تَخَافُونَ بَلَاءَ يَصِيبُكُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَأَنْتُمْ بِلَاثِي فِي الْحَالِ.

ثم إِنَّ بَلَاءَكُمْ الَّذِي تَخَافُونَ أَنْ يَصِيبَكُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَبِلَاثِي مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ الْأُولِيَاءِ.

ويقال لما لزم الكلب محلّه ولم يجاوزْ حَدَّهُ فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى الْوَصِيدِ بَقِيَ مَعَ الْأُولِيَاءِ... كَذَا أَدَبُ الْخِدْمَةِ يُوجِبُ بَقَاءَ الْوَصْلَةِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾. الخطاب له - ﷺ. والمراد منه غيره.

ويقال لو اطلعت عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً، ولو شاهدتهم من حيث شهود تولي الحق لهم لبقيت على حالك.

ويقال لو اطلعت عليهم وشاهدتهم لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا مِنْ أَنْ تُرَدَّ عَنْ عَالِي مَنَازِلِكَ إِلَى مَنَازِلَتِهِمْ؛ وَالْغَنِيُّ إِذَا رُدَّ إِلَى مَنَازِلَةِ الْفَقِيرِ قَرَّ مِنْهُ، وَلَمْ تَطْبُ بِه نَفْسُهُ. ﴿وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ بَأَنْ يُسَلِّبَ عَظِيمٌ مَا هُوَ حَالُكَ، وَتُقَامَ فِي مِثْلِ حَالِهِمِ النَّازِلَةُ عَنْ حَالِكَ.

ويقال: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لَأَنَّكَ لَا تُرِيدُ أَنْ تَشْهَدَ غَيْرَنَا. قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّسَعَّنَّ لَهُمْ لِيَتَّسَعَّنَّ لَهُمْ قَالِ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

استقلوا مدة لبئهم وقد لبثوا (طويلاً)، ولكنهم كانوا مأخوذِينَ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِلْمٌ بِتَفْصِيلِ أَحْوَالِهِمْ، قَالَ قَائِلُهُمْ:

لَسْتُ أَدْرِي أَطَالَ لَيْلِي أَمْ لَا؟ كَيْفَ يَدْرِي بِذَلِكَ مَنْ يَتَقَلَّبُ؟
لَوْ تَفَرَّغْتُ لَأَسْتَطَالَةَ لَيْلِي وَرَغِبْتَ النُّجُومَ كُنْتُ مُخِلًّا

ويقال أَيَّامُ الْوَصَالِ عَنْدهُمْ قَلِيلَةٌ - وَإِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً، وَلَوْ كَانَ الْحَالُ بِالضَّدِّ لَكَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، وَأَنْشَدُوا:

صَبَّاحُكَ سُكَّرٌ وَالْمَسَاءُ خُمَارٌ^(١) نَعِمْتُ وَأَيَّامُ السَّرُورِ قِصَارٌ

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَوْمَ قَالُوا رَبُّكُمْ أَغْلَرُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾. لأنه هُوَ الَّذِي خَصَّكُمْ بِمَا بِهِ أَقَامَكُمْ.

(١) الْخُمَارُ: مَا يَعْقِبُ شَرْبَ الْخَمْرِ مِنْ ضِدَاعٍ وَأَذَى.

قوله جل ذكره: ﴿فَاَتَّبَعُوا أَهْلَكُمْ يَوْرِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾.

ما داموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلب لأكل ولا شرب ولا شيء من صفة النفس، فلما رُدُّوا إلى التمييز أخذوا في تدبير الأكل أول ما أحسوا بحالهم، وفي هذا دلالة على شدة ابتداء الخلق بالأكل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

تَوَاصَوْا فيما بينهم بحسن التخلق وجميل الترفق، أي ليتلطف مع من يشتري منه شيئاً.

ويقال أوصوا مَنْ يشتري لهم الطعام أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِالطَّفِ شَيْءٍ وَأَطْيَبِهِ، ومن كان من أهل المعرفة لا يوافق الخشن من الملبوس ولا المبتذل في المطعم من المأكول.

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك والذي بلغ المعرفة لا يوافق إلا كل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل مليح.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾.

تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى أحوالهم بالغوا في مخالفتهم إمَّا بالقتل وإمَّا بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل، ولا يرضون إلا بردهم إلى ما منه تخلصوا، فَمَنْ احترق كدسه فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب نفسه.

ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار.

ويقال مَنْ أَظْهَرَ لأعدائه سِرَّهُ فَقَدْ جَلَبَ باختياره ضُرَّهُ، وَقَدْ مَا سَرَّهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَأَيْتُمْ أُعْلِمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ عَلِمُوا مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ لَنَنْخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾.

جعل أحوالهم عِبْرَةً لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ حين كشف لأهل الوقت قصتهم، فعاينهم الناس، وازداد يقين مَنْ كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالعيان ما كان نَقْضاً للعادة المستمرة.

ثم إن الله تعالى رَدَّهُمْ إِلَى ما كانوا عليه من الحالة، كانوا مأخوذِينَ عن التمييز، متقلبين في القبض على ما أَرَادَهُ الْحَقُّ، مستودعين فيما كُوشِفُوا، مستهلكين عنهم في وجود الحق - سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

أخبر أن علوم الناس متفصرة عن عددهم؛ فالأحوال التي لا يطلع عليها إلا الله في أسرارهم وقلوبهم... متى يكون للخلق عليها إشراف؟

أشكل عليهم عددهم، وعددهم يُعلم بالضرورة، وهم لا يُدركون بالمشاهدة. ويقال سَعَدَ الكلبُ حيث كَرَّرَ الحقَّ - سبحانه - ذَكَرَهُمْ وذكَّرَ الكلبَ معهم على وجه التكرار، ولما ذَكَرَهُمْ عَدَّ الكلبَ في جملتهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِبَادَتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عبادِهِ، وَمَنْ كان قريباً في الحالِ منهم؛ فهم في كتم الغيرة وإيواء السر لا يَطْلُعُ الأجنبي عليهم؛ ولا يعلمهم إلا قليل؛ لأنَّ الحقَّ - سبحانه - يستر أوليائه عن الأجنبي، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة؛ فالأجنبي لا يعرفون الأقارب، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب. كذلك قال شيخ هذه الطائفة: «الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم».

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

كما لا يعرفهم من كان بمعزلٍ عن حالتهم، ولا يهتدي إلى أحكامهم من لا يعرفهم.. فلا يصحُّ استفتاء مَنْ غاب علمهم عنه في حالهم. وَمَنْ لم يكن قلبه محلاً لمحبة الأحياء لا يكون لسانه مقراً لذكرهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

إذا كانت الحوادث صادرة عن مشيئة الله فَمَنْ عَرَفَ الله لم يَعُدْ من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله.

ويقال مَنْ عَرَفَ الله سقط اختياره عند مشيئته، واندرجت أحكامه في شهوده لحكم الله.

ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة في مستقبله بقلبه، لكنه يتبرأ عن حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ بِسِرِّهِ، والشرع يستدعي منه نهوض قلبه في طاعته، والحق يقف سِرِّهِ عند شهود ما منه لمحبوبه تحت جريان قسمته.

قوله جل ذكره: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾.

إِنْ طَرَأَتْ عَلَيْكَ طَوَارِقُ النِّسْيَانِ - لَا يَتَعَهَّدُكَ - فَجَرِّدْ بِذِكْرِكَ قَضْدَكَ عَنْ أَوْطَانِ غَفْلَتِكَ .

ويقال ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ : في الحقيقة نُفْسُكَ تَمْنَعُكَ مِنْ اسْتِغْرَاقِكَ فِي شُهُودِ ذِكْرِكَ .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربك : فإن العبد إذا كان ملاحظاً لذكره كان ذلك آفة في ذكره .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَظَّكَ مِنْهُ .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت غير ربك .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ .

كانوا مأخوذين عنهم في إحساسهم بأنفسهم لم يقفوا على تناول مدتهم ، وفي المثل : أيام السرور قصار والذهور في السرور شهور ، والشهور في المحن دهور ، وفي معناه :

أَعُدُّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَقَدْ كُنْتُ قَبْلًا لَا أَعُدُّ اللَّيَالِيَا
قوله جل ذكره : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتُوبُوا لَمْ يَغِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ .
مَنْ لَمْ يَعِدْ أَيَّامَهُ لِاسْتِغَالِهِ بِاللَّهِ أَحْصَى اللَّهُ أَنْفَاسَهُ الَّتِي اللَّهُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَخَصَّنِي كُلَّ شَيْءٍ عَدْدًا﴾ [الجن : ٢٨] .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ .

تَسَلَّ - حِينَمَا تَتَنَوَّعُ عَلَيْكَ الْأَحْوَالُ - بِمَا تُظْلِعُكَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ ؛ وَإِنْ كُتِبَ الْأَحْبَابُ فِيهَا شِفَاءٌ لِأَنَّهُا خُطَابُ الْأَحْبَابِ لِلْأَحْبَابِ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْحَقًا﴾ .

أَي لَا تَغْيِيرَ لِحُكْمِهِ ؛ فَمَنْ أَقْصَاهُ فَلَا قَبُولَ لَهُ ، وَمَنْ أَدْنَاهُ فَلَا وَصُولَ لَهُ ، وَمَنْ قَبْلَهُ فَلَا رَدَّ لَهُ ، وَمَنْ قَرَّبَهُ فَلَا صَدَّ لَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ .

قَالَ : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : «قَلْبِكَ» لِأَنَّ قَلْبَهُ كَانَ مَعَ الْحَقِّ ، فَأَمَرَهُ بِصَحْتِهِ جَهْرًا بِجَهْرٍ ، وَاسْتَخْلَصَ قَلْبَهُ لِنَفْسِهِ سِرًّا بِسِرٍّ .

وَيَقَالُ ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ : مَعْنَاهَا مَرِيدِينَ وَجْهَهُ أَي فِي مَعْنَى الْحَالِ ، وَذَلِكَ يُشِيرُ إِلَى دَوَامِ دُعَائِهِمْ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ وَكَوْنِ الْإِرَادَةِ عَلَى الدَّوَامِ .

وَيَقَالُ : ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ : فَأَوْبَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ بِعِظَائِمْنَا ، وَفِي عِقَابِهِمْ بِكَرَائِمْنَا .

ويقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: فكشف قناعهم، وأظهر صفتهم، وشهرهم. بعدما كان قد سترهم، وأنشدوا:

وكشفنا لك القناع وقلنا نعم وهتكنا لك المستورا
ويقال لما زالت التُّهُمُ سَلِمَتْ لَهُم هذه الإرادة، وتحرروا عن إرادة كل مخلوق
وعن محبة كل مخلوق.

ويقال لما تقاصر لسانهم عن سؤال هذه الجملة مراعاةً منهم لهيبة الرسول ﷺ،
وحُرْمَةِ باب الحق - سبحانه - أمره بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وبقوله:
﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي لا ترفع بصرَكَ عنهم، ولا تُفْلِغْ عنهم نظرك.
ويقال لما نظروا بقلوبهم إلى الله أمرَ رسوله - عليه السلام - بألا يرفعَ بصره
عنهم، وهذا جزاء في العاجل.

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعةً لهم إلينا، وخلفاً عما
يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا، فلا تَقْطَعْ اليومَ عنهم نَظْرَكَ فإننا لا نمنع غداً نظرهم عنا.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾.

هم الذين سألوا منه - ﷺ - أن يُخْلِيَ لهم مجلسه من الفقراء، وأن يطردهم يوم
حضورهم من مجلسه - صلى الله عليه وسلم وعلى آله.
ومعنى قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾: أي شغلناهم بما لا يعينهم.

ويقال: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود
المنعم.

ويقال هم الذين طَوَّحَ قلوبهم في التفرقة، فهم في الخواطر الرديئة مُتَّبِتُونَ، وعن
شهود مولاهم محجوبون.

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابتلوا بنسيان الحقيقة لا يتأسفون على ما مُتُوا به
ولا على ما فاتهم.

ويقال الغفلة تزجية الوقت في غير قضاءٍ فَرَضٍ أو أداءِ نَفْلٍ.
قوله جل ذكره: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

قُلْ يا محمد: ما يأتيكم من ربكم فهو حق، وقوله صِدْقٌ ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن
شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾. . هذا غاية التهديد، أي إن آمنتم ففوائد إيمانكم عليكم مقصورة، وإن
أَبَيْتُمْ فَعَذَابُ الْجَحْدِ موقوفٌ عليكم، والحق - سبحانه - عزيز لا يعود إليه بإيمان
الكافة - إذا وَحَدُوا - زَيْنَ، ولا مِن كُفْرِ الجميع - إن جحدوا - شَيْنَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

العقوبة الكبرى لهم أن يشغلهم بالآلم حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من الحق، ولو علموا ذلك لعله كان يرحمهم. والحق - سبحانه - أكرم من أن يعذب أحداً يتهم لأجله.

ويقال لو علموا من الذي يقول: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ لعله كان لهم تسَل ساعة، ولكنهم لا يعرفون قَدْرَ مَنْ يقول هذا، وإلا فهذا شبه مرتبة لهم، والعبارة عن هذا تدق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَبْغُ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

أهل الجنة طابث لهم حدائقها، وأهل النار أحاط بهم سُرَادِقُهَا.

والحق - سبحانه - مُتَرَّةٌ عَنْ أَنْ يعودَ إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ولا من تنعيم هؤلاء فائدة... جَلَّتْ الْأَحْدِيَّةُ، وَتَقَدَّسَتْ الصَّمْدِيَّةُ!

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَتْرَةٌ فِرَاقِنَا، وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ حَظْوَةً لَدَيْنَا، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحْنَا غَفَرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجْرْنَا لَهُ رَعْدًا، وَمَنْ التَّجَأَ إِلَى سُدَّةٍ^(١) كَرَمْنَا أَوِينَاهُ فِي ظِلِّ نِعْمِنَا، وَمَنْ شَكَا فِينَا غَلِيلًا مَهَّدْنَا لَهُ - فِي دَارِ فَضْلِنَا - مَقِيلًا.

﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾: العمل أحسنه ما كان مضبوطاً بشرائط الإخلاص.

ويقال: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ بأن غاب عن رؤية إحسانه.

ويقال مَنْ جَرَّدَ قَضْدَهُ عَنْ كُلِّ حَظٍّ وَنَصِيبٍ.

ويقال الإحسان في العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا في فضله، إذا أخلصت في تَوَسُّلِكَ إِلَيْهِ بِفَضْلِهِ، وَتَوَسُّلِكَ إِلَى مَا مَوْلَاكَ مِنْ طَوْلِهِ بِتَبَرُّكَ عَنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ استوجبت حسن إقباله، وجزيل نواله.

قوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أولئك هم أصحاب الجنان، في رَعْدِ العيش وسعادة الجَدِّ^(٢) وكمال الرُقْدِ^(٣)، يلبسون حُلَّ الوُصْلَةِ، وَيَتَوَجَّوْنَ بِتَاجِ الْقُرْبَةِ، وَيُحْمَلُونَ عَلَى الْمَبَاسِطِ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ^(٤)، ويشمون رياحين الأُتُسِ،

(٣) الرُقْد: العطاء والصلة (ج) أفراد.

(٤) الأرائك: (ج) الأريكة: مقعد منجد.

(١) السُدَّة: باب الدار.

(٢) الجَدُّ: الحظ والحظوة.

ويقومون في مجال الرُّلْفة، وَيُسْقَوْنَ شرابَ المحبة، ويأخذون بيد الزلفة ما يتحفهم الحقُّ به من غير واسطة، ويسقيهم شراباً طهوراً يُظهِر قلوبهم عن محبة كلِّ مخلوق.

﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾: نِعْم الثوابُ ثوابُهم، ونعم الربُّ ربُّهم، ونعم الدار دارهم، ونعم الجارُ جارُهم، ونعم الحالُ حالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَضْرِبْ لَمْثًا لِّرَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْثَرًا وَأَلْهَى أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا لَّيَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غُورًا فَلَنْ لَا تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾.

أخبر أنه خلقَ رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذي ذكره، فشكَّر أحدهما لخالقه وكفَّر الآخرُ برازقه، فأصبح الكافرُ وجنَّته أصابتها جائحةٌ، وندم على ما ضيَّعه من الشكر، وتوجَّه عليه اللومُ.

وفي الإشارة يخلق عَبدَيْن يُطَيَّب لهما الوقت، ويُمهِّد لهما بساط اللطف، ويمكن لهما من البسط... فيستقيم أحدهما في الترقى إلى النهاية من مقامات البداية بحُسن المنازل وصدق المعاملة، فتميز له المجاهدة ثمرات أحسن الأخلاق فيعالجها بحسن الاستقامة، ثم يتحقق بخصائص الأحوال الصافية، ثم يُخْتَفَف عنها بما يُكاشفُ به من حقائق التوحيد، ويصبح مُتَنَقِّى عن جملة باستهلاكه في وجود ما بان له من الحقائق.

والثاني لا يُقدِّر قَدْرَ ما أَهْلَ له من حُسن البداية فيرجعُ إلى مآلوفاته، فينتكس أمره، بانحطاطه إلى ذميم عاداته، فيرتدُّ عن سلوك الطريقة ويرتدِّي في ظلمة الغفلة؛ فيصيرُ وقته ليلاً مظلماً، ويتطوَّح في أودية التفرقة، ويوسم الطرد، ويسقى شراب الإهانة، وينخرط في سلك الهجر... وذلك جزاء مَنْ لم يَرْهَم الحقُّ لو صلته أهلاً، ولم يجعل لولائهم في التحقيق والقبول أضلاً:

تبدلت وتبدلنا يا حسرة لِمَنْ ابتغى عوضاً لسلمى فلم يجد
قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهَ عَلَى مَا أَفَقَّ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

إذا ظَهَرَ خسرانُ مَنْ آثر حفظه على حقِّ الله، قرَّع باب ندامته، ثم لا ينفعه.

ولو قرع باب كرمه في الدنيا - حين وقعت له الفترة - لأشكاه^(١) عند ضرورته، وأنجاه من ورطته. . ولكنه رُبط بالخذلان، ولُبس عليه الأمر بحُكم الاستدراج.

قوله: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَصُرُونَ﴾: مَنْ اشتهر أمره بسُخط السلطان عليه لم ينظر إليه أحدٌ من الجُنْدِ والرعية، كذلك مَنْ وسمه الحقُّ بكَيِّ الهجر لم يَزِبْ له مَلَكٌ ولا نبيٌّ، ولم يخمه صديقٌ ولا وليٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

هو الحقُّ المتفردُ بنعتِ ملكوته، لا يشرك في جلال سلطانه من الحدّثان أحدًا، وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر، ولا وزن فيما هنالك لحدّثان ولا خطر، كلًّا. . بل هو الله الخلاق الواحد القهار.

هنالك الولاية لله أي القدرة - والواو هنا بالكسر.

وهنالك الولاية لله أي النصرة - والواو هنا بالفتح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَزْلَنَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾.

مَنْ وَطَّنَ النَّفْسَ على الدنيا وبهجتها غرّته بأمانيتها، وخدعته بالأطماع فيها. ثم إنها تخفى الصّاب في شرابها، والحنظل^(٢) في عسلها، والسرّاب في مآربها؛ تعدّ ولا تفي بوعدها، وتوفي آفاتنا على خيراتها. . نعمها مشوبةٌ بِنَقَمِها، وبؤسها مصحوبٌ بمأنوسها، وبلاؤها في ضمن عطائها. المغرور مَنْ اغترّب بها، والمغبون مَنْ انخدع فيها.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الدُّنْيَا﴾.

مَنْ اعتضد بعتاده، واغترّب بأولاده، ونسي مولاه في أوان غفلاته. . خسر في حاله، ونديم على ما فاته في مآله.

ويقال زينة أهل الغفلة في الدنيا بالمال والبنين، وزينة أهل الوصلة بالأعمال واليقين. . فهؤلاء رُتّبهم لظواهرهم. . وهؤلاء زينتهم لعبوديتهم، وافتخارهم بمعرفة ربوبيته.

ويقال ما كان للنفس فيه حُظٌّ فهو من زينة الحياة الدنيا، ويدخل في ذلك الجاه وقبول المدح، وكذلك تدخل فيه جميع المألوفات والمعهودات على اختلافها وتفاوتها.

(١) أشكى فلاناً: قبل شكواه.

(٢) الحنظل: نبات عشبي بري حولي معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة. كان ولا يزال يُستعمل في الطب. ويُزرع في الحدائق الطبية.

ويقال ما كان للإنسان فيه شِرْبٌ ونصيبٌ فهو معلول: إن شئت في عاجله وإن شئت في آجله .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْبَلَيْتُ الْفَالِحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ .

وهي الأعمال التي بشواهد الإخلاص والصدق .

ويقال ﴿وَالْبَلَيْتُ الْفَالِحُ﴾: ما كان خالصاً لله تعالى غير مُشوب بطمع، ولا مصحوبٍ بِغَرَضٍ .

ويقال ﴿وَالْبَلَيْتُ الْفَالِحُ﴾: ما يلوح في السرائر من تحلية العبد بالنعوت، ويفوح نُشْرُهُ في سماءِ الملكوت .

ويقال هي التي سبقت من الغيب لهم بالقربة وشريف الزلفة .

ويقال هي ضياء شمس التوحيد المستكن في السرائر مما لا يتعرّض لكسوف الحجة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ .

كما تُسِيرُ جبال الأرض يوم القيامة فإنها تُقْتَلَعُ بموت الأبدال^(١) الذين يديم بهم الحق - اليوم - إمساك الأرض، فهؤلاء السادة - في الحقيقة - أوتاد العالم .

قوله: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾: الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسْقَى كأس المنية، ولا يغادر الحق أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه، وإن شَرَفَهُم في الدرجات في تَوْفِيهِم عن مساكنة الدنيا .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا﴾ .

يقيم كل واحدٍ يومَ العَرَضِ في شاهد مخصوص، ويلبسُ كُلاً ما يُؤَهِّله له؛ فَمِنْ لباس تقوى، ومن قميص هوى، ومن صِدَارٍ وَجْدٍ، ومن صُدْرَةٍ محبة، ومن رداء شوق، ومن حُلَّةٍ وَضَلَّةٍ .

ويقال يجردهم عن كل صفة إلا ما عليه نظرهم يوم القيامة . وينادي المنادي على أجسادهم: هذا الذي أتى وَوَجَدَ، وهذا الذي أبى وَجَحَدَ . وهذا الذي خالفَ فأَصَرَّ، وهذا الذي أنعمنا عليه فَشَكَرَ، وهذا الذي أحسنّا إليه فَذَكَرَ . وهذا الذي أسقينا شرابنا، ورزقناه محائبنا، وشوقناه إلى لقائنا، ولقّيناه خصائص رِغَائِنَا .

... وهذا الذي وَسَّمَنَاهُ بحجبتنا، وحرمناه وَجُوهَ قريبتنا . وألبسناه نطاق فراقنا، ومنعناه، توفيق وفاقنا، وهذا، وهذا . . .

واخجلتي من وقوفي وَسَطَ دارِهِمْ! وقال لي مُغَضَّباً: مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلٌ؟

(١) الأبدال: (عند الصوفية) إحدى طبقاتها، يزعمون أنه إذا مات بدل من الأبدال حل محله آخر .

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾.

جئتمونا بلا شفيع ولا ناصر، ولا معين ولا مظاهر.

قوم يُقال لهم: سلامٌ عليكم... كيف أنتم؟ وكيف وجدّتم مقيلكم؟ وكم إلى لقائنا اشتقتم!

وقوم يُقال لهم: ما صنعتم، وما ضيّعتم؟ ما قدّمتم، وما أخرتم؟ ما أعلنتم، وما أسررتم؟

قُلْ لِي بِالسَّنَةِ التَّنْفُسِ^(١) كيف أنت وكيف حالك؟

ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيفصّحون عن مكنون قلوبهم، ويشرحون ما هم به من أحوالٍ مع محبوبهم. وآخرون تملكهم الحيرة وتُسكِتهم الدهشة، فلا لهم بيان، ولا ينطق عنهم لسان. وآخرون كما قيل:

قالت سكينَةُ مَنْ هذا فقلتُ لها: أنا الذي أنتِ من أعدائه زَعَمُوا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

إنما يصيبهم ما كُتِبَ في الكتاب الأول وهو المحفوظ، لا ما في الكتاب الذي هو كتاب أعمالهم نُسَخَ ما في اللوح المحفوظ.

ويقال إنَّ عاملَ عبداً بما في الكتاب الذي أثبتته المَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده يعاملهم بما في كتاب المَلِكِ - سبحانه، وفرقٌ بين من يُعامل بما في كتاب الحق من الرحمة. والشفقة وبين من يحاسبه بما كُتِبَ عليه المَلَكُ من الزَّلَّة.

ويقال إذا حسابهم في القيامة يتصور لهم كأنهم في الحال، ما فارقوا الزَّلَّة، وإن كانت مباشرة الزَّلَّة قد مَضَتْ عليها سنون كثيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ بَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

يملك الحزن قلبه لأنه يعلم أنه يرى في عمله سيئة فهو في موضع الخجل لتقصيره. وإن رأى حسنة فهو في موضع الخجل أيضاً لِقِلَّةِ توقيره؛ فَخَجَلُهُ أَهْلُ الصَّدَقِ عند شهود حسناتهم توفي وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زَلَّاتِهِمْ.

ويقال أصحابُ الطاعة إذا وجدوا ما قدّموا من العبادات فمآلهم السرور والبهجة وحياة القلب والراحة، وأمّا أصحاب المخالفات فإنما يجدون فيما قدّموا

(١) التنفس: تنفس نفساً طويلاً من تعب أو كرب.

مجاورة الحدّ ونقض العهد، وما في هذا الباب من الزلّة وسوء القصد .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ .

أظهر للملائكة شطيّة مما استخلص به آدم فسجدوا بتيسير من الله - سبحانه، وسكّر بصر اللعين فما شهد منه غير العين ففسق عن أمر ربه، ولا صدق في قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ لما فسق عن الأمر، ولكن أدركته الشقاوة الأصلية فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ .

في الآية إشارة إلى أنّ من يفرّذه بالولاية فلا يقتفي غيره ولا يخاف غيره .
قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعِدِّينَ عُسْداً﴾ .

أكذب المنجمين^(١) والأطباء الذين يتكلمون في الهيئات والطبائع بقوله: ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾: ويبيّن أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه الكائنات لا أصل له في التحقيق .

﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَعِدِّينَ عُسْداً﴾: أي لم أجعل للذين يضلّون الناس عن دينهم بشبههم في القول بالطبائع حجة، ولم أعطهم لتصحيح ما يقولونه برهاناً .

ويقال إذا تناقضت علوم الخلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومهم بحقائق الصمدية، واستحقاقه لنعوته إلا بمقدار ما يخصهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد بما جعله له أهلاً؟

ويقال أخبر أنّ علومهم تنقاصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميع أحوالهم وعن كلّ ما في الكون، ولا سبيل لهم إلى ذلك؛ ولا حاجة بهم إلى الوقوف على ما قصّرت علومهم عنه، إذ لا يتعلّق بذلك شيء من الأمور الدينية. فالإشارة في هذا أن يضرّفوا عنايتهم إلى طلب العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإنه لا بدّ لهم - بحكم الديانة - من التحقق بها؛ إذ الواجب على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه في تفاصيل مسائل الصفات والأحكام .

(١) جمع المنجم: الناظر في النجوم بحسب مراقبتها وسيرها في طلوعها وغروبها ويستطلع من ذلك أحوال الكون .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

عِلْمُ الْحَقِّ - سبحانه - أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَغْنِي وَلَا تَنْفَع وَلَا تَضُر، ولكن يعرفهم في العاقبة بما يُصِير معارفهم ضرورية حَسْمًا لأوهام القوم؛ حيث توهّموا أَنَّ عبادتهم للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

فإذا تحققوا بذلك صدقوا في الندم، وكان استيلاء الحسرة عليهم، وذلك من أشد العقوبات لهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَبَّكَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

إذا صارت الأوهام منقطعة، والمعارف ضرورية، والنار مُعَايَنَةً استيقنوا أنهم واقعون في النار، فلا يُسْمَعُ لهم عُذْر، ولا تنفع لهم حيلة، ولا تُقَبَّلُ فيهم شفاعة، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل. . لقد استمكنت الخيبة، وغلب اليأس، وحصل القنوط، وهذا هو العذاب الأكبر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

أوضح للكافة الحجج، ولكن لَبَسَ على قوم النهج فوقعوا في العوج. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الجدَلُ في الله محمود مع أعدائه، والجدل مع الله شِرْكٌ لأنه صَرَفَ إلى مخالفةِ تَوْهَمِ أن أحداً يعارض التقدير، وتجويزُ ذلك انسلاخ عن الدين. ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتْحُ بابِ العملِ عليه، وإغلاق بابِ الجدلِ دونه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

لا عُذْرَ لهم إذا لجأوا إلى ما تعاطوه من العصيان وترك المبادرة إلى المأمور، ولا توفيق يساعدهم فيخرجهم عن حوار الداعي إلى عزم الفعل، فهُمْ - وإن لم يكونوا بنعت الاستطاعة على ما ليسوا يفعلونه - ليسوا عاجزين عن ذلك؛ ولكنهم بحيث لو أن العبد منهم أراد ما أَمَرَ به لَتَأَبَّى منه ذلك، وتعدَّر عليه؛ ففي الحال ليس بقادرٍ على ما ليس يفعله ولا هو عاجز عنه، وهذا يسميه القوم حال التخلية وهي واسطة بين القدرة والعجز.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْقُلُوبَ وَيَتَّخِذُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ مَّوْبِقًا وَمَا أُنذِرُوا هَزَلًا﴾.

أرسل الرسل - عليهم السلام - تترى، وأيّدهم بالحجج والبراهين، وأمرهم بالإنذار والتخويف، والتشريف في عين التكليف، وتضمنين ذلك بالتحقيق، ولكن سَعِدَ قومٌ باتباعهم، وشَقِيَ آخرون بخلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

لا أحد أظلم ممن ذُكر ووُعِظَ بما لوَح له من الآيات، وبما شاهده وعرفه من أمرٍ أَصْلَح أو شَغَلَ كُفِيَ أو دعاءٍ أُجِيب له، أو سوءٍ أدبٍ حصل منه، فأدْبَ بما يكون تنبيهاً له، أو حصلت منه طاعة وكوفئ في العاجل إماً بمعنى وَجَدَه في قلبه من بَسْطٍ أو حلاوةٍ أو أنسٍ، وإما بكفاية شغلٍ أو إصلاحٍ أمرٍ. ثم إذا استقبله أمرٌ نَسِيَ ما عُمِلَ به، أو أعرض عن تَذَكُّرِهِ، ونَسِيَ ما قَدَّمَتْ يده من خيره وشره، فوجد في الوقت موجهه. ومن كانت هذه صِفَتُهُ جعل على قلبه سترًا وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركات ما وَهَبَهُ.

ويقال مَنْ أَظْلَم ممن يستقبله أمرٌ مجازاةً لما أسلفه من تَرْكِ أَرْبِهِ فَيَتَّهِمُ رَبَّهُ، ويشكو مما يلاقه، وَيَتَّسَى حُرْمَةَ الذي بسببه أصابه ما أصابه؟ وكما قيل:

وعاجزُ الرأيِ مضياغٌ لِفُرْصَتِهِ حتى إذا فاتَ أمرٌ عائبَ القَدَرَا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾.

﴿الْغَفُورُ﴾: لأنه ذو الرحمة، ورحمته الأزلية أوجبت المغفرة لهم.

ويقال ﴿الْغَفُورُ﴾: للعاصين من عباده، و ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بجميعهم فيُصلح أحوالَ كافتهم.

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾: لعجل لهم العذاب؛ أي غامَلَهُم بما استوجبوه من عصيانهم، فعجل لهم العقوبة، لكنه يؤخرها لمقتضى حكمته، ثم في العاقبة يفعل ما يفعل على قضية إرادته وحكمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَفْلَكُنْتُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِبَهْلِكُمْ مَوْعِدًا﴾.

لَمَّا لم يشكروا النعم ولم يصبروا في المحن عَجَلْنَا لهم العقوبة.

ويقال لَمَّا غَفَلُوا عن شهود التقدير، وحرِمُوا رَوْحَ الرضا وكُلْنَاهم إلى ظُلُمَاتٍ تدبيرهم، فطاحوا في أودية غفلاتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّى أَتِلَّ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَيْهَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝﴾.

لما صَحَّتْ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحق اسم الفتوة، ولذا قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ ۝﴾ وهو اسم كرامة لا اسم علامة.

جعل دخول السمك الماء علامة لوجود الخضر هنالك، ثم أدخل النسيان عليهما ليكون أبلغ في الآية، وأبعد من اختيار البشر.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا عَدَاءُ مَا لَقَدْنَا لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝﴾.

كان موسى في هذا السفر مُتَحَمِّلًا، فقد كان سفر تأديب واحتمال مشقة، لأنه ذهب لاستكثار العلم. وحال طلب العلم حال تأديب ووقت تحمُّل للمشقة، ولهذا لِحَقُّه الجوع، فقال: ﴿لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝﴾.

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً، ولم يلحقه الجوع ولا المشقة، لأن ذهابه في هذا السفر كان إلى الله، فكان محمولاً.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْسَلْنَا عَلَى نَارِهِمَا قَصَصًا ۝﴾.

طال عليهما السفر لأنهما احتاجا إلى الانصراف إلى مكانهما، ثم قال يوشع: ﴿وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۝﴾: الله - سبحانه - أدخل عليه النسيان ليكون الصيْدُ من تكلفه، ثم قال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ ۝﴾: يعني دخول السمك الماء وكان مشوياً؛ فصار ذلك معجزة له، فلما انتهيا إلى الموضع الذي دخل السمك فيه الماء لَقِينَا الخضر.

قوله جل ذكره: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَالِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝﴾.

إذا سَمَى الله إنساناً بأنه عَبْدُهُ جَعَلَهُ من جملة الخواص؛ فإذا قال: «عبدى» جعله من خاص الخواص.

﴿ءَالِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ۝﴾: أي صار مرحوماً من قِبَلِنَا بتلك الرحمة التي خصصناه بها من عندنا، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً، ويكون بها راحماً على عبادنا.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝﴾: قيل العلم من لدن الله ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتطلب.

ويقال ما يُعْرِفُ به الحق - سبحانه - الخواص من عباده.

ويقال ما يعرف به الحق أوليائه فيما فيه صلاح عباده.

وقيل هو ما لا يعود منه نفع إلى صاحبه ، بل يكون نفعه لعباده ممّا فيه حق الله - سبحانه .

ويقال هو ما لا يجد صاحبه سبيلاً إلى جحده، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً، فلو سأله عن برهانه لم يجد عليه دليلاً؛ فأقوى العلوم أبعداها من الدليل.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

تَلَطَّفَ فِي الْخُطَابِ حَيْثُ سَلَكَ طَرِيقَ الْإِسْتِزْدَانِ، ثُمَّ صَرَّحَ بِمَقْصُودِهِ مِنَ الصَّحِيحَةِ يَقُولُ: ﴿عَلَى أَنْ تَعْلَمَنَّ مِمَّا عَلَّمَتْ رُسُلًا﴾.

ويقال إن الذي خُصَّ به الخضرُ من العلم لم يكن تَعَلَّمَهُ من أستاذ ولا من شخص، فما لم يكن بتعليم أحد إياه.. متى كان يعلمه غيره؟

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.

سؤال بذلك العطف وجوابٌ بهذا العطف!

ثم نذارك قلبه بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خُبْرًا؟﴾، فأجابه موسى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي...﴾ وعد من نفس موسى بشيئين: الصبر، وبأن لا يعصيه فيما يأمر به، فأما الصبر ففقرنه بالاستثناء بمشيئة الله فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ فصبر حتى وُجِدَ صابراً، فلم يقبض على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل، والثاني قوله: ﴿وَلَا أَغْضِي لَكَ أَمْرًا﴾: أطلقه ولم يُقرنه بالاستثناء، فما استثنى لأجله لم يخالفه فيه، وما أطلقه وقع فيه الخلف..

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فإنه ليس للمريد أن يقول: «لا» لشيخه، ولا التلميذ لأستاذه، ولا العامي للعالم المفتي فيما يفتي ويحكم.

قوله جل ذكره: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾.

لما ركبوا الفُلَّكَ خرقها وكان ذلك إبقاءً على صاحبها لئلا يرغبَ في السفينةِ
المخروقة المملُوك الطامعُ في السفنِ.

وقوله: ﴿لِيُغَرِّقَ أَهْلَهَا﴾ أي لتؤدي عاقبة هذا الأمر إلى غرق أهلها؛ لأنه علم أنه لم يكن قصد إغراق أهل السفينة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

أي أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم، وإنا نُجزيه من حيث الحُكم.
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا تُؤْخِذُنِي بِمَا نَيْبْتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

طالبه بما هو شرط العلم حيث قال: ﴿لَا تُؤْخِذُنِي بِمَا نَيْبْتُ﴾؛ لأن الناسي لا يدخل تحت التكليف، وأيد ذلك بما قرّن به قوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ فالمُتَمَكِّن من حقه التكليف، ومن لا يصحّ منه الفعل والترك لا يتوجه (١) والناس من جملتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَنطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

كان يخلّق العلم واجباً على موسى - عليه السلام - قَصْرُهُ حيث يرى في الظاهر ظُلماً، ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه أَلَمْ بِمَحْظُورٍ أو مُبَاح، ففي ذلك الوقت كان قلب العادة.
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

كُرّر قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ...﴾ لأنه واقف بشرط العلم، وأما في محل الكشف فَشَرَطَ عليه موسى عليه السلام فقال:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصِحِّبْنِي فَدَ بَلَقْتَ مِنْ لَدُنِّي عُدْرًا﴾.
بلغ عصيانه ثلاثاً؛ والثلاثة آخِرُ حَدِّ الْقِلَّةِ وَأَوَّلُ حَدِّ الْكَثْرَةِ، فلم يَجِدِ الْمَسَامَحَةَ بعد ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَنطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

كان واجباً في ملتهم على أهل القرية إطعامهما، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من النكير عليهم؛ ولو كان أغضى على ذلك منهم لكان أحسن.

فلما أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمتَ بِمَحْظُورٍ، ولكنه قال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي إن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أخذك خيراً لنا من تركك ذلك، ولئن وَجَبَ حَقُّهُمَ فَلِمَ أَخْلَلْتَ بِحَقِّنا؟

ويقال إنَّ سَفَرَهُ ذلك كان سفرَ تَأْدِيبٍ فَرَدَّ إِلَى تَحْمِيلِ الْمَشَقَّةِ، وإلا فهو حين سقى لبنات شعيب فإنَّ ما أصابه من التعب وما كان فيه من الجوع كان أكثر، ولكنه

(١) بياض في الأصل.

كان في ذلك الوقت محمولاً وفي هذا الوقت مُتَحَمِّلاً. فلما قال موسى هذا قال له الخضر:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي بعد هذا فلا صحبة بيننا.

ويقال قال الخضر إنك نبيٌّ.. وإنما أواخذك بما قُلْتَ، فأنت شَرَطْتَ هذا الشرط؛ وقلت: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي؛ وإنما أعاملك بقولك.

ويقال لما لم يصبر موسى معه في ترك السؤال لم يصبر الخضر أيضاً معه في إدامة الصحبة فاختار الفراق.

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأل له لأجل الغير - في أمر السفينة التي كانت للمساكين، وقَتَلَ النَّفْسَ بغير حق - لم يفارقه الخضر، فلما صار في الثالثة إلى القول فيما كان فيه حَظٌ لنفسه من طلب الطعام ابْتُلِيَ بالفرقة، فقال الخضر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

ويقال كما أن موسى - عليه السلام - كان يحب صحبة الخضر لما له في ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الخضر كان يحب ترك صحبة موسى عليه السلام إيثارةً للخلوة بالله عن المخلوقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

لما فارق الخضر موسى عليه السلام لم يُرِدْ أَنْ يَبْقَى فِي قَلْبِ مُوسَى شِبْهُ اعتراض؛ فَأَرَادَ عَنْ قَلْبِهِ ذَلِكَ بِمَا أَوْضَحَ لَهُ مِنَ الْحَالِ، وكشف له أَنَّ السَّرَّ فِي قَصْدِهِ مِنْ خَرَقِ السَّفِينَةِ سَلَامَتُهَا وَيَقَاؤُهَا لِأَهْلِهَا حَيْثُ لَنْ يَطْمَعَ فِيهَا الْمَلِكُ الْغَاصِبُ، فَبَقَاءُ السَّفِينَةِ لِأَهْلِهَا - وَهِيَ مَعِيَّةٌ - كَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ سَلَامَتِهَا وَهِيَ مَغْصُوبَةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آتِوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

بَيَّنَّ لَهُ أَنَّ قَتْلَ الْغُلَامِ لَمَّا سَبَقَ بِهِ الْعِلْمُ مَضَى مِنَ اللَّهِ الْحُكْمُ أَنَّ فِي بَقَائِهِ فِتْنَةً لَوَالِدَيْهِ، وَفِي إِبْدَالِ الْخَلْفِ عَنْهُ سَعَادَةٌ لَهُمَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(١).

(١) الآيات من (٨٣ حتى ٨٩) لم ترد.

أما تسوية الجدار فلاستبقاء كنز الغلامين وترك طلب الرفق من الخلق .

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ .

أقوام هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طول نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل مغرب الشمس الغالب عليهم استتار شمسهم . . كذلك الناس في طلوع شمس التوحيد: منهم الغالب عليهم طلوع شمسهم ، والحضور نعتهم والشهود وصفهم والتوحيد حقهم ، وآخرون لهم من شمس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرذل .

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَبْنَؤُا الْفَرْيَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلْ لَّكَ خَرِيبًا عَلَيَّ أَن يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ .

أي ما كانوا يهتدون إلا إلى لسان أنفسهم ، وما كانوا يفقهون فقه غيرهم فلعجؤوا إلى عبراتهم^(١) في شرح قصتهم ، ورفعوا إليه - في باب ياجوج وماجوج - مظلمتهم ، وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤالهم ، وحقق لهم بُغْيَتَهُمْ ، ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من الجباية ، لما رأى أنَّ من الواجب عليه حق الحماية على حسب المَكْنَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿مَا تَوْفِي زُبُرُ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ مَا تَوْفِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ .

استعان بهم في الذي احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال: ﴿مَا تَوْفِي زُبُرُ الْحَدِيدِ﴾ فلمَّا فعلوا ما أمرهم به ، ونفخوا فيه النار جعل السد بين الصدفين أي جانبي الجبل . ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ له في الخروج ، وتندفع عن الناس عادية (...)^(٢) إلى الوقت المضروب لهم في التقدير .

وبعد ذلك يكون من شأنهم ما يريد الله . وبين - سبحانه - أنَّ خروجهم من وراء سدِّهم من أشرار الساعة .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاوَةٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾^(٣) .

نظروا بأعين رؤوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال ،

(١) العبرات : (ج) العبرة : الدفعة قبل أن تفيض .

(٢) بياض في الأصل .

(٣) الآيات من (٩٧ حتى ١٠٠) لم ترد .

ولم يكن لهم سمع الإجابة لِمَا فقدوا من التوفيق، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف.

قوله: ﴿وَكَاوُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: لأنهم فقدوا من قِبَلِهِ - سبحانه - الإسماع؛ فلم يستطيعوا لهم القبول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَةٍ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

أي توهّموا أنه ينفعهم ما فعلوه حسب ظنهم، واعتقدوا في أصنامهم استحقاق التعظيم، وكانوا يقولون: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ضلّ سعيهم لأنهم عملوا لغير الله. وما كان لغير الله فلا ينفع.

ويقال الذين ضلّ سعيهم هم الذين قرئوا أعمالهم بالرياء، ووصفوا أحوالهم بالإعجاب، وأبطلوا إحسانهم بالملاحظات أو بالمن.

ويقال هم الذين يلاحظون أعمالهم وما منهم بعين الاستكثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

لم يكونوا أصحاب التحقيق، فعملوا من غير علم، ولم يكونوا على وثيقة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُطِئَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾.

عموا عن شهود الحقيقة فبقوا في ظلمة الجحد، فتفرّث بهم الأوهام والظنون، ولم يكونوا على بصيرة، ولم تستقر قلوبهم على عقيدة مقطوع بها؛ فليس لهم في الآخرة وزن ولا خطر، اليوم هم كالأنعام، وغداً واقعون ساقطون (٢) (٣) الأقدام.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

هم اليوم في عقوبة الجحد، وغداً في عقوبة الرد. اليوم هم في ذلّ الفراق، وغداً في أليم الاحتراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

لهم جنات مَعَجَلَة سرّاً، ولهم جنات مؤجلة جهراً.

(٢) بياض في الأصل.

(١) الوثيقة: ما يحكم به الأمر (ج) وثائق.

اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل .

اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان .

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ .

عرّفنا - سبحانه - أن ما يخوّلهم غداً يكون على الدوام، فهم لا ينفكون عن أفضالهم، ولا يخرجون عن أحوالهم؛ فهم أبداً في الجنة، ولا إخراج لهم منها. وأبداً لهم الرؤية، ولا حجاب لهم عنها^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَعْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ .

أي لا تعدّ معاني كلمات الله لأنه لا نهاية لها؛ فإنّ متعلقات الصفة القديمة لا نهاية لها؛ كمعلومات الحق - سبحانه - ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .

والذي هو مخلوق لا يستوفي ما هو غير مثناه - وإنّ كثّر ذلك .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ .

أخبر أنّك لهم من حيث الصورة والجنسية مشاكل، والفرق بينك وبينهم تخصيصُ الله - سبحانه - إياك بالرسالة، وتزكّه إياهم في الجهالة .

ويقال: قل اختصاصي بما لي من (الاصطفاء)^(٢)، وإن كنا - أنا وأنتم - في الصورة أكفاء .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

حملُ الرجاء في هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء المثوبة حسن، ولكن ترك هذا على ظاهره أولى؛ فالمؤمنون قاطبةً يرجون لقاء الله .

والعارف بالله - سبحانه - يرجو لقاء الله والنظر إليه .

والعمل الصالح الذي بوجوده يصل إلى لقائه هو صبره على لواعج اشتياقه، وأنّ يُخلص في عمله .

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾: أي لا يلاحظ عمّله، ولا يستكثر طاعته، ويتبرأ من حوّلته وقوّته .

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته .

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن رؤية الله بالأبصار: فإن قيل: فهل تجوز رؤية الله بالأبصار في الدنيا على جهة الكرامة؟ فالجواب عنه: أن الأقوى فيه أنه لا يجوز لحصول الإجماع عليه. ولقد سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال في ذلك قولان، وذلك في كتاب (الرؤية الكبير). (الرسالة القشيرية ص ٣٦٠).

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

سورة مريم عليها السلام

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله، اسم عزيز مَنْ عَبْدَهُ وَاصَلَ جِهَادَهُ، وَمَنْ طَلَبَهُ وَدَّعَ وِسَادَهُ، وَمَنْ عَرَفَهُ أَنْكَرَ أَحْبَابِهِ. وَمَنْ يَسَّرَ لَهُ أَوْقَفَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ.

مَنْ ذَكَرَهُ نَسِيَ اسْمَهُ، وَمَنْ شَهِدَهُ فَقَدَ عَقْلَهُ وَلُبَّهُ.

اسم عزيز جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَكُلَّ قَلْبٍ لَيْسَ يَوْقِفُهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، فَلَيْسَ بِحِيلَةٍ يَصِلُ.

اسم ما اتصفت أشباح الأبرار إلا بعبادته، وما اعتكفت أرواح الأحرار إلا بمشاهدته.

اسم عزيز مَنْ عَرَفَهُ اعترف أنه وراء ما وصفه.

قوله جل ذكره: ﴿كَهَيِّصٌ﴾.

تعريف للأحباب بأسرار معاني الخطاب، بحروف خَصَّ الْحَقُّ الْمَخَاطَبَ بِهَا بِفَهْمِ مَعَانِيهَا، وَإِذَا كَانَ لِلْأَخْيَارِ سَمَاعُهَا وَذِكْرُهَا، فَلِلرَّسُولِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَهْمُهَا وَسِرُّهَا.

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافي في الإنعام والانتقام، والرفع والوضع على ما سبق به القضاء والحُكْمُ.

ويقال في الكاف تعريف بكونه مع أوليائه، وتخويفٌ بِخُفْيٍ مَكْرِهِ فِي بِلَائِهِ.

ويقال في الكاف إشارة إلى كتابته الرحمة على نَفْسِهِ قَبْلَ كِتَابَةِ الْمَلَائِكَةِ الرُّؤْيَا عَلَى عِبَادِهِ.

والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه، وما له من الحق بحكم إحسانه.

والياء إشارة إلى يُسَرِّ نَعَمِهِ بَعْدَ غُصْرِ مِحْنِهِ. وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عبادِهِ.

والعين تشير إلى علمه بأحوال عبده في سيره وجهره، وقُله وكُثره، وحاله وماله، وقدر طاقته وحق فاقته.

وفي الصاد إلى أنه الصادق في وعده.

قوله جل ذكره: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُ زَكَرِيَّا﴾.

تخصيصه إياه بإجابته في سؤال ولده، وما أراد أن يتصل بأعقابه من تخصيص القرية له ولجميع أهله.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾.

وإنما ذلك لئلا يطلع أحد على سير حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامي عن شهود محاسنه، والاعتقاد بالسوء في نفسه، ثم أخفى سيره عن الخلق لئلا يقع لأحد إشراف على حاله، ولئلا يشمت بمقالته أعداؤه.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

أي لقيت بضعفي عن خدمتك ما لا أحبه؛ فطعن في السن، ولا قوة بعد المشيب؛ فهب لي ولدا ينوب عني في عبادتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

أي إني أسألك واثقاً بإجابتك؛ لعلمي بأنني لا أشقى بدعائك فإنيك تحب أن تسأل.

ويقال إنك عودتني إجابة الدعاء، ولم تردني في سالف أيامي إذا دعوتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتِ أُمَّرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثِي وَبِثْرٍ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

إني خفت أن تذهب النبوة من أهل بيتي، وتنتقل إلى بني أعمامي فهب لي ولداً يعبدك، ويكون من نسلي ومن أهلي.

وهو لم يرز الولد بشهوة الدنيا وأخذ الحظوظ منها، وإنما طلب الولد ليقوم بحق الله، وفي قوله: ﴿يَرْثِي﴾ دليل على أنه كما سأل الولد سأل بقاء ولده؛ فقال: ولداً يكون وارثاً لي؛ أي يبقى بعدي، ويرث من آل يعقوب النبوة وتبليغ الرسالة.

واجعله رب راضياً: رضي فعيل بمعنى مفعول أي ترضى عنه فيكون مرضياً لك. ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل أي راضياً منك، وراضياً بتقدير.

قوله جل ذكره: ﴿يَزَكِّرُنَا إِنَّا تَشِيرُكَ يُكَلِّمُ أَسْمُهُمْ يُخَوِّفُ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

أي استجبنا لدعائك، ونرزقك ولداً ذكراً اسمه يحيى؛ تحيا به عُقْرَةُ أُمِّه، ويحيا به نَسَبُكَ، يحيا به ذُكْرُكَ، وما سألتَه من أن يكون ناثباً عنك؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة في بيتك.

﴿لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾: انفراده - عليه السلام - بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة؛ أي لم يكن له سَمِيٌّ قَبْلَه؛ فلا أَحَدَ كُفِّرَ له في استجماع أوصاف فضله. ويقال لم تجعل له من قبل نظيراً؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنب له قَبْلَ النبوة ولا بعدها غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

سأل الولدَ فلماً أُجيب قال أنى يكون لي غلام؟ ومعنى ذلك - على ما جاء في التفسير - أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدة طويلة؛ فكأنه سأل الولدَ في ابتداء حال سِنِّه، واستجيبت دعوته بعد ما تناهى في سِنِّه، فلذلك قال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ؟﴾. ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد.. أمِنَ هذه المرأة وهي عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها مملوكة أستفرشها؟ فالسؤال إنما كان لتعيين مَنْ منها يكون الولد. فقال تعالى:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾.

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة في هذا الوقت الذي فيه حسب مستقر العادة ولادة مثل هذه المرأة دلالة ومعجزة لك على قومك، فتكون للإجابة بالولد مِنْ وَجْهِ معجزة؛ ومن وَجْهِ راحةٍ وكرامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

دلّت الآية على أن المعدوم ليس بشيء، لأنه نفى أن يكون قبل خَلْقِهِ له كان شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

أراد علامةً على علوق المرأة بالولد؛ ولم يُرَدْ علامةً يَسْتَدِلُّ بها على صِدْقِ ما يقال له. فأخبره تعالى: «أَنبُتُكَ علامةً وقت إجابتك.. إِنَّ لِسَانَكَ لا ينطق معهم بالمخاطبة - ولو اجتهدت كُلَّ الجهد - ثلاثة أيام، وعليك أن تخاطبني، وأن تقرأ الكتب المُنَزَّلَةَ التي كانت في وقتك. فكان لا ينطق لسانه إذا أراد أن يُكَلِّمَهُمْ، وإذا أراد أن يقرأ الكتب أو يَسْبُحَ اللَّهَ انطلق مع الله لسانه».

قوله جل ذكره: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

أي فلما خرج عليهم عرفهم - من طريق الإشارة - أن اللسان الذي كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَّبِعْنِيْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآيَاتُهُ الْحُكْمُ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةٌ وَكَانَ تَفِيًّا﴾.

أي قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة ميثاً، خَصَصْنَاكَ بها. . لا قوة يد ولكن قوة قلب، وذلك خير خَصَّهُ اللَّهُ تعالى به وهو النبوة. ودلت الآية على أنه كان من الله له كتاب.

﴿وَآيَاتُهُ الْحُكْمُ صَبِيًّا﴾ أي النبوة، بَعَثَهُ اللَّهُ بها إلى قومه، وأوحى إليه وهو صبي.

ويقال الحُكْمُ بالصواب والحق بين الناس.

ويقال الحكم هو إحكام الفعل على وجه الأمر.

قوله ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا...﴾ أي آتيناه رحمةً من عندنا، وطهارةً وتوفيقاً لمجلوبات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها؛ فإن التقوى على قسمين: مجموع ومجلوب يتوصل إليه العبد بتكليفه وتعلّمه، وموضوع من الله تعالى وموهوب منه يصل إليه العبد ببذله سبحانه ويفضله.

قوله جل ذكره: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

﴿براً بوالديه﴾ كأمر الله - سبحانه - له بذلك لا لمودّة البشر وموجب عادة الإنسانية. ولم يكن متمرداً عن الحق، جاحداً لربوبيته.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي له ميثاً أمان يوم القيامة، ويوم ولادته في البداية، ويوم وفاته في النهاية، وهو أن يصونه عن الزنغ والعوج في العقيدة بما يشهده على الدوام من حقيقة الإلهية.

وكذلك هو في القيامة له منه - سبحانه - إيمان؛ فهو في الدنيا معصوم عن الزلّة، محفوظ عن الآفة. وفي الآخرة معصوم عن البلاء والمحنة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

اعتزلت عنهم لتحصيل تطهرها، فاستترت عن أبصارهم.

فلما أبصرت جبريلَ في صورةَ إنسانٍ لم تتوقعه أَحَسَّتْ في نفسها رُغْباً، ولم تكن لها حيلةٌ إلا تخويفه بالله، ورجوعها إلى الله.
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾.

قالت مريمُ لجبريلَ - وهي لم تعرفه - إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب أن يُخَافَ ويُتَّقَى منه؛ أي إن كنت تُقْصِدُ السوءَ. ومعنى قولها ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ ولم تقل: «بالله» - أي بالذي يرحمني فيحفظني منك.

ويقال يحتمل أن يكون معناه: إن كنت تعرف الله وتكون متقياً مخالفة أمره فأني أعوذ بالله منك وأحذر عقوبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

تعرف جبريلُ إليها بما سَكَنَ رُوعَهَا، وَقَرَنَ مقالته بالتبشير لها بعيسى عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ مَائِدَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾.

قالت أنى يكون لي وَلَدٌ ولم أَلِمَ بِزَلَّةٍ ولا فاحشة؟ فقال جبريلُ - عليه السلام -: الأمرُ كما قلتَ لَكِ؛ فلا يتعصى ذلك على الله تعالى؛ إذ هو أَقْدَرُ أن يجعل هذا الولدَ دلالةً على كمال قدرته، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه - سبحانه - لِمَنْ آمَنَ، وسَبَبَ جهلٍ للآخرين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَاصِيًّا﴾.

لما ظهر بها الحملُ، وَعَلِمَتْ أَنَّ النَّاسَ يستبعدون ذلك، ولم تثق بأحدٍ تُفْشِي إليه سِرّها.. مَضَتْ إلى مكانٍ بعيدٍ عن الخلق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَجَأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾.

الْجَأَهَا وَجَعُ الولادةِ إلى الاعتمادِ إلى جَنْعِ النخلة. ولما أخذها الطلقُ، وداخلها الحَجَلُ مِنْ قومِها نُطَقَتْ بلسانِ العَجَزِ، وقالت: ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا﴾.

ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقاً من قومها، لأنها عَلِمَتْ أَنَّهُمْ سييسطون لسانَ الملامةِ فيها بلسانِ الفُجْرِ؛ وينسبونها إلى الفحشاء.

ويقال قالتها شفقةً على قومها لثلاثِ تُصِيبُهُمْ بِسَبَبِها عقوبةٌ.

ويقال قالت: ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا﴾ حتى لم أسمع مَنْ قال في الله تعالى بسببي إن عيسى ابن الله وابن مريم، وإن مريمَ زوجته... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

ويقال ﴿بَلِّغْنِي مِثْقَلَ ذَرَّةٍ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتُ مَرْفُوعاً بِهٖ، وَلَمْ تَسْتَقْبِلْنِي هَذِهِ الْخَشُونَةُ فِي الْحَالَةِ الَّتِي لِحَقَّتْنِي﴾.

ويقال ﴿بَلِّغْنِي مِثْقَلَ ذَرَّةٍ فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ قَلْبِي مُتَعَلِّقاً بِسَبَبٍ﴾.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَعْرِفِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا^(١)﴾.

في التفسير أن المَغْنِيَّ بقوله ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾: جبريل عليه السلام، وقيل عيسى عليه السلام. والمقصود منه تسكين ما كان بها من الوحشة، والبشارة بعيسى عليه السلام، أي يرزقك الله ولداً سرياً.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَهَزَيْتَنِي لِمَا لَكَ بِمَنْجِ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾.

وكان جذعاً يابساً أخرج الله تعالى منه في الوقت الثمرة، وهي الرُّطْبُ الجَنِيُّ، وكان في ذلك آية ودلالة لها؛ فالذي قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى - عليه السلام - من غير أب.

ويقال عندما كانت مُجَرَّدَةً بلا علاقة، فقد كان زكريا - عليه السلام - يَجِدُ عندها رزقاً من غير أن أُمِرَتْ بتكلف، فلما جاءت علاقة الولد أُمِرَتْ بهز النخلة اليابسة - وهي في أضعف حالها؛ زمان قرب عهدها بوضع الولد، لِيُعْلَمَ أَنَّ العلاقة توجبُ العناء والمشقة.

ويقال بل أُمِرَتْ بهز النخلة اليابسة، وكان تمكُّنها من ذلك أوضح دلالة على صدقها في حالها.

ويقال لما لم يكن لها في هذه الحالة مَنْ يقوم بتعهدتها تولى الله تعالى كفالتها؛ لِيُعْلَمَ العالمون أنه لا يضيع خواصُّ عبادِهِ في وقت حاجتهم.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَكُلِّي وَأَشْرِي وَفَرِي عَيْنًا فَمِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

كفاها أسباب ما احتاجت إليه مِنْ أَكْلِهَا وَشُرْبِهَا، وَسَكَنَ مِنْ خَوْفِهَا، وَطَيَّبَ قَلْبَهَا.

﴿فَمِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾: فلا تخاطبهم وعرفيهم - بالإشارة - أَنَّكِ نَذَرْتَ للرحمن الصمت مع الخلق، وَتَرَكَ المَخَاطَبَةَ معهم.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَنَّتْ بِهِ قَوْمَهَا فَحَمِلَتْهُ قَالُوا يَلْمِزِيهِمْ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَتَأَخَتْنَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾.

بسط قَوْمُهَا فِيهَا لِسَانَ الْمَلَامَةِ لِمَا رَأَوْهَا قَدْ وَلَدَتْ - وظاهر الحال كان معهم -

(١) السُّرِّي: الجدول، أو النهر الصغير.

فقالوا لها على سبيل الملامة: يا مَنْ كُنَّا نَعُدُّكَ فِي الصَّلَاحِ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ الْمَعْرُوفِ
بِالسَّدَادِ وَالصَّلَاحِ... مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذِهِ الْحَالَةُ الشُّعَاءِ؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون. ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً في قومهم،
فقالوا: يا شبيهته في الفساد... ما هذا الولد؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا: يا أخت هارون، وبِأَيِّ مَنْ فِي حِسَابِنَا
وِظَنَّتْ مَا كَانَ أَبَوَاكِ فِيهِمَا سُوءٌ وَلَا فُسَادٌ... كَيْفَ أَتَيْتِ بِهِذِهِ الْكَبِيرَةِ الْفُظْيَةِ؟!

قوله جل ذكره: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

في الظاهر أشارت إلى الولد، وفي الباطن أشارت إلى الله، فأخذهم ما قرب
وما بعد وقالوا: كيف نكلّم مَنْ هُوَ أَهْلٌ بِأَنْ يُتَوَّمَ فِي الْمَهْدِ؟!

فـ «كان» ها هنا في اللفظ صلة... وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

لما قالوا ذلك أنطق الله عيسى حتى قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، فظهرت براءة صاحبها
بكلام عيسى قبل أن يتكلّم مثله. وجرى على لسانه حتى قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾؛ لِيُقَالَ
لِلنَّصَارَى إِنَّ صَدَقَ عِيسَى أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بَطْلَ قَوْلِكُمْ إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَإِنْ كَذَبَ فَالَّذِي
يَكْذِبُ لَا يَكُونُ ابْنًا لِلَّهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَبْدًا لِلَّهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَبْدَ هَوَاهُ، وَلَا فِي أَسْرِ
شَيْءٍ سِوَاهُ فَمَنْ تَحَرَّرَ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَبْدُهُ.

﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾: أي سيؤتيني الكتاب أو آتاني في سابق حكمه.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ بفضلّه. وفي الآية ردٌّ على من يقول إن النبوة تُسْتَحَقُّ بِكثرة الطاعة
لأنه قال ذلك في حال ولادته؛ ولم تكن منه بغدُ عبادةٍ وأخبر أن الله جعله نبياً.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا
وَبَرًّا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

أي نافعاً للخلق يرشدهم إلى أمور دينهم، ويمنعهم من ارتكاب الزَّلَّةِ التي فيها
هلاكهم، وَمَنْ استضاء بنوره نجا... فهذه بركاته التي كانت تصل إلى الخلق. وَمَنْ
بركاته إغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، ونصرة المظلوم، ومواساة الفقير، وإرشاد
الضال، والنصيحة للخلق، وكفُّ الأذى عنهم وحملُ الأذى منهم.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي لم يجعلني غير قابلٍ للنصيحة.

ويقال ﴿شَقِيًّا﴾: أي متكبراً متجبراً. ويقال مختوماً بكفرٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

قال عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾، وقال لنبينا عليه السلام ليلة المعراج: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته». . . فشتان ما هما!

والسلام بمعنى السلامة، أي سلامة لي يوم الولادة مما نسبوا إلي من قول النصارى في مجاوزة الحد في المدح، ومما وصفني به اليهود من الذم، فَلَسْتُ كما قالت الطائفتان جميعاً.

وسلام عليّ يوم أموت؛ ففي ذلك اليوم تكون لي سلامة حتى تكون بالسعادة وفاتي.

وسلام عليّ يوم أُبعث؛ أي سلامة لي في الأحوالِ ممّا يُبتلى به غير أهل الوصال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْعُرُونَ﴾.

أي الذي قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أيكون بقول إله؟ وقد شكّ فيه أكثر الخلق فرّده قومٌ وقبّله قومٌ، والفرق بينهما في استحقاقه. وقوله: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ أي يكون بقوله الحق وهو:

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَلَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِرَبِّكَ رَحْمَةً مِّنْ رَّبِّكَ فَمَا عَلَيْكَ حِجَابٌ مِّنْهُ﴾.

لا يجوز أن يكون له ولدٌ على الحقيقة؛ لأنه واحد، والولدُ بعضُ والده.

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة. ولا يجوز عليه التبني لأحدٍ لَعَدَمِ الجنسية بينهما.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ . . . ﴿إِذَا أَرَادَ إِحْدَاثَ شَيْءٍ خَلَقَهُ بِقُدْرَتِهِ، وَخَاطَبَهُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، وَلَا يَتَعَصَّى عَلَيْهِ - فِي التَّحْقِيقِ - مَقْدُورٌ.

﴿وَلَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِرَبِّكَ رَحْمَةً مِّنْ رَّبِّكَ﴾ أي أمرني بأن تعلموا ذلك؛ وأمرني بتبليغ رسالتي، واتباع ما شَرَعَ اللَّهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فَمَنْ عَجِثَتْ بِمَاءِ السَّعَادَةِ طِينَتُهُ أَطَاعَ فِي عَاجِلِهِ وَمَا ضَاعَ فِي آجِلِهِ، وَمَنْ أَقْصَتْهُ الْقِسْمَةُ السَّابِقَةُ لَمْ تُذْنِبِ الْخِذْمَةَ اللاحقة، وَسَيَلْقَوْنَ غِيَبَ هَذَا الْأَمْرِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَتَمِيعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

تصير معارفهم ضروريةً، وأحوالهم كلها معكوسةً، والحُجَّةُ تتأكد عليهم، والحاجةُ لا تُسْمَعُ منهم، والرحمةُ لا تتعلّق بهم، فلا تُرَحِّمُ شكائهم، ولا يُسْمَعُ نِدَاؤُهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْمُنْصَرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .
تقوم الساعة بغتة، وتصادفهم القيامة وهم غير مستعدين لها فيتحسرون على ما فاتهم .

ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سبقت لقوم الشقاوة - وهم في محو العدم، ولآخرين السعادة - وهم بنعت العدم، ولم يكن من أولئك جُزءٌ بغد، ولا من هؤلاء وفاءٌ بعد .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ .

يريد به إذا قبض أرواح بني آدم بجملتهم، ولم يبق على وجه الأرض منهم واحد، وليس يريد به استحداث ملكه، وهو اليوم مالك الأرض ومن عليها، ومالك الكون وما فيه .

ويقال إن زكريا قال - لما سأل الولد: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] وقال تعالى في صفة بني إسرائيل: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال: ﴿إِنَّا الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ولما انتهى إلى هذه الأمة قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ . فستان بين من وارثه الولد وبين من وارثه الأحاد!

ويقال هان على العبد المسلم إذا مات إذا كان الحق وارثه . . وهذا مخلوق يقول في صفة مخلوق:

فإِنْ يَكُ عَثَابٌ مَضَى لِسَبِيلِهِ فما مات من يبقى له مثل خالد
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٦٨] لماذا؟ لِأَنَّ وَاثِقَهُمُ اللَّهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ .

الصدِّيق الكثير الصدق، الذي لا يمازج صدقه شوب .

ويقال هو الصادق في أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصدِّيق لا يناقض سيره علته .

ويقال هو الذي لا يشهد غير الله مثبتاً ولا نافياً .

ويقال هو المستجيب لما يطالب به جملة وتفصيلاً .

ويقال هو الواقف مع الله في عموم الأوقات على حد الصدق .

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِإِيَّاهِ بِتَأْتِي لِمَ تَقْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ .

دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى اسْتِحْقَاقِ الْمَعْبُودِ الْوَصْفَ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ عَلَى الْكَمَالِ دُونَ
تُقْصَانٍ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ.

وَإِذَا رَجَعَ الْعَبْدُ إِلَى التَّحْقِيقِ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ الْخَلْقِ لَا تَضْلُعُ قُدْرَةُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
لِلْإِبْدَاعِ وَالْإِحْدَاثِ، فَمَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِمَخْلُوقٍ، أَوْ تَوَهَّمَ شَطِيئَةَ مَنْهُ مِنَ النِّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ
فَقَدْ ضَاهَى عَبْدَهُ الْأَصْنَامِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾.

أَمَرَهُ بِاتِّبَاعِهِ لِمَا تَرَجَّحَ عَلَيْهِ جَانِبُهُ فِي كَوْنِ الْحَقِّ مَعَهُ - وَإِنْ كَانَ أَكْبَرَ مِنْهُ سَيِّئًا، وَبَيَّنَّ
أَنَّ الْخَلَاصَ فِي اتِّبَاعِ أَهْلِ الْحَقِّ، وَأَنَّ الْهَلَاكَ فِي الْإِبْتِدَاعِ وَالتَّطَوُّعِ فِي مَغَالِيطِ الطَّرِيقِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ الْعِلَّةَ فِي مَنْعِهِ مِنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ عَصِيَانَهُ لِلرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ
تَكُونَ طَاعَةً لِمَنْ يَعْصِي اللَّهَ بِحَالٍ.

وَيُقَالُ أَسَاسُ الدِّينِ هِجْرَانُ أَرْبَابِ الْعَصِيَانِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.

لَمْ يَغَادِرِ الْخَلِيلُ شَيْئًا مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى أَبِيهِ، وَلَمْ يَنْفَعِهِ جَمِيلٌ وَعِظُهُ، وَلَمْ تَنْجِعْ
فِيهِ كَثْرَةُ نُصْحِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَقْصَتْهُ سَوَابِقُ التَّقْدِيرِ لَمْ تَخْلُصْهُ لَوَاحِقُ التَّدْبِيرِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرِهِي﴾.

مَتَاهُ إِبْرَاهِيمُ بِجَمِيلِ الْعُقْبَى، فَقَابَلَهُ بِتَوْعَدِ الْعُقُوبَةِ فَقَالَ:

﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾.

فَأَجَابَهُ الْخَلِيلُ بِمَقْتَضَى سَكُونِ الْبَصِيرَةِ فَقَالَ:

﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾.

وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَبَاسَ مِنْ إِيْمَانِهِ، إِذْ كَانَتْ لَدَيْهِ بَعْدُ بَقِيَّةٌ مِنَ الرَّجَاءِ فِي شَأْنِهِ، فَلَمَّا
تَحَقَّقَ أَنَّهُ مَخْتَوِمٌ لَهُ بِالشَّقَاوَةِ قَالَ لَهُ:

﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾: أَيِ مَا تَعْبُدُونَ، ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾: أَيِ أَعْبُدُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا
جَعَلْنَا نَبِيِّنًا﴾.

لَمَّا أَيْسَرَ مِنْ أَصْلِهِ أَنَسَهُ اللَّهُ بِمَا أَكْرَمَهُ مِنْ نَسْلِهِ، فَانْبَتَهُمْ نَبَاتًا حَسَنًا، وَرَزَقَهُمُ
النَّبُوَّةَ، وَلَسَانَ الصِّدْقِ بِالذِّكْرِ لَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ فَقَالَ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

مُخْلَصًا خالصاً لله، ولم يكن لغيره بوجه؛ فلم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يستغفزه طمع نحو إثارة حظ، ولم يُغض في الله على شيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

للتجوى مزية على النداء، فجمع له الوصفين: النداء في بدايته، والسماع والتجوى في نهايته؛ فوققه الحق وناداه، وفي جميع الحالين تولاه.

﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾: ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبياً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفداء. وصدق الوعد لأنه حفظ العهد. وكان يأمر أهله بالصلاة - بأمر الله إياه - وبالزكاة، ويشتمل هذا على ما أمره إياهم بالعبادة البدنية والمالية حيثما كان.

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وكان هذا أشرف خصاله وأجل صفاته.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

الصديق كثير الصدق، لا يشوب صدقه مدق^(٢)، ويكون قائماً بالحق للحق؛ ولا يكون فيه نفس لغير الله.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾: درجة عظيمة في التربية لم يساوه فيها أحد.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

أقامهم بشواهد الجمع، وأخبر أن ميثه كائنه في تخصيصهم بأحوالهم، وتأهيلهم لما رُقاهم إليه من المال، وأنه بفضله اختارهم واجتباهم. ومما أنعم به عليهم من الخصائص رقة قلوبهم؛ فهم إذا تُلِّي عليهم الآيات سجدوا، وسجود ظواهرهم يدل

(١) الطور: جبل قرب أيلة يُضاف إلى سيناء أو سينين، وهو الذي ناجى فيه موسى عليه السلام ربه.

(٢) المدق: المزج والخلط، والمماذقة في الود: ضد المخالصة، ومدق الود: لم يخلصه. (اللسان ٣٤٠/١٠ مادة: مدق).

على سجود سرائرهم بما حَقَّقَ لهم من شواهد الجمع، وأمانة صحته ما وفقهم إليه من عين الفرق؛ فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية، وبنعت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

الذين حادوا عن طريقهم، وضيعوا حق الشرع، وتخطوا واجب الأمر، وزاغوا عن طريق الرشد، وأخلوا بآداب الشرع، وانخرطوا في سلك متابعة الشهوات - سيلقون عن قريب ما يستوجبونه، ويُعَامَلُونَ بما يستحقونه.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّتِ عَدْنُ آلِيقٍ وَعَدَّ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَائِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاً إِلَّا سَلَامًا﴾.

فأولئك الذين تداركتهم الرحمة الأزلية، وسيبقون في النعم السرمدية. يستنجز الحق لهم عذاباتهم، ويوصلهم إلى درجاتهم، ويحقق لهم ما وعدهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَائِيًّا﴾: لأن ما أُتِيَتْه فقد أُنَاكَ أو ما أُنَاكَ فقد أُتِيَتْه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاً﴾: فإن أسماعهم مصونة عن سماع الأغيار، لا يسمعون إلا من الله وبالله، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

كانوا يعدون من عنده طعام البكرة والعشية من جملة المياسير والأغنياء لكونهم فقراء؛ إن وجدوا غداءهم ففي الغالب يَغْدِمُونَ عشاءهم، وإن وجدوا عشاءهم فقلما كانوا يجدون غداءهم. ويقال في: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ فِيهَا﴾ [النحل: ٥٧]: بمقدار الغدو والعشي من الزمان في الجنة أي كالوقت. ثم إن الأرزاق تختلف في الجنة؛ فللأشباح رِزْقٌ من مطعوم ومشروب، وللأرواح رِزْقٌ من سماع وشهود، ولكل - على قدر استحقاقه - قِسْطٌ معلوم.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾.

فالجنة للأتقياء من هذه الأمة مُعَدَّةٌ له، والرحمة لعصاة المسلمين مُدْخَرَةٌ لهم، الجنة لُطْفٌ من الله تعالى، والرحمة وَصْفٌ لله تعالى. وقوله: ﴿مَنْ عِبَادِنَا﴾: فَعَبْدُهُ على الخصوصية مَنْ كان اليوم في قيد أمره. وقوله: ﴿مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾: قوم يتقون المعاصي والمخالفات، وقوم يتقون الشهوات، وآخرون يتقون الغفلات، وآخرون يتقون شهود كُلِّ غيره.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾.

إن الملائكة - عليهم السلام - أبداً ينزلون بإذن الحق تعالى، فبعضهم بإنجاد المظلومين، وبعضهم بإغاثة الملهوفين، وبعضهم بتدمير الجاحدين، وبعضهم بنصرة المؤمنين، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين. واللَّهُ - سبحانه - لا يترك جاحداً ولا عابداً من حفظ وإنعام، أو إمهال ونكال...

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

بحق الإظهار يجب أن يكون هو ربها، ويكون مالكها، ويكون قادراً عليها. وإذا وجدت فهو فاعلها، فمعنى كون فعل الشيء لفاعله أنه في مقدوره وجوده. ويقال إذا كان رب الأكابر من الأقوياء فهو أيضاً رب الأصاغر من الضعفاء، وقيمة العبد بمالِكِهِ وقَدْرِهِ، لا بشمته في نفسه وخَطَرِهِ.

قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي قف حيشماً أمرك، ودغ ما يقع لك، وحل رأيك وتدبيرك.

قوله: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾: الاصطبار غاية الصبر.

قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: أي كفواً ونظيراً. ويقال هل تعرف أحداً يسمى «الله» غير الله؟ ويقال أني بالنظير... وهو بالقدم متوحداً! والتشبيه يقتضي التسوية بين المتشابهين، ولا مثل له... لا موجوداً ولا موهوماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِنَّا مِثْلَ لَسَوَفَ أَخْرِجُ حَيًّا أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾.

أنكروا حديث البعث غاية الإنكار، فأقام الحجة عليهم بالنشأة الأولى؛ فقال: إن الذي قدر على خلقي في الابتداء وهم نُطِفَ ضعفاء، وقُبِلُ كانوا في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ففَطَرَهُمْ، وعلى ما شاء صَوَّرَهُمْ، وفي الوقت الذي أراد - عن بطون أمهاتهم أخرجهم.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ فيه دليل على صحة أهل البصائر أن المعدوم لم يك شيئاً في حال عَدَمِهِ.

ويقال أبطل لهم كل دعوى حيث ذكروهم نَسَبَهُمْ وكَوَّنَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْصِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً﴾.

نحشرهم جميعاً فيجتمعون في العَرْصَةِ^(١). ثم يختلف مُنْقَلَبُهُمْ؛ فيصير قومٌ إلى النار ثم إلى دَرَكَاتٍ بعضها أسفل من بعض - واسمُ جهنم يجمع أماكنهم. ويصير قومٌ إلى الجنة ثم هي دَرَجاتٌ بعضها أعلى رتبةً ودرجةً من بعض - واسمُ الجنة يشمل على جميع مساكنهم.

ويقال التفاوتُ في الجنة بين الدرجاتِ أكثرُ من التفاوت بين أهل الدارين.
قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَنِيًّا﴾.
مَنْ تَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ فِي الْإِضْلَالِ وَالضَّلَالِ ضَوْعَفَ عَلَيْهِ غَدَا الْعَذَابِ وَالْأَغْلَالِ.
﴿ثُمَّ لَنَعْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًى﴾.

ينزل في كل دَرَكَةٍ من دركاتها من هو أهل لها، فمن كان عتوه اليومَ أشدَّ غلوا كان في النار أبعدَ من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنُكَفِّرَنَّ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

كلُّ يَرِدُ النَّارِ ولكن لا ضَيْرَ منها ولا احتباسٌ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (..)(٢) والزلزل؛ فأشدُّهم انهماكاً أشدهم بالنار اشتعلاً واحتراقاً. وقوم يردونها - كما في الخير: «إن للنار عند مرورهم عليها إذوبة»^(٣) كإذوبة اللبن، فيدخلونها ولا يحسون بها، فإذا عبروها قالوا: أو ليس وعدنا جهنم على طريق؟ فيقال لهم. عبرتم وما شعرتُم!

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ نَتَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾.

يُنَجِّي مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا، بعضهم قَبْلَ بعض، وبعضهم بَعْدَ بعض، ولكن لا يبقى من المؤمنين مَنْ لا ينجيهم. ويترك الكفار فيها بنعت الخيبة عن الخروج منها، وعند ذلك يشتدُّ عليهم البلاء، وتُطَبَّقُ عليهم أبوابُ جهنم، وينقطع منهم الرجاء والأمل.

وإنما ينجو القوم بحسب تقواهم؛ فزيادة التقوى توجب لهم التعجيل في النجاة؛ فمن سابقٍ ومن لاحقٍ، ومن منقطع، ومن محترق... إلى كثيرٍ من الأصناف والألوان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَىٰ هِمِّ ۖ إِنَّمَا يَنْتَوَىٰ ظَالِمٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ لِلَّذِينَ ۖ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

(١) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء (ج) عرصات وعراض.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الإذوبة: الزُّبْدُ يَذَابُ فِي الْبُرْمَةِ لِيُطْبَخَ سَمْنًا، فلا يزال ذلك اسمه حتى يُحَقَّنَ فِي الشَّقَاءِ. (اللسان ٣٩٧/١ مادة: ذوب).

يعني إذا قُرِئَتْ عليهم آيات القرآن قابلوها بالرّد والجحد والعتو والزيف، وَيَدْعُونَ
أنهم على حق، ولا يعتمدون في ذلك إلا على الحَدْسِ والظَّنِّ.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾.

أي إن هؤلاء ينخرطون في سِلْكٍ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ، كما سلكوا في الريب منهاجهم،
وسَيَلَقُونَ ما يستوجبونه على سوء أعمالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَسُدَّ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾.

إن الله تعالى يُمهّلُ الكفار ليركنوا إلى أباطيل ظنونهم، وَيَغْتَرُوا بِسَلَامَةِ أحوالهم،
فينسونه في غفلة الإمهال والاعترا بسلامة أحوالهم، ثم يغشاهم التقدير بما يستوجب
حسابانهم.

قوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ...﴾ أي يحل بهم موعود العقوبة عاجلاً أو قيام
الساعة آجلاً، فعند ذلك يتضح لهم ما تعاموا عنه من شدة الانتقام، وسيعلمون عند
ذلك ما فاتهم وما أصابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

أي يُغْنِيهِمْ بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع
الشمس، فإذا مَتَعَ نهارُ العرفان فلا ظلمة ولا تهمة.

﴿وَالْبَيِّنَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾

﴿وَالْبَيِّنَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: الشهادة بالربوبية خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق
الإخلاص.

ويقال: ﴿وَالْبَيِّنَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: التي تبقى عند الله مقبولة.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ لأن في استحقاق القبول زيادةً للهدى؛ فيصير عِلْمُ اليقين
عينَ اليقين، وعَيْنُ يقينهم حَقُّ اليقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾.

أخبر بقصة ذلك الكافر الذي قال بيمين - من غير حجة - لأُعْطِيَنَّ مَالًا وولداً،
ورأى أن يكون ليمينه تصديق، فهل هو:

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

هل يقول ما يقول بتعريف منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك.
ودليل الخطاب يقتضي أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جميلاً، أو أَمَّلَ منه

أشياء كثيرة فالله تعالى يحققها له، وَيَصْدُقُ ظَنُّهُ لَأنَّهُ على عهد مع الله تعالى، والله تعالى لا يخلف وعده.

قوله جل ذكره: ﴿كَأَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

كلا... ليس الأمر على ما يقول، وليس لقولهم تحقيق، بل سنمد لهم من العذاب مدًّا أي سنطيل في العذاب مدتهم.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ...﴾ لن نمتعه بأولاده وحشيمه وخدمه وقومه، ويعود إلينا منفرداً عنهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُم عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

حكموا بظنهم الفاسد أن أصنامهم تمنعهم، وأن ما عبده من دون الله تعالى توجب عبادتهم لهم عند الله تعالى وسيلة... وهيئات! هيئات أن تكون لمغاليط حسابانهم تحقيق، بل إذا حشروا وحشرت أصنامهم تبرزت أصنامهم منهم، وما أمَلُوا نفعاً منها عاد ضرراً عليهم.

ويقال طلبوا العِزَّ في أماكن الذل، فأخفقوا في الطلب، ونُفُوا عن المراد.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾.

تؤزهم أي تزعجهم، فخاطر الشيطان يكون بازعاج وغمة، وخاطر الحق يكون برُوح وسكينة، وهذه إحدى الدلائل بينهما.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾.

الأنفاس في الحكم معدودة؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها. وإذا انتهى الأجل فلا تنفع بعد ذلك الحِيل، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾.

قيل ركبانا على نجائب طاعاتهم، وهم مختلفون؛ فَمِنْ رَاكِبٍ على صدور طاعاته، ومن رَاكِبٍ على مراكب هممه، ومن رَاكِبٍ على نجائب أنواره. ومن محمولٍ يحمله الحق في عقباه كما يحمله اليوم في دنياه. وليس محمول الحق كمحمول الخلق!

قوله جل ذكره: ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾.

فأولئك يُساقون بوصف العِزِّ، وهؤلاء يُساقون بنعت الذلِّ، فيجمعهم في السُّوقِ، ولكن يُغَابِرُ بينهم في معانيه... فشتان ما هما!!

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

وذلك العهد حفظهم في دنياهم ما أخذ عليهم - يوم الميثاق - من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ نَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَنَخِرُّ لِلْجِبَالِ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾.

ما أعظم بهتانهم في مقالتهم! وما أشد جرأتهم في قبيح حالتهم! لكن الصمدية متقدسية عن عائذ يعود إليها من زين بتوحيد موحد، أو شين بالحاد ملحد... فما شامت إلا وجوههم بما خاضوا فيه من مقالهم، وما صاروا إليه من ضلالهم. كما لم يتجمل بما قاله الآخرون إلا القائل، وما عاد إلا القائل مقابل من عاجل أو آجل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا يَرَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا لَقَدْ أَحْضَرْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾.

أنى بالولد وهو واحد؟! وأنى بالولادة ولا جنس له وجوباً ولا جوازاً؟!
﴿لَقَدْ أَحْضَرْنَاهُمْ...﴾: لا يغرب عن علمه معلوم، ولا ينفك عن قدرته - مما يصح أن يقال حدوثه - موهوم.

﴿وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾: لا خدم يصحبهم، ولا حشم يلحقهم، كل بنفسه مشغول، وعن غيره منفرد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.
يجعل في قلوبهم وداً لله نتيجة لأعمالهم الخالصة، وفي الخبر: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى يحبني وأحبه»^(١).

ويقال يجعل لهم الرحمن ودأ في قلوب عباده، وفي قلوب الملائكة، فأهل الخير والطاعة محبوبون من كل أحد من غير استحقاق بفعل.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾.
الكلام واحد والخطاب واحد، وهو لقوم تيسير، ولآخرين تخويف وتحذير. فطوبى لمن يسر لما وقع به، والويل لمن خوف بل خذل فيه. والقوم بين موفق ومخذول.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٠٣، ٩/ ٦١٠)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧١).

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

أثبتهم وأحياهم، وعلى ما شاء فطرحهم وأبقاهم، ثم بعد ذلك - لما شاء - أماتهم وأفناهم، فبادوا بأجمعهم، وهلكوا عن آخرهم، فلا كبير منهم ولا صغير، ولا جليل ولا حقير، وسيطالبون - يوم النشور^(١) - بالنكير والقطمير.

(١) يوم النشور: يوم القيامة.

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز مَنْ تَحَقَّقَ بِجَلالِ عِزَّتِهِ تمحض في خلوصِ عبوديته، وإذا وصل إلى ضياء صفوته نزل عن سيماء نعوته.

اسم عزيز مَنْ عرفه سَمَتْ هِمَّتُهُ، وإذا سمت همته سقطت عن الدارين طَلْبَتُهُ.

اسم مَنْ عَرَفَهُ زال كَرْبُهُ وطاب قلبه؛ دِينُهُ رَبُّهُ وَجَنَّتْهُ حُبُّهُ.

اسم عزيز من وَسَمَهُ بعبوديته خَرَّره من رِقِّ شهواته، وأعتقه من أَسْرِ مَطَالِيهِ؛ فلا له لمحجوبٍ طلبٌ، ولا يستغزُّه لمحذورٍ هربٌ.

قوله جل ذكره: ﴿طه مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

الطاء إشارة إلى قلبه - عليه السلام - من غير الله، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله.

وقيل طاً بِسَرِّكَ بساط القرية فأنت لا تهتدي إلى غيرنا.

ويقال طوبنا عن سَرِّكَ ذَكَرَ غيرنا، وهديناك إلينا.

ويقال طوبى لمن اهتدى بك. ويقال طاب عيش مَنْ اهتدى بك.

﴿مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾: أي ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك، وإنما هذا استفتاح الوصلة، والتمهيد لبساط القرية.

ويقال إنه لما قال له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] وقف بِفَرْدٍ قدم تباعدا وتنزهاً عن أن يقرب من الدنيا استمتاعاً بها بوجهٍ فقيل له: طاً الأرض بقدميك... لِمَ كل هذا التعب الذي تتحملة؟ فزاد في تعبه، ووقف، حتى تقدمت قدماه وقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١) أي لما أهلني من التوفيق حتى أعبد.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٦٣/٢، ١٦٩/٦، ١٢٤/٨)، ومسلم في (الصحيح صفات المنافقين ٧٩، ٨٠، ٨١)، والترمذي في (السنن ٤١٢)، والنسائي في (السنن ٢١٩/٣)، وابن ماجه في (السنن ١٤١٩ - ١٤٢٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢٥١/٤، ٢٥٥، ١١٥/٦) والبيهقي في=

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا نَذْكِرُهُ لِمَن يَخْشَى﴾.

فالقرآن تبصرة لذوي العقول، تذكرة لذوي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحة النفس في آجلهم، وهؤلاء به يذكرون فيجدون روح الأتس في عاجلهم.

قوله جل ذكره: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾.

جعل الأرض قراراً لعباده. ونفوس العابدين أرض وقراراً لطاعتهم، وقلوب العارفين قراراً لمعارفهم.

قوله جل ذكره: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

استواء عزه في السماء معلوم، وعزسه في الأرض قلوب أهل التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَيَجْلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وعرش القلوب:

قال تعالى: ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]. أمّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى، وعرش القلوب الرحمن عليه استولى. عرش السماء قبلة دعاء الخلق، وعرش القلب محل نظر الحق... فشتان بين عرش وعرش!

قوله جل ذكره: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْهَمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾.

له الأشياء على العموم ملكاً، والأولياء تخصيصاً وتشريفاً. له ما بين السموات والأرض مما أظهر من العدم؛ فالكل له إثباتاً وخلقاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَن يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى﴾.

النفس لا تقف على ما في القلب، والقلب لا يقف على أسرار الروح، والروح لا

= (السنن الكبرى ٤٩٧/٢، ١٦/٣، ٣٩/٧)، والطبراني في (المعجم الصغير ٧١/١، ١١٨) وابن خزيمة في (الصحيح ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٢٧١/٢)، وابن حجر في (المطالب العالية ٥٢٩)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢٦/١، ٣٧٣/٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢٥٠/٧، ٢٨٩/٨)، (البغوي ١٧٤/٤، ٣٨٧/٧)، والساعاتي في (بدائع المنن ٣١٦، ٣١٧)، وابن حجر في (فتح الباري ٥٨٤/٨، ١٠٥/٩، ٣٠٣/١١)، والبغوي في (شرح السنة ٤٥/٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٢٢٠) وصاحب (ميزان الاعتدال ٤٣١)، وابن حبان في (المجروحين ١٦١/١، ٣١/٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٨٥/٥، ١٨٦، ٧٨/٧)، والعراقي في (المعني عن حمل الأسفار ٧٨ - ٨٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣٣١/٤، ١٩٧/٧، ٢٦٥، ١٠١/١٤ - ٣٠٦) والقاضي عياض في (الشفاء ١/١، ٤٦٥، ٢/٢، ٢٥١، ٣٩١، ٤٧/٩ - ٥٩)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ١٧، ٩٢)، وابن المبارك في (الزهد ٣٦)، (مناهل الصفا ٢٦)، والترمذي في (الشمائل ١٤٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/١١١، ٧٠/٦)، والمنتقي الهندي في (كنز العمال ١٨٥٨٠، ١٨٥٨١)، وابن عبد البر في (التمهيد ٦/٢٢٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/٢٣٢).

سبيل له إلى حقائق السر. والذي هو أخفى من السر فهو ما لا يُطْلَعُ عليه إلا الحق^(١).
ويقال الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان، ولا يكتبه المَلَكَانِ، ويستأثر به
بِعِلْمِهِ الْجَبَّارُ، ولا تقف عليه الأغيار.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

نَقَى كل موهوم من الحدثان بأن يكون شيء منه صالحاً للإبداع، وأثبت كل ما
في الوجود له باستحقاق القِدَم.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي صفاته، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى.

ويقال ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾: تعريفٌ للخلق بأن استحقاق العلو والتقدُّس عن
النقائص له على وصف التفرد به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾.

سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير والإثبات. وأجرى - تعالى - سُنتَهُ
في كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا
ﷺ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي مِائِكَمُ وَتَوَّاهُ بِغَيْبِ
أَوْ أَحَدُ عَلَى النَّارِ هَدَى﴾.

الأح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها، وكان المقصود إخراجه من بينهم،
فكان موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى، وقال لأهله:

﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ فقال أهله: كيف تركنا والوادي مسبع؟

فقال: لأَجْلِكُمْ أَفَارَقَكُم؟ فَلَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْ هَذِهِ النَّارِ بِقَبَسٍ.

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاج، فلم يتمالك حتى خرج.
ففي القصة أنه لما أتاها وَجَدَ شَجَرَةً تَسْتَعْلُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فجمع موسى - عليه
السلام - حشائش لِيَأْخُذَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ، فعرف أن هذه النار لا تسمح نَفْسُهَا بِأَنْ تُعْطِيَ
إِلَى أَحَدٍ شَعْلَةً:

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نَضِيءُ لِمَنْ يَسْرِى بَلِيلٍ وَلَا نُقْرِى

يا موسى هذه النار تضيء ولكن لا تعطي لأحد منها شعلة. يا موسى هذه النار
تحرق القلوب لا النفوس.

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن السر: السر ما لك عليه إشراف، وسر السير ما لا إطلاع عليه
لغير الحق. (الرسالة القشيرية ص ٨٨).

ويقال كان موسى عليه السلام في مزاولة قَبَسٍ من النار فكان يحتال كيف يأخذ منها شيئاً، فبينما هو في حالته إذ سمع النداء من الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُورٌ يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

علم موسى أنه كلام الحق - سبحانه - لَمَّا سَمِعَ فيه الترتيب والتنظيم والتركيب، فعَلِمَ أنه خطاب الحق.

ويقال إنما عرف موسى - عليه السلام - أنه كلام الله بتعريف خصّه الحق - سبحانه - به من حيث الإلهام دون نوع من الاستدلال.

قوله: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ...﴾ فَإِنْ بَسَاطَ حَضْرَةِ الْمُلُوكِ لَا يُوطَأُ بِتَغْلٍ.

ويقال ألقى عصاك يا موسى، واخلع نعليك، وأَقِمْ عندنا هذه الليلة ولا تَبْرَحْ. ويقال الإشارة في الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارين، والتجرد للحق بنعت الانفراد.

ويقال: ﴿اخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾: تَبَرَّأَ عن نَوْعِي أفعالك، وامْنَحْ عن الشهود جُسْئِي أحوالك من قربٍ وبُعْدٍ، وَوَضِلْ وَفَضِلْ، وارْتِيحٍ واجْتِيحٍ، وفناء وبقاء... وكُنْ بوصفنا؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ بِحَقْنَا.

أَثْبَتَهُ في أحواله حتى كان كالمجرد عن جملته، الْمُضْطَلَمَ عن شواهد.

قوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أي إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ عن الأعلام؛ وساحات الصمدية تَجَلُّ عن كل شين، وإيمانٍ وَزَيْنٍ؛ عن زَيْنٍ بِإِحْسَانٍ وَشَيْنٍ بعصيان؛ لَأَنَّ لِلرَّبُوبِيَةِ سَطْعَاتٍ عِزٌّ تَقْهَرُ كل شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾.

وعلى علمٍ مني بك اصطفتك، وَجَرَّدْتُكَ ونقيتك عن دَنَسِ الأوهام وكلِّ ما يَكْدُرُ صَفْوَك.

ويقال بعدما اخترتك فأنت لي وبي، وأنت محو في فنائك عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾.

تَقَدَّسْتُ عن الأعلام في أزلّي، وتنزهت (...)(١) والأشكال باستحقاقي لجلالي وجمالي.

ويقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: الأغيار في وجودي فَقَدْ، والرسوم والأطلال عند ثبوت حَقِّي محو.

(١) بياض في الأصل.

قوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾: أي تَذَلَّلْ لِحُكْمِي، وَأَنْفِذْ أَمْرِي، وَاخْضَعْ لَجَبْرُوتِ سُلْطَانِي.
قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

إقامتها من غير ملاحظة مُجَرِّبِهَا وَمُنْشِئِهَا يُورِثُ الإِعْجَابَ. وإذا أقام العبدُ صَلَاتَهُ على نعت الشهود والتحقق بأن مجربها غيره كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلَة، والوقوف على محل النجوى، والتحقق بخصائص القرب والزلفة.
قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ﴾.

الفائدة في تعريف العباد بِقُرْبِ السَّاعَةِ أَنْ يَسْتَفِيقُوا مِنْ غَفَلَاتِ التَّفَرُّقَةِ، فإِذَا حضروا بقلوبهم - ففي حال استدامة الذكر - فما هو موعودٌ في الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ في العاجل؛ والحاضرة لهم كالآخرة. وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهود الوقت قيامه.

قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.
إذا أكرمه اللهُ بِحُسْنِ التَّنْبِيهِ، وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغي أن ينزل عن سماء صفاته إلى جحيم أهل الغفلة في تطوُّحهم في أودية التفرقة.
قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّىٰ﴾.

كَرَّرَ عليه السؤال في غير آية من عصاه لما كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم المعجزة.

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحْبَتُهُ هِيَةُ الْمَقَامِ عِنْدَ فَجْأَةِ سَمَاعِ الْخَطَابِ؛ فَلْيَسْكُنْ بعض ما به من بَوَادِهِ^(١) الإجلال... رَدَّهُ إِلَى سَمَاعِ حَدِيثِ الْعَصَا، وَأَرَاهُ مَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ.

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الْهَيْبَةِ لَعَلَّهُ كَانَ لَا يَعْي ولا يطيق ذلك... فقال له: وما تلك بيمينك يا موسى؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَاصِبُ أُخْرَىٰ﴾.

قال هي عصاي، وأخذ يُعَدِّد ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له:

﴿قَالَ أَلَيْسَ لِي بِهَا مَنَاصِبُ أُخْرَىٰ﴾.

فإنَّكَ بنعت التوحيد، واقفٌ على بساط التفريد، ومتى يصحُّ ذلك، ومتى يَسْلَمُ لك أن يكون لك معتمدٌ تتوكأ عليه، ومستند عليه تستعين، وبه تنتفع؟

(١) البواده: ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة، إما بموجب فرح أو بموجب ترح. (الرسالة القشيرية ص ٧٨).

ثم قال: ﴿وَلِي فِيهَا مَثَارِثٌ أُخْرَى﴾: أَوَّلُ قَدَمٍ فِي الطَّرِيقِ تَرَكُ كُلَّ سَبَبٍ، وَالتَّنْقِي عَنْ كُلِّ طَلَبٍ؛ فَكَيْفَ كَانَ يَسْلُمُ لَهُ أَنْ يَقُولَ: أَفْعَلُ بِهَا، وَأَمْتَنُ، وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى.

ويقال ما ازداد موسى - عليه السلام - تفصيلاً في انتفاعه بعصاه إلا كان أقوى وأولى بأن يؤمن بإلقائها، والتنقي عن الانتفاع بها على موجب التفرد لله.

ويقال التوحيد التجريد، وعلامة صحته سقوط الإضافات^(١) بأشهرها؛ فلا جَرَمَ لما ذكر موسى - عليه السلام - ذلك أَمَرَ بإلقائها فجعلها اللَّهُ حَيَّةً تَسْعَى، وولَّى موسى هارباً ولم يُعَقَّب. وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة؛ إذا كوشِفَ صاحبُها بِسِرِّها يهرب منها.

ويقال لَمَّا بَاسَطَهُ الْحَقُّ بِسْمَاعَ كَلَامِهِ أَخَذَتْهُ أَرِيحِيَّةُ سَمَاعِ الْخَطَابِ، فَأَجَابَ عَمَّا يُسْأَلُ وَعَمَّا لَمْ يُسْأَلْ فَقَالَ: ﴿وَلِي فِيهَا مَثَارِثٌ أُخْرَى﴾، وَذَكَرَ وَجُوهًا مِنَ الْإِنْتِفَاعِ؛ مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ تَوَسَّنِي فِي حَالٍ وَحَدَّثِي، وَتَضَيُّ لِي اللَّيْلُ إِذَا أَظْلَمَ، وَتَحْمِلْنِي إِذْ عَيِيتُ فِي الطَّرِيقِ فَارْكَبْهَا، وَأَهْشُ بِهِ عَلَى غَنَمِي، وَتَدْفَعْ عَنِّي عَدُوِّي. وَأَعْظَمُ مَآرِبٍ لِي فِيهَا أُنْكَ قُلْتَ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِسَمِينِكَ؟﴾ وَأَيُّ نِعْمَةٍ أَوْ مَآرِبٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ تَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ لِي: وَمَا تِلْكَ؟ وَيَقَالَ قَالَ الْحَقُّ - بَعْدَ مَا عَدَّدَ مُوسَى وَجُوهَ الْآيَاتِ وَصَنُوفَ إِنْتِفَاعِهَا - وَلَكَ يَا مُوسَى فِيهَا أَشْيَاءٌ أُخْرَى أَنْتَ غَافِلٌ عَنْهَا وَهِيَ انْقِلَابُهَا حَيَّةً، وَفِي ذَلِكَ لَكَ مَعْجَزَةٌ وَبِرْهَانٌ صِدْقِي.

ويقال جميع ما عَدَّدَ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الْعَصَا كَانَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ... فَكَيْفَ لَهُ أَنْ يَنْسِبَهَا وَيُضِيفَهَا إِلَى نَفْسِهِ، وَلِهَذَا قَالُوا:

يَا جِنَّةَ الْخُلْدِ، وَالْهَدَايَا إِذَا تُهْدَى إِلَيْكَ فَمَا مِنْكَ يُهْدَى

ويقال قال موسى لها رَأَاهَا حَيَّةٌ تَهْتَزُّ: لَقَدْ عَلِمْتُ كُلَّ وَصْفٍ بِهَذِهِ الْعَصَا، أَمَّا هَذِهِ الْوَاحِدَةُ فَلَمْ أَعْرِفْهَا.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَتَمُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

لَا عِبْرَةَ بِمَا يُوْهِمُ ظَاهِرُ الْأَشْيَاءِ؛ فَقَدْ يُوْهِمُ الظَّاهِرُ شَيْئاً ثُمَّ يَبْدُو خِلَافُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ فَعَصَا مُوسَى صَارَتْ حَيَّةً.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن التوحيد: التوحيد إسقاط الياهات، فلا تقل: لي وبي ومني والي. (الرسالة القشيرية ص ٣٠٢).

ثم قال المقصود بذلك أن تكون لك آية ومعجزة لا بلاء وفتنة.

قوله: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ...﴾ أشهد - بانقلاب العصا من حال إلى حال؛ مرة عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرة أخرى - أنه يُثَبِّتُ عِبَادَهُ فِي حَالِ التَّلْوِينِ^(١) مرةً ومرةً؛ فَمِنْ أَخَذٍ وَمِنْ رَدٍّ، ومن جَمْعٍ ومن فَرْقٍ الخ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ فَخَرَجَ بِضَاءٌ مِّنْ غَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَىٰ لِتُرِيكَ مِمَّنْ ءَايَتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾.

كما أراه آية من خارج أراه آية من نفسه، وهي قلبُ يده بيضاء؛ إذ جعلها في جيبه من غير البرص^(٢). قال تعالى: ﴿سَرَّيْنَاهُمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وإنما قال: أَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ولم يقل كُمُكَ لأنه لم يكن لِمَا عليه من اللباس كُمَان.

قوله: ﴿لِتُرِيكَ مِمَّنْ ءَايَتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾: الآية الكبرى هي ما كان يجده في نفسه من الشهود والوجود، وما لا يكون بتكليف العبد وتصرفه من فنون الأحوال التي يدركها صاحبها ذوقاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.

بعدما أسمع كلامه من غير واسطة، وشرف مقامه، وأجزل إكرامه أمره بالذهاب ليدعو فرعون إلى الله - مع علمه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يعرف - فشقّ على موسى ذهابه إلى فرعون، وسماعُ جحده منه، بعدما سمع من الله كلامه سبحانه، ولكنه أثر أمر محتته على مراد نفسه.

ويقال لَمَّا أمره بالذهاب إلى فرعون سأل الله أهبة الثقل وما به يتم تبليغ ما حمل من الرسالة، ومن ذلك قوله:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

لِيُعْلَمَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكُّنَ مِنْ أَدَاءِ الْمَأْمُورِ بِهِ.

ويقال إن موسى لما أخذ في المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأل فظل يدعو: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي...﴾ وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة.

(١) التلوين: صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، ويخرج من مرحل ويحصل في مربع، فإذا وصل تمكّن. (الرسالة القشيرية ص ٧٨).

(٢) البرص: بياض يظهر في الجسد لعله.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾: حتى أُطِيقَ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَ غَيْرِكَ بعدما سَمِعْتُ مِنْكَ. ﴿وَأَخْلَدْتُ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾: حتى ينطلق بمخاطبة غيرك، وَقَوْنِي حتى أُرَدُّ مَا أُرَدُّ... بِكَ لَا بِي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَرُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أُنْزَى﴾.

سَأَلَ أَنْ يَضْحَبَ أَخَاهُ مَعَهُ، وَلَمَّا ذَهَبَ لِسَمَاعٍ كَلَامَ اللَّهِ حِينَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٣] كَانَ بِمُفْرَدِهِ، لِأَنَّ الذَّهَابَ إِلَى الْخَلْقِ يُوْجِبُ الْوَحْشَةَ؛ فَطَلَّبَ مِنْ أَخِيهِ الصَّحْبَةَ لِيُخَفِّفَ عَلَيْهِ كَلْفَةَ الْمَشَقَّةِ.

وَيُقَالُ إِنْ الْمَحَبَّةَ تَوَجَّبَ التَّجَرُّدَ وَالْإِنْفِرَادَ وَالْأَيَّامَ يَكُونُ لِلْغَيْرِ مَعَ الْمَحَبِّ مَسَاحٌ؛ فَفِي ذَهَابِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ اسْتَصْحَبَ أَخَاهُ، وَلَمَّا كَانَ الذَّهَابُ إِلَى الْمِيقَاتِ لَمْ يَكُنْ لِلْغَيْرِ سَبِيلٌ إِلَى صَحْبَتِهِ، إِذْ كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَهَابِهِ أَنْ يَكُونَ مَخْصُوصًا بِحَالِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿كَيْ سُبْحَكَ كَثِيرًا وَنَذْرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾^(١).

بَيَّنَّ أَنْ طَلَبَهُ مُشَارَكَةَ أَخِيهِ لَهُ بِحَقِّ رَبِّهِ لَا بِحِطِّ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿كَيْ سُبْحَكَ كَثِيرًا وَنَذْرَكَ كَثِيرًا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾.

أَعْطَيْنَاكَ مَا سَأَلْتَ، وَتَنَاسَيْتَ ابْتِدَاءَ حَالِكَ حِينَ حَفِظْنَاكَ فِي الْيَمِّ^(٢) وَنَجَّيْنَا أُمَّكَ مِنْ ذَلِكَ الْغَمِّ، وَرَبَّيْنَاكَ فِي جَنْبِ الْعَدُوِّ... فَأَيْنَ - حِينَذَاكَ - كَانَ سُؤْلُكَ وَاخْتِيَارُكَ وَدَعَاؤُكَ؟

وَأَبْتَنَّا فِي قَلْبِ امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ شَفَقَتَكَ، وَأَلْقَيْنَا عَلَيْكَ الْمَحَبَّةَ حَتَّى أَحْبَبَكَ عَدُوُّكَ، وَرَبَّاكَ حَتَّى قَتَلَ بِسَبَبِكَ مَا لَا يُخْصَى مِنَ الْوُلْدَانِ، وَالَّذِي بَدَأَكَ بِهَذِهِ الْمِنْ هُوَ الَّذِي آتَاكَ سُؤْلَكَ، وَحَقَّقَ لَكَ مَأْمُولَكَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْدِفِي فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِفِي فِي الْبَيِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ﴾^(٣).

كَانَ ذَلِكَ وَحْيَ الْإِلَهَامِ؛ أَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِهَا أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ، وَتُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ يَعْنِي نَهْرَ النَّيْلِ، فَفَعَلْتُ، فَأَلْقَاهُ النَّهْرَ عَلَى السَّاحِلِ، فَحُمِلَ إِلَى فِرْعَوْنَ. فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِ بَاشَرَ حُبَّهُ قَلْبَهَا، وَكَذَلِكَ وَقَعَتْ مَحَبَّتُهُ فِي قَلْبِ فِرْعَوْنَ، وَلَكِنَّهَا

(١) الآية (٣٢) لم ترد.

(٢) اليم: البحر ذو الماء المالح، أو النهر الكبير ذو الماء العذب.

(٣) الآية (٣٧) لم ترد.

كانت أضعف قلباً، فسبقت بقولها: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ...﴾ [القصص: ٩]، ولولا أنها عَلِمَتْ أنه أخذ شعبةً من قلبِ فرعون ما أخذ من قلبها لم تفل: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩].

قوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ﴾: رباه في جِجَر العدو وكان قد قَتَلَ بسببه ألوفاً من الولدان... ولكنْ مِنْ مَأْمِنِهِ يُؤْتَى الْحَذِرُ! وبلاء كلِّ أحدٍ كان بَعْدَهُ إلا بلاء موسى عليه السلام فإنه تَقَدَّمَ عليه بسنين؛ ففي اليوم الذي أخذ موسى في جِجَره كان قد أمر بقتل كثير من الولدان، ثم إنه رباه ليكون إهلاك مَلِكِهِ على يده... لِيُعْلَمَ أَنَّ أَسْرَارَ الأقدار لا يعلمها إلا الجبار.

ويقال كان فرعون يُسَمَّى والدَ موسى وأباه - ولم يكن. وكان يقال لَأُمِّ موسى ظئر^(١) موسى - ولم تكن؛ فَمِنْ حيثُ الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة... هكذا الحديث والقصة.

ولقد جاء في القصة أَنَّ موسى لَمَّا وُضِعَ في جِجَر فرعون لَطَمَ وجهه فقال: إِنَّ هذا من أولاد الأعداء فيجب أَنْ يُقْتَلَ، فقالت امرأته: إنه صبي لا تمييزَ له، ويشهد لهذا أنه لا يُمَيِّزُ بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء، وأرادت أَنْ يَصْدُقَ زوجها قائلتها، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر، فأراد موسى عليه السلام أَنْ يمدَّ يَدَهُ إلى الجواهر فأخذ جبريلُ عليه السلام بيده وصَرَفَهَا إلى النار فأخَذَ جَمْرَةً بيده، وقَرَّبَهَا مِنْ فيه فاحترقَ لِسَانُهُ - ويقال إِنَّ العقدةَ التي كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق - فعند ذلك قالت امرأة فرعون: ها قد تبينَ أَنَّ هذا لا تمييزَ له؛ فقد أخذ الجمرة إلى فيه. وتخلَّص موسى بهذا مما حصل منه من لَطَمِ فرعون.

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق مِنْ أَخَذِ الجمرة وهو صبي رضيع، ثم احترق لسانه، فعلم الكلُّ أَنَّ هذا الأمر ليس بالقياس. فإنه سبحانه فعَّال لما يريد.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾.

أي أحببتك. ويقال في لفظ الناس: فلانُ ألقى محبته على فلان أي أَحَبَّهُ. ويقال: ﴿الْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾: أي طَرَحْتُ في قلوب الناس محبةً لك، فالحقُّ إذا أَحَبَّ عبداً فكلُّ مَنْ شاهده أَحَبَّهُ. ويقال لملاحه في عينيه؛ فكان لا يراه أحدٌ إلا أَحَبَّهُ.

(١) الظئر: العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبل، الذكر والأنثى في ذلك سواء. والجمع أظور وأظار وظوور، وظوَّار. (اللسان ٥١٤/٤ مادة: ظار).

ويقال: ﴿الْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾: أي أثبت في قلبك محبتي؛ فإن محبة العبد لله لا تكون إلا بإثبات الحق - سبحانه - ذلك في قلبه، وفي معناه أشدوا:

إِنَّ الْمَحَبَّةَ أَمْرُهَا عَجَبٌ تُلْقَى عَلَيْكَ وَمَا لَهَا سَبَبٌ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنُصَنِّعَ عَلَى عَيْنَيْكَ﴾.

أي بمرأى مني، ويقال لا أمكن غيري بأن يستبعدك عني.
ويقال أحفظك من كل غير، ومن كل حديث سوى حديثنا. ويقال ما وكلنا
حفظك إلى أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ تَتَذَكَّرُ أَنَّكَ فَتَقُولُ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ
كَتَّى نَقَرَ عَيْنَهَا﴾.

البلاء على حسب قوة صاحبه وضعفه، فكلما كان المرء أقوى كان بلاؤه أوفى،
وكلما كان أضعف كان بلاؤه أخف. وكانت أم موسى ضعيفة فرد إليها ولدها بعد
أيام، وكان يعقوب أقوى في حاله فلم يُعد إليه يوسف إلا بعد سنين طويلة.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾.

أجرى الله عليه ما هو في صورة كبيرة من قتل النفس بغير حق، ثم بين الله أنه
لا يضره ذلك، فليست العبرة فعل العبد في قلته وكثرته إنما العبرة بعناية الحق بشأن
أحد أو عداوته.

ويقال قد لا يموت كثير من الخلق بفنون من العذاب، وكم من أناس لا يموتون
وقد ضربوا ألوفاً من السياط^(١)! وصاحب موسى عليه السلام ومقتولُه مات بوكزة^(٢)!
إيش الذي أوجب وفاته لولا أنه أراد به فتنة لموسى؟ وفي بعض الكتب أنه - سبحانه -
أقام موسى كذا وكذا مقاماً، وأسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر، وفي كل مرة كان
يقول له: ﴿وَوَقَلَّتْ نَفْسًا﴾.

﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾: أريناك عین الجمع حتى زال عنك ما داخلَكَ من الغم
بصفة مقتضى التفرقة، فلما أريناك سير جريان التقدير نجَّيْنَاكَ من الغم.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَقَلَّتْ نَفْسًا﴾.

استخلصناك لنا حتى لا تكون لغيرنا. ويقال جئنا عليك البلاء ونوعناه حتى
جَرَدْنَاكَ عن كل اختيار وإرادة، ثم حينئذ رَفَيْنَاكَ إلى ما استوجبتَه من العلم الذي
أَهْلَنَّاكَ له.

(١) السياط: (ج) السوط: الذي يُجلد به. (اللسان ٣٢٦/٧ مادة: سوط).

(٢) الوكز: الطعن. وذكره أيضاً: طعنه بجمع كفه. (اللسان ٤٣٠/٥ مادة: وكز).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَنْتَ سَيْنِينَ فِي أَهْلِ مَدِينٍ﴾.

وكنّت عند الناس أنك أجيرٌ لشعيب، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك، وكان يكفي - عندهم - أن تكون ختناً^(١) لشعيب.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُومِينَ﴾.

أي عدّذنا أيام كونك في مدين شعيب، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شرفك ومحبتك منتظرين لك؛ فجئت على قدر.

ويقال إنّ الأجل إذا جاء للأشياء فلا تأخير فيه ولا تقديم، وأنشدوا في قريب من هذا المعنى:

بينما خاطرُ المنى بالتلاقي سابحٌ في فؤاده وفؤادي
جمع اللّه بيننا فالتقينا هكذا بغتةً بلا ميعادٍ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْطَنُتُكَ لِنَفْسِي﴾.

استخلصتُك لي حتى لا تضلّح لأحدٍ غيري، ولا يتأتى شيء منك غير تبليغ رسالتي، وما هو مرادي منك.

ويقال أفرذت سرك لي، وجعلت إقبالك عليّ دون غيري، وحلّ بينك وبين كل أحدٍ ممن هو دوني.

ويقال: ﴿وَأَسْطَنُتُكَ لِنَفْسِي﴾: قطعته بهذا عن كل أحدٍ، ثم قال له: ﴿أذهب إلى فرعون﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نِيَا فِي ذِكْرِي أَدْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

تعلّل موسى عليه السلام لما أرسله الحقّ إلى فرعون بوجوه من العلل مثل قوله: ﴿وَيَعِيبُ صَدْرِي وَلَا يَطْلُقُ لِسَانِي﴾ [القصص: ١٣]، ﴿إِنِّي قَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].. إلى غير ذلك من الوجوه، فلم ينفعه ذلك، وقال الله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، فاستقل موسى عليه السلام بذلك، وقال: الآن لا أبالي بعد ما أنت معي.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

إنما أمرهما بالملاينة معه في الخطاب لأنه كان أول من دَعَوْهُ إلى الدّين، وفي حال الدعوة يجب اللّين؛ فإنه وقت المُهلة، فلا بدّ من الإمهال ريثما ينظر؛ قال الله

(١) الختن: زوج البنت أو الأخت (الصهر). وفي الحديث: عليّ ختن رسول الله ﷺ أي زوج ابنته. (لسان العرب ١٣/١٣٨ مادة: ختن).

لنُبَيِّنَا لَهُ: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِأَلْقَىٰ هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]: وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا، وكذلك قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَدَيْ ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ حِجَّةٍ﴾ [سبا: ٤٦].

ثم إذا ظهر من الخصم التمرد والإباء فحينئذ يُقَابَلُ بالغلظة والحتف .
ويقال علمهما خطاب الأكاير ذوي الحشمة؛ ففرعون - وإن كان كافراً - إلا أنه كان سلطاناً وقته، والمتسلط على عباد الله .
ويقال إذا كان الأمر في مخاطبة الأعداء بالرفق والملاينة . . . فكيف مع المؤمن في السؤال؟

ويقال في هذا إشارة إلى سهولة سؤال الملَكين في القبر للمؤمن .
ويقال إذا كان رِفْقُهُ بِمَنْ جَحَدَهُ فكيف رِفْقُهُ بِمَنْ وَحَدَهُ؟
ويقال إذا كان رِفْقُهُ بِالْكَفَّارِ فكيف رِفْقُهُ بِالْأَبْرَارِ؟
ويقال إذا كان رِفْقُهُ بِمَنْ قَالَ: أنا . . . فكيف رِفْقُهُ بِمَنْ قَالَ: أنت؟
ويقال إنه أَحْسَنُ تَرْبِيَةً موسى عليه السلام؛ فأراد أن يرفق به اليوم في الدنيا على جهة المكافأة .
وقيل تفسير هذا ما قال في آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ أَن تَزُكِّيَ﴾ [النازعات: ١٨].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: أي كونا على رجاء أن يؤمن . ولم يحبرهما أنه لا يؤمن لثلاث تتدخلهما فترة في تبليغ الرسالة علماً منه بأنه لا يؤمن ولا يقبل .
قوله جل ذكره: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ .
في الآية دليل على أَنَّ الخوف^(١) الذي تقتضيه جَبَلَةُ الإنسان غير ملوم صاحبه عليه، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾ .
ثم إنه سبحانه سَكَّنَ ما بهما من الخوف بوعده النصر لهما .
ويقال لم يخافا على نَفْسَيْهِمَا شفقةً عليهما، ولكن قالوا: إِنَّا نَخَافُ أَنْ تَحِلَّ بِنَا مكيدة من جهته، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرك، فكان ذلك الخوف لأجل حق الله لا لأجل حظوظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما، ولكنهما تَأَدَّبَا في الخطاب .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ لَا نَخَافُكَ إِنَّا نَسْمَعُ وَأَنُصِتُ﴾ .

(١) انظر حديث القشيري عن الخوف برسائه ص ١٢٤ - ١٣١ .

تَلَطَّفَ فِي اسْتِجْلَابِ هَذَا الْقَوْلِ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾
 بقولهما: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، وَكَانَ الْمَقْصُودُ لِهَمَا أَنْ يَقُولَ الْحَقُّ لِهَمَا: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾
 وَإِلَّا فَأَنِّي بِالْخَوْفِ لِمَنْ هُوَ مَخْصُوصٌ بِالنُّبُوَّةِ؟!

وَيَقَالُ سَكَنَ فِيهِمَا الْخَوْفُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، فَقَوَّيَا عَلَى الذَّهَابِ إِلَيْهِ؛
 إِذْ مِنْ شَرْطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكُّينَ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبِهِمْ﴾.

طَالَ الْبَلَاءُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ جَهَةِ فِرْعَوْنَ، فَتَدْرَأَكُهُمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَلَوْ بَعْدَ
 حِينٍ، بِذَلِكَ أَجْرَى سُنَّتُهُ أَنَّهُ يُرْخِي عَنَانَ الظَّالِمِ، وَلَكِنْ إِذَا أَخَذَهُ فَإِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾.

مِنْ شَرْطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكُّينَ بِالْبَيِّنَةِ وَالْآيَةِ لِلرَّسُولِ حَتَّى يَتَّضِحَ مَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ
 فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ. ثُمَّ إِنْ تِلْكَ الْآيَةُ وَتِلْكَ الْبَيِّنَةُ مَا نَفَعْتَهُمْ، وَإِنَّا تَأَكَّدْتُ بِهِمَا
 عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ؛ فَإِذَا غَمِيَ بَصَرُ الْقَلْبِ فَأَنَّى تَنْفَعُ بَصِيرَةُ الْحُجَّةِ؟ وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا:

وَفِي نَظَرِ الصَّادِي إِلَى الْمَاءِ حَسْرَةً إِذَا كَانَ مَمْنُوعاً سَبِيلَ الْمَوَارِدِ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾.

إِنَّمَا يَتَّبِعُ الْهُدَى مَنْ كَحَلَّ قَلْبَهُ بِنُورِ الْعُرْفَانِ، فَأَمَّا مَنْ كَانَتْ عَلَى قَلْبِهِ غَشَاوَةُ
 الْجَهْلِ... فَمَتَى يَسْتَمِعُ إِلَى الْهُدَى؟

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَقَدْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِالْعَذَابِ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ، وَبَشَّرَهُمُ بِالثَّوَابِ عَلَى
 حِفْظِ الْأَمْرِ. وَالْعَذَابُ مُعَجَّلٌ وَمُؤَجَّلٌ؛ فَمُؤَجَّلُهُ لَا يُوقَفُ عَلَى تَفْصِيلِهِ الْأَعْدَاءُ وَكَذَلِكَ
 مُؤَجَّلُ الثَّوَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وَأَمَّا مُعَجَّلُ الْعُقُوبَةِ فَأَنْوَاعٌ، وَعَلَى حَسَبِ مَقَامِ الْمَرْءِ تَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْمُطَالِبَاتُ،
 وَالزِّيَادَةُ فِي الْعُقُوبَةِ تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ اسْتِحْقَاقِ الرَّتْبَةِ؛ كَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ فِي الْحَدِّ. وَقِسْوَةُ
 الْقَلْبِ نَوْعٌ عُقُوبَةٌ، وَمَا يَتَدَاخَلُ الطَّاعَةُ نَوْعٌ عُقُوبَةٌ، وَخَسْرَانُ نَصِيبٌ فِي الْمَالِ وَالْأَنْفُسِ
 نَوْعٌ عُقُوبَةٌ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَزَقْنَاهُ يَمْوَسَى قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ

هَدَى﴾.

﴿فَمَنْ رَزَقْنَاهُ﴾ عَلَى التَّثْنِيَةِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَمْوَسَى﴾ فَأَفْرَدَهُ بِالْخُطَابِ بَعْدَمَا قَالَ:

﴿فَمَنْ رَزَقْنَاهُ؟﴾. فَيَحْتَمِلُ أَنْ ذَلِكَ لِمُشَاكَلَةِ رِوَايَةِ الْآيِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ مُوسَى كَانَ
 مُقَدِّمًا عَلَى هَارُونَ فَخَصَّهُ بِالنِّدَاءِ.

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فعله - سبحانه فقال: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ لِيُغْلَمَ أَنَّ الدَّلِيلَ عَلَى إِثْبَاتِهِ - سبحانه - ما دُلَّتْ عَلَيْهِ أفعاله .
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ .

لا يمكنني أن أخبركم إلا بما أخبرني به ربي فَمَا عَرَّفَنِي عَرَّفْتُ، وما ستره عليَّ وَقَفْتُ .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتٍ شَقًى﴾ .

جَعَلَ الأرض مستقراً لأبدانهم، وجعل أبدانهم مستقراً لعبادته، وقلوبهم مستقراً لمعرفته، وأرواحهم مستقراً لمحبتة، وأسرارهم مستقراً لمشاهدته .

قوله جل ذكره: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ .

هيأ لهم أسباب المعيشة، وكما نَظَرَ إليهم وَرَزَقَهُمْ رَزَقَ دوابهم التي ينتفعون بها، وأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّقَوْا بما تَصِلُ إليه أيديهم، وَأَنْ يَنْتَفِعُوا - ما أمكنهم - بِأَنْعَامِهِمْ لِيَكْمَلَ لديهم إِنْعَامُهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿مِنَّا خَلَقْنَاهُ وَمِنَّا نُعِيدُهُ وَمِنَّا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ .

إِذْ خَلَقْنَا آدَمَ مِنَ التُّرَابِ، وَإِذْ أَخْرَجْنَاهُ مِنْ صُلْبِهِ . . . فَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنَ التُّرَابِ أَيْضاً . والأجسادُ قَوَالِبُ والأرواحُ ودائعُ، والقوالبُ نسبتها التربة، والودائعُ صفتها القرية، فالقوالبُ يزيئها بأفضاله، والودائعُ يحييها بكشف جلاله ولطف جماله . وللقوالبُ اليوم اعتكافٌ على بساطِ عبادته، وللودائعُ اتصافٌ بدوام معرفته .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ .

أمره بجهره، وأعماه عن شهود ذلك بِسِرِّهِ، فَمَا نَجَعَ فِيهِ كَلَامُهُ، وما انتفع بما حَذَّرَهُ مِنْ انتقامه، وَبَسَّرَ لَهُ مِنْ إِنْعَامِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسَعْرِكَ يَمْوَسَّى فَلَنُلَاقِيَنَّكَ بِسَعْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ .

دعاهم موسى إلى الله، وخاطَبَهُمْ فِي حَدِيثِ الْآخِرَةِ مِنْ تَبْشِيرٍ بِثَوَابٍ، وَإِنْذَارٍ بِعَذَابٍ، فَلَمْ يُجِيبُوا إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدُّنْيَا، وما زادهم تذكيراً إِلَّا ازْدَادُوا غَفْلَةً وَجَهَالَةً .

كَذَلِكَ صِفَةُ مَنْ وَسَّمَهُ الْحَقُّ بِالْإِبْعَادِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ عِرْفَانٌ، وَلَا بِمَا يُقَالُ إِيْمَانٌ، وَلَا يَتَأَسَّفُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ، وَلَا تَصْدِيقٌ لَهُ بِحَقِيقَةِ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ .

قوله: ﴿فَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ...﴾ تَأَهَّبُوا لِمُنَاصَبَةِ الْحَقِيقَةِ؛ وَتَشَمَّرُوا لِلْمُخَالَفَةِ، فَقَصَصْنَاهُمُ الْمَشِيئَةَ؛ وَكَبَسْنَاهُمُ الْقُدْرَةَ، وَكَمَا قِيلَ:

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدنا معذول

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

فكان في ذلك اليوم افتضاحهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَوْلَىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾.

كَاذَ فِرْعَوْنَ فَكَيْدَ لَهُ، وَأَرَادَ فَارْتَدُّ إِلَيْهِ، وَدَعَا لِلْإِسْتِعْدَادِ فَأَذِلَّ وَأَذِيقَ الْبَاسَ. وَلَمْ يَدْغْ مُوسَى شَيْئًا مِنَ الْوَعظِ وَالرَّفْقِ، وَلَمْ يَغَادِرْ فِرْعَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْبَلَاءِ وَالْحُمَقِ، وَلَكِنْ: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَرَبُّكُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَىٰ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأُوا إِلَاجَهُ﴾.

اعلموا أنه لا طاقة لأحد مع الله - سبحانه - إذا عذبه، فحملوا مقالته على الإفك، وَرَمَوْا مُعْجَزَتَهُ بِالسَّحَرِ فَقَالُوا: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ النَّحْلَ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمَا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى﴾.

هما في دعواهما كاذبان يَقْصِدَانِ إِلَى إِخْرَاجِكُمْ مِنْ بَلَدِكُمْ، وَالتَّشْوِيشِ عَلَيْكُمْ فِي مُتَعَدِّكُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾.

أظهروا من أنفسهم التجلّد ظناً بأنّ النصرَ لهم، وإخلاداً إلى ما كان السّحرة يُسَوِّلُونَهُمْ، فَخَبَّرُوا مُوسَى فِي الْإِبْتِدَاءِ بِنَاءً عَلَى مَا تَوَهَّمُوا مِنَ الْإِلْقَاءِ، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِئَاهُمْ وَرِعَصِيَّتُهُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنْكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ فَالْقَىٰ السَّحَرَةُ هُجْرًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطَعُونَ أَيْدِيكُمْ وَأُرجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

قال لهم موسى بل ألقوا أنتم، وليس ذلك إذناً لهم في السحر، ولكن أراد الحق إظهار تمويههم، فلما خيلوا للناس بإلقاء الجبال أنها حيات ابتلعت عصا موسى جُمْلَةً مَا صَنَعُوا، وَتَحَقَّقَ السَّحَرَةُ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ سَمَويٌّ حَيْثُ تَلَاشَى عَيْنَ مَا كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَوْقَارِ الْجِبَالِ، وَصَارَ الشُّعْبَانُ عَصَاً كَمَا كَانَ، فَسَجَدُوا لِلَّهِ مُؤْمِنِينَ، وَانْقَلَبَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ خَائِبِينَ، وَتَوَعَّدَهُم بِالْقَتْلِ وَالصَّلْبِ، وَفَنَوْنِ مِنَ الْعَذَابِ الصَّعْبِ، وَبَعْدَمَا كَانُوا يَفْسِمُونَ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ صَارُوا يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

أي بالله الذي فطرنا إنا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءنا من الآيات. ولما طلعت في أسرارهم شمسُ العرفان، وانبسطن عليهم أنوار العناية أبصروا الحق سبحانه بأسرارهم؛ فنطقوا ببيان التصديق، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء، وتحملوا اللأواء^(١)، فكانوا في الغداة كفاراً سحرة، وأمسوا خياراً بررة.

قوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ...﴾ عِلِّمُوا أَنَّ الْبَلَاءَ فِي الدُّنْيَا يَنْقُضِي - وإن تمادى، وينتهي وإن تنهى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِيَّةٌ﴾.

أهم الأشياء - على مَنْ عَرَفَهُ - مغفرته لخطاياهم؛ فهذا آدم - عليه السلام - لما استكشف من حاله، وحلَّ به ما حلَّ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص: ١٦] وقال لنبينا - ﷺ - ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»^(٢). وَمَنْ عليه بقوله: ﴿لِنَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(٣) [الفتح: ٢٠٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ فَاَتْبَعَهُمْ فَرَعُونُ بِمُجُودِهِ فَقَشِيَهُمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾.

لما عَبَّرَ موسى ببني إسرائيل البحر، وقرب منه فرعون، ورأى البحر منفلقاً والطريق فيه يَبَسًا غَيْرَ قَوْمِهِ بتليسه فقال: «إنه بحشمتي انفلق، فأنا ربكم الأعلى!» وحصل - كما في القصة - من دخوله بعسكره البحر حتى دخل آخرهم، وهم أن

(١) اللأواء: المشقة والشدة والقحط والعدة. (اللسان: ٢٣٨/١٥).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢١١/٤، ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥٢/٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٧/٥، ٨/٢٩٩، ٥١٧، ٥٩/٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٤٣/٢)، والبغوي في (شرح السنة ٦/١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦٣/٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/١٠١)، والتميمي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

(٣) الآيات من ٧٤ حتى ٧٦ لم ترد.

يخرج أولهم، فأمر الله البحر حتى التظمت أمواجه فغرقوا بجملتهم، وآمن فرعون لما ظهر له اليأس، ولم ينفعه إقراره، وكان ينفعه لو لم يكن إصراره، وقد أدركته الشقاوة التي سبقت له من التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ فَدَٰءِبْحِنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى﴾.

يذكرهم آلاءه، ويعدُّ عليهم نعماءه، ويأمرهم بالتزام الطاعة والقيام بالشكر لما أسبغ عليهم من فنون النعم، ثم يذكرهم ما منَّ به على أسلافهم من إنزال المن والسلوى، وضروب المَحَن وفنون البلوى.

قوله جل ذكره: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾.

الطيب ما كان حلالاً. ويقال الطيب من الرزق ما لا يغصبي الله مكتسبه. ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق. ويقال الطيب من الرزق ما حصل منه الشكر. ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبد من الله؛ فما لأهل الجنة مؤجل في عقابهم جهراً، معجل لأصفيائه في دنياهم سراً، قال تعالى: ﴿إِنِّي زَيَّنَّا مَا آتَيْنَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات: ١٦].

والأرزاق مختلفة؛ فلا أقوام حظوظ النفوس ولآخرين حقوق القلوب، ولا أقوام شهود الأسرار؛ فزرقت النفوس التوفيق، ورزقت القلوب التصديق، ورزقت الأرواح التحقيق.

قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾: بمجاوزة الحلال إلى الحرام.

ويقال: ﴿لا تطغوا فيه﴾: بالزيادة على الكفاف^(١) وما لا بُدَّ منه مما زاد على سدِّ الرمق.

ويقال: ﴿لا تطغوا فيه﴾: بالأكل على الغفلة والنسيان.

قوله جل ذكره: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكَ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾.

فيحل عليكم غضبي بالخذلان لمتابعة الزلة بعد الزلة.

ويقال فيحل عليكم غضبي لفقدكم التأسف على ما فاتكم.

ويقال بالرضا بما أنتم فيه من نقصان الحال.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾.

الغفار كثير المغفرة؛ فمَنك التوبة عن زلة واحدة ومنه المغفرة لذنوب كثيرة،

(١) الكفاف: من القوت: الذي على قدر نفقه لا فضل فيها ولا نقص. (اللسان ٣٠٦/٩).

ومنه السُّرْيَةُ التي لا اطلاع لأحدٍ غيره عليها وما للملائكة عليها اطلاع . وهو يغفر لِمَنْ عَمِلَ مثل عَمَلِكَ ، وهو يغفر لِمَنْ قَلْبُكَ مُرِيدٌ له بالخير والنعمة ، وكما قالوا :

إني - على جَفَوَاتِهَا - فَبَرَّيْهَا وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسِّلُ
وأَحْبَبُها وأَحَبُّ مَنْزِلِها الذي نَزَلْتُ به وأَحَبُّ أَهْلِ الْمَنْزِلِ

قوله : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾ : فلا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِلَّا لِمَن يَكُونُ مُؤْمِنًا .

وقوله هنا : ﴿وَآمَنَ﴾ : أي آمَنَ في المَالِ كما هو مؤمِنٌ في الحال .

ويقال آمَنَ بأنه ليست نجاته بتوبته وبإيمانه وطاعته ، إنما نجاته برحمته .

ويقال ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ : مِنْ الزَّلَّةِ ﴿وَآمَنَ﴾ : فلم يَزِ أَعْمَالُهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَآمَنَ بِأَن جَمِيعَ الْحَوَادِثِ مِنَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - ﴿وَكَمَلُ صَلَاحِهِ﴾ : فلم يُخَلِّ بالفرائض ثم اهتدى للسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ .

ويقال ﴿ثُمَّ﴾ : للتراخي ؛ أي آمَنَ في الحال «ثم» اهتدى في المَالِ .

ويقال مَنْ سَمِعَ مِنْهُ ﴿وَإِنِّي﴾ لا يقول بعد ذلك : «إني» .

ويقال مَنْ شَعَلَهُ سَمَاعُ قَوْلِهِ : ﴿وَإِنِّي﴾ اسْتَهْلَكَ فِي اسْتِيلَاءٍ مَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيَاءِ الْقُرْبَةِ ، فَإِذَا جَاءَتْ ﴿لَغَفَّارٌ﴾ صَارَ فِيهِ بَعِينُ الْمَحْوِ ، وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِذُنُوبِ أَصْحَابِهِ وَأَقَارِبِهِ وَكُلِّ مَنْ يَعْنِي بِشَأْنِهِ .

ويقال ﴿إني لغفار﴾ كثير المغفرة لمن تاب مرة ؛ فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التي لم يَثْبُتْ مِنْهَا سِرُّهَا وَجَهْرُهَا ، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ مِنْهَا وَمَا لَا يَتَذَكَّرُ . وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ : عَلِمْتُ «عملاً صالحاً» : بل يلاحظُ عَمَلَهُ بِعَيْنِ الْإِسْتِصْغَارِ ، وَحَالَتِهِ بِغَيْرِ الْإِسْتِقْرَارِ .

وقوله : ﴿ثُمَّ أَهْدَى﴾ : أي اهتدى إلينا بنا .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ .

أَخْرَجَهُمْ مَعَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَصْحَبَهُمْ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ بِهُمْ بِخَطَوَاتِ فَتَاخَرُوا عَنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ مِرَاعَاةَ لِحَقِّ صَحْبَتِهِمْ .

ويقال قَوْمٌ يُعَاتِبُونَ لِأَخْرَجَهُمْ وَآخِرُونَ لِتَقَدَّمَ بِهِمْ . . فشتان ما هما !

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ .

أي عَجِلْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا إِلَيْكَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ هَذَا الْخَطَابَ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ اسْتَنْطَقَهُ لَمَّا أَخْبَرَ بِهِ وَمُوسَى .

قوله : ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ أي مَا خَلَفْتُهُمْ لِتَضْيِيعِي أَيْامِي ، وَلَكِنِّي عَجِلْتُ إِلَيْكَ

لترضى. قال: يا موسى إن رضائي في أن تكون معهم وألا تسبقهم، فكونك مع الضعفاء الذين استصحبتهم - في معاني حصول رضائي - أبلغ من تقدمك عليهم.
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾.

فَتَنَّا قَوْمَكَ فَضَلُّوا وَعَبَدُوا الْعِجْلَ؛ فأخبر الحق - سبحانه - أن ذلك منه تقدير، وفي هذا تكذيب لمن جحد القول بالقدر.

ويقال طلب موسى - عليه السلام - رضا الحق، وقدر الحق - سبحانه - فتنة قومه فقال: ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾، ثم الحكم لله، ولم يكن بُدَّ لموسى عليه السلام من الرضاء بقضاء الله - فلا اعتراض على الله - ومن العلم بحق الله في أن يفعل ما يشاء، وأنشدوا:

أريد وصّاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما أريد
قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْلَحُ السَّامِرِيُّ﴾.

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل، وهو نوع من التعزير، وحصل ما حصل، وظهر ما ظهر من (...) (١).

قوله جل ذكره: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾.

ورجع نبينا - ﷺ - من المعراج بنعت البسط، وجاء بالنجوى لأصحابه فيما أوجب الله عليهم من الصلاة، وأكرمهم به من القرية بالزلفة.. فشتان ما هما!

ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف، وخاطبهم ببيان العتاب:

﴿قَالَ يَفْقِرَ آلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾.

ظنوا بنبيهم ظنَّ السوء في خلفه الوعد، فلحقهم شؤم ذلك حتى زاغوا عن العهد، وأشركوا في العقد.. وكذلك يكون الأمر إذا لم يف المرء بعقده، فإنه ينخرط في هذا السلك.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْرِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَّبَ إِلَهُ الْإِسْرَائِيلِيِّ﴾.

قالوا لم نكن في ابتداء حالنا قاصدين إلى ما حصل منّا، ولا عالمين بما آلت إليه عاقبة حالنا، وإن الذي حملنا من حُلِيِّ القبط صاغ السامري منه العجل.. وكذلك الحرام من حطام الدنيا لا يخلو من شؤم أثره. فلقد كانت الغنيمة وأموال المشركين

حراماً عليهم، فاستعاروا الحلي من القبط، وآل إليهم ما كان في أيديهم من الملك، فكان سبب عبادتهم العجل... كذلك مَنْ انهمك في طلب الدنيا من غير وجهٍ حلالٍ يكون على خطرٍ من رِقَّةٍ دينه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [البجائية: ٢٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُمُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَاسِيَ أَفَلَا يَرُونَ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًْا وَلَا نَقْعًا﴾.

يقال إنهم لمّا مروا على قوم يعبدون أصناماً لهم قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان مِثْلَهُمْ إلى عبادته مُسْتَكْبِئاً في قلوبهم، فصاغ السامريّ العجل على تلك الصورة. وفي هذه إشارة إلى أن خفايا الهوى إذا استكثت في القلب فما لم يُنْقَشْ ذلك الشرك بمنقاش المنازلة يُخْشَى أن يَلْقَى صاحبه (...)(١).

ويقال إن موسى - عليه السلام - خرج من بين أمته أربعين يوماً فَرَضِيَ قومه بعبادة العجل، ونبينا - عليه السلام - خرج من بين أمته وأتت سنون كثيرة ولو ذَكَرَ واحدٌ عند مَنْ أخلص من أمته في التوحيد حديثاً في التشبيه لعدوا ذلك منه كبيرة ليس له منها مَخْلَصٌ.

كذلك فإنهم استحفظوا كتابهم فبدّلوه تبديلاً، بينما ضَمَنَ الحقّ - سبحانه - إعزازَ هذا الكتاب بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال: ﴿لِيُظْهِرُوا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

قوله: ﴿أَفَلَا يَرُونَ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا...﴾ بَيَّنَّ أَنَّ مَنْ لا قول له لا يتكلم، ومن لا يملك الضر والنفع لا يستحق العبادة، وفيه ردّ على مَنْ لم يُثَبِّثْ له في الأزل القول، ولم يَصِفْهُ بالقُدرة على الخير والشر:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون، والإشارة في هذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلة؟ فَمَنْ تَرَكَ أَمْرَ الحقّ... كيف يُطْمَعُ فيه أن يحترم الشيوخ وأكل الناس؟ لهذا قيل: لا حُرْمَةَ لفاسق؛ لأنه إذا تَرَكَ حقّ الحقّ فمتى يحفظ حقّ الخلق؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾.

كان ذلك تَعْلَلًا منهم بالباطل، فقالوا إنهم كانوا عازمين على تَرْكِ عبادة العجل؛ إذ به يتحققون أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيد وتَرْكِ عبادة غير الله... ولكن كلُّ مُتَعَلِّلٍ يَسْتَنِدُّ إلى ما يحتاج به من الباطل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَهُودُ مَا مَنَّكَ إِذْ دَلَيْنَهُمْ صُلُوحًا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾.

ضاق قلبُ موسى - عليه السلام - لما شاهد من قومه بالمعانة عبادة العجل. ولقد كان سمع من الله أنَّ السامريّ أظْلَهُمْ حين قال: ﴿إِنَّا قَدْ فِتْنَا قَوْمَكَ﴾ [طه: ٨٥]، ولكن قديماً قيل: ليس الخبر كالعيان، فلما عاينَ ذلك ضاق قلبه، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر، وقيل: مَنْ ضاق قلبه اتسع لسانه. ولما ظهر لموسى - عليه السلام - ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللطف وحسن المداراة... وكذلك الواجب في الصحبة لئلا يرتقي الأمر إلى الوحشة، فاستلطفه في الخطاب واستعطفه بقوله:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

أنت أمرتني ألا أفارقهم. وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى: في الوقت الذي احتججت أن تمضي إلى فرعون قلت: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وقلت: ﴿فَأَرْسَلُهُ مَعِيَ﴾ [القصص: ٣٤]، وقلت حين مضيت إلى سماع كلام الحق: ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي...﴾ [الأعراف: ١٤٢] فما اكتفيت بأن لم تستصحبني. وخَلَفْتَنِي! وقد عَلِمْتُ أَنِّي بريء الساحة مما فعلوا فأخذت بلحيتي وبرأسي... ألم ترض بما أنا فيه حتى تزيدني حَزْياً على حَزْيِي؟!... لو قال ذلك لكان مَوْضِعُهُ، ولكن لِحْلُمِهِ، وَلِعِلْمِهِ - بأن ذلك كُلُّهُ حُكْمُ رَبِّهِمْ - فقد قَابَلَ كلَّ شيءٍ بالرضا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِعُ﴾.

سأل موسى كلَّ واحدٍ منهم بنوع آخر، وإن معاتبته مع قومه، ومطالبته لأخيه، وتَغْيِيرَهُ في نَفْسِهِ، واستيلاء الغضب عليه - لم يغيّر التقدير، ولم يُؤَخَّرَ المحكوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

عَلِمْتُ ما لم يعلمه بنو إسرائيل فرأيتُ جبريلَ، فَقَبَضْتُ الترابَ من موضع حافر دابته، وأَلْقَيْتُ في رَوْعِي أن ذلك سببُ حياة العجل فطرحْتُها في جوفه... هكذا زَيَّنْتُ لي نفسي فأتَّبَعْتُ هواها.

ثم كان هلاكه . . لئلا يأمنَ أحدٌ خفي مكرَ التقدير، ولا يركنَ إلى ما في الصورة من رَفَقٍ فَلَعَلَّهُ - في الحقيقة - يكون مكرًا، ولقد أنشدوا:

فَأَمِنْتُهُ فَأَتَانِي مَنْ مَأْمِنِي مَكْرًا، كَذَا مَنْ يَأْمَنُ الْأَحْبَابَا
قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَالَ قَاذِبٍ فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَيَوَةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلَفَنَّهُ﴾.

لم يخفَ على موسى - عليه السلام - تأثيرُ التقديرِ وانفرادُ الحقِّ بالإبداع، فلقد قال في خطابه مع الحق: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ولكنه لم يدع - مع ذلك - بإحلال العقوبة بالسامري والأمر في بابه بما يستوجبه؛ ليعلمَ أن الحكمَ في الإبداع والإيجاد - وإن كان لله - فالمعاقبة والمطالبة تتوجهان على الخلقِ في مقتضى التكليف، وإجراء الحق ما يجزّيه ليس حُجَّةً للعبد ولا عُذْرًا له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِفَنَّهُمْ لَنَسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

كلُّ ما تعلّق به القلب من دون الله ينسِفُه الحق - سبحانه بمُجِبِّهِ ولهذا يُلقَى الأصنامُ غداً في النار مع الكفار، وليس له جُزْمٌ، ولا عليها تكليف، ولا لها علمٌ ولا خبر . . وإنما هي جمادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِسْمًا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

أي إلهكم الذي تجب عليكم عبادته بحق أمره هو الله الذي لا إله إلا هو، وهو بوصف الجلال، والذي لا يخفى عليه شيء من المعلومات هو الله، وليس مثل الذي هو جماد لا يعلم ولا يقدر، ولا يحيا ولا يسمع ولا يبصر. ويمكنه أن يسحق هذا الجماد ويحرقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

نعرفك أحوال الأولين والآخرين لئلا يلتبس عليك شيء من طُرُقِهِمْ؛ فتتأدّب بأدابهم وتجتمع فيك مُتَفَرِّقَاتُ مناقبِهِمْ . . ولكن اعلم أنّا لم نُبلِّغَ أحداً مَبْلَغَكَ، ولم يكن لأحدٍ مثا مالك؛ آتيناك من عندنا شرفاً وفخراً لم يشركك فيهما أحد، وذكرناك ما سَلَفَ لَكَ من العهد معنا، وجَدَدْنَا لك بينهم تخصيصنا إياك، وكريم إقبالنا عليك.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾.

المُعْرِضُونَ عنه شركاء يحملون غداً وزراً وثِقْلاً، أولئك بعُدُوا عن محلِّ الخصوصية، ولم يكن لهم خَطَرٌ في التحقيق؛ فمقوبتُهُمْ لا تزيد على آلام نفوسِهِمْ وإحراقِ أشباحِهِمْ، وأما أهل الخصوصية فلو غفلوا عنه ساعةً ونسوه لحظةً لدار - في

الحال - على رؤوسهم البلاء بحيث تتلاشى في جهنم عقوبة كل أحد (بالإضافة إلى هذه العقوبة)^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَخْفَتُونَ يَنْتَهُمُ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا عَشْرًا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

قوم يوم القيامة لهم مؤجل، وهو بعد النفخ في الصور على ما ورد في الكتاب وفي الخبر المأثور.

وللآخرين قيامةً مُعَجَّلَةً؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة، وهوان حاضر وعذاب حاصل، فكما تردُّ على ظواهر قوم في الآخرة عقوبات، تردُّ على سرائر آخرين عقوبات في الحياة الحاضرة، والمعاملة مع كل أحد تخالف المعاملة مع صاحبه.

قوله: ﴿يَخْفَتُونَ يَنْتَهُمُ...﴾ مَنْ تَفَرَّغَ لِعَدِّ الْأَوْقَاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوع غير مستوفٍ في بلائه، وأمره سهل... وَمَنْ كَانَ يُرَادُّ الْمَعْنَى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال؛ فالأحوال تخبر عنه وهو لا يسأل عن الخبر.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾.

كما أن في القيامة الموعودة تُغَيَّرُ الْجِبَالُ عن أحوالها فهي كالعهن المنفوش^(٢) فكذلك في القيامة الموجودة... فلا يخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسي ثباتاً؛ فإنه يُدْخِلُ عليهم من الأحوال ما يمحققهم عن شواهدهم، ويأخذهم عن أقرانهم... كذا سُئِلَتْ سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْبَعُ الدَّاعِي لِعِوَجٍ لَمْ يَخْشَعْ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

تنقطع الأوهام، وتقف الأفهام، وتنخس العقول، وتندرس العلوم، وتتحير المعارف، ويتلاشى ما هو نعت الخلق، ويستولي سلطان الحقيقة... فعند ذلك لا عين ولا أثر، ولا رسم ولا طلل ولا غبر، في الحضور خرس، وعلى البساط قناء، وللرسوم امتحاء، وإنما الصحة على الثبات.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَى لَهُ قَوْلًا﴾.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. والآية (١٠١) لم ترد.

(٢) العهن: الصوف المصبوغ ألواناً. (اللسان ٢٩٧/١٣ مادة: عهن).

دليل الخطاب أَنَّ مَنْ أَدْنَى لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ تَنْفَعَهُ الشَّفَاعَةُ، وَإِذَا قُبِلَتْ شَفَاعَةُ أَحَدٍ بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ قِمَمِ الْمُحَالِ أَلَّا تُقْبَلَ شَفَاعَةُ الرَّسُولِ - ﷺ - وهو أفضل الكافة، وشفاعَةُ الأكابر من صفوته مقبولة في الأصغر في المؤجل وفي المعجل. والحق سبحانه يُشْفَعُ الشيوخ في مرديهم اليوم.

ويقال شفاعَةُ الرسول عليه السلام غداً للمطيعين بزيادة الدرجة، وللعاصين بغفران الزلَّة، كذلك شفاعَةُ الشيوخ - اليوم - للمريدين على قسمين: للذين هم أصحاب السلوك فزيادة التحقيق والتوفيق، وللذين هم أصحاب التَّخَبُّطِ والغِرَّةِ فبال تجاوز عنهم، وعلى هذا يُحْمَلُ قولُ قائلهم:

إِذَا مَرِضْتُمْ أَتَيْنَاكُمْ نَعُوذُكُمْ وَنُذْنِبُونَ فَنَاتِيَكُمْ وَنَعْتَذِرُ!

وحكايات السلف من الشيوخ مع مرديهم في أوقات فترتهم معروفة، وهي مُشَاكِلَةٌ لهذه الجملة، وإن شفاعَتهم لا تكون إلا بتعريف من قَبِلَ الله في الباطن، ويكون ذلك أدباً لهم في ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

لا يخفى على الحق شيء مما مضى من أحوالهم ولا مِنْ آتِيهَا، ولا يحيطون به عِلْمًا. والكناية في قوله: «به» يحتمل أن يعود إلى ما بين أيديهم وما خلفهم، ويحتمل أن يعود إلى الحق - سبحانه -، وهو طريقة السلف؛ يقولون: يعلم الخلق ولا يحيط به العلم، كما قالوا: إنه يَرَى ولا يُدْرِك.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

ذُلت له الرقاب واستسلم لحُكْمِهِ الخلق، وخَضَعَتْ له الجبابرة، ومن اقترف الظلم بقي في ظُلُمَاتِهِ، وعلى حسب ذلك في الزيادة والنقصان.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

العمل الصالح ما يصلح للقبول، وفاعله هو المتجرّد عن الآفات الواقفة لحقيقة الأمر.

ويقال العمل الصالح ما لم يستعجل عليه صاحبه أجراً.

قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أي في المال كما هو مؤمن في الحال.

ويقال هو مؤمن مصدق لربه أنه لا يعطي المؤمن لأجل إيمانه شيئاً، ولكن بفضلِهِ، وإيمانه أمانة لذلك لا موجب له.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذِرُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

أَتَبَغْنَا دليلاً بعد دليل، وبعثنا رسولاً بعد رسول، وحذَرناهم بوجوه من التعريفات، وإظهار كثير من الآيات.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

تعالى الله في كبريائه؛ وكبرياؤه: سناؤه وعُلاه ومجده ورفعته وعظمته، كل ذلك بمعنى واحد، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم.

و ﴿الْمَلِكُ﴾: مبالغة من المالك، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد، والانفراد بذلك.

و ﴿الْحَقُّ﴾: في وصفه - سبحانه - بمعنى الموجود، ومنه قوله عليه السلام: «العين حق»^(١) أي موجود.

ويكون الحق بمعنى ذي الحق، ويكون بمعنى مُحقِّ الحق.. كل ذلك صحيح.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْفُرْعَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافة النسيان، فأمره بالتثبت في التلقين، وأمره من طوارق النسيان، وعرفه أن الذي يحفظ عليه ذلك هو الله.

والآية تشير إلى طَرَفٍ من الاحتياط في القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول، ثم إن لم يوجد ما يُوجِبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بحق اللفظ، بخلاف قول أهل التوقف.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٧١/٧ - ٢١٤)، ومسلم في (الصحيح (السلام ٤١، ٤٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ب ٣٦)، والترمذي في (السنن ٢٠٦١)، وأبو داود في (السنن (الطب ب ١٥)، وابن ماجه في - (السنن ٣٥٠٦، ٣٥٠٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٨٩، ٣١٩، ٤٢٠، ٤٨٧، ٦٧/٤، ٣٧٩/٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٩/٣٥١)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٩٧٧٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٤٣٢)، وابن أبي شيبه في (المصنف ٧/٤١٧)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٤/٧٥)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٢٠٣ - ٢٣٣ - ٣٧٩)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٨/٣٤٤)، والدولابي في (الكنى والأسماء ٢/٤١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/٢٥٨)، والكمال في (الأحكام النبوية في الصناعة الطبية ١/١٥٤ - ١٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٦٥٧، ١٧٦٥٨، ١٧٦٦٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٨٣)، وابن كثير في (التفسير ١/٢٠٩، ٨/٢٢٨ - ٢٣٣)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٩/٢ - ٢٥١)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/٩١)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٢٤٨)، والذهبي في (الطب النبوي ١٣٤، ١٣٥) والسيوطي الحلبي في (الدر المنثور في الأحاديث المشتهرة ١١٤)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٥٦٣)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٩٩/٢).

فالآية تشير إلى التثبيت في الأمور وضرورة التمسك واللبث قصداً للاحتياط .

قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾: فإذا كان أَعْلَمَ الْبَشَرِ، وسيُذْ العَرَبِ والعجم، وَمَنْ شهد له الحقُ بخصائص العلم حين قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] يقال له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ - عَلِمَ أَنْ ما يخصُّ به الحقُّ أوليائه من لطائف العلوم لا حَصَرَ له .

ويقال أحاله على نفسه في استزادة العلم . وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] فشتان بين عبدٍ أحيل على عبدٍ في ذلك ثم قيل له: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] ثم بعد كل ذلك التلطف قال له في آخر الأمر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ...﴾ [الكهف: ٧٨] وبين عبدٍ أمره عند استزادة العلم بأن يطلبه من قِبَلِ ربه فقال: قُلْ يا محمد: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ .

ويقال لما قال عليه السلام: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له»^(١)، قال له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ أشرف خِصَالِ الْعَبْدِ الْوُقُوفُ فِي مَحَلِّ الْإِفْتِقَارِ، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف في مَغْرَضِ الدَعْوَى .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ . لم تجد له قوّة بالكمال، وانكماشاً في مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سِمةُ العصيان بقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ [طه: ١٢١] .

ويقال: ﴿لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾: على الإصرار على المخالفة .

ويقال لم نجد له عزمًا في القصد على الخلاف، وإن كان . . . فذلك بمقتضى النسيان، قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ على خلاف الأمر، وإن كان منه اتباع لبعض مطالبات الأمر .

ويقال شرح قصة آدم - عليه السلام - لأولاده على حجة التوسكين لقلوبهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم، واستقبلته هذه الخطيئة، وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ من النسيان، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعاً عن الناس .

ويقال عاتبه بقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ ثم أظهر عُذْرَهُ فقال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ .

(١) للحديث رواية أخرى: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم» أخرجه ابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٥١٤) .

ورواية تقول: «والله إني لأعلمكم بالله وأخشاكم له» أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ١٢٢) .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

السجود نوع من التواضع وإكبار القدر، ولم تتقدم من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فخلق الله الحق بيده، ورفع شأنه بعدما علمه، وحمل إلى الجنة، وأمر الملائكة في كل سماء أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء، واختباراً لهم. فسجدوا بأجمعهم، وامتنع إبليس من بينهم، فلقي من الهوان ما سبق له في حكم التقدير. والعجب ممن يخفى عليه أن مثل هذا يجري من دون إرادة الحق ومشيئته وهو عالم بأنه كذلك يجري، واعتبروا الحكمة في أفعاله وأحكامه، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته، وكثرة مخالفات أولاد آدم، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم... ثم يقولون إن الحق سبحانه أراد خلاف ما علم، وأجرى في سلطانه ما يكرهه وهو عالم، وكان عالماً بما سيكون! ثم خلق إبليس ومكنه من هذه المعاصي مع إرادته ألا يكون ذلك! ويدعون حسن ذلك في الفعل اعتباراً إنما هو الحكمة... ف سبحان من أغمى بصائرهم، وعمى حقيقة التوحيد عليهم!

قوله جل ذكره: ﴿فَقُلْنَا يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّى﴾.

وما كان ينفعهم التضرع وقد أراد بهم ما حذرهم، وعلم أنهم سيلقون ما خوفهم به. قوله: ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّى﴾: علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء؛ وأما إنه أضاف الشقاء إلى آدم وحده - وكلاهما لحقة شقاء الدنيا - فذلك لمضارعة رؤوس الآي، أو لأن التعب على الرجال دون النساء. ومن أصفى إلى قول عدوه فإنه يتجرع الندم ثم لا ينفعه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾.

لا تصديق أتم من تصديق آدم، ولا وعظ أشد رحمة من الله، ولا يقين أقوى من يقينه... ولكن ما قاسى آدم الشقاء قبل ذلك، فلما استقبله الأمر وذاق ما خوف به من العناء والكد ندم وأطال البكاء، ولكن بعد إبرام التقدير.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ أُوْزِرَ بكل وجه؛ فلم يعرف قدر العافية والسلامة، إلى أن جرى ما هو محكوم به من سابق القسمة.

ويقال تنعم آدم في الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى في الدنيا عليه الجوع والعطش، والبلاء من كل (...)^(١).

وكان آدم عليه السلام إذا تجدد له نوع من البلاء أخذ في البكاء، وجبريل عليه

(١) بياض في الأصل.

السلام - يأتي ويقول: ربك يُقرئك السلام ويقول: لِمَ تبكي؟ فكان يُذكر جبريلَ عليه السلام وهو يقول: أهذا الذي قُلْتَ: ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾...! وغير هذا من وجوه الضمان والأمن!

قوله جل ذكره: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَقَدَّمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَنْ لَكَ لَا يَبْلَى﴾.

وسوس إليه الشيطان وكان الحق يعلم ذلك ولم يذكر آدم في الحال أن هذا من نزعات مَنْ قال له - سبحانه -: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ﴾ [طه: ١١٧].

ويقال: لو عَمَى على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها بعينها، ولو لم يكن (...) ^(١) حتى دلَّه على تلك الشجرة إيش الذي كان يمنعه منه إلا أن الحكم منه بذلك سَبَقَ، والإرادة به تعلقت؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له: يا شقي، فعلت وصنعت...!

فقال إبليس لآدم: إن كنتَ شيطانك فَمَنْ كان شيطاني؟

ويقال سُمِّي الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله، فكلُّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبعدُ الناسَ عن طاعة الله فهو شيطان، ولذلك يقال: شياطين الإنس، وشياطين الإنسِ شرٌّ من شياطين الجن.

ويقال لما طمع آدم في البقاء خالداً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه بوسوسته.

والناسُ تكلموا في الشجرة: ما كانت؟ والصحيح أن يقال إنها كانت شجرة المحنة.

ويقال لو لم تُخلَق في الجنة تلك الشجرة لَمَا كان في الجنة نقصانٌ في رتبته.

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لِتَصِلَ إليها يَدُه، ولكنه - كما في القصة - كانت لا تصل إلى أوراقها يده - بعد ما أكل منها - حينما أراد أن يأخذ منها لِيسْتُرَ عورته.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.

لَمَّا ارتكبا المنهي عنه ظهر ما يُستَخَي من ظهوره، ولكنَّ اللّه - سبحانه - ألطفَ معهما في هذه الحالة بقوله: فَبَدَتْ لهما سَوَاتُهُمَا، ولم يَقُلْ - مُطْلَقاً - فَبَدَتْ سَوْآتُهُمَا؛ أي أنه لم يُطلع على سوءتهما غيرهما.

ويقال لَمَّا تجرّداً عن لباس التقوى تناثر عنهما لباسهما الظاهر.

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَمْنُنَ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ﴾.

أول الجُزْب والصناعات - على مقتضى هذا - الخياطة، وخياطة الرِّقَاع بعضها على بعض للفقراء ميراث من أبينا آدم - عليه السلام.

ويقال كان آدم - عليه السلام - قد أصبح وعليه من حُلل الجنة وفنون اللباس ما اللّه به أعلم، ثم لم يُمس حتى كان يخصف على نفسه من ورق الجنة، وهكذا كان في الابتداء ما هو موزوث في أولاده من هناء بعده بلاء.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ يَأْمُرْ أَنْتُمَا أَنْ تَكُونَا مِنَ الشُّعْرَةِ﴾: [الأعراف: ٢٢] عند ذلك وقعت عليهما الخجلة لما ورّد عليهما خطاب الحق: ﴿أَلَمْ يَأْمُرْ أَنْتُمَا... عَنْ﴾ [الأعراف: ٢٢] ولهذا قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَنَنَّا أَنْفُسَنَا...﴾: [الأعراف: ٢٣] لم يتكلما بلسان الحجة فقالا: ﴿رَبُّنَا ظَنَنَّا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولم يقلوا: بظلمنا صرنا من الخاسرين، بل قالوا: ﴿وَلَنْ نَرَى تَغْيِرَ لَنَا وَتَرَحُّمًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ليُعلم أنّ المدار على حكم الرب لا على جُرم الخلق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.

لما وقعت عليه سمة العصيان - وهو أول البشر - كان في ذكر هذا تنفيس لأولاده؛ أن تجري عليهم زلة وهم بوصف الغيبة في حين الفترة.

ويقال كانت تلك الأكلة شيئاً واحداً، ولكن قصتها يحفظها ويردها الصبيان إلى يوم القيامة.

وعصى آدم ربّه ليُعلم أن عظم الذنوب لمخالفة الأمر وعظم قدره... لا لكثرة المخالفة في نفسها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ اجْتَنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

أخبر أنه بعدما عصى، وبعد كل ما فعله اجتباه ربّه؛ فالذي اصطفاه أولاً بلا علة اجتباه ثانياً بعد الزلة، فتاب عليه، وغفر ذنبه، ﴿وَهَدَى﴾: أي هداه إليه حتى اعتذر واستغفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَقِمْ صَافِيَةً مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ إِلَى شَقِيٍّ﴾.

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية، وقد توالى المحن على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان، ومفارقة الجنة، ودخول الدنيا، وداوة الشيطان، والابتلاء بالشهوات. ثم قال:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ...﴾ وترك هواه، ولم يعمل بوسوسة العدو فله كل خير، ولا يلحقه ضرر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك في الدنيا، وفي القبر، وفي النار، وبالقلب من حيث وحشة الكفر، وبالوقت من حيث انغلاق الأمور.

ويقال مَنْ أَعْرَضَ عن الانخراط في قضايا الرفاق انثالت عليه فنون الخذلان، ومن أَعْرَضَ عن استدامة ذكره - سبحانه - بالقلب توالى عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كل رَوْح.

وَمَنْ أَعْرَضَ عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوس الشيطان وهواجس النفس بما يوجب له وحشة الضمير، وانسداد أبواب الراحة والبسط.

ويقال مَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْرِ الله في الخلوة قَيَّضَ الله له في الظاهر من القرين السوء ما توجب رؤيته له قَبْضُ القلوب واستيلاء الوحشة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾.

في الخبر: «مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا» فَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى الْقَلْبُ يُحْشَرُ عَلَى حَالَتِهِ، وَمَنْ يَعِشْ عَلَى جَهْلٍ يُحْشَرُ عَلَى جَهْلٍ، وَلِذَا يَقُولُونَ: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟﴾ [يس: ٥٢] إِلَى أَنْ تُصِيرَ مَعَارِفُهُمْ ضَرُورِيَّةً.

وكما يَتْرَكُونَ - اليوم - التَّدَبُّرُ فِي آيَاتِهِ يَتْرَكُونَ غَدًا فِي الْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ عَلَى ضَعْفِ حَالَاتِهِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾.

جَرَتْ سُنَّتُهُ بِأَنْ يُجَازِيَ كُلًّا بِمَا يَلِيقُ بِحَالِهِ، فَمَا أَسْلَفَهُ لِنَفْسِهِ سِيلَقِي غِيْبِهِ؛ عَلَى الْخَيْرِ خَيْرًا، وَعَلَى الشَّرِّ شَرًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ أَلْبَسُوا الْأُفْلَاقَ﴾.

أَيُّ أَفْلَا يَنْظُرُونَ فَيَتَفَكَّرُونَ؟ ثُمَّ إِذَا اسْتَبْصَرُوا أَفْلَا يَعْتَبِرُونَ؟ وَإِذَا اعْتَبَرُوا أَفْلَا يَزْدَجِرُونَ؟ أَمْ عَلَى وَجْهِهِمْ - فِي مَيَادِينِ غَفْلَاتِهِمْ يَرْكُضُونَ، وَعَنْ سُوءِ مَعَامَلَاتِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾.

لَوْلَا أَنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ سَبَقَتْ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَأْصِلُهُمْ لِأَنَّ

جماعة من الأولياء في أصلابهم لعَجَلْ عقوبتهم، ولكن.. كما ذَكَرَ من الأحوال أمهلهم مدة معلومة، ولكنه لم يهملهم أصلاً.

وإذا كانت الكلمة بالسعادة لقوم والشقاوة لقوم قد سبقت، والعلم بالمحفوظ بجميع ما هو كائن قد جرى - فالسعي والجهد، والانكماش والجد.. متى تنفع؟ لكنه من القسمة أيضاً ما ظهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

سماح الأذى يوجب المشقة، فأزال عنه ما كان لحقه من المشقة عند سماع ما كانوا يقولون، وأمره: إن كان سماع ما يقولون يوحشك فتسبيحنا - الذي تُثني به علينا - يروحك.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: أي في صدر النهار؛ لِبَارِكِ لَكَ في نهارك، وَيَنعَم صباحك.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي عند نقصان النهار؛ ليطيب ليلك، وينعم رواحك.

﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ أي في ساعات الليل؛ فإن كمال الصفوة في ذكر الله في حال الخلوة.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أي استديم ذكر الله في جميع أحوالك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾.

فضل الرؤية فيما لا يحتاج إليه معلول كفضل الكلام، والذي له عند الله منزل وقدّر فللحق على جميع أحواله غيرة؛ إذ لا يَرْضَى منه أن يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس الله - سبحانه - فيه رضاء، وفي معناه أنشدوا:

فعيني إذا استحسنست غيركم
أمرت الدموع بتأديبها

ويقال لما أذبه في ألا ينظر إلى زينة الدنيا بكمال نظره وَقَفَّ على وجه الأرض بفرد قدم تصاوناً عنها حتى قيل له: «طه» أي طأ الأرض بقدمك. ولم كل هذه المجاهدة وكل هذا التباعد حتى تقف بفرد قدم؟ طأ الأرض بقدميك.

﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾ الفتنة ما يُشغَل به عن الحق، ويستولي حُبّه على القلب، ويُجسّر وجوده على العصيان، ويحمل الاستمتاع به على البطر والأشر^(١).

(١) البطر: النشاط. أو قلة احتمال النعمة والطينان بها وشدة المرح. الأشر: البطر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

القليل من الحلال - وفيه رضاء الرحمن - خير من الكثير من الحرام والحطام..
ومعه سُخْطُهُ. ويقال قليل يُشْهِدُكَ رَبُّكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُنْسِيكَ رَبُّكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

الصلاة استفتاحُ بابِ الرزق، وعليها أحال في تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه. ويقال الصلاة رزق القلوب، وفيها شفاؤها، وإذا استأخر قُوْتُ النَّفْسِ قُوِيَ قُوْتُ القلب.

وأمر - الرسول - عليه السلام - بأن يأمر أهله بالصلاة، وأن يضطبر عليها.
وللاصطبار مزية على الصبر؛ وهو ألا يجد صاحبه الألم بل يكون محمولاً مَرُوحاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾.

أي لا نكلفك برزق أحد؛ فإنّ الرازق الله - سبحانه - دون تأثير الخلق، فنحن نرزقك ونرزق الجميع.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

هما شيان: وجود الأرزاق وشهود الرزاق؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة النفوس، وشهود الرزاق يوجب قوة القلوب.

ويقال استقلال العامة بوجود الأرزاق، واستقلال الخواص بشهود الرزاق.

ويقال نفى عن وقته الفرق بين أوصاف الرزق حين قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ فإنّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله: ﴿نَحْنُ﴾ سقط عنه التمييز بين رزقٍ ورزقٍ.

ويقال خُفِّفَ على الفقراءِ مقاساةَ قِلَّةِ الرزقِ وتأخُّره عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله: ﴿نَحْنُ﴾.

قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾: أي العاقبة بالحسنى لأهل التقوى.

ويقال المراد بالتقوى المُتَّقِي، فقد يسمّى الموصوف بما هو المصدر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾.

عَمِيَتْ بصائرهم وأدعوا أنه لا برهان معه، ولم يكن القصور في الأدلة بل كان الخلل في بصائرهم، ولو جمع الله لهم كل آية افتُرِحَتْ على رسولٍ ثم لم يُرِدْ الله أن يؤمنوا لَمَا ازدادوا إلا طغياناً وكفراً وخسراناً... وتلك سُنَّةُ أسلافهم في تكذيب أنبيائهم، ولذا قال:

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

إن أرسلنا إليهم الرسل قابلوهم بفنونٍ من الجحد، ووجوه من العلل؛ مرة يقولون فما بال هذا الرسول بشر؟ هلاً أرسله ملكاً؟ ولو أرسلنا ملكاً لقالوا هلاً أرسل إلينا مثلنا بشر؟ ولو أظهر عليهم آية لقالوا: هذا سحر مُفْتَرَى! ولو أخليناهم من رسولٍ وعاملناهم بما استوجبوه من تكبير لقالوا:

هلاً بعث إلينا رسولاً حتى كنا نؤمن؟ فليست تنقطع أعلالهم، ولا تنفك - عما لا يُرضى - أحوالهم. وكذلك سبيل من لا يجنح إلى الوصال ولا يرغب في الوداد، وفي معناه أنشدوا:

وكذا الملول إذا أراد قطيعةً ملّ الوصال وقال كان وكانا
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِعٍ فَرَيْصَةٌ فَتَرَبَّصُوا فَنَسْتَعْلَمُونَ مَنَ أَصْحَابِ الضَّرَاطِ السَّيِّئِ وَمَنَ أَهْلَكُوا﴾.

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثيقة، ينتظرون ما سيبدو في المستأنف، إلا أن أرباب التفرقة ينتظرون ما سيبدو ممّا يقتضيه حكم الأفلاك، وما الذي توجهه الطبائع والنجوم. والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في روح التوحيد، والباقيون في ظلمات الشرك.

السورة التي يذكر فيها الأنبياء

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز مَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِجَمِيلِ نِعْمَتِهِ؛ إِنَّ أَطَاعَ فَضَّلَهُ، وَإِنْ أَصَاعَ أَمْهَلَهُ، ثُمَّ إِنَّ أَبَ وَأَقَرَّ. . ذَكَرَهُ، وَإِنْ عَصَى وَعَابَ سَتَرَهُ، فَإِنْ تَنَصَّلَ رَحِمَهُ، وَإِنْ تَكَبَّرَ قَصَمَهُ.

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه، وما استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه؛ بتوفيقه وَصَلَ العابدون إلى مجاهدتهم، وبتحقيقه وَجَدَ العارفون كمالَ مشاهدتهم، وبتمام مجاهدتهم وجدوا أَجَلَ مَثُوبَتِهِمْ، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قريتهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

فالمطيعون منهم عَظَمَ لَدِينَا ثَوَابُهُمْ، والعاصون منهم حَقَّ مِثْلُ عِقَابُهُمْ.

﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ [الأنبياء: ١] يقال الغفلة على قسمين: غافل عن حسابه باستغراقه في دنياه وهواه، وغافل عن حسابه لاستهلاكه في مولاه؛ فالغفلة الأولى سِمةُ الهجر والغفلة الثانية صِفةُ الوُضَل؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة الموت، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبد الأبد لفنائهم في وجود الحق تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

لم يجدد إليهم رسولا إذا ازدادوا نفورا، ولم يُنْزِلْ عَلَيْهِمْ خِطَاباً إِلَّا رَدُّهُ جَحْداً وتكذيباً، وما زدناهم فصلاً إِلَّا عُدُّهُ هَزْلاً، وما جددنا لهم نعمة إِلَّا فعلوا ما استوجبوا نقمة، فكان الذي أكرمناهم به محنة بها بلوناهم. . وهذه صفة مَنْ أَسَاءَ مع الله خُلِقَهُ، وَخَسِرَ عند الله حَقَّهُ.

قوله جل ذكره: ﴿لَا إِلَهَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

عَمِيَتْ بصائرهم وعامت أفهامهم، فهم في غباوة لا يستبصرون، وفي أكنة عمّا أقيم لهم من البرهان فهم لا يعلمون.

قوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى...﴾ لَمَّا عجزوا عن معارضته، وسقطوا عند التحدي،

وظهرت عليهم حُجَّتُهُ رَجَمُوا فِيهِ الْفِكْرَ، وَقَسَمُوا فِيهِ الظَّنَّ؛ فمرة نسبوه إلى السحر، ومرة وصفوه بقول الشعر، ومرة رَمَوْهُ بِالْجَنُونِ وفنوني من العيوب. وقبل ذلك كانوا يقولون عنه: هو محمد الأمين، كما قيل:

أشاعوا لنا في الحيّ أشنع قصّة
وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حزباً
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

الأقاويل التي يسمعها الحقّ - سبحانه - مختلفة؛ فَمِنْ خطابٍ بعضهم مع بعض، ومن بعضهم مع الحق. والذين يخاطبون الحقّ: فَمِنْ سائل يسأل الدنيا، ومن داع يطلب كرائم العُقْبَى، ومن مُثْنٍ يشني على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى.

ويقال يسمع أنين المُنْذِنِينَ سِراً عن الخَلْقِ حَدَرًا أن يفتضحوا، ويسمع مناجاة العابدين التسبيح إذا تهجدوا، ويسمع شكوى المحبين إذا مَسَّتْهُمُ الْبُرْحَاءُ^(١) فَضَجُّوا من شدة الاشتياق.

ويقال يسمع خطاب مَنْ يناجيه سِراً بسرّ، وكذلك تسبيح مَنْ يمدحه ويشني عليه بلسان سرّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأِنُنَا بِنَايَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

نَوَّعُوا ما نسبوا إليه - بعدما نزلنا إليه الأمر - من حيث كانوا، ولم يشاهدوا هِمَمَهُ على الوصف الذي كانوا يصفونه به من صدق في الحال والمقال، وكما قيل:

رمتني بدائنها وانسلت

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

أخبر أن الله تعالى أجرى سُنَّتَهُ أن يُعَذِّبَ من كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا في الحال ولا في المآل. وإن هؤلاء الذين كفروا في عصر الرسول ﷺ أمثالهم في الكفران، وقد حَكَمَ الحقّ لهم بالحرمان والخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لَمَّا قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أخبر أنه لم يُرْسَلْ إلى الناس رسولا فيما سَبَقَ من الأزمان الماضية والقرون الخالية إلا بشراً، وَذَكَرَ أَنَّ الْخُصُوصِيَّةَ لَهُمْ كَانَتْ بِإِرْسَالِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ.

(١) البرحاء: الشدة والمشقة.

ثم قال: ﴿فَتَشَاوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: الخطاب للكل والمراد منه الأمة، وأهل الذكر العلماء من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد - ﷺ - ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين في محل الإعلام من الحق - سبحانه - أو من يُخَسِّنُ الإفهام عن الحق.

ويقال العالم يرجع إلى الله في المعاملات والعبادات، وإذا اشتكلت الواقعة فيخبر عن اجتهاده، وشرطه ألا يكون مقلداً، ويكون من أهل الاجتهاد، فإذا لم يخالف النص وأدى اجتهاده إلى شيء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه، وأما الحكيم فإذا تكلم في المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفْتَى به فإن لم تتقدم له من قبله المنازلة ففتواه في هذا الطريق كفتوى المقلد في مسائل الشرع.

فأما العارف فيجب أن يتكلم في هذا الطريق عن وَجْهِهِ - إن كان - وإلا فلا تُقْبَلُ فتواه ولا تُسْمَعُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

لَمَّا غَيَّرُوا الرِّسُولَ - عليه السلام - بقولهم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام؟ .. أخبر أن أَكَلَ الطعام ليس بقادح في المعنى الذي يختص به الأكابر، فلا منافاة بين أكل الطعام وما تُكِنُّهُ الْقُلُوبُ والسرائر من وجوه التعريف.

ويقال: النفوس لا خبر لها مما به القلوب، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السر.

قوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾: أي إنهم على ممرٍ ومغبرٍ، ولا سبيلَ اليومَ لمخلوقٍ إلى الخُلْدِ.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

الحق - سبحانه - يُحَقِّقُ وَعْدَهُ وإن تباطأ بتحقيقه الوقت فيما أخبر أنه يكون. والموعود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدين، وإرغام مَنْ نَابَذَ الْحَقَّ مِنَ الْجَاهِدِينَ، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة، وإيضاح وجه الدلالة، وبيان خطأ الشبهة.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يريد بالكتاب القرآن، وقوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: أي شرفكم ومحلكم، فَمَنْ استبصر بما فيه من النور سَعِدَ في دنياه وآخرها.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

إِنَّ اللَّهَ يُمَهِّلُ الظَّالِمَ حِينًا لَكِنه يَأْخُذْهُ أَخْذَ قَهْرٍ وَانْتِقَامٍ، وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ بِخَرَابِ مَسَاكِنِ الظَّالِمِينَ، وَقَدْ جَاءَ الْخَيْرُ: «لَوْ كَانَ الظَّالِمُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ لَسُلِّطَ عَلَيْهِ الْخَرَابُ»؛ فَإِذَا ظَلَمَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ حَرَّمَ اللَّهُ أَنْ يَقْطِنَهَا التَّوْفِيقُ وَجَعَلَهَا مَوْطِنَ الْخِذْلَانِ، فَإِذَا ظَلَمَ قَلْبُهُ بِالْغَفْلَةِ سَلَّطَ عَلَيْهِ الْخَوَاطِرَ الرَّدِيَّةَ الَّتِي هِيَ وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ وَدَوَاعِي الْفُجُورِ. وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ فِي الْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ؛ إِنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرِبَتْ زَايَلَتْهَا الْحَقَائِقُ وَالْمَحَابُّ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا الْعَلَائِقُ وَالْمَسَاكِنَاتُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾.

لَمَّا ذَاقُوا وَبَالَ أَعْمَالِهِمْ اضْطَرَبُوا فِي أَحْوَالِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعِهِمْ نَدْمُهُمْ، وَلَمْ تَعُدْ إِلَى مُحَالِّهَا أَقْدَامُهُمْ، وَبَعْدَ ظَهْوَرِ الْخِيَانَةِ لَا تُقْبَلُ الْأَمَانَةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونُ﴾.

وَلِلْخِيَانَةِ سَرَايَةٌ، فَإِذَا حَصَلَتْ الْخِيَانَةُ لَمْ تَقِفِ السَّرَايَةُ، وَإِذَا غَرَقَتِ السَّفِينَةُ فَلَيْسَ بِيَدِ الْمَلَّاحِ إِلَّا إِظْهَارُ الْأَسْفِ، وَهِيَاهُ أَنْ يُجِدِي ذَلِكَ!

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّأَ إِنْأَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

لِلْإِقْرَارِ زَمَانٌ؛ فَإِذَا فَاتَ وَقْتُهُ فَكَمَا فِي الْمَثَلِ: يَسْبِقُ الْفَرِيضُ الْحَرِيصُ. وَوَضَعَ الْقَوْسَ بَعْدَ إِرْسَالِ السَّهْمِ لَا قِيَمَةَ لَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾.

إِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ أَنْ يَشْكُرَ الْمَرْءُ فَلَا يُسْمَعَ، وَيَبْكِي فَلَا يَنْفَعُ، وَيَدْنُو فَيُقْصَى، وَيَمْرُضُ فَلَا يُعَادَى، وَيَعْتَذِرُ فَلَا يُقْبَلُ. . وَغَايَةُ الْبَلَاءِ التَّلَفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ﴾.

اللَّعِبُ نَعْتُ مَنْ زَالَ عَنْ حَدِّ الصَّوَابِ، وَاسْتَجَلِبَ بِفَعْلِهِ الْإِلْتِذَاذَ، وَانْجَرَّ فِي حَبْلِ السَّفَرِ. وَحَقُّ الْحَقِّ مُتَقَدِّسٌ عَنْ هَذِهِ الْجَمْلَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾.

يَخَاطَبُهُمْ عَلَى حَسَبِ أَفْهَامِهِمْ؛ وَإِلَّا. . فَالَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ سَهْوٌ لَا يَسْتَفْرِهُ لَهْوٌ، وَالْحَقُّ لَا يَعْتَرِيهِ وَلَا يَضَاهِيهِ كُفْوٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾.

نُذْخِلُ نَهَارَ التَّحْقِيقِ عَلَى لِيَالِي الْأَوْهَامِ فَيَنْقَشِعُ سَحَابُ الْغَيْبَةِ، وَيَنْجَلِي ضَبَابُ الْأَوْهَامِ، وَتَنْبَرِ شَمْسُ الْيَقِينِ، وَتَصْحُو سَمَاءُ الْحَقَائِقِ عَنْ كُلِّ غُبَارِ التُّهْمِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾.

الحادثات له سبحانه ملكاً والكائنات له حكماً، وتعالى الله عن أن يتجمل بوقافٍ أو ينقص بخلاف، وبالقدر ظهور الجميع، وعلى حسب الاختيار تنصرف الكلمة.

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾.

المطيع المختار يُسَبِّحُه بالقول الصدق، والكل من المخلوقات تسبيحها بدلالة الخلق، وبرهان البينة.

قوله جل ذكره: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ﴾.

تفرد الحق بالإبداع والإيجاد، وتقدس عن الأمثال والأنداد، فالذين يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِهِ أمواتٌ غيرُ أحياءٍ. وهم بالضرورة يعرفون. أفلا يَغْتَبِرُونَ وألا يَزْدَجِرُونَ؟

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أخبر أن كل أمر يُنَاطُ بجماعة لا يجري على النظام؛ إذ ينشأ بينهم النزاع والخلاف. ولما كانت أمورُ العالم في الترتيب مُتَّسِقَةً فقد دل ذلك على أنها حاصلة بتقديرٍ مُدَبَّرٍ حكيم؛ فالسماء في علوها تدور على النظام أفلاكها، وليس لها عُمْدٌ لإمسакها، والأرض مستقرة بأقطارها على ترتيب تعاقب ليلها ونهارها. والشمس والقمر والنجوم السائرة تدور في بروج، ورقعة السماء تتسع من غير فروج. ذلك لتقدير العزيز العليم علامة، وعلى وحدانيته دلالة.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

يَكُونُ الخلق له، وهم يُسألون للزوم حقه عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَىٰ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

دلت الآية على فساد القول بالتقليد، ووجوب إقامة الحجة والدليل.

ودلت الآية على توحيد المعبود، ودلت الآية على إثبات الكسب للعبيد؛ إذ لولاه لم يتوجه عليهم اللوم والعُتْبُ. وكلُّ مَنْ عَلِقَ قلبه بمخلوق، أو تَوَهَّم من غير الله حصول شيءٍ فَقَدْ دَخَلَ في غمار هؤلاء لأن الإله مَنْ يَصْخُ منه الإيجاد.

قوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَىٰ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلُ﴾: الإشارة منه أن الدين توحيد الحق، وإفراذ الرب على وصف التفرد ونعت الوحدانية.

ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ إنما عدموا العلم لإعراضهم عن النظر، ولو وضعوا النظر موضعه لَوَجِبَ لهم العلم لا محالة، والأمر يدل على وجوب النظر، وأنَّ العلوم الدينية كُلُّها كسبية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

التوحيد في كل شريعة واحد، والتعبد - على من أرسل إليه الرسول - واجب، ولكن الأفعال للنسخ والتبديل مُعَرَّضَةٌ، أما التوحيد وطريق الوصول إليه فلا يجوز في ذلك النسخ والتبديل.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾.

في الآية رخصة في ذكر أقاويل أهل الضلال والبدع على وجه الرد عليهم، وكشف عوراتهم، والتنبيه على مواضع خطاياهم، وأنه إن وسوس الشيطان إلى أحد بشيء منه كان في ذلك حجة للانفصال عنه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَفِئُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

أخبر أن الملائكة معصومون عن مخالفة أمره - سبحانه، وأنهم لا يُقْصِرُونَ في واجب عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

علمه القديم - سبحانه - لا يختص بمعلوم دون معلوم، وإنما هو شامل لجميع المعلومات، فلا يعزب عن علم الله معلوم.

قوله: ﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ دل على أنهم يشفعون لقوم، وأن الله يتقبل شفاعتهم.

قوله: ﴿وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾: ليس لهم ذنب ثم هم خائفون؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز، فإذا لم يجز أن يعذب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتكبوا زلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ إِلَّا هُوَ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَكْفُرْ بِهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

أخبر أنهم مُعْرِضُونَ عن الزلة بكل وجه. ثم قال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ إِلَّا هُوَ مِنْ دُونِهِ﴾ وقد علم أنهم لا يقولون ذلك، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه، فالحق - سبحانه - يعلم ما لا يكون كيف كان يكون.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

داخَلْنَهُمُ الشَّبْهَةَ فِي إِعَادَةِ الْخَلْقِ وَالْقِيَامَةِ وَالنَّشْرِ، فَأَقَامَ اللَّهُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ بِأَن قَال: أَلَيْسُوا قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ سَمَكَ السَّمَاءَ وَبَسَطَ الْأَرْضَ.. فإذا قدر على ذلك فكيف لا يقدر على الإعادة بعد الإبادة؟

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

كُلُّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ حَيٍّ فَمِنَ الْمَاءِ خَلَقَهُ، فَإِنَّ أَصْلَ الْحَيَوَانِ الَّذِي حَصَلَ بِالتَّنَاسُلِ النُّطْفَةُ، وَهِيَ مِنْ جَمَلَةِ الْمَاءِ.

وَحَيَاةُ النُّفُوسِ بِمَاءِ السَّمَاءِ مِنْ حَيْثُ الْغِذَاءُ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ بِمَاءِ الرَّحْمَةِ، وَحَيَاةُ الْأَسْرَارِ بِمَاءِ التَّعْظِيمِ. وَأَقْوَامُ حَيَاتِهِمْ بِمَاءِ الْحَيَاءِ.. وَعَزِيزٌ هُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

الْأَوَّلِيَاءُ هُمُ الرُّوَاسِي فِي الْأَرْضِ وَبِهِمْ يُرْزَقُونَ، وَبِهِمْ يُدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَاءُ، وَبِهِمْ يُوَفَّى عَلَيْهِمُ الْعِطَاءُ. وَكَمَا أَنَّهُ لَوْلَا الْجِبَالُ الرُّوَاسِي^(١) لَمْ تَكُنْ لِلْأَرْضِ أَوْتَادٌ.. فَكَذَلِكَ الشُّيُوخُ الَّذِينَ هُمْ أَوْتَادُ الْأَرْضِ (فَلَوْلَاهُمْ) لَنَزَلَتْ بِهِمُ الشَّدَةُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

كَمَا أَنَّ فِي الْأَرْضِ سُبُلًا يَسْلُكُونَهَا لِيَصِلُوا إِلَى مَقَاصِدِهِمْ كَذَلِكَ جَعَلَ السُّبُلَ إِلَيْهِ مَسْلُوكَةً بِمَا بَيَّنَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ هِدَايَةِ الْمُرِيدِينَ، وَقِيَادَةِ السَّالِكِينَ، كَمَا يَسَّرَ بِهِدَاهِمُ الْاِقْتِدَاءَ بِهِمْ فِي سِيرِهِمْ إِلَى اللَّهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

فِي ظَاهِرِ الْكَوْنِ السَّمَاءُ مَنِيرَةٌ، وَالْأَرْضُ مَسْكُونَةٌ.. كَذَلِكَ لِلنُّفُوسِ أَرْضٌ هِيَ مَسَاكِنُ الطَّاعَاتِ، وَفِي سَمَاءِ الْقُلُوبِ نَجُومُ الْعَقْلِ وَأَقْمَارُ الْعِلْمِ وَشُمُوسُ التَّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ. وَكَمَا جُعِلَتْ النُّجُومُ رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ جَعَلَ مِنَ الْمَعَارِفِ رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ. وَكَمَا أَنَّ النَّاسَ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ لَا يَتَفَكَّرُونَ فَالْعَوَامُ عَنْ آيَاتِ الْقُلُوبِ مِمَّا فِيهَا مِنَ الْأَنْوَارِ غَافِلُونَ، لَا يَكَادُ يَعْرِفُهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

كَمَا أَنَّ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ - فِي الظَّاهِرِ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ، وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ فَكَذَلِكَ يُدْخَلُ فِي نَهَارِ الْبَسْطِ لَيْلُ الْقَبْضِ.. وَالْبَسْطُ فِي الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ. فَكَمَا أَنَّ الشَّمْسَ أَبَدًا فِي بَرَجِهَا لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ، وَالْقَمَرَ مَرَّةً فِي الْمَحَاقِ^(٢)، وَمَرَّةً فِي

(١) أي الجبال الشامخ.

(٢) المحاق: آخر الشهر القمري حيث لا يظهر القمر، وقيل: ثلاث ليالٍ من آخره، أو أن يستتر القمر ليلتين فلا يُرى غدوة ولا عشية.

الإشراق.. فصاحب التوحيد بنعت التمكين - يرتقي عن حَدِّ تأمل البرهان إلى رُوح البيان، ثم هو متحقق بما هو كالعيان. وصاحب العلم مرة يُرَدُّ إلى تجديد نظره وتذكّره، ومرة يغشاه غَيْرٌ في حال غفلته فهو صاحب تلوين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلَهُدًى أَفْأَيْنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾.

إنك في هذه الدنيا عابرُ سبيل، لكننا لم نترك فرداً في الدنيا، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه في الغار: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

الموت به آفة قوم، وفيه راحة قوم؛ لقوم انتهاء مدة الاشتياق، والآخرين افتتاح باب الفراق، لقوم وقوع فتنهم ولآخرين خلاص من محنتهم، لقوم بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ يَتَخَذُونَكُمْ إِلَّا هُزُوًا أَلَيْسَ الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص وما رآه إليه من المنزلة لظلوا له خاضعين، ولكنهم حجبوا عن معانية وسريرته، وعابنوا منه جسمه وصورته.

قوله جل ذكره: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾.

العجلة مذمومة والمُسَارعة محمودّة؛ فالمسارعة البدار إلى الشيء في أول وقته، والعجلة استقباله قبل وقته، والعجلة نتيجة وسوسة الشيطان، والمسارعة قضية التوفيق.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم، فاستعجلوا حصول ما توعدوهم به. ولو علموا ما ينالهم لكان السكون منهم، فالفرغ يدل على استعجالهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾.

لأمسكوا اليوم عن الانخراط في عذاب الظنون، والاغترار بمواعيد الشيطان.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/٥، ٨٣/٦)، ومسلم في (الصحيح فضائل الصحابة ب ١ رقم ١) وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/١)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦٨/٧)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٣٣٣/١٤)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/٣٢٥)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/٥٧٦)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/١٤٩)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٣/٤٤٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٥/٤٣٥، ١١/٤٣٤، ١٢/١٣٤)، وابن حبان في (المجروحين ١/٢٩٥).

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ .
 العقوبة إذا أتت فجأة كانت أنكى وأشد. وسنة الله في الانتقام أن يُبَيِّرَ رِيحَ البَغْتَةِ
 في حال الانغماس في النعمة والجنة .
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَكَانَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

تسليّة له، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين؛
 أي عن قريبٍ ستجدون وبأل ما استوجبوه من العقوبة .
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم، وقد جربوا ذلك في أحوال
 محتتهم، فكيف لا يتبرءون ممن ليس لهم شيء، ومما ليس منه نفع ولا ضرر؟ وفي
 ذلك تنبيه للمؤمنين بأن مآربهم إلى الخيرات من نوعي النفع والدفع من الله عز وجل،
 فالواجب دوام اعتكافهم بقلوبهم بقوة كرمه وجوده .
 قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ لِمَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ .

بسط القول وكرره في تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجمادات؛
 وأصنامهم التي عبدوها من تلك الجملة، ولم يرِدْ منهم - على تكرار هذه الألفاظ - إلا
 عجزً وانقطاع قول .

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ مَنَّاعًا لَّهُمْ هَوَالَاءَ وَإِنَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا
 نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

طولُ الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق، مشفوعاً بالعصمة كان مكرراً واستدراجاً،
 وزيادة في العقوبة . والحقُّ كما يعاقب بالآلام والأحوال يعاقب بالإملاء والإمهال .

وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ تتوالى القسوة حتى لا يَبْقَى أثرٌ، للصفوة؛
 فيتعاقب الخذلان حتى يتواتر العصيان، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذي فيه ذهاب الإيمان .

ويقال تنقص بذهاب الأكابر ويبقى الأراذل ويتعرض الأفاضل . . وفي هذا أيضاً
 إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر، فإن آخر الأمر كما قيل:

أَخِرُ الْأُمْرِ مَا تَرَى الْقَبِيرُ وَاللَّحْدُ وَالشَّرَى
 وكما قيل:

طوى العصران^(١) ما شَرَاه مني وأبلى جدتي نَشْرَ وطِي

(١) العصران: الليل والنهار، وقيل: الغداة والعشي. (لسان العرب ٥٧٦/٤ مادة: عصر).

أراني كل يوم في انتقاصٍ ولا يبقى - مع النقصان - شيء
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

أي بأمر الله أعلمكم بموضع المخافة، ويوحى إلي في بابكم أن أخوفكم باليم
عقابه، ولكن الذي عديم سماع التوفيق... أنى ينفعه تكرار الأمر بالقبول عليه؟
قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنْ مَسَّنَّهُمْ نَفْخَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُودُنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ﴾.

أي إنهم لا يصبرون على أقل شيء من العقوبة؛ وإن الحق إذا شاء أن يؤلّم أحداً
فلا يحتاج إلى مدد وعون.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

توزن الأعمال بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاص لا يقبل، وتوزن الأحوال
بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجاب لا يقبل، وتوزن الأنفاس بميزان (....) (١)
فما فيه حظوظ ومساكنات لا يقبل.

ويقال ينتصف المظلوم من الظالم، وينتقم الضعيف من القوي.
ويقال ما كان لغير الله يصلح للقبول.

ويقال يكافئ كلاً بما يليق بعمله فمن لم يرحم عباده في دنياه لا يرحمه الله، ومن
لم يحسن إلى عباده تقاصر عنه إحسانه، ومن ظلم غيره كوفىء بما يليق بسوء فعله.
قوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾: أي يجازي المظلومين وينتقم من الظالمين،
وينصف المظلوم من ميثاق الذرة ومقياس الحبة، وإن عمل خيراً بذلك المقدار
فسيلقى جزاءه، ويجد عوضه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ما آتاه الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والثور، والحجة والبرهان
يشاركهم المستجيبون من أممهم في الاستبصار به..

فكذلك الأكابر من هذه الأمة يشاركون نبينا - في الاستبصار بمرور اليقين.
و«المتقي» هو المجازب لما يشغله ويحجبه عن الله، فيتقي أسباب الحجاب
وموجباتها.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفُونَ﴾.

صار لهم في استحقاق هذه البصائر والخشية بالغيب إطراق السريرة، وفي أوان الحضور استشعار الوجلي من جريان سوء الأدب، والحذر من أن يبدو من الغيب من خفايا التقدير ما يوجب حجة العبد.

والإشفاق من الساعة على ضريين: خوف قيام الساعة الموعودة للعامة، وخوف قيام الساعة التي هي قيامة هؤلاء القوم؛ فإن ما يستأهل الكافة في الحشر مُعَجَّلٌ لهم في الوقت من تقريب ومن تباعد، ومن مخو ومن إثبات.

قوله جل ذكره: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُكْرَبُوا﴾:

وصف القرآن بأنه ﴿مبارك﴾، وهو إخبار عن دوامه، من قولهم: برك الطائر على الماء أي دام.

وإن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وما لا ابتداء له - هو كلامه القديم - فلا انتهاء للكتاب الدال عليه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.

أراد به ما تعرف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول، لولا أنه خصه في الابتداء بالتعريف. . . ولأمتى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خلقه لولا ما أضاء عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر في المخلوق؟ ويقال هو ما كاشف به روجه قبل إبداعها من تجلي الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَسِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

خاطب قومه وأباه بيان التنبيه طمعاً في استفاقتهم من سكرة الغفلة، ورجوعهم من ظلمة الغلظة، وخروجهم من ضيق الشبهة.

ثم سأل الله إعانتهم بطلب الهداية لهم. فلما تبين له أنهم لا يؤمنون، وعلى كفرهم يصرون تبرأ منهم أجمعين.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْءَ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللَّاعِينَ﴾.

ما استروحوا في الجواب إلا إلى التقليد، فكان من جوابه الحكم بالتسوية بينهم وبين آبائهم في الضلال، والحنة المتوجهة على سلفهم لزموا وتوجهت عليهم، فلم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا: ﴿أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللَّاعِينَ﴾ فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه من الإيمان فقال.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

فأحالهم على النظر والاستدلال والتعريف من حيث أدلة العقول لأن إثبات الصانع لا يُعرف بالمعجزات، وإنما المعجزات علم بصدق الأنبياء عليهم السلام، وذلك فرع لمعرفة الصانع.

ثم بين لهم أن ما عبده من دون الله لا يستحق العبادة، ثم إنه لم يخفى بما يصيبه من البلاء ثقةً منه بأن الله هو المتفرد بالإبداع، فلا أحد يملك له ضرراً من دون الله، فتساءلوا فيما بينهم وقالوا:

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^(١).

أي يذكرهم بالسوء. ويحتمل أن يكون من فعله.. فاسألوه، فسألوه فقال: بل فعله كبيرهم.

فقالوا كيف ندرك الذنب عليه؟ وكيف تحيلنا في السؤال عليه - وهو جماد؟

فقال: وكيف تستجيزون عبادة ما هو جماد لا يدفع عن نفسه السوء؟!

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾^(٢).

فقال: شرٌ وأمرٌ.. كيف تستحق أمثال هذه.. العبادة؟!

فلما توجهت الحجة عليهم ولم يكن لهم جواب داخلتهم الأنفة والحمية فقالوا:

سبيلنا أن نقتله شر قتله، وأن نعامله بما يخوفنا به من النار. فقالوا: ﴿أَبْنَاؤُا لَمْ يَتَنَا

قَالَ قَوْهُ فِي الْحَجِيرِ﴾^(٣) [الصفات: ٩٧]، فلما رموه في النار:

قوله جل ذكره: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

لو عصمه من نار نمرود ولم يمكنه من رميه في النار من المنجنيق^(٤) لكان - في الظاهر - أقرب من النصر، ولكن حفظه في النار من غير أن يمسه ألم أتم في باب النصرة والمعجزة والكرامة.

ويقال إن إبراهيم - عليه السلام - كان كثيراً ما يقول: أواه من النار!

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

فلما رمي في النار، وجعل الله عليه النار برذاً قيل له: لا تقل بعد هذا. أواه من النار! فالاستعاذة بالله من الله... لا من غيره.

(١) الآيتان (٥٧، ٥٨) لم تردا. (٢) الآيات من (٦١ حتى ٦٤) لم ترد.

(٣) الآيات من (٦٦ حتى ٦٨) لم ترد.

(٤) المنجنيق (مع) (مؤ): آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت تُرمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها (ج) منجنقات ومجانق ومجانيق.

قوله: ﴿وَسَلَامًا﴾: أي وسلامةً عليه وله، فإنه إذا كان للعبد السلامة فالنار والبرزء عنده سيان.

ويقال إن الذي يحرق في النار مَنْ في النار يقدر على حفظه في النار.
ولمَّا سَلِمَ قلبه من غير الله بكل وجهٍ في الاستنصار والاستعانة وسَلِمَ من طَلَبِ شيءٍ بكل وجهٍ.. تعرَّض له جبريل - عليه السلام - في الهواء وقد رمي من المنجنيق وقال له:
هل مِنْ حاجة؟

فقال: أَمَا إِلَيْكَ.. فَلَا!

فجعل الله النار عليه برداً وسلاماً؛ إذ لمَّا كان سليم القلب من الأغيار وَجَدَ سلامة النفس من البلايا والأعلال.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾.
مَنْ حَفَرَ لأوليائه وقع فيما حَفَرَ، وَمَنْ كان مشغولاً بالله لم يَتَوَلَّ الانتقام منه سوى الله

قوله جل ذكره: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.
مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي أنبيائه - عليهم السلام - أنه إذا نَجَّى منهم واحداً أشرك معه مَنْ كان مُسَاهِمًا له في ضَرِّهِ ومُقَاسَاةَ مشقته.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.
مَنْ عليه بأن أخرج مِنْ صلبه مَنْ كان عابداً لله، ذاكراً له، فإن مفاخر الأبناء مناقب للآباء، كما أن مناقب الآباء شرف للأبناء.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾.

الإمام مُقَدَّمُ القوم، واستحقاق رتبة الإمامة باستجماع الخصال المحمودة التي في الأمة فيه، فَمَنْ لم تتجمع فيه مُتَفَرِّقَاتُ الخصال المحمودة لم يستحق منزلة الإمامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرَجَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ فَسِيقِينَ﴾.

أكمل له الأنعام بعصمته مِنْ مثل ما افْتَحَجَ به قومه، ثم بخلاصه منهم بإخراجه إِيَّاهُ مِنْ بينهم، فميزه عنهم ظاهراً وباطناً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ فلا محالة مَنْ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ كَانَ صَالِحاً.

وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ إخبار عن عين الجمع، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: إخبار عن عين الفرق.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

كان نوح - عليه السلام - أطولهم عمراً، وأكثرهم بلاء. ففي القصة أنه كان يُضْرَبُ سبعين مرة، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول. لا تقبل قول هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته. وكان نوح - عليه - يصبر على مقاساة الأذى، ويدعوهم إلى الله، فلمَّا أَيْسَ من إيمانهم، وأَوْحِيَ إليه: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٢٦] دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ فَأَزْهَقَ الشُّرْكَ وَأَغْرَقَ أَهْلَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَلِفَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت. . . ففي مسألة واحدة أثبت لسليمان - عليه السلام - بها خصوصية؛ إذ مَنْ عَلَيْهِ بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ ولم يَمُنْ عليه بشيء من المُلْكِ الذي أعطاه بمثل ما مَنْ عَلَيْهِ بذلك، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين - وإن اختلفوا - إذا كان اختلافهم في فروع الدين؛ حيث قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ولَمَنْ قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلق بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

أَمَرَ الْجِبَالَ وَسَخَّرَهَا لِتُسَاعِدَ دَاوُدَ - عليه السلام - في التسبيح، ففي الأثر، كان داود - عليه السلام - يمرُّ وَصْفَاحُ^(١) الجبالِ تجاوبه، وكذلك الطيور كانت تساعده عند تأويبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾.

(١) الصفاح: (ج) الصفح من الجبل: سفحه.

سَخَّرَ اللَّهُ - سبحانه - لداود الحديد وألانه في يده، فكان ينسج الدروع، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] ليتحصن من السهام في الحروب، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّيِّدِ﴾ [سبأ: ١١] وأخبركم الصنعة وأوثق المسامير. . ولكن لما قصده سبهم التقدير ما أصابت إلا حدقته حين نظر إلى امرأة أوريا - من غير قصد - فكان ما كان.

ولقد خلا ذلك اليوم، وأغلق على نفسه باب البيت، وأخذ يصلي ساعة، ويقرأ التوراة مرة، والزبور أخرى، حتى يمضي وينتهي ذلك اليوم بالسلامة. وكان قد أوجي إليه أنه يوم فتنة، فأمر الحجاب والبواب ألا يؤذن عليه أحد، فوقع من كوة البيت طير لم ير مثله في الحسن، فهم أن يأخذه، فتباعد ولم يطز كالمطمع له في أخذه، فلم يزل يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوة البيت، فبعه داود ينظر إليه من الكوة من ورائه، فوقع بصره على امرأة أوريا، وكانت قد تجردت من ثيابها تغتسل في بستان خلف البيت الذي به داود، فحصل في قلبه ما حصل، وأصاب سبهم التقدير حدقته، ولم تنفعه صنعة اللبس التي كان تعلمها لتحصنه من بأسه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسْلَمْنَا الرِّيحَ غَاصَّةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾.

سَخَّرَ اللَّهُ له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، ولو أراد أن يزيد في قدر مسافتها شبراً لما استطاع، تعريفاً بأنه موقوف على حكم التقدير، فشهود التقدير كان يمنعه عن الإعجاب بما أكرم به من التسخير، ولقد نبه - سبحانه - من حيث الإشارة أن الذي ملكه سليمان كالريح إذا مر وفات، أو أنه لا يتقى باليد منه شيء.

وفي القصة أنه لاحظ ذلك يوماً فمالته الريح ببساطه قليلاً، فقال سليمان للريح: استو.

فقال له الريح: استوي أنت. أي إنما ميلني ببساطك لميلك بقلبك بملاحظتك فإذا استويت أنت استويت أنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَكِيمِينَ﴾.

إنما كان ذلك أياماً قلائل في الحقيقة. ثم إنه أراد يوماً أن يعود إلى مكانه فجاءه ملك الموت فطالبه بروجه، فقال: إليّ حين أرجع إلى مكاني.

فقال له: لا وجه للتأخير، وقبضه وهو قائم يتكئ على عصاه وبقي بحالته، ولم تعلم الجن، إلى أن أكلت دابة الأرض - كما في القصة - عصاه، فلما خر سليمان

عَلِمْتُ الشَّيَاطِينَ بِمَوْتِهِ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ الَّذِي بِالْعَصَا قِيَامُهُ فَقَهَرُ الْمَوْتِ يَلْحَقُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

أي واذكر أيوب حين نادى ربه. وسمي أيوب لكثرة إيباه إلى الله في جميع أحواله في السراء والضراء، والشدة والرخاء.

ولم يقل: ارحمني، بل حَفِظَ أدب الخطاب فقال: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ومن علامات الولاية أن يكون العبد محفوظاً عليه وقته في أوانِ البلاء.

ويقال إخباره عنه أنه قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ لم يسلبه اسم الصبر حيث أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] لأنَّ الغالب كان من أحواله الصبر، فنادرٌ قاله لم يسلب عنه الغالب من حالته. والإشارة من هذا إلى أنَّ الغالب من حال المؤمن المعرفة، أو الإيمان بالله فهو الذي يستغرق جميع أوقاته، ولا يخلو منه لحظة؛ ونادرٌ زلاته - مع دائم إيمانه - لا يزاحم الوصف الغالب.

ويقال؛ لما لم يكن قوله: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ على وجه الاعتراض على التقدير - بل كان على وجه إظهار العجز - فلم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر.

ويقال استخرج منه هذا القول ليكون فيه مُتَنَفِّسٌ للضعفاء في هذه الأمة حتى إذا ضَجُّوا في حالِ البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر.

ويقال لم يكن هذا القول منه على جهة الشكوى، وإنما كان من حيث الشكر ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ الذي تخصُّ به أوليائك، ولولا أنك أرحم الراحمين لما خصصتني بهذا، ولكن برحمتك أهلنتني لهذا.

ويقال لم يكن هذا القول من أيوب ولكنه استغاثه البلاء منه، فلم يُطِقْ البلاء صُحْبَتَهُ فضجَّ منه البلاء لا أيوبُ ضجَّ من البلاء... وفي معناه أنشدوا.

صَابِرَ الصَّبْرِ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبِيرُ فصاح المحبُّ بالصبر صبراً^(١)

ويقال همزة الاستفهام فيه مضمرة، ومعناه: أيمسني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين؟ كما قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي أهلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل؟

ويقال إن جبريل - عليه السلام - أتى أيوب فقال: لِمَ تسكت؟ فقال: ماذا أصنع؟ فقال: إن الله سيان عنده بلاؤك وشفائك... فاسأل الله العافية فقال أيوب: ﴿أني مسني الضر﴾ فقال تعالى: ﴿فكشفنا ما به من ضر﴾ [الأنبياء: ٨٤] والفاء

تفتضي التعقيب، فكأنه قال: فعافيناه في الوقت. وكأنه قال: يا أيوب، لو طلبت العافية قبل هذا لاستجبتا لك.

ويقال سقطت دودة كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوب ووضعها على موضعها، فعقرته عقرة عيل صبره فقال: مسني الضر، فقيل له: يا أيوب: أتصبر معنا؟ لولا أنني ضربت تحت كل شجرة من شعراتك كذا خيمة من الصبر... ما صبرت ساعة! ويقال كانت الدودات التي تأكل منه أكلت ما علأ بدنه، فلم ينق منه إلا لسانه وقلبه، فصعدت دودة إلى لسانه، وأخرى إلى قلبه فقال:

﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾... فلم ينق لي إلا لسان به أذكرك، أو قلب به أعرفك، وإذا لم ينق لي ذلك فلا يمكنني أن أعيش وأصبر!

ويقال استعجمت عليه جهة البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تعذيباً أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً... وكذلك كانت صحبته.

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سل العافية فقال:

عشت في النعم سبعين سنة فحتى يأتي علي سبعون سنة في البلاء... وعندئذ أسأل الله العافية!

وقيل لما كشف الله عنه البلاء قيل له: ما أشد ما لقيت في أيام البلاء؟ فقال شماتة الأعداء.

وفي القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم، وجرقوا ما كتبوه عنه وقالوا: لو كان لك عند الله منزلة لما ابتلاك بكل هذا البلاء!

وقيل لم يبق معه إلا زوجته، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام، فهي التي بقيت معه وكانت تخدمه وتعهده.

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب - عليه السلام.

وقيل إنما قال: مسني الضر لما قال لها الشيطان: إن أردت أن يشفى مريضك فاسجدي لي، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظهر لها في صورة إنسان، فأخبرت أيوب بذلك فقال عندئذ: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾.

ويقال لما ظهر به البلاء اجتمع قومه وقالوا لها: أخرجي هذا المريض من قريتنا، فإننا نخاف العدوى وأن يمسنا بلاؤه، وأن تغدي إلينا علته، فأخرجته إلى باب القرية فقالوا: إنا إذا أصبحنا وقعت أبصارنا عليه، فنتشاءم به، فأبعديه عن أبصارنا، فحملته إلى أرض فقير، وكانت تدخل البلد، وتشتاجر للخبز والعمل في الدور، فتأخذ

الأجرة وتحملها إليه، فلما عَلِمُوا أنَّها امرأته استقذروها ولم يستعملوها.
ويقال إنها كانت ذات ذوائب^(١) وقرون، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه، فباعَت ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء، وأن شعرها جُزَّ في ذلك فَحَلَفَ أيوبُ أَنْ يَجْلِدَهَا إِذَا صَحَّ حَدْثُهُ، وكانت المحنة على قلب تلك المرأة أشدَّ مما على بدنِ أيوب من كل المحن.

وقيل إن امرأته غَابَتْ ودخلت البلدَ، فعافى الله أيوبَ عليه السلام، وعاد شاباً طرياً كما قال في قصته قوله: ﴿أَزْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. فلما رجعت امرأته ولم تَرَه حسبت أنه أكله سَبُعٌ أو أصابته آفةٌ، فأخذت تبكي وتولول، فقال لها أيوب - وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً - مَالِكُ يَا امْرَأَةُ؟

قالت: كان لي ها هنا مريض فَقَدْتَهُ. فقال لها أيوب: أنا ذاك الذي تطلبينه!
وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلانه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات.

وقيل تعرَّضَ له إبليسُ فقال: إِنَّ أَرَدْتَ الْعَافِيَةَ فَاسْجُدْ لِي سَجْدَةً، فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾.

ويقال إن أيوب - عليه السلام - كان مُكَاشَفًا بِالْحَقِيقَةِ، مأخوذاً عنه، فكان لا يُجَسُّ بالبلاء، فَسَتَرَ عليه مرةً، ورَدَّهُ إليه، فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾.
ويقال أَدْخَلَ على أيوب تلك الحالة، واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية.

ويقال أوحى الله إلى أيوب - عليه السلام - أَنَّ هَذَا الْبَلَاءُ اخْتَارَهُ سَبْعُونَ نَبِيًّا قَبْلَكَ فَمَا اخْتَرْتَهُ إِلَّا لَكَ، فلَمَّا أَرَادَ كَشْفَهُ عَنْهُ قَالَ: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾.

وقيل كوشف بمعنى من المعاني فلم يَجِدْ أَلَمَ الْبَلَاءِ فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ لِفَقْدِي أَلَمَ الضُّرِّ.

وقال جعفر الصادق^(٢): حَبَسَ عَنْهُ الْوَحْيُ أَرْبَعِينَ يَوْماً فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾.

(١) الذوائب: (ج) الذؤابة: ضفيرة الشعر المرسلة.

(٢) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط (٨٠ - ١٤٨ هـ = ٦٩٩ - ٧٦٥ م) الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. له أخبار مع الخلفاء من بين العباس وكان جريئاً عليهم صداعاً بالحق. له «رسائل» مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون. مولده ووفاته بالمدينة. الأعلام ١٢٦/٢، ووفيات الأعيان ١/١٠٥، وصفة الصفوة ٢/٩٤، وحلية الأولياء ٣/١٩٢.

لما لِحَقَّه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأن ردَّ عليه قُوَّتَه ليقوم بحق الطاعة .
ويقال طلب الزيادة في الرضا فاستجيب له بكشف ما كان به من ضعف الرضا .
ويقال إن الضر الذي شكا منه أنه بقيت عليه بقية ، وبلية كانت ببقية ، فلما أخذ عنه بالكلية زال البلاء ، ولهذا قال : ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] وكانت نفسه ضرة ، وردَّ عليه السلامة والعافية والأمل - في الظاهر - لما صار مأخوذاً بالكلية عنه ، مُنْقَى عن كل بقية ، وعند ذلك يستوي البلاء والعافية ، والوجود والفقْد .
قوله جل ذكره : ﴿ وَاسْتَعِذْ وَادْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .
أي واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، ثم قال :
قوله جل ذكره : ﴿ وَادْخُلْنَهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .
بَيِّنَ الْحُكْمَ والمعنى ؛ الحكم صبرهم وصلاتهم ، والمعنى إدخاله إياهم في الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلُظًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .
﴿ مُغْلُظًا ﴾ : على مَلِكٍ وقته حيث اختاره للنبوَّة ، وسأله : لِمَ اخترتني ؟ فقال :
لقد أوحى الله إلى نبي : أَنْ قُلْ لِفُلَانِ الْمَلِكِ حَتَّى يَخْتَارَ وَاحِدًا لِيُرْسَلَ إِلَى نِينَوَى ^(١)
بالرسالة . فثَقُلَ على ذي النون لما اختاره الْمَلِكُ ؛ لأن علم أن النبوَّة مقرونة بالبلاء ، فكان غضبه عليه لذلك .

ويقال مغاضباً على قومه لما امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم .
ويقال مغاضباً على نفسه أي شديد المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الدين من مُخَالِفِيهِ .

﴿ فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي أن لن نُضَيِّقَ عليه بطن الحوت ، من قوله : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلُّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر : ١٦] أي ضيق .

ويقال فظَنَّ أن لن نقدر عليه من حَبْسِهِ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ .
وخرج من بين قومه لَمَّا أُخْبِرَ أَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ قَوْمَهُ ، وخرج بأهله .
ويقال إن السبع افترس أهله في الطريق ، وأخذ النَّمِرُ ابناً صغيراً له كان معه ، وجاء موج البحر فأغرق ابنه الآخر ، وركب السفينة ، واضطرب البحر ، وتلاطمت أمواجه ،

(١) نَيْنَوَى : وهي قرية يؤنس بن متى عليه السلام ، بالموصل ؛ ويسواد الكوفة ناحية يقال لها : نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه . (معجم البلدان ٥/ ٣٣٩) .

وأُشْرِفَتْ السَّفِينَةُ عَلَى الْغُرُقِ، وَأَخَذَ النَّاسُ فِي الْإِقَاءِ الْأَمْتَعَةِ فِي الْبَحْرِ تَخْفِيفاً عَنِ السَّفِينَةِ، وَطَلَباً لِسَلَامَتِهَا مِنَ الْغَرَقِ، فَقَالَ لَهُمْ يُونُسُ: لَا تُلْقُوا أَمْتِعَتَكُمْ فِي الْبَحْرِ بَلْ أَطْرَحُونِي فِيهِ فَأَنَا الْمَجْرَمُ فِيمَا بَيْنَكُمْ لِتُخْلَصُوا. فَنظَرُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا: نَرَى عَلَيْكَ سِيمَاءَ الصَّلَاحِ، وَلَيْسَتْ تَسْمَحُ نَفْسُنَا بِالْقَائِكَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ تَعَالَى مُخْبِراً عَنْهُ: ﴿فَنَاهَمُ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفافات: ١٤١] أَيِ فَقَارِعِهِمْ، فَاسْتَهَمُوا، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَيْهِ.

وفي القصة أنه أتى حَرْفُ السَّفِينَةِ، وَكَانَ الْحَوْثُ فَاعِراً فَاهُ، فَجَاءَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ فَجَاءَ الْحَوْثُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ، حَتَّى جَازَ كُلَّ جَانِبٍ. ثُمَّ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مُرَادٌّ بِالْبَلَاءِ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ فَابْتَلَعَهُ الْحَوْثُ «وَهُوَ مَلِيمٌ»: أَيِ أَتَى بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مَلِيمٌ﴾ [الصفافات: ١٤٢].

وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى السَّمَكِ: لَا تَخْذِشْ مِنْهُ لَخَمًا وَلَا تَكْسِرْ مِنْهُ عَظْماً، فَهُوَ وَدِيعَةٌ عِنْدَكَ وَلَيْسَ بِطُعْمَةٍ لَكَ. فَبَقِيَ فِي بَطْنِهِ - كَمَا فِي الْقِصَّةِ - أَرْبَعِينَ يَوْمًا. وَقِيلَ إِنَّ السَّمَكَ الَّذِي ابْتَلَعَهُ أُمِرَ بِأَنْ يَطُوفَ فِي الْبَحْرِ، وَخَلَقَ اللَّهُ لَهُ إِدْرَاكَ مَا فِي الْبَحْرِ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ.

وَيُقَالُ إِنَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَحِبَ الْحَوْثَ أَيَّاماً قَلِيلًا فَإِلَى الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُ: ذَا النُّونِ، وَلَمْ تَبْطُلْ عَنْهُ هَذِهِ النِّسْبَةُ. . . فَمَا ظَنُّكَ بِعَبْدٍ عَبْدَهُ - سَبْحَانَهُ - سَبْعِينَ سَنَةً، وَلَازِمَ قَلْبِهِ مَحَبَّتُهُ وَمَعْرِفَتُهُ طَوْلَ عَمْرِهِ. . . تَرَى أَيْبُطَلْ هَذَا؟ لَا يُظَنُّ بِكَرَمِهِ ذَلِكَ! ﴿فَنَكَدَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يُقَالُ ظِلْمَةُ اللَّيْلِ وَظِلْمَةُ الْبَحْرِ وَظِلْمَةُ بَطْنِ الْحَوْثِ - هَذَا بَيَانُ التَّفْسِيرِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الظُّلُمَاتُ مَا التَّبَسَّ عَلَيْهِ مِنْ وَقْتِهِ وَاسْتَبْهَمَ عَلَيْهِ مِنْ حَالِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. استجبنا له ولم يُجَرِّ منه دعاء؛ لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقر بالظلم إلا وهو يستغفر منه. ثم قال: ﴿وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ يعني: كُلُّ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا أَصَابَهُ غَمٌّ، أَوْ اسْتَقْبَلَهُ مُهِمٌّ - مِثْلَمَا قَالَ ذُو النُّونِ نَجِينَاهُ كَمَا نَجِينَا ذَا النُّونِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَكْنَاهُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾. سَأَلَ الْوَلَدَ، وَإِنَّمَا سَأَلَهُ لِيَكُونَ لَهُ مُعِينًا عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ وَلِيَقُومَ فِي النُّبُوَّةِ مَقَامَهُ، وَلِثَلَا تَنْقَطِعَ بَرَكَةُ الرِّسَالَةِ مِنْ بَيْتِهِ، وَلَقَدْ قَاسَى زَكَرِيَّا مِنَ الْبَلَاءِ مَا قَاسَى حَتَّى حَاولُوا قَطْعَهُ بِالْمَنْشَارِ، وَلَمَّا التَّجَّأَ إِلَى الشَّجَرَةِ انشَقَّتْ لَهُ وَتَوَسَّطَهَا، وَالتَّامَتِ الشَّجَرَةُ، وَفَطَنُوا إِلَى ذَلِكَ فَقَطَعُوا الشَّجَرَةَ بِالْمَنْشَارِ، وَصَبَرَ اللَّهُ، وَسَبَّحَانَ اللَّهُ!

كان انشقاق الشجرة له معجزة، وفي الظاهر كان حفظاً له منهم، ثم لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سلامته، ولعلهم - لو قتلوه - لم يُصِبه من الألم القدر الذي لحقه من القطع بالمنشار طول إقامته، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة، فقوي بذلك يقينه لما رأى عجيب الأمر فيه من تفض العادة، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق، ولقد قال قائلهم: «إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى».

قوله جل ذكره: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُۥ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾.

سمي يحيى لأنه حيي به عقر أمه.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُۥ﴾: لتكون الكرامة لهم جميعاً بالولد، ولثلا يستبد زكريا بفرح الولد دونها مراعاة لحق صحبتها.. وهذه سئله الله في باب إكرام أوليائه، وفي معناه أشدوا:

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلِفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشَنَ

ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا﴾ وفي هذا بشارة لجميع المؤمنين، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر^(١)، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر^(٢).

قوله: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الرب، وكان لهم ذلك على الدوام.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِن زُوجِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

يعني مريم، وقد نفى عنها سمة الفحشاء وهجنة الدم.

ويقال فنفخنا فيها من روحنا، وكان النفخ من جبريل عليه السلام، ولكن لما كان بأمره - سبحانه - صحت الإضافة إليه، وفي هذا دليل على تأويل خبر النزول، فإنه يكون بانزال ملك فصيح الإضافة إلى الله إذ كان بأمره.. وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص، كقوله: (ناقة الله، وبيتي)... ونحو ذلك: ﴿وجعلنا وابنها آية للعالمين﴾: ولم يقل آيتين لأن أمرهما كان معجزة ودلالة، ويصح أن يراد أن كل واحد منهما آية - على طريقة العرب في أمثال هذا.

(١) هنا إشارة إلى سورة الحجر آية (٥٦).

(٢) كذلك هنا إشارة إلى سورة الأعراف آية (٩٩).

وفيه نفي لتهمة مَنْ قال إنها حبلت من الله . . . تعالى الله عن قولهم!

قوله ﴿آيَةً للعالمين﴾: وإن لم يهتد بهما جميعُ الناس . . . لكنهما كانا آيةً. ومَنْ نَظَرَ في أمرهما، ووضَعَ النظرَ موضِعَه لاهتدى، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها حُجَّةً ودلالةً بتقصير المُقْصِر في بابها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾.

أي كلکم خَلَقْتُهُ، وكلکم اتفقتُم في الفقر، وفي الضعف، وفي الحاجة. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾: وخالقکم على وصفِ التَّفَرُّدِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَقُطِعْ أَرْهَامَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾.

اختلفوا وتنازعوا، واضطربت أمورهم، وتفرقت أحوالهم، فاستأصلتهم البلايا.

قوله: ﴿كل إلينا راجعون﴾: وكيف لا . . . وهم ما يتقلبون إلا في قبضة

التقدير؟

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾.

كَيِّنُونَ.

مَنْ تَعَنَّى الله لم يخسر على الله، وَمَنْ تَحَمَّلَ الله مشقةً وَجَبَ حَقُّه على الله: قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بعد قوله: ﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا﴾ دليل على أن من لا يكون مؤمناً لا يكون عمله صالحاً ففائدة قوله ها هنا: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في المآل والعاقبة، فقد يعمل الأعمال الصالحة من لا يُخْتَمُ له بالسعادة، فيكون في الحال مؤمناً وعمله يكون على الوجه الذي آمن ثم لا ثواب له، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذٍ لا يضيع سَعْيُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرِينِهِ أَفْكَهَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

أي لا نهلك قوماً وإن تمادوا في العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون، وأنه بالشقاوة تُخْتَمُ أمورهم.

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّ إِذَا فُجِّعَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ

يَنْبُلُونَ﴾.

أي يحق القول عليهم، ويتم الأجل المضروب لهم، فعند ذلك تظهر أيامهم، وإلى القدر المعلوم في التقدير لا تحصل نجاة الناس من شرهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا

يَتَوَلَّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

تأخذهم القيامة بغتة، وتظهر أشراط الساعة فجأة، ويُقرُّ الكاذبون بأنَّ الذنبَ عليهم، ولكن في وقتٍ لا تُقبل فيه معذرتهم، وأوانٍ لا ينفعهم فيه إيمانهم.
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾.

﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أي الأصنام التي عبدوها، ولم تدخل في الخطاب الملائكة التي عبدوها قوم، ولا عيسى وإن عبده قوم لأنه قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل إنكم ومن تعبدون. فيُخسَر الكافرون في النار، وتُخسَر أصنامهم معهم. والأصنام جمادات فلا جُرم لها، ولا احتراقها عقوبة لها، ولكنه على جهة براءة ساحتها، فالذنب للكفار وما الأصنام إلا جمادات.
قوله جل ذكره: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُوكَآءَ إِلَهِةَآ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

القوم قالوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فعلموا أن الأصنام جمادات، ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً، وأن من عبدها يُقربُ بعبادتها من الله، فبيّن الله لهم - غداً - بأنها لو كانت تستحق العباداة، ولو كان لها عند الله خطرٌ لما أُلقيت في النار، ولما أُحرقت.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿لَهُمْ﴾: أي لعبدة الأصنام، ﴿فِيهَا﴾ أي في النار، ﴿زَفِيرٌ﴾ لحسرتهم على ما فاتهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من نداء يبشرهم بانقضاء عقوبتهم.

وبعكس أحوالهم عصاة المسلمين في النار فهم - وإن عذبوا حيناً - فإنهم يسمعون قول من يبشرهم يوماً بانقضاء عذابهم - وإن كان بعد مدة مديدة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: أي الكلمة بالحسنى، والمشيئة والإرادة بالحسنى، لأن الحسنى فعله، وقوله: ﴿سَبَقَتْ﴾ إخبار عن قدمه، والذي كان لهم في القدم هو الكلمة التي هي صفة تعلقت بهم في معنى الإخبار بالسعادة.

ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي عن النار، ولم يقل متباعدون ليَعْلَمَ العالمون أن المدار على التقدير، وسابق الحكم من الله، لا على تباعد العبد أو بتقرُّبه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾.

يدل على ذلك أنهم لا يُعذبون فيها بكل وجه. والمراد منه العباد من المؤمنين الذين لا جُرم لهم.

﴿وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: مقيمون لا يرحلون.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قيل الفزع الأكبر قول الملك: ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

ويقال إذا قيل: ﴿وَأَمْتَرُوا يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

ويقال إذا قيل: يا أهل الجنة.. خلوداً لا موت فيه، ويا أهل النار.. خلوداً لا موت فيه!

وقيل إذا: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقيل الفزع الأكبر هو الفراق. وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك.

قوله: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يقال لهم هذا يومكم الذي كنتم وعِدْتُمْ فيه بالثواب؛ فمنهم مَنْ يَتَلَقَّاهُ الْمَلَكُ، ومنهم مَنْ يَرِدُ عَلَيْهِ الْخَطَابُ والتعريف من الملك.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُوبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

إنما كانت السماء سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياء تحتها، والأرض كانت فِراشاً إذ كانوا عليها، فإذا ارتحل الأحباب عنها تخرب ديارهم. على العادة بين الخلق من خراب الديار بعد مفارقة الأحباب.

ويقال نطوي السماء التي إليها عَرَجَتْ دواوينُ العصاة من المسلمين لثلاث تشهد عليهم بالإجرام، وتُبَدِّلُ الأرض التي عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام.

أو نطوي السماء لنُقَرِّبَ قُطْعَ المسافات على الأحباب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

﴿الذِّكْرُ﴾ هنا هو التوراة، و﴿كَتَبَ﴾: أي أخبر وحكَمَ، و﴿الصَّالِحُونَ﴾ أمة محمد - ﷺ: أَنْ ﴿الْأَرْضَ﴾ هم الذين يرثونها.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

أَمَّا مَنْ أَسْلَمَ فَبِكَ يَنْجُونَ، وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ فَلَا نَعِزُّهُمْ مَا دُمْتَ فِيهِمْ؛ فانت رحمة منَّا على الخلائق أجمعين.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، واحد بلا قسيم، واحد بلا شبيه، واحد بلا شريك.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون في عقد التوحيد بالتبري عن كل غير في حسابان صلاحيته للألوهية؟

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ مَآذُنُكُمُ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

إن أعرضوا ولم يؤمنوا فقل: إني بالالتزام أعلمتكم، ولكن للإكرام ما ألهمتكم، فتوجهت عليكم الحجة واستبهمت عليكم المحجة.

قوله: ﴿وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدٌ﴾ إن علمي متقاصر عن تفصيل أحوالكم في مآلكم، ووقت ما توعدون به في القيامة من تحصيل أهوالكم، ولكن حكم الله غير مستأخر إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

لا يخفى عليه سرُّكم ونجواكم، وحالكم ومآلكم، وظاهركم وباطنكم. . فعلى قدر استحقاقكم يجازيكم، وبموجب أفعالكم يحاسبكم ويكافئكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ لَعَلَّكُمْ فَتَنَّا لَكُم مِّنْهُ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ليس يحيط علمي إلا بما يغليمني، وإعلامه إياي ليس باختيار، ولا هو مقصود على حسب مرادي وإيثاري.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ بِالْحَقِّ رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

الرحمن كثير الرحمة عامة لكل أحد، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد.

السورة التي يذكر فيها «الحج»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سماع «بسم الله» يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم . وسماع «الرحمن الرحيم» يوجب الأنس والقربة، وذلك وقت صحوهم . . فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو في سِلْكٍ واحد .

سماع «بسم الله» يوجب انزعاج القلوب وعنده يحصل داء جنونهم، وسماع «الرحمن الرحيم» يوجب ابتهاج القلوب وبه يحصل شفاء فتونهم، فعودة فتونهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلاله .

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورِيَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ نداء علامة، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] نداء كرامة، وبكل واحد من القسمين يفتح الحق خطابه في السور، وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرة، وصفة التبصير أخرى .

والتقوى مي التحرز والانتقاء وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات فرض، وتجنب الفضلات والشواغل - وإن كان من جملة المباحات - نفل، فثواب الأول أكثر ولكنه مؤجل، وثواب النفل أقل ولكنه معجل .

ويقال خوفهم بقوله: ﴿آتِفُورِيَّكُمْ﴾ . ثم سكن ما بهم من الخوف بقوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ فإن سماع الربوبية يوجب الاستدامة وجميل الكفاية .

قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ : وتسمية المعدوم «شيئاً» توسع، بدليل أنه ليس في العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ اللفظ يقتضيه، وكذلك القول في تسميته «شيئاً» هو توسع .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذَهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ .

لكل ذلك اليوم شغل يستوفيه ويستغفره، وترى الناس سكارى أي من هول ذلك

اليوم عقولهم ذاهبة، والأحوال في القيامة وأحوالها غالبة. وكأنهم سكارى وما هم في الحقيقة بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، ولشدته يحيرهم ولا يبقيه على أحوالهم. وهم يتفقون في تشابههم بأنهم سكارى، ولكن موجب ذلك يختلف؛ فمنهم من سُكره لِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْأَهْوَالِ، ومنهم من سُكره لاستهلاكه في عين الوصال.

كذلك فَسُكْرُهُمُ الْيَوْمَ مُخْتَلَفٌ؛ فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب. وشَتَانُ بَيْنَ سُكْرٍ وَسُكْرٍ! سُكْرٌ هُوَ سُكْرُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ، وَسُكْرٌ هُوَ سُكْرُ أَهْلِ الْوَصْلَةِ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾.

المجادلة لله - مع أعداء الحق وجاحدي الدين - من موجبات القرية، والمجادلة في الله، والمماراة مع أوليائه، والإصرار على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة، وما كان لوساوس الشيطان ونزغاته فقصاراه النار.

قوله جل ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ سَعِيرٍ﴾.

مَن وافق الشيطان بمتابعة دواعيه لا يهديه إلا إلى الضلال، ثم إنه في الآخرة يتبرأ من موافقته ويلعن جملة مُتَّبِعِيهِ. فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجاته.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَحْسَنَ لِمَا أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾.

التبس عليهم جواز بعثه الخلق واستبعدوه غاية الاستبعاد، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان، واحتج عليهم في ذلك بما قطع حجتهم، فَمَنْ تَبَعَ هُدَاهُ رَشِيدٌ، وَمَنْ أَصَرَّ عَلَى غَيْهِ تَرَدَّى فِي مَهْوَاةٍ هَلَاكِهِ.

واحتج عليهم في جواز البعث بما أقرؤا به في الابتداء أن الله خَلَقَهُمْ وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى؛ فبدأهم من نقطة إلى علقه ومنها ومنها... إلى أن نَقَلَهُمْ من حال شبابهم إلى زمان شيبهم، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم.

واحتج أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض - في حال الربيع - بعد موتها، فتعود إلى ما كانت عليه في الربيع من الخضرة والحياة. والذي يَقْدِرُ عَلَى هَذِهِ

(١) انظر حديث القشيري عن السكر في الرسالة القشيرية ص ٧١، ٧٢.

الأشياء يقدر على خَلْق الحياة في الرُّمَّة البالية والعظام النخرة.
قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥]: زمان الفترة بعد المجاهدة، وحال الحجة عقب المشاهدة.

ويقال أَرْدَلُ العمر السعي للحفظ بعد القيام بالحقوق.

ويقال أَرْدَلُ العمر الزلة في زمان المشيب.

ويقال أَرْدَلُ العمر الإقامة في منازل العصيان.

ويقال أَرْدَلُ العمر التعرّيج في أوطان المذلة.

ويقال أَرْدَلُ العمر العِشْرَةُ مع الأضداد.

ويقال أَرْدَلُ العمر عَيْشُ المرء بحيث لا يُعْرِفُ قَدْرَهُ.

ويقال أَرْدَلُ العمر بأن يُوَكَّلَ إلى نَفْسِهِ.

ويقال أَرْدَلُ العمر التطوح في أودية الحساب أن شيئاً بغير الله.

ويقال أَرْدَلُ العمر الإخلاد إلى تدبير النَّفْسِ، والعَمَى عن شهود تقدير الحق.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ذَلِكَ يَأْنَى اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يَمِينُ الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الله هو الحق، والحق المطلق الوجود، وهو الحق أي ذو الحق.

﴿وَأَنْتُمْ يَمِينُ الْمَوْتِ﴾ أي الأرض التي أصابتها وَخْشَةُ الشتاء يحييها وقت الربيع.

ويقال يحيي النفوس بتوفيق العبادات، ويحيي القلوب بأنوار المشاهدات.

ويقال يحيي أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم.

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر، ثم بجميل الرضا وسكون الجأش عند جريان التقدير.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجِدُ فِي اللَّهِ يَغْيِرَ عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١).

دليل الخطاب يقتضي جواز المجادلة في الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة ليستطيع المناضلة عن دينه، قال سبحانه لنبيه: ﴿وَخَدِّ لَهُمُ الْيَتَامَى أَحْسَنَ﴾ [النحل: ١٢٥] وَمَنْ لَمْ يُحْسِنْ مَذْهَبَ الْخُصْمِ وما يتعلق به من الشَّيْءِ لم يمكنه الانفصال عن شُبُهَتِهِ، وإذا لم تكن له قوة الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ له أن يجادل الأقوياء منهم، وهذا يدل على وجوب تعلُّم علم الأصول، وفي هذا ردُّ على مَنْ جَحَدَ ذلك.

(١) الآية (٧) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لِمُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْخَرْقِ﴾.

يريد أنه متكبر عن قبول الحق، زاهد في التحصيل، غير واضح نظره موضعه؛ إذ لو فعل ذلك لهان عليه التخلص من شُبُهته.

ثم قال: ﴿لِمُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي مذلة وهوان، وفي الآخرة عذاب الحريق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(١).

يعني يكون على جانب، غير مخلص... لا له استجابة توجب الوفاق، ولا جحداً يبين الشقاق؛ فإن أصابه أمنٌ وخيرٌ ولينٌ اطمأن به وسكن إليه، وإن أصابته فتنة أو نالته محنة ارتد على عقبيه ناكساً، وصار لِمَا أظهر من وفاقه عاكساً. ومن كانت هذه صفته فقد خسر في الدارين، وأخفق في المنزلتين.

قوله جل ذكره: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾.

أي يعبد من المضرّة في عبادته أكثر من النفع منه، بل ليس في عبادته النفع بحالٍ، فالضرُّ المتيقن في عبادتهم الأصنام هو بيان ركافة عقولهم، ورؤية الناس خطأ فعلهم. والنفع الذي يتوهمونه في هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة.

ثم قال: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾: أي لبس الناصر الصنم لهم، ولبس القوم هم للصنم، ولم لا؟ ولأجله وقعوا في عقوبة الأبد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي صدّقوا ثم حقّقوا؛ فالإيمان ظاهره التصديق وباطنه التحقيق، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق.

ويقال الإيمان انتسام الحق في السر.

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان، ففي الحال يجب الإيمان وفي المال يوجب الأمان، فمُعْجَلُ الإيمان من (...)^(٢) المسلمين، وموَجَّلُه الخلاص من صحبة الكافرين الفاسقين.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: العمل الصالح ما يصلح للقبول، ويصلح للشواب، وهو أن يكون على الوجه الذي تعلق به الإيمان.

(٢) يباض في الأصل.

(١) الآية (١٠) لم ترد.

والجنان التي يدخل المؤمنين فيها مؤجلة ومعجلة، فالمؤجلة ثواب وتوبة، والمعجلة أحوال وقربة، قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَتْ يَنْظُرُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾.

أي أن الحق - سبحانه - يرغم أعداء رسول الله ﷺ، فمن لم تطب نفسه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرد به فليقتل نفسه من الغيظ خنقاً، ثم لا ينفعه ذلك، كما قيل:

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْضَى بِمَا قَدْ تَرَى فَدُونَكَ الْحَبْلُ بِهِ فَاخْنُقْ

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ أَلَّا اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾: أي دلالات وعلامات نصبها الحق سبحانه لعباده، فمن الآيات ما هو قضية العقل، ومنها ما هو قضية الخبر والنقل، ومنها ما هو تعريفات في أوقات المعاملات فما يجده العبد في حالاته من انغلاق، واشتداد قبض، وحصول خسران، ووجوه امتحان. لا شك ولا مرية إذا أخل بواجب أو أَلَمَّ بمحذور. أو تكون زيادة بسط أو حلاوة طاعة، أو تيسير عسير من الأمور، أو تجدد إنعام عند حصول شيء من طاعاته.

ثم قد يكون آيات في الأسرار، هي خطاب الحق ومحادثة معه، كما في الخبر: «لقد كان في الأمم محدثون فإن يك في أمتي فعمر»^(١).

ثم يقال الآيات ظاهرة، والحجج زاهرة، ولكن الشأن فيمن يستبصر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم: الولي والعدو، والموحد والجاحد يُجمعون يوم الحشر، ثم الحق - سبحانه - يعامل كلًّا بما وعدّه؛ إما بوصال بلا مدى، أو بأحوال بلا منتهى. الوقت واحد؛ وكل واحد لما أعد له وافد، وعلى ما خلق له وارد.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٦)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ٢٣)، والترمذي (مناقب ١٧)، وأحمد بن حنبل (٦، ٥٥).

أهل العرفان يسجدون له سجود عبادة، وأرباب الجحود كل جزء منهم يسجد له سجود دلالة وشهادة.

وفي كل شيء له آية تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ
قوله، جل ذكره: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصِمُوا فِي رِيبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ
ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

أما الذين كفروا فلهم اليوم لباس الشوك وطرازه الحرمان، ثم صدار الإفك
وطرازه الخذلان. وفي الآخرة لباسهم القطران^(١) وطرازه الهجران، قال تعالى:
﴿اُخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

أما أصحاب الإيمان فلباسهم اليوم التقوى، وتنقسم إلى اجتناب الشوك ثم
مجانبة المخالفة، ثم مباينة الغفلة، ثم مجانبية السكون إلى غير الله والاستبشار إلى ما
سوى الله. وفي الآخرة لباسهم فيها حرير، وآخرون لباسهم صدار المحبة، وآخرون
لباسهم الانفراد به، وآخرون هم أصحاب التجريد؛ فلا حال ولا مقام ولا منزلة ولا
محل وهم الغرباء^(٢)، وهم الطبقة العليا، وهم أحرار من رِق كل ما لحقه التكوين^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

التحلية تحصين لهم، وسر لأخوالهم؛ فهم للجنة زينة، وليس لهم بالجنة زينة:

وَإِذَا السُّدُرُ زَانٌ حُسْنٌ وَجُوهٌ كَانَ لِلدُّرِّ حُسْنٌ وَجْهَكَ زَيْنًا

قوله جل ذكره: ﴿وَهُدًى إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾.

الطيب من القول ما صدر عن قلب خالص، وسر صاف مما يرضى به علم
التوحيد، فهو الذي لا اعتراض عليه للأصول.

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظاً للمسترشدين، ويقال الطيب من القول
هو إرشاد المريدين إلى الله.

(١) القطران: مادة سوداء سائلة لزجة تُستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف وتستعمل
لحفظ الخشب من التسوس والحديد من الصدأ.

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن التصوف: سُئل أحمد بن الجلاء: ما معنى صوفي؟ فقال: لا
نعرفه في شرط العلم ولكن نعرف فقيراً مجرداً من الأسباب، كان مع الله تعالى بلا مكان، ولا يمنعه
الحق سبحانه من علم كل مكان، فسمي صوفياً. (الرسالة القشيرية ص ٢٨٣).

(٣) الآيات (٢٠، ٢١، ٢٢) لم ترد.

ويقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويقال الدعاء للمسلمين .

ويقال كلمة حق عند من يخاف ويُرْجَى .

ويقال الشهادتان عن قلب مخلص .

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً وهو مُسْتَنْطَقٌ .

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد بريء من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] .

ويقال أَنْ تَدْعُوَ للمسلمين بما لا يكون لك فيه نصيب .

وأما ﴿صِرَاطَ الْحَمِيدِ﴾ : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع أي المسجد الجامع والصراط الحميد : الطريق المرضي وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه نكير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَكِيفِ فِيهِ وَالْبَاءِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُزُقُهُ مِنْ عَذَابِ الْبَرِّ﴾ .

الصد عن المسجد الحرام بإخافة السُّبُل ، وبِعَضْبِ المال الذي لو بقي في يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام .

قوله : ﴿سَوَاءَ الْعَكِيفِ فِيهِ وَالْبَاءِ﴾ وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم .

ومشهد الكرام يستوي فيه الإقدام ، فَمَنْ وَصَلَ إلى تلك العقوة فلا ترتيب ولا رد ، وبعد الوصول فلا زَجْر ولا صد ، أما في الطريق فربما يعتبر التقدم والتأخر ؛ قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ ولكن في الوصول فلا تفاوت ولا تباين ، ثم إذا اجتمعت النفوس فالموضع الواحد يجمعهم ، ولكن لكل حال يفرد بها .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلْعَائِقِينَ وَالْفَائِضِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ .

أصلحنا له مكان البيت وأسكنناه منه ؛ وأرشدناه له ، وهديناه إليه ، وأعناؤه عليه ، وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة في زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم أمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت على أساسه القديم . قوله ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ ، أي لا تلاحظ البيت ولا بناءك له .

﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ . . . يعني الكعبة - وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فَرَّغَ قَلْبَكَ عن الأشياء كلها سوى ذكره - سبحانه .

وفي بعض الكتب: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء فَرَّغَ لي بيتاً أسكنه، فقال ذلك الرسول: إلهي... أي بيت تشغل؟ فأوحى الله إليه: ذلك قلب عبدي المؤمن». والمراد منه ذكر الله تعالى؛ فالإشارة فيه أن يَفْرِغَ قلبه لذكر الله. وتفرغ القلب على أقسام: أوله من الغفلة ثم مِنْ تَوْهُم شيء من الحدثان من غير الله.

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بِصَوْنِ القلب عن ملاحظة العمل، وتكون المطالبة على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال.

ويقال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾: أي قَلْبَكَ عن التطلع والاختيار؛ بألا يكون لك عند الله حظ في الدنيا أو في الآخرة حتى تكون عبداً له بكمال قيامك بحقائق العبودية.

ويقال ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾: أي بإخراج كل نصيب لك في الدنيا والآخرة من تطلع إكرام، أو تَطَلُّبِ إنعام، أو إرادة مقام، أو سبب من الاختيار والاستقبال.

ويقال طَهَّرَ قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق. ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ وهي الأشياء المقيمة من مستودعات العرفان في القلب من الأمور الْمُغْنِيَةِ عن البرهان، ويتطلع بما هو حقائق البيان التي هي كالعَيَان كما في الخبر: «كانك تراه»^(١).

﴿وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾: هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرغبة، والرجاء والخافة، والقبض والبسط، وفي معناه أنشدوا:

لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلب بيتاً والمقاماً
وطوافي إجمالة السُرِّ فيه وهو ركني إذا أردت استلاماً
قوله: ﴿لَا تُتْرَكُ فِي شَيْءٍ﴾: لا تلاحظ البيت ولا بناءك للبيت.

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود رب البيت.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

أذن إبراهيم - عليه السلام - بالحج ونادى، وأسمع الله نداءه جميع الذرية في أصلاب آبائهم، فاستجاب من المعلوم من حاله أنه يحج. وقدم الرجالة على الركبان لأن الحمل على المركوب أكثر.

(١) هنا الخبر إشارة إلى الحديث: «أعبد الله كأنك تراه وأعدد نفسك في الموتى» أخرجه المنذري في (الترغيب والترهيب ١٠٦/٤ - ٢٤٣).

أو إلى حديث «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» سبق تخريجه.

ولتلك الجمال على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحباب، وفي قريب من معناه أنشدوا:

وإنَّ جمالاً قد علاها جمالكم - وإن قُطعت أكيادنا - لحبائب
ويقال ﴿يَأْنِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَمِيْقٍ﴾ هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم .
وكم قَدْرُ مسافة الدنيا بجمالها؟! ولكن لِأَجْلِ قَدْرِ أفعالهم وتعظيم صنيعهم
يقول ذلك إظهاراً لفضله وكرمه .
قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ .

أرباب الأموال منافعهم أموالهم، وأرباب الأعمال منافعهم حلاوة طاعتهم،
وأصحاب الأحوال منافعهم صفاء أنفاسهم، وأهل التوحيد منافعهم رضاهم باختيار
الحق ما يبدو من الغيب لهم .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ
الْأَنْعَامِ﴾ .

لأقوام عند التقرب بقرايبتهم وسوق هديهم^(١) . وآخرون يذكرون اسمه عند
ذبحهم أمانيتهم واختيارهم بسكاكين اليأس . . حتى يقوموا بالله لله بِمَحَوِّ ما سوى الله .
قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ .

شَارَكُوا الفقراء في الأكل من ذبيحتكم - الذي ليس بواجب - لتلحقكم بركات
الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا ساحة الخضوع والتواضع، ومجانبة الزهو والتكبر .
قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ﴾ .

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودهم، وليوفوا نذرهم فيما عقدوه مع الله
بقلوبهم، فَمَنْ كان عقده التوبة فوافاه ألا يرجع إلى العصيان . وَمَنْ كان عهده اعتناق
الطاعة فَشَرَطَ وفائه ترك تقصيره . ومن كان عهده ألا يرجع إلى طلب مقام وتطلع إكرام
فوافاه استقامته على الجملة في هذا الطريق ألا يرجع إلى استعجال نصيب واقتضاء
حظ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِيَبْطَرُوا إِلَيْنَا لَعْنِي﴾ .
الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنفسه حول البيت، وبقلبه في ملكوت
السماء، وبسيره في ساحات الملكوت .

(١) الهدي: ما يُهدى إلى الحرم من الإبل والبقر والغنم ليُنحر ويذبح هناك ويُتصدق بلحمه . الواحدة هدية .

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

تعظيم الحرمات بتعظيم أمره؛ وتعظيم أمره بترك مخالفته.

ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه، ولا محالة سيلقى سريعا غيبه.

ويقال تعظيم حرمانه بالغيرة على إيمانه وما فجع صاحب حُرْمَةٍ قط.

ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة، وترك الحرمة يوجب الفرقة.

ويقال كل شيء من المخالفات فللعفو فيه مساغ وللأمل إليه طريق، وترك الحرمة على خطر ألا يغفر. . . وذلك بأن يؤدي ثبوته بصاحبه إلى أن يختل دينه وتوحيده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْتُمْ إِلَّا مَا يَتَلَى عَلَيْكُمْ﴾.

فالخنزير من جملة المحرمات، وكذلك النطيحة^(١) والموقوذة^(٢)، وما يجيء تفصيله في نصّ الشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

«من» ها هنا للجنس لا للتبعض، وهوى كل من اتبعه معبوده، وصنم كل أحد نفسه.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قول

القلب ونطقه، ومن عاهد الله بقلبه ثم لا يفي بذلك فهو من جملة قول الزور.

قوله جلّ ذكره: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطَنُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

الحنيف المائل إلى الحق عن الباطل في القلب والنفس، في الجهر وفي السر، في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾: الشرك جليّ وخفيّ.

قوله ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا...﴾ كيف لا.. وهو يهوي في جهنم وتتجاذبه

ملائكة العذاب؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق.. وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

(١) النطيحة: الشاة المنطوحة تموت فلا يجل أكلها. (اللسان ٦٢١/٢ مادة: نطع).

(٢) الموقوذة: الشاة ونحوها تضرب حتى تموت ثم تؤكل. وقيل: المضروبة حتى تموت ولم تؤكل. (اللسان ٥١٩/٣ مادة: وقد).

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمَ شَعْرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

يقف المؤمن على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً، وبخواطر الإلهام سراً. وكما لا تجوز مخالفة شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإن خاطر الحق لا يكذب، وعزيز من له عليه وقوف. وكما أن النفس لا تصدق فالقلب لا يكذب، وإذا خولف القلب عَمِيَ في المستقبل، وانقطعت عنه تعريفات الحقيقة، والعبارة والشرح يتقاصران عن ذكر هذا على التعيين والتفسير. ويقوي القلب بتحقيق المنازلة؛ فإذا خرسست النفوس، وزالت هواجسها، فالقلوب تنطق بما تُكاشف به من الأمور.

ومن الفرق بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذي طريقه العلم يعلم صاحبه أولاً ثم يعمل مختاراً، وما كان من الحق يجري ويحصل ثم بعده يعلم من جرى عليه ذلك معناه، ولا يكون الذي يجري عليه ما يُجْرَى مضطراً إلى ما يُجْرَى. وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار، بل يكون مختاراً ولكن سببه عليه مشكل، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد.

قوله جل ذكره: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

لكل من تلك الجملة منفعة بقدره وحده؛ فلاقوام بركات في دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم، ولآخرين في لذاذات بسطهم، ولآخرين في حلاوة طاعاتهم، ولآخرين في أنس أنفاسهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

الشرائع مختلفة فيما كان من المعاملات، متفقة فيما كان من جملة المعارف، ثم هم فيها مختلفون: فقوم هم أصحاب التضعيف^(١) فيما أوجب عليهم وجعل لهم، وقوم هم أصحاب التخفيف فيما ألزموا وفيما وعد لهم. قوله ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ﴾ وذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام: منها معرفتهم إنعام الله بذلك عليهم. . . وذلك من حيث الشكر، ثم يذكرون اسمه على ما وفقهم لمعرفته بأنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي يثيبهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَجَدَ فَلَهُ اسْلِمُوا وَيَتَرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي استسلموا لحكمه بلا تعيس ولا استكراه من داخل القلب.

(١) قال القشيري برسالته: إن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال وهؤلاء ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه. (الرسالة القشيرية ص ٣٨٠).

والإسلام يكون بمعنى الإخلاص، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات، ثم تصفية الأحوال، ثم تصفية الأنفاس. ﴿وَيَثِيرَ الْمُخْنِينَ﴾: الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة. ومن أمارات الإخبات كمال الخضوع بشرط دوام الخشوع، وذلك بإطراق السريرة.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الوجل الخوف من المخافة، والوجل عند الذكر على أقسام: إما لخوف عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تختتم، أو لخروج من الدنيا على غفلة من غير استعداد للموت، أو إصلاح أهبة، أو حياء من الله سبحانه في أمور إذا ذكر اطلاعه - سبحانه - عليها لما بدرت منه تلك الأمور التي هي غير محبوبة.

ويقال الوجل على حسب تجلي الحق للقلب؛ فإن القلوب في حال المطالعة والتجلي تكون بوصف الوجل والهيبة.

ويقال وجل له سبب وجل بلا سبب؛ فالأول مخافة من تقصير، والثاني معدود في جملة الهيبة^(١).

ويقال الوجل خوف المكر والاستدراج، وأقربهم من الله قلباً أكثرهم من الله - على هذا الوجه - خوفاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾.

أي خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراه ولا تمني خرجة، ولا روم فرجة بل يستسلم طوعاً:

ويقال الصابرين على ما أصابهم. أي الحافظين معه أسرارهم، لا يطلبون السلوة بإطلاع الخلق على أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾.

أي إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف في محل النجوى:

إذا ما تمئى الناس روحاً وراحاً تمئيت أن أشكو إليك فتسمعاً

قوله جل ذكره: ﴿وَمِمَّا رَفَعْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

عند المعاملة من أموالهم، وفي قضايا المنازلة بالاستسلام، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير؛ فينفقون أبدانهم على تحمل مطالبات الشريعة، وينفقون قلوبهم على التسليم والخمود تحت جريان الأحكام بمطالبات الحقيقة.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٥٨ - ٦١.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعِيرٍ ۚ اللَّهُ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ ۚ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ ۚ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُم مِّنْ لَّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحمل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بخلقيتها كيف سُخِّرَتْ للناس على قوتها وصورتها، ثم كيف تنقاد للصبيان في البروك عند الحمل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها وصبرها على العطش في الأسفار، وعلى قليل العلف، ثم ما في طبعها من لطيف الطبع، وحيث تستريح بالخداء^(١) مع كثافة صورتها إلى غير ذلك.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾: أي سقطت على وجه الأرض في حال النحر فاطعموها القانع الذي ألقى جلاباب الحياء وأظهر فقره للناس، والمُعْتَرَّ الذي هو في تحمله مُتَحَمِّلٌ، ولمواضيع فاقته كاتم.

قوله جل ذكره: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنكُمْ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَكُمْ ۚ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لا عبرة بأعيان الأفعال سواء كانت بدنية محضة، أو مالية صرفة، أو بما له تعلق بالوجهين، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص فإذا انضاف إلى أكساب الجوارح إخلاص القصد، وتجردت، عن ملاحظة أصحابها للأغيار صلحت للقبول.

ويقال التقوى شهود الحق ينعت التفرد؛ فلا يُشَابَقُ تَقَرُّبُكُ بملاحظة أحد، ولا تأخذ عوضاً على عمل من بشر.

﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَكُمْ﴾: أي هداكم وأرشدكم إلى القيام بحق العبودية على قضية الشرع.

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾: والإحسان كما في الخبر: «أن تعبد الله كأنك تراه..».

وأمانة صحته سقوط التعب بالقلب عن صاحبه، فلا يستقل شيئاً. ولا يتبرم بشيء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

يدفع عن صدورهم نزغات الشيطان، وعن قلوبهم خطرات العصيان، وعن أرواحهم طوارق النسيان.

والخيانة على أقسام: خيانة في الأموال تفصيلها في المسائل الشرعية، وخيانة في الأعمال، وخيانة في الأحوال؛ فخيانة الأعمال بالرياء والتصنع، وخيانة الأحوال

(١) الخداء: سوق الإبل والغناء لها. (لسان العرب ١٤/١٦٨ مادة: خدا).

بالملاحظة والإعجاب والمساكنة، وشُرُّها الإعجاب، ثم المساكنة وأخفاها الملاحظة.
ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا على طلب الأعواض ليجدوا في الآخرة
حُسْنَ المَالِ. . وهذا إخلاص الصالحين. ولكنه عند خواص الزهاد خيانة؛ لأنهم
تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العَوَاض على تركهم ذلك مِنْ قِبَلِ الله.

وخيانة العابدين أن يَدْعُوا شهواتهم ثم يرجعون إلى الرُّخْص، فلو صدقوا في
مرماهم لَمَا انحطُّوا إلى الرخص بعد ترقِّيهم عنها.

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام، وتطلعهم لمنال منزلة وإكرام من
الحق ونوع تقريب.

وخيانة المحبين روم فرحة مما يمسه من برحاء المواجيد، وابتغاء خرجة مما
يَشْتَدُّ عليهم من استيلاء صَدِّ، أو غلبات شوق، أو تماذي أيام هَجَرٍ.

وخيانة أرباب التوحيد أن يتحرك لهم للاختيار عِزُّ، ورجوعهم - بعد امتحانهم
عنهم - إلى شظية من أحكام الفَرْق، اللهم إلا أن يكون ذلك منهم موجوداً، وهم عنه
مفقودون.

قوله جل ذكره: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَعْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

إذا أصابهم ضُرٌّ أو مَسْهَم - ما هو في الظاهر - ذُلٌّ من الأعادي يجري عليهم
ضَيْمٌ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاء وظلم. . فالحق - سبحانه - ينتقم من أعدائهم
لأَجْلِهِمْ، فهم بنعت التسليم والسكون في أغلب الأحوال، وتفاصيل الأقدار جارية
باستئصال مَنْ يناوئهم، وبإحالة الدائرة على أعاديهم. وفي بعض الأحيان ينصبهم
الحق سبحانه بنعت الغلبة والتمكين من نزولهم بساحات مَنْ يناوئهم بِحُسْنِ الظَّفَرِ،
وتمام حصول الدائرة على مَنْ نَاصَبَهُمْ، وأخزاهم بأيديهم، وكلُّ ذلك يتفق، وأنواع
النصرة من الله - سبحانه - حاصلة، والله - في الجملة - غالب على أمره.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

المظلوم منصور ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلوم حميد
العقبى، والظالم وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا
ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]. وقد يجري من النَّفْسِ وهواجسها على القلوب لبعض الأولياء
وأهل القصة - ظُلْمٌ، وَيَخْصُلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاء،
وتستولي غَاغَةُ النَّفْسِ، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطان الغفلة حتى تتداعى
القلوب للخراب من طوارق الحقائق وشوارق الأحوال، كما قال قائلهم:

أنعي إليك قلوباً طالما هَطَلَتْ سحائب الجود فيها أبْحَرَ الحِكم

فَيَهْرُمُ الْحَقُّ - سبحانه - بجنود الإقبال أراذل الهواجس، وينصر عسكر التحقيق بأمداد الكشوفات. ويتجدد دارس العهد، وتطلع شمس السعد في ليالي الستر، وتكنس القلوب وتنظف من آثار ظلمة النفس، كما قيل:

أطلال سغدى باللوى تتجدد

فإذا هبت على تلك القلوب رياح العناية، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صوب^(١) التجلي، وأنبت فيها أزهار البسطة فيتضح فيها نهار الوضيل، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى أن تطلع شمس التوحيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَرْيَعُ وَبِعَ وَصَلَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

يتجاوز عن الأصاغر لقدر الأكابر، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام. . . وتلك سنة أجزاها الله لاستنقاء منازل العبادة، واستصفاء مناهل العرفان. ولا تحويل لسنته، ولا تبديل لكريم عاداته.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَظِيمُ الْأُمُورِ﴾.

إذا طالت بهم المدة، وساعدتهم العمر لم يستفروا أعمالهم في استجلاب حظوظهم، ولا في اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم، ولكن قاموا بأداء حقوقنا.

وقوله: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ في الظاهر، واستداموا المواصلات في الباطن.

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها؛ فتعلم - بين يدي الله - من أنت، ومن تناجي، ومن الرقيب عليك، ومن القريب منك.

وقوله: ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾: الأغنياء منهم يوفون بركة أموالهم، وفقراؤهم يؤتون زكاة أحوالهم؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خمسة للفقراء والباقي لهم، وزكاة الأحوال أن يكون من مائتي نفس تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله، ونصف جزء من نفس - من المائتين - لك. . . وذلك أيضاً علّة.

قوله: ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: يتدثرون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنفسهم ثم بأغيارهم، فإذا أخذوا في ذلك لم يتفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم.

ويقال «الأمر بالمعروف» حفظ الحواس عن مخالفة أمره، ومراعاة الأنفاس معه إجلالاً لإقداره.

(١) الصوب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.

ويقال الأمر بالمعروف على نفسك، ثم إذا فرغت من ذلك تأخذ في نهيتها عن المنكر. ومن وجوه المنكر الرياء والإعجاب والمساكنة والملاحظة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

في الآيات تسليّة للنبي - ﷺ، وأمرٌ حثم عليه بالصبر على مقاساة ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاء وصنوف الأسواء.

قوله جل ذكره: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمِنْهَا خَاوِبَةٌ عَلَى غُرُوبِهَا﴾.

الظلم يوجب خراب أوطان الظالم، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه، فالوحشة التي هي غالبية على الظلمة من ضيق صدورهم، وسوء أخلاقهم، وفراط غيظ من يظلمون عليهم. كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم، وهو في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم.

ويقال خراب منازل الظلمة ربما يتأخر وربما يتعجل. وخراب نفوسهم في تعطيلها عن العبادات لشؤم ظلمهم، وخراب قلوبهم باستيلاء الغفلة عليهم خصوصاً في أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم. نقد غير مستأخر.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَبِئْرَ مُعَظِّلٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾.

الإشارة في ﴿وَيَبِئْرَ مُعَظِّلٍ﴾: إلى العيون المتفجرة التي كانت في بواطنهم، وكانوا يستقون منها، وفي ذلك الاستقاء حياة أوقاتهم من غلبات الإرادة وقوة المواجه، فإذا اتصفوا بظلمهم غلب غناؤها^(١) وانقطع ماؤها بانسداد عيونها.

والإشارة في ﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيتها من الهيبة والأثر، وخلو أرواحهم من أنوار المحاب، وسلطان الاشتياق، وصنوف المواجه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

كانت لهم قلوب من حيث الخلقة، فلما زابتها صفاتها المحمودة صارت كأنها لم تكن في الحقيقة. ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذلك الصم. وإذا صح وصف القلب بالسمع والبصر صح وصفه بسائر صفات الحي من وجوه الإدراكات؛ فكما تبصر القلوب بنور اليقين يدرك نسيم الإقبال بمشام السر، وفي الخبر:

(١) الثناء: ما يحمله السيل من القمش. أو ما يجيء فوق السيل مما يحمله من الزبد والوسخ وغيره. (لسان العرب ١٥/ ١١٥ - ١١٦ مادة: غثا).

«إني لأجد نفسَ ربيكم من قبَل اليمن»^(١) وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريح في الظاهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

عَدَمُ تصديقهم حَمَلَهُمْ على استعمال ما توعدهم به، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] ولو آمنوا لصدّقوا، ولو صدّقوا لَسَكَنُوا. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾: أي إنّ الأيام عنده تتساوى، إذ لا استعجال له في الأمور؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة؛ إذ مَنْ لا يُجْرِي عليه الزمان وهو يُجْرِي الزمان فسواء عليه وجود الزمان، وعدم الزمان وقلة الزمان وكثرة الزمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْبَةٍ أَتَيْتُ مَا وَهَى ظَالِمَةٌ فُتُّ أَخَذَتْهَا وَلَّىٰ أَلْمَصِيرُ﴾.

الإمهال يكون من الله - سبحانه وتعالى، والإمهال يكون بأن يدع الظالم في ظُلمه حيناً، ويوسع له الحبل، ويطيل به المهل، فيتوهم أنه انفلت من قبضة التقدير، وذلك ظنه الذي أراده، ثم يأخذه من حيث لا يَرتَقِب، فيعلوه نَدَمٌ، ولات حينه، وكيف يستبقي بالحيلة ما حق في التقدير عَدَمُهُ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَكَايَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أشابهكم في الصورة ولكني أباينكم من حيث السريرة، وأنا لحسنينكم بشير، ولُمسيئكم نذير، وقد أيدت بإقامة البراهين ما جئتكم به من وجوه الأمر بالطاعة والإحسان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

الناس - في المغفرة - على أقسام: فمنهم من يستر عليه زلّته، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانة له عن الملاحظة، ومنهم من يستر حاله لثلاث تضييه من الشهرة فتنّة، وفي معناه قالوا:

لا تُشْكِرُنَّ جُحْدِي هَوَاكَ فَإِنَّمَا ذاك الجحودُ عليك سِتْرٌ مُسْبِلٌ

ومنهم مَنْ يستره بين أوليائه، لذلك وَرَدَ في «سنتب: «أوليائي في قبائي، لا يشهد أوليائي غيري».

(١) للحديث رواية أخرى تقول: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل...» أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ٢٥١/١ - ٣٠٤).

﴿وَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ﴾ ما يكون من وجه الحلال . ويقال ما يكون من حيث لا يَحْتَسِبُ الْعَبْدُ .

ويقال هو الذي يبدو - من غير ارتقاب - على رَفَقٍ في وقت الحاجة إليه .
ويقال هو ما يَحْمِلُ الْمَرْزُوقَ عَلَى صَرْفِهِ فِي وَجْهِ الْقَرْبَةِ . ويقال ما فيه البركة .
ويقال الرزق الكريم الذي يُنال من غير تعب ، ولا يتقلد مِثْلَ مخلوق .
قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .
في الحال في مَعْجَلِهِ الْوَحْشَةُ وانسداد أبواب الرشد ، وتنغصُ الْعَيْشُ ، والابتلاء بمن لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله .

وفي الآخرة ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الإجماع .
قوله جل ذكره : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَكَلَّمَ الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .
الشياطين يتعرَّضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطان ولا تأثير في أحوالهم منهم ، ونبينا - ﷺ - أفضل الجماعة .

وإنما من الشيطان تخيلٌ وتسويلٌ من التضليل . وكان لنبينا - ﷺ - سَكَاتٌ في خلال قراءة القرآن عند انقضاء الآيات ، فيتلفظ الشيطان ببعض الألفاظ ، فَمَنْ لم يكن له تحصيلٌ تَوْهَمَ أنه كان من ألفاظ الرسول - عليه الصلاة والسلام وصار فتنة لقوم .
أما - الذين أيدهم بقوة العصمة ، وأدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يُضِرْهُمْ ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿يَجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْفَاسِقَةُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ .

إذا أراد الله بِعَبْدِهِ خيراً أمده بنور التحقيق ، وأيده بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ؛ فلا يُظْلَمُ غمامُ الرِّيبِ ، وينجلي عنه غطاءُ الْعَقْلَةِ ، فلا تأثير لضبابِ الْعَدَاةِ في شعاع الشمس عند متوع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي رِيبٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَخْلُقُ بَيْنَهُمْ قَالِدِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ .

لم يتخصص مَلَكُهُ - سبحانه - بيوم، ولم تتحدد له وقته أمر، ولا لجلاله قَدْرٌ، ولكن الدعوى في ذلك اليوم تنقطع، والظنون ترتفع، والتجويزات تتلاشى؛ فللمؤمنين وأهل الوفاق نعم، وللكفار وأصحاب الشقاق نقم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُمْ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾.

هؤلاء لهم عذاب مهين، وهؤلاء لهم فضل مبین.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾: للقلوب حلاوة العرفان، وللأرواح حُلَّة المحاب، وللأسرار دوام الشهود.

قوله جل ذكره: ﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلَ بَرْزَوْنَهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

إدخالاً فوق ما يَتَمَتُّونَهُ، وإبقاءً على الوصف الذي يُهْدُونَهُ.. ذلك في أوان صحوهم لينالوا لطائف الأنس على وصف الكمال، ويتمكنوا من قضايا البسط على أعلى أحوال السرور.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾.

نَصْرُهُ - سبحانه - للأولياء نَصْرٌ عزيز، وانتقامه بتمام، واستنصاله بكمال، وإزهاقه أعداءه بتمحيق جملتهم، وألا يحتاج المنصور إلى الاحتياي أو الاعتضاد بأشكال.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

كما في أفقِ العَالَمِ لَيْلٌ ونهار فكذلك للسرائر ليل ونهار؛ فعند التجلي نهار وعند الستر ليل، وللليل السُرُّ ونهاره زيادةً ونقصان، فبمقدار القبض ليل وبمقدار البسط نهار، ويزيد أحدهما على الآخر وينقص.. وهذا للعارفين. فأما المحققون فَلَهُمُ الأنسُ والهبة مكانَ قبضِ قومٍ وَيَسْطِطُهُمْ، وذلك في خَالِي صحوهم ومحوهم، ويزيد أحدهما وينقص، ومنهم من يدوم نهاره ولا يدرك له ليل.. وذلك لأهل الأنس فقط.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

إذا بدا عِلْمُ من الحقائق حَصَلَتْ بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلي،

ثم يزيد ظهور ما يبدو ويغلب، وتتناقص آثار التفرقة وتلاشى، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَوَسَّعُوا فِي الْأَرْضِ فَوَسَّعُوا فِيهَا فَسَبِّحُوا لِلَّهِ مِثْلَ خَمْسٍ﴾ (١) «إذا أقبل النهار من ها هنا أدبر الليل من ها هنا» فإذا نأى العبد بالكلية عن الإحساس بما دون الله فلا يشهد أولاً الأشياء إلا للحق، ثم لا يشهدا إلا بالحق، ثم لا يشهد إلا الحق. . . فلا إحساس له بغير الحق، ومن جملة ما ينساه. . . نفسه والكون كله.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي تَرَىٰ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها، وماء الرحمة يحيي أحوال أهل الزلة بعد تركها، وماء العناية يحيي أحوال (.. .) (١) بعد زوال رونقها، وماء الصولة يحيي أهل القربة بعد نضوبها.

قوله جل ذكره: ﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. المُلْكُ له، وهو عن الجميع غني، فهو لا يستغني بملكه، بل ملكه بصير موجوداً بخلقه إياه؛ إذ المعدوم له مقدور والمقدور هو المملوك. ويقال كما أنه غني عن الأجانب ممن أثبتهم في شواهد الأعداء فهو غني عن الأكابر وجميع الأولياء.

ويقال إذا كان الغني حميداً فمعنى ذلك أنه يُعْطِي حتى يُشْكِر. ويقال الغني الحميد المستحق للحمد: أعطى أو لم يُعْطِ؛ فإن أعطى استحق الحمد الذي هو الشكر، وإن لم يُعْطِ استحق الحمد الذي هو المدح. قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي تَرَىٰ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أراد به تسخير الانتفاع بها؛ فما للخلق به انتفاع ومُسَرَّر له الاستمتاع به فهو كالمُسَخَّر له على معنى تمكينه منه، ثم يُرَاعَى فيه الإذن؛ فَمَنْ استمتع بشيء على وجه الإباحة والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعام وإكرام، ومن كان بالعكس فمكْر واستدراج.

وأما السفينة. . . فالهائم العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها؛ بالتحمل فيها وركوبها فَمِنْ أعظم إحسان الله وإرفاقه بالعبد، ثم ما يحصل بها من قَطْع المسافات البعيدة، والتوصل بها إلى المضارب النائية، والتمكن من وجوه الانتفاع ففي ذلك أعظم نعمة، وأكمل عافية.

(١) بياض في الأصل.

وجعل الأرضَ لِلْخَلْقِ قراراً من غير أن تميد، وجعل السماءَ بناءً من غير وقوع، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء في الظلام، ثم هي زينة السماء - وفي ذلك من الأدلة ما يوجب ثُلُجَ الصدر وبرزَ البقين.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾.

إحياء النفوس وإماتتها مرات محصورة، وإحياء أوقات العباد وإماتتها لا حصرَ له ولا عدّ، وفي معناه أنشدوا.

أموت إذا ذكرْتُك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت
ويقال يُخيي الآمالَ بإشهادِ تفضله، ثم يميتها بالإطلاع على تعزُّزه.

ويقال هذه صفة العوام منهم، فأما الأفاضل فحياتهم مسرمة وانتعاشهم مؤبد. وأتى يحيا غيره وفي وجوده - سبحانه - غنية وخلف عن كل فائت؟

قوله جل ذكره: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَذْعُ إِلَيَّ رَيْكَ إِنَّكَ لَكَلِّ هُدًى مُسْتَقِيرٌ﴾.

جَعَلَ لِكُلِّ فَرِيقٍ شِرْعَةً هم واردوها، ولكلِّ جماعةٍ طريقة هم سالكوها.

وجعل لكلِّ مقام سُكَّانَهُ، ولكلِّ محلِّ قُطَّانَهُ، فقد ربط كلاً بما هو أهل له، وأوصل كلاً إلى ما جعله محلاً له؛ فبسطا التَّعَبُّدِ موطوءاً بأقدام العابدين، ومشاهد الاجتهاد معمورة بأصحاب التكلف من المجتهدين، ومجالس أصحاب المعارف مانوسة بلزوم العارفين، ومنازل المحبين مأهولة بحضور الواجدين.

قوله: ﴿فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ...﴾ اشهد تصارييف الأقدار، واعمل بموجب التكليف، وانيه دون ما أذنت له من المناهل.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

كلُّهُمْ إلينا عندما راموا من الجدل، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال، واحذر جنوح قلبك إلى الاستعانة بالأمثال والأشكال، فإنهم قوالبُ خاوية، وأشباح عن المعاني خالية.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَتَكَلَّمُ بِبَيِّنَاتٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أما الأجانب فيقول لهم: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وأما الأولياء فقومٌ منهم يحاسبهم حساباً يسيراً، وأقوام مخصوصون يقول لهم: بيني وبينكم حساب؛ فلا جبريل يحكم بينهم ولا ميكائيل، ولا نبي مرسل، ولا ملك مقرب.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يحكم بينهم فيسأل عن أعماله جميع خصمائه، ويأمر بإرضاء جميع غرمائه.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

يعلم السر والنجوى، وما تكون حاجة العبد له أمس وأقوى، وبكل وجه هو بالعبد أولى، وله أن يحمل له الثغمي، ويزيل عنه البلى، ولا يسمع منه الشكوى، فله الحكم تبارك وتعالى.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَكُمْ بِنَزَلٍ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

الآية تشير أن من جملة خواصه أفرد - سبحانه - ببرهان، وأيده ببيان، وأعزه بسلطان. ومن لا سلطان له يمتد إليه قهره، ومن لا برهان له ينسبط عنه - إلى غيره - نوره، فهو بمنزلة عن جملته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ بِكَادُوتٍ يَسْطُوتُ بِالَّذِينَ تَلُوتُ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ ذُكِّرُوا النَّارَ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ آخَرٌ﴾.

لسمع الخطاب أثر في القلوب من الاستبشار والبهجة، أو الإنكار والوحشة. ثم ما تخامره السرائر يلوح على الأسرة في الظاهر؛ فكانت الآيات عند نزولها إذا ثلثت على الكفار يلوح على وجوههم دُخان ما تنطوي عليه قلوبهم من ظلمات التكذيب، فما كان يقع عليهم طرف إلا نبأ عن جحودهم، وعادت إلى القلوب الثبوءة عن إقلاعهم.

ثم أخبر أن الذي هم بصدده في الآخرة من أليم العقوبة شر بكل وجه لهم مما يعود إلى الرائين لهم عند شهودهم. وإن المناظر الوضيئة للرئين مُبهجة، والمناظر المنكرة للناظرين إليها موحشة.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾.

نبه الأفكار المشتتة، والخواطر المتفرقة على الاستجماع لسمع ما أراد تضمينه فيها؛ فاستحضرها فقال: ﴿ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ...﴾.

ثم بيّن المعنى فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وتسمونها آلهة أنها

للعبادَة مستحقّة لن يخلقوا بأجمعهم مذباباً، ولا دون ذلك . وإنّ يسلبهم الذباب شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس في وسعهم استنقاذهم ذلك منه، ومن كان بهذه الصفة فسَاء المثل مثلهم، وضعف وصفهم، وقل خطرهم .

ويقال إن الذي لا يقاوم ذباباً فيصير به مغلوباً فأهون بقدره !

قوله جلّ ذكره: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

ما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعوت . ومن لم يكن في عقيدته نقض لما يستحيل في وصفه - سبحانه - لم تُبائس خلاصة التوحيد سرّه، وهو في ترجّم فكر، وتجويز ظن، وخطر تعسف، يقع في كل هدة من الضلال .

ويقال العوام اجتهدهم في رفضهم الأعمال الخبيثة خوفاً من الله، والخواص جهدهم في نقض عقيدتهم للأوصاف التي تجل عنها الصمدية، وبينهما (. . .)^(١) بعيد .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ قوي أي قادر على أن يخلق من هو فوقهم في التحصيل وكمال العقول . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ : أي لا يقدر أحد قذره - إلا بما يليق بصفة البشر - يقدر من العرفان .

ويقال من وجد السبيل إليه فليس النعت له إلا بوصف القصور، ولكن كلّ يوجده مربوط، ويحذه في همته موقوف، والحق سبحانه عزيز .

قوله جلّ ذكره: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

الاجتناء والاصطفاء من الحق سبحانه بإثبات القدر، وتخصيص الطول، وتقديهم على أشكالهم في المناقب والمواهب .

ثم بعضهم فوق بعض درجات؛ فالفضيلة بحق المرسل، لا لخصوصية في الخلقة في المرسل .

قوله جلّ ذكره: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

يعلم حالهم ومآلهم، وظاهرهم وباطنهم، ويومهم وغدهم، ويعلم نقضهم عهدهم؛ فالإله مُقْبِلُهُمْ، وفي قبضته تقلبهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

الركوع والسجود والعبادة كلّها بمعنى الصلاة؛ لأن الصلاة تشتمل على هذه الأفعال جميعها، ولكن فرّقها في الذكر مراعاة لقلبك من الخوف عند الأمر بالصلاة؛

(١) بياض في الأصل .

فَقَسَّمَهَا لِيَكُونَ مَعَ كُلِّ لَفْظَةٍ وَمَعْنَى نَوْعٍ مِنَ التَّخْفِيفِ وَالتَّرْفِيهِ، وَلِقُلُوبِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ رَاحَةٌ جَدِيدَةٌ.

ويقال لَوْنٌ عَلَيْهِمُ الْعِبَادَةُ، وَأَمَرَهُمْ بِهَا، ثُمَّ جَمِيعُهَا عِبَادَةٌ وَاحِدَةٌ، وَوَعَدَ عَلَيْهَا مِنَ الثَّوَابِ الْكَثِيرِ مَا تَقْصُرُ عَنْ عِلْمِهِ الْبَصَائِرِ.

ويقال عَلِمَ أَنَّ الْأَحْبَابَ يُحِبُّونَ سَمَاعَ كَلَامِهِ فَطَوَّلَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لِيَزِدَادُوا عِنْدَ سَمَاعِ ذَلِكَ أَتْسَأَ عَلَى أَنْسٍ، وَرَوْحًا عَلَى رَوْحٍ، وَمُعَادًا خُطَابِ الْأَحْبَابِ وَهُوَ رَوْحُ رُوحِهِمْ، وَكَمَالُ رَاحَتِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ فَأَدْخَلَ فِيهِ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْقُرْبِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾: حَقُّ الْجِهَادِ مَا وَافَقَ الْأَمْرَ فِي الْقَدْرِ وَالْوَقْتِ وَالنَّوعِ، فَلِذَا حَصَلَتْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ مَخَالِفَةٌ فَلَيْسَ حَقَّ جِهَادِهِ.

ويقال المجاهدة على أقسام: مجاهدةً بالنَّفْسِ، ومجاهدةً بِالْقَلْبِ، ومجاهدةً بِالْمَالِ. فالمجاهدةُ بالنفس ألا يَدْخِرَ الْعَبْدُ مَيْسُورًا إِلَّا بَذَلَهُ فِي الطَّاعَةِ بِتَحْمِلِ الْمَشَاقِّ، وَلَا يَطْلُبُ الرِّخْصَ وَالْإِرْفَاقَ. والمجاهدةُ بِالْقَلْبِ صَوْنُهُ عَنِ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيئَةِ مِثْلِ الْغَفْلَةِ، وَالْعِزْمُ عَلَى الْمَخَالَفَاتِ، وَتَذَكُّرُ مَا سَلَفَ أَيَّامَ الْفِتْرَةِ وَالْبَطَالَاتِ. والمجاهدةُ بِالْمَالِ بِالْبَذْلِ وَالسَّخَاءِ ثُمَّ بِالْجُودِ وَالْإِيثَارِ.

ويقال حَقُّ الْجِهَادِ الْأَخْذُ بِالْأَشَقِّ، وَتَقْدِيمُ الْأَشَقِّ عَلَى الْأَسْهَلِ - وَإِنْ كَانَ فِي الْأَخْفِ أَيْضًا حَقٌّ.

ويقال حَقُّ الْجِهَادِ أَلَا يَفْتَرِ الْعَبْدُ عَنِ مَجَاهِدَةِ النَّفْسِ لِحِظَةٍ، قَالَ قَائِلُهُمْ:

يَا رَبِّ إِنَّ جِهَادِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ فَكُلُّ أَرْضٍ لِي تُغَرِّطُ رَسُوسُ
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ﴾.

يَحْتَمِلُ أَنَّهُ يَقُولُ مِنْ حَقِّ اجْتِبَائِهِ إِيَّاكُمْ أَنْ تُعْظَمُوا أَمْرَ مَوْلَاكُمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقَالَ هُوَ الَّذِي اجْتَبَاكُمْ، وَلَوْلَا أَنَّهُ اجْتَبَاكُمْ لَمَّا جَاهَدْتُمْ، فَلَا اجْتِبَائَهُ إِيَّاكُمْ وَقَفَّكَ حَتَّى جَاهَدْتَ.

ويقال عَلِمَ مَا كُنْتَ تَفْعَلُهُ قَبْلَ أَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَجْتَبِيَكَ، وَكَذَلِكَ إِنْ رَأَى مَا فَعَلْتَ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْكَ وَلَا يَعَاقِبَكَ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

الْشَّرْعُ مَبْنَاهُ عَلَى السَّهُولَةِ، وَالَّذِي بِهِ تَصِلُ إِلَى رِضْوَانِهِ وَتَسْتَوْجِبُ جَزِيلَ فَضْلِهِ وَإِحْسَانَهُ، وَتَتَخَلَّصُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ وَامْتِحَانِهِ - يَسِيرٌ مِنَ الْأَمْرِ لَا يَسْتَفْرِقُ كُنْهَهُ

إمكانك؛ بمعنى أنك إن أردت فعله لقدرت عليه، وإن لم توصف في الحال بأئك مستطيع ما ليس بموجود فيك.

قوله جل ذكره: ﴿يَلَهُ أَيْكُمُ الْإِبْرَاهِيمُ﴾.

أي اتبعوا والزموا ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام في البذل والسخاء والجود والخلة والإحسان.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ سَعَتُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾.

اللَّهُ هو الذي اجتباكم، وهو الذي بالإسلام والعرفان سماكم المسلمين. وقيل إبراهيم هو الذي سماكم المسلمين بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾، نصب الرسول بالشهادة علينا، وأمره بالشفاعة لأمته، وإنما يشهد علينا بمقدار ما يبقى للشفاعة موضعاً ومحلاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

وتلك الشهادة إنما نؤديها لله، ومن كانت له شهادة عند أحد - وهو كريم - فلا يجرح شاهده، بل يسعى بما يعود إلى تركية شهوده.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة بحكم الإتمام، ونعت الاستدامة، وجميل الاستقامة.

والاعتصام بالله التبري من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله. ويقال الاعتصام بالله التمسك بالكتاب والسنة. ويقال الاعتصام بالله حسن الاستقامة بدوام الاستعانة.

﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾: سيدكم وناصركم والذي لا خلف عنه.

﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾: نعم المولى: إخبار عن عظمته، ونعم النصير: إخبار عن رحمته.

ويقال إن قال لأيوب: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤] ولسليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠] فلقد قال لنا: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، ومدحه لنفسه أعز وأجل من مدحه لك.

ويقال: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾: بدأك بالمحبة قبل أن أحبيته، وقبل أن عرفته أو طلبته أو عبّدته.

﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾: إذا انصرف عنك جمع من لك فلا يدخل القبر معك أحد كان ناصرك، ولا عند السؤال أو عند الصراط.

السورة التي يذكر فيها المؤمنون

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو، وللمسمى بهذا الاسم استحقاق العلو، فالاسم اسم لسموه من القدم، والحق حقّ لعلوه بحق القدم.

ويقال مَنْ عرف «بسم الله» سمت هيمته عن المرسومات، وَمَنْ أَحَبَّ بِسْمِ اللَّهِ صَفَتْ حالته عن مساكنة الموهومات.

اسم مَنْ طَلَبَهُ نَسِيَ من الدارين أَرْبَهُ، وَمَنْ عَرَفَهُ وَجَدَ بقلبه ما لا يعرف سَبِيَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

ظَفِرَ بِالْبُغْيَةِ وفاز بالطلبة مَنْ آمَنَ بالله.

و «الفلاح»: الفوز بال مطلوبِ والظفرُ بالمقصود.

والإيمانُ انتسامُ الحقّ في السريرة، ومخامرةُ التصديقِ خلاصةُ القلب، واستمكانُ التحقيقِ من تأمور^(١) الفؤاد.

والخشوعُ في الصلاة إطراقُ السُرِّ على بساطِ النجوى باستكمالِ نَعْتِ الهيبة، والذوبانُ تحت سلطان الكشف، والامتحاء عند غَلَبَاتِ التجلي.

ويقال أَدْرَكَ ثَمَرَاتِ الْقُرْبِ وفازَ بِكَمَالِ الْأَنْسِ مَنْ وَقَفَ على بساطِ النجوى بنعتِ الهيبة، ومراعاةِ آدابِ الحضرة. ولا يَكْمُلُ الْأَنْسُ بِلِقَاءِ المحبوبِ إلا عند فَقْدِ الرقيب. وأشدُّ الرقباء وأكثرهم تنغيصاً لأوانِ القربِ النَّفْسُ؛ فلا راحةَ لِلْمُصَلِّي مع حضورِ نَفْسِهِ، فإذا خنس عن نَفْسِهِ وشاهده عَدِيمٌ إحساسه بِأَفَاتِ نَفْسِهِ، وطابَ له العيشُ، وتَمَّتْ له التَّعَمُّي، وتَجَلَّتْ له البُشْرَى، وَوَجَدَ لَذَّةَ الْحَيَاةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

ما يَشْغُلُ عن الله فهو سَهْوٌ، وما لي الله فهو خَشْوٌ، وما ليس بمسموع من الله أو بمعقول مع الله فهو لَغْوٌ، وما هو غير الحق سبحانه فهو كُفْرٌ، والتعريضُ على شيء من هذا بُعْدٌ وهَجْرٌ.

(١) التامور: دم القلب وحيته وحياته، وقيل: هو القلب نفسه. (لسان العرب ٣٣/٤ مادة: أمر).

ويقال ما ليس بتقريظ الله ومُدْحِه من كلام خُلِقَ فكل ذلك لغو.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾.

الزكاة النماء، ومن عمّله للنماء فامارة ذلك أن يكون بنقصانه في نفسه عن شواهد ولا يبلغ العبد إلى كمال الوصف في العبودية إلا بذوبانه عن شاهده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

لأزواجهم حافظون ابتغاء نسل يقوم بحق الله، ويقال ذلك إذا كان مقصوده التعفف والتصاؤن عن مخالفات الإثم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَتَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ﴾.

أي من جاوز قُصْدَ إيثار الحقوق، وجنّح إلى جانب استيفاء الحظوظ... فقد تعدّى محلّ الأكابر، وخالف طريقتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ﴾.

الأمانات مختلفة، وعند كل أحد أمانة أخرى، فقوم عندهم الوظائف بظواهرهم، وآخرون عندهم اللطائف في سرائرهم، ولقوم معاملاتهم، وآخرون منازلهم، وآخرون موصلاتهم.

وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم من عاهده ألا يغتدّ سواه، ومنهم من عاهده ألا يشهد في الكونين سواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين، ولا يدعّوهم المُنَادِي وهم ليسوا بالباب، فهم في الصف الأول بظواهرهم، وكذلك في الصف الأول بسرائرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الإرث على حسب النسب، وفي استحقاق الفردوس بوصف الإرث لنسب الإيمان في الأصل، ثم الطاعات في الفضل.

وكما في استحقاق الإرث تفاوت في مقدار السهمان: بالفرض أو بالتعصيب - فكذلك في الطاعات؛ فمنهم من هم في الفردوس بنفوسهم، وفي الأحوال اللطيفة بقلوبهم، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يبرحون عن منال نفوسهم ولا (...)^(١) عن حالات قلوبهم.

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾.

عَرَفَهُمْ أَصْلَهُمْ لثَلَا يُعْجَبُوا بِفَعْلِهِمْ.

ويقال نَسَبُهُمْ لثَلَا يَخْرُجُوا عَنْ حَدِّهِمْ، وَلَا يَغْلُطُوا فِي نَفْسِهِمْ.

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ سُلَّتْ مِنْ كُلِّ بَقْعَةٍ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ طِينَتُهُ مِنْ جَرْدَةٍ^(١) أَوْ مِنْ سَبَخَةٍ أَوْ مِنْ سَهْلٍ، أَوْ مِنْ وَغَيْرِ... وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتْ أَخْلَاقُهُمْ.

ويقال بَسَطَ عُذْرَهُ عِنْدَ الْكَافَةِ؛ فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ... مَا الَّذِي يَنْتَظَرُ مِنْهُ؟!

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، وَالْقَدَرُ لِلتَّرْبِيَةِ لَا لِلتَّرْبَةِ.

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الْمَعْرِفَةِ وَمَرْتَعُ الْمَحَبَةِ وَمَتَلَقُّ الْعِنَايَةِ مِنْهُمْ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

ويقال خَلَقَهُمْ، ثُمَّ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ نَقَّلَهُمْ، يُغَيِّرُ بِهِمْ مَا شَاءَ تَغْيِيرِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَرْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾.

قطرة أجزاؤها متماثلة، ونطفة أبعاضها متشاكلة، ثم جعل بعضها لحماً وبعضها عظاماً، وبعضها شغراً، وبعضها ظفراً، وبعضها عصباً، وبعضها جلداً، وبعضها مخاً، وبعضها عِزْقاً. ثم خَصَّ كُلَّ عَضْوٍ بِهَيْئَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَكُلَّ جُزْءٍ بِكَيْفِيَةٍ مَعْلُومَةٍ. ثم الصفات التي للإنسان خَلَقَهَا مَتَفَاوِتَةً، مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفِكْرِ وَالْغَضَبِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْحَقْدَ وَالْجُودَ وَالْأَوْصَافِ الَّتِي يَنْقَاصِرُ عَنْهَا الْحَضَرُ وَالْعَدُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

في التفسير أنه صورة الوجه، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة، واختص به السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْعَقْلُ وَالتَّمْيِيزُ، وَمَا تَفَرَّدَ بِهِ بَعْضُ مِنْهُمْ بِمَزَايَا فِي الْإِلْهَامِ الْعَامِ لِلْعَقْلِ وَسَائِرِ الْإِدْرَاكَاتِ.

ويقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾: وَهُوَ أَنَّ هَيَاثُمَ لِأَحْوَالٍ عَزِيزَةٍ يُظْهِرُهَا عَلَيْهِمْ بَعْدَ بُلُوغِهِمْ، إِذَا حَصَلَ لَهُمْ كَمَا التَّمْيِيزُ مِنْ فَنُونِ الْأَحْوَالِ؛ فَلَقَوْمٌ تَخْصِصُ بِزِينَةِ الْعِبَادَةِ، وَلَقَوْمٌ تَحَرُّزُ مِنْ رِقِّ الْبَشَرِيَّةِ، وَآخَرِينَ تَحَقُّقُ بِالصِّفَاتِ الصِّمْدِيَّةِ بِامْتِحَانِهِمْ عَنِ الْإِحْسَاسِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ وَبِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَوْصَافُ الْبَشَرِيَّةِ.

(١) الجرد: من الأرض: ما لا نبات فيه (ج) أجارد.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

خلق السموات والأرضين بجملتها، والعرش والكرسي، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها - ثم لما أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذي ذكره بعد نعت خلقه بني آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً، وإفراداً لهم من بين المخلوقات.

ويقال إن لم يقل لك إنك أحسن المخلوقات في هذه الآية فلقد قال في آية أخرى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين - ولم يثن عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أعز وأجل من أن يثنى عليك.

ويقال لما ذكر نعتك، وتارات حالك في ابتداء خلقك، ولم يكن منك لسان شكر ينطق، ولا بيان مدح ينطلق... تاب عنك في الثناء على نفسه، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

أنشدوا:

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى
وأنشدوا:

حياتنا عندنا قروض ونحن بعد الموت في التقاضي
لا بُدَّ مِنْ رَدِّ مَا اقترضنا كل غريم بذاك راضي
ويقال نعاك إلى نفسك بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وكل ما هو آتٍ قريب.

ويقال كسر على أهل الغفلة سطوة غفلتهم، وقل دونهم سيف صولتهم بقوله: ثم إنكم بعد ذلك لميتون، وللجماد مضاهون، وعن المكنة والمقدرة والاستطاعة والقوة لمُبْعَدُونَ، وفي عداد ما لا خطر له من الأموات معدودون.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُنْعَشُونَ﴾.

فعند ذلك يتصل الحساب والعقاب، والسؤال والعتاب، ويتبين المقبول من المردود، والموصول من المهجور.

ويوم القيامة يوم خوف به العالم حتى لو قيل للقيامة: ممن تخافين؟ لقاتل من القيامة. وفي القيامة ترى الناس سُكَارَى حَيَّارَى لا يعرفون أحوالهم، ولا يتحققون بما

تؤول إليه أمورهم، إلى أن يتبين لكل واحد أمره؛ خيره وشره: فيثقل بالخيرات ميزانه، أو يخف عن الطاعات أو يخلو ديوانه. وما بين الموت والقيامة: فإما راحت مُتصلة، أو آلام وآفات غير منفصلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

الحق - سبحانه - لا يستتر عن رؤيته مُذكرٌ، ولا تخفى عليه - من مخلوقاته - خافية. وإنما الحُجب على أبصار الخلق وبصائرهم؛ فالعادة جارية بأنه لا يخلق لنا الإدراك لِمَا وراء الحُجب. وكذلك إذا حلت الغفلة القلوب استولى عليها الذهول، وانسدت بصائرهما، وانتفت فهمهما.

وفوقنا حُجب ظاهرة وباطنة؛ ففي الظاهر السموات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالمُنية والشهوة، والإرادات الشاغلة، والغفلات المتركمة.

أما المريدون فإذا أظلتهم سحاب الفترة، وسكن هيجان إرادتهم فذلك من الطرائق التي عليهم.

وأما الزاهدون فإذا تحرك بهم عزق الرغبة انقلبت^(١) قوة زهدهم، وضغفت دعائهم صبرهم، فَيَتَرَخَّصُونَ بالجنوح إلى بعض التأويلات، فتعود رغباتهم قليلاً قليلاً، وتختل رتبة عزوفهم، وتنهّد دعائهم زهدهم، وبداية ذلك من الطرائق التي خلق فوقهم.

وأما العارفون فربما تظلمهم في بعض أحيائهم وقفة في تصاعد سرهم إلى ساحات الحقائق، فيصيرون موقفين ريثما يتفضل الحق - سبحانه - عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً، ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق.

وفي جميع هذا فإن الحق سبحانه غير غافل عن الخلق، ولا تارك للعباد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَالَى ذَهَابٍ بِهِ لَقْدِيرُونَ﴾.

أنزل من السماء ماء المطر الذي هو سبب حياة الأرضين، وذلك بقدر معلوم. ثم... البلاد مختلفة في السقي: فبعضها خصب، وبعضها جدد، وسنة يزيد وسنة ينقص، سنة يفيض سنة يغيب.

كذلك أنزلنا من السماء ماء الرحمة فيحيي القلوب، وهي مختلفة في الشرب:

(١) القل: الثلم في السيف. (اللسان ١١/ ٥٣٠ مادة: قلل).

فَمِنْ مَوْسَىٰ عَلَيْهِ رِزْقُهُ مِنْهُ، وَمِنْ مُضَيَّقٍ مُقْتَرٍ عَلَيْهِ. وَمِنْ وَقْتٍ هُوَ وَقْتُ سَحْ، وَمِنْ وَقْتٍ هُوَ وَقْتُ حَبْسٍ.

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرَنُ العُصَاةِ وآثَارَ زَلَّتِهِمْ وأوضارَ عَثَرَتِهِمْ، وماء هو سقي قلوبهم يزيل به عطشَ تحييمهم، ويحيي به موات أحوالهم؛ فَتَنَّبْتُ في رياض قلوبهم فنونَ أزهار البسط، وصنوف أنوار الروح. وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات القرب، فيزيل عنها به حشمة الوصف، ويسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز، ويحملها على التجاسر ببذل الروح؛ فإذا شربوا طربوا، وإذا طربوا لم يُبالوا بما وهبوا.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكَ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكَ فِيهَا فَوْكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

كما يحيي بماء السماء الغياض والرياض، ويصنّف فيها الأزهار والأنوار، وتثمر الأشجار وتجري الأنهار... فكَذَلِكَ يَسْقِي الْقُلُوبَ بِمَاءِ الْعِرْفَانِ فتورق وتثمر بعدما تزهر، ويؤتي أكلها: من طيب عيش، وكمال بسط، ثم وفور هيبة ثم رُوح أنس، ونتائج تجلّ، وعوائد قُرب... إلى ما تتقاصر العبارات عن شرحه، ولا تطمع الإشارات في حُضره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا لَكَ فِي الْإِنْعَامِ لَعِبَةٌ تُشَفِّقُكَ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُ فِيهَا مَنَئِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(١).

الإشارات منه أنّ الكدورات الهاجمة لا عِبْرَةَ بها ولا مبالاة؛ فَإِنَّ اللَّبَنَ الْخَالِصَ السَّائِعَ يخرج من أخلاف الأنعام من بين ما تنطوي حواياها عليه من الوحشة، لكنه صافٍ لم يؤثر فيه منها بحكم الجوار، وكذلك الصفاء يوجد أكثره من عين الكدورة؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حق ولا باطل. ومن أشرف على سرّ التوحيد تحقّق بأنّ ظهور جميع الحدّثان من التقدير، فتسقط عنه كلفة التمييز، فالأسرار عند ذلك تصفو، والوقت لصاحبه لا يجفو.

﴿وَلَكُ فِيهَا مَنَئِعٌ﴾: لازمة لكم، ومتعدية منكم إلى كلّ متصل بكم:

إني - على جفواتها - برّبها وبكلّ مُتَّصِلٍ بها مُتَّوَسِّلٍ

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

يحفظهم في الفينة في بحار القطرة، ويحفظهم في سفينة السلامة والعصمة في

بحار القُدرة، وإنَّ بحارَ القدرة تتلاطم أمواجها، والناسُ فيها غَرَقَى إلا مَنْ يحفظه الحقُّ - سبحانه - في سفينة العناية .

وصفةُ أهلِ القُلُكِ إذا مستهم شِدَّةُ خوفِ الغَرَقِ ما ذَكَرَ اللهُ في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] كذلك مَنْ شاهدَ نفسه على شَفَا الهلاكِ والغرقِ، والتجأَ إلى صِدْقِ الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحقُّ - سبحانه - من مخلوقات التقدير . ويقال إنَّ وَجَةَ الأرضِ بحارُ الغفلة، وما عليه الناسُ من أسباب التفرقة بحارٌ مهلكةٌ والناسُ فيها غرقى . وكما قال بعضهم:

النَّاسُ بِحَرٍّ عَمِيقٍ والبعدُ عنهم سفينة
وقد نصحتُك فانظر لِنَفْسِكَ الْمُسْكِينَةِ

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ .

كَرَّرَ قصةَ نوحٍ لِمَا فيها من عظيم الآيات من طولِ مقامه في قومه، وشِدَّةِ مقاساةِ البلاءِ منهم، وتَمَامِ صبره على ما استقبله في طولِ عمره، ثم إهلاكِ الله جميعَ مَنْ أَصَرَّ على كفرانه، ثم إهلاكِ الله جميعَ مَنْ أَصَرَّ على كفرانه، ثم لم يغادرَ منهم أحداً، ولم يبال - سبحانه - بأنَّ أهلكَ جملتهم . ولقد ذكر في القصص أن امرأةً من قومه لما أخذهم الطوفان كان لها مولودٌ، فَحَمَلَتْهُ وقامت حاملةً له ترفعه عن الطوفان، فلما بلغ الماءُ إلى يدها رفعته إلى ما فوق رأسها - قَدَّرَ ما أمكنها - إبقاءً على وَلَدِها، وإشفاقاً عليه من الهلاكِ، إلى أن غَلَبَها الماءُ وتَلَفَّتْ وولدها . فأوحى الله إلى نوح - عليه السلام - لو أَنِّي كُنْتُ أَزْجَمُ واحداً منهم لَرَجِمْتُ تلكَ المرأةَ وولدها .

وفي الخبر أن نوحاً كان اسمه يشكر، ولكثرة ما كان يبكي أوحى الله إليه : يا نوح... إلى كم تنوح؟ فسماه نوحاً . ويقال إنَّ ذَنْبَهُ أَنَّهُ مَرَّ يَوْماً بِكَلْبٍ فَقَالَ: مَا أَوْحَشَهُ! فأوحى الله إليه : اخلق أنتَ أَحْسَنَ من هذا! فكان يبكي معتذراً عن قائلته تلك . وكان قَوْمُهُ يلاحظونه بعين الجنون، وما زاد لهم دعوةً إلا ازدادوا عن إجابته نبوةً، وما زاد لهم صفوةً إلا ازدادوا على طول المدة قسوةً على قسوة .

ولما عمل السفينة ظهر الطوفان، وأدخل في السفينة أَهْلَهُ، تعرَّضَ له إبليسُ - كما جاء في القصة - وقال: اخمِلْني معك في السفينة، فأبى نوح وقال: يا شقي... تطمع في حملي إياك وأنت رأس الكفرة؟!

فقال إبليسُ: أَمَا عَلِمْتُ - يا نوح - أَنَّ اللهَ أَنظَرَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وليس ينجو اليومَ أَحَدٌ إِلَّا فِي هَذِهِ السَّفِينَةِ؟

فأوحى الله إلى نوح أن احمله فكان إبليس مع نوح في السفينة، ولم يكن لابنه معه مكان في السفينة. وفي هذا ظهور عين التوحيد وأن الحكم من الله غير معلول لأنه إن كان المعنى في أن ابنه لم يكن معه له مكان لكُفْرِهِ فبإبليس يُشكَل... ولكنها أحكام غير معلولة، وجاز له - سبحانه - أن يفعل ما يريد: يَصِلُ مَنْ شاء وَيَرُدُّ مَنْ شاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْزِلْنِي مُزَلًّا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾^(١).

الإنزال المبارك أن يكون بالله والله، وعلى شهود الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفاً لأمر الله.

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك، ثم الاستغراق باستيلاء سلطان القُرب عليك، ثم الاستهلاك بإحداق أنوار التجلي حتى لا تبقى عين ولا أثر، فإذا تَمَّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بساحات الحقيقة مبارك؛ لأنك بلا أنت... بكلينك من غير بقية أو أثر عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَرَأَيْنَاهُ مِنْ بُعْدِهِمْ قَرْنًا مَخْرَجًا﴾^(٢).

تتابعت القرون على طريقة واحدة في التكذيب، وغرهم طول الامهال، وما مكثهم من رفاه العيش وخفض الذعة، فلم يقيسوا إلا على أنفسهم، ولم ينس لهم طُرف إلى مَنْ فوقهم في الحال والمنزلة، فقالوا: أنؤمن بمن يتردد في الأسواق، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق؟ ولئن أطعنا بشراً مثلنا لسلكنا سبيل الغي، وتَنَكَّبْنَا سُنَّةَ الرُّشْدِ. فأجراهم الله في الإهانة وإحلال العقوبة بهم مجزى واحداً، وأذاقهم عذاب الخزي. وأعظم ما دَاخَلَهم من الشبهة والاستبعاد أمر الحشر والنشر، ولم يرتقوا للعلم بأن الإعادة كالابتداء في الجواز وعدم الاستحالة، والله يهدي مَنْ يشاء ويُغوي مَنْ يريد.

ثم إن الله في هذه السورة ذَكَرَ قصة موسى عليه السلام، ثم بعده قصة عيسى عليه السلام، وخصَّ كُلَّ واحدٍ منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٣).

كلوا من الطيبات مما أحلّ لكم وأباح، وما هو محكوم بأنه طيب - على شريطة مطابقة رُخْصَةِ الشريعة - مما كان حلالاً في وقتهم، مطلقاً مأذوناً لهم فيه. وكذلك

(٢) الآية (٣٠) لم ترد.

(١) الآيات من (٢٤ - ٢٨) لم ترد.

(٣) الآيات (٣٢ - ٥٠) لم ترد.

أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم بفنون طاعاتهم في أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّةٌ وَجِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

معبودكم واحد، ونبئكم واحد، وشبرعكم واحد؛ فأنتم في الأصول شرع سواء، فلا تسلكوا نِثْيَاتِ الطرق^(١) فتطيحوا في أودية الضلالة. وعليكم باتباع سلفكم، واحذروا موافقة ابتداع خلفكم.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ خافوا مخالفة أمري، واعرفوا عظيم قدري، واحفظوا في جريان التقدير سرّي، واستديموا بقلوبكم ذكري، تجدوا في مآلكم غفري، وتَحْظُوا بجميل برّي.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

فمستقيم على حقّه، وتائه في غيّه، ومُصِرٌّ على عصيانه وفسقه، ومقيم على إحسانه وصدقه، كُلٌّ مربوطٌ بحذّه، موقوفٌ بما قَسِمَ له في البداية من شأنه، كُلٌّ ينتحل طريقته ويدّعي بحسن طريقته حقيقة، وعند صحوِّ سماءِ قلوبِ أربابِ التوحيد لا غَبَارَ في الطريق؛ وهم على يقين معارفهم؛ فلا رَيْبَ يتخالجهم ولا شُبْهة.

وأهل الباطل في عَمَى جَهْلِهِمْ، وغبارِ جُحْدِهِمْ، وظلمة تقليدهم، ومحنة شكهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

إنّ مدة أَخْذِهِمْ لقريبة، والعقوبة عليهم - إذا أَخْذُوا - لشديدة، ولسوف يتبين لهم خطوهم من صوابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسْقِيهِم مِّن مَّاءٍ وَبَيْنَ أَصْحَابِ لَّهُمْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

هذا في شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحقّ بهم بتلبيس المنهاج؛ رَأَوْا سَرَاباً فَظَنُّوه شَرَاباً، ودَس لهم في شهدهم صاباً فتوهموه عَذَاباً^(٢)، وحين لقوا عَذَاباً عَلِمُوا أنهم لم يفعلوا صواباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾.

أمارَةُ الإشفاق من الخشية إطراقُ السريرة في حال الوقوف بين يدي الله بشواهد الأدب، ومحاذرة بَعَثَاتِ الطُّرْد، لا يستقر بهم قرارٌ لِمَا دَاخَلَهم من الرُّغْب، واستولى عليهم من سلطانِ الهيبة.

(١) الشيء من الرادي: منعطفه.

(٢) العذاب: (ج) العَذْب: من الشراب والطعام: كل مستساغ. (لسان العرب ١/ ٥٨٣ مادة: عذب).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ بِهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

تلك الآيات مختلفة؛ فمنها ما يُكاشفون به في الأقطار من اختلاف الأدوار، وما فيه الناس من فنون الهمم وصنوف المُنَى والإرادات، فإذا آمن من العبدُ بها، واعتبر بها اقتنع بما يرى نَفْسَه مطالباً به.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

يَذَرُونَ جَلِيَّ الشُّرْكِ وَخَفِيَّهِ ؛ وَالشُّرْكَ الْخَفِيُّ ملاحظة الْخَلْق فِي أَوَانِ الطَّاعَاتِ ،
وَالِاسْتِبْشَارُ بِمَدْحِ الْخَلْقِ وَقَبُولِهِمْ ، وَالْانْكَسَارُ وَالذَّبُولُ عِنْدَ انْقِطَاعِ رُؤْيَا الْخَلْقِ .

ويقال الشَّرَكُ الخَفِيُّ إحالة النادر من الحالات - في المَسَارِّ والمَضَارِّ - على الأسباب كقول القائل: «لولا دعاء أهلك لهلك» و«لولا همة فلان لما أفلحت»... وأمثال هذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وكذلك تَوَهُّمُ حصولِ الشِّفَاءِ مِنْ شُرْبِ الدَّوَاءِ .

فإذا أيقن العبدُ بِسرِّه ألا شيء من الحَدَثَانِ، ولم يتوهم ذلك، وأيقن ألا شيء إلا من التقدير فعند ذلك يبقى عن الشُّرْكِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

يُخْلِصُونَ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ غَيْرِ إِمَامٍ بِتَقْصِيرٍ، أَوْ تَعْرِيجٍ فِي أَوْطَانِ الْكَسَلِ، أَوْ جُنُوحٍ إِلَى الْإِسْتِرَاحِ بِالرُّخْصِ. ثُمَّ يَخَافُونَ كَأَنَّهُمْ أَلْمُوا بِالْفَوَاحِشِ، وَيَلَاظُونَ أَحْوَالَهُمْ بَعِينَ الْإِسْتِصْفَاءِ وَالْإِسْتِحْقَارِ، وَيَخَافُونَ بَغَاتِ التَّقْدِيرِ، وَقَضَايَا السَّخَطِ، وَكَمَا قِيلَ:

يَتَجَنَّبُ الْإِثْمَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ أَمَامُ

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

مُسَارِعٌ بِقَدَمِهِ مِنْ حَيْثُ الطَّاعَاتِ، وَمُسَارِعٌ بِهَمَمِهِ مِنْ حَيْثُ الْمَوَاصِلَاتِ، وَمُسَارِعٌ بِتَدَمُّهِ مِنْ حَيْثُ تَجَرُّعِ الْحَسَرَاتِ، وَالْكُلُّ مُصِيبٌ، وَلِلْكُلِّ مِنْ إِقْبَالِهِ - عَلَى مَا يَلِيقُ بِحَالِهِ - نَصِيبٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وَنُصْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

المطالبات في الشريعة مُضَمَّنَةٌ بالسهولة، وأمَّا مطالبات الحقيقة فكما قالوا: ليس إلا بذل الروح، ولهذا فهم لا تشغلهم التزكّات^(١). قال لأهل الرخص والمستضعفين في الحال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وأمّا أرباب الحقائق؛

(١) الترهات: الأباطيل، وأحدثها ترهه، وهي في الأصل الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الأعظم. (اللسان ١٣/ ٤٨٠ مادة: تره).

فقال: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وقال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَتْلُقُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يُظْلَمُونَ﴾: لولا غفلتهم عن مواضع الحقيقة لما خوَّفهم بكتابة الملك، ولكن غفلوا عن شهود الحق فخوَّفهم باطلاع الملائكة، وكتابتهم عليهم أعمالهم.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾. لا يصلح لهذا الشأن إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال، لا شغل له في الدنيا والآخرة، فأما من له شغلٌ بدنياء، أو على قلبه حديثٌ عقباه، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه، وفي الخبر «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»^(١).

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنياءهم، وأرباب العقبي مشغولون بعقباهم، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلواهم؛ وإن الذي له في الدنيا والآخرة غير مولاه - حين الفراغ - عزيز؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ [يس: ٥٥].

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ﴾.

إنه - سبحانه - يُنْهَلْ ولكنّه لا يُهْمَلْ؛ فإذا أَخَذَ قَبْطُشُهُ شَدِيدٌ، قال تعالى: ﴿إِنْ يَبْشُرَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]... فإذا أَخَذَ أَصْحَابُ الْكِبَائِرِ - حين يحل بهم الانتقام - في الجواب رُدُّوا في الهوان، ويقال لهم: ﴿لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾.

فإذا انفصل من الغيب حُكْمٌ فلا مَرَدَّ لتقديره..

ويقال للجناية سرية؛ فإذا أَمْسَكَ الْجَانِي عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يمض حكم السرية.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٠٩/٨)، والترمذي في (السنن ٢٣٠٤)، وابن ماجه في (السنن ٤١٧٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٤٤/١)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/٣٧٠)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٢٤٣/١٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٥٥) والهيثمي في (مجمع الزوائد ٢٩٠/١٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٢٢٢/٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤٤٣/٤)، وابن المبارك في (الزهد ٢)، والذهبي في (الطب النبوي)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ٤٣٥)، وابن حجر في (فتح الباري ٢٢٩/١١)، والمفتي الهندي في (كنز العمال ٦٤٤٤)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣٨٨/٦)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧٤/٣، ١٧٤/٨)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٦٦).

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

ذَكَرَ هذا من باب إملاء العُذْر، وإلزام الحجة، والقطع بالآلا ينفع - الآن - الجزع ولا يُسْمَعُ العُذْر، والملوك إذا أبرموا حُكْمًا، فلاستغاثه غير مؤثرة في الحاصل منهم، قال قائلهم:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب إليه بوجه - آخر الدهر - تُقْبِلُ
قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

يعني أنهم لو أنعموا النظر، وسلطوا على أحوالهم صائب الفكر لاستبصروا في الحال، ولانتفى عن قلوبهم الاستعجام والإشكال، ولكنهم استوطنوا مركب الكسل، وعرجوا في أوطان التغافل، فعودوا الجهل، وأيسوا من الاستبصار.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾.

ذُهِلُوا عن التحقيق فَطَوَّخُوا في أودية المغاليط، وَتَرَجَّمَتْ بهم الظنون الخاطئة، وَمَلَكَتْهُمْ كواذب التقديرات، فأخبر الله (الرسول) ^(١) عن أحوالهم؛ فمرة قابلوه بالتكذيب، ومرة رَمَوْهُ بالسَّحَرِ، ومرة عابوه بتعاطيه أفعال العادة بما عليه الناس من المآكل والمشارب، ومرة قَدَّحُوا فيه بما هو فيه من الفقر وقِلَّةِ ذات اليد... فأخبر الله عن تَشَتَّتِ أحوالهم، وَتَقَسَّمَ أفكارهم ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنبَتْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وذلك لتضاد مَنَاهِم وأهوائهم؛ إذ هم متشاكسون في السؤال والمراد، وتحصيل ذلك مُحَالٌ تقديره في الوجود. فَبَيَّنَ الله - سبحانه - أنه لو أُجْرِيَ حُكْمُهُ على وفق مرادهم لاختل أمر السموات والأرض، وَلَخَرَجَ عن حَدِّ الإحكام والإتقان.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا فَنَخْرِجُ بِكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾.

أي إِنَّكَ لا تُطالِبهم على تبليغ الرسالة بأجر، ولا بإعطاء عِوَضٍ حتى تكون بموضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة. أم لعلَّكَ تريد أن يَعْقِدُوا لَكَ الرياسة. ثم قال: والذي لَكَ من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن المآب يُغْنِيكَ عن التصدِّي لنيل ما يكون في حصوله منهم مطمع. وهذا كان سُنَّةُ الأنبياء والمرسلين؛ عملوا لله ولم يطلبوا أجراً من غير الله. والعلماء وَرَثَةُ الأنبياء فسبيلهم التوقي عن التَّدَنُّسِ

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الآية (٧٠) لم ترد.

بالأطماع، والأكل بالدين فإنه رياءٌ مُضِرٌّ بالإيمان؛ فإذا كان العملُ لله فلا أجرٌ مُنتَظَرٌ من الله، وهو موعودٌ من قِبَلِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْكَ لَدَعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

الصراطُ المستقيمُ شهودُ الربِّ بنعتِ الانفراد في جميع الأشياء، وفي الإيجاد، والاستسلام لقضايا الإلزام بمواطاة القلب من غير استكراه الحكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنُ﴾.

زاغوا عن الحجة المثلَى بقلوبهم فوقعوا في جحيم الفرقة، وستميل وتزل أقدامهم غداً عن الصراط، فيقعون في نار الحرقه؛ فهم ناكبون في دنياهم وعقباهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أخبر عن صادق علمه بهم، وذلك صادر عن سابق حُكمه فيهم، فقال: لو كشفنا عنهم في الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان في المال، ولقد علم أنهم سيكفرون، وحكم عليهم بأنهم يكفرون؛ إذ لا يجوز أن يكون حُكمه فيهم بخلاف علمه بهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَوُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾.

أذقناهم مقدمات العذاب دون شدايده... تنبيهاً لهم، فما انتبهوا وما انزجروا، ولو أنهم إذ رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهاال لأسرع الله زواله عنهم، ولكنهم أصرُّوا على باطلهم، ليَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً.

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّقْ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾.

لما أحللنا بهم أشدَّ العقوبات ضَعُفُوا عن تحملها، وأخذوا بغتة، ولم ينفعهم ما قدَّموا من الابتهاال، فَيَسُّوا عن الإجابة، وعزَّجوا في أوطان القنوط.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ذكر عظيم مِنِّهِ عليهم بأن خلقَ لهم هذه الأعضاء، وطالبهم بالشكر عليها. وشكَّروهم عليها استعمالها في طاعته؛ فشكَّر السَّمْعُ ألا تسمع إلا بالله والله، وشكَّر البَصَرُ ألا تنظر إلا بالله الله، وشكَّر القلب ألا تشهد غير الله، وألا تحبَّ به غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الابتداء للحادثات من الله بدءاً، والانتهاى إليه عوداً، والتوحيد ينتظم هذه المعاني؛ فتعرف أن الحادثات بالله ظهوراً، والله ملكاً، ومن الله ابتداءً، وإلى الله انتهاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يُخَيِّي لِنَفُوسٍ وَيُؤَمِّتُهَا وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ مَعْلُومٌ، وكذلك يحيي القلوب ويميتها؛ فموت القلب بالكُفْرِ والجُحْد، وحياء القلب بالإيمان والتوحيد، وكما أن القلوب حياة وموتاً فكذلك للأوقات موت وحياء، فحياة الأوقات بيؤمن إقباله، وموت الأوقات بمحنة إعراضه، وفي معناه أنشدوا:

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت
قوله: ﴿وَلَهُ أُخْتَلِفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾؛ فليس كل اختلافها في ضيائها وظلمتها، وطولها وقصرها، بل ليالي المحبين تختلف في الطول والقصر، وفي الروح والنوح؛ فمن الليالي ما هو أضوأ من اللآلي، ومن النهار ما هو أشد من الحنادس، يقول قائلهم: ليالي بعد الظاعنين شكول.
ويقول قائلهم:

وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقريب من هذا المعنى قالوا:
ليالي وصال قد مضين كأنها لآلي عقود في نحور الكواعب^(١)
وأيام هجر أعقبتها كأنها بياض مشيب في سواد الذوائب
قوله جل ذكره: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.
سلكوا في التكذيب مسلك سلفهم، وأسرفوا في العناد مثل سرفهم، فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتلفهم.
قوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ لما طال عليهم وقت الحشر، وما توعدهم به من العذاب بعد البعث والنشور زاد ذلك في ارتيابهم، وجعلوا ذلك حجة في لبسهم واضطرابهم، فقالوا: لقد وُعِدْنَا مثل هذا نحن وآباؤنا، ثم لم يكن لذلك تحقيق، فما نحن إلا أمثالهم. فاحتج الله عليهم في جواز الحشر بما أقروا به من ابتداء الخلق:

فقال جل ذكره: ﴿قُلْ لَيِّنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ قُلْ مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾.

(١) نحور. (ج) نحر: أعلى الصدر، وموضع القلادة منه.

الكواعب: (ج) الكاعب: كعبت الفتاة: نهدي ثديها.

أمره - عليه السلام - أَنْ يُلَوَّنَ عليهم الأسئلة، وَعَقَّبَ كُلَّ واحدٍ من ذلك - مُخْبِراً عنهم - أَنَّهُمْ سيقولون: لله، ثم لم يَكْتَفِ منهم بقاتلهم تلك، بل عاتبهم على تجرُّد قولهم عن التَّدَكُّر والفَهْم والعلم، تنبيهاً على أن القول - وإن كان في نفسه صدقاً - فلم تكن فيه غنية؛ إذ لم يصدر عن علمٍ ويقينٍ.

ثم نَبَّهَهُمْ على كمالِ قدرته، وأنَّ القدرة القديمة إذا تعلَّقت بمقدورٍ له ضِدٌّ تعلَّقت بضدِّه، ويتعلَّق بمثل متعلقه.

والعَجَبُ من اعترافهم بكمال أوصاف جلاله، ثم تجويزهم عبادة الأصنام التي هي جمادات لا تحيا، ولا تضر ولا تنفع.

ويقال أولاً قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فَقَدَّمَ التَّذَكُّرَ على التقوى؛ لأنهم بتذكركهم يَصَلُّون إلى المغفرة، ثم بعد أن يعرفوه فإنهم يجب عليهم اتقاء مخالفته. ثم بعد ذلك: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾؛ أي بعد وضوح الحجة فأَيُّ شَكٍّ بَقِيَ حتى تنسبوه إلى السَّحَرِ؟

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ أَنشَأْنَاهُم بِالْحَقِّ وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّهُمْ أَصْرُوا على جحودهم، وأقاموا على عُتُوِّهم ونُبُوِّهم، وبعد أن أزيحت العلل فلات حين عذر. وليس لتجويز السَّاهِلَةِ موجبٌ بتأ.

قوله جل ذكره: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ﴾.

اتخاذ الأولاد لا يصحُّ كاتخاذ الشريك، والأمران جميعاً داخلان في حد الاستحالة، لأن الولد أو الشريك يوجب المساواة في القَدْرِ، والصمدية تتقدَّس عن جواز أن يكون له مثلٌ أو جنس.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كُلُّ أمرٍ نَيْطٌ^(١) باثنين فقد انتفى عنه النظام وصحة الترتيب، وأدلة التمانع المذكورة في مسائل الأصول.

﴿سُبْحَنَ اللَّهُ﴾ تقدسياً له، وتنزيهاً عما وصفوه به. ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: تَنْزَعٌ عن أوهام من أشرك، وظنون من أفك.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا رَبِّي مَا يُوعَدُونَ﴾.

يقول إن عجلت لهم ما تنوعدهم به فلا تجعلني في جملتهم، ولا توصل إليَّ

(١) نيط عليه الشيء: عهد به إليه.

سوءاً مثلما توصل إليهم من عقوبتهم. وفي هذا دليلٌ على أنَّ للحقَّ أن يفعلَ ما يريد، ولو عذَّبَ البريء لم يكن ذلك منه ظلماً ولا قبيحاً^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَأِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾.

تدل على صحة قدرته على خلاف ما عليم؛ فإنه أخبر أنه قادر على تعجيل عقوبتهم ثم لم يفعل ذلك، فَصَحَّحتُ القدرةُ على خلاف المعلوم.

قوله جل ذكره: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي مِنِّي أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

الهمزة في ﴿أحسن﴾ يجوز ألا تكون للمبالغة؛ ويكون المعنى ادفع بالحسن السيئة. أو أن تكون للمبالغة؛ فتكون المكافأة جائرة والعفو عنها - في الحُسن - أشدَّ مبالغة.

ويقال ادفع الجفاء بالوفاء، وجُزِمَ أهل العصيان بحكم الإحسان.

ويقال ادفع ما هو حظك إذا حصل ما هو حق له.

ويقال اسلك مسلك الكرم، ولا تنجح إلى طريق المكافأة.

ويقال الأحسن ما أشار إليه القلب، والسيئة ما تدعو إليه النفس.

ويقال الأحسن ما كان بإشارة الحقيقة، والسيئة ما كان بوساوس الشيطان.

ويقال الأحسن نور الحقائق، والسيئة ظلمة الخلائق.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونِ﴾.

الاستعاذة - على الحقيقة - تكون بالله من الله كما قال ﷺ: «أعوذ بك منك»^(٢)، ولكنه - سبحانه - أراد أن نَعْبُدَهُ بالاستعاذة به من الشيطان، بل مِنْ كُلِّ ما هو مُسَلِّطٌ علينا، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بجري العادة. وإلا... فلو كان بالشيطان من إغواء الخلق شيء لكان يُمَسِّكُ على الهداية نفسه! فَمَنْ عَجَزَ عن أن يحفظ نفسه كان عن إغواء غيره أشدَّ عجزاً، وأنشدوا:

جحودي فيك تلبيس وعقلي فيك تهويس
فَمَنْ أَدَمَ إِلَّاكَ ومن في (...)^(٣) إبليس

(١) الآية (٩٤) لم ترد.

(٢) أخرجه مسلم (صلاة ٢٢٢)، وأبو داود (صلاة ١٤٨)، (وتر، ٥)، والترمذي (دعوات ١١٢) والنسائي (طهارة ١١٩)، (سهو ٨٩)، وابن ماجه (دعاء ٣)، وأحمد بن حنبل ١، ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦، ٥٨، ٢٠١.

(٣) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

إذا أخذ البلاء بخناقهم، واستمكن الضر من أحوالهم، وعلموا ألا محيص ولا محيّد أخذوا في التضرّع والاستكانة، ودون ما يرومون خرط القتاد! ويقال لهم هلا كان عشرُ عشرٍ هذا قبل هذا؟ ولقد قيل:

قلتُ للنفس: إن أردت رجوعاً فارجعي قبل أن يسدَّ الطريق

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾.

يومئذ لا تنفع الأنساب وتنقطع الأسباب، ولا ينفع الندم، وسيلقى كلُّ غيب ما اجترم؛ فَمَنْ ثَقُلَتْ بِالْخَيْرَاتِ موازينه لآخ عليه تزيينه. ومن ظهر ما يشينه فله من البلاء فنونه؛ تلفح وجوههم النار، وتلمح من شواهدهم الآثار، ويتوجه عليهم الحجاج، فلا جواب لهم يُسمع، ولا عُذر منهم يُقبل، ولا عذاب عنهم يُرفع، ولا عقاب عنهم يُقطع^(١).

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾.

نطقوا بالحق... ولكن في يوم لا ينفع فيه الإقرار، ولا يُقبل الاعتذار، ثم يقولون:

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾.

والحق يقول: لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه. عِلْمٌ أَنَّ رَدَّهُمْ إِلَى الدُّنْيَا لا يكون، ولكنه عِلْمٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

عند ذلك يتم عليهم البلاء، ويشتدُّ عليهم العناء، لأنهم ما داموا يذكرون الله لم يحصل الفراق بالكلية، فإذا جيل بينهم وبين ذكره تتم لهم المحنة، وهو أحد ما قيل في قوله: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وفي الخبر: «أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواءٌ كعواء الذئب». وبعض الناس تغار من أحوالهم؛ لأن الحق يقول لهم: ﴿أَخْسِرُوا فِيهَا﴾، فيقولون: يا ليتنا يقول لنا! أليس هو يخاطبنا بذلك؟! وهؤلاء يقولون: قدحُ الأحباب اللذ من مذح الأجانب، وينشدون في هذا المعنى:

أتاني عنك سبُّك لي.. فسبِّي أليس جرى بفيك اسمي؟ فحسبي

(١) الآيات من (١٠٢ حتى ١٠٥) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتَهُمْ سَخِرًا حَتَّىٰ آنَسُوهُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

الحق - سبحانه - ينتقم من أعدائه بما يطيّب به قلوب أوليائه، وتلك خصومة الحق، فيقول: قد كان قوم من أوليائي يُفصّحون بمدحي وثنائي، ويتصفون بمدحي وإطرائي، فاتخذتهم سخرًا... فأنا اليوم أجازيهم، وأنتقم ممن كان يناوهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنُكَ الْعَادِينَ قُلْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

عددُ سنين الأشياء - وإن كانت كثيرة - فقد تقصر أو تقل بالإضافة إلى ما يوفي ويُرَبِّي عليها، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض؛ إن كانوا في الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحة التي يلقونها في القيامة، وإن كانت شدايد فتتلاشى في جنب ما يرونها ذلك اليوم من أليم تلك العقوبات المتوالية.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

العبثُ اللهو، واللَّعبُ والاشتغال بما يُلهي عن الحق، والله لم يأمر العباد بذلك، ولم يدعهم إلى ذلك، ولم يندبهم إليه.

والعابثُ في فعله مَنْ فعله على غير حد الاستقامة، ويكون هازلًا مُسْتَجْلِبًا بفعله أحكامَ الله إلى نفسه، متماديًا في سهوه، مستلذذُ التفرقة في قصده. وكلُّ هذا من صفات ذوي البشرية، والحق - سبحانه - مُنْزَعُ النَّعْتِ عن هذه الجملة، فلا هو يفعل شيء عابث، ولا بشيء من العبث أمر.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

الحق - بنعوت جلاله - متوحد، وفي عزٍّ أزاله وعلوٍّ أوصافه متفرد، فذاته حق، وصفاته حق، وقوله صدق، ولا يتوجّه لمخلوق عليه حق، وما يفعله من إحسان بعباده فليس شيء منها بمستحق.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾: ما تَجَمَّلَ بالعرش، ولكن تَعَزَّزَ العرشُ بآئه أضافه إلى نفسه إضافة خصوصية.

والكريمُ الحسن، والكرمُ نفْيُ الدناءة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

حسابه على الله في آجله. وعذابه من الله له في عاجله، وهو الجهل الذي أودع

قلبه حتى رَضِيَ بِأَن يَغْبُدَ معه غيره. وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] كلامٌ حاصلٌ من غير دليل عقل، ولا شهادة خبرٍ أو نقل، فما هو إلا إفك وبهتان، وقولٌ ليس يساعده برهان.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

اغفر الذنوب، واستر العيوب، وأجزل الموهوب. وارحم حتى لا تستولي علينا هواجسُ التفرقة ونوازل الخطوب. والرحمةُ المطلوبةُ بالدعاء من صنوف النعمة، ويسمى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز.

السورة التي يذكر فيها النور

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم نذيرُ الوفاةِ فُرْقَتُهُ، اسم بشيرُ الحياة وصلته، اسم سببُ الرُّوح عرفائه، اسم راحةُ الرُّوح إحسانه، اسم كمالُ الأُنسِ إقباله، اسم فتنةُ قلوبِ المُهَيِّمين جماله، اسم مَنْ شَهِدَهُ دامت سلامته، اسم مَنْ وَجَدَهُ قامت قيامته، اسم لا إليه حظوة، ولا بدونه سلوة.

قوله جل ذكره: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور: ١].

سورة هي شَرَفٌ لك - يا محمد - أنزلناها لأن أقلَّ ما ورد به التحدي سورة؛ فكلُّ سورةٍ شَرَفٌ له عليه السلام لأنها له معجزة، بيّناها وشرعنا فيها من الحلال والحرام، وبيّنا فيها من الأحكام لكم به اهتداء، وللقلوب من غمرة الاستعجام شفاء. أنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ، ودلائلَ واضحاتٍ، وحُجَجاً لاثحاتٍ؛ لتذكروا تلك الآيات، وتعتبروا بما فيها من البراهين والبيّنات.

قوله جل ذكره: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة، ولكن جعل إثبات أمره وتقرير حُكْمِهِ والقطع بكونه على أكثر الناس خصلةً عسيرةً بعيدة؛ إذ لا تُقْبَلُ الشهادةُ عليه حتى يقول: رأيتُ ذلك منه في ذلك منها! وذلك أمرٌ ليس بالهين، فسبحان مَنْ أَعْظَمَ العقوبةَ على تلك الفَعْلَةِ الفحشاء، ثم جعل الأمر في إثباتها بغايه الكدِّ والعناء! وحين اعترف واحدٌ له بذلك قال له ﷺ: «لَعَلَّكَ قَبِلْتَ... لَعَلَّكَ لَامَسْتَ» وقال لبعض أصحابه: «استكبهوه»^(١) وكلُّ ذلك رَوْماً لِدَرْءِ الحدِّ عنه، إلى أن ألْحَ وأصرَّ على الاعتراف.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ما يأمر به الحقُّ فالواجب مقابلته بالسمع والطوع.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٣٨ - ٢٧٠ - ٢٨٩)، والحاكم في (المستدرک ٤/ ٣٦١)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/ ٣٣٨)، والدارقطني في (السنن ٣/ ١٢١)، والقرطبي في (التفسير ١٩/ ١٠٥).

والرحمة من موجب الشرع وهو المحمود، فأما ما يقتضيه الطَّبْعُ والعادة والسوء فمذمومٌ غيرُ محمود. ونهى عن الرحمة على من خَرَقَ الشرعَ، وَتَرَكَ الأمرَ، وأساء الأدبَ، وانتصبَ في مواطنِ المخالفة.

ويقال نهانا عن الرحمة بهم، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم - بتلك الفعلة الفحشاء - رقم الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(١) ولولا رحمته لما استبقى عليه حُلَّةُ إيمانه مع قبيح جُزْمِهِ وعصيانهِ.
قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي لِيَكُونَ عليهم أشدُّ، وليكون تخويفاً لمتعاطي ذلك الفعل، ثم من حقِّ الذين يشهدون ذلك الموضع أن يتذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم أنهم لم يفعلوا مثله، وكيف عَصَمَهُم من ذلك. وإن جرى منهم شيءٌ من ذلك يذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم؛ كيف سَتَرَ عليهم ولم يفضحهم، ولم يُقْمِمْهم في الموضع الذي أقام فيه هذا المُبْتَلَى به. وسبيلٌ من يشهد ذلك الموضع ألا يُعَيَّرَ صاحبه بذلك، وألا ينسى حُكْمَ الله تعالى في إقدامه على جُزْمِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكُحُوا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكُحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الناسُ أشْكَالٌ؛ فكلُّ نظيرٍ مع شكله، وكلُّ يساكين شكله، وأنشدوا:

عن المرء لا تسأل وسلَّ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمُقَارَنِ يقتدي

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/١٧٨، ٧/١٣٦، ٨/١٩٥ - ١٩٧)، ومسلم في (الصحيح الإيمان ب ٢٤ رقم ١٠٠ - ١٠٥)، وأبو داود في (السنن ٤٦٨٩)، والترمذي في (السنن ٢٦٢٥)، والنسائي في (السنن ٨/٦٤ - ٦٥، ٣١٣)، وابن ماجه في (السنن ٣٩٣٦)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٧٦، ٣/٣٤٦، ٦/١٣٩)، وعبد الرزاق في (المصنف ٣٦٨٨) والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ١٨٦)، والدارمي في (السنن ٢/١١٥)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١/١٠٠ - ١٠١، ١٥٢، ٧/ ٢٩٥)، وابن أبي شعبة في (المصنف ٤/٤٠٤ - ٤٠٥، ٨/٦ - ٩، ١١، ١٤، ٣٢، ٣٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/٢٤٤، ١٢/٣٤٦)، وابن عبد البر في (التمهيد ٤/٢٣٦، ٩/ ٢٤٣ - ٢٥٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/٢٥٤، ٨/٥١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٣٠٩ - ١٣١٠، ١٣١١ - ١٣٢٥، ١٣٢٦ - ١٧٣٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ١١٩، ١٢/٨١ - ١١٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/٢٤٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٣/١٦٤ - ٣٢٢، ٣٦٩ - ٢٥٦، ٨/١١٧ - ٢٥٧) والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٣)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/٢٤٧)، والآجري في (الشرعية ١١٣)، وابن أبي شعبة في (الإيمان ٣٩ - ٤٠)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٢/١٤٢، ٥/٢٢٣، ١١٨، ١٠/٤٥٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١/٢٩٨، ٢/٥٠٧ - ٥٤٢، ٦٢٧ - ٦٣١، ٥/١٨٧، ٦/٢٢٠٥، ٧/٢٧٠٧).

فأهل الفساد الفساد يجمعهم - وإن تباعد مزارهم وأهل السداد السداد يجمعهم - وإن تناءت ديارهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

لثلاثا يستبيحوا أعراض المسلمين، ولثلاثا يهتكوا أستار الناس أمر بتأديبهم، وإقامة الحد عليهم إذا لم يأتوا بالشهداء .

ثم بالغ في عدد الشهود، وألا تقبل تلك الشهادة إلا بالتضرع التام، ثم أكمله بقوله ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ . وفي الخبر المسند قوله عليه السلام: «مَنْ أَتَى مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقَاذورات فليستتر بستر الله، فَإِنَّ مَنْ أَبَدَى لَنَا صَفْحَتَهُ، أَقْمْنَا عَلَيْهِ حَدَّ اللَّهِ»^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

جعل من شرط قبول شهادته صحة توبته، وجعل علامة صحة توبته إصلاحه، فقال: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾، وهو أن تأتي على توبته مدة تنتشر فيها بالصلاح صفته، كما اشتهرت بهتك أعراض المسلمين قائلته... كل هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .

لما ضاق الأمر على من رأى أهله على فاحشة، إذ أن في ذلك قبول نسب غير صحيح - فقد نهى الشرع عن استلحاقه ولداً من غيره . وكان أمراً محظوراً هتك عرض المرأة والشهادة عليها بالفحشاء، إذ يجوز أن يكون الأمر في المغييب؛ أي بخلاف ما يدعيه الزوج . ولأن ذلك أمر ذو خطر شرع الله حُكْمَ اللعان^(٢) ليكون للخصومة

(١) للحديث روايات أخرى: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله...» أخرجه الموطأ (حدود ١٢) .

ورواية تقول: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها» أخرجه الطحاوي في (مشكل الآثار ٢٠/١) .
(٢) اللعان: لاعن امرأته في الحكم ملاعنة ولعان، ولاعن الحاكم بينهما لعاناً: حكم، والملاعنة بين الزوجين إذا قذف الرجل امرأته أو رماها برجل أنه زنى بها، فالإمام يلاعن بينهما ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول: أشهد بالله أنها زنت بفلان، وإنه لصادق فيما رماها به، فإذا قال ذلك أربع مرات قال في الخامسة: وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين فيما رماها به، ثم تقام المرأة فتقول أيضاً أربع مرات: أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا، ثم تقول في الخامسة: وعلي غضب الله إن كان من الصادقين، فإذا فرغت من ذلك بانت منه ولم تحل له أبداً، وإن كانت حالاً فجاءت بولد=

قاطعاً، وللمُقَدِّم على الفاحشة زاجراً، ففي مثل هذه الأحوال عنها خَرْجَةٌ. ولولا أن الله على كل شيء قدير وإلا ففي عادة الناس... مَنْ الذي يهتدي لِمَثَلِ هذا الحكم لولا تعريف سماوي وأمر نبوي، من الوحي مُتْلَقاً، ومن اللّهِ مُبْتَدَأُ وإليه مُنْتَهَا^(١)؟ قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

لَبَقِيتُمْ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الْمُعْضَلَةَ، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشككة. قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هذه قصة عائشة رضي الله عنها، وما كان من حديث الإفك. بَيَّنَّ اللَّهُ - سبحانه - أنه لا يُخْلِي أحداً من المحنة والبلاء، في المحبة والولاء؛ فالامتحان من أقوى أركانها وأعظم برهانه وأصدق بيانه، كذلك قال ﷺ «يُمْتَحَنُ الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ»، وقال: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا مِثْلَ». ويقال إن الله - سبحانه - غَيُورٌ على قلوب خواص عباده، فإذا حصلت مساكنة بعض إلى بعض يُجْرِي الله ما يَرُدُّ كُلَّ واحدٍ منهم عن صاحبه، ويردّه إلى نفسه، وأنشدوا:

إذا عَلِقَتْ رُوحِي بِشَيْءٍ، تَعَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الْأَيَّامِ كَيْ تَسْلُبُنِيَا
وإن النبي - ﷺ - لَمَّا قِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قال: «عائشة»^(٢) فساكنها.

وفي بعض الأخبار أن عائشة قالت: «يا رسول الله إني أحبك وأحب قريبي»...

= فهو ولدها ولا يلحق بالزوج، لأن السنة نفتته عنه سمي ذلك كله لعاناً لقول الزوج: عليه لعنة الله إن كان من الكاذبين، وقول المرأة: عليها غضب الله إن كان من الصادقين. (لسان العرب ١٣/٣٨٨ مادة: لعن).

- (١) الآيات (٧، ٨، ٩) لم ترد.
- (٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٦/٥ - ٢٠٩)، ومسلم (فضائل الصحابة ٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/٢٠٣)، والبيهقي في (الأسماء الصفات ٦/٣٧٠، ٧/٢٩٩، ١٠/٢٣٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٦٠١٤)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ١/٣، ١٢٥، ٤٦/٨) والهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/٤٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٢٢٨)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/٥٧٧، ٥٧٨)، والبخاري في (التاريخ الصغير ٢/١٢٤)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/١٨)، ٨/٧٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٦٣٩، ٣٥٦٤٠، ٣٥٦٥١، ٣٥٦٦٢ - ٣٥٦٨٧ - ٣٦٤٤٦)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٦/٢٤)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/٩٤ - ١٣٢) وابن كثير في (البداية والنهاية ٣/٢٣١، ٥/٢١٩). والقرطبي في (التفسير ١٤/٢١٨)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٢٦٥١ - ٢٦٦٦).

فأجرى الله حديث الإفك حتى ردَّ قلبَ رسولِ الله - ﷺ - عنها إلى الله، وردَّ قلب عائشة عنه إلى الله؛ حيث قال - لما ظَهَرَتْ براءةُ ساحتها: بحمدِ الله لا بحمدك كشف الله عنها به تلك المحنة، وأزال الشكَّ، وأظهر صِدْقَها وبراءةَ ساحتها.

ويقال إن النبي ﷺ قال: «اتقوا فِرَاسَةَ المؤمنِ فإنَّ المؤمنَ ينظر بنور الله»، فإذا كانت الفِرَاسَةُ صفةَ المؤمنِ فأولى الناس بالفِرَاسَةِ كان رسولُ الله ﷺ، ثم لم تظهر له بحكم الفِرَاسَةِ براءةُ ساحتها، حتى كان يقول: «إِنْ فَعَلْتِ فتوبي».

والسبب فيه أنه في أوقات البلاء يَسُدُّ اللهُ على أوليائه عيونَ الفِرَاسَةِ إكمالاً للبلاء. وكذلك إبراهيم - عليه السلام - لم يميِّز ولم يعرف الملائكة حيث قَدَّمَ إليهم العِجْلَ الحنيد^(١)، وتوهمهم أضيافاً. ولوط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه أنهم ملائكة.

ويقال إنه كان - ﷺ - يقول لعائشة: «يا حُمَيْرَاءُ»^(٢).

فلما كان زمان الإفك، وأرسلها إلى بيت أبيها، واستوحش الأبوان معها، ومَرَضَتْ عائشة - رضي الله عنها - من الحزن والوجد، كان رسول الله - ﷺ - إذا رأى واحداً من دار أبي بكر يقول:

«كيف بيتكم؟ لا عائشة ولا حميراء فما كان يطيب بالتغافل عنها، فتعبيره - إن لم يُفْهَمْ بالتصريح - فيُفْهَقُ بالتلويح.

ثم إنه - سبحانه - قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾: فبمقدار جُرْمِهِمْ احتمل كل واحد ما يخصه من الوزر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض وبَسْطِ ألسنتهم بالسوء عنها، وتركهم الإعراض عن حُرْمِ النبي ﷺ. ثم قال: وهلاً جاءوا على ما قالوا بالشهداء؟ وإذا لم يجدوا ذلك فهُلَّا سكتوا عن بَسْطِ اللسان^(٣)؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَكُتُ فِي مَا أَفْضَرْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) العجل الحنيد: المحنود المهيوي، وقيل: هو الذي يقطر ماؤه وقد شوي. (لسان العرب ٣/٤٨٤ مادة: حنذ).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/٣٥٥)، وابن حبان في (المجروحين ١/٣٥٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٣٨٩).

(٣) الآية (١٣) لم ترد.

لأنه أخبر أن جُزْمَهُم - وإن كان عظيماً - فإنه في عِلْمِ اللَّهِ عنهم غير مؤثر، ولولا أن الله - سبحانه - ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلعله لم يذكر هذه المبالغة في أمرهم؛ فإن الذي يقوله الأجانب والكفار في وصف الحق - سبحانه - بما يستحيل وجوده وكونه يوفي ويُزِي على كل سوء - ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم، ولا يمنع عنهم أرفاقهم، ولكن ما تتعلق به حقوق أوليائه - لا سيما حق الرسول ﷺ - فذاك عظيم عند الله .

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ .

بالغ في الشكاية منهم لما أقدموا عليه بما تأذى به قلب الرسول - ﷺ - وقلوب جميع المخلصين من المسلمين .

ثم قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾: وسبيل المؤمن ألا يستصغر في الوفاق طاعة، ولا يستصغر في الخلاف زلة، فإن تعظيم الأمر تعظيم للأمر. وأهل التحقيق لا ينظرون ما ذلك الفعل ولكن ينظرون من الأمر به .

ويقال: يسير الزلة - يلاحظها العبد بعين الاستحقار - فتخط كثيراً من الأحوال، وتكدر كثيراً من صافي المشارب .

واليسير من الطاعة - ربما يستقلها العبد - ثم فيها نجاته ونجاة عالم معه .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ .

استماع الغيبة نوع من الغيبة، بل مستمع الغيبة شر المغتابين؛ إذ بسماعه يتيم قَصْدُ صاحبه . وإذا سمع المؤمن ما هو سوء قاله في المسلمين - مما لا صحة له في التحقيق - فالواجب الرد على قائله، ولا يكفي في ذلك السكوت دون النكير، ويجب رد قائله بأحسن نصيحة، وأدق موعظة، ونوع تشاغل عن إظهار المشاركة له فيما يستطيع من نشره من اخجال لقائله موحش، فإن أبى إلا انهماكاً فيما يقول فيرد عليه بما أمكن؛ لأنه إن لم يستح قائله من قوله فلا ينبغي أن يستحي المستمع من الرد عليه .

قوله جل ذكره: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

يتعلق هذا بأن من بسط لسانه في عائشة - رضي الله عنها - بعد ذلك لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية، ولعمري قائل ذلك مرتكب كبيرة ولكن لا يخرج عن الإيمان بذلك؛ أي ينبغي للمؤمن ألا يتكلم في هذا، وهذا كما يقول القائل: «إذا كنت أخي

فواسيني عند شدتي؛ فإن لم تواسيني لم تخرج عن الأخوة بذلك». . . ومعنى هذا القول أنه ينبغي للأخ أن يواسي أخاه في حال عثرته، وترك ذلك لا يبطّل النسب^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هؤلاء في استحقاق الذم أقبح منزلة، وأشدّ وزراً حيث أحبوا افتضاح المسلمين، ومن أركان الدين مظاهره المسلمين، وإعانة أولي الدين، وإرادة الخير لكافة المؤمنين. والذي يودّ فتنه للمسلمين فهو شرّ الخلق، واللّه لا يرضى منه بحاله، ولا يؤهله لمنال خلاصة التوحيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوْفٌ رَحِيمٌ﴾.

كرّر قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ ليبين للجميع أنّ حسن الدفع عنهم كان بفضل رحمة وجميل المنح لهم، وكلّ يشهد حسن المنح ويشكر عليه، وعزيز عبد يشهد حسن الدفع عنه فيحمده على ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

إذا تنقّى القلب عن الوسوس، وصفا عن الهواجس بدت فيه أنوار الخواطر، فإذا سما وقت العبد عن ذلك سقطت الخواطر، وبدت فيه أحاديث الحق - سبحانه - كما قال في الخبر: «لقد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي فعمّر». وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تعريفاً يبقى مع العبد، ولا يكون فيه احتمال ولا إشكال ولا إزعاج، وصاحبه يجب أن يكون أميناً، غير مظهر لیسر ما كوشف به.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ردّهم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما من الحق في قصمي النفع والدفع، وحالتي العسر واليسر، والزكي من الله، والتعوى من الله، والآلاء من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَقَمَّرٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولَ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾.

تحرك في أبي بكر عرق من البشرية في وصف الانتقام من مسطح^(٢) حين شرع

(١) الآية (١٨) لم ترد.

(٢) هو مسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف (٢٢٢ ق هـ - ٣٤ هـ = ٦٠١ - ٦٥٤ م) من =

وَحَاضٌ فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ، وَكَانَ فِي رَفْقِ أَبِي بَكْرٍ فَقَطَّعَ عَنْهُ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولَ - ﷺ - وَانْتَظَرَ الْأَمْرَ مِنَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ فلم يَرْضَ مِنَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ فِيهِ عِزُّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ النَّفْسِيَّةِ وَالْمَطَالِبَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، فَأَعَادَ أَبُو بَكْرٍ لَهْ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ فِي مَاضِي أَيَّامِهِ. وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمُحْسِنِ مَكَاافَاةٌ، وَإِلَى مَنْ لَا يَسِيءُ وَلَا يَحْسُنُ فَضْلٌ، وَإِلَى الْجَانِي قُتُوَّةٌ وَكَرَمٌ، وَفِي سَعْنَاهُ أَنْشَدُوا:

وما رضوا بالعفو عن كل زلة حتى أنالوا كفه وأفادوا
قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾: العفو والصفح بمعنى، فكررهما تأكيداً.

ويقال العفو في الأفعال، والصفح في جنيات القلوب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هذا من كمال تلطفه - سبحانه. وفي الخبر: أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر - رضي الله عنه: «لي، أحب يا رب»، وعفا عن مسطح. وإن الله يغادر في قلوب أوليائه كراهة من غيرهم، وأتى بالكراهة مِنَ الْخَلْقِ وَالْمَتَفَرُّدُ بِالْإِيجَادِ لِلَّهِ؟! وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ رَامٍ لِي بِأَحْجَارِ الْأَذَى لَمْ أَجْذُبْهَا مِنَ الْعُطْفِ عَلَيْهِ
فَعَسَى أَنْ يَطْلُعَ اللَّئِيُّ عَلَى قَدْحِ الْقَوْمِ فَيَذْنِبُنِي إِلَيْهِ
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَأُنِئُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

بالغ في توعده لهم حيث ذكر لفظ اللعنة في شأنهم.

وَوَصَفَ الْمُحْصَنَاتِ بِالْغَفْلَةِ: أَيِ بِالْغَفْلَةِ عَمَّا يُتَسَبَّنَ إِلَيْهِ؛ فَلَيْسَ الْوَصْفُ عَلَى جِهَةِ الذَّمِّ، وَلَكِنْ لِبَيَانِ تَبَاعُدِهِنَّ عَمَّا قِيلَ فِيهِنَّ.

وَاسْتَحْقَاقُ الْقَذْفَةِ لِلْعُنَّةِ - فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَشَوْمُ زَلَّتْهُمْ تَغْيِيرُ عَوَاقِبِهِمْ، فَيُخْرِجُونَهُ مِنَ الدُّنْيَا لَا عَلَى الْإِسْلَامِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

= قرش، أبو عباد، صحابي من الشجعان الأشراف. كان اسمه عوفاً ولقب بمسطح فغلب عليه أمه بنت خالة أبي بكر، وكان أبو بكر يموته لقرايته منه، فلما كان حديث أهل الإفك في أمر عائشة جلده النبي ﷺ مع من خاضوا فيه، وحلف أبو بكر أن لا ينطق عليه. فنزلت الآية ﴿ولا يأتل...﴾ فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه، وأطعمه رسول الله ﷺ بخير خمسين وسقاً، وهو ممن شهد معه بدرًا وأحداً والمشاهد كلها.

الأعلام ٧/٢١٥، والإصابة ت ٧٩٣٧، وأسد الغابة ٤/٣٥٤، ونسب قرش ٩٥.

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم، فالعين كما تشهد: أنه نَظَرَ بي، تشهد بأنه بكى بي.. وكذلك سائر الأعضاء.

ويقال شهادة الأعضاء في القيامة مُؤَجَّلَةٌ، وشهادتها في المحبة اليوم مُعَجَّلَةٌ؛ من صُفْرَةِ الوجه إذا بدا المحبوب، وشحوب اللون، ونحافة الجسم، وانسكاب الدموع، وخفقان القلب، وغير ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِيْنَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

يجازيهم على قَدَرِ استحقاقهم؛ للعابدين بالجنان والمثوبة على توفية أعمالهم، وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفية أحوالهم؛ فهؤلاء لهم علو الدرجات، وهؤلاء لهم الأنس بعزیز المشاهدات ودوام المناجاة.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾: فتصير المعرفة ضرورية؛ فيجدون المعافاة من النَّظَرِ وتذكُّره، ويستريح القلب من وَضْفِي تَرَدُّدِهِ وَتَغْيِيرِهِ: لاستغنائه ببصائره عن تَبْصُرِهِ.

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحق؛ فهم قائمون بالحق للحق مع الحق، يبين لهم أسرار التوحيد وحقائقه، ويكون القائم عنهم، والآخذ لهم منهم من غير أن يُرَدَّهم إليهم.

قوله جل ذكره: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾.

﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأعمال وهي المحظورات ﴿الْخَبِيثِينَ﴾: من الرجال المؤثرين لها طوعاً، والذين يجنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها، كلٌ مربوط بما يليق به؛ فالفِعْلُ لائقُ بفاعله، والفاعلُ بِفِعْلِهِ في الطهارة والقُدَّارة، والنفاسة والخساسة، والشرف والسرف.

ويقال: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأحوال؛ وهي الحظوظ والمُنَى والشهوات لأصحابها والساعين لها. والساعون لمثلها لها، غيرَ ممنوعٍ أحدهما من صاحبه، فالصفة للموصوف ملازمة، والموصوفُ لِصِفَتِهِ ملازم.

ويقال: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأشياء للخبيثين من الأشخاص، وهم الراضون بالمنازل السحيقة... وإنَّ طعامَ الكلابِ الجِيفُ.

ويقال ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأموال - وهي التي ليست بحلال - لمن بها رتبته، وعليها تعتكف همته؛ فالخبيثون من الرجال لا يميلون إلا لمثل تلك الأموال، وتلك الأموال لا تساعد إلا مثل أولئك الرجال.

قوله جل ذكره: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ .

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ : من الأعمال هي الطاعات والقرب للطيبيين، والطيبيون هم المؤثرون لها والساعون في تحصيلها.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ : من الأحوال - وهي تحقيق المواصلات بما هو حق الحق، مُجَرِّدًا عن الحظوظ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال، وهم الذين سَمَتْ هِمَّتُهُمْ عَنْ كُلِّ مُبْتَدِّلٍ خَسِيسٍ، ولهم نفوسٌ تسمو إلى المعالي، وهي التَّجَمُّلُ بالتذلل لِمَنْ لَهُ الْعِزَّةُ.

ويقال الطيبات من الأموال - وهي التي لا نكير للشرع عليها، ولا مِثَّةٌ لمخلوق فيها - للطيبيين من الرجال، وهم الأحرار الذين تَخَلَّصُوا مِنْ رِقِّ الْكُونِ.

ويقال ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من الأشخاص وهن المُبَرَّاتُ من وهج الخطر، المتنقيات عن سفاسف أخلاق البشرية، وعن التعرّيج في أوطان الشهوات - ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال الذين هم قائمون بحق الحق؛ لا يصحبون الخلق إلا للتعفّف، دون استجلاب الشهوات.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ .

لهم مغفرة في المال، ورزق كريم في الحال وهو ما ينالون من غير استشراف، ولا تطلب طمع، ولا ذلٌ مِثَّةٌ ولا تقديم تعب.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

الخواص لا يَرَوْنَ لأنفسهم ملَكاً يتفردون به؛ لا مِنْ الأموال المنقولة ولا من المساكن التي تصلح لأن تكون مدخولة، فَمَنْ فاتحهم بشيء منها فلا يكون منهم مَنَعٌ ولا رَجَزٌ، ولا حَجَبٌ لأحدٍ ولا حَظَرٌ.. هذا فيما نيط بهم. أمّا فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرّضون لمن هي في أيديهم؛ لا باستشراف طَمَعٍ، ولا بطريق سؤال، ولا على وجه انبساط. فإن كان حكم الوقت يقتضي شيئاً من ذلك فالحق يُلجئ مَنْ فِي يَدِهِ الشَّيْءُ لِيَحْمِلَهُ إِلَيْهِ بِحُكْمِ التَّوَاضُعِ والتَّقَرُّبِ، والولي يأخذ ذلك بنعت التعزُّز، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة، وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

وإني لأستحي من الله أن أرى أسيرَ بخيلٍ ليس منه بغيرُ

وأن أسألَ المرأةَ اللئيمَ بغيره وبعمران ربي في البلادِ كثيرُ

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ .

في هذا حفظُ أمرِ الله وحفظُ حُرْمَةِ صاحب الدار؛ لأنَّ مَنْ دَخَلَها بغيرِ إذنِ صاحبها ربما تكون فيها عورةٌ منكشفة، وربما يكون لصاحب الدار أمرٌ لا يريد أن يُطْلِعَ عليه غيره، فلا ينبغي أن يدخل عليه من غير استئذان.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اَرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

إن قيل لكم: ارجعوا... فارجعوا؛ فقد تكون الأعذار قائمة، وصاحب الملك يملكه أولى.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُثْنُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

رَفَعَ اللَّهُ الْجُنَاحَ وَالْحَرَجَ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِمَا لَا يُسْتَضَرُّ بِهِ صَاحِبُهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ؛ كَدُخُولِ أَرْضٍ لِلدَّخْلِ فِيهَا أَغْرَاضَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ - وَلَا يَجِدُ طَرِيقاً غَيْرَ ذَلِكَ - إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي دُخُولِهِ ضَرَرٌ عَلَى صَاحِبِهَا، وَجَرَى هَذَا مَجْرَى الْإِسْتِظْلَالِ بِظُلِّ حَائِطٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَاعِداً فِي مِلْكِهِ، وَكَالنَّظَرِ فِي الْمَرْأَةِ الْمَنْصُوبَةِ فِي جِدَارٍ غَيْرِهِ... وَكُلُّ هَذَا إِنَّمَا يُسْتَبَاحٌ بِالْشَّرْعِ دُونَ قَضِيَةِ الْعَقْلِ - عَلَى مَا تَوَهَّمَهُ قَوْمٌ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿يَغُضُّوا﴾: مِنْ أَبْصَارِ الظَّوَاهِرِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمِنْ أَبْصَارِ الْقُلُوبِ عَنِ الْفِكْرِ الرَّدِّيَّةِ، وَمِنْ تَصَوُّرِ الْغَائِبَاتِ عَنِ الْمَعَايِنَةِ، وَلَقَدْ قَالُوا: إِنَّ الْعَيْنَ سَبَبُ الْحَيْنِ، وَفِي مَعْنَاهُ أُنْشِدُوا:

وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرَفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ - يوماً - أَتَعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ .

وقالوا: مَنْ أَرْسَلَ طَرَفَهُ اقْتَضَى حَقَّهُ.

وإن النظر إلى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلوب .

ويقال إن العدو إبليس يقول: قومي القديم وسهمي الذي لا يخطيء النظر. وأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المحسّات - وهذا أصل كبير لهم في المجاهدة في أحوال الرياضة .

ويقال قرّن الله النهي عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفرج فقال: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ تنبيهاً على عظم خطر النظر؛ فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل .

ويقال قوم لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزُّهَّاد، وقوم لا ينظرون إلى الكون وهم أهل العرفان، وقوم هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود، ثم الحق - سبحانه - يكشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تعرضٍ أو تكلف .

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضَضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

المطالبة عليهن كالمطالبة على الرجال لشمول التكليف للجنسين، فالواجب عليهن ترك المحظورات، والندب والثقل لهن صون القلب عن الشواغل والخواطر الردية، ثم إن ارتقَيْنَ عن هذه الحالة فالتعامي بقلوبهن عن غير المعبود، والله يختص برحمته من يشاء.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: ما أباح الله - سبحانه - على بيان مسائل الفقه فمستثنى من الحظر، وما وراء ذلك فالواجب عليهن حفظ أنفسهن عن العقوبات في الآجل، والتصاون عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده. والله سبحانه كما يحفظ أوليائه عما يضرهم في الدين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم، فإن لم يتصل منهم نفع بالخلق فلا تصيب أحداً بهم فتنة.

وفي الجملة ما فيه زينة العبد لا يجوز إظهاره؛ فكما أن للنساء عورة ولا يجوز لهن إبداء زينتهن فكذلك من أظهر للخلق ما هو زينة سرائره من صفاء أحواله، وزكاه أعماله انقلب زينته شيناً، إلا إذا ظهر على أحد شيء - لا بتعمله ولا بتكلفه - فذلك مستثنى لأنه غير مؤاخذ بما لم يكن بتصرفه وتكلفه، فذوات المحارم على تفضيل بيان الشريعة يُستثنى حكمهن عن الحظر.

قوله جل ذكره: ﴿أَوِ التَّائِبَاتِ عَلَىٰ إِثْمِهِنَّ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِي تَرَىٰ يُظْهِرُ عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.

تُراعى في جميع ذلك آداب الشرع في الإباحة والحظر.

قوله جل ذكره: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

التوبة الرجوع عن المذمومات من الأفعال إلى أضدادها المحمودة، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة، فتوبة عن الزلة وهي توبة العوام، وتوبة عن الغفلة وهي توبة الخواص. . . وتوبة على محاذرة العقوبة، وتوبة على ملاحظة الأمر.

ويقال أمر الكافة بالتوبة؛ العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق، وخاصّ الخاصّ من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفق.

ويقال أمر الكل بالتوبة لئلا يخجل العاصي من الرجوع بانفراده.

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء - رفقاً بهم - من أمارات الكرم.

ويقال في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يتبين أنه أمرهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك، لا ليكون للحق - سبحانه - بتوبتهم وطاعتهم تجمل.

ويقال أحوج الناس إلى التوبة مَنْ تَوَهَّم أَنَّهُ ليس يحتاج إلى التوبة .
 قوله جل ذكره: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمُ وَإِمَائِكُمُ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

إذا كان القصدُ في المناكحة التأديب بآداب الشرع يكفي الله ببركاته مطالبات النفس والطبع، وإنما يجب أن يكون القصدُ إلى التعفُّف ثم رجاء نسلٍ يقوم بحق الله .
 قوله: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ في الحال، أولاً بالنفس ثم غنى القلب؛ وغنى القلب غني عن الشيء، فالغني عن الدنيا أتم من الغني بالدنيا .
 ويقال إن يكونوا فقراء في الحال يُغْنِيهِمُ اللَّهُ في المستأنف والمآل .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَتَغْنِيَنَّ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ .
 مَنْ تَقَاصَرَ وسعته عن الإنفاق على العيال فليصبر على مقاساة التحمل في الحال، فَعَن قَرِيبٍ تحببه نفسه إلى سقوط الأرب، أو الحق - سبحانه - وجود عليه بتسهيل السبب من حيث لا يَحْتَسِبُ، ولا تخلو حال المتعفف عن هذه الوجوه .
 قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِلْبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِن عِلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ .

أي إن سَمَحْتَ نفوسكم بإزالة الرُّق عن المماليك - الذين هم في الدين إخوانكم - من غير عَوْضٍ تلاحظون منهم فلن تخسروا على الله في صفقتكم . وإن أبيتم إلا العوض ودعوا إلى الكتابة، وعلمتم بغالب ظنكم صحة الوفاء بمال الكتابة من قبيلهم فكاتبوهم^(١)، ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجه؛ من قذر يحط من مال الكتابة، وإعانة لهم من فروض الزكاة، وإمهال بقدر ما يحتمل المكاتب ليكون ترفيهاً له .

وإذا كنا في الشرع مأمورين بكل هذا الرُّفْقِ حتى يصل المملوك المسكين إلى عتقه فبالحرى أن يسمو الرجاء إلى الله بجميل الظن أن يُغْتَقَ العبدُ من النار بكثرة تضرعه، وقديم سعيه - بقدر وسعه - من عناء قاساه، وفضل من الله - عن قديم - رجاءه .

ثم في الخبر: «إن المكاتب عبداً ما بقي عليه درهم»^(٢): والعبد يسعى بجهدِهِ ليصل إلى تحرر قلبه، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار

(١) معنى الكتاب والمكاتب: أن يكاتب الرجل عبده أو أخته على مال يُنَجِّمه عليه، ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه، في كل نجم كذا وكذا، فهو حر، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه، فقد عتق، وولاؤه لمولاه الذي كاتبه . (لسان العرب ١/ ٧٠٠ مادة: كتب) .

(٢) أخرجه أبو داود (عتاق ١)، والترمذي (بيع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢) .

وإرادة شيء من الأغيار فهو بكمال رُفّه وليس في الحقيقة بحرٌ.. فالمكاتبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الِغَلَاءِ إِنْ أَرَدْنَ نَحْصًا لِّبَنَاتِنَا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

حامِلُ العاصي على زَلَّتِهِ، والداعي له إلى عَشْرَتِهِ، والمُعِينُ له على مخالفتِهِ تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوزرِ أكثرُ مِنْ غيرِهِ، وبعبكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

لم يغادر على وجه الدليل غُبْرَةً، ولم يترك الحقّ - سبحانه - للإشكال محلاً؛ بل أَوْضَحَ المنهاج وأضاء السُّراج، وأنار السبيلَ وألاح الدليل، فَمَنْ أراد أن يستبصر فلا يلحقه نَصَبٌ، ولا يمسّه تعبٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

أي هادي أهل السموات والأرض، ومنه نورهما والذي منه الشيء يسمى باسمه الشيء. ومنه نور السموات والأرض خَلْقًا؛ فنظامُ السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصلٌ بالله تعالى.

ويقال نور السموات والأرض أي منورها وخلق ما فيها من الضياء والزينة، وموجد ما أودعها من الأدلة اللاتحة.

ويقال نورُ الله السماء بنجومها فقال: ﴿وَرَبَّنَا أَسْمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [فصلت: ١٢] فكذلك زينَ القلوب بأنوار هي نورُ العقل ونورُ الفهم ونورُ العلم ونورُ اليقين ونورُ المعرفة ونورُ التوحيد، فلكل شيء من هذه الأنوار مطرحٌ شعاعٌ بقدره في الزيادة والنقصان.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي نِجَاجَةِ الرُّجَاةِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ لَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ...﴾: أراد بهذا قلب المؤمن وهو معرفته، فشبه صدره بالمشكاة، وشبه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة، وشبه القنديل - الذي هو قلبه - بالكوكب الدرّي، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمدُّ السراج في الاشتعال. ثم وصف الزيت بأنّه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه، أو

خلَّلَ مَسَّهُ، ثم وصف ذلك الزيت - في صفوته - بأنه بحيث يكاد يضيء من غير أن تمسّه نار.

ويقال إن ضَرْبَ المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى - ﷺ - ودينه الجَنيفي، فما كان يهودياً - وهم الذين قبلتهم إلى جانب المغرب، ولا نصرانياً - وهم الذين قبلتهم في ناحية المشرق.

وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾: نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم، أو عيان أضافه إلى بيانهم، فهو نور على نور.

ويقال أراد به قلب محمد - ﷺ - ونور معرفته موقدٌ من شجرة هي إبراهيم عليه السلام، فهو ﷺ على دين إبراهيم.

قوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ بحيث تصيبه الشمس بالعشي دون الغداة، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشي، بل تصيبه الشمس طول النهار ليتّم نضج زيتونه، ويكمل صفاء زيتيه. والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن، بل هما يعتدلان؛ فلا يغلب أحدهما الآخر؛ تقابل هيتهم أنسهم، وقبضهم بسطهم، وصحوهم محوهم، وبقاؤهم فناءهم، وقيامهم بأداب الشريعة تحقّقهم بجوامع الحقيقة.

ويقال ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾: أي أن همّهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً، ولا علوياً ولا سفلياً، ولا جنياً ولا إنسياً، ولا عرشاً ولا كرسياً، سطعت عن الأكوان، ولم تجد سبيلاً إلى الحقيقة؛ لأن الحقّ مُنَزَّةٌ عن اللّحوق والدرك، فبقيت عن الحق منفصلة، وبالحق غير متصلة؛ وهذه صفة الغرباء. «وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»^(١).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ٢٣٢)، والترمذي في (السنن ١٦٢٩)، وابن ماجه في (السنن ٣٩٨٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣١٨/١)، والدارمي في (السنن ٣١٢/٢) والدولابي في (الكنى والأسماء ١٩٣/١)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٣٨٠، ٥٣٨١، ٥٣٨٢، ٥٣٨٣ - ٥٣٨٦)، والمتقي الهندي في (كتر العمال ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٨، ١١٩٩ - ١١٨٩)، والهشي في (مجمع الزوائد ١٠٦/١ - ١٥٦، ٢٥٩/٧ - ٢٧٨)، وابن كثير في (التفسير ٢٣/٣، ٢٣٩/٧) والبغوي في (شرح السنة ١١٨/١)، والقرطبي في (التفسير ١٤٠/١٦)، والطبراني في (المعجم الصغير ١٠٤/١)، والطبري في (التفسير ٧٥/١٥)، والشجري في (الأمالي ١٥٦/٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣٠/٦)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٦٥/١)، والطحاري في (مشكل الآثار ٢٩٨/١)، وصاحب (تاريخ واسط ١٤٦)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/٢١٨)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٢٧٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢٠٢/٦ - ٣١٤، ٨/٨ =

ويقال نور القلب: ثم موجبه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرج في أقطار الكسل، فيصل سَيْرَه بِسُراه في استعمال فكره، والحق يمدّه: بنور التوفيق حتى لا يصدّه عن عوارض الاجتهاد شيء من حُبّ رياسته، أو ميل لسوء، أو هوادة. فإذا أسفر ضُبُحُ غفلته، واستمكن النظر من موضعه حصل العلم لا محالة. ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجُهد، وحصول الوجد عند أداء الوزد.

ثم بعده نور المعاملة، ثم نور المنازلة، ثم متنوع نهار المواصله. وشموس التوحيد مشرقة، وليس في سماء أسرارهم سحب ولا في هوائها ضباب، قال تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة، فإذا نظَرَ في ديوانه، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة، فيعود على نفسه باللائمة، ويتجرّع كاسات نَدَمِهِ، فيرتقي عن هذا باستدامة قَصْدِهِ، والتَّنَقُّي عما كان عليه في أوقات فترته. فإذا استقام في ذلك كوشِفَ بنور المراقبة؛ فيعلم أنه - سبحانه - مُطَّلِعٌ عليه. وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائح تبدو في السرائر. ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلي الصفات. ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليلاً نهاراً، ونجومه أقماراً، وأقماره بدوراً، وبدوره شمساً. ثم بعد هذا أنوار التوحيد، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد، ثم ما لا تتناوله عبارة ولا تدركه إشارة، فالعبارات - عند ذلك - خُرُسٌ، والشواهد طُمَسٌ، وشهود الغير عند ذلك محال. عند ذلك: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعُشُورُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٤]، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وانفطرت... فهذه كلها أقسام الكون. وما من العدم لهم صار إلى العدم. القائم عنهم غيرهم، والكائن عنهم سواهم. وجلّت الأحديّة وعَزَّتْ الصمدية، وتَقَدَّسَتْ الديمومية، وتنزهت الإلهية.

قوله جل ذكره: ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ يُجَالُ لَا لُئْلِيهِمْ يَحْذَرُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أَلْصَلُوةُ وَإِنَّا لَهُ الْرَّكُوعُ﴾.

= ١٧٩، ١٠/١٢٢، ١١/٧٠)، والخطيب البغدادي في (شرف أصحاب الحديث ٣٧، ٣٨، ٣٩)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ٢/١، ٨٢)، وابن حجر في (الكنز الشاف في تخریج أحاديث الكشف ١٤٨)، وابن أبي شيبه في (المصنف ١٣/٢٣٦، ٢٣٧)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٢١٢، ٨٣/٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/٢٤٤، ٥٢٠)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٣٣)، وابن حبان في (المجروحين ٢/٢٢٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢/٤٦٢، ٤/ ١٦١٥، ١٨٢٣).

المساجدُ بيوتَه - سبحانه - وإنَّ اللهَ أَدْنَى أَنْ تُرْفَعَ الحوائِجُ فيها إليه فيقضيها، ورَفَعَ أقدارَ تلك البيوتِ على غيرها من الأبنية والآثار. المساجدُ بيوتُ العبادة والقلوبُ بيوتُ الإرادة؛ فالعابدُ يَصِلُ بعبادته إلى ثوابِ الله، والقاصدُ يصلُ بإرادته إلى الله.

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة، والأرواحُ مشاهدُ المحبة، والأسرار محالُ المشاهدة.

قوله: ﴿يُسَيِّحُ لَمْ فِيهَا بِالْعُدُوِّ...﴾ لم يقل: لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون، بل قال: لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله، فإن أمكن الجمع بينهما فلا بأس - ولكنه كالمتمعذر - إلا على الأكابر الذين تجري عليهم الأمور وهم عنها مأخوذون. ويقال هم الذين يؤثرون حقوقَ الحقِّ على حظوظِ النفس.

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن: حيَّ على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع، وقاموا الأداء حقه.

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى عَجْرَةٍ تُجِجُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عَوْضٍ أو مطالعة سبب. قوله جلَّ ذكره: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَلْقَئُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

أقوامٌ ذلك اليومُ مُوجَلِّ لهم، وآخرون: ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت؛ فإنَّ حقيقةَ الخوفِ تَرْقُبُ العقوبات مع مجاري الأنفاس. قوله جلَّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مَنْ رَفَعَ الحِسَابَ مِنَ الْوَسْطِ يَرْفَعُ مَعَهُ الحِسَابَ، وَمَنْ هُوَ فِي أَسْرِ مَطَالِبَاتِهِ فَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ.

والرزقُ بغير حسابٍ في أرزاق الأرواح، فأما أرزاقُ الأشباح فمحصورةٌ معدودةٌ؛ لأن أرزاقَ الأشباحَ حظوظٌ؛ وهي وجودُ أفضال وفنونُ نوالٍ. وما حَصَرَهُ الوجودُ مِنَ الحوادثِ فلا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ الْعَدْدُ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجمالِ والجلالِ فذلك على الدوام.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَمَرَايِمٍ يَبِيعُونَ يَبِيعُهَا الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبْ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وقال: ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]. وَمَنْ أَمَّلَ السَّرَابَ شَرَابًا فَلَا يَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ كَانَ تَخِيلًا؛ فَالْعَطَشُ يَزْدَادُ، وَالرُّوحُ تَدْعُو لِلخُرُوجِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَو كَظَلُمْتُمْ فِي بَحْرِ لَيْلِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ بَدَنُكُمْ لَرَ يَكْدُ بَرْنَهَا وَمَنْ لَّرَ يَجْعَلِي اللَّهُ لَكُمْ نُورًا فَمَا لَكُمْ مِنْ نُورٍ﴾.

ظلمات الحسبان، وغيوم التفرقة، وليالي الجحْد، وحنادس الشك إذا اجتمعت فلا سراج لصاحبها ولا نجوم، ولا أقمار ولا شمس... فالويل ثم الويل!

قوله: ﴿وَمَنْ لَّرَ يَجْعَلِي اللَّهُ لَكُمْ نُورًا فَمَا لَكُمْ مِنْ نُورٍ﴾: إذا لم يسبق لعبيد نور القسمة، ولم يساعده تعلُّق فجهذه وكده، وسغيه وجده عقيم من ثمراته، موئس من نيل بركاته. والبدايات غالبية للنهايات؛ فالقبول لأهله غير مُجْتَلَب، والرد لأهله غير مُكْتَسَب. وسعيد مَنْ سَعِدَ بالسعادة في علمه في آزاله، وأراد كَوْنُ ما عَلِمَ من أفعاله يكون، وأخبر أن ذلك كذلك يكون، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وَعَلِمَ.

وهكذا القول في الشقاوة؛ فليس لأفعاله عِلَّة، ولا تتوجَّه عليه لأحد حُجَّة.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

التسبيح على قسمين: تسبيح قول ونطق، وتسبيح دلالة وخلق؛ فتسبيح الخلق عام من كل مخلوق وعين وأثر، منه تسبيح خاص بالحيوانات، وتسبيح خاص بالعقلاء وهذا منقسم إلى قسمين: تسبيح صادر عن بصيرة، وتسبيح حاصل من غير بصيرة؛ فالذي قرينته البصيرة مقبول، والذي تجرَّد عن العرفان مردود.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

الملْك مبالغة من الملْك، والملْك القدرة على الإيجاد؛ فالمقدورات - قبل وجودها - للمخلوق مملوكة، كذلك في أحوال حدوثها بعد عذمها عائدة إلى ما كانت عليه، فملْك لا يحدث ولا يزوال ولا يؤوَل شيء منه إلى البطول.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بُرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ يَقْبَلُ اللَّهُ الْبَلَّ وَالنَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

تعرف إلى قلوب العلماء بدلالات صنعه في بديع حكمته، وبما يدل منها على كمال قدرته، وشمول علمه وحكمته، ونفوذ إرادته ومشيته. فَمَنْ أُنْعِمَ النَّظَرَ وَصَلَّ إلى بَرْد اليقين، وَمَنْ أَعْرَضَ بَقِيَ فِي وَهْدَةِ الْجُحْدِ وَظِلْمَاتِ الْجَهْلِ.

ترتفع بمدرته بخارات البحر، وتصعد بتسييره وتقديره إلى الهواء وهو السحاب، ثم يُديرها إلى سَمْت يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرة قطرة؛ ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عَذْب فيقلبه عَذْبًا، وَيُسَبِّحُهُ

السحاب سَكْبًا، فيوصل إلى كل موضع قَدْرًا يكون له مُرادًا معلومًا، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمَسِّكُ أو يُنْزَلُ، ولا بالحيلة يُسْتَنْزَلُ على المكان الذي لا يُنْطَرِه.

﴿يَقْلِبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار.. ذلك تقدير العزيز العليم.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يريد خلق كل حيوان من ماء، يخرج من صُلْب الأب وتربية الأم. ثم أجزاء الماء متساوية متماثلة، ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن، فيختص كل عضو وينفرد كل شئلو^(١) بنوع من الهيئة والصورة، وضرب من الشكل والهيئة. ثم اختلاف هيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب، ثم في القامة والمنظر، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم وسن ومخ وعصب وعزق وشعر.

فالنظر في هذا - مع العبرة به - يوجب سجود البصيرة وقوة التحصيل.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الآيات بينة ولكن الله يهدي إليها قوماً ويلبس على آخرين، والذي سُدَّ بصره أنى ينفعه طلوع الشمس والنجوم؟ وكذلك الذي سُدَّتْ بصيرته أنى تنفعه شواهد العلوم ودلائل الفهوم؟ وقالوا في معناه:

وما انتفاع أخي الدنيا بمقلته إذا استوث عند الأنوار والظلم
قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

يستسلمون في الظاهر ويقرؤون باللسان، ثم المخلص يبقى على صدقه. والذي قال لخوف سيف المسلمين، أو لغرض له آخر فاسد يتولى بعد ذلك، وينحاز إلى جانب الكفرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. علموا أن افتضاحهم في حكم نيتهم، فيمن علم أنه قاسط في خصومته لم يطب نفساً بحكمه. وكذلك المريب يهرب من الحق، ويجتهد في الفرار.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَنْ يَكُنْ لَهُمُ الْكُفْرُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

(١) الشلو: العضو (ج) أشلاء.

منقادين يميلون مع الهوى، ولا يقبلون حكمه إيماناً. وكذلك شأن المريض الذي يميل بين الصحة والسقم؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم، فليس منهم نفي القطع ولا إثبات بالعلم، فهم متطوِّحون في أودية الشك، وهذا معنى قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَوْ أَرَبَابٌ آمَنَ يَخَافُونَ أَنَّ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فلما انخرطوا في سلك التجويز ما حصلوا إلا في ظلم الشك، ولما لم يكن لهم يقين في القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الذين إيمانهم حقيقة بحكم التصديق شأنهم قيامهم بإظهار ما ضمنوه من التحقيق. ومن يقابل أمر الله بالطاعة، ويستقبل حكمه بالاستخاء... فأولئك هم الصادقون في الحقيقة، السالكون في الطريقة، الآخذون بالروثة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أقسموا بالله غاية اليمين، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج في المستقبل، فقال: لا تعدّوا بما هو معلوم منكم ألا تفوا به؛ فطاعة في الوقت أولى من نسويف بالوعد.

ثم قال: قُلْ يَا مُحَمَّدُ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.. فإن أجابوا سجدوا في الدارين، وأحسنوا إلى أنفسهم. وإن تولّوا عن الإجابة فما أضروا إلا بأنفسهم ويكون الندم في المستقبل عليهم، وسوف يلقون سوء عواقبهم، وليس على الرسل إلا حسن البلاغ. ويوم الحشر يغطى كل أحد كتابه، ويُعامل بمقتضى حساب نفسه^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وعَدَ الله حق وكلامه صدق، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه - بالإجماع - لم يتقدمهم في الفضيلة - إلى يومنا - أحد؛ فأولئك مقطوع بإمامتهم، وصدق وعد الله فيهم، وهم على الدين المرضي من قبل الله، ولقد آمنوا بعد خوفهم، وقاموا بسياسة المسلمين، والذبّ عن حوزة الإسلام أحسن قيام.

(١) الآية (٥٢) لم ترد.

(٢) الآية (٥٤) لم ترد.

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان الملة ودعائم الإسلام، الناصحون لعباده، الهادون من يسترشد في الله؛ إذ الخلل في أمر المسلمين من الولاة الظلمة ضرره مقصور على ما يتعلق بأحكام الدنيا، فأما حفاظ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف:

قوم هم حفاظ أخبار الرسول عليه السلام وحفاظ القرآن وهم بمنزلة الخزانة، وقوم هم علماء الأصول الراؤون على أهل العناد وأصحاب البدع بواضح الأدلة، وهم بطارقة الإسلام وشجعائه.

وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والديات، وما في معاني الأيمان والنذور والدعاوى، وفصل الحكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في الملك.

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان؛ فالذين معمور بهؤلاء - على اختلافهم إلى يوم القيامة^(١). قوله جل ذكره: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَوْثَنُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾.

إن الباطل قد تكون له دولة ولكنها تخييل - وما لذلك بقاء - وأقل لبشاً من عارض ينشأ عن الغيظ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَفِذَكُمْ الَّذِينَ تَلَكَتْ أَيْمَانُكَ وَالَّذِينَ لَوْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ﴾.

ضيّق الأمر من وجه ووسّعه من وجه، وأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة أمر الحرم، والتحرر من مخاوف الفتنة، وإذا كانت الجوانب محروسة صارت المخاوف مأمونة^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ نِجَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يحدث تأثير بالمضرة لبنات الصدور من دواعي الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة؛ فإذا سكنت تلك الثائرة سهل الباب، وأبيحت الرخص وأمنت الفتنة.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾.

(٢) الآية (٥٩) لم ترد.

(١) الآية (٥٦) لم ترد.

إذا جاءت الأعذار سهل الامتحان والاختيار، وإذا حصلت القرابة سقطت الحشمة، وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط صَحَّت المباشطة في الارتفاق.

ثم قال: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١]: وعزيزٌ من يصدق في الصداقة؛ فيكون في الباطن كما يُرى في الظاهر، ولا يكون في الوجه كالمرأة ومن ورائك كالمقراض^(١)، وفي معناه ما قلت:

مَنْ لِي بِمَنْ يَشُقُّ الْفُؤَادَ بُوْدُهُ	فإذا تَرَحَّلَ لم يزغ عن عهده
يَا بؤْسَ نَفْسِي مِنْ أَخٍ لِي بِأَذَلِّ	حَسَنَ الْوَفَاءِ بوعده لا تُقْدِه
يُولِي الصَّفَاءَ بِنُطْقِهِ لَا خُلُقِهِ	وَيَدُسُّ صَابَأً فِي حِلَاوَةِ شَهْدِهِ
فَلِسَائِهِ يَبْدِي جَوَاهِرَ عَقْدِهِ	وَجَنَانَهُ تَغْلِي مَرَاجِلَ حَقْدِهِ
لَا هُمْ إِنِّي لَا أَطِيقُ مِرَاسَهُ	بِكَ أَسْتَعِذُّ مِنَ الْحَسُودِ وَكَيْدِهِ

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١] مَنْ تُوْمَنُ مِنْهُ هَذِهِ الْخِصَالُ وَأُمَثَالُهَا.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

السلام الأمان، وسبيل المؤمن إذا دخل بيتاً أن يسلم من الله على نفسه؛ أي يطلب الأمان والسلامة من الله لتسلم نفسه من الإقدام على ما لا يرضاه الله، إذ لا يحل لمسلم أن يفتر لحظة عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه - سبحانه - ظل عظمته؛ بإدامة حفظه عن الاتصاف بمكروه في الشرع.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوا لِيَعِزَّ شَأْنُهُمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

شرط الاتباع موافقة المتبوع، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزاباً كما قال: ﴿تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤] و«العلماء ورثة الأنبياء»^(٢). والمريدون لشيخهم

(١) المقراض: المقتص، وهو ما يقرض به الثوب أو غيره، وهما مقراضان. والمقراض: آلة تقرض بها تذكرة الراكب في القطار وغيره. (ج) مقاريض.

(٢) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٢٢٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٣/ ١٦٤)، والزيدي في (إتحاف السادة اليمتقين ١/ ٧١ - ٣٣٨ - ٤٥٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٨٦٧٩) والقرطبي في (التفسير ٤/ ٤١، ١٣/ ١٦٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار) والبخاري في (التاريخ الكبير ٨/ ٣٣٧)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٠)، والعجلوني في=

كَالْأُتَمَّةِ لِنَبِيِّهِمْ؛ فَشَرُطُ الْمُرِيدِ أَلَّا يَتَنَفَّسَ بِنَفْسٍ إِلَّا بِإِذْنِ شَيْخِهِ، وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ فِي نَفْسٍ - سِرّاً أَوْ جَهْراً - فَإِنَّهُ يَرَى غَيْبَهُ سَرِيعاً فِي غَيْرِ مَا يُحِبُّهُ. وَمُخَالَفَةُ الشُّيُوخِ فِيمَا يَسْتَسِرُّونَهُ عَنْهُمْ أَشَدُّ مِمَّا يَظْهَرُ بِالْجَهْرِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّهُ هَذَا يَلْتَحِقُ بِالْخِيَانَةِ. وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ لَا يُشْمُ رَائِحَةَ الصَّدَقِ، فَإِنْ بَدَرَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ بِسُرْعَةِ الْعِذَارِ وَالْإِفْصَاحِ عَمَّا حَصَلَ مِنْهُ مِنَ الْمَخَالَفَةِ وَالْخِيَانَةِ، لِيُهْدِيَهُ شَيْخُهُ إِلَى مَا فِيهِ كَفَّارَةُ جُرْمِهِ، وَيَلْتَزِمَ فِي الْغَرَامَةِ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ. وَإِذَا رَجَعَ الْمُرِيدُ إِلَى شَيْخِهِ بِالصَّدَقِ وَجَبَ عَلَى شَيْخِهِ جَبْرَانٌ تَقْصِيرُهُ بِهِمْ؛ فَإِنَّ الْمُرِيدِينَ عِيَالٌ عَلَى الشُّيُوخِ؛ فَرَضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ مِنْ قُوَّةِ أَحْوَالِهِمْ بِمَا يَكُونُ جَبْرَاناً لَتَقْصِيرِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّاهُمْ﴾.

أَيَّ عَظُمَ فِي الْخُطَابِ، وَاحْفَظُوا فِي خِدْمَتِهِ الْأَدَبَ، وَعَانِقُوا طَاعَتَهُ عَلَى مِرَاعَةِ الْهَيْبَةِ وَالتَّوْقِيرِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ فِي مِتَابَةِ السُّنَّةِ، وَشَقَاوَةُ الْمُنْزَلَيْنِ فِي مَخَالَفَةِ السُّنَّةِ. وَمِنْ أَيْسَرِ مَا يُصِيبُ مَنْ خَالَفَ سُنَّتَهُ حَرَمَانُ الْمَوَافَقَةِ، وَتَعَذُّرُ الْمِتَابَةِ بَعْدَهُ، وَسَقُوطُ حِشْمَةِ الدَّارَيْنِ عَنْ قَلْبِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

إِنَّ لِلْيَوْمِ غَدًا، وَلِمَا يَفْعَلُ الْعَبْدُ حِسَابًا، وَسَيُطَالَبُ الْمَكْلُفُ بِالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالتَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ.

= (كشف الخفاء ٢٢/٢ - ٨٣)، والسهمي في (تاريخ جرجان ٣٣٦)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٢٤)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١١٤)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٣٠ - ٢٤٧).

سورة الفرقان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم جليل شهدت بجلاله أفعاله، ونطقت بجماله أفضاله. دلت على إثباته آياته، وأخبرت عن صفاته مفعولاته.

بسم الله اسم عزيز عُرفت بفعله قدرته، اسم كريم شهدت بفضله نصرته.

بسم الله اسم عزيز عرّفه العقلاء بدلالات أفعاله، وعرّفه الأصفياء باستحقاقه لجلاله وجماله؛ فبلطف جماله عرفوا جوده، وبكشف جلاله عرفوا وجوده.

بسم الله اسم عزيز من دعاه لبّاه، ومن توكل عليه كفّاه، ومن توسّل إليه أكرمه وآواه، ومن تنصّل إليه رجمه وأذناه، ومن شكّا إليه أشكاه، ومن سأله خوّله وأعطاه.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

يقال برك الطير على الماء إذا دام وقوفه على ظهر الماء. ومبارك الإبل مواضع إقامتها بالليل. وتبارك على وزن تفاعل تفيد دوام بقاءه، واستحقاقه ليقدم ثوبته وبقاء وجوده لا عن استفتاح ولا إلى انقطاع.

وفي التفاسير ﴿تَبَارَكَ﴾ أي تعظّم وتكبر. وعند قوم أنه من البركة وهي الزيادة والنفع، فدوامه وجوده، وتكبره استحقاق ذاته لصفاته العلية، والبركة أو الزيادة تشير إلى فضله وإحسانه ولطفه.

فوجوه الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة: ثناء عليه بذكر ذاته وحقّه، وثناء بذكر وصفه وعِزّه، وثناء بذكر إحسانه وفضله؛ فكلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ مجمع الثناء عليه - سبحانه.

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، وهو القرآن ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾: فأكرمه بأن نبّاه وفضّله، وإلى الخلق أرسله، وبَيّن مُعْجَزَتَهُ وأماره صِدْقَهُ بالقرآن الذي عليه أنزله، وجعله بشيراً ونذيراً، وسراجاً منيراً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

تَفَرَّدَ بِالْمُلْكِ فلا شريك يساهمه، وتَوَحَّدَ بِالْجَلَالِ فلا نظير يُقَاسِمُهُ؛ فهو الواحد بلا قسيم في ذاته، ولا شريك في مخلوقاته، ولا شبيه في حقّه ولا في صفاته.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا شُورًا﴾.

اتخذوا من دون الله آلهة لا يملكون قطميراً، ولا يخلقون نقيراً، ولا يدفعون عنهم كثيراً ولا يسيراً، ولا ينفعونهم ولا يسهلون عليهم عسيراً، ولا يملكون لأحد موتاً ولا شوراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ فَقَدْ جَاءَهُ ظُلُمَاتُ وَرُؤُوسِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَ شَاطِئِهِ الْأُولَى اسْتَغْنَاهُمْ فِيهِ تَمَلُّ عَلَيْهِ بُعْثَةٌ وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَقُورًا رَجَبًا﴾.

ظنوه كما كانوا، ولمّا كانوا بأمثالهم قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورهم، واستحدثوا لأمثالهم واستكانوا - فقد قالوا من غير حجة وتقولوا، ولم يكن لقولهم تحصيل، ولأساطير الأولين ثرّاهتهم التي لا يذرى هل كانت؟ وإن كانت فلا يُعرف كيف كانت ومتى كانت؟

ثم قال: يا محمد، إن هذا الكتاب - الذي أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض - لا يُقدّر أحد على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا من الوقت الذي أتى به أعداء الدين، وهم على كثرتهم مجتهدون في معارضته بما يوجب مساواته؛ فادّعوا تكذيبه. وانقطعت الأعصار وانقضت الأعمال، ولم يأت أحد بسورة مثله. فانتفى الرّيب عن صدّقه، ووجب الإقرار بحقه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَافُرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَبَرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّتِ نَجْوَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾.

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يعيبونه بكونه بشراً من جنسهم ينشي في الأسواق، ويأكل الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا: هَلَّا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَرْوُونَ عِيَانًا؟ وهَلَّا جَعَلَ لَهُ الْكَنُوزَ فَاسْتَكْشَرَ مَا لَمْ يَلَمْ؟ وهَلَّا خَصَّ بِآيَاتٍ - اقترحوها - فَتَقَطَعَ الْعُذْرُ وَتَزِيلَ عَنَّا إِشْكَالًا؟ وما هذا الرجل إلا بشرٌ تعتريه من دواعي الشهوات ما يعتري غيره! فأني خصوصية له حتى تلزمتنا متابعتة ولن يُظهر لنا حجة؟ فأجاب الله عنهم وقال: إِنَّ الْحَقَّ قَادِرٌ عَلَى تَمْلِيكَ مَا قَالُوا وَأَضْعَافُ ذَلِكَ، وفي قدرته إظهار ما اقترحوه وأضعاف ذلك، ولكن ليس لهم هذا التخير بعدما أزيح العذر بإظهار معجزة

واحدة، واقترح ما يَهْوُونَ تحكُّم على التقدير، وليس لهم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافه لم يؤمنوا؛ لأن حُكَمَ الله بالشقاوة سابق لهم، وقال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

فهم في حُكَمِ الله من جملة الكفار، والله أعدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيد الأبد. فلا محالة يُمتحنون به.

قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: دليل على جواز التكليف بما لا يقدر عليه العبد في الحال؛ لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً، وهم معاتبون مُكَلَّفُونَ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَرَفِيرًا﴾.

فوحشة النار توجد من مسافة بعيدة قبل شهودها والامتحان بها، ونسيم الجنة يوجد قبل شهودها والدخول فيها، والنار تُسَجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها، والجنة تُزَيَّن منذ سنين قبل المُشْتَمِعِينَ بها. وكذب مَنْ أحوال وجودهما قبل كون سكانهما وقطانهما من المتنفعين أو المعاقبين، لأن الصادق أخبر عن صفاتهما التي لا تكون إلا بموجود حيث قال:

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُقَرَّرِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

راحة الجنة مقرونة بسعتها، ووحشة النار مقرونة بضيقها، فيضيق عليهم مكانهم، ويضيق عليهم قلوبهم، ويضيق عليهم أوقاتهم. ولو كانت حياتهم تبطل وكانوا يتخلصون منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تنهاى، ومَحَنٌ لا تنقضي؛ كلما راموا فرجةً قيل لهم: فلن نزيدكم إلا عذاباً.

قوله جلَّ ذكره: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾.

المتقون أبداً في النعيم المقيم؛ حور وسرور وحبور، وزَوْجٌ وريحان، وبهجة وإحسان، ولطف جديد وفضل مزيد، وألذُّ شرابٍ وكاساتٍ محابٍ، وبسطُ قلبٍ وطيبُ حالٍ، وكمالُ أنسٍ ودوام طربٍ وتمام جَدَلٍ، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس^(١) وإستبرق^(٢). والأسماء أسماء في الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها.

(١) السندس: رقيق الديباج ورفيعه. وقيل: السندس ضرب من البُزَيون يُتخذ من المرعزي (معرب). (لسان العرب ١٠٧/٦ مادة: سندس).

(٢) الإستبرق: هو الديباج الصفيق الغليظ الحسن، وهو اسم أعجمي أصله بالفارسية اشتقَّره ونقل من العجمية إلى العربية كما سمي الديباج وهو منقول من الفارسية. (لسان العرب ١٠/٥ مادة: إستبرق).

ثم فيها ما يشاؤون، وهم أبداً مقيمون لا يبرحون، ولا هم عنها يخرجون.
قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾.

ولكن لا يخلق في قلوبهم إلا إرادة ما عليم أنه سيفعله، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله لا تتعلق به إرادتهم، ويمنع من قلوبهم مشيئته.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾.

اللَّهُ يحشر الكفار ويحشر الأصنام التي عبدوها من دون الله، فيُخَيِّبها ويقول لها: هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فيتبرأون... كله تهويل وتعظيم للشأن، وإلا فهو عليم بما كان وما لم يكن. فالأصنام تُتبرأ منهم، وتقابلهم بالتكذيب، وهم ينادون على أنفسهم بالخطأ والضلال، فيلقون في النار، وَيَبْقَوْنَ فِي الْعَذَابِ إِلَى الْأَبَدِ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾.

أخبر أن الذين تقدّموه من الرسل كانوا بشرأ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهور المعجزات عليهم. وفي الجملة الفضائل بالمعاني لا بالصورة، ثم قال:
﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

فَضَّلَ بعضاً على بعض، وأمر المفضل بالصبر والرضا، والفاضل بالشكر على العطاء وخصّ قوماً بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء، وخصّ قوماً بالعوافي، وآخرين بالأسقام والآلام، فلا لِمَنْ نَعَمَهُ مناقب، ولا لِمَنْ امتحنه معائب... فبحكمه لا يجزئهم، وبفضله لا يفعلهم، وبإرادته لا بعبادتهم، وباختياره لا بأوضاعهم، وبأقداره لا بأوزارهم، وبه لا يهيم.

قوله: ﴿أَنْتَصِرُونَ؟﴾ استفهام في معنى الأمر، فَمَنْ سَاعَدَهُ التوفيق صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبي وكفر.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله في القيامة من الدنيا. وكما كانوا لا يخافون العذاب، ولا ينتظرون الحشر كذلك كانوا لا يؤمنون لقاء الله. فَمُنْكَرُ الرُّؤْيَى مِنْ أَهْلِ الْقَبْلَةِ - ممن يؤمن بالقيامة والحشر - مُشَارِكٌ لَهُؤُلَاءِ فِي

(١) الآيتان (١٨، ١٩) لم ترد.

جُحِدَ مَا وَرَدَ بِهِ الْخَبِيرُ وَالنَّقْلُ؛ لَأَنَّ الثَّقَلَ كَمَا وَرَدَ بِكَوْنِ الْحَشْرِ وَرَدَ بِكَوْنِ الرُّوْيَةِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ.

فَالَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا قَالُوهُ عَلَى جِهَةِ رُؤْيَةِ الْمَقَامِ لَأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّهُ مُسَلَّمٌ لَهُمْ مَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ نَزُولِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ وَرُؤْيَةِ رَبِّهِمْ. وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ فِي الْقُدْرَةِ جَائِزاً - إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَاجِباً بَعْدَ إِزَاحَةِ غُذْرِهِمْ بِظُهُورِ مَعْجَزَاتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمْ يَكُنْ اقْتِرَاحُ مَا قَالُوهُ جَائِزاً لَهُمْ.

قوله جَلَّ ذَكَرُهُ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

اقْتَرَحُوا شَيْئِينَ: رُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ وَرُؤْيَا اللَّهِ، فَأَخْبِرَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ التَّوْفِيقِ، وَلَكِنْ تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ: ﴿إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ!﴾.

﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾: أَيُ حَرَامًا مَمْنُوعًا يَعْنِي رُؤْيَا اللَّهِ عَنْهُمْ، فَهَذَا يَعُودُ إِلَى مَا جَرَى ذَكَرُهُ، وَحَمْلُهُ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى الْجَنَّةِ، وَلَمْ يَجِرْ لَهَا هُنَا ذِكْرٌ. ثُمَّ فِيهِ بَشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالرُّؤْيَا لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ وَيُبَشِّرُونَهُمْ بِالْجَنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] فَكَمَا لَا تَكُونُ لِلْكَفَّارِ بَشَارَةٌ بِالْجَنَّةِ وَتَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا تَكُونُ الرُّؤْيَا لِلْكَفَّارِ وَتَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ.

قوله جَلَّ ذَكَرُهُ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾.

هَذِهِ آفَةُ الْكَفَّارِ؛ ضَاعَ سَعْيُهُمْ وَخَابَ جُهْدُهُمْ، وَضَاعَ عُمْرُهُمْ وَخَسِرَتْ صَفَقَتُهُمْ وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وَأَمَّا أَصْحَابُ الْحَقَائِقِ وَأَرْبَابُ التَّوْحِيدِ فَيَلُوحُ لِقُلُوبِهِمْ مِنْ سَمَاعِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَحْصُلُ بِهِ كِمَالُ رُؤْيِهِمْ، وَتَنَادَى إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنَ الرَّاحَاتِ مَا يَضِيقُ عَنْ وَصْفِهِ شَرْحُهُمْ، وَيَتَقَاصِرُ عَنْ ثَنَائِهِ نُطْقُهُمْ، حَيْثُ يَسْمَعُونَ قَوْلَهُ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وَلَقَدْ ظَهَرَتْ قِيَمَةُ أَعْمَالِهِمْ حَيْثُ قَالَ الْحَقُّ لِأَجَلِهِ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى...﴾ فَهُمْ إِذَا سَمِعُوا ذَلِكَ وَجَبَ لَهُمْ مِنَ الْإِرْبَحِيَّةِ مَا يَشْغَلُهُمْ عَنِ الْإِهْتِمَامِ لِقَوْلِهِ: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وَيَقُولُونَ: يَا لَيْتَ لَنَا أَعْمَالَ أَهْلِ الدَّارِينَ ثُمَّ لَا تُقْبَلُ مِنْهَا ذَرَّةٌ وَهُوَ يَقُولُ بِسَبَبِهَا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ...﴾! لِأَنَّهُمْ إِذَا تَخَلَّصُوا مِنْ مَوَاضِعِ الْخَلَلِ وَمَوْجِبَاتِ الْخُجَلِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ عُدُوا ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ مَا يَنَالُونَ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا:

سَأَرْجِعُ مِنْ حِجِّ عَامِي مُخْجِلاً لِأَنَّ الَّذِي قَدْ كَانَ لَا يُسْتَقْبَلُ

قوله جَلَّ ذَكَرُهُ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

أصحاب الجنة هم الراضون بها، الواصلون إليها، والمُكْتَفُونَ بوجودانها، فحُسِّنَتْ لهم أوطانهم، وطاب لهم مُسْتَقَرُّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْعَنَمِ وَرِثَ الْمَلَكُوتُ تَزِيلًا﴾.

يريد يوم القيامة إذا بَدَتْ أهوالها، وظَهَرَتْ للمبعوثين أحوالها عَمِلُوا وتحققوا - ذلك اليوم - أَنَّ الْمُلْكَ لِلرَّحْمَنِ، ولم يتخصص ملكه بذلك اليوم، وإنما عِلْمُهُمْ ويقينُهُمْ حَصَلَ لهم ذلك الوقت.

ويقال تنقطع دواعي الأغيار، وتنتفي أوهام الخلق فلا يتجدد له - سبحانه - وصفٌ ولكن تتلاشى للخلق أوصاف، وذلك يوم على الكافرين عسير، ودليل الخطاب يقتضي أَنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرق؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلا وذلك اليوم يكون عليه هيناً^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَمُصُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يُنَوَّلَتْنِي لَئِن لَّا أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾.

يندم الكافر على صحبة الكفار. ودليل الخطاب يقتضي سرور المؤمنين بمصاحبة أصدقائهم وأحبائهم في الله، وأما الكافر فيُضِلُّ صاحبه فيقع معه في الشبور، ولكن المؤمن يهدي صاحبه إلى الرشd فيصل به إلى السرور^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

شكا إلى الله منهم، وتلك سنة المرسلين؛ أخبر الله عن يعقوب - عليه السلام - أنه قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّقَ إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] فَمَنْ شكا من الله فهو جاحد، ومن شكا إلى الله فهو عارف واجد.

ثم إنه أخبر أنه لم يُخَلِّ نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سَلَطَ عليه عدواً في وقته، إلا أنه لم يغادر من أعدائهم أحداً، وأذاقهم وبال ما استوجبوه على كفرهم وغيبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته، وغداً نصيراً على رؤيته.

ويقال آخر فتنة للمؤمنين ما ورد في الخبر: «أن كل أمة ترى في القيامة الصنم الذي عبدوه يتبعونه فيحشرون إلى النار، فيُلْقَوْنَ فيها ويبقى المؤمنون، فيقال لهم: ما وقفكم؟ فيقولون: إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نر معبودنا! فيقال لهم: ولو رأيتموه... فهل تعرفونه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: بِمَ تعرفونه؟

(١) الآية (٢٦) لم ترد.

(٢) الآية (٢٩) لم ترد.

فيقولون: بيننا وبينه علامة. فيريهم شيئاً في صورة شخص فيقول لهم: أنا معبودكم. فيقولون: معاذ الله... نعوذ بالله منك! ما عبدناك. فيتجلى الحق لهم فيسجدون له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾.

أي إنما أنزلناه متفرقاً ليسهل عليك حفظه؛ فإنه كان أمياً لا يقرأ الكتب، ولأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه في كل وقت وكل حين... وكثرة نزوله كانت أوجب لسكون قلبه وكمال رَوْحِهِ ودوام أنسه، فجبريل كان يأتي في كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقت من الكوائن والأمور الحادثة، وذلك أبلغ في كونه معجزة، وأبعد عن التهمة من أن يكون من جهة غيره، أو أن يكون بالاستعانة بمن سواه حاصلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْسِيماً﴾.

كان الجواب لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفعماً، ولفساد ما يقولونه موضحاً، ولكن الحق - سبحانه - أجرى السُّنة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شفاءً وبصيرةً، ولهم إلا عَمَى وشبهة.

ثم أخبر عن حالهم من مآلهم فقال:

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾.

يحشرون على وجوههم وذلك أمانة لإهانتهم، وإن في الخبر: «الذين أمشاهم اليوم على أقدامهم يُمشيهم غداً على وجوههم»^(١) وهو على ذلك قادر، وذلك منه غير مستحيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾.

قلماً يجري في القرآن لنبينا - ﷺ - ذَكَرٌ إلا ويذكر الله عَقِيْبَهُ موسى عليه السلام. وتكررت قصته في القرآن في غير موضع تنبيهاً على علو شأنه، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير في الذكر يوجب التفصيل في الوصف؛ لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مرات كثيرة كانت في باب البلاغة أتم لا سيما إذا كانت في كل مرة فائدة زائدة.

(١) أخرجه البخاري (تفسير سورة ٢٥، ١)، ومسلم (منافقين ٥٤)، والترمذي (تفسير سورة ١٧ - ١٢)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٥٤، ٣٦٣.

ثم بيّن أنه قال لهما:

﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

أي فذهباً ففجّد القوم فدمرناهم تدميراً أي أهلكناهم إهلاكاً، وفي ذلك تسليّة للنبي - ﷺ - فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء، ووعد له بالجميل في أنه سيهلك أعداءه كلّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أخللنا بهم العقوبة كما أخللنا بأمثالهم، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقرائتهم. ثم عقب هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرّسّ^(١)، ومن ذكرهم على الجملة من غير تفصيل، وما أهلك به قوم لوطٍ حيث عملوا الخبائث... كل ذلك تطيباً لقلبه ﷺ، وتسكيناً لِسْرِهِ، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سيهلك من يُعاديهِ، ويدمر من يناوِه، وقد فعل من ذلك الكثير في حال حياته، والباقي بعد مُضيهِ - عليه السلام - من الدنيا وذهابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُؤًا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾^(٢).

كانت تكون له سلوة لو ذكر حالته وشكا إليه قصته، فإذا أخبر الله وقص عليه ما كان يلاقيه كان أوجب للسلوة وأقرب من الأُنس، وغاية سلوة أرباب المحن أن يذكروا لأحبائهم ما لقوا في أيام امتحانهم كما قال قائلهم:

يوذ بأن يمشي سقيماً لعلها إذا سمعت منه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلى لشذكر يوماً عند سلمى شمائله

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه - عليه السلام - بعين الازدراء والتصغير لشأنه؛ لأنهم كانوا لا يعرفون قدره، قال تعالى: ﴿وَتَرَبُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٣) [الأعراف: ١٩٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

(١) أصحاب الرس: يروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود، ويروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها: فلج، ويروى أنهم كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيها حتى مات. (لسان العرب ٩٨/٦ مادة: رس).

(٢) الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠) لم ترد.

(٣) الآية (٤٢) لم ترد.

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوُونَ؛ يستبدلون صنماً بصنم، وكانوا يَجْرُونَ على مقتضى ما يقع لهم. والمؤمنُ بِحُكْمِ اللَّهِ لا يحكم نفسه، وبهذا يتضح الفرقان بين رجل وبين رجل. والذي يعيش على ما يقع له فعابِدُ هواه، وملتجئ بالذين ذكرهم الحق بالسوء في هذه الآية.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

كالأنعام التي ليس لها هم إلا في أكله وشربه، ومن استجلب حظوظ نفسه فكالبهائم. وإن الله - سبحانه - خلق الملائكة وعلى العقل جبلهم، والبهائم وعلى الهوى فطرهم، وبنى آدم ورتب فيهم الأمرين؛ فمن غلب هواه غفله فهو شر من البهائم، ومن غلب عقله هواه فهو خير من الملائكة... كذلك قال المشايخ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

قيل نزل الرسول - ﷺ - في بعض أسفاره وقت القيلولة في ظل شجرة وكانوا خلقاً كثيراً فمدَّ الله ظلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعهم وكانوا كثيرين، فأنزل الله هذه الآية، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام.

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرض كلها ظلاً، ثم إذا طلعت الشمس، وانسط على وجه الأرض شعاعها فكل شخص ينسط له ظل، ولا يصيب ذلك الموضع شعاع الشمس، ثم يتناقص إلى وقت الزوال، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال. وذلك من أمارات قدرة الله تعالى؛ لأنه أجرى العادة بخلق الظل والضوء والفيء.

قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾: أي دائماً: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؛ أي حال ارتفاع الشمس وتقصان الظل.

ويقال: ألم تر إلى ربك كيف مدَّ ظل العناية على أحوال أوليائه؛ فقوم هم في ظل الحماية، وآخرون في ظل الرعاية، وآخرون في ظل العناية، والفقراء في ظل الكفاية، والأغنياء في ظل الراحة من الشكاية.

ظل هو ظل العصمة، وظل هو ظل الرحمة؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء، والرحمة للمؤمنين، ثم في الدنيا لكافة الخلائق أجمعين. ويقال قوله للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ ثم قوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ سترأ لما كان كاشفة به أولاً، إجراء للسنة في إخفاء الحال عن الرقيب. قال لموسى عليه السلام: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾

[الأعراف: ١٤٣]. وقال لنبينا عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَيْكَ﴾ وشتان ما هما!

ويقال أحيا قلبه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَيْكَ﴾ إلى أن قال: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ فجعل استقلاله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَيْكَ﴾ إلى أن سمع ذكر الظل. ويقال أحياه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَيْكَ﴾ ثم أفناه بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ وكذا سُئِلَ مع عباده؛ يُرَدُّهُمْ بين إفناء وإبقاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِأَسَآ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾^(١).

جعل الليل وقتاً لسكون قوم ووقتاً لانزعاج آخرين؛ فأرباب الغفلة يسكنون في ليلهم، والمحبون يسهرون في ليلهم إن كانوا في رَوْح الوصال، فلا يأخذهم النوم لكمال أنسهم، وإن كانوا في ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم، فالسهرة للأحباب صفة؛ إما لكمال السرور أو لهجوم الهموم. ويقال جعل النوم للأحباب وقت التجلي بما لا سبيل إليه في اليقظة، فإذا رَأَوْا ربهم في المنام يؤثرون النوم على السهر^(٢)، قال قائلهم:

وإني لأستغفي وما بي نَغْسَةٌ لعلَّ خيالاً منك يلقي خيالها
وقال قائلهم:

رأيتُ سرورَ قلبي في منامي فأحببتُ الشُّعْسَ والمناما

ويقال النوم لأهل الغفلة عقوبة ولأهل الاجتهاد رحمة؛ فإن الحق - سبحانه - يُدْخِلُ عليهم النوم ضرورة رحمة منه بنفوسهم ليستريحوا من كد المجاهدة. قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾.

يُرْسِلُ رياحَ الكَرَمِ فتهب على قلوب ذوي الحاجات فتزعجها إلى طلب مباره، ويرسل رياحَ الولاية فتهب على قلوب الخواص فتطهرها من جميع الإرادات فتُكْفَى بالله لله، ويرسل رياحَ الخوفِ على قلوبِ العُصَاة فتحملهم على التَّدَم، وتطهرها من الإصرار فتراجع إلى التوبة، ويرسل رياحَ الاشتياق على قلوبِ الأحباب فتزعجها عن المساكنات، وتطهرها عن كل شيء إلا عن اللواعج فلا تستقر إلا بالكشف والتجلي.

(١) السُّبَات: النوم أو النوم الخفيف أو النوم الثقيل.

(٢) انظر حديث القشيري بالرسالة عن رؤيا القوم ص ٣٦٤، ٣٧٧ ففيها ترى الكرامات التي تحققت للأولياء أثناء نومهم.

ويقال إذا تَنَسَّمَ الْقَلْبُ نَسِيمَ الْقُرْبِ هَامٌ فِي مَلَكُوتِ الْجَلَالِ، وامتنحى عن كل مرسوم ومعهود.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِّنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْنًا وَنُقْفِيَهُمْ مِّمَّا خَلَقْنَا أَنْفَعًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا وَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

أنزل من السماء ماء المطر فأحيا به الغياض والرياض، وأنبت به الأزهار والأنوار، وأنزل من السماء ماء الرحمة فَعَسَلَ العصاة ما تلطخوا به من الأوضار، وما تدسوا به من الأوزار.

و﴿الطَّهُّورُ﴾ هو الطاهر المَطْهُرُ، وماء الحياء يطهر قلوب العارفين عن الجنوح إلى المساكنات وما يتداخلها في بعض الأحيان من الغفلات. وماء الرعاية يُخَيِّي به قلوب المشتاقين بما يتداركها من أنوار التجلي حتى يزول عنها عَطَشُ الاشتياق ويحصل فيها من سكينه الاستقلال، ويحيي به نفوساً ميتةً باتباع الشهوات فيردها إلى القيام بالعبادات.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾. إنَّ الله - سبحانه - خَصَّ نَبِيَنَا ﷺ بأن فضله على الكافة، وأرسله إلى الجملة، وبألا يُنْسَخَ شَرْعُهُ إلى الأبد. وبهذه الآية أدبه بأدق إشارة، حيث قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ وهذا كما قال: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦].

وَقَضَدُ الْحَقُّ أَنْ يَكُونَ خَوَاصُّ عِبَادِهِ أَبَدًا مَعْصُومِينَ عَنْ شَوَاهِدِهِمْ. وفي القصة أن موسى عليه السلام تَبَرَّمَ وقتاً بكثرة ما كان يُسأل، فأوحى الله في ليلة واحدة إلى ألف نبي من بني إسرائيل فأصبحوا رُسلًا، وتفرَّق الناس عن موسى عليه السلام إليهم عليهم السلام، فضاقت قلوب موسى وقال: يا رب، إني لا أطيق ذلك! فقبض الله أرواحهم في ذلك اليوم.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾. أي كُن قائماً بحَقِّنا من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا أو مبالاة بِمَن سوانا، فَإِنَّا نَعَصِمُكَ بِكُلِّ وَجْهِ، ولا نرفع عنك ظِلَّ عنايتنا بحال.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

البحر المِلْح لا عذوبة فيه، والعَذْب لا ملوحة فيه، وهما في الجوهرية واحد، ولكنه سبحانه - بقدرته - غَايَر بينهما في الصفة، كذلك خَلَقَ الْقُلُوبَ؛ بعضها مَعْدِنٌ اليقين والعرفان؛ وبعضها مَحَلُّ الشك والكفران.

ويقال أثبت في قلوب المؤمنين الخوف والرجاء، فلا الخوف يغلب الرجاء، ولا الرجاء يغلب الخوف.

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين: قلبَ المؤمن مضيئاً مشرقاً وقلبَ الكافر أسود مظلماً، هذا بنور الإيمان مُزَيَّن، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَّم.

ويقال قلوبُ العوام في أسرِ المطالب ورغائبِ الحظوظ، وقلوبُ الخواص مُغْتَنَّة عن المطالب، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

الخلقُ متشاكلون في أصل الخِلقة، متماثلون في الجوهرية، متباينون في الصفة، مختلفون في الصورة؛ فنفسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار، ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة. والخلقُ بشرٌ. ولكن ليس كلُّ بشرٍ كبشرٍ؛ واحدٌ عدوٌّ لا يسعى إلا في مخالفته، ولا يعيش إلا بنصيبه وحظه، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقي عن حدِّ الوقاحة والخساسة، وواحدٌ وليٌّ لا يفتُر عن طاعته، ولا ينزل عن همِّته، فهو في سماء تعززه بمعبوده.

وبينهما للناس مناهل ومشارب؛ فواحدٌ يكون كما قال:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾.

يكتفي بالمنحوت من الخشب، والمصنوع من الصُّخر، والمُتَّخَذ من النحاس، وكلُّها جمادات لا تعقل ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع.

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أنَّه لا يلتفت إلى العرش - وإن علا، ولا ينقاد بقلبه لمخلوفٍ - وإنَّ لتصف بهنابق لا تُخصى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

رسولاً مِّنَّا، مأموراً بالإنذار والتبشير، واقفاً حيث وقفناك على نعت التبليغ، غير طالبٍ منهم أجراً، وغير طامع في أن تجد منهم حظاً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءِ أَن يَتَّخِذَ لِي رِزْقًا سَبِيلًا﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء منقطع؛ إذ ابتغواهم السبيل إلى ربهم ليس بأجر يأخذه منهم، فهو لِمَنْ أَقْبَلَ بشيرٌ، وَلِمَنْ أَعْرَضَ نذيرٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى آلِهِي الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾.

التوكُّل تفويضُ الأمور إلى الله. وحَقُّه وأصلُّه عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثات كلها حاصِلةٌ من الله تعالى، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيره.

فإذا عَرَفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه - إذا عِلِمَ أن مرادَه لا يرتفع إلا من قِبَلِ الله - حصل

له أصل التوكل . وهذا القَدْرُ قَرْضٌ ، وهو من شرائط الإيمان ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] وما زاد على هذا القَدْر - وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار - فهي أحوال تلحق بالتوكل^(١) على وجه كماله .

فإن تقرَّرَ هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكل درجة من هذه الأقسام اسم : إمَّا من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفي بما في يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . . وتسمى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالحاصل له فلا يستزيد ثم اكتفاء كل أحد يختلف في القلة والكثرة ، وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الجحوص وإرادة الزيادة .

ثم بعد هذا سكون القلب في حالة عَدَم وجود الأسباب ، فيكون مجرداً عن الشيء ، ويكون في إرادته متوكلاً على الله . وهؤلاء متباينون في الرتبة ، فواحد يكتفي بوعده لأنه صدَّقه في ضمانه ، فيسكن - عند فقد الأسباب - بقلبه ثقةً منه بوعده ربه . . ويسمى هذا توكلاً ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بضمن الرب ، أو سكون الجاش في طلب المعاش ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نقده ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

وألطف من هذا أن يكتفي بعلم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله ؛ ويعمل على طاعته ؛ ولا يراعي إنجاز ما وعدّه ؛ بل يكِل أمره إلى الله . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض^(٢) ، وهو أن يكِل أمره إلى الله ، ولا يقترح على مولاه بحال ، ولا يختار ؛ ويستوي عنده وجود الأسباب وعدَمُها ؛ فيشتغل بأداء ما ألزمه الله ؛ ولا يفكر في حال نفسه ؛ ويعلم أنه مملوك لمولاه ؛ والسيد أُلْ بِعَبْدِهِ من العبد بنفسه^(٣) .

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٦٢ - ١٧٣ حديث القشيري عن التوكل .

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن التوكل : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض : فالتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . ويقول : التوكل بداية ، والتسليم واسطة والتفويض نهاية . وقال : التوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين ، فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص وكان يقول : التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام ، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ . (الرسالة القشيرية ص ١٦٦ ، ١٦٧) .

(٣) قال القشيري في حديثه عن نفس الموضوع : وقيل : دخل جماعة على الجنيد ، فقالوا : أين نطلب الرزق؟ فقال : إن علمتم في أي موضع فاطلبوه ، قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك ، فقال : إن علمتم أنه ينسلكم فاذكروه ، فقالوا : ندخل البيت فتوكل ، فقال : التجربة شك . قالوا : فما الحيلة؟ فقال : ترك الحيلة . (الرسالة القشيرية ص ١٦٨ ، ١٦٩) .

فلذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ راحةً في المَنع؛ واستعذب ما يستقبله من الرُّدِّ. . . وتلك هي مرتبة الرضا^(١)؛ ويحصل له في هذه الحالة مَن فوائد الرضا ولطائفه ما لا يحصل لِمَن دونه من الحلاوة في وجود المقصود.

وبعد هذا الموافقة؛ وهي ألا يجد الراحة في المَنع، بل يجد بَدَل هذا عند نسيم القربِ زوائد الأُنس بنسيان كلِّ أَرَبٍ، ونسيان وجود سببٍ أو عدم وجود سبب؛ فكما أنَّ حلاوة الطاعة تتصاغر عند بَرَد الرضا - وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجاباً - فكذلك أهل الأُنس بالله. بنسيان كلِّ قَفْدٍ وَوَجْدٍ، وبالتغافل عن أحوالهم في الوجود والعدم يعدون النزول إلى استلذاذ المنع، والاستقلال بلطائف الرضا نقصاناً في الحال.

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملة بالكلية، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء. . . وأمثال هذا، وذلك هو عين التوحيد، فعند ذلك لا أُنس ولا هيبة، ولا لذة ولا راحة، ولا وحشة ولا آفة.

هذا بيان ترتيبهم فأما دون ذلك فالخير عن أحوال المتوكلين - على تباين شُرُوبهم - يختلف على حسب اختلاف محالهم.

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد؛ لا شيء مِنْ قَبْلِهِ إلا أن يرضعه مَنْ هو في حضانه^(٢).

ويقال التوكل زوال الاستشراف، وسقوط الطمع، وفراغ القلب من تعب الانتظار.

ويقال التوكل السكون عند مجاري الأقدار على اختلافها.

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب، ولا يقدح في توكله.

ويقال عوام المتوكلين إذا أُعْطُوا شكروا، وإذا مُنِعُوا صبروا. وخواصهم إذا أُعْطُوا آثروا، وإذا مُنِعُوا شكروا.

ويقال الحقُّ وجود على الأولياء - إذا توكلوا - بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَب ولا يُحْتَسَب، وجود على الأصفياء بسقوط الأرب. . . وإذا لم يكن الأَرَبُ فمتى يكون الطلب؟ ويقال التوكل في الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ، فأما التوكل على الله في إصلاحه - سبحانه - أمور آخرة العبد فهذا أشدُّ غموضاً، وأكثرُ خفاءً. فالواجب في الأسباب

(١) انظر حديث القشيري عن الرضا برسالته ص ١٩٢ - ١٩٧.

(٢) القشيري هنا متأثر بشيوخه حيث قال برسالته بهذا المعنى: قيل: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يَأْوِي إليه إلا ندي أمه، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه تعالى. (الرسالة القشيرية ص ١٦٨). وقال دلف الشبلي بهذا المعنى: الصوفية أطفال في حجر الحق. (الرسالة القشيرية ص ٢٨٢).

الدنيوية أن يكون السكون عن طلبها غالباً، والحركة تكون ضرورة. فأمّا في أمور الآخرة وما يتعلّق بالطاعة فالواجب البدار والجِدُّ والانكماش، والخروج عن أوطان الكسل والجنوح إلى الفضل.

والذي يتّصف بالتواني في العبادات، ويتباطؤ في تلافي ما ضيَّعه من إرضاء الخصوم والقيام بحق الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكِّل على الله وأنه - سبحانه - يعفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلول الحال، مَمَكُورٌ مُسْتَدْرَجٌ، بل يجب أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه. ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته، ولا يستند إلى سكونه وحركته، ويتبرأ بسره من حوله وقوته. ثم يكون حسن الظن بربه، ومع حسن ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته، اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب؛ فإن ذلك - إذا حصل - فالوقت غالب، وهو أحد ما قيل في معاني قولهم: الوقت سيف^(١).

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

انتظم به الكون - والعرش من جملة الكون - ولم يتجمل الحق - سبحانه - بشيء من إظهار برئته؛ فعلوه على العرش بقهره وقدرته، واستواؤه بفعل خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ تُقُورًا﴾.

أقبل الحق - سبحانه - بلطفه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعززه فلذلك جحدوه؛ فطَرَهُمُ على سِمَةِ البُغْدِ، وَعَجَنَ طينتهم بماء الشقاوة والصد، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجد.

قوله جل ذكره: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبًّا وَضُرَّاجًا مِّنِيرًا﴾.

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح، وخلق فيها البروج، وبث فيها الكواكب، وصان عن الفطور والتشويش أقطارها ومناكبها، وأدار بقدرته أفلاكها، وأدام على ما أراد إمساكها.

وكما أثبت في السماء بروجاً أثبت في سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً؛ فبروج السماء معدودة وبروج القلب مشهودة.

(١) قال القشيري عند حديثه عن الوقت بالرسالة: وقالوا: الوقت سيف أي كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب. وقيل: السيف لين منه قاطع حده، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصطلم، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه انتكس وتردى، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الوقت مبرديسحقك ولا يمحققك. (الرسالة القشيرية ص ٥٥، ٥٦).

وبروجُ السماء بيوتُ شمسها وقمرها ونجومها، وبروجُ القلب مطالعُ أنوارها ومشارِقُ شمسها ونجومها. وتلك النجوم هي نجوم القلوب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم، وقمرُ القلوب المعرفة.

قمرُ السماء له نقصان ومحاق، وفي بعض الأحيان هو بذُرٌ بوصف الكمال، وقمر المعرفة أبدأ له إشراق وليس له نقصان أو محاق، ولذا قال قائلهم:

دع الأقمارَ تخبو أو تنير لها بذُرٌ تذلُّ له البدور
فأما شمسُ القلوب فهي التوحيد، وشمسُ السماء تغرب ولكن شمسُ القلوب لا تغيب ولا تغرب، وفي معناه قالوا:

إن شمسَ النهارِ تغرب بالليل وشمسُ القلوب ليست تغيب
ويصحُّ أن يقال إن شمسَ النهار تغرب بالليل، وشمسُ القلوب سلطانها في الضوء والطلوع بالليل أتم.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ الْإِتِّلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنَ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

الأوقات متجانسة، وتفضيلها بعضها على بعض على معنى أنَّ الطاعة في البعض أفضل والثواب عليها أكثر. والليلُ خلفَ النهار والنهارُ خلفَ الليل، فَمَن وقع له في طاعة الليل خللٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جُبرانه، وإن حصل في طاعة النهار خللٌ فإذا حضر بالليل ففي ذلك إتمام لنقصانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وقَّفوا للطاعات، فبرحمته وصلوا إلى التوفيق للطاعة. وعِبَادُ الرحمن الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته؛ فبرحمته وصلوا إلى طاعته. . هكذا بيان الحقيقة، وبطاعتهم وصلوا إلى جنته. . هكذا لسان الشريعة.

ومعنى ﴿هَوْنًا﴾ متواضعين متخاشعين.

ويقال شرطُ التواضع وَحْدَهُ أَلَا يَسْتَحْسِنُ شيئاً من أحواله، حتى قالوا^(١): إذا نَظَرَ إِلَى رِجْلِهِ لَا يَسْتَحْسِنُ شَيْئاً نَعْلِهِ^(٢)، وعلى هذا القياس لا يُسَاكِنُ أعماله، ولا يلاحظ أحواله.

(١) انظر هذا القول للدقاق في الرسالة القشيرية ص ١٤٥.

(٢) الشنع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام. (اللسان ٨/ ١٨٠ مادة: شنع).

قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾: قيل سداد المنطق؛ ويقال مَنْ خَاطَبَهُم بِالْقَدَحِ فهم يجابونه بالمدح له.

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم، الطاعنون فيهم، العائبون لهم قابلوا ذلك بالرفق، وحسن الخلق، والقول الحسن والكلام الطيب.

ويقال يخبرون مَنْ جفاهم أنهم في أمان من المجافة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

يبيتون لربهم ساجدين، ويصبحون واجدين؛ فَوَجَدُ صباحهم ثمرات سجد أرواحهم، كذا في الخبر: «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ»^(١) أي عَظُم ماء وجهه عند الله، وأحسن الأشياء ظاهراً بالسجود مُحَسَّنٌ وباطناً بالوجود مُزَيَّنٌ.

ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

يجتهدون غاية الاجتهاد، ويستفرغون نهاية الوسع، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة، ويقفون موقف أهل الاعتذار، ويخاطبون بلسان التَّضَلُّ كما قيل:

وما رُمْتُ الدخولَ عليه حتى حَلَلْتُ محلة العبد الذليل

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

الإسراف أن تنفق في الهوى وفي نصيب النفس، فأما ما كان لله فليس فيه إسراف، والإقتار ما كان ادخاراً عن الله. فأما التضييق على النفس منعاً لها عن اتباع الشهوات ولتعود الاجترار باليسير فليس بالاقتار المذموم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

﴿إِلَهًا آخَرَ﴾: في الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من الأحجار، المنحوتة من الأشجار.

وكما تتصف بهذا النفوس والأبشار فكَذَلِكَ تَوَهُمُ المَبَارُّ والمضارُّ من الأغيار شِرْكٌ.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾ من النفوس المُحَرَّمُ قَتْلُهَا على العبد نفسه المسكينة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وقَتْلُ النفس من غير حقِّ تمكينك لها من اتباع ما فيه هلاكها في الآخرة؛ فإنَّ العبد إذا لم يَتَّعِ مأمور

(١) أخرجه ابن ماجه ١٧٤.

ثم دليل الخطاب أن تقتلها بالحق، وذلك بذنبها بسكين المخالفات، فما فلاحك إلا بقتل نفسك التي بين جنبيك.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

يضاعف لهم العذاب يوم القيامة بحسرات الفرقة وزفرات الحرقه. وآخرون يضاعف لهم العذاب اليوم بتراكم الخذلان ووشك الهجران ودوام الحرمان. بل من كان مضاعف العذاب في عقباه فهو الذي يكون مضاعف العذاب في دنياه؛ جاء في الخبر: «مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا».

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

إلا من تاب من الذنب في الحال؛ وآمن في المآل.

ويقال: ﴿وَأَمَنَ﴾ أن نجاته بفضل الله لا بتوبته، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لا ينقض توبته.

ويقال إن نقض توبته عمل صالحاً أي جدد توبته؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾. ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان.

ويقال يبدل الله سيئاتهم حسنات فيغفر لهم ويشيهم على توبتهم.

ويقال يمحو ذلة زلاتهم، ويثبت بدلها الخيرات والحسنات، وفي معناه أنشدوا:

ولما رضوا بالعفو عن ذي زلة حتى أنالوا كفه وأفادوا

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾^(٢).

يستمكنون في مواطن الصدق لا يبرحون عنها ليلاً ونهاراً، وقولاً وفعلًا. وإذا مروا بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مغرضين لا يساكنون أهل تلك الحالة.

ويقال نزلت الآية في أقوام مروا - لما دخلوا مكة بأبواب البيوت التي كانوا يعبدون فيها الأصنام مرة - متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فشكر الله لهم ذلك.

ثم قال في صفتهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بل قابلوها بالتفكير والتأمل، واستعمال النظر.

(١) الآية (٦٩) لم ترد.

(٢) الآية (٧١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

قرة العين من به حياة الروح، وإنما يكون كذلك إذا كان بحق الله قائماً.

ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معانقاً، ولمخالفة أمره مفارقاً.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الإمام من يقتدى به ولا يتبدع.

ويقال إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع، ولم يدعوا فيها اختيارهم؛ فالإمامة بالدعاء لا بالدعوى، فقالوا: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيَهُمْ وَسَلَامًا﴾.

يعطي - سبحانه - الكثير من عطائه ويعدّه قليلاً، ويقبل اليسير من طاعة العبد ويعدّه كثيراً عظيماً، يعطيهم الجنة؛ قصوراً وحوراً ثم يقول: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ﴾ ويقبل اليسير من العبد فيقول: ﴿فَجَاءَ بِعَبْلِ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٢].

ليُرّوه من غير تكلف نقل، ولا تحمل قطع مسافة.

ويقال: ﴿هَبْ لَنَا جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]: اليوم يحضر العبد بيته لأداء العبادة، وينقل أقدامه إلى المساجد، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قطع المسافة، فهم على أرائكهم - في مستقر عزهم - يسمعون كلام الله، وينظرون إلى الله.

قوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي صبروا عما نهوا عنه، وصبروا على الأحكام التي أوجراها عليهم بترك اختيارهم، وحسن الرضا بتقديره.

قوله جل ذكره: ﴿حَكِّدِينَ فِيهَا حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

مقيمين لا يبرحون منازلهم، وفي أحوالهم حسن مستقرهم مستقراً، وحسن مقامهم مقاماً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا لِيُؤْتُوا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

لولا عبادتكم الأصنام ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادة وتسميتكم لها آلهة.. متى كان بخلدكم في النار؟

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهاال لأدام بكم البلاء، ولكن لما أخذتم في الاستكانة والدعاء، وتضرعتم رجكم وكشف الضر عنكم.

السورة التي يذكر فيها الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز يرتضي من الزاهد ترك دنياه، ومن العابد مخالفة هواه، ومن القاصد قطع مناه، ولا يَرْضَى مِنَ الْعَارِفِ أَنْ يُسَاكِنَ شَيْئاً غَيْرَ مَوْلَاهُ. إِنَّ خَرَجَ عَنْ كُلِّ مَرْسُومٍ - بِالْكَلِيَّةِ، وانسلخ عن كل معلوم - مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى لَهُ مِنْهُ بَقِيَّةٌ فَلَعَلَّهُ يَجِدُ شَظِيَّةً. وَإِنْ عَرَّجَ عَلَى شَيْءٍ، وَلَمْ يَضْفُ مِنَ الْكَدُورَاتِ - حَتَّى عَنْ سِيرِهَا - وَإِنْ دَقَّ - فَإِنَّهُ كَمَا فِي الْخَبَرِ: «الْمُكَاتَّبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دَرَاهِمٌ»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿طَسَّرَ تِلْكَ ءَابَتْكَ أَلْكَتَبِ الْيَمِينِ﴾.

ذَكَّرْنَا فِيْمَا مَضَى اخْتِلَافَ السَّلَفِ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ؛ فعند قوم: الطاء إشارة إلى طهارة عِزِّهِ وَتَقْدُّسِ غُلُوِّهِ، والسين إشارة ودلالة على سناء جبروته، والميم دلالة على مَجْدِ جلاله في آزاله.

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى^(٢)، والسين إلى بَذْرَةِ الْمُنتَهَى^(٣)، والميم إلى اسم محمد ﷺ؛ أي ارتقى محمد ليلة الإسراء عن شهوده شجرة طوبى حتى بَلَغَ سِدْرَةَ الْمُنتَهَى، فلم يُسَاكِنَ شَيْئاً مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى.

ويقال الطاء طَرَبُ أَرْبَابِ الْوَصْلَةِ عَلَى بَسَاطِ الْقَرَبِ بِوَجْدَانِ كَمَالِ الرُّوحِ، والسين سرورُ الْعَارِفِينَ بِمَا كُوشِفُوا بِهِ مِنْ بَقَاءِ الْأَحْدِيَّةِ بِاسْتِقْلَالِهِمْ بِوُجُودِهِ وَالْمِيمِ إشارة إلى موافقتهم لله بِتَرْكِ التَّخَيُّرِ عَلَى اللَّهِ، وَحُسْنِ الرِّضَا بِاخْتِيَارِ الْحَقِّ لَهُمْ.

ويقال الطاء إشارة إلى طيبِ قُلُوبِ الْفُقَرَاءِ عِنْدَ فَقْدِ الْأَسْبَابِ لِكَمَالِ الْعَيْشِ بِمَعْرِفَةِ وَجُودِ الرِّزَاقِ بِذَلِكَ طِيبِ قُلُوبِ الْعَوَامِ بِوُجُودِ الْأَرْزَاقِ وَالْأَرْزَاقِ.

ويقال الطاء إشارة إلى طهارة أسرار أهل التوحيد، والسين إشارة إلى سلامة

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١) والترمذي (يبوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

(٢) الطوبى: الحسن، والخير، وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال وغنى بلا فقر.

(٣) سدرة المنتهى: شجرة في الجنة.

قلوبهم عن مساكنة كل مخلوق، والميم إشارة إلى مئة الحق عليهم بذلك.

قوله جل ذكره: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

أي لِحِزْبِكَ على إيمانهم ولإشفاقك من امتناعهم عن الإيمان فأنت قريب من أن تقتل نفسك من الأسف على تركهم الإيمان.

فلا عليك - يا محمد - فإنه لا تبدل لِحُكْمِنَا؛ فَمَنْ حَكَمْنَا له بالشقاوة لا يؤمن. ليس عليك إلا البلاغ؛ فإن آمنوا فيها، وإلا فكلُّهُمْ سَيَرُونَ يوم الدين ما يستحقون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَطَلََّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنَا﴾.

أخبر عن قدرته على تحصيل مراده من عباده، فهو قادر على أن يؤمنوا كرهاً؛ لأن التقاصر عن تحصيل المراد يوجب النقص والقصور في الألوهية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَبَّرٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

أي ما تجدد لهم شريعاً، وما نرسل لهم رسلاً... إلا أعرضوا عن تأمل برهانه، وقابلوه بالكذب. فلو أنهم أنعموا النظر في آيات الرسل لاتضح لهم صِدْقُهُمْ، ولكن المقسوم لهم من الخذلان في سابق الحكم يمنعه من الإيمان والتصديق. فقد كذبوا، وعلى تكذيبهم أصرُّوا، فسوف تأتيتهم عاقبة أعمالهم بالعقوبة الشديدة، فيذوقون وبالَ شِرْكِهِمْ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرِهْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَنْجٍ كَرِهَ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

فنون ما ينبت في الأرض وقت الربيع لا يأتي عليه الحصر، ثم اختصاص كل شيء منها بلون وطعم ورائحة مخصوصة، ولكل شكل وهيئة ونور مخصوص، وورق مخصوص... إلى ما تلطف عنه العبارة، وتديق فيه الإشارة. وفي ذلك آيات لمن استبصر، ونظر وفكر.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: القاهر الذي لا يقهر، القادر الذي لا يقدر، المنيع الذي لا يخبر. ﴿الرَّحِيمُ﴾: المحسن لعباده، المريد لسعادة أوليائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمٌ فَرَعُونَ أَلاَّ يَتَّقُونَ﴾.

أخبر أنه لما أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله عليم أن شديد الخصومة، قد غرته نفسه فهو لا يبالي بما فعل. وأخذ (موسى) يتعلل - لا على جهة الإباء والمخالفة - ولكن على وجه الاستعفاء والإقالة إلى أن عليم أن الأمر به جزم، والحكم به عليه حتم.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(١) الآية (٦) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَصْبِقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَازِغُونَ وَلَكُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

سأل موسى - عليه السلام - أن يشفعه بهارون ويُسركه في الرسالة . وأخبر أنه قتل نفسه، وأنه في حكم فرعون عليه دم، فقال: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ إلى أن قال له الحق: -
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِإِثْنَيْنِآ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾.

﴿كَلَّا﴾ حرف رذع وتنبيه؛ أي كلا أن يكون ذلك كما توهمت، فازتدع عن تجويز ذلك، وانتبه لغيره. إني معكما بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة، واليد ستكون لكما، والسلطان سيكون لكما دون غيركما، فإنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم، وأنصبر ما يُنصرون وما تُنصرون أنتم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَيَُّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ويقال في القصة: إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنة كاملة ولم يجدا طريقاً إليه. ثم بعد سنة عرّضا الرسالة عليه، فقابلهما بالتكذيب، وكان من القصة ما كان^(١). . . وقال فرعون لما رأى موسى:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

فلم يكن لموسى - عليه السلام - جواب إلا الإقرار والاعتراف، فقال:
﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَفَعَلْتَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قال: كل ذلك قد كان، وفررت منكم لما خفتكم، فأكرمني الله بالنبوة، وبعثني رسولا إليكم. . .

ويقال: لم يجحد حق تربيته، والإحسان إليه في الظاهر، ولكن بين أنه إذا أمر الله بشيء وجب اتباع أمره. ولكن إذا كانت تربية المخلوقين توجب حقا فتربيه الله أولى بأن يعظم العبد قدرها.

قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾: يجوز حملُه على ظاهره، وأنه خاف منهم على نفسه. والفراؤ - عند عدم الطاقة - غير مذموم عند كل أحد.

ويقال: فررت منكم لما خفت أن تنزل بكم عقوبة من الله لشؤم شريككم، أو من قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

ذَكَرَ فرعون - من جملة ما عَدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه - أنه استحياء بين بني إسرائيل، ودفع عنه القتل، فقال موسى: أو تلك نعمة تمنها عليّ؟ هل استعبادك لبني إسرائيل يَعدُّ نعمة؟ إنَّ ذلك ليس بنعمة، ولا لَكَ فيها مِنة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

نَظَرَ اللعينُ بِجَهْلِهِ، وسأل على النحو الذي يليق بِعِيهِ؛ فسأل بلفظ ﴿مَا﴾ - و«ما» يُستخبرُ بها عما لا يعقل، فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولكنَّ موسى أعرض عن لفظه ومقتضاه، وأخبر عما يصحُّ في وصفه تعالى فقال:

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.

فَذَكَرَ صفته - سبحانه وتعالى - بأنه إله ما في السموات والأرض، فأخذ في التعجب، وقال:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ آلَا تَسْمَعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾.

قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فحاد فرعون عن سنن الاستقامة في الخطاب، وأخذ في السفاهة قائلاً:

﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَىٰ أُورِيلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

لأنه يزعم أنَّ هناك إلهاً غيره. ولم يكن في شيء مما يجري من موسى - عليه السلام - أو مما يتعلّق به وصفُ جنونٍ. ولم يُشغَلْ بمجاوبته في السفاهة فقال:

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾.

أي إن كنتم من جملة مَنْ له عقلٌ وتمييزٌ. فقال فرعون:

﴿قَالَ لِيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَهاً غَيْرِي لَآتَعْلَمَنَكَ مِّنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

مضى فرعون يقول: لأفعلن، ولأصنعن... إن اتخذت إلهاً غيري وجرى ما جرى ذِكْرُه وشرّحه في غير موضع.

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا، وَقَلَبَهَا - سبحانه - ثعباناً كاد يلتقم دار فرعون بمن فيها، ووَتَّبَ فرعونُ هارباً، واختفى تحت سريره، وهو ينتفض من الخوف، وتَلَطَّحَتْ بِرُؤُوسِهِ^(١) وافتضح في دعواه، واتضح حالته، فاستغاث بموسى واستجاره، وأخذ موسى الثعبان فردّه الله عصاً.

(١) البُرَّة: الهيئة والشارة واللبسة (اللسان ٥/٣١٢ مادة: بز).

ولمَّا فارقَهُ موسى - عليه السلام - تداركته الشقاوة، وأدركه شؤمُ الكفر، واستولى عليه الحرمانُ، فجمَعَ قومَه وكلمَهُم في أمره، وأجمعوا كلُّهم على أنه سحرَهُم. وبعد ظهور تلك الآية عاد إلى غيِّه... كما قيل:

إذا ازغوى عادَ إلى جَهْلِهِ كَذِي الضُّئى عادَ إلى نُكْسِهِ

ثم إنه جمَعَ السَّحَرَةَ، واستعان بهم، فلمَّا اجتمعوا قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣]. فنطقوا بخساسة همتهم، فضمنَ لهم أجرَهُم. وإنَّ مَنْ يعمل لغيره بأجرَةٍ ليس كمَنْ يكون عمله لله. ومَنْ لا يكون له ناصرٌ إلَّا بضمانِ الجعالة ويذلُّ الرُّشَا فَعَن قَرِيبٍ سِيُخَذَلُ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لِينَ الْمُفْرِينَ﴾.

قال فرعون: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذَا لِينَ الْمُفْرِينَ﴾، وَمَنْ طَلَبَ القربةَ عند مخلوقٍ فإنَّ ما يصل إليه من الذلِّ يزيد على ما أمَّله من العزِّ في ذلك التقرُّب. والمُفْرِبُونَ من الله أولُّ من يدخل عليه يومَ اللقاء، فهم أولُّ مَنْ لهم وصولٌ. والمُفْرِبُونَ من الله لهم على الله دخلةٌ، والناسُ بوصف الغفلة والخلق في أسرِ الحجة.

ثم لما اجتمع الناسُ، وجاء السَّحَرَةُ بما موَّهوا، التَقَمَتْ عصا موسى جميعَ ما أتوا به، وعادت عصاً، وتلاشت أعيانُ جِبَالِهِم التي جاءوا بها، وكانت أوقاراً، وألْقَى السحرةُ سَجْدًا، ولم يحتفلوا بتهديد فرعون إياهم بالقتل والصلب والقطع، فأصبحوا وهم يُقْسِمُونَ بجزرة فرعون، ولم يُنسوا حتى كانوا يقولون: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَاسِ﴾ [طه: ٧٢].

ثم لما ساعدَهُم التوفيقُ، وآمنوا بالله كان أهمُّ أمورهم الاستغفارُ لِمَا سَلَفَ من ذنوبهم، وهذه هي غاية همة الأولياء، أن يستجبروا بالله، وأن يستعيدوا من عقوبة الله، فأعرَفَهُم بالله أخوفُهُم مِنْ الله.

ولمَّا أَمَرَ اللَّهُ موسى بإخراج بني إسرائيل، وتبِعَهُم فرعونُ بجَمْعِهِ، وقال أصحابُ موسى^(٢):

﴿فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

فكان كما قال، إذ هداهم الله وأنجاهم، وأغرَقَ فرعونَ وقومَه وأقصاهم، وقد قال سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] يُنَجِّهِم من كلِّ بلاء، ويخصُّهم بكلِّ نعمة^(٣).

(٢) الآيات من (٤٣ حتى ٦٠) لم ترد.

(١) الآيات من (٣٠ حتى ٤١) لم ترد.

(٣) الآيات من (٦٣ حتى ٦٨) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذَرْتُ عَلَيْهِمْ نَارَ ابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكُمُ إِذِ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُكُمْ أَوْ يَضُرُّكُمْ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

عاتب إبراهيم أباه وقومه، وطالبهم بالحجة على ما عابهم به وقال لِمَ تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر؛ ولا ينفع ولا يضر، ولا يحس ولا يشعر؟ فلم يرجعوا في الجواب إلا إلى تقليدهم أسلافهم، وقالوا:

على هذه الجملة وجدنا أسلافنا. فنطق إبراهيم - عليه السلام - بعد إقامة الحجة عليهم والإخبار عن قبيح صنيعهم بمنح مولاة والإغراق في وصفه، وقال:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْمَلَائِكَةِ﴾.

ذكرهم بأقل عبارة فلم يقل: فإنهم أعداء لي، بل وصفهم بالمصدر الذي يصلح أن يوصف به الواحد والجماعة فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾.

ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْمَلَائِكَةِ﴾، وهذا استثناء منقطع، وكأنه يضرب بلطف عن ذكرهم صفحاً حتى يتوصل إلى ذكر الله، ثم أخذ في شرح وصفه كأنه لا يكاد يسكت، إذ مضى يقول: والذي... والذي... والذي... ومن أمارات المحبة كثرة ذكر محبوبك، والإعراض عن ذكر غيره، فتتزه المحبين بتقليبهم في رياض ذكر محبوبهم، والزهاد يعددون أورادهم، وأرباب الحوائج يعددون مآربهم، فيطنبون في دعائهم، والمحبون يسهبون في الثناء على محبوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

كان مهتدياً، ولكنه يقصد بالهداية التي ذكرها فيما يستقبله من الوقت، أي: يهديني إليه به، فإنني مخق في وجوده وليس لي خبر عني!

والقوم حين يكونون مستغرقين في نفوسهم لا يهتدون من نفوسهم إلى معبودهم، فيهديهم عنهم إلى ربهم، ويصيرون في نهايتهم مستهلكين في وجوده، فأنين عن أوصافهم، وتصير معارفهم - التي كانت لهم - واهية ضعيفة، فيهديهم إليه^(١).

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن المعرفة بالله: قال محمد الواسطي: لا تصح المعرفة وفي العبد استثناء بالله تعالى وافتقار إليه، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: أراد محمد الواسطي بهذا أن الافتقار والاستثناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه لأنهما من صفاته. (الرسالة القشيرية ص ٣١٣). وقيل لذي النون المصري: بماذا عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بري، ولولا ربي لما عرفت ربي. (الرسالة ص ٣١٥).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.

لم يُشِرْ إلى طعام معهودٍ أو شرابٍ مألوفٍ ولكن أشار إلى استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم، وإلى شراب محبته الذي يقوم بدل استقلال غيره بشرابهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِرَ النَّفْسُ﴾.

لم يَقُلْ: وإذا أمرضني لأنه حفظ أدب الخطاب. ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً، ولكنه أراد تمارضاً، كما يمارض الأحياء طمعاً في العيادة، قال بعضهم:

إن كان يمنعك الوشاة زيارتي فادخل عليَّ بِعَلَّةِ الْغُورَادِ
ويقول آخر:

يَوَدُّ بَأَن يَمْشِي سَقِيماً لَعَلَّهَا إِذَا سَمِعَتْ مِنْهُ بِشْكُوى تُرَاسِلُهُ
ويقال ذلك الشفاء الذي أشار إليه الخليل هو أن يَبْعَثَ إليه جبريل ويقول له:
يقول لك مولاك.. كيف كنت البارحة؟

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ يُنَحِّينِي﴾.

أضاف الموت إلى الله؛ فالموت فوق المرض، لأن الموت لهم غنيمة ونعمة؛ إذ يَصِلُونَ إليه بأرواحهم.

ويقال: ﴿يُبَيِّتُنِي﴾ بإعراضه عني وقت تعزُّزه، ﴿وَيُنَحِّينِي﴾ بإقباله عليَّ حين تَفَضُّلِهِ. ويقال يميّتي عني ويحييني به.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

خطيئة الأحياء شهودهم محتتهم، وتعنيهم عند شدة البلاء عليهم، وشكواهم مما يُسْهِم من برحاء^(١) الاشتياق، قال بعضهم:

وإذا محاسني - اللاتي أدلُّ بها - كانت ذنوبي.. فَقُلْ لي: كيف أعتذر

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْأَحْقَقِ بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿هَبْ لِي حُكْماً﴾: على نفسي، فإنَّ مَنْ لا حُكْمَ له على نفسه لا حُكْمَ له على غيره.

﴿وَالْأَحْقَقِ بِالصَّالِحِينَ﴾: فأقوم بحَقِّكَ دون الرجوع إلى طلب الاستقلال بشيء دون حقك.

(١) البرحاء: الشدة والمشقة. (اللسان ٢/ ٤١٠ مادة: برج).

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.
 في التفسير: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: أي ثناء حسناً على لسان أمة محمد ﷺ.
 ويقال لا أذكرك إلا بك، ولا أعرفك إلا بك.
 ويقال أن أذكرك ببيان آلائك^(١)، وأذكرك بعد قبض روعي إلى الأبد بذكر مُسرِّمٍ.

ويقال أذكرني على لسان المخبرين عنك.
 قوله جل ذكره: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّ إِنَّمَا كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾.
 على لسان العلماء: قاله بعد يأسه من إيمان أبيه، وأما على لسان الإشارة فقد ذكَّره في وقت غَلَبَاتِ البَسْطِ وَيَتَجَاوَزُ ذَلِكَ عَنْهُمْ.
 وليست إجابة العبد واجباً على الله في كل شيء، فإذا لم يُجِبْ فَإِنَّ للعبد سلوةً في ذكر أمثال هذا الخطاب، وهذا لا يهتدي إليه كلُّ أحدٍ.
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.
 أي لا تُخْزِلْنِي بتذكيري خلتي، فَإِنَّ شَهودَ مَا مِنَ العبد - عند أرباب القلوب وأصحاب الخصوص - أشدُّ عقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.
 قيل: «القلب السليم» اللديغ.

وقيل هو الذي سَلِمَ من الضلالة ثم من البدعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من الحجة ثم من المضاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة. هذه كلها آفات، والأكابر سَلِمُوا منها، والأصاغر امْتَحِنُوا بها.

ويقال: «القلب السليم» الذي سَلِمَ من إرادة نفسه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾.
 ﴿أَزَلَفَتْ﴾: أي قُرِبَتْ وَأُذِنَتْ في الوقت، فَإِنَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، وبالعين أَحْضَرَتْ. وكما تُجَرُّ النارُ إلى المحشر بالسلاسل فلا يَتَعَدَّ إدناء الجنة من المتقين.
 ﴿وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾: أَظْهَرَتْ؛ فتَوَكَّدَ الحُجَّةُ على أرباب الجحود، وَيُعْرَضُونَ على النار، وتُعْرَضُ عليهم منازل الأشرار، فَيَكْبِكُونَ فيها أجمعين، ويأخذون يَقْرَأُونَ بذنوبهم^(٢)، ومن جملتها ما أخبر أنهم يقولون:-
 ﴿تَأَسَّوْا إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ تُسَوِّكُمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(٢) الآيات من (٩٢ حتى ٩٦) لم ترد.

(١) الآلاء: النعم.

ولا فضيحة أقبح ولا عيب فيهم أشنع مما يعترفون به على أنفسهم بقولهم: ﴿إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ فَإِنَّ أَقْبَحَ أَبْوَابِ الشَّرِّ وَأَشْنَعَ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَأَقْبَحَ أَحْوَالِهِم - التشبيه في صفة المعبود^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ﴾.

في بعض الأخبار: يجيء - يوم القيامة - عَبْدٌ يُحْتَسَبُ فتستوي حسناته وسيئاته ويحتاج إلى حسنة واحدة يَرْضَى عنها خصوم، فيقول الله - سبحانه: عبدي... بقيت لك حسنة واحدة، إن كانت أَدْخَلْتُكَ الْجَنَّةَ... أَنْظُرْ... وَتَطَلَّبَ من الناس لعلَّ واحداً يهب لك حسنة واحدة. فيأتي العبد في الصفين، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أصحابه، ويقول لكل واحد في بابه فلا يجيبه أحد، فالكل يقول له: أنا اليوم فقير إلى حسنة واحدة، فيرجع إلى مكانه، فيسأله الحق - سبحانه: ماذا جئت به؟

فيقول: يا رب... لم يُعْطِنِي أَحَدٌ حَسَنَةً من حسناته.

فيقول الله - سبحانه: عبدي... ألم يكن لك صديق (في)؟.

فيتذكر العبد ويقول: فلان كان صديقاً لي.

فيدله الحق عليه، فيأتيه ويكلِّمه في بابه، فيقول: بلى، لي عبادات كثيرة قَبْلَهَا اليوم فقد وهبْتُكَ منها، فيسير هذا العبد ويجيء إلى موضعه، ويخبر ربه بذلك، فيقول الله - سبحانه: قد قَبِلْتُهَا منه، ولن أنقص من حقِّه شيئاً، وقد غفرت لك وله، وهذا معنى قوله.

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ﴾^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ذكر قصة نوح وما لقي من قومه، وأنهم قالوا:

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.

إن أتباع كل رسول إنما هم الأضعفون، لكنهم - في حكم الله - هم المتقدمون الأكرمون. قال عليه السلام: «نُصِرْتُ بضعفائكم».

وإن الله أغرق قومه لما أصرُّوا واستكبروا.

وكذلك قتل بمن ذكرتهم الآيات في هذه السورة من عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين... كل منهم قابلوا رُسُلَهُم بالكذب، قَدَّمَ اللَّهُ عليهم أجمعين، ونَصَرَ رسولَهُ على مقتضى سُنَّتِهِ الحميدة فيهم. وقد ذَكَرَ الله قصة كل واحد منهم ثم أعقبها بقوله:-

﴿وَلَوْ رَكَوُاْ لَعَزَّتْ رَكَبَتُكَ﴾.

(١) الآية (٩٩) لم ترد.

(٢) الآيتان (١٠٢ و ١٠٣) لم تردا والآيات من (١٠٦ حتى ١١٠) لم ترد.

﴿الْعَزِيزُ﴾: القادر على استئصالهم، ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي أحرَّ العقوبة عنهم بإمهالهم، ولم يقطع الرزق مع قُبْحِ فعالهم.

وهو ﴿عَزِيزٌ﴾ لم يُسْتَضَرَّ بقبيح أعمالهم، ولو كانوا أجمعوا على طاعته لَمَا تَجَمَّلَ بأفعالهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أخبر عن كل واحد من الأنبياء أنه قال: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرٌ﴾ لِيَعْلَمَ الكافة أن من عَمِلَ لله فلا ينبغي أن يَطْلُبَ الأجر من غير الله. وفي هذا تنبيه للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء - أن يتأدَّبوا بأنبيائهم، وألا يطلبوا من الناس شيئاً في بثِّ علومهم، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم، والتذكير لهم أنه مَنْ ارتفق في بثِّ ما يُذكرُ به من الدين وما يَعِظُ به المسلمين فلا يبارك الله للناس فيما منه يَسْمَعُونَ، ولا للعلماء أيضاً بركة فيما من الناس يأخذون، إنهم يبيعون دينهم بعرضٍ يسير، ثم لا بركة لهم فيه، إذ لا يبتغون به الله، وسيحصلون على سُخْطِ الله^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ لَنُنَزِّلَ رَّبِّ الْعَالَمِينَ نَزْلًا بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَفٍ مُبِينٍ﴾.

كلام الله العزيز مُنَزَّلٌ على قلب الرسول - ﷺ - في الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام. والكلام من الله غير منفصل، وبغير الله غير متصل... وهو - على الحقيقة لا على المجاز - مُنَزَّلٌ. ومعناه أن جبريل - عليه السلام - كان على السماء. فَسَمِعَ من الربِّ، وَحَفِظَ وَنَزَلَ، وَبَلَغَ الرسولَ. فَمَرَّةً كان يُدْخِلُ عليه حالةً تأخذه عنه عند نزول الوحي عليه. ثم يورِدُ جبريل ذلك على قلبه. ومرةً كان يتمثل له المَلَكُ فيُسمِعُهُ. والرسولُ - ﷺ - يحفظه ويؤدِّبه. والله - سبحانه ضَمِنَ له أنه سيُفَرِّقُهُ حتى لا ينساه. فكان يجمع الله الحِفْظَ في قلبه. وَسَهَّلَ له القراءة عند لفظه. ولَمَّا عَجَزَ الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدِّيه إياهم بالإتيان بمثله... عَلِمَ صِدْقُهُ في أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ لَفِي زُجُرٍ الْأَوَّلِينَ﴾.

جميع ما في هذا الكتاب من الأخبار والقصص، وما في صفة الله من استحقاق جلاله - موافق لما في الكتب المُنَزَّلَة من قِبَلِ الله قَبْلَهُ، فمهما عارضوه فإنه كما قال جلَّ شأنه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

ثم أخبر أنه لو نُزِّلَ هذا الكتاب بغير لسانهم وبلغه غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك، وَلَقَالُوا: لو كان بلساننا لعرفناه ولَأَمْنَا به، فازاح عنهم العِلَّةَ، وأكد عليهم الحُجَّةَ.

(٢) الآيات من (١٢٨ - حتى ١٩١) لم ترد.

(١) الآيات من (١١٢ حتى ١٢٦) لم ترد.

ثم أخبر عن صادق علمه بهم، وسابق حكمه بالشقاوة عليهم، وهو أنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب في القيامة، حين لا ينفعهم الإيمان ولا الندامة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ﴾.

إن أرحمنا المدة، وأمهلناهم أزمنة كثيرة - وهم بوصف الغفلة - فما الذي كان ينفعهم إذا أخذهم العذاب بغتة؟!

ثم أخبر أنه لم يهلك أهل قرية إلا بعد أن جاءهم النذير وأظهر لهم البيّنات، فإذا أصرّوا على كفرهم عذبهم^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾.

وجذّوا السمع - الذي هو الإدراك - ولكن عديموا الفهم، فلم يستجيبوا لما دُعوا إليه. فعند ذلك استوجبوا من الله سوء العاقبة^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

وذلك تعريف له أنهم لا تنفعهم قرابتهم منه، ولا تقبل شفاعته - إن لم يؤمنوا - فيهم. فليس هذا الأمر من حيث النسب، فهذا نوح لما كفر أبوه لم تنفعه بئوته، وهذا الخليل إبراهيم عليه السلام لما كفر أبوه لم تنفع أبوته، وهذا محمد - عليه الصلاة والسلام - كثير من أقاربه كانوا أشد الناس عليه في العداوة فلم تنفعهم قرابتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْضَ جُنَاحِكَ لِيُصِيبَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ألن جانيك وقاربهم في الصلابة^(٤)، واسحب ذيل التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير، واحتمل منهم سوء الأحوال، وعاشيروهم بجميل الأخلاق، وتحمل عنهم كلهم، وازحمهم كلهم، فإن مرضوا فعذبهم، وإن حرموك فأعطهم، وإن ظلموك فتجاوز عنهم، وإن قصرُوا في حقي فاعف عنهم، واشفع لهم، واستغفر لهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

لا تفعل مثل فعلهم، وكل حسابهم إلينا إلا فيما أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حداً، فعند ذلك لا تأخذك رافة تمنعك من إقامة حداً عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

(١) الآيات من (١٩٧ حتى ٢٠٤) لم ترد. (٢) الآيات من (٢٠٨ - ٢١١) لم ترد.

(٣) الآية (٢١٣) لم ترد.

(٤) انظر حديث القشيري عن الصلابة بالرسالة القشيرية ص ٢٩٤ - ٢٩٨.

انْقَطِعْ إِلَيْنَا، وَاعْتَصِمْ بِنَا، وَتَوَسَّلْ إِلَيْنَا بِنَا، وَكُنْ عَلَى الدَّوَامِ بِنَا، فَإِذَا قُلْتَ فَقُلْ بِنَا، وَإِذَا ضَلَلْتَ فَضَلْ بِنَا، وَاشْهَدْ بِقَلْبِكَ - وَهُوَ فِي قَبْضَتِنَا - تَحَقُّقًا بِأَنَّكَ بِنَا وَلَنَا.

تَوَكَّلْ عَلَى ﴿الْعَزِيزِ﴾ تَجِدُ الْعِزَّةَ بِتَوَكُّلِكَ عَلَيْهِ فِي الدَّارَيْنِ، فَإِنَّ الْعَزِيزَ مَنْ وَثِقَ بِالْعَزِيزِ.

﴿الرَّحِيمِ﴾ الَّذِي يَقْرُبُ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ، وَيُجْزِلُ الْبِرَّ لِمَنْ تَوَسَّلَ بِهِ إِلَيْهِ.
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق، فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ بِمَشْهَدٍ مِنَ الْحَقِّ رَأَى دَقَائِقَ أَحْوَالِهِ، وَخَفَايَا أُمُورِهِ مَعَ الْحَقِّ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾.

هُوَ عَلَيْهِ مَعَانَاةٌ مَشَاقُّ الْعِبَادَةِ بِإِخْبَارِهِ بِرُؤْيَتِهِ. وَلَا مَشَقَّةَ لِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ بِمَرَأَى مِنْ مَوْلَاهُ، وَإِنْ حَمَلَ الْجِبَالَ الرُّوَاسِيَّ عَلَى شَفْرِ^(٢) جَفْنِ الْعَيْنِ لَيَهْوُ عِنْدَ مَنْ يَشَاهِدُ رَبَّهُ. وَيُقَالُ ﴿وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ بَيْنَ أَصْحَابِكَ، فَهَمَّ نَجُومٌ وَأَنْتَ بَيْنَهُمْ بِذَرٍّ، أَوْ هَمَّ بِدَوْرٍ وَأَنْتَ بَيْنَهُمْ شَمْسٌ، أَوْ هَمَّ شَمُوسٌ وَأَنْتَ بَيْنَهُمْ شَمْسُ الشَّمْسِ.
ويقال: تَقَلُّبُكَ فِي أَصْلَابِ آبَائِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ عَرَفُوا اللَّهَ، فَسَجَدُوا لَهُ ذُونَ مَنْ لَمْ يَعْرِفُوهُ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿السَّمِيعُ﴾ لِأَنَّهُ يَسْمَعُ الْمُحِبِّينَ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِحُنَيْنِ الْعَارِفِينَ.

﴿السَّمِيعُ﴾ لِأَنَّهُ يَسْمَعُ الْمُذْنِبِينَ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَحْوَالِ الْمُطِيعِينَ.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَتَزَلَّلُ الشَّيَاطِينُ تَتَزَلَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبًا﴾.

بَيِّنُ أَنَّ الشَّيَاطِينَ تَتَزَلَّلُ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْكُهْنَةِ فَتُوحِي إِلَيْهِمْ بَسَاسَهُمُ الْبَاطِلَةَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ الْوَحْيَ وَمَا يَأْتِي بِهِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ذَكَرَ مَا يُوَسَّوِسُ بِهِ الشَّيَاطِينُ إِلَى

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٤٤.

(٢) شَفْرُ الْعَيْنِ: وَهُوَ مَا يَنْبِتُ عَلَيْهِ الشَّعْرُ وَأَصْلُ مَنْبِتِ الشَّعْرِ فِي الْجَفْنِ. (اللسان ٤/٤١٨).

أوليائه، وألحق بهم الشعراء الذين في الباطل يهيمون، وفي أعراض الناس يقعون، وفي التشبيهات - عن حد الاستقامة - يخرجون، ويعدون من أنفسهم بما لا يوفون، وسبيل الكذب يسلكون^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾.

فيكون شغره خالياً من هذه الوجوه المعلولة المذمومة، وهذا كما قيل: الشعرُ كلامُ إنسان؛ فحسنة كحسنة وقيحه كقيحه.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

سيعلم الذين ظلموا سوء ما عملوا، ويندمون على ما أسلفوا، ويصدقون بما كذبوا.

السورة التي يذكر فيها النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز قَصْدُهُ العاصي لِطَلَبِ التخفيف فصار وَزْرُهُ مغفوراً، اسم كريم قَصْدُهُ العابد لِطَلَبِ التضعيف فصار أجره موفوراً، اسم جليل أَمُّهُ الولي لِطَلَبِ التشريف فصار سَعْيُهُ مشكوراً، اسم عزيز إن تَعَرَّضَ الفقير لوجوده مَحَقَّتْهُ العِزَّةُ، وطَوَّحَتْهُ السَّطْوَةُ، فصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

جَلَّتْ الأحديَةُ.. فأنى بالوصول! وتَقَدَّسَتْ الصمديَةُ.. فَمَنْ ذا الذي عليها يقف^(١)؟ ﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]:

وكم باسطين إلى وَضَلِنَا أَكْفَهُمُو.. لم ينالوا نصيباً!

قوله جل ذكره: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١].

بطهارة قُدْسِي وسناء عِزِّي لا أُخَيِّبُ أَمَلٍ من أَمَلٍ لطفي.

بوجود بَرِّي تطيب قلوب أوليائي، وبشهود وجهي تغيب أسرار أصفيائي.

طَلَبُ القاصدين مُقَابِلَ بلطفي، وسَعْيُ العاملين مشكورٌ بعطفي.

﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النحل: ١]: هذه دلالات كَرَمِنَا، وأمارات فضلنا وشواهد بَرَّنَا، تُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعَدِنَا، ونُحَقِّقُ للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنَا.

قوله جل ذكره: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذه الآيات وهذا الكتاب بيانٌ وشفاءٌ، ونورٌ وضياءٌ، وبشرى ودليلٌ لِمَنْ حققنا لهم الإيمان، وأكَّدنا لهم الضمان، وكفلنا لهم الإحسان.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

يديمون المواصلات، ويستقيمون في آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم

(١) انظر حديث القشيري عن التوحيد بالرسالة ص ٢٩٨ - ٣٠٣.

وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم الزكاة، بما يقومون في حقوق المسلمين أحسن مقام، وينوبون عن ضعفائهم أحسن مناب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أغشيناهم فهم لا يبصرون، وعمّينا عليهم المسالك فهم عن الطريقة المثلى يغفلون، أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترّدون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ﴾.

﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أن يجد الآلام ولا يجد التسلي بمعرفة المسلي، ويحمل البلاء ولا يحمل عنه ثقله وعذابه شهود المبلي. . . وذلك للكفار، فأما المؤمنون فيخفف عنهم العذاب في الآخرة حسن رجائهم في الله، ثم تضرعهم إلى الله، ثم فضل الله معهم بالتخفيف في حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشي والإفاقة - كما في الخبر - إلى وقت إخراجهم من النار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّكَ لِلَّهِ الْفَرَاتُ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

أي أن الذي أكرمك بإنزال القرآن عليك هو الذي يحفظك عن الأسواء والأعداء وصنوف البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر، ودجاً عليه الليل، وأخذ امرأته الطلق وهبت الرياح الباردة، ولم يور الزند، وضاق على موسى الأمر، واستبهم الوقت، وتشتت به الهمة، واستولى على قلبه الشغل. ثم رأى ناراً من بعيد، فقال لأهله: امكثوا إنني أبصرت ناراً. وفي القصة: إنه تشتت أغنامه، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعه فشردت، فقالت امرأته:

كيف تركنا وتمضي والوادي مسيع؟!.

فقال: امكثوا. . . فإني لأجلكم أمضي وأتعرف أمر هذه النار، لعلّي آتيكم منها إما بقبس أو شعله، أو بخبر عن قوم نزل عليها تكون لنا بهم استعانة، ومن جهتهم انتفاع. وبذت لعينه تلك النار قريبة، فكان يمشي نحوها، وهي تتباعد حتى قرب منها، فرأى شجرة رطبة خضراء تشتعل كلها من أولها إلى آخرها، وهي نار مضيئة، فجمع حشنيات وأراد أن يقتبس منها، فعند ذلك سمع النداء من الله لا من الشجرة كما توهم المخالفون من أهل البدع. وحصل الإجماع أن موسى سمع تلك الليلة كلام الله، ولو كان النداء في الشجرة لكان المتكلم به الشجرة، ولأجل الإجماع قلنا: لم

يكن النداء في الشجرة وإلا فتحن نجوز أن يخلق الله نداء في الشجرة ويكون تعريفاً، ولكن حينئذ يكون المتكلم بذلك الشجرة.

ولا يُنكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له، وخلق كلاماً في الشجرة أيضاً، فموسى سمع كلامه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة... وهذا من طريق العقل جائز.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي بورك مَنْ هو في طلب النار وَمَنْ هو حول النار.

ومعنى بورك لحقته البركة أو أصابته البركة... والبركة الزيادة والثمنا في الخير.

والدعاء مِنَ القديم - سبحانه - بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به.

قوله جل ذكره: ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الذي يُخَاطِبُكُ أَنَا اللَّهُ ﴿الْعَزِيزُ﴾ في استحقاق جلاله، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع

أفعالي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنِّي عَصَاكَ فَلَئِمَّا رَاَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبُ﴾.

في آية أخرى بَيَّنَّ أنه سأل، وقال له على وجه التقرير: ﴿وَمَا تِلْكَ بِسَمِينِكَ

يَمُوسَى﴾ [طه: ١٧] وأجابه بقوله: ﴿هِيَ عَصَاكَ﴾ [طه: ١٧] وذكر بعض ما له فيها من المآرب والمنافع، فقال الله: ﴿وَأَنِّي عَصَاكَ﴾، وذلك لأنه أراد أن يُريه فيها من عظيم البرهان ما يجعل له كمال اليقين.

وألقاها موسى فَقَلَبَهَا اللَّهُ ثَعْبَانًا، أولاً حية صغيرة ثم صارت حية كبيرة، فأوجس في نفسه موسى خيفةً وولَّى مُدْبِرًا هارباً، وكان خوفه من أن يُسَلِّطَهَا عليه لما كان عارفاً بأن الله يعذب مَنْ يشاء بما يشاء، فقال له الحق:

﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾.

أي لا ينبغي لهم أن يخافوا.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وهذا يدل على جواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط ترك الإصرار. فأما مَنْ لَا يُجِيزُ عليهم الذنوب فيحمل هذا على ما قبل النبوة^(١).

(١) بعض الفقهاء لا يستخدم تعبير [الذنب] بالنسبة للأنبياء، وإنما يطلق على ما يبدر منهم فعل خلاف الأول: تَدْبِياً.

قال القشيري في رسالته: فإن قيل: فهل يكون الولي معصوماً، قيل: إما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا، وإما أن يكون محفوظاً حتى لا يصِرَّ على الذنوب، إن حصلت آفات أو زلات فلا يمتنع ذلك في وصفهم. (الرسالة القشيرية ص ٣٥٩).

فلما رأى موسى انقلاب العصا عليم أن الحق هو الذي يكشفه بذلك .

ويقال : كيف عليم موسى - عليه السلام - أن الذي سمعه كلام الله ؟

والجواب أنه بتعريف منه إياه ، ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه ، ويجوز أن يكون كسبياً ، ويكون الدليل له الذي به عليم صدقه في قوله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ ﴾ هو ما ظهر على يده - في الوقت - من المعجزة ، من قلب العصا ، وإخراج يده بيضاء ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي نِجَاسٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ .

من غير سوء أي برص . وفي القصة أن موسى عليه السلام ذكر اشتغال قلبه بحديث امرأته ، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التي أوجبته انزعاجه ، وقضده في طلب النار ، فقال الله تعالى : « إنا قد كفيناك ذلك الأمر ، ووكلنا بامرأتك وأسبابك ، فجمعنا أغنامك وثيرانك ، وسلمت لك المرأة » .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ أَيْنِسُنَا مَبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

لم يُظهِرَ اللَّهُ - سبحانه - آية على رسول من أنبيائه - عليهم السلام - إلا كانت في الوضوح بحيث لو وُضِعُوا النظر فيها موضعه لتوصلوا إلى حصول العلم وتلج الصدور ، ولكنهم قَصُرُوا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها ، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجحد . قال تعالى وقوله صدق :

﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِيقَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُتُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكما يَخْضُلُ من الكافر الجحدُ تحصل للعاصي عند الإلمام ببعض الذنوب حالة يعلم فيها - بالقطع - أن ما يفعله غير جائز ، وتتوالى على قلبه الخواطر الزاجرة انداعية له عن فعلها من غير أن يكون متغافلاً عنها أو ناسياً لها ، ثم يُقَدِّمُ على ذلك غير مُحْتَفِلٍ بها موافقةً لشهوته . وهذا الجنس من المعاصي أكثرها شؤماً ، وأشدّها في العقوبة ، وأبعدها عن الغفران .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقتضي حكم هذا الخطاب أنه أفردهما بجنس من العلم لم يشاركهما فيه أحد ؛ لأنه ذكره على وجه تخصيصهما به ، ولا شك أنه كان من العلوم الدينية ؛ ويحتمل أنه

(١) قال القشيري عند حديثه عن كرامات الأولياء بالرسالة : المعجزات دلالات الصدق - أي صدق الأنبياء - . (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص ٣٥٣ - ٣٥٦) .

كان بزيادة بيانٍ لهما أغناهما عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُعَرَّضٌ للشك فيه.

ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به، فيكون إخبارهما عن ذلك معجزةً لهما.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ﴾.

ويحتمل أن يكون علمهما بالله على وجه زيادةٍ لهما في البيان.

وفي الآية دليل على أن التفضيل الذي يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات، فأخبر بأنهما شكر الله على عظيم ما أنعم به عليهما.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ﴾.

ورث أباه في النبوة، وورثه في أن أقامه مقامه.

قوله: ﴿عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ﴾: وكان ذلك معجزةً له، أظهرها لقومه ليعلموا بها صدق إخباره عن نبوته. ومن كان صاحب بصيرة وحضور قلب بالله يشهد الأشياء كلها بالله ومن الله. ويكون مكاشفاً بها من حيث التفهيم، فكأنه يسمع من كل شيء تعريفات الحق - سبحانه - للبعد مما لا نهاية له، وذلك موجودٌ فيهم مخفيٌ عنهم. وكما أن ضرب الطبل مثلاً دليلٌ يُعْرَفُ - بالمواضعة - عند سماعه وقت الرحيل والنزول فالحق - سبحانه - يخص أهل الحضور بفنون التعريفات، من سماع الأصوات وشهود أحوال المراتب في اختلافها، كما قيل:

إذا المرء كانت له فكرةً ففي كل شيء له عبرةً

قوله جل ذكره: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

سخر الله لسليمان - عليه السلام - الجن والطيور، فكان الجن مكلفين، والطيور كانت مسخرةً إلا أنه كان عليها شرع، وكذلك الحيوانات التي كانت في وقته، حتى النمل كان سليمان يعرف خطابهم ينفذ عليهم حكمه.

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ بِأَيِّهَا أَلَمَلْ أَذْهَبُوا مَسَكَنَكُمْ لَا يَخَاطَبُكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قيل إن سليمان استحضر أمير النمل الذي قال لقومه: ﴿أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾ وقال له: أما علمت أنني معصوم، وأني لن أمكن عسكري من أن يطؤوكم؟ فأخبره أمير النمل أنه لا يعلم ذلك؛ لأنه ليس بواجب أن يكون النمل عالماً بعصمة سليمان. ولو قال: لعلكم أبيع لكم ذلك.. لكان هذا أيضاً جائزاً.

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان: إني أخجلُ قومي على الزهد في الدنيا، وَخَشِيتُ أَنْ يَرَوْكُم فِي مُلْكِكُمْ أَنْ يَرِغِبُوا فِيهَا، فَأَمَرْتُهُمْ بِدُخُولِ مَسَاكِنِهِمْ لِئَلَّا يَتَشَوَّشَ عَلَيْهِمْ زُهْدُهُمْ. وَلَئِنْ صَحَّ هَذَا فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ سِيَاسَةِ الْكِبَارِ لِمَنْ هُوَ فِي رِعْيَتِهِمْ. وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ الْإِحْتِرَازِ مِمَّا يُخْشَى وَقُوعُهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ عَادَةُ النَّفْسِ وَمَا فَطَرُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّمْيِيزِ.

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان: ما الذي أعطاك الله من الكرامة؟ فقال: سَخَّرَ لِي الرِّيحَ.

فقال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِشَارَةَ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِيَدِكَ مِمَّا أُعْطِيَتْ إِلَّا الرِّيحُ؟ وهكذا بَيَّنَّه الْكَبِيرُ عَلَى لِسَانِ الصَّغِيرِ! قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿فَبَيَّنَّه ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا﴾.

التَّبَسُّمُ مِنَ الْمُلُوكِ يَنْدُرُ لِمُرَاعَاتِهِمْ حُكْمَ السِّيَاسَةِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى رِضَاهُمْ وَاسْتِحْسَانِهِمْ لِمَا مِنْهُ يَحْصُلُ التَّبَسُّمُ، فَلَقَدْ اسْتَحْسَنَ سُلَيْمَانُ مِنْ كَبِيرِ النَّمْلِ حُسْنَ سِيَاسَتِهِ لِرِعْيَتِهِ.

وفي القصة أنه استعرض جُنْدَهُ لِبِرَاهِمِ كَمْ هُمْ، فَعَرَضَهُمْ عَلَيْهِ، وَكَانُوا يَأْتُونَ فَوْجًا فَوْجًا، حَتَّى مَضَى شَهْرٌ وَسُلَيْمَانُ وَاقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مُغْتَبِرًا فَلَمْ يَنْتَهَوْا، وَمَرَّ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي القصة: أَنَّ عَظِيمَ النَّمْلِ كَانَ مِثْلَ الْبَغْلِ فِي عِظَمِ الْجَثَّةِ، وَلَهُ خَرْطُومٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.

فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَظَرَهُ إِلَيْهِمْ كَانَ نَظَرًا عَابِرًا، وَأَنَّهُ رَأَى تَعْرِيفَ اللَّهِ إِيَّاهُ ذَلِكَ، وَتَبَيَّهَهُ عَلَيْهِ مِنْ جُمْلَةِ نِعَمِهِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهَا الشُّكْرُ.

وفي قوله: ﴿وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ شُكْرَ الشَّاكِرِ لِلَّهِ لَا يَخْتَصُّ بِمَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْهِ عَلَى الْخُصُوصِ، بَلْ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى مَا خَصَّ وَعَمَّ مِنْ نِعَمِهِ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَأَتَّقِنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ﴾.

سَأَلَ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ، لِأَنَّ الصَّالِحَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ هُوَ مَخْتُومٌ لَهُ بِالسَّعَادَةِ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَٰذِهِدَا أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاكِينَ﴾.

تَطَلَّبَهُ فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ تَعَرَّفَ مَا سَبَبَ تَأْخُرِهِ وَغِيْبَتِهِ.

ودلّ ذلك على تيقظ سليمان في مملكته، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته، حيث لم تخفّ عليه غيبة طير هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعة واحدة. وهذا أحسن ما قيل.

ثم تهذّده إن لم يكن له عُذْرٌ بعذاب شديد، وذلك يدلّ على كمال سياسته وعُدّله في مملكته.

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن الهدهد^(١) يعرف أعماق الماء بإلهام خُصَّ به، وأنّ سليمان كان قد نزل منزلاً ليس به ماء، فطلب الهدهد ليهديهم إلى مواضع الماء، وهذا ممكن؛ لأن في الهدهد كثرة. وغيبة واحد منها لا يحصل منها خلل - اللهم إلا إن كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء.. والله أعلم.

وروي أن ابن عباس سُئِلَ عن ذلك، وأنه قيل له: إن كان الهدهد يرى الماء تحت التراب ويعرفه فكيف لا يرى الفُحّ مخفياً تحت التراب؟ فقال: إذا جاء القضاء عَمِيَ البصر.

ويقال: إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُضْطَفَّةً، وكانت تستر انبساط الشمس وشعاعها بأجنحتها، فوق شعاع الشمس على الأرض، فنظر سليمان فرأى موضع الهدهد خالياً منه، فعَرَفَ بذلك غيبته.. وهذا أيضاً ممكن، ويدل على كمال تَفَقُّده، وكمال تَيَقُّظه - كما ذكرنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَنِ ثَمِينٍ﴾.

في هذه الآية دليل على مقدار الجُرم، وأنه لا عبرة بصغر الجثة وعِظَمِها. وفيه دليل على أن الطير في زمانه كانت في جملة التكليف، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شرع، وأنّ لهم من الله إلهاماً وإعلاماً؛ وإن كان لا يُعَرَفُ ذلك على وجه القطع.

وتعيين ذلك العذاب الشديد غير ممكن قطعاً، إلا تجويزاً واحتمالاً.

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كل ما قيل فيه.

ويمكن أن يقال فإن وُجِدَ في شيء نُقْلٌ فهو مُتَّبَعٌ.

وقد قيل هو تَتَفُّ رِيشه وإلقاؤه في الشمس.

(١) الهدهد: جنس طير من الجواثم الرقيقات المناقير، أشهر أنواعه الهدهد الشائع، وهو مبذول في لبنان وغيره. ذو خطوط وألوان كثيرة، وهو متوسط الجسم، له منقار مستطيل وقنزعة على رأسه كبيرة القذ سوداء الأطراف. وذنبه مقطوم الطرف، أسود اللون أبيض الجانبين والوسط، يألف الهدهد الأماكن المبعثرة الأشجار، وقوته الحشرات والديدان (ج) هداهد وهداهيد، الواحدة هدهدة. يقال: (أبصر من هدهد) قيل: لأنه يرى الماء تحت الأرض.

وقيل يفرّق بينه وبين أليفه .

وقيل يشّت عليه وقته .

وقيل يلزّمه خدمة أقرانه .

والأوّل في هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت، وألا يُقَطَّع بشيء دون غيره على وجه القطع .

فَمِنْ العذاب الشديد أن يُمنَعَ حلاوة الخدمة فيجد أَلَمَ المشقة . ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولي لشأنه ويوكّل إلى حَوْلِهِ ونَفْسِهِ، ومن ذلك أن يُمتَحَنَ بِالْجِرْصِ في الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه . ومن العذاب الشديد الطمع في اسم العذر ثم لا يرتفع^(١) ومن ذلك سَلْبُ القناعة، ومنه عَدَمُ الرضا بما يجري . ومن ذلك توهم الحدّثان وحسبان شيء من الخلق .

ومن ذلك الحاجة إلى الأَخِصَّةِ من الناس . ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود التقدير . ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم . ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر . ومن ذلك التباس طريق الرُّشد . ومنه حسبان الباطل بصفة الحق، والتمسك بالحق في صورة الباطل . ومنه أن يطالب بما لا تتسع له ذات يده . ومنه الفقر في الغربة .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ﴾ .

فلم يلبث الهدى أن جاء، وعَلِمَ أن سليمانَ قد تَهَدَّدَهُ، فقال: أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ، ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ﴾ .

ثم ذكر حديث بلقيس، وأنها ملكتهم، وأن لها من المال والمُلْكِ والسرير العظيم ما عَدَّهُ، فلم يتغير سليمانُ - عليه السلام - لذلك، ولم يستفزّه الطمع فيما سَمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك في الطمع في مُلْكٍ غيرهم^(٢)، فلما قال:

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ .

فعند ذلك غَاظَ هذا سليمانَ، وَغَضِبَ فِي اللَّهِ^(٣)، و:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

(١) قال القشيري برسالته: وقيل في قوله تعالى: ﴿لَاعْلَبْنَهُ عَذَاباً شديداً﴾ يعني لاسلبته القناعة ولابتليته بالطمع، يعني أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك . (الرسالة القشيرية ص ١٦٢) .

(٢) الآية (٢٣) لم ترد . (٣) الآيتان (٢٥، ٢٦) لم تردا .

وفي هذا دلالة على أن خَبَرَ الواحد لا يوجب العلم فيجب التوقف فيه على حدّ التجويز، وفيه دلالة على أنه لا يُطْرَح بل يجب أن يُتَعَرَّف: هل هو صدق أم كذب؟ ولَمَّا عَرَفَ سليمان هذا العُدْرَ تَرَكَ عقوبته وما تَوَعَّدَ به . . وكذلك سبيلُ الوالي؛ فَإِنَّ عَذْلَهُ يمنعه من الحيف على رعيته، وَيَقْبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ في صورة المجرمين إذا صَدَقَ في اعتذاره.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذْهَبَ بِكُنْيَا هَكَذَا فَأَلْفَهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾. في الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يذكر بين يدي الملوك كل كلمة، فإنه يَجُرُّ العناء بذلك إلى نفسه؛ وقد كان لسليمان من الخَدَم والحَشَم وَمَنْ يَأْمُر بأمره الكثير، ولكنه لم يستعمل واحداً في هذا التكليف إلا الهدهد لأنه هو الذي قال ما قال، فلزمه الخروج من عهدة ما قال. ويقال لَمَّا صَدَقَ فيما أخبر لِمَلِكِهِ عُوضَ عليه فَأُهْلَ للسفارة والرسالة - على ضعف صورته.

فمضى الهدهد، وألقى الكتاب إليها كما أُمِرَ، وانتحى إلى جانبٍ ينتظر ماذا يفعلون وبماذا يُجَاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِ الْكَتَبِ كَرِيمٌ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَنُؤِي مُسْلِمِينَ﴾.

﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة، وقيل لأنه كان مختوماً، وقيل لأن الرسول كان طيراً؛ فَعَلِمَتْ أَنَّ مَنْ تكون الطيرُ مُسَخَّرَةٌ لَهُ لَا بُدَّ أَنَّهُ عَظِيمُ الشَّانِ. وقيل لأنه كان مُصَدَّرًا بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم. وقيل لأنه كتب فيه اسم نفسه أولاً ولم يَقُلْ: إنه من سليمان إلى فلانة. ويقال لم يكن في الكتاب ذكر الطمع في المُلْكِ بل كان دُعَاءً إِلَى اللَّهِ: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَنُؤِي مُسْلِمِينَ﴾.

ويقال أَخَذَ الكتابُ بمجامع قلبها، وقَهَرَهَا؛ فلم يكن لها جواب، فقالت: ﴿إِنَّ إِلَهِ إِلَهِ الْكَتَبِ كَرِيمٌ﴾ لَمَّا عَرَفَتْ قَدْرَ الكتابِ وصلت باحترامها إلى بقاء مُلْكِهَا، وَرَزَقَتْ الإسلامَ وَضَحَّةً سليمان.

ويقال إذا كان الكتابُ كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريمُ من الصلاة ما لا يتجرّد عن التسمية، وإذا تجرّدت كان الأمرُ فيها بالعكس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفُنُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾. أَخَذَتْ في المشاورة كما تقتضيه الحال في الأمور العظام؛ فَإِنَّ المَلِكَ لا ينبغي أن يكون مستبدّاً برأيه، ويجب أن يكون له قومٌ من أهل الرأي والبصيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ .
 أجابوا على شرط الأدب، وقالوا: ليس منا إلا بذلّ الوسع، وليس لنا إلا إظهارُ
 النصّح وما علينا إلا متابعة الأمر - وتمشية الأمر وإمضاؤه... إليك.
 قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
 وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ .

ويقال إن: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ من قولها.

ويقال: تغييرُ الملوك إذا دخلوا قريةً - عن صفتها - معلوم، ثم يُنظر... فإن
 كان الداخلُ عادلاً أزال سُنةَ الجور، وأثبت سُنةَ العدل، وإن كان الداخلُ جائراً أزال
 الحسَنَ وأثبت الباطل. هذا معلوم؛ فإنّ خرابَ البلادِ بولاءِ السوء، حيث يستولي
 أسافلُ الناس وأسقاطهم على الأعزة منهم، وكما قيل:

يا دولة ليس فيها من المعالي شظية
 زولى فما أنتِ إلا على الكرام بليّة

وعمارة الدنيا بولاءِ الرُشد، يكسرون رقابَ الغاغة^(١)، ويُخلّصون الكرامَ من
 أسرِ السفلة، (ويأخذ القوس باريها)، وتطلع شمسُ العدل من برج شرفها... كذلك
 المعرفة والخصالُ المحمودة إذا باشرت قلبَ عبدٍ أخرجت عنه الشهواتِ والمُنَى،
 وسفاسفَ الأخلاقِ من الحقد والحسد والشُّعْ وصغرِ الهمة... وغير ذلك من
 الأوصاف الدميمة وتُثبت بدّلها من الأحوال العليّة والأوصاف المَرْضِيّة ما به نظامُ العبد
 وتمامُ سعادته. ومتى استولت على قلب غاغة النفس والخصالُ المذمومة أزالته عنه
 عمارته، وأبطلت نضارته، فتخرب أوطانُ الحقائق، وتتداعى مساكنُ الأوصاف
 الحميدة للأفول، وعند ذلك، يَغْظَمُ البلاءُ وتتراكم المِحَنُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ .

جاء في القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا، ومن جملتها لبنةٌ مصنوعةٌ من
 الفضة وأخرى من الذهب. وأن الله أخبر سليمانَ بذلك، وأوحى إليه في معناه. وأمرَ
 سليمانَ الشياطينَ حتى بَنَوْا بساحة منزله ميداناً، وأمرهم أن يفرشوا الميدانَ بهيئة اللّبنِ
 المصنوع من الذهب والفضة من أوله إلى آخره. وأمرَ بأن توقف الدوابُّ على ذلك
 وألا تُنْظَفَ آثارُها من روثٍ وغيره، وأن يُشْرَكَ موضعانِ لِلْبَيْتَيْنِ خَالِيَيْنِ في ممرٍ

(١) الغاغة: من الغوغاء أصلها الجراد حين يخف للطيران ثم استعير للسفلة من الناس والمتسرعين إلى
 الشر، ويجوز أن يكون من الغوغاء الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم. (اللسان ٨/٤٤٤
 مادة: غوغ).

الدخول. وأقبل رُسُلُها، وكانت معهم اللبتان ملفوفتين، فلَمَّا رَأَوْا الأمر، ووقعت أبصارُهم على طريقهم، صَغُرَ في أعينهم ما كان معهم، وَخَجِلُوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا في الفكرة... كيف يتخلصون مما معهم؟. فلَمَّا رَأَوْا موضع اللَّبَتَيْنِ فارغاً ظَنُّوا أن ذلك سُرِقَ من بينها، فقالوا لو أظهرنا نُسَبِنَا إلى أَنَّا سرقناهما من هذا الموضع، فطرحاهما في الموضع الخالي، وَدَخَلَا على سليمان:

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أْتِمِدُونَنِي بِمَا لِيَ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ قَرُحُونَ﴾.

أتهدونني مالاً؟! وهل مثلي يُسْتَمَالُ بمثل هذه الأفعال؟ إنكم وأمثالكم تعاملون بمثل ما عوملتُم! ارجع إليهم: -

﴿أَتَجِئُ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِمَحْوَرٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَدْلَلَةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

فلَمَّا رجعوا إلى بلقيس، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وَجْهَ لها سوى الاستسلام والطاعة، فَعَزَمَتْ على المسير إلى خدمته، وأوحى الله إلى سليمان بذلك، وأنها خرجت مستسلمة، فقال: ﴿أَأَنْتُمْ يَأْتِيَنِي بَعْرِشًا؟﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَتَيْكُمْ بِبَعْرِشٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾.

بسط اللّه - سبحانه - مُلْكَ سليمان، وكان في مُلْكِهِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ وَالشَّيَاطِينُ؛ الجن على جهة التسخير، والإنس على حكم الطوع، والشياطين وكانوا على أقسام.

ولَمَّا قال: ﴿أَأَنْتُمْ يَأْتِيَنِي بَعْرِشًا؟﴾ قال عفریت من الجن - وكان أقواهم - ﴿أَنَا ءَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، فلم يرغب سليمان في قوله لأنه بنى القول فيه على دعوى قُوَّتِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَفِيفٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ (قيل هو آصف) وكان صاحب كرامة. وكرامات الأولياء مُتَحَقِّقَةٌ بمعجزات الأنبياء، إذ لو لم يكن النبي صادقاً في نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصَدِّقُه ويكون من جملة أمته.

ومعلوم أنه لا يكون في وَسْعِ الْبَشَرِ الْإِتْيَانُ بالعرش بهذه السرعة، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى. وَقَطَعَ المسافة البعيدة في لحظة لا يصح تقديره في الجواز إلا بأحد وجهين: إمّا بأن يُقَدِّمَ اللّه المسافة بين العرش وبين منزل سليمان،

وإمّا بأن يعدم العرش ثم يعيده في الوقت الثاني بحضرة سليمان . وأي واحد من القسمين كان - لم يكن إلّا من قبَل الله ، فالذي كان عنده علم من الكتاب دعا الله - سبحانه - واستجاب له في ذلك ، وأحضر العرش ، وأمر سليمان حتى غيّر صورته فجعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وأثبتته على تركيب آخر غير ما كان عليه .

ولمّا رأى سليمان ذلك أخذ في الشكر لله - سبحانه - والاعتراف بعظم نِعَمِهِ ، والاستيحاء ، والتواضع له ، وقال : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ : لا باستحقاق مني ، ولا باستطاعة من غيري ، بل أحمد النعمة لربّي حيث جعل في قومي ومن أمتي من له الجاه عنده فاستجاب دعاءه .

وحقيقة الشكر - على لسان العلماء - الاعتراف بنعمة المُنعم على جهة الخضوع . والأحسن أن يقال الشكر هو الثناء على المُخسِن بِذِكْرِ إحسانه ، فيدخل في هذا شكرُ الله للعبد لأنه ثناء منه على العبد بذكر إحسان العبد ، وشكرُ العبد ثناءً على الله بذكر إحسانه . . . إلّا أن إحسان الحق هو إنعامه ، وإحسانُ العبد طاعته وخدمته لله ، وما هو الحميد من أفعاله .

فأمّا على طريق أهل المعاملة وبيان الإشارة : فالشكر صَرَفُ النعمة في وجه الخدمة .

ويقال الشكر ألا تستعين بنعمته على معاصيه .

ويقال الشكر شهودُ المنعم من غير مساكنة إلى النعمة .

ويقال الشكر رؤية العجز عن الشكر .

ويقال أعظم الشكر الشكر على توفيق الشكر .

ويقال الشكر على قسمين : شكر العوام على شهود المزيد ، قال تعالى : ﴿ لَئِنْ

شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، وشكر الخواص يكون مجرداً عن طلب المزيد ، غير متعرض لمنال العوض .

ويقال حقيقة الشكر قيد النعم وارتباطها ؛ لأنّ بالشكر بقاءها ودوامها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

أراد سليمان أن يمتحنها وأن يختبر عقلها ، فأمر بتغيير عرشها ، فلمّا رآته : ﴿ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ .

فاً بدّل بذلك على كمال عقلها ، وكان ذلك أمراً ناقضاً للعادة ، فصار لها آية وعلامة على صحة نبوة سليمان - عليه السلام - وأسلمت :

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ

حَسِبْتُمْ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

كان ذلك امتحاناً آخر لها. فقد أَمَرَ سليمان الشياطين أن يصنعوا من الزجاج شِبهَ طبق كبير صافٍ مضيء، ووضعه فوق بركة بها ماء كثير عميق، يُرى الماء من أسفل الزجاج ولا يُمَيِّزُ بين الزجاج والماء، وأمرت أن تخوض تلك البركة، فكشفت عن ساقها؛ لأنها وصفت لسليمان بأنها جنية النسب، وأن رجليها كحواضر الدواب، فتقولوا عليها. ولما توهمت أنها تخوض الماء كشفت عن ساقها، فرأى سليمان رجليها صحيحين. وقيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ﴾: فصار ذلك أيضاً سبباً وموجباً ليقينها. وأمنت وتزوج بها سليمان عليه السلام.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِرَقَانٍ يَخْتَصِمُونَ﴾.

ذكر قصة ثمود، وقصة نبيهم صالح عليه السلام، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب، وطلبهم منه معجزة، وحديث الناقة وعقرها، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذي كانت لهم فيه أعظم آية... إلى قوله:

﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ومكرهم ما أظهروا في الظاهر من موافقة صالح، وعقرهم الناقة خفية، وتوريك الذنب على غير جارمه، والتبري من اختيارهم ذلك.

وأما مكر الله جزاؤهم على مكرهم بإخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم، ثم إحلالها بهم بقتة. فالمكر من الله تخليته إياهم مع مكرهم بحيث لا يعصمهم، وتزيين ذلك في أعينهم، وتجيّب ذلك إليهم... ولو شاء لعصمهم. ومن أليم مكره انتشار الصيت بالصلاح، والعمر في السر بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح، وفي الآخرة لا يجوز في سوقها هذا التقذّر!

قوله جل ذكره: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمُ أَجْمَعِينَ﴾.

أهلكهم ولم يغادر منهم أحداً:

﴿فَإِنَّكَ يُؤْتِيهِمْ حَاوِيَةً يَمَا ظَلَمُوا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

وفي الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنة لسلط الله عليه الخراب»؛ فالنفوس إذا ظلمت بزلاتها خربت بلحوقها شؤم الذلة حتى يتعود صاحبها الكسل، ويستوطن مركب الفشل، ويخرم التوفيق، ويتوالى عليه الخذلان وقسوة القلب وجحود العين وانتفاء تعظيم الشريعة من القلب. وأصحاب القلوب إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا

طَرَدَهَا عَنْ قُلُوبِهِمْ... خربت قلوبهم حتى تقسو بعد الرأفة، وتجف بعد الصفوة.

فخراب النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة، وخراب القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة، وخراب الأرواح باستيلاء الحجة والوقف، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَيِّنْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

ذَكَرَ قِصَّةَ لُوطٍ وَأَمَتِهِ، وَمَا أَصْرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ، وَمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَإِحْلَالَ الْعُقُوبَةِ بِأَمْرَاتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَطَابِقُ الْقَوْمَ، وَتَخْلِيصُ الْحَقَّ لُوطًا مِنْ بَيْنِهِمْ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ بُعِثُوا لِإِهْلَاكِهِمْ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

هَمَّ الَّذِينَ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ فِي آزَالِهِ وَهَمَّ فِي كِتْمِ الْعَدَمِ، وَفِي مِتْنَاوِلِ عِلْمِهِ وَمِتْعَلِقِ قُدْرَتِهِ، وَلَمْ يَكُونُوا أَعْيَانًا فِي الْعَدَمِ وَلَا أَفَادَا، فَلَمَّا أَظْهَرَهُمْ فِي الْوُجُودِ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ السَّلَامِ، وَيُسَمِّعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ذَلِكَ السَّلَامِ. وَالَّذِينَ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ سَلِمُوا الْيَوْمَ مِنَ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَةِ، وَمِنْ فَنُونِ الْبِدْعِ، وَمِنْ وَجْهِ الْأَلَمِ، ثُمَّ مِنْ فَنُونِ الزَّلْزَلِ وَصُنُوفِ الْخَلَلِ، ثُمَّ مِنَ الْغِيْبَةِ وَالْحُجْبَةِ وَمَا يَنَافِي دَوَامَ الْقَرْبَةِ.

وَيَقَالُ اصْطَفَاهُمْ، ثُمَّ هَدَاهُمْ، ثُمَّ آوَاهُمْ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ خَلَقَهُمْ وَأَبْدَاهُمْ، وَبَعْدَ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِوَدِّهِ لِقَاهُمْ.

وَيَقَالُ: اصْطَفَاهُمْ بِنُورِ الْيَقِينِ وَخُلَّةِ الْوَضَلِ وَكَمَالِ الْعَيْشِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاكَ بِهَجَرَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾.

فَمَرَاتُ الظَّاهِرِ غِذَاءُ النُّفُوسِ، وَثَمَرَاتُ الْبَاطِنِ وَالْأَسْرَارِ ضِيَاءُ الْقُلُوبِ، وَكَمَا لَا تَبْقَى فِي وَقْتِ الرَّبِيعِ مِنْ وَحْشَةِ الشِّتَاءِ بَقِيَّةٌ فَلَا يَبْقَى فِي قُلُوبِهِمْ وَأَوْقَاتِهِمْ مِنَ الْغِيْبَةِ وَالْحُجْبَةِ وَالنَّفَرَةِ وَالتَّهْمَةِ شُظِيَّةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾.

نُفُوسُ الْعَابِدِينَ قَرَارٌ طَاعَتِهِمْ، وَقُلُوبُ الْعَارِفِينَ قَرَارٌ مَعْرِفَتِهِمْ، وَأَرْوَاحُ الْوَاجِدِينَ قَرَارٌ مَحَبَّتِهِمْ، وَأَسْرَارُ الْمُوَحِّدِينَ قَرَارٌ مَشَاهِدَتِهِمْ، فِي أَسْرَارِهِمْ أَنْوَارُ الْوَصْلَةِ وَعْيُونُ الْقَرْبَةِ، وَبِهَا يَسْكُنُ ظُلْمًا اشْتِيَاقُهُمْ وَهَيْجَانُ قَلْبِهِمْ وَاحْتِرَاقُهُمْ.

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

(٢) الآيات من (٥٦) حتى (٥٨) لم ترد.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ من الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة.

ويقال ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ اليقين والتوكل.

ويقال الرواسي في الأرض الأبدال والأولياء والأوتاد؛ بهم يديم إمساك الأرض، وببركاتهم يذفع عن أهلها البلاء.

ويقال الرواسي هم الأئمة الذي يَهْدُونَ المسترشدين إلى الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بين القلب والنفس ثلثا يغلب أحدهما صاحبه.

ويقال بين العبودية وأحكامها، والحقيقة وأحكامها، فلو غلبت العبودية كان جحداً للحقيقة، ولو غلبت الحقيقة العبودية كانت طيًّا للشريعة.

ويقال: أَلَيْسَ المریدین مَقْرُ ذِكره، وأسماعهم محل الإدراك الموضّل إلى الفهم، والعيون مقر الاعتبار.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

فَصَلَ بين الإجابة وبين كَشْفِ السوء؛ فالإجابة بالقَوْل والكشف بالطَّوْل، الإجابة بالكلام والكشف بالإنعام. ودعاء المضطر لا حجاب له، وكذلك دعاء المظلوم ولكن ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

ويقال للجناية: سراية؛ فَمَنْ كان في الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جُزْمِهِ الذي سَلَفَ منه وهو مختار فيه، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون، وذلك الاضطرار سراية ما بَدَرَ منهم في حال اختيارهم.

وما دام العبد يتوهم من نفسه شيئاً من الحَوْل والحيلة، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه - فليس بمضطر، فالمضطر يرى نَفْسَهُ كالغريق في البحر، أو الضال في المتاهة، وهو يرى عِثَانَهُ بيد سَيِّدِهِ، وِرْمَامَهُ في قبضته، فهو كالميت بين يدي غاسله، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة؛ لاعتقاده في نفسه أنه من أهل السخط، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة^(١).

(١) إن العبد إذا اطمأن لنفسه، ولاحظ عمله فقد عنصرأ من عناصر السير في طريق الإخلاص وفي هذا قال أبو يعقوب السدوسي: حتى شهدوا الإخلاص في إخلاصهم احتاج إلى إخلاص، ويقول أبو عثمان المغربي: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام، وأما إخلاص الخواص فهو ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات، وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد، فذلك إخلاص الخواص. (الرسالة القشيرية ص ٢٠٨).

ولا ينبغي للمضطر أن يستعين بأحد في أن يدعو له، لأن الله وَعَدَ الإجابة له.. لا لمن يدعو له.

ثم كما وَعَدَ المضطرَّ الإجابة وكُشِفَ السوء وَعَدَهُ بقوله: -

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾.

فإنَّ مع العسر يسراً، ولم يقل: العسر إزالة، ولكن قال: مع العسر يسر؛ فنهَارُ اليسر حاصل بعد ظلام العسر.

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ لأنَّ العبد إذا زَالَ عُسرُهُ، وكُشِفَ عنه ضُرُّهُ نَسِيَ ما كان فيه، وكما قال القائل:

كأنَّ الفتى لم يَغَرَ يوماً إذا اكتسى
قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾.

إذا أظلم الوقت على صاحبه في متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب، وضاق الأمر بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز، والتحير عند طلب ترجيح بعض الخواطر على بعض بشواهد العقل.. فَمَنْ الذي يرشدكم لوجه الصواب بِتَرْكِ التدبير، وللإستسلام لحكم التقدير، وللخروج من ظلمات مجوِّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير، وتفويض الأمر إلى اختيار الحق، والاستسلام لما جَرَتْ به الأقسام، وسبقت به الأقدار؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

مَنْ الذي يُرْسِلُ رياحَ فَضْلِهِ بين يدي أنوار اختياره فيمحو آثار اختيارِ نَفْسِكَ، ويعجِّل بحسن الكفاية لك؟

ويقال: يرسل رياح التوكل فيُظهِرُ القلوب من آثار الاختيار وأضرار التدبير، ثم يُطْلِعُ شمسَ الرضا فيحصل بُرْدُ الكفاية فوق المأمول في حال سكينَةِ القلب.. ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ؟﴾ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: من إحالة المقادير على الأسباب.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَانُوا بَرَهَانَكُمْ إِنَّ كُنْهَ صِدْقِي﴾.

يُظْهِرُ ما يُظْهِرُ بقدرته على مقتضى سابق حُكْمِهِ، ويخصص ما تعلقت به مشيئته وحق في قولهِ، وَسَبَقَ به قضاؤه وَقَدَّرَهُ فإذا زال وانتفى وانعدم بعض ما يظهر

ويخصص . . فَمَنْ الذي يعيده مثلما بدأه؟ ومن الذي يضيّق الرزقَ ويُسّعه؟ ومن الذي يقبض في بعض الأوقات على بعض الأشخاص؟ وفي وقت آخر مَنْ الذي يبسط على قوم آخرين؟

هل في قدرة أحدٍ غير الله ذلك؟

إِنْ توهمتم شيئاً منذ لك فأوضحوا عنه حُجَّتكم . . وإذ قد عجزتم . . فهلاً صدقْتُم؟ وبالتوحيد أقررتم؟ .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ .

﴿الْغَيْبَ﴾: ما لا يطلع عليه أحد، وليس عليه للخلق دليل، وهو الذي يستأثر بعلمه الحق، وعلوم الخلق عنه متقاصرة، ثم يريد الله أن يخصّ قوماً بعلمه أفردهم به .

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: فإنه أخفى علم الساعة عن كل أحد .

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا غَمُونَ﴾ .

فهم في الجملة يشكون فيه؛ فلا ينفونه ولا بالقطع يجحدونه . . وهكذا حكم كل مريض القلب، فلا حياة له في الحقيقة، ولا راحة له من يأسه، إذ هو من البعث في شك، ومن الحياة الثانية في استبعاد:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيُّذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَنِنَا لَمُخْرَجٍ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

وَعَدَ آبَاؤُنَا بذلك من قبل، ثم لم يكن لهم تحقيق، وما نحن إلا مثلهم، وكانوا يسألون متى الساعة؟^(١) .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

فقال الحق: إنه عن قريب سيحل بهم ميقاته:

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .

ثم قال جلّ ذكره:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

(١) الآيات (٦٩ - ٧٠) لم تردا .

لأنهم لا يُمَيِّزُونَ بين مِحْنِهِمْ وَمِنْحِهِمْ . وعزيرٌ مَنْ يَغْرِفُ الْفَرْقَ بين ما هو نعمة من الله له وبين ما هو محنة؛ فإذا تقاصرَ عِلْمُ العبدِ عما فيه صلاحه، فعسى أن يحب شيئاً ويظنُّه خيراً وبلاؤه فيه، ورُبَّ شيءٍ يظنُّه العبدُ نعمةً فيشكر عليها ويستديمها، وهي محنةٌ له يجب الصبر عليها والتضرع إلى الله في صَرْفِها! وبالعكس هذا كم من شيءٍ يظنه الإنسان بخلاف ما هو به! .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِّمٌ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ .
لا تَلْتَبِسْ على الله أحوالهم؛ فصديقٌ يستوي ظاهره وباطنه يعلمه، ومنافقٌ يخالف باطنه ظاهره يُلَبِّسُ على الناس حاله . . وهو - سبحانه - يعلمه، وكافِرٌ يستوي في الجَحْدِ سِرُّه وعَلَنُه يعلمه، وهو يجازي كلاً على ما عِلِمُه . . كيف لا . . وهو قَدَرُه، وعلى ما عليه قضاء وقَسَمُه؟! .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ .
ما من شيءٍ إِلَّا مُتَبَيَّنٌ في اللوح المحفوظ حُكْمُه، ماضيةٌ فيه مشيئته، متعلِّقٌ به عِلْمُه .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُمْ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وهم يُخْفُونَ بعضاً، وبعضاً يُظْهِرُونَ، ومع ما يَهْوُونَ يدورون .
وفي هذ الآية تخصيصٌ لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابهم، وَعَصَمَ مِنَ التَّغْيِيرِ والتبديل ما به يدينون . وهذه نعمةٌ عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون؛ فالقرآن هدى ورحمة للمؤمنين، وليس ككتابهم الذي أخبر الصادق أنهم له مُحَرَّفُونَ مُبَدَّلُونَ .
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ .
هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْمُعِزُّ للمؤمنين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم والعذاب الأليم .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ .
أي اجتهد في أداء فَرَضِهِ، وثِقْ بصدق وعده في نصره ورزقه، وكفايته وعَوْنِهِ . ولا يَهْوِلُكَ ما يجري على ظواهرهم من أذى يتصل منهم بك، فإنما ذلك كله بتسليطنا إن كان محذوراً، وبتقييضنا وتسهيلنا إن كان محبوباً . وإنك لَعَلَى حَقٍّ وضياءٍ صِدْقٍ، وهم على شكٍّ وظلمةٍ شريك .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ .
الذين أمات الله قلوبهم بالشُّرْكِ، وَأَصَمَّهُمْ عن سماع الحق - فليس في قُدْرَتِكَ أَنْ تَهْدِيَهُمَ للرُّشْدِ أو تنقذهم من أَسْرِ الشُّكِّ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة، ولكنك لا تهدي أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالة إلى العرفان، إذ ليست بقُدْرَتِكَ الإزالة أو الإمالة. أنت لا تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا، فلا يَسْمَعُ منك إِلَّا مَنْ أَسْعَدَنَاهُ من حيث التوفيق والإرشاد إلى الطريق.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

إذا حقَّ الوعدُ بإقامة القيامة أوضحنا أشراطها في كلام الدابة المُخْرِجَةِ من الأرض وغير ذلك من الآيات.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. وعند ذلك لا ينفع الإيمان ولا يقبل العذر^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾. ثم كرَّرَ ذكر الليل والنهار واختلافهما: -

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَنَتِهِمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي ليكون الليل وقت سكوتهم، والنهار وقت طلب معاشهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَاخِرِينَ﴾.

أخبر أن اليوم الذي يُنْفَخُ فيه في الصور هو يومُ إزهاق الأرواح، وإخراجها عن الأجساد؛ فَمِنْ رُوح ترقى إلى عليين، وَمِنْ رُوح تذهب إلى سجين^(٢). . . أولئك في حواصل طير تسرح في الجنة تأوي بالليل إلى قناديل معلقة من تحت العرش صفتها التسبيح والروح والراحة، ولبعضها الشهود والرؤية. . . على مقادير استحقاقهم لما كانوا عليه في دنياهم.

وأما أرواح الكفار ففي النار تُعَذَّبُ على مقادير أجرامهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مِّمَّا تَصْنَعُ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُمْ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

(١) الآية (٨٤) لم ترد.

(٢) السجين: وإد في جهنم.

وكثيرٌ من الناس اليومَ من أصحاب التمكين، هم ساكنون بنفوسهم سائحون في الملكوت بأسرارهم. . قيل: إن الإشارة اليومَ إليهم. كما قالوا: العارف كائنٌ بائنٌ؛ كائنٌ مع الناس بظاهره، بائنٌ عن جميع الخلق بسرائره.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يحتمل أن يكون ﴿خير﴾ ها هنا للمبالغة؛ لأن الذي له في الآخرة من الثواب خيرٌ ممّا منه من القرب: ويحتمل فله نصيب خيرٌ أو عاقبة خيرٌ أو ثواب خيرٌ منها. وهم آمنون من فزع القيامة. ومن جاء بالسيئة: فكما أن حالهم اليوم من المطيعين بالعكس فحكمهم غداً في الآخرة بالضد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَكَذَا بَلَدَةٌ﴾.

أخبر أنه أمره بالدين الحنيفي، والتبرّي من الشرك؛ الجلي منه والخفي، وبملازمة الطريق السوي. وأخبر أنّ من اتبعه وصدّقه أوجب الحقّ ذمامه وحقّه^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ...﴾.

سيريكُم - عن قريب - آياته، فطوبى لمن رجع قبل وفاته، والويلُ على من رجع بعد ذهاب الوقت وفواته!

(١) الآية (٩٢) لم ترد.

سورة القصص

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يَسِرُّ له في دنياه وعُقباه، اسم عزيز مَنْ اشتاق إلى لُفْيَاهِ اسْتَعْذَبَ فِيهِ ما يلقاه من بُلُوَاهِ. وَمَنْ طَلَبَ غَيْرَهُ مُؤْنِساً فِي دُنْيَاهِ أَوْ عُقْبَاهِ ﴿صَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿طَسَمَ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

«الطاء» تشير إلى طهارة نُفُوسِ العابدين عن عبادة غير الله، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله، وطهارة أرواح الواصلين عن محبة غير الله، وطهارة أسرار الموحّدين عن شهود غير الله. «والسين» تشير إلى سِرِّ اللّٰهِ مع العاصين بالنجاة، ومع المطيعين بالدرجات، ومع المحبين بدوام المناجاة. «والميم» تشير إلى مِئْتِهِ على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات في سبيل الخيرات.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سَمَاعُ قِصَّةِ الْحَبِيبِ مِنَ الْحَبِيبِ يُوجِبُ سَلْوَةَ الْقَلْبِ، وَذَهَابَ الْكَزْبِ، وَبِهَجَّةِ السَّرِّ، وَتَلَجِّ الْفُؤَادِ. وَقَدْ كَرَّرَ ذِكْرَ قِصَّةِ مُوسَىٰ تَفْخِيماً لِشَأْنِهِ وَتَعْظِيماً لِقُدْرِهِ، ثُمَّ زِيَادَةً فِي الْبَيَانِ لِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ إِفَادَةً لَزَوَائِدَ فِي الْمَذْكُورِ قَوْلُهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ يَتَكَرَّرُ فِيهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

تَكْبَرُ فِرْعَوْنُ بِغَيْرِ حَقٍّ فَأَقْمَاهُ بِحَقٍّ، وَتَجَبَّرَ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ فَأَذَلَّهُ اللَّهُ بِاسْتِحْقَاقٍ وَاسْتِجَابٍ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ بَعْدَ مَا اسْتَضَعَّفَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، وَأَفْنَى مِنْهُمْ مَنْ كَانَ (...) (١)، وَبِالْفُسَادِ حَكَمَ فِيهِمْ، وَاللَّهُ لَمْ يَرْضَ بِتَرْكِ إِتْلَافِهِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرُئِدَ أَن تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَّفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَفَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَأَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَحْنَ وَخَوَّدَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

نريد أن نُنمَّنَ على المستضعفين بالخلاص من أيديهم، وأن نجعلهم أئمة، بهم يَهْتَدِي الخلق، ومنهم يتعلم الناس سلوك طريق الصدق، ونبارك في أعمارهم، فيصبرون وارثين لأعمار مَنْ يُناوِيهم، وتصير إليهم مساكنهم ومنازلهم؛ فهم هُداةٌ وأعلام، وسادةٌ وقادةٌ بهم يُقْتَدَى وبثورهم يُهْتَدَى.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: نُزِيلُ عنهم الخوف، ونرزقهم البسطة والاقتدار، ونمد لهم في الأجل. ونرى فرعونَ وهامانَ وقومهما ما كانوا يحذرون من زوال مُلْكِهِم على أيديهم؛ وأن الحق يُعْطِي - وإن كان عند الخلق أنه يُنْطِي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلِّمِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أي ألقينا في قلبها، وأوحينا إليها وحي إلهام، فاتخذت خاطرهما في ذلك، وجرى منها ذلك وهي مختارة باختيارٍ أُدْخِلَ عليها.

لَمَّا وضعت أم موسى كانت تخاف قتله، فإن فرعون قَتَلَ في ذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبني إسرائيل، رجاء أن يقتل مَنْ رَأَى في النوم ما عُبرَ له أن ذهاب مُلْكِهِ على يدي إسرائيلي. . فالتقى الله في قلبها أن تفعل ذلك.

ثم إنه رباه في حجره ذلك اليوم - لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَقْدَارَ لَا تُغَالَبُ.

جعلت أم موسى موسى في تابوت، وألقته في نيل مصر، فجاء الماء به إلى بركة كان فرعون جالساً على حافتها، فأخذه وحملوه إليه، وفتحوا رأس التابوت، فلَمَّا رآه فرعون أخذت رؤيته بمجامع قلبه، وكذلك تمكَّن حُبُّه من قلب امرأة فرعون؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾: [طه: ٣٩] حيث خَلَقَ الله ملاحاةً في عيني موسى؛ فكان من يقع عليه بَصَرُهُ لا يتمالك من حُبِّه.

قوله جل ذكره: ﴿فَالْفَقْطَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَنَ وَجَنَدَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم، وقالت امرأة فرعون:

﴿وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فلم يكن لهما ولد، وهم لا يشعرون إلى ماذا يؤول أمره.

﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أُمُّ مُوسَى فَرِحًا بِأَنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لَمَّا ألقته في الماء سَكَنَ اللَّهُ قَلْبَهَا، وربط عليه، وألهمها الصبر، وأصبح قوداً

فارغاً إن كادت لتبدي به من حيث ضعف البشرية، ولكن الله ربط على قلبها.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أمرت أم موسى أختها أن تتبع أثره، وتنظر إلى ماذا يؤول أمره، فلما وجدوه واستمكن حبه من قلوبهم طلبوا من يرضعه:

قوله جل ذكره: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحَةٌ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ كَىٰ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أبى موسى قبول ثدي واحدة ممن عرض عليهن.. فمن بالغداة كانوا في اهتمام كيف يقتلونه أمسوا - وهم في جهدهم - كيف يُغذونه!

فلما أعياهم أمره، قالت لهم أختها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ؟﴾ فقبلوا نصيحتها شفقة منهم عليه، وقالوا: نعم، فردوه إلى أمه، فلما وضعت ثديها في فمه ارتضعها موسى فسروا بذلك، وكانوا يدعون أمه حاضنة ومرضعة.. ولم يضرها، وكانوا يقولون عن فرعون: إنه أبوه.. ولم ينفعه ذلك!

ولما أخذته أمه علمت بتصديق الله ظنها، وسكن عن الانزعاج قلبها، وجرى من قصة فرعون ما جرى.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ يُجْزَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

لما كملت سنه وتم عقله، واستوى كمال خصاله ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾: أي أتممنا له التحصيل، ووفّرنا له العلم، وبذلك جرت سُنَنُنا مع الأكابر والأنبياء.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّكَ﴾ الآية.

قيل: دخل المدينة في وقت الهاجرة^(١)، وتفرق الناس، فوجد فيها رجلين يتخاصمان: أحدهما إسرائيلي من شيعة موسى وعلى دينه، والآخر قبطي مخالف لهما، فاستغاث الإسرائيلي بموسى على القبطي، فوكّزه موسى ليدفعه عن الإسرائيلي، فمات الرجل بذلك الوكّز، ولم يكن موسى يقصد قتله، فقال موسى:

﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

فقد تمئى موسى أن لو دفعه عنه بأيّسر مما دفعه، ولم ينسب القتل إلى الشيطان، ولكن دفعه عنه بالغلظة نسبّه إلى الشيطان بأن حمّله على تلك الجدة.

(١) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

وهكذا.. إذا أَرَدَهُ اللَّهُ أَمْرًا أَجْرَى أَسْبَابًا لِيَخْضَلَ بِهَا مَرَادُهُ، وَلَوْ أَنَّهُ أَرَادَ فِتْنَةً مُوسَى لَمَّا قَبَضَ رُوحَ الرَّجُلِ بِمِثْلِ تِلْكَ الْوَكْزَةِ، فَقَدْ يُضْرَبُ الرَّجُلُ الْكَثِيرُ مِنَ الضَّرْبِ وَالسَّيَاطِ ثُمَّ لَا يَمُوتُ؛ فَمَوْتُ الْقِبْطِيِّ بِوَكْزَةٍ إِجْرَاءَ لَمَّا قَضَاهُ وَأَرَادَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

تاب موسى عما جرى على يده، واستغفر ربه، وأخبر الله أنه غفر له، ولا عتاب بعد المغفرة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

قال موسى رب بما أنعمت علي من توفيقك لي بالتوبة^(١) فلن أعود بعد ذلك إلى مثل ما سلف مني.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اِسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمُوسَى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَ نَفْسًا نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

أصبح في المدينة خائفاً على نفسه من فرعون لأنه كان يدعي أنه يحكم بالعدل، وخاف موسى أن ينسبه في قتل القبطي إلى العمد والقصد. فهو ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ علم فرعون وأن يُخبر بذلك في وقته.

وقيل ﴿خَائِفًا﴾ من الله مما جرى منه. ويقال ﴿خَائِفًا﴾ على قومه حلول العذاب بهم. وقيل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ نصرة الله إياه. ويقال ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ مؤنساً يأنس به.

فإذا الذي استنصره بالأمس يخاصم إنساناً آخر، ويستعين به ليُعينه، فهم موسى بأن يعين صاحبه، فقال الذي يخاصمه: ﴿يَمُوسَى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ؟﴾ قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس، ولكن لما قصد منعه عن صاحبه استدل على أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس، فلما ذكر ذلك شاع في أفواه الناس أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس، فأمسك موسى عن هذا الرجل.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

جاء إسرائيلي من معارف موسى يسعى، وقال إن القوم يريدون قتلك، وأنا واقف

(١) انظر حديث القشيري عن التوبة برسالته ص ٩١.

على تدبيرهم؛ وقد أرادوا إعلام فرعون.. فاخْرُجْ من هذا البلد، إني لك من الناصحين.

قوله جل ذكره: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

خرج^(١) من مصر ﴿خَائِفًا﴾ أن يقتلوا أثره، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أن يدركه الطلب، وقيل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الكفاية والنصرة من الله، ودعا الله فقال: ﴿نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

توجَّه بنفسه تلقاء مدين من غير قصدٍ إلى مدين أو غيره، بل خرج على الفتوح، توجَّه بقلبه إلى ربِّه ينتظر أن يهديه ربُّه إلى النحو الذي هو خيرٌ له، فقال: عسى ربي أن يهديني إلى أرشدٍ سبيلٍ لي.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

لَمَّا وافى مدينَ شعيب كان وقت الهاجرة، وكانت لهم بئر يستقون منها، فيصبون الماء في الحياض، ويسقون أغنامهم، وكانوا أهل ماشية.

وكان شعيبُ النبي عليه السلام قد كُفَّ بَصْرُهُ لكثرة بكائه؛ ففي القصة أنه بكى فذهب بَصْرُهُ، ثم رَدَّ الله عليه بَصْرَهُ فبكى، فردَّ الله بصره فبكى حتى ذهب بَصْرُهُ، فأوحى الله إليه: لِمَ تبكي يا شعيب..؟ إِنْ كَانَ بِكَ أَكْثَرُ لَخُوفِ النَّارِ فَقَدْ أَمُنْتُكَ، وَإِنْ كَانَ لِأَجْلِ الْجَنَّةِ فَقَدْ أَتَحْتَهَا لَكَ.

فقال: رَبِّ.. إِنَّمَا أَبْكِي شَوْقًا إِلَيْكَ. فأوحى الله إليه لأجل ذلك أَخْدَمْتُكَ نَبِييَ وكليمي عَشْرَ حَجَجٍ.

وكانت لشعيب أغنامٌ، ولم يكن لديه أجير، فكانت بنتاه تسوقان الغنمَ مكانَ الرعاة، ولم يكن لهما قدرة على استقاء الماء من البئر، وكان الرعاة يستقون، فإذا انْقَضَوْا فَإِنَّ بَقِيَّةَ فِي الْحَوْضِ بَقِيَّةً مِنَ الْمَاءِ اسْتَقَتْ بَنَاتُ شُعَيْبٍ.

فلَمَّا وافى موسى ذلك اليومَ وشاهدَ ذلك ورأهما يمتعان غنمهما عن الماء رَقَّ قلبه لهما وقال: مَا خَطْبُكُمَا؟ فقالتا: ﴿لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وليس لدينا أجير. فلَمَّا انصرف الرعاة سَقَى لهما، ثم تَوَلَّى إِلَى ظِلِّ جِدَارٍ بَعْدَ ذَلِكَ. كَانَ الْجُوعُ قَدْ أَصَابَهُ خِلَالَ سَفَرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَعَوَّدَ، قَطَّ الرَّحْلَةَ وَالْعُرْبَةَ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مَالٌ، فَدَعَا اللَّهَ:

(١) هذا يذكرنا بأهمية قضية السفر. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٨٨ - ٢٩٤ وص ٣٨٣).

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

قيل طَلَبَ قُوَّةَ تَزِيلِ جَوْعِهِ، وقيل طَلَبَ حَالاً يَسْتَقِلُّ بِهَا. والأحسن أن يقال جاع فَطَلَبَ كِسْرَةً يَسُدُّ بِهَا رَمَقَهُ - والمعرفة توجب سؤال ما تحتاج إليه من الله قليلاً أو كثيراً. فلما انصرفت ابتنا شعيب خَرَجَ شعيب إلى ظاهر الصحراء على طريق الماشية ليمسها بيديه فوجد أثر الزيادة في تلك الكثرة، فسألهما فذَكَرَتَا له القصة، وما سمعتا منه حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فقال شعيب: إذاً هو جائع. وَبَعَثَ إحداهما لتدعوه: -

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ آتِي دَعْوَكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَومِ الظَّالِمِينَ﴾ .

قيل إنما استحييت لأنها كانت تخاطب مَنْ لم يكن لها مَحْرَمًا.

وقيل لَمَّا دَعَتْهُ للضيافة تكلمت مستحيّة - فالكريم يستحي من الضيافة.

ويقال لم تَطِبْ نَفْسُ شعيب لَمَّا أَحْسَنَ موسى إليه وأنه لم يكافئه - وإن كان موسى لم يُرِدْ مكافأةً منهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾: لم يَقُلْ: فلما جاءه قَدَمُ السُّفْرَةِ^(١) بل قال: وقصّ عليه القصص. وهذا طَرَفٌ من قصته.

ويقال: وَرَدَ بظاهره ماء مدين، وَوَرَدَ بقلبه مواردُ الأُنسِ والرَّوْحِ. والموارد مختلفة؛ فمواردُ القلبِ رياضُ البَسْطِ بكشوفات المحاضرة فيطربون بأنواع الملاطفة، ومواردُ الأرواحِ مشاهدُ الأرواحِ فيكاشفون بأنوار المشاهدة، فيغيبون عن كل إحساس بالثَنُفِ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيد. وعند ذلك الولاية لله؛ فلا نَفْسَ وَلَا حِسَّ، وَلَا قلبَ وَلَا أُنْسَ. استهلاكٌ في الصمدية وفناء بالكلية!

ويقال كانت الأجنبية والبعد عن المحرمية يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما، والإعراض والسكون عن سؤالهما. ولكن الذي بينهما من المشاكلة والموافقة بالسُرِّ استنطقه حتى سألهما عن قصتهما، كما قيل:

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَا هُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

ويقال: لَمَّا سألهما وأخبرتا عن ضعفهما لزمه القيامُ بأمرهما؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تَفَقَّدَ أَمَرَ الضعفاء ووقف على موضع فاقتهم لزمه إشكاؤهم.

ويقال مِنْ كَمَالِ البلاءِ على موسى أَنَّهُ وافى الناسَ وكان جائعاً، وكان مقتضى الرِّفْقِ أَنْ يُطْعِمُوهُ، ولكنه قَبَضَ القلوبَ عنه، واستقبله مِنْ موجباتِ حُكْمِ الوقتِ أَنَّ

(١) السُّفْرَةُ: طعام يُعد للمسافر أو ما يُحمل فيه الطعام أو المائدة وما عليها من الطعام.

يَعْمَلُ عَمَلٌ أَرْبَعِينَ رَجُلًا؛ لَأَنَّ الصَّخْرَةَ الَّتِي نَحَّاهَا عَنْ رَأْسِ الْبَئْرِ - وَخَذَهُ - كَانَ يَنْقُلُهَا أَرْبَعُونَ رَجُلًا، فَلَمَّا عَمِلَ عَمَلٌ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ، وَقَالَ: إِنَّ رَأْيْتَ أَنْ تُطْعِمَنِي بَعْدَ مُقَاسَاةِ اللَّتْيَا وَالَّتِي.. فذلِكَ فَضْلُكَ!

قال ذلك بلسان الانبساط، ولا لسان أحلى من ذلك. وسُئِلَ الشكوى أن تكون إليه لا مِنْكَ.. بل منه إليه.

ويقال: تَوَلَّى إِلَى ظِلِّ الْأَنْسِ وَرَوْحِ الْبَسْطِ وَاسْتِقْلَالِ السَّرِّ بِحَقِيقَةِ الْوُجُودِ.
ويقال قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: فَرِذْنِي فَقْرًا؛ فَإِنْ فَقَرِي إِلَيْكَ يَوْجِبُ اسْتِعَانَتِي بِكَ.

قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطُيَ اسْتَجِرِّي إِنَّكِ خَيْرٌ مِمَّنْ اسْتَجَرْتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

كان شعيب عليه السلام يحتاج إلى أجير، ولكن لا يسكن قلب إلى أحد، فلمَّا رأى موسى، وسمع من ابنته وصفة بالقوة والأمانة سأل:
عَرَفْتُ قُوَّتَهُ.. فكيف عَرَفْتَ أَمَانَتَهُ؟

فقالت: كُنْتُ أَمْشِي قُدَّامَهُ فَأَخَّرَنِي عَنْهُ فِي الطَّرِيقِ قَائِلًا: سِيرِي وَرَائِي وَاهْدِنِي، لئلا يَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيَّ.. فقال شعيب:

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَنَجِدُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فرغب موسى وتزوجها على صداق أن يعمل عشر حجج لشعيب.

وفي القصة أن شعيباً قال لموسى: ادخُلْ هَذَا الْبَيْتَ وَأَخْرِجْ مِمَّا فِيهِ مِنَ الْعِصْيِ عَصًا، وَكَانَ الْبَيْتُ مَظْلِمًا، فَدَخَلَ وَأَخْرَجَ الْعَصَا، تِلْكَ الَّتِي أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهَا مَعْجَزَاتِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّهَا كَانَتْ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَوَقَعَتْ لَشُعَيْبٍ مِنْ نَبِيِّ إِلَى نَبِيٍّ. إِذْ يُقَالُ: إِنَّهُ لَمَّا هَبَّطَ آدَمُ إِلَى الْأَرْضِ صَالَ عَلَيْهِ مَا عَلَى وَجْهِهَا مِنَ السَّبَاعِ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّهُ عَصًا، وَأَمَرَ جَبْرِيلَ أَنْ يَرُدَّ السَّبَاعَ عَنْ نَفْسِهِ بِتِلْكَ الْعَصَا.

وتوارث الأنبياء واحداً بعد الآخر تلك العصا، فلمَّا أخرج موسى تلك العصا، قال شعيب: رُدَّهَا إِلَى الْبَيْتِ، وَاطْرَحْهَا فِيهِ، وَأَخْرِجْ عَصًا أُخْرَى، فَفَعَلَ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَلَمْ تَحْصُلْ كُلُّ مَرَّةٍ فِي يَدِهِ إِلَّا تِلْكَ الْعَصَا، فَلَمْ تَكُورْ ذَلِكَ عَلِيمٌ شُعَيْبٌ أَنَّ لَهُ شَأْنًا فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا.

وفي القصة: أَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ سَاقَ غَنَمَهُ، وَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: إِنَّ طَرِيقَكَ يَتَشَعَّبُ شُعْبَتَيْنِ: عَلَى أَحَدِهِمَا كَلًّا كَثِيرٌ.. فَلَا تَسْلُكُهُ فِي الرِّعْيِ فَإِنَّ فِيهِ ثَعْبَانًا، وَاسْلُكْ

الشَّعْبَ الْآخَرَ. فَلَمَّا بَلَغَ مُوسَى مَفْرَقَ الطَّرِيقَيْنِ، تَفَرَّقَتْ أَغْنَامُهُ وَلَمْ تَطَاوِعْهُ، وَسَامَتْ فِي الشَّعْبِ الْكَثِيرِ الْكَلًّا، فَتَبِعَهَا، وَوَقَعَ عَلَيْهِ النَّوْمُ، فَلَمَّا انْتَبَهَ رَأَى الشَّعْبَانَ مَقْتُولًا، فَإِنْ الْعَصَا قَتَلَتْهُ، وَلَمَّا انصَرَفَ أَخْبَرَ شُعَيْبًا بِذَلِكَ فَسَّرَ بِهِ^(١). وَهَكَذَا كَانَ يَرَى مُوسَى فِي عَصَاهُ آيَاتٍ كَثِيرَةً، وَلِذَا قَالَ: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَى﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

مَضَتْ عَشْرُ حِجَجٍ، وَأَرَادَ مُوسَى الْخُرُوجَ إِلَى مِصْرَ، فَحَمَلَ ابْنَهُ شُعَيْبًا، وَسَارَ بِأَهْلِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى مِصْرَ. فَكَانَ أَهْلُهُ فِي تَسْيِيرِهِ وَكَانَ هُوَ فِي تَسْيِيرِ الْحَقِّ، وَلَمَّا ظَهَرَ مَا ظَهَرَ بِأَمْرَاتِهِ مِنْ أَمْرِ الطُّلُقِ اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ الْوَقْتُ، وَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا - أَيْ أَبْصَرَ وَرَأَى - فَكَانَهُ يَشِيرُ إِلَى رُؤْيَةٍ فِيهَا نَوْعٌ آنَسَ: وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا أَجْرَى مَا يَلِيقُ بِهِ، وَلَوْ لَمْ تَقَعْ تِلْكَ الْحَالَةُ لَمْ يَخْرُجْ مُوسَى عَنْهَا بِإِنْسَانِ النَّارِ، وَقَدْ تَوَهَّم - أَوَّلُ الْأَمْرِ - أَنَّ مَا يَسْتَقْبِلُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ جَمَلَةِ الْبَلَايَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ سَبَبٌ تَحْقِيقِ النُّبُوَّةِ. فَلَوْلَا أَسْرَارُ التَّقْدِيرِ - الَّتِي لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا الْخَلْقُ - لَمَا قَالَ لِأَهْلِهِ: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

ويقال: أراح له ناراً ثم لَوْحٌ له نوراً، ثم بدا ما بدا، ولا كان المقصود النَّارَ ولا النُّورَ. وإنما سماع نداء: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ...﴾ الآية.

أخفى تعيين قَدَمِ مُوسَى عَلَى الظُّنُونِ بِهَذَا الْخُطَابِ حَيْثُ قَالَ: «مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ» ثُمَّ قَالَ «مِنْ الشَّجَرَةِ».

وَأَخْلِقُ بِأَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْبُقْعَةُ مُبَارَكَةً، فَعِنْدَهَا سَمِعَ خُطَابَ مَوْلَاهُ بِلَا وَاسْطَةٍ؛ وَأَعَزُّ الْأَمَاكِنِ فِي الْعَالَمِ مَشْهُدُ الْأَحْبَابِ:

وَإِنِّي لِأَهْوَى الدَّارَ مَا يَسْتَعِزُّنِي لَهَا الْوُدُ إِلَّا أَنَّهُمَا مِنْ دِيَارِكَا

ويقال كم قَدَمٍ وَطِئْتُ لَكَ الْبُقْعَةَ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَصْحَابُهَا بِهَا شَيْئًا... وَكَمْ لَيْلَةٍ جَنَّتْ تِلْكَ الْبُقْعَةُ وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْ تِلْكَ النَّارِ فِيهَا شَعْلَةٌ!

ويقال: شَتَّانَ بَيْنَ شَجَرَةٍ وَشَجَرَةٍ؛ شَجَرَةُ آدَمَ عِنْدَهَا ظُهُورٌ مُحْتَبَةٌ وَفَتْتِيَّةٌ، وَشَجَرَةُ مُوسَى وَعِنْدَهَا افْتِتَاحُ نُبُوءَتِهِ وَرِسَالَتِهِ!.

ويقال: لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة، ولا يُدْرَى ما الذي كانت تثمره، بل هي شجرة الوصلة؛ وثمرتها القربة، وأصلها في أرض المحبة وفَرْعُها بِاسِقٌ في سماء الصفوة، وأوراقها الزلفة، وأزهارها تَنْفَتِّقُ عن نسيم الرُّوح والبهجة: فلَمَّا سمع^(١) موسى تغيّر عليه الحال؛ ففي القصة: أنه غُشي عليه، وأرسل الله إليه الملائكة ليُرْوِحوه بمرواح الأنس، وهذا كان في ابتداء الأمر، والمبتدئ مرفوق به. وفي المرة الأخرى خرَّ موسى صَعِيقاً، وكان يفيق والملائكة تقول له: يا ابن الحَيَض. أمثلك مَنْ يسأل الرؤية؟! وكذا الحديث والقصة؛ في البداية لُطْفٌ وفي النهاية غُفٌّ، في الأولِ خَتْلٌ وفي الآخر قَتْلٌ، كما قيل:

فَلَمَّا دَارَتِ الصَّهْبَاءُ^(٢) دَعَا بِالنُّطْعِ^(٣) وَالسِّيفِ
كَذَا مَنْ يَشْرِبُ الرَّاحَ^(٤) مَعَ التَّنِينِ^(٥) فِي الصِّيفِ
قوله جل ذكره: ﴿وَأَن آتِيَ عَصَاكَ﴾.

يا موسى.. اخْلَعْ نعليك وألق عصاك، وأقم عندنا هذه الليلة، فلقد تَعَبْتَ في الطريق - وذلك إن لم يكن في النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال. يا موسى.. كيف كُنْتَ في الطريق؟ كيف صَعَّدْتَ وكيف صَوَّبْتَ وكيف شَرَقْتَ وكيف غَرَبْتَ؟ ما كُنْتَ في الطريق وحدك يا موسى! أَحْصَيْنَا خُطَاكَ - فقد أَحْصَيْنَا كُلَّ شيءٍ عَدَدًا. يا موسى.. تَعَبْتَ فاسترخ، وبعد ما جِئْتَ فلا تَبْرَحْ - كذلك العبدُ غداً إذا قطع المسافة في القيامة، وتَبَوَّأَ مَنْزِلَهُ من الجنة؛ فأقوامٌ إذا دخلوها رجعوا إلى منازلهم ثم يوم اللقاء يستحضرون، وآخرون يمضون من الطريق إلى بساط الزلفة، وكذا العبد أو الخادم إذا دَخَلَ بَلَدَ سُلْطَانِهِ. يبتدئ أولاً بخدمة الشُّدَّةِ الْعَلِيَّةِ ثم بعدها ينصرف إلى منزله. وكذلك اليوم أمرنا؛ إذا أصبحنا كُلُّ يومٍ: ألا نشتغل بشيءٍ حتى نَفْتَحَ النهارَ بالخطاب مع الحقِّ قبل أن نخاطب المخلوق، نحضر بساط الخدمة - أي الصلاة - بل نحضر بساط الدنو والقربة، قال تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]: فَالْمُصَلِّي مُنَاجٍ رَبِّهِ. ولو عَلِمَ الْمُصَلِّي مَنْ يَنَاجِي ما التفت؛ أي لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً ولا شمالاً في التسليم الذي هو التحليل.

(١) انظر حديث القشيري برسالته عن السماع ص ٣٣٥، ٣٥٠.

(٢) الصهباء: من أسماء الخمر أو هي المعصورة من عنب أبيض.

(٣) النطع: بساط من جلد، كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل (ج) أنطاع ونطوع.

(٤) الراح: الخمر.

(٥) التنين: ضرب من الحيات العظيمة. و - (في الأساطير) حيوان أسطوري يجمع بين صفات الزواحف والطيور، له مخالب أسد وجناحا نسر، وذنب أفعى، ويتخذ في بعض البلاد رمزاً قومياً.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾.

عندما انقلبت العصا حيةً ولَّى موسى مُدْبِرًا ولم يعقب، وكان موضع ذلك أن يقول: حديث أوله تسليط ثعبان! مَنْ ذا يُطِيقُ أوله؟!.

ف قيل له: لا تَخَفْ يا موسى؛ إن الذي يَقْدِرُ أَنْ يَقْلِبَ العصا حيةً أَنْ يَخْلُقَ لك منها السلامة: ﴿يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾: ليس المقصودُ مِنْ هذا أنت، إنما أثبت هذا لأسلطه على عدوك، فهذه معجزتك إلى قومك، وأثبتك على عدوك.

ويقال: شتان بين نبينا - ﷺ - وبين موسى عليه السلام؛ رجع من سماع الخطاب وأتى بشعبان سَلَطَهُ على عدوه، ونبينا - ﷺ - رجع بعد ما أُسْرِى به إلى السماء، وأوحى إليه ما أوحى - لِيُؤَافِي أُمَّتَهُ بالصلاة التي هي المناجاة، وقيل له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَصْفَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِفِينَ﴾.

قيل له: اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ، لأنَّ المدرعة التي كانت عليه لم يكن لها كُم. وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على المرء للوصول إلى مراده ومقصوده أن يتشمر، وأن يجِدْ، وأن يُخْرِجَ يَدَهُ مِنْ كُمِهِ. وإنه قال لموسى: أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَصْفَاءَ، وألق عصاك نجعلها ثعباناً، بلا ضَرْبِكَ بها، وبلا استعمالِك لها يا موسى: الأمرُ بِنَا لَا بِكَ، وأنا لا أنت.

﴿وَأَضْمَمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾: يا موسى، في وصف خضوعك تَجِدْنِي، وبتبريك عن حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ تَصِلُ إِلَيَّ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَنَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

تعلَّلَ بكلِّ وجهٍ رَجَاءً أَنْ يُعَافَى مِنْ مَشَقَّةِ التَّبْلِيغِ وَمَقَاسَاةِ الْبَلَاءِ؛ لَأنَّه عَلِمَ أَنَّ النُّبُوَّةَ فِيهَا مَشَقَّةٌ، فلم يجِدْ الرُّخْصَةَ وَالْإِعْفَاءَ مِمَّا كُلِّفَ، وأجاب سُؤْلَهُ فِي أَخِيهِ حَيْثُ سَأَلَهُ أَنْ يُجْعَلَ لَهُ رِذْءًا، وضمن لهما النصرة.

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ٤٦/١١)، وابن حجر في (فتح الباري ٥٦/١١)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٦).

ثم إنهما لما أتيا فرعونَ قابلهما بالكذب والجحد، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر، وجاوباه بالحجة، ودَعَوَاهُ إِلَى سَوَاءِ الْمَحْجَّةِ، فَأَبَى إِلَّا الْجَحْدَ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَكُنْ عَلَى الْطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

ادّعى الانفراد بالإلهية فزاد في ضلاله على عبدة الأصنام الذين جعلوا أصنامهم شركاء، ثم قال لهامان: «ابن لي صرحاً لعلِّي أطلع إلى إله موسى» وكان هذا من زيادة ضلاله، حيث تَوَهَّم أن المعبود من جهة فوق، وأنه يمكن الوصول إليه. ولعمري لو كان في جهة لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَكْفُرُ الْخَقِ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

أبى إلا أن يدوم جحوده، وغنوده، فأغرقه الله في البحر، كما أغرق قلبه في بحر الكفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْفَيْكَةِ وَيَوْمَ الْقَيْمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

لا لشرّ فِهم جعلهم أئمة ولكن لسبب تلقّهم قَدَمَهم في الخزي والهوان على كل أمة، ولكن لم يُزْشِدُوا إِلَّا إِلَى الضلال. ولم يَدْأُوا الْخَلْقَ إِلَّا عَلَى الْمُحَال، وما حصلوا إلا على سوء الحال، وما ذاقوا إلا خِزْيَ الْوَبَال. أفاضوا على مُتْبِعِهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا في خِسَّةٍ مطلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَكْفِيَنَّ وَيَوْمَ الْقَيْمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

كانوا في الدنيا مُبْعَدِينَ عن معرفته، وفي الآخرة مُبْعَدِينَ عن مغفرته، فانقلبوا من طَرْدٍ إِلَى طَرْدٍ، ومن هَجْرٍ إِلَى بُعْدٍ، ومن فراقٍ إِلَى احتراقٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

إنما تطيب المنازل إذا خلّت من الأجانب، وأطيب المساكن ما كانت زيتها يفقد الرُقْبَاءَ وَغِيْبَتِهم، فلما أهلك الله فرعونَ وقومه، وأورث بني إسرائيل أموالهم وديارهم، ومحا عن جميعها آثارهم - طاب لهم العيش وطلعت عليهم شمس السعادة.

(١) الآيات من (٣٤ حتى ٣٧) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ فَضَّلْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

لم تكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً، ولكنهم رأوا أنَّ إخبارك عنهم بحيث لا يكذبك كتابهم. وبالضرورة عرفوا حالك، وكيف أنك لم تعلم هذا من أحد، ولا قرأته من كتاب، لأنك أمي لا تحسن القراءة، وإذا فليس إخبارك إلا بتعريفنا إياك، وإطلاعنا لك على ذلك.

ويقال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ﴾: وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى، وكلمناه، وخاطبناه في بابك وباب أمك، ولم تقدر غيبك في الحال، وكوّن ليكم خير من كوّنكم لكم.

ويقال: لما خاطب موسى وكلمه سأل موسى: إنني أرى في التوراة أمة صفتهم كذا وكذا. من هم؟ وسأل عن أوصاف كثيرة، وعن الجميع كان يجاب بأنها أمة أحمد، فاشتاق موسى إلى لقائنا، فقال له: إنه ليس اليوم وقت ظهورهم، فإن شئت أسمعك كلامهم، فأراد أن يسمع كلامنا، فنادانا وقال: يا أمة أحمد...، فأجاب الكل من أصلاب آبائهم، فسمع موسى كلامهم ولم يذركهم. والغني إذا سأل فقير وأجابه لا يرضى بأن يرده من غير إحسان إليه. (وفي رواية عن ابن عباس^(١)) أن الله قال: «يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، ورحمتكم قبل أن تسترحموني».

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا^(٢) فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

ومما كان موسى عليه السلام يتلوه عليهم من الآيات ذكر نبينا ﷺ بالجميل. وذكر أمته بحسن الثناء عليهم، فنحن في الوجود مُخَدَّت مخلوق وفي ذكره متعلق لا باستفتاح. ولم نكن في العدم أعياناً، ولا أشياء، ولكن كنا في متعلق القدرة ومتناول العلم والمشية. وذكرنا في الخطاب الأزلي والكلام الصمدي والقول الأبدى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ما طلبه موسى لأمته جعلناه لأمتك، وكما نادينا موسى - وهو في الوجود والظهور - ناديناكم وأنتم في كتم العدم، أنشدوا:

كُنْ لِي كَمَا كُنْتَ فِي حَالٍ لَمْ أَكُنْ

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٩٥/٤، وفي الإصابة ٤٧٧٢، وفي حلية ٣١٤/١ ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ثاوياً: مقيماً ومستقراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْتُمُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾.

تمنوا في زمان الفترة أن يبعث الله إليهم رسولا ليهدوا به، ووعدوا من أنفسهم الإيمان والإجابة، فلما أتاهم الرسول كذبوه، وقالوا: هلا خُصَّ بمثل معجزات موسى في الظهور، وكان ذلك منهم خطأ، واقتراحاً في غير موضع الحاجة، وتحكماً بعد إزاحة العلة:

وكذا الملول إذا أراد قطيعة مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

ثم قال: أفلا تذكرون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموها بالسحر؟ وقال: إن ارتبتم أن هذا الكتاب من عند الله فأتوا بكتاب مثله، واستعينوا بشركائكم. ومن وقته إلى يومنا هذا لم يأت أحد بسورة مثله، وإلى القيامة لا يأتون بكتاب مثله^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

أتبعنا رسولا بعد رسول، وأردفنا كتاباً بعد كتاب، فما ازدادوا إلا كفراً وثبوراً^(٢)، وجحداً وعتواً.. فلا إلى الحق رجعوا، ولا إلى الاستقامة جنحوا..

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

من أكلحنا بصيرتهم بنور الهداية صدقوا بمقتضى مساعدة العناية، ومن أعمينا عن شهود التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق انتكس في غوايته، وانهمك في ضلالته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾.

إذا سمعوا دعوتنا قبلوها بالتصديق، وانقادوا بحسن الاستسلام، فلا جرّم يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المحارم في عاجلهم وآجالهم، مرة في الآخرة وهي المثوبة وأخرى في الدنيا وهي لطائف القرية.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي إِلَيْهِمْ شَيْئاً﴾.

(٢) الثبور: الهلاك والويل والخسران.

(١) الآيتان (٤٩، ٥٠) لم تردا.

﴿الْفُورَ﴾: ما يُلْهِي عن الله . ويقال ﴿الْفُورَ﴾ ما لا يوجب وسيلة عند الله ، ويقال ما لا يكون بالحق للحق ، ويقال هو ما صَدَرَ عن قلب غافل ، ويقال هو ما يوجب سماعه السهو .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .

الهداية في الحقيقة إمالة القلب من الباطل إلى الحق ، وذلك من خصائص قدرة الحق - سبحانه - وتطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق - توسعاً ، وذلك جائز بل واجب في صفته ﷺ ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] .

ويقال: لك شرف النبوة ، ومنزلة الرسالة ، وجمال السفارة ، والمقام المحمود ، والحوض المورد ، وأنت سيد ولد آدم . . ولكنك لا تهدي من أحببت ؛ فخصائص الربوبية لا تصلح لمن وصفه البشرية .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا مَأْمُونًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

قالوا نخاف الأعراب على أنفسنا إن صدقناك ، وأما بك ، لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم فقال الله تعالى: «وكيف تخافونهم وترون الله أظفركم على عدوكم ، وحكمنا بتعظيم بيتكم ، وجعلنا مكة تُجْبَى إليها ثمرات كل شيء من أقطار الدنيا»؟

ويقال من قام بحق الله - سبحانه - سخر له الكون بجملته ، ومن اشتغل برعاية سيره لله ، وقام بحق الله ، واستفرغ أوقاته في عبادة الله مُكِّن من التصرف بهمته في مملكة الله ؛ فالخلق مُسَخَّر له ، والوقت طَوْع أمره ، والحق - سبحانه - متولٍّ^(١) أيامه وأعماله يُحَقِّق ظنه ، ولا يُضَيِّع حقه .

أما الذي لا يطيعه فيهلك في أودية ضلاله ، ويتيه في مفازات خزيه ، ويبوء بوزر هواه .

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ أَفْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فَمِنْ ذَلِكَ مَسْكَنُهُمْ لَوْ تَشْكَنُ مِنْ بَدِيرٍ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ .

لم يعرفوا قدر نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أحوالهم ، وانتظام أمورهم ، فهاموا في أودية الكفران على وجوههم ، فخرُّوا في أودية الصغار على أذقانهم ، وأذاقهم الله

(١) انظر حديث القشيري عن الولاية برسائه ص ٢٥٩ - ٢٦٣ .

من كاساتِ الهوان ما كسر خمارَ بَطَرِهِمْ؛ فما كنهم منهم خالية، وسقوفها عليهم خاوية، وغربانُ الدمار فيها ناعية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا﴾: بالتكليف يأمرهم. ويأمر التكوين - على ما يريد - يفهم. وهو - سبحانه - يبعث الرسل إنذاراً ويعمي السبل عليهم اقتداراً؛ يوضح الحجة بحيث لا شبهة، ولكنه لا يهدي إلا مَنْ سَبَقَتْ له السعادة بحكم القسمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الدنيا حلوة خضرة، ولكنها في التحقيق مرةٌ مَذْرَةٌ^(١)، فبشرها يؤهم أنها صفو ولكن من وراء صفوها حسو^(٢) ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنَنْتَ وَعَدَتَهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

الدنيا سموم حنظلها تلو طوموم عسلها، وتلف ما يحصل من شربها يغلب لطف ما يظهر من أربها، وليس من أكرم بوجدان نعيم عقباه كمن مَنِيَ بالوقوع في جحيم دنياه.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضليل. . وإلا فمن أين لهم الجواب فضلاً عن الصواب! والذي يسألهم هو الذي على ما شاء جعلهم؛ فما وَرَدَ فَعَلَ إلا على فِعْلِهِ، وما صَدَرَ ما صَدَرَ إلا من أَضْلِهِ. وإذ تَبَرَّأَ بعضهم من بعض بَيَّنَّ أنه لم يكن للأصنام استحقاق العبودية ولا لأحد من النفي والإثبات بالإيجاد والإحداثِ ذَرَّةٌ أو منه شَظِيَّةٌ. . كلاً بل هو الواحد القهار^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

(١) مذرت البيضاء: إذا غرقلت، فهي مَذْرَةٌ: فسدت، ومذرت نفسه ومعدته: خبثت وفسدت. (اللسان ١٦٤/٥ مادة: مذر).

(٢) يقال: يوم كحسو الطير: أي قصير، والعرب تقول: نمت نومة كحسو الطير إذا نام نوماً قليلاً. (اللسان ١٧٦/١٤ مادة: حسا).

(٣) الآيتان: (٦٣، ٦٤) لم تردا.

يسألهم سؤال هيبه؛ فلا يَنْقَى لهم تمييز، ولا قوة عقل، ولا مُكْنَةُ جواب، قال جل ذكره:

﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

إذ استولت عليهم الخيرة، واستمكن منهم الدهش؛ فلا تُطَق ولا عقل ولا تمييز ولا فهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَعِيَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

يختار ما يشاء ومن يشاء من جملة ما يخلق. ومن ليس إليه شيء من الخلق. .
فما له والاختيار؟!

الاختيار للحق استحقاق عز يوجب أن يكون ذلك له، لأنه لو لم يُنْقَذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العز، فمن بقي عن مراده لا يكون إلا ذليلاً؛ فالاختيار للحق نعمت عز، والاختيار للخلق صفة نقص ونعت بلاء وقصور؛ فاختيار العبد غير مُبَارَك عليه لأنه صفة هو غير مُسْتَحَق لها، ومن اتصف بما لا يليق به افتضح في نفسه، قال قائلهم:

ومعال إذا ادعاهها سواه لزمته جنائية السراق

والطينة إذا ادعت ما هو صفة الحق أظهرت رعونتها، فما للإنسان والاختيار؟!
وما للمملوك والملك؟! وما للعبيد والتصدر في دس^(١) الملوك؟!

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ولم لا وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟ فالعلم - الذي لا يغزب عنه معلوم - نعمت من لم يزَل، والإبداع من العدم إلى الوجود ينفرد بالقدرة عليه لم يزَل.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: تَوَحَّد بعز هيبته، وتَفَرَّد بجلال ربوبيته، لا شبيه يساويه، ولا نظير يضاهيه. ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ استحقاقاً على عطيته، وله الشكر استيجاباً على نعمته؛ ففي الدنيا المحمود لله، وفي العقبى المشكور لله؛ فالإحسان من الله لأن السلطان

(١) الدست: دست الوزارة: منصبها.

لِلَّهِ، وَالنِّعْمَةُ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ لِلَّهِ، وَالنَّصْرَةُ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ لِلَّهِ.
 قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُآتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ﴾.

إن دامت ليالي الفترة فَمَنْ الذي يأتي بنهار التوبة غير الله؟
 وإن دامت ليالي الظلم فَمَنْ الذي يأتي بصبح الوجود غير الله؟
 وإن دامت ليالي القبض فمن الذي يأتي بصبح البسط غير الله؟
 وإن دام ليل الفراق فمن الذي يأتي بصبح الوصال غير الله؟
 قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُآتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَا تَبْصُرُونَ﴾.

إن دام في الوصلة نهاركم فأني سبيل للواشين إلى تنغيص سروركم؟
 وإن دام نهار معاشكم ووقت اشتغالكم بحظوظكم فَمَنْ إله غير الله يأتيكم بليل
 تَسْكُنُونَ فيه إلى الله إلا الله، وتستريحون من أشغالكم بالخلوة مع الله إلا الله.
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ،
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الأوقات ظروف لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال؛ فالظروف من الزمان
 متجانسة، وإنما الاختلاف راجع إلى أعيان ما يحصل فيها؛ فليالي أهل الوصال
 سادات الليالي، أهل الفراق أسوأ الليالي؛ فأهل القرب لياليهم قصار وكذلك أيامهم،
 وأرباب الفراق لياليهم طوال وكذلك جميع أوقاتهم في ليالهم ونهارهم، يقول قائلهم:
 والليالي إذا نأيت طوالاً وأراها إذا دنت قبصار
 وقال آخر:

والليل أطول وقت حين أفقدها والليل أقصر وقت حين ألقاها
 وقال ثالث:

يطسول اليوم لا ألقاك فيه وحول نلتقي فيه - قصير
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ وَتَزْعُمَانِ مِنْ
 كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.
 كلا.. لا حجة لهم، ولا جواب يعذرهم، ولا شفيع يرحمهم، ولا ناصر
 يعينهم.

اشتهرت ضلالتهم، واتضح للكَافَّة جهالتهم؛ فدامَ عذابُ الأبد، وحقَّ بهم وبالُ السَّرمَد.

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾.

جاء في القصص أنه كان ابن عمِّ موسى، وكان من أعبد بني إسرائيل، وكان قد اعتزل النَّاسَ، وانفرد في صومعته^(١) يتعبَّد، فتصوَّر له إبليسُ في صورة بشر، وأخذ في الظاهر يتعبَّد معه في صومعته حتى تعجَّب قارونُ من كثرة عبادته، فقال له يوماً: لسا في شيء؛ عيوننا على أيدي النَّاسِ حتى يدفعوا إلينا شيئاً هو ضرورتنا، ولا بُدَّ لنا من أخذه، فقال له قارون: وكيف يجب أن نفعله؟

فقال له: أن ندخل في الأسبوع يوماً السوق، ونكتسب، وننفق ذلك القَدْر في الأسبوع، فأجابه إليه. فكانا يحضران السوق في الأسبوع يوماً، ثم قال له: لستُ أنا وأنت في شيء، فقال: وما الذي يجب أن نعمله؟

فقال له: نكتسب في الأسبوع يوماً لأنفسنا، ويوماً نكتسب ونتصدَّق به، فأجابه إليه. ثم قال له يوماً آخر: لسا في شيء، فقال: وما ذاك؟

قال: إن مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوت يوم، فقال: وما نفعل؟

قال: نكتسب في الأسبوع ثلاثة أيام؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للإدخار، فأجابه إليه. فلمَّا عَلِمَ أن حُبَّ الدنيا استمكن من قلبه ودَّعاه، وقال:

إِنِّي مُفَارِقُكَ.. فَدُمَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، فصار من أمره وماله ما صار، وحَمَلَهُ حُبُّ الدُّنْيَا عَلَى جَمْعِهَا، وَحَمَلَهُ جَمْعُهَا عَلَى حُبِّهَا، وَحَمَلَهُ حُبُّهَا عَلَى الْبَغْيِ عَلَيْهِمْ، وَصَارَتْ كَثْرَةُ مَالِهِ سَبَبَ هَلَاكِهِ، وَكَمْ وُعِظَ بِتَرْكِ الْفَرَجِ بِوُجُودِ الدُّنْيَا، وَبِتَرْكِ الْإِسْتِمْتَاعِ بِهَا! وَكَانَ لَا يَأْبَى إِلَّا ضَلَالاً.

ويقال خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ بدعاء موسى عليه السلام، فقد كان موسى يقول:

يَا أَرْضُ خُذِيهِ.. وبينما كانت الأرض تُخَسَفُ بِهِ كَانَ يَسْتَعِينُ بِمُوسَى بِحَقِّ الْقَرَابَةِ، وَلَكِنْ مُوسَى كَانَ يَقُولُ: يَا أَرْضُ خُذِيهِ.

وفيما أوحى اللَّهُ إِلَى مُوسَى: لَقَدْ نَادَاكَ بِحَقِّ الْقَرَابَةِ وَأَنْتَ تَقُولُ: يَا أَرْضُ خُذِيهِ! وَأَنَا أَقُولُ: يَا عَبْدُ، نَادِنِي فَأَنَا أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ.

وفي القصة أنه كان يُخَسَفُ بِهِ كُلُّ يَوْمٍ بزيادة معلومة، فلمَّا حَبَسَ اللَّهُ يُونُسَ فِي بطن الحوتِ أَمَرَ الحوتُ أَنْ يَطُوفَ بِهِ فِي الْبَحَارِ لثَلَا يَضِيقَ قَلْبُ يُونُسَ، حَتَّى انْتَهَى

(١) الصومعة: متعبد الناسك ومنار الراهب إذا كان محله مرتفعاً كأن يكون على جبل.

إلى قارون، فسأله قارون عن موسى وحاله، فأوحى الله إلى الملك:

لا تَزِدْ فِي حَسَنِهِ لِحَرَمَةٍ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ ابْنِ عَمَةٍ، وَوَصَلَ بِهِ رَحِمَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَبْتِغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. وَغَطَّ مَنْ حَرَّمَ الْقَبُولَ كَمَثَلِ الْبَذْرِ فِي الْأَرْضِ السَّيِّئَةِ؛ وَلِذَا لَمْ يَنْفَعَهُ نُصْحُهُمْ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْقَبُولِ فِي مَسَافَةٍ.

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾: ليس النصيب من الدنيا جمعتها ولا منعها، إنما النصيب منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُغَقَّبُ ندماً، ولا يُوجِبُ في الآخرة عقوبة.

ويقال النصيب من الدنيا ما يَحْمِلُ على طاعته بالنفس، وعلى معرفته بالقلب، وعلى ذكره باللسان، وعلى مشاهدته بالسر.

﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾: إنما كان يكون منه حسنة لو آمن بالله؛ لأنَّ الكافر لا حَسَنَةَ لَهُ. والآية تدل على أن الله على الكافر نِعَمًا دنيوية.

والإحسان الذي أَمَرَ به إنفاق النعمة في وجوه الطاعة والخدمة، ومقابلته بالشكران لا بالكفران.

ويقال الإحسان رؤية الفضل دون تَوْهَمِ الاستحقاق.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

ما لاحظَ أَحَدٌ نَفْسَهُ إِلَّا هَلَكَ بِإِعْجَابِهِ.

ويقال السُّمُّ الْقَاتِلُ، والذي يطفئ السراج المضيء النظر إلى النَّفْسِ بِعَيْنِ الْإِثْبَاتِ، وَتَوْهَمُ أَنَّ مِنْكَ شَيْئًا مِنَ النَّفْيِ أَوْ الْإِثْبَاتِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَبِئْسَ لَنَا مَثَلٌ مَّا أُوتِيتُمْ قُلُوبُكُمْ لَدُوٌّ حَظِيظٌ عَظِيمٌ﴾.

تَمَنَّى مَنْ رَأَاهُ مِمَّنْ كَانَ فِي حُبِّ الدُّنْيَا سِوَاهُ أَنْ يُعْطِيَهُ اللَّهُ مِثْلَ مَا أَعْطَاهُ.

أَمَّا مَنْ كَانَ صَاحِبًا عَنْ خَمَارِ غَفْلَتِهِ، مُتَقِظًا بِنُورِ بَصِيرَتِهِ فَكَانَ مَوْفَقُهُمْ: -

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

وبعد أن كان ما كان، وخسفنا به وبيداره الأرض قال هؤلاء^(١):

(١) الآية (٨١) لم ترد.

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا وَيَكَانَ لَا يَبْلُغُ الْكَافِرُونَ﴾.

مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا فلم تَنَجْرِفْ فِي نَهْجِهِ، ولم نَنخِرْط فِي سَبِيلِهِ، وَإِذَا لَوَقَعَ بِنَا الْهَلَاكِ.

أَمَّا الْمُتَمَنُّونَ مَكَانَهُ فَقَدْ نَدِمُوا، وَأَمَّا الرَّاظُونَ بِقِسْمَتِهِ - سَبْحَانَهُ - فَقَدْ سَلِمُوا؛ سَلِمُوا فِي الْعَاجِلِ إِلَى أَنْ تَظْهَرَ سَعَادَتُهُمْ فِي الْآجِلِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قيل «العلو في الدنيا» أَنْ تَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ عَلَى الْبَسِيطَةِ أَحَدًا هُوَ شَرُّ مِنْكَ.

و «الفساد» أَنْ تَتَحَرَّكَ لِحِظِّ نَفْسِكَ وَنَصِيبِكَ وَلَوْ بِنَفْسٍ أَوْ خُطُوبَةٍ.. وَهَذَا لِلْأَكْبَارِ، فَأَمَّا لِلْأَصَاغِرِ وَالْعَوَامِ فَتِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا كَعْلُوَ فِرْعَوْنَ﴾ وَلَا فَسَادًا كَفَسَادِ قَارُونَ.

وَيُقَالُ الزُّهَادُ لَا يُرِيدُونَ فِي الْأَرْضِ عُلُوًّا، وَالْعَارِفُونَ لَا يُرِيدُونَ فِي الْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ عُلُوًّا.

وَيُقَالُ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ لِلْعِبَادِ وَالزُّهَادِ، وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ الْحَاضِرَةُ لِأَرْيَابِ الْإِفْتِقَارِ وَالْإِنْكَسَارِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثَوَابُ الْحَسَنَةِ فِي التَّضْمِينِ، وَأَمْرُ السَّيِّئَةِ بِنَاوِهِ عَلَى التَّخْفِيفِ.

وَالْمُؤْمِنُ - وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ كِبَائِرٍ - فَيُثَابَتُهُ تَقْصُرُ فِي جَنْبِ حَسَنَاتِهِ الَّتِي هِيَ إِيْمَانُهُ وَمَعْرِفَتُهُ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَادُ قُلِّ زَيْدٍ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَادُ﴾: فِي الظَّاهِرِ إِلَى مَكَّةَ.. وَكَانَ يَقُولُ كَثِيرًا: «الْوَطَنُ الْوَطَنُ»، فَحَقَّقَ اللَّهُ سُؤْلَهُ. وَأَمَّا فِي السِّرِّ وَالْإِشَارَةِ فَإِنَّهُ ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أَيَّ يَسَّرَ لَكَ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، وَالْمَعَادُ هُوَ الْوَصْفُ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ رَوْحُكَ قَبْلَ حُلُولِ شَجْكَ مِنْ مَلَادِغَاتِ الْفُرْبِ وَمَطَالَعَاتِ الْحَقِّ.

وَقِيلَ الَّذِي يَنْصَبُكَ بِأَوْصَافِ التَّفْرِقَةِ بِالتَّبْلِيغِ وَبِسْطِ الشَّرِيعَةِ لَرَأْدُكَ إِلَى عَيْنِ الْجَمْعِ بِالتَّحَقُّقِ بِالْحَقِّ وَالْفَنَاءِ عَنِ الْخَلْقِ

ويقال إن الذي أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لراؤك إلى الفناء عنك بمحققك في وجود الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾.

ما كنت تؤمل محل النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك، ولا ما أظهرنا عليك من أحوال الوجد وحقائق التوحيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

لا يصدُّك بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذُّوب والشهود، والإدراك والوجود. لا تتداخلك تُهمّة التجويز وسؤالات العلماء بما يدعون من أحكام العقول؛ فَمَا يَذْرُكُ فِي شِعَاعِ الشَّمْسِ لَا يَخْكُمُ بِيْطْلَانُهُ خِفَافُهُ فِي نَوْرِ السَّرَاجِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

كل عمل باطل إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله.

كل حي ميت إلا هو، قال تعالى: ﴿إِن أَمَرْتُ هَٰلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]: أي مات؛ فكل شيء مُعَدٌّ لجواز الهلاك والعدم، ولا يبقى إلا ﴿وَجْهَهُ﴾: ووجهه صفة من صفاته لا تستقل إلا به فإذا بقي وجهه فَمِنْ شرط بقاء وجهه بقاء ذاته؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بـموجود، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له؛ ففي بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته.

وفائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعْرَفُ وجوب وجهه إلا بالخبر والنقل دون العقل؛ فَخَصَّ الوجه بالذكر لأن في بقاء الوجه بقاء الحق بصفاته.

السورة التي يذكر فيها العنكبوت

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم يوجب حُظوة العابدين وَغَدَاً، وسماعه يوجب سلوة الواجدين نقداً اسم مَنْ ذَكَرَهُ وَصَلَ إِلَى مَثْوِيهِ فِي آجِلِهِ، وَمَنْ سَمِعَهُ حَظِيَ بِقُرْبَتِهِ فِي عَاجِلِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ أَحْسَبُ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

«الألف» إشارة إلى تَفَرُّدِهِ عَنْ كُلِّ غَيْرٍ بِوَجْهِ الْغِنَى، وَبِاحْتِيَاجِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ؛ كَالْأَلْفِ تَتَّصِلُ بِهَا كُلُّ الْحُرُوفِ وَلَكِنِهَا لَا تَتَّصِلُ بِحَرْفٍ.

«واللام» تشير إلى معنى أنه ما من حرفٍ إلا وفي آخره صورة تعويج ما، واللام أقرب الحروف شبهاً بالألف - فهي منتصبه القامة مثلها، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شيء ولكن اللام تتصل بغيرها - فلا جَرَمَ لَا يَكُونُ فِي الْحُرُوفِ حَرْفٌ وَاحِدٌ مَتَكُونٌ مِنْ حَرْفَيْنِ إِلَّا اللَّامُ وَالْأَلْفُ وَيُسَمَّى لَامُ أَلْفٍ وَيَكْتُبُ عَلَى شَكْلِ الْاِقْتِنَاعِ مِثْلَ صُورَةِ لَامٍ.

أما «الميم» فالإشارة فيه إلى الحرف «مِنْ»؛ فَمِنْ الرَّبِّ الْخَلْقُ، وَمِنْ الْعَبْدِ خِدْمَةُ الْحَقِّ، وَمِنْ الرَّبِّ الطُّوْلُ وَالْفَضْلُ.

﴿أَحْسَبُ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ بِمَجْرَدِ الدَّعْوَى فِي الْإِيمَانِ دُونَ الْمَطَالِبَةِ بِالْبَلَوَى، وَهَذَا لَا يَكُونُ، فَكَيْفَ كُلُّ أَحَدٍ يَبْلُوَاهُ، فَمَنْ زَادَ قَدْرُ مَعْنَاهُ زَادَ قَدْرُ بَلَوَاهُ؛ فَعَلَى النُّفُوسِ بَلَاءٌ وَهُوَ الْمَطَالِبَةُ عَلَيْهَا بِإِخْرَاجِهَا عَنْ أَوْطَانِ الْكَسَلِ وَتَصْرِيفِهَا فِي أَحْسَنِ الْعَمَلِ. وَعَلَى الْقُلُوبِ بَلَاءٌ وَهُوَ مَطَالِبَتُهَا بِالطَّلَبِ وَالْفِكْرِ الصَّادِقِ بِتَطَلُّعِ الْبِرْهَانِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّحَقُّقِ بِالْعِلْمِ. وَعَلَى الْأَرْوَاحِ بَلَاءٌ وَهُوَ التَّجَرُّدُ عَنْ مَحَبَّةِ كُلِّ أَحَدٍ وَالتَّفَرُّدُ عَنْ كُلِّ سَبَبٍ، وَالتَّبَاعُدُ عَنْ كُلِّ الْمَسَاكِنَةِ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ. وَعَلَى الْأَسْرَارِ بَلَاءٌ وَهُوَ الْاِعْتِكَافُ بِمُشَاهَدَةِ الْكُشْفِ بِالصَّبْرِ عَلَى آثَارِ التَّجَلِّيِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ مُسْتَهْلَكَةً فِيهِ.

ويقال فتنة العوام في أيام النظر والاستدلال، وفتنة الخواص في حفظ آداب الوصول في أوان المشاهدات. وأشدُّ الفتن حفظُ وجود التوحيد لئلا يجري عليك مَكْرٌ فِي أَوْقَاتِ غَلَبَاتِ شَاهِدِ الْحَقِّ فَيُظَنُّ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ مِنَ الْحَقِّ، وَأَنَّهُ لَا يُقَالُ إِنَّهُ الْحَقُّ - وَعَزِيزٌ مَنْ يَهْتَدِي إِلَى ذَلِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

لم يُخْلِهِمْ من البلاء والمِحْنِ لِيُظْهِرَ صَبْرَهُمْ في البلاء أو ضده من الضَجَرِ، وشكرهم في الرخاء أو ضده من الكفر والبَطَرِ. وهم في البلاء ضروب: فمنهم مَنْ يصبر في حال البلاء، ويشكر في حال النعماء... وهذه صفة الصادقين. ومنهم مَنْ يضحُّ ولا يصبر في البلاء، ولا يشكر في النعماء... فهو من الكاذبين. ومنهم مَنْ يؤثر في حال الرخاء ألا يستمتع بالعطاء، ويستروح إلى البلاء؛ فَيَسْتَعْذِبَ مَقَاسَاةَ الضَّرِّ والعناء... وهذا أَجْلُهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. يرتكبون المخالفات ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة... ساء حُكْمُهُمْ! فمتى ينجو من العذاب مَنْ ألقى جلاباب التَّقَى؟! ويقال توهموا أنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ، ولا محاسبة ولا مطالبة.

ويقال اغتروا بامهالنا اليوم، وتوهموا أنهم مِنَّا قد أفلتوا، وظنوا أنهم قد أمِنوا. ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئات أن جرى التقدير لهم بالسعادة، وأن ذلك يؤخر حُكْمَنَا... كلا، فلا يشقى مَنْ جَرَتْ قِسْمَتُنَا له بالسعادة، وهيهات أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة!

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّكِينُ الْعَلِيمُ﴾. مَنْ خاف عَذَابَهُ يوم الحساب فَسَيَلْقَى يومَ الحَشْرِ الأمانَ الموعودَ مِنَّا لأهل الخوف اليوم. وَمَنْ أَمَّلَ الثَّوَابَ يومَ البُعْثِ فسوف يرى ثوابَ ما أسلفه من العمل. وَمَنْ رَجَى عُمرَهُ في رجاء لقائنا فسوف نُبَيِّحُ له النَّظَرَ إلينا، وسوف يتخلص من الغيبة والفرقة.

﴿وَهُوَ السَّكِينُ﴾ لأنين المشتاقين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحنين المحبين الوالهيْن. قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. مَنْ أَحْسَنَ فَنَجَاةَ نفسه طلبها، وسعادة حالة حَصَلَهَا. ومن أساء فعقوبة بنفسه جَلَبَهَا، وشقاوة جَدَّه اكتسبها.

ويقال ثواب المطيعين إليهم مصروف، وعذاب العاصين عليهم موقوف... والحق عزيز لا يلحقه بالوفاق زَيْن، ولا يَمَسُّه من الشَّقَاقِ شَيْن.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا خُطُوبَةً نَالِ مِنَّا خُطُوبَةً، وَمَنْ تَرَكَ فِينَا شَهْوَةً وَجَدَ مِنَّا صَفْوَةً، فنصيبهم من الخيرات موفور، وعملهم في الزلات مغفور. . بذلك أجرنا سُنتنا، وهو متناول حُكْمنا وقضيتنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

أَمَرَ اللَّهُ العبادَ برعاية حقِّ الوالدين تنبيهاً على عظم حق التربية. وإذا كانت تربية الوالدين - وهي إِنْ حَسُنَتْ - فإلى حدٍّ يوجبُ رعايتهما فما الظنُّ برعاية حق الله تعالى، والإحسانِ العميم بالعبد والامتنان القديم الذي خصَّه به مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ؟!.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تُطِيعَهُمَا، ولكن رُدَّ بِلطْفٍ، وخالف برفق.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

أي لنلحقنهم بالذين أصلحوا من قبلهم، فإن المعهود من سُنتنا إلحاق الشكل بشكله، وإجراء المثل على حُكْم مثله.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابًا لِلَّهِ﴾.

المحنُ تُظهرُ جواهرَ الرجال، وهي تَدُلُّ على قيمهم وأقدارهم؛ فَقَدَرُ كُلِّ أَحَدٍ وقيمه يَظْهَرُ عند محنته؛ فَمَنْ كانت محنته من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها؛ أو كانت محنته بموت قريبٍ من الناس، أو فَقَدَ حبيبٍ من الخلقِ فحقيرُ قَدْرِهِ، وكثيرٌ في الناس مثله. وَمَنْ كانت محنته في الله والله فعزيزُ قَدْرِهِ، وقليلٌ مَنْ كان مثله، فهم في العدد قليلٌ ولكن في القَدْرِ والخطَرِ جليلٌ: ويقدر الوقوف في البلاءِ تظهرُ جواهرُ الرجال، وتصفو عن الخَبَثِ نفوسهم.

والمؤمن مَنْ يكفُ الأذى، ويتحمل من الخَلْقِ الأذى، ويتشرب ولا يترشح بغير شكوى ولا إظهار؛ كالأرض يُلْقَى عليها كُلُّ خَبِيثٍ فَتُثْبِتُ كُلَّ خَضرةٍ وكل نزهة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود . تَبَيَّنَ مَنْ بكى ممن تباكى

(١) القشيري ما استفاد من قول الجنيد: الصوفي كالأرض، يُطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل ملبح، وقال أيضاً: إنه كالأرض يطوها البر والفاجر، وكالسحاب يُظَلُّ كل شيء، وكالقطر يسقي كل شيء. (الرسالة القشيرية ص ٢٨١).

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ضمنوا بما لم يفوا به، وأخلفوا فيما وعدوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً، بل زادوا على حَمَلِ نفوسهم؛ فاحتقبا وزراً ما عملوا، وطولبوا بوزر ما به أمروا، فضاعفَ عليهم العقوبة، ولم يصل أحدٌ من جهتهم إلى راحة، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب^(١) أخاه يثرب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ أَقْيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَقْعُوتُونَ﴾.

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدعاوى والمشبهون بأهل الحقائق:

مَنْ تَحَلَّى بغير ما هو فيه فَضَحَ الامتحان ما يدعيه
وقال تعالى: ﴿قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]..
وهيهات هيهات!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنجَيْنَاهُ...﴾ الآية.

ما زادهم طولُ مقامه فيهم إلا شكاً في أمره، وجهلاً بحاله، ومُزِيَةً في صدقه، ولم يزد نوح - عليه السلام - لهم إلا نُضْحاً، وفي الله إلا صبراً. ولقد عرفه الله أنه لن يؤمنَ منهم إلا الشُرْذِمَةُ^(٢) اليسيرة الذين كانوا قد آمنوا، وأمره باتخاذ السفينة، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحداً، وَصَدَّقَ وَغَدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ.. فلا تبديلَ لِسُنَّتِهِ في نصرته دينه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذَرِيهِمْ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

كَرَّرَ ذِكْرَ إبراهيم في هذا الموضع، وكيف أقام على قومه الحُجَّةَ، وأرشدهم إلى

(١) عرقوب: اسم رجل من العمالقة؛ قيل: هو عرقوب بن معبد، كان أكذب أهل زمانه، ضربت به العرب المثل في الخُلف، فقالوا: مواعيد عرقوب، وذلك أنه أتاه أخ له يسأله شيئاً فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة، فلك طلعتها، فلما أطلعت أنه للعدة، فقال له: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زهواً، فلما أبسرت قال: دعها حتى تصير رطباً، فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمرأ، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذبها، ولم يُعط أخاه منها شيئاً، فصارت مثلاً في إخلاف الوعد. (لسان العرب ١/ ٥٩٥ مادة: عرقب).

(٢) الشُرْذِمَةُ: من الناس: الجماعة القليلة.

سَوَاءَ الْمُحَجَّةِ، وَلَكِنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَى مَا جَحَدُوا، وَتَعَصَّبُوا لِمَا مِنَ الْأَصْنَامِ عِبْدُوا، وَكَادُوا لِإِبْرَاهِيمَ كَيْدًا. . . وَلَكِنْ انْقَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ مَكْرًا بِهِمْ وَاسْتِدْرَاجًا. وَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ نُصْحُهُ، وَلَا وَجَدَ مِنْهُمْ مَسَاعَاً وَغَظَّهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لا يُذَرَى أيهما أقبح. . . هل أعمالكم في عبادة هذه الجُمادات أم أقوالكم - فيما تزعمون كذباً - عن هذه الجُمادات؟ وهي لا تملك لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضرراً، ولا تملك لكم خيراً ولا شراً، ولا تقدر أن تصيحكم بهذا أو ذاك.

وبَيَّنَّ أنهم في هذا لم يكونوا خالين عن ملاحظة الحفظ وطلب الأرزاق^(١) فقال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ لتصلوا إلى خير الدارين.

وابتغاء الرزق من الله إدامة الصلاة؛ فإن الصلاة استفتاح باب الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢].

ويقال ابتغاء الرزق بشهود موضع الفاقة فعند ذلك تتوجه الرغبة إلى الله تعالى في استجلاب الرزق.

وفي الآية تقديم الرزق على الأمر بالعبادة؛ لأنه لا يُمكنه القيام بالعبادة إلا بعد كفاية الأمر؛ فبالقوة يمكنه أداء العبادة، وبالرزق يجد القوة، قالوا:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه فمكروه ما يلقي يكون جزاؤه ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: حيث كفاكم أمر الرزق حتى تفرغتم لعبادته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

وبال تكذيب عائد على المكذب، وليس على الرسول - بعد تبليغه الرسالة بحيث لا يكون فيه تقصير كي يكون مُبيناً - شيء آخر. وإلا يكون قد خرج عن عهدة الإلزام.

وفيما حلّ بالمكذّبين من العقوبة ما ينبغي أن يكون عبرة لمن بعدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن العبودية برسالته ص ١٩٧، ٢٠١.

الذي دَاخَلَهُمْ فِيهِ الشُّكُّ كَانَ بَعَثَ الْخَلْقَ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ إِعَادَةِ فصول السَّنَةِ بعد تَقْضِيهَا على الوجه الذي كَانَ فِي الْعَامِ الْمَاضِي. وَيَبَيِّنُ أَنْ جَمَعَ أَجْزَاءِ الْمَكْلُوفِينَ بعد انْقِضَاصِ الْبَنِيَةِ كإِعَادَةِ فصول السَّنَةِ؛ فَكَمَا أَنَّ ذَلِكَ سَائِعٌ فِي قُدْرَتِهِ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ فَكَذَلِكَ بَعَثَ الْخَلْقَ.

وكَمَا فِي فصول السَّنَةِ تَتَكَرَّرُ أَحْوَالُ الْعِبَادَةِ فِي الْأَحْوَالِ الْعَامَةِ الْمَشْتَرَكَةِ بَيْنِ الْكَافَةِ، وَفِي خَوَاصِّ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اسْتِيْلَاءِ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ، ثُمَّ زَوَالِهَا، إِلَى مَوَالَاةِ الطَّاعَاتِ، ثُمَّ حَصُولِ الْفِتْرَةِ، وَالْعُودِ إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الْأُولَى، ثُمَّ بعد ذَلِكَ الْإِنْتِبَاهُ بِالتَّوْبَةِ.. كَذَلِكَ تَتَكَرَّرُ عَلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ.

وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ تَتَعَاقَبُ أَحْوَالُهُمْ فِي الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ ثُمَّ فِي الْهَيْبَةِ وَالْأُنْسِ، ثُمَّ فِي التَّجَلِّيِ وَالسُّتْرِ، ثُمَّ فِي الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ، ثُمَّ فِي السُّكْرِ وَالصَّحْوِ.. وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي معنى تكرير الأحوال ما أنشدوا:

كُلُّ نَهْرٍ فِيهِ مَاءٌ قَدْ جَرَى فَلِإِيهِ الْمَاءِ يَوْمًا سَيَعُودُ
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

أَجْنَاسٌ مَا يُعَذِّبُ بِهِ عِبَادَهُ وَأَنْوَاعٌ مَا يَرْحَمُ بِهِ عِبَادَهُ.. لَا نِهَايَةَ لَهَا وَلَا خَصْرٍ؛ فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْخَذْلَانِ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْجُحُودِ وَالْعُنُودِ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْوُجُودِ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْجِرْضِ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِالْقَنَاعَةِ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِتَفْرِيقِ الْهَمِّ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِجَمْعِ الْهَمَّةِ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْقَانَةِ فِي ظُلْمَةِ التَّدْبِيرِ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِإِسْهَادِهِ جَرِيَانَ التَّقْدِيرِ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْإِخْتِيَارِ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِرِضَاهِ بِحُكْمِ رَبِّهِ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِإِعْرَاضِهِ عَنْهُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِأَنْ يَكِلَهُ وَنَفْسَهُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِأَنْ يَقُومَ بِحُسْنِ تَوَلِّيهِ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَيَمْنَعُهَا عَنْهُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِتَرْهِيْدِهِ فِيهَا وَبَسْطِهَا عَلَيْهِ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِأَنْ يَسْتَبْتَهُ فِي أَوْطَانِ الْعَادَةِ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِأَنْ يَقِيْمَهُ بِأَدَاءِ الْعِبَادَةِ... وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

تُقْلَبُ الْجَمْلَةُ فِي الْقَبْضَةِ، وَتُخْرَجُ عَلَيْهِمُ أَحْكَامُ التَّقْدِيرِ: جَعِدُوا أَمْ وَخَدُوا، أَقْبِلُوا أَمْ أَعْرَضُوا.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

تعجلت عقوبتهم بأن يسوا من رحمته... ولا عقوبة أشد من هذا.
قوله جل ذكره: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

لما عجزوا عن جوابه ولم يساعدهم التوفيق بالإجابة أخذوا في معارضته بالتهديد والوعيد، والسفاهة والتوبيخ، والله تعالى صرف عنه كيدهم، وكفاه مكرهم، وأفلج عليهم حُجَّتَهُ^(١)، وأظهر نلكافة عجزهم، وأخبر عما يلحقهم في مآلهم من استحقاق اللُغْنِ والطرد، وفنون الهوان والخزي^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لا تَصِيحُ الهجرة إلى الله إلا بالتبري - بالكمال - بالقلب عن غير الله. والهجرة بالنفس سيرة بالإضافة إلى الهجرة بالقلب - وهي هجرة الخواص؛ وهي الخروج عن أوطان التفرقة إلى ساحات الجمع. والجمع بين التعرّيج في أوطان التفرقة والكون في مشاهد الجمع مُتَنَافٍ^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لما لم يُجِبْ قومه، وبذل لهم النصيح، ولم يدخر عنهم شيئاً من الشفقة - حَقَّقَ اللَّهُ مراده في نَسْلِهِ، فوهب له أولاده، وبارك فيهم، وجعل في ذريته الكتاب، والنبوة، واستخلصهم للخيرات حتى صلحت أعمالهم للقبول، وأحوالهم للإقبال عليها، ونفوسهم للقيام بعبادته، وأسرارهم لمشاهدته، وقلوبهم لمعرفة. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ للدنو والزلفة والتخصيص بالقربة.

(١) أفلج الله حجة: أظهرها وأثبتها. (٢) الآية (٢٥) لم ترد.

(٣) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الجمع والفرق: كان الأستاذ الدقاق يقول: الفرق ما نسب إليك والجمع ما سلب عنك، ومعناه: أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق، لأنه من شهود الأفعال، فمن أشهد الحق سبحانه أفعاله من طاعته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة، ومن أشهد الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد بشاهد الجمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع. (الرسالة القشيرية ص ٦٤، ٦٥).

قوله جل ذكره: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

لامَهُمْ على خصلتهم الشنعاء، وما كانوا يتعاطونه على الله من الاجتراء، وما يُضَيِّعُونَهُ من المعروف ويأتون من المنكر الذي جعلته تخليته الفساق مع فسقهم، وترك القبض على أيديهم، وقلة الاحتشام من اطلاع الناس على قبائح أعمالهم. ومن ذلك قلة احترام الشيوخ والأكابر، ومنها التسويف في التوبة، ومنها التفاخر بالزلة.

فما كان جوابهم إلا استعجال العقوبة، فحل بهم من ذلك ما أهلكهم وأهلك من شاركهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

التبس على إبراهيم أمرهم فظنهم أضيافاً؛ فتكلف لهم تقديم العجل الحنيد^(٢) جرياً على سُنَّتِهِ في إكرام الضيف. فلما أخبروه مقصودهم من إهلاك قوم لوط تكلم من باب لوط... إلى أن قالوا: إِنَّا مُتَّجُوهُ. وكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوط - وإن كان بريئاً - لم يكن ظلماً؛ إذ لو كان قبيحاً لما كان إبراهيم عليه السلام - مع وفرة علمه - يشكك عليه حتى كان يجادل عنه. بل الله أن يعذب من يعذب، ويعافي من يعافي^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.

لما أن رآهم لوط ضاق بهم قلبه لأنه لم يعلم أنهم ملائكة، فخاف عليهم من فساد قومه: فكان ضيق قلبه لأجل الله - سبحانه، فأخبروه بأنهم ملائكة، وأن قومه لن يصلوا إليهم، فعند ذلك سكن قلبه، وزال ضيق صدره.

ويقال أقرب ما يكون العبد في البلاء من الفرج إذا اشتد عليه البلاء؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء، لأنه يصير مضطراً، واللَّهُ سبحانه وَعَدَ المضطرين وشيك الإجابة. كذلك كان لوط في تلك الليلة، فقد ضاق بهم ذرعاً ثم لم يلبث أن وجد الخلاص من ضيقه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ رَكَنَّا إِلَيْهَا آيَةً يَكُنْ لِقَوْمٍ يُعَذِّبُونَ﴾.

(١) الآيتان (٢٩، ٣٠) لم تردا.

(٢) العجل الحنيد: المشوي، وقيل: هو الذي يقطر ماؤه وقد شوي. (اللسان ٣/ ٤٨٤: حذ).

(٣) الآية (٣٢) لم ترد.

فَمَنْ أَرَادَ الْإِعْتِبَارَ فَلَهُ فِي قِصَّتِهَا عِبْرَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالِإِن مِّنْ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآيات.

ذَكَرَ قِصَّةَ شُعَيْبٍ وَقِصَّةَ عَادٍ وَثَمُودَ وَقِصَّةَ فِرْعَوْنَ، وَقِصَّةَ قَارُونَ... وَكُلَّهُمْ نَسَجَ بَعْضُهُمْ عَلَى مِثْوَالِ بَعْضٍ، وَسَلَكَ مَسْلَكَهُمْ، وَلَمْ يَقْبَلُوا النَّصِيحَ، وَلَمْ يُبَالُوا بِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ، إِمْضَاءً لِسُنَّتِهِ فِي نَصْرَةِ الضَّعِيفِ وَقَهْرِ الظَّالِمِينَ.

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعَبَّةً لِّنَفْسٍ وَإِن أَوْهَرَ الْعَبُوتَ لَبَيَّتُ الْعَنكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بُعْداً في الخروج منه؛ فهو يبنى ولكن على نفسه يبنى... كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يجني.

وبيت العنكبوت أكثره في الزوايا من الجدران، كذلك الكافر أمره على التَّقِيَّةِ والكتمان، وأما المؤمن فظاهرُ المعاملة، لا ستر ولا يُدْخِمُ^(١).

وبيت العنكبوت أوهنُ البيوت لأنه بلا أساس ولا جدران ولا سقف ولا يمسك على أَذْوَنَ دَفْعٍ... كذلك الكافر؛ لا أَصْلَ لِسَانِهِ، وَلَا أَساسَ لِبَيْتَانِهِ، يرى شيئاً ولكن بالتَّخِيلِ، فأماً في التحقيق... فَلَا^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

الكل يشتركون في سماع الأمثال، ولكن لا يصغي إليها مَنْ كَانَ نَقُورَ الْقَلْبِ، كنود الحال، متعوداً الكسل، مُعْرِجاً في أوطان الفشل.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿بِالْحَقِّ﴾: أي بالقول الحق والأمر الحق.

قوله جل ذكره: ﴿أَتَلُمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَنَّهُ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

أي من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر، أي على معنى ينبغي للمؤمن أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر، كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله، فَإِن قُدِّرَ أَنْ وَاحِدًا

(١) الدخمس: الخب الذي لا يبين لك معنى ما يريد، وقد دخمس عليه، وأمر مدخمس إذا كان مستوراً. (لسان العرب ٧٨/٦ مادة: دخمس).

(٢) الآية (٤٢) لم ترد.

منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن الإيمان - كذلك من لم ينته عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة.

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءً فالصلاة ناهيةً على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر.

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر. فإن كان - وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها.

ويقال الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النفس.

ويقال الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الحفظ.

ويقال الفحشاء الأعمال، والمنكر حسابُ النجاة بها، وقيل ملاحظته الأعراض عليها، والسرور والفرح بمدح الناس لها.

ويقال الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العوض عليها.

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلق مُخَدَّتٌ^(١).

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى، لأن ذكره لله طاعة، وذكره لغيره لا يكون طاعة.

ويقال وَلَذِكْرُ اللَّهِ لَكَ أَكْبَرُ من ذكرك له.

ويقال ذكره لك بالسعادة أكبر من ذكرك له بالعبادة.

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة.

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُنْقَى للذاكر معه ذكر مخلوق.

ويقال ذكر الله أبر من أن يُنْقَى للزلة معلوماً أو مرسوماً.

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحد من المخلوقين بغيره.

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُنْقَى معه للفحشاء والمنكر سلطاناً؛ فليُحْرَمَ ذكره زَلَّاتُ الذَاكِرِ مغفورة، وعيوبه مستورة.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ينبغي أن يكون منك للخصم تبين، وفي خطابك تليين، وفي قبول الحق إنصاف، واعتقاد النصر - لما رآه صحيحاً - بالحجة، وترك الميل إلى الشيء بالهوى.

(١) انظر حديث القشيري عن الذكر بالرسالة ص ٢٢١ - ٢٢٦.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

يعني أنهم على أنواع: فمرحوم نظرنا إليه بالعناية، ومحروم وسمناه بالشقاوة.
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

أي تجرد قلبك عن المعلومات، وتقّس سرّك عن المرسومات، فصاذفك من غير مازجة طبع ومشاركة كسب وتكلف بشرية، فلما خلا قلبك وسرّك عن كل معلوم ومرسوم ورد عليك خطابنا وتفهمنا مقرون بهما ما ليس مئاً.
قوله جل ذكره: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

قلوب الخواص من العلماء بالله خزائن الغيب، فيها أودع براهين حقه، وبيّنات سرّه، ودلائل توحيده، وشواهد ربوبيته، فقانون الحقائق قلوبهم، وكل شيء يطلب من موطنه ومحلّه؛ فالدرّ يطلب من الصدف لأن ذلك مسكنه، والشمس تطلب من البروج لأنها مطلعها، والشهد يطلب من النحل لأنه عشه. كذلك المعرفة تطلب من قلوب خواصه لأن ذلك قانون معرفته، ومنها (...)^(١).
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

خفيت عليهم حالتك - يا محمد - فطالبوك بإقامة الشواهد، وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ﴾ أو لم يكشفهم ما أوضحنا عليك من السبيل، وألّخنا لك من الدليل؛ يُثْلَى عليهم ذلك، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيء من مثله! هذا هو الجحود وغاية الكنود^(٢)!
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أنا على حق واللّه - سبحانه - يعلمه، وأنتم لستم على حق والله يعلمه.
قوله جل ذكره: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَدَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

(٢) الكنود: الجاحد لنعم ربه.

الآية (٥١) لم ترد.

لولا أنني ضربت لكل شيء أجلاً لعجلت لهم ذلك، وليأتيتهم العذاب - حين يأتيهم - بغتة وفجأة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَنْشَأُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وإذا أحاطت بهم في جهنم سرادقات العذاب فلا صريح لهم، كذلك - اليوم - من أحاط به العذاب؛ من فوقه اللعن ومن تحته الحنف، ومن حوله الخزي، ويلبس لباس الخذلان، ويوسم بكى الحرمان، ويسقى شراب القنوط، ويتوَّج بتاج الخيبة، ويُقَيَّدُ بقيد السُّخْط، ويُغْلَى بغلِّ العداوة، فهم يستحبون في جهنم الفراق حُكماً، إلى أن يُلْقَوْا في جحيم الاحتراق عيناً.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾.

الدنيا أوسع رقعة من أن يضيق بمريد مكان، فإذا نَبَا به منزل - لوجه من الوجوه - إما لمعلوم حصل، أو لقبول من الناس، أو جاء، أو لعلاقة أو لقريب أو ليلاء ضد، أو لوجه من الوجوه الضارة... فسيبيله أن يرتحل عن ذلك الموضع ويتقل إلى غيره، كما قالوا:

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَرِيّاً أن أرى غيرَ مُضْبِحٍ حيثُ أُمْسِي

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقته مكان انتقل إلى غيره من الأماكن^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

إذا كان الأمر كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور؛ فسبيل المؤمن أن يوطن نفسه على الخروج مستعداً له، ثم إذا لم يحصل الأجل فلا يستعجل، وإذا حضر فلا يستقل، ويكون بحكم الوقت، كما قالوا:

لو قال لي مُتْ مِتْ سمعاً وطاعةً وقلتُ لداعي الموت: أهلاً ومرحباً

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَافًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

هم - اليوم - في غُرفٍ معارفهم على أسيرةٍ وضيئهم، مُتَوَجِّون بتيجان سيادتهم، يُسَقُّون كاساتِ الوجد، وَيَجْبُرُونَ في جنانِ القُرب، وعداً كما قال: -

(١) الآية (٥٤) لم ترد.

(٢) القشيري يجيز السفر للعارف، ولا يجيزه للمريد. يقول: ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته، وأن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق، وقبل الوصول بالقلب إلى الرب، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له إذا سافر في غير وقته. (الرسالة القشيرية ص ٣٨٣).

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة.
الصبرُ العكوفُ في أوطان الوفاء، الصبرُ حبسُ النفسِ على فطامها.
الصبرُ تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعيس.
الصبرُ صفةٌ توجب معيَّةَ الحقِّ.. وأغزى بها!
وأولُ الصبرِ تصبُّرٌ بتكليف، ثم صبرٌ بسهولة، ثم اصطبارٌ وهو ممزوج بالراحة،
ثم تحقُّقُ بوصف الرضا؛ فيصير العبدُ فيه محمولاً بعد أن كان مُتَحَمِّلاً.
والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار، والتوكلُ سكونُ السرِّ إلى الله، التوكلُ استقلالٌ بحقيقة
التوكل؛ فلا تتبرِّم في الخلوة بانقطاع الأغيار عنك. التوكلُ إعراضُ القلب عن غير الربِّ.
قوله جلَّ ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا تدخره، فمن لم يدخر رزقه في كيسه أو خزائنه فالله
يرزقه من غير مقاساة تعبٍ منه.

ويقال: ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ المقصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم،
وليس لها بيت تجمع فيه القوت، وليس لها خازن ولا وكيل.. الله يرزقها وإياكم.
ويقال إرادة الله في أن يستبقيك ولا يقبض رُوحَكَ أقوى وأتم وأكبر من تعنيك
لأجل بقائك.. فلا ينبغي أن يكون اهتمامك بسبب عنيك أتم وأكبر من تدبير صانعك
لأجل بقائك.
قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَجَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

إذا سُئِلُوا عن الخالق أقرؤا بالله، وإذا سُئِلُوا عن الرازق لم يستقروا مع الله..
هذه مناقضة ظاهرة!

قوله جلَّ ذكره: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.
الرزق على قسمين: رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب، ورزق السرائر ومنه
الاستقلال بالمعاني بحيث لا يحصره تكلف الكلام، والناسُ فيهم مرزوق ومُرَقَّةٌ عليه،
وفيهم مرزوق ولكن مُضَيِّقٌ عليه.
قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

كما عِلِمُوا أَنَّ حَيَاةَ الْأَرْضِ بعد موتها بالمطر من قِبَلِ اللَّهِ فليعلموا أَنَّ حَيَاةَ
النفوس بعد موتها - عند النَّشْرِ والبعث - بقدرة الله. وكما علموا ذلك فليعلموا أَنَّ
حَيَاةَ الْأَوْقَاتِ بعد نفرتها، وحياة القلوب بعد فترتها... بماء الرحمة بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِمْ أَحْيَاوُنَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

الدنيا الأحلام - وعند الخروج منها انتباه من النوم. والآخرة هنالك العيش بكماله، والتخلص - من الوحشة - بتمامه ودوامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَاُ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَحْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الإخلاصُ تفرغ القلب عن الكلّ، والثقة بأن الإخلاص ليس إلا به - سبحانه، والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً في المحمودات ولا في المذمومات، فعند ذلك يعبدونه مخلصين له الدين. وإذا توالى عليهم الضرورات، وانقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين فإذا كشف الضر عنهم عادوا إلى الغفلة، ونسوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل:

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه^(١)

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْهَوْنَ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالِ بَطُلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾.

منّ عليهم بدفع المحن عنهم وكون الحرم آمناً. وذكرهم عظيم إحسانه عليهم، ثم إعراضهم عن شكر ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

أي لا أحد أشدّ ظلماً ممن افترى على الله الكذب، وعدّل عن الصدق، وآثر البهتان ولم يتصرف بالتحقق، أولئك هم السقاط في الدنيا والآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الذين زَيَّنُوا ظواهرهم بالمجاهدات حسنت سرائرهم بالمجاهدات. الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف. الذين قاسوا فينا التعب من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات.

ويقال الجهاد فيه: أولاً بترك المحرمات، ثم بترك الشبهات، ثم بترك الفضلات، ثم بقطع العلاقات، والتنفّي من الشواغل في جميع الأوقات.

ويقال بحفظ الحواس لله، وبعد الأنفاس مع الله.

تم الجزء الثاني، يليه الجزء الثالث

وأوله: سورة الروم

(١) الآية (٦٦) لم ترد.

فهرس المحتويات

٢٧	تفسير الآيات : ٨٢ - ٨٨
٢٨	تفسير الآيات : ٨٩ - ٩٢
٢٩	تفسير الآيات : ٩٣ - ٩٨
٣٠	تفسير الآيات : ٩٩ - ١٠٣
٣١	تفسير الآيات : ١٠٤ - ١٠٧
٣٢	تفسير الآيتين : ١٠٨ و ١٠٩

سورة هود

٣٣	تفسير الآيات : ١ - ٣
٣٥	تفسير الآيات : ٤ - ٦
٣٦	تفسير الآية : ٧
٣٧	تفسير الآيتين : ٨ و ٩
٣٨	تفسير الآيات : ١٠ - ١٣
٣٩	تفسير الآيات : ١٤ - ١٧
٤٠	تفسير الآيات : ١٨ - ٢٤
٤١	تفسير الآيات : ٢٥ - ٢٧
٤٢	تفسير الآيات : ٢٨ - ٣٢
٤٣	تفسير الآيات : ٣٣ - ٣٧
٤٤	تفسير الآيات : ٣٨ - ٤٠
٤٥	تفسير الآيات : ٤١ - ٤٣
٤٦	تفسير الآيات : ٤٤ - ٤٨
٤٧	تفسير الآيات : ٤٩ - ٥٣
٤٨	تفسير الآيات : ٥٤ - ٥٩
٤٩	تفسير الآيات : ٦٠ - ٧٠
٥١	تفسير الآيات : ٧١ - ٧٤

سورة يونس

٣	تفسير الآيتين : ١ و ٢
٤	تفسير الآيتين : ٣ و ٤
٥	تفسير الآيتين : ٥ و ٦
٦	تفسير الآيات : ٧ - ٩
٧	تفسير الآيات : ١٠ - ١٢
٨	تفسير الآيات : ١٣ - ١٦
٩	تفسير الآيات : ١٧ - ٢٠
١٠	تفسير الآيات : ٢١ - ٢٣
١١	تفسير الآية : ٢٤
١٢	تفسير الآية : ٢٥
١٣	تفسير الآية : ٢٦
١٤	تفسير الآيات : ٢٧ - ٣١
١٥	تفسير الآيات : ٣٢ - ٣٥
١٧	تفسير الآيات : ٣٩ - ٤٣
١٨	تفسير الآيات : ٤٤ - ٤٩
١٩	تفسير الآيات : ٥٠ - ٥٤
٢٠	تفسير الآيات : ٥٥ - ٥٨
٢١	تفسير الآيات : ٥٩ - ٦١
٢٢	تفسير الآية : ٦٢
٢٣	تفسير الآيات : ٦٣ - ٦٥
٢٤	تفسير الآيات : ٦٦ - ٦٨
٢٥	تفسير الآيات : ٦٩ - ٧٥
٢٦	تفسير الآيات : ٧٦ - ٨١

٨١	تفسير الآيات: ٥٦ - ٥٢	٥٢	تفسير الآيات: ٨٠ - ٧٥
٨٢	تفسير الآيات: ٦٢ - ٥٧	٥٣	تفسير الآيات: ٨٣ - ٨١
٨٣	تفسير الآيات: ٦٥ - ٦٣	٥٤	تفسير الآيات: ٨٨ - ٨٤
٨٤	تفسير الآيات: ٦٩ - ٦٦	٥٥	تفسير الآية: ٨٩
٨٥	تفسير الآيات: ٧٧ - ٧٠	٥٦	تفسير الآيات: ٩٥ - ٩٠
٨٦	تفسير الآيات: ٨٠ - ٧٨	٥٧	تفسير الآيات: ٩٦ - ١٠٠
٨٧	تفسير الآيات: ٨٤ - ٨١	٥٨	تفسير الآيات: ١٠٥ - ١٠١
٨٨	تفسير الآيتين: ٨٥ و ٨٦	٥٩	تفسير الآيات: ١٠٩ - ١٠٥
٨٩	تفسير الآيتين: ٨٧ و ٨٨	٦٠	تفسير الآيات: ١١٢ - ١١٠
٩٠	تفسير الآيتين: ٨٩ و ٩٠	٦١	تفسير الآيات: ١١٥ - ١١٣
٩١	تفسير الآيات: ٩١ - ٩٣	٦٢	تفسير الآيات: ١١٦ - ١٢٠
٩٢	تفسير الآية: ٩٤	٦٣	تفسير الآيات: ١٢١ - ١٢٣
٩٣	تفسير الآيات: ٩٥ - ٩٨		
٩٤	تفسير الآيتين: ٩٩ و ١٠٠		
٩٥	تفسير الآية: ١٠١		
٩٦	تفسير الآيات: ١٠٢ - ١٠٦		
٩٧	تفسير الآيات: ١٠٧ - ١٠٩		
٩٨	تفسير الآيتين: ١١٠ و ١١١		

سورة يوسف

٦٤	تفسير الآية: ١
٦٥	تفسير الآيتين: ٢ و ٣
٦٦	تفسير الآيتين: ٤ و ٥
٦٧	تفسير الآيتين: ٦ و ٧
٦٨	تفسير الآيات: ٨ - ١٠
٦٩	تفسير الآيات: ١١ - ١٣
٧٠	تفسير الآيات: ١٥ - ١٨
٧١	تفسير الآيتين: ١٩ و ٢٠
٧٢	تفسير الآية: ٢١
٧٤	تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٤
٧٤	تفسير الآية: ٢٥
٧٥	تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٩
٧٦	تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٢
٧٧	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٦
٧٨	تفسير الآيات: ٣٧ - ٤٢
٧٩	تفسير الآيات: ٤٣ - ٤٧
٨٠	تفسير الآيتين: ٥٠ و ٥١

سورة الرعد

٩٩	تفسير الآيتين: ١ و ٢
١٠٠	تفسير الآيات: ٣ - ٥
١٠١	تفسير الآية: ١١
١٠٢	تفسير الآية: ١٢
١٠٣	تفسير الآيات: ١٣ - ١٥
١٠٤	تفسير الآية: ١٦
١٠٥	تفسير الآية: ١٧
١٠٦	تفسير الآيات: ١٨ - ٢٢
١٠٧	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
١٠٨	تفسير الآيات: ٢٥ - ٢٨
١١٠	تفسير الآيتين: ٣٢ و ٣٣

تفسير الآيات : ٤٣ - ٤٦	١٣٩
تفسير الآيات : ٤٧ - ٤٩	١٤٠
تفسير الآيات : ٥٠ - ٦٠	١٤١
تفسير الآيات : ٦٥ - ٧٧	١٤٢
تفسير الآيات : ٧٨ - ٨٥	١٤٣
تفسير الآيات : ٨٦ - ٨٨	١٤٤
تفسير الآية : ٨٩	١٤٥
تفسير الآيات : ٩٠ - ٩٦	١٤٦
تفسير الآيات : ٩٧ - ٩٩	١٤٧

سورة النحل

تفسير الآيتين : ١ و ٢	١٤٨
تفسير الآيات : ٣ - ٧	١٤٩
تفسير الآيات : ٨ - ١٢	١٥٠
تفسير الآيات : ١٢ - ١٥	١٥١
تفسير الآيات : ١٦ - ٢١	١٥٢
تفسير الآيات : ٢٢ - ٢٦	١٥٣
تفسير الآيات : ٢٧ - ٣٠	١٥٤
تفسير الآيتين : ٣١ و ٣٢	١٥٥
تفسير الآيات : ٣٣ - ٣٧	١٥٦
تفسير الآيات : ٣٨ - ٤١	١٥٧
تفسير الآيات : ٤٢ - ٤٨	١٥٨
تفسير الآيات : ٤٩ - ٥٣	١٥٩
تفسير الآيات : ٥٤ - ٥٩	١٦٠
تفسير الآيات : ٦٠ - ٦٤	١٦١
تفسير الآيات : ٦٥ - ٦٩	١٦٢
تفسير الآية : ٧٠	١٦٣
تفسير الآيات : ٧١ - ٧٤	١٦٤
تفسير الآيات : ٧٥ - ٧٨	١٦٥
تفسير الآيات : ٧٩ - ٨٣	١٦٦
تفسير الآيات : ٨٤ - ٨٩	١٦٧

تفسير الآيات : ٣٣ - ٣٨	١١١
تفسير الآية : ٣٩	١١٢
تفسير الآيتين : ٤٠ و ٤١	١١٣
تفسير الآيتين : ٤٢ و ٤٣	١١٤

سورة إبراهيم

تفسير الآيات : ١ - ٣	١١٥
تفسير الآيات : ٤ - ٦	١١٦
تفسير الآيتين : ٧ و ٨	١١٧
تفسير الآيات : ٩ - ١١	١١٨
تفسير الآيات : ١٢ - ١٥	١١٩
تفسير الآيات : ١٦ - ١٩	١٢٠
تفسير الآيات : ٢١ - ٢٦	١٢١
تفسير الآيتين : ٢٧ و ٢٨	١٢٣
تفسير الآيات : ٢٩ - ٣١	١٢٤
تفسير الآيتين : ٣٢ و ٣٣	١٢٥
تفسير الآيات : ٣٤ - ٣٦	١٢٦
تفسير الآية : ٣٧	١٢٧
تفسير الآيات : ٣٨ - ٤١	١٢٨
تفسير الآيات : ٤٢ - ٤٤	١٢٩
تفسير الآيات : ٤٥ - ٤٨	١٣٠
تفسير الآيات : ٤٩ - ٥٢	١٣١

سورة الحجر

تفسير الآيتين : ١ و ٢	١٣٢
تفسير الآيات : ٣ - ١٣	١٣٣
تفسير الآيات : ١٤ - ١٩	١٣٤
تفسير الآيات : ٢٠ - ٢٢	١٣٥
تفسير الآيتين : ٢٣ و ٢٤	١٣٦
تفسير الآيات : ٢٥ - ٣٥	١٣٧
تفسير الآيات : ٣٦ - ٤٢	١٣٨

تفسير الآيتين: ٦٦ و ٦٧	١٩٥	تفسير الآيتين: ٩٠ و ٩١	١٦٨
تفسير الآيات: ٦٨ - ٧٠	١٩٦	تفسير الآية: ٩٢	١٦٩
تفسير الآيات: ٧١ - ٧٥	١٩٨	تفسير الآيات: ٩٣ - ٩٥	١٧٠
تفسير الآيات: ٧٦ - ٧٩	١٩٩	تفسير الآيتين: ٩٦ و ٩٧	١٧١
تفسير الآيات: ٨٠ - ٨٣	٢٠٠	تفسير الآيات: ٩٨ - ١٠٢	١٧٢
تفسير الآيتين: ٨٤ و ٨٥	٢٠١	تفسير الآيات: ١٠٣ - ١٠٦	١٧٣
تفسير الآيات: ٨٦ - ٩٣	٢٠٢	تفسير الآيات: ١٠٧ - ١١١	١٧٤
تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٩	٢٠٣	تفسير الآيات: ١١٢ - ١١٥	١٧٥
تفسير الآيات: ١٠٠ - ١٠٨	٢٠٤	تفسير الآيات: ١١٦ - ١٢٠	١٧٦
تفسير الآيتين: ١٠٩ و ١١٠	١٠٥	تفسير الآيات: ١٢١ - ١٢٥	١٧٧
تفسير الآية: ١١١	٢٠٦	تفسير الآيات: ١٢٦ - ١٢٨	١٧٨

سورة الكهف

تفسير الآيتين: ١ و ٢	٢٠٧
تفسير الآيات: ٣ - ٧	٢٠٨
تفسير الآيتين: ٩ و ١٠	٢٠٩
تفسير الآيات: ١٠ - ١٤	٢١٠
تفسير الآيتين: ١٥ و ١٦	٢١١
تفسير الآيتين: ١٧ و ١٨	٢١٢
تفسير الآية: ١٩	٢١٤
تفسير الآيتين: ٢٠ و ٢١	٢١٥
تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٤	٢١٦
تفسير الآيات: ٢٥ - ٢٨	٢١٧
تفسير الآية: ٢٩	٢١٨
تفسير الآيتين: ٣٠ و ٣١	٢١٩
تفسير الآيات: ٣٢ - ٤٣	٢٢٠
تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦	٢٢١
تفسير الآيتين: ٤٧ و ٤٨	٢٢٢
تفسير الآية: ٤٩	٢٢٣
تفسير الآيتين: ٥٠ و ٥١	٢٢٤
تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٦	٢٢٥

سورة الإسراء

(سورة بني إسرائيل)

تفسير الآية: ١	١٧٩
تفسير الآيات: ٢ - ٤	١٨٠
تفسير الآيات: ٥ - ٨	١٨١
تفسير الآيتين: ٩ و ١١	١٨٢
تفسير الآيات: ١٢ - ١٥	١٨٣
تفسير الآيات: ١٦ - ١٩	١٨٤
تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٢	١٨٥
تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٦	١٨٦
تفسير الآيات: ٢٧ - ٣٣	١٨٧
تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٦	١٨٨
تفسير الآية: ٣٧	١٨٩
تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٥	١٩٠
تفسير الآيات: ٤٦ - ٥٢	١٩١
تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٦	١٩٢
تفسير الآيات: ٥٧ - ٥٩	١٩٣
تفسير الآيات: ٦٠ - ٦٥	١٩٤

٢٥٣	تفسير الآيات : ٣ - ٧
٢٥٤	تفسير الآيات : ٨ - ١٠
٢٥٥	تفسير الآيات : ١١ - ١٤
٢٥٦	تفسير الآيات : ١٥ - ١٩
٢٥٧	تفسير الآيتين : ٢٠ و ٢١
٢٥٨	تفسير الآيات : ٢٢ - ٢٨
٢٥٩	تفسير الآيات : ٢٩ - ٣٩
٢٦١	تفسير الآية : ٤٠
٢٦٢	تفسير الآيات : ٤١ - ٤٤
٢٦٣	تفسير الآيتين : ٤٥ و ٤٦
٢٦٤	تفسير الآيات : ٤٧ - ٥٠
٢٦٥	تفسير الآيات : ٥١ - ٥٨
٢٦٦	تفسير الآيات : ٥٩ - ٧١
٢٦٧	تفسير الآيات : ٧٢ - ٧٩
٢٦٨	تفسير الآيات : ٨٠ - ٨٢
٢٦٩	تفسير الآيتين : ٨٣ و ٨٤
٢٧٠	تفسير الآيات : ٨٥ - ٨٧
٢٧١	تفسير الآيات : ٨٨ - ٩١
٢٧٢	تفسير الآيات : ٩٢ - ٩٩
٢٧٣	تفسير الآيات : ٩٧ - ١٠٠
٢٧٤	تفسير الآيات : ١٠١ - ١٠٩
٢٧٥	تفسير الآيات : ١١٠ - ١١٣
٢٧٦	تفسير الآية : ١١٤
٢٢٧	تفسير الآية : ١١٥
٢٧٨	تفسير الآيات : ١١٦ - ١١٩
٢٧٩	تفسير الآيتين : ١٢٠ و ١٢١
٢٨٠	تفسير الآيتين : ١٢٢ و ١٢٣
٢٨١	تفسير الآيات : ١٢٤ - ١٢٩
٢٨٢	تفسير الآيتين : ١٣٠ و ١٣١
٢٨٣	تفسير الآيتين : ١٣٢ و ١٣٣

٢٢٦	تفسير الآيات : ٥٧ - ٥٩
٢٢٧	تفسير الآيات : ٦٠ - ٦٥
٢٢٨	تفسير الآيات : ٦٦ - ٧٢
٢٢٩	تفسير الآيات : ٧٣ - ٧٧
٢٣٠	تفسير الآيات : ٧٨ - ٨٢
٢٣١	تفسير الآيات : ٩٠ - ١٠١
٢٣٢	تفسير الآيات : ١٠٢ - ١٠٧
٢٣٣	تفسير الآيات : ١٠٨ - ١١٠

سورة مريم

٢٣٤	تفسير الآية : ١
٢٣٥	تفسير الآيات : ٢ - ٧
٢٣٦	تفسير الآيات : ٨ - ١٠
٢٣٧	تفسير الآيات : ١١ - ١٧
٢٣٨	تفسير الآيات : ١٨ - ٢٣
٢٣٩	تفسير الآيات : ٢٤ - ٢٨
٢٤٠	تفسير الآيات : ٢٩ - ٣٣
٢٤١	تفسير الآيات : ٣٤ - ٣٨
٢٤٢	تفسير الآيات : ٣٩ - ٤٢
٢٤٣	تفسير الآيات : ٤٣ - ٤٩
٢٤٤	تفسير الآيات : ٥٠ - ٥٨
٢٤٥	تفسير الآيات : ٥٩ - ٦٣
٢٤٦	تفسير الآيات : ٦٤ - ٦٨
٢٤٧	تفسير الآيات : ٦٩ - ٧٣
٢٤٨	تفسير الآيات : ٧٤ - ٧٨
٢٤٩	تفسير الآيات : ٧٩ - ٨٦
٢٥٠	تفسير الآيات : ٨٧ - ٩٧
٢٥١	تفسير الآية : ٩٨

سورة طه

٢٥٢	تفسير الآيتين : ١ و ٢

٣١٣	تفسير الآيات: ٩ - ١٤
٣١٤	تفسير الآيات: ١٥ - ١٨
٣١٥	تفسير الآيات: ١٩ و ٢٣ و ٢٤
٣١٦	تفسير الآيتين: ٢٥ و ٢٦
٣١٧	تفسير الآية: ٢٧
٣١٨	تفسير الآيتين: ٢٨ و ٢٩
٣١٩	تفسير الآيتين: ٣٠ و ٣١
٣٢٠	تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٤
٣٢١	تفسير الآية: ٣٥
٣٢٢	تفسير الآيات: ٣٦ - ٣٨
٣٢٣	تفسير الآيتين: ٣٩ و ٤٠
٣٢٤	تفسير الآية: ٤١
٣٢٥	تفسير الآيات: ٤٢ - ٤٦
٣٢٦	تفسير الآيات: ٤٧ - ٥٠
٣٢٧	تفسير الآيات: ٥١ - ٥٦
٣٢٨	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦٢
٣٢٩	تفسير الآيات: ٦٣ - ٦٥
٣٣٠	تفسير الآيات: ٦٦ - ٦٩
٣٣١	تفسير الآيات: ٧٠ - ٧٣
٣٣٢	تفسير الآيات: ٧٤ - ٧٧
٣٣٣	تفسير الآية: ٧٨

سورة المؤمنون

٣٣٥	تفسير الآيات: ١ - ٣
٣٣٦	تفسير الآيات: ٤ - ١١
٣٣٧	تفسير الآيات: ١٢ - ١٤
٣٣٨	تفسير الآيتين: ١٥ و ١٦
٣٣٩	تفسير الآيتين: ١٧ و ١٨
٣٤٠	تفسير الآيات: ١٩ و ٢١ و ٢٢
٣٤١	تفسير الآية: ٢٣
٣٤٢	تفسير الآيات: ٢٩ و ٣١ و ٥١

٢٨٤	تفسير الآيتين: ١٣٤ و ١٣٥

سورة الأنبياء

٢٨٥	تفسير الآيات: ١ - ٣
٢٨٦	تفسير الآيات: ٤ - ٧
٢٨٧	تفسير الآيات: ٨ - ١١
٢٨٨	تفسير الآيات: ١٢ - ١٨
٢٨٩	تفسير الآيات: ١٩ - ٢٤
٢٩٠	تفسير الآيات: ٢٥ - ٢٩
٢٩١	تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٣
٢٩٢	تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٩
٢٩٣	تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٤
٢٩٤	تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٨
٢٩٥	تفسير الآيات: ٤٩ - ٥٦
٢٩٦	تفسير الآيات: ٥٩ و ٦٦ و ٦٩
٢٩٧	تفسير الآيات: ٧٠ - ٧٥
٢٩٨	تفسير الآيات: ٧٦ - ٨٠
٢٩٩	تفسير الآيتين: ٨١ و ٨٢
٣٠٠	تفسير الآية: ٨٣
٣٠٣	تفسير الآيات: ٨٤ - ٨٧
٣٠٤	تفسير الآيتين: ٨٨ و ٨٩
٣٠٥	تفسير الآيتين: ٩٠ و ٩١
٣٠٦	تفسير الآيات: ٩٢ - ٩٧
٣٠٧	تفسير الآيات: ٩٨ - ١٠٢
٣٠٨	تفسير الآيات: ١٠٣ - ١٠٧
٣٠٩	تفسير الآيات: ١٠٨ - ١١٢

سورة الحج

٣١٠	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٣١١	تفسير الآيات: ٣ - ٥
٣١٢	تفسير الآيتين: ٦ و ٨

تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٩	٣٧٢
تفسير الآيات: ٥٠ و ٥١ و ٥٣ و ٥٥	٣٧٣
تفسير الآيات: ٥٧ و ٥٨ و ٦٠ و ٦١	٣٧٤
تفسير الآية: ٦٢	٣٧٥
تفسير الآيتين: ٦٣ و ٦٤	٣٧٦

سورة الفرقان

تفسير الآيتين: ١ و ٢	٣٧٧
تفسير الآيات: ٣ - ١٠	٣٧٨
تفسير الآيات: ١١ - ١٥	٣٧٩
تفسير الآيات: ١٦ و ١٧ و ٢٠ و ٢١	٣٨٠
تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٤	٣٨١
تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٧ و ٢٨	

٣٠ و ٣١	٣٨٢
تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٥	٣٨٣
تفسير الآيات: ٣٦ و ٣٧	
٤١ و ٤٣	٣٨٤
تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦	٣٨٥
تفسير الآيتين: ٤٧ و ٤٨	٣٨٦
تفسير الآيات: ٤٩ - ٥٣	٣٨٧
تفسير الآيات: ٥٤ - ٥٨	٣٨٨
تفسير الآيات: ٥٩ - ٦١	٣٩١
تفسير الآيتين: ٦٢ و ٦٣	٣٩٢
تفسير الآيات: ٦٤ - ٦٨	٣٩٣
تفسير الآيات: ٧٠ و ٧٢ و ٧٣	٣٩٤
تفسير الآيات: ٧٤ - ٧٧	٣٩٥

سورة الشعراء

تفسير الآيتين: ١ و ٢	٣٩٦
تفسير الآيات: ٣ - ١١	٣٩٧
تفسير الآيات: ١٢ - ٢١	٣٩٨

تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٧	٢٤٣
تفسير الآيات: ٥٨ - ٦٢	٣٤٤
تفسير الآيات: ٦٣ - ٦٥	٣٤٥
تفسير الآيات: ٦٦ - ٧٢	٣٤٦
تفسير الآيات: ٧٣ - ٨٠	٣٤٧
تفسير الآيات: ٨١ - ٨٩	٣٤٨
تفسير الآيات: ٩٠ - ٩٣	٣٤٩
تفسير الآيات: ٩٥ - ٩٨	٣٥٠
تفسير الآيات: ٩٩ - ١٠١	

١٠٦ - ١٠٨	٣٥١
تفسير الآيات: ١٠٩ - ١١٧	٣٥٢
تفسير الآية: ١١٨	٣٥٣

سورة النور

تفسير الآيتين: ١ و ٢	٣٥٤
تفسير الآية: ٣	٣٥٥
تفسير الآيات: ٤ - ٦	٣٥٦
تفسير الآيتين: ١٠ و ١١	٣٥٧
تفسير الآيتين: ١٢ و ١٤	٣٥٨
تفسير الآيات: ١٥ - ١٧	٣٥٩
تفسير الآيات: ١٩ - ٢٢	٣٦٠
تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤	٣٦١
تفسير الآيتين: ٢٥ و ٢٦	٣٦٢
تفسير الآيتين: ٢٧ و ٢٨	٣٦٣
تفسير الآيتين: ٢٩ و ٣٠	٣٦٤
تفسير الآية: ٣١	٣٦٥
تفسير الآيتين: ٣٢ و ٣٣	٣٦٦
تفسير الآيتين: ٣٤ و ٣٥	٣٦٧
تفسير الآيتين: ٣٦ و ٣٧	٣٦٩
تفسير الآيتين: ٣٨ و ٣٩	٣٧٠
تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٤	٣٧١

٤٢٣	تفسير الآيات: ٦٢	٣٩٩	تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٩
٤٢٤	تفسير الآيتين: ٦٣ و ٦٤	٤٠٠	تفسير الآيات: ٤٢ و ٦١ و ٦٢
	تفسير الآيات: ٦٥ - ٦٨	٤٠١	تفسير الآيات: ٦٩ - ٧٨
٤٢٥	٧١ - ٧٣	٤٠٢	تفسير الآيات: ٧٩ - ٨٣
٤٢٦	تفسير الآيات: ٧٤ - ٨٠		تفسير الآيات: ٨٤ و ٨٦ - ٩١
	تفسير الآيات: ٨١ - ٨٣	٤٠٣	٩٧ و ٩٨
٤٢٧	٨٥ - ٨٨		تفسير الآيات: ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٤
٤٢٨	تفسير الآيات: ٨٩ - ٩١ و ٩٣	٤٠٤	١٠٥ و ١١١

سورة القصص

٤٢٩	تفسير الآيات: ١ - ٦
٤٣٠	تفسير الآيات: ٧ - ١٠
٤٣١	تفسير الآيات: ١١ - ١٥
٤٣٢	تفسير الآيات: ١٦ - ٢٠
٤٣٣	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٣
٤٣٤	تفسير الآيتين: ٢٤ و ٢٥
٤٣٥	تفسير الآيتين: ٢٦ و ٢٧
٤٣٦	تفسير الآيتين: ٢٩ و ٣٠
٤٣٧	تفسير الآية: ٣١
٤٣٨	تفسير الآيتين: ٣٢ و ٣٣
٤٣٩	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٣
٤٤٠	تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦
	تفسير الآيات: ٤٧ و ٤٨
٤٤١	٥١ - ٥٥
٤٤٢	تفسير الآيات: ٥٦ - ٥٨
٤٤٣	تفسير الآيات: ٥٩ - ٦٢ و ٦٥
٤٤٤	تفسير الآيات: ٦٦ - ٧٠
٤٤٥	تفسير الآيات: ٧١ - ٧٥
٤٤٦	تفسير الآية: ٧٦
٤٤٧	تفسير الآيات: ٧٧ - ٨٠
٤٤٨	تفسير الآيات: ٨٢ - ٨٥

تفسير الآيات: ١٢٧ و ١٩٢ -

٤٠٥	١٩٦
	تفسير الآيات: ٢٠٥ - ٢٠٧ و ٢١٢
٤٠٦	٢١٤ - ٢١٧
٤٠٧	تفسير الآيات: ٢١٨ - ٢٢٤
٤٠٨	تفسير الآيتين: ٢٢٦ و ٢٢٧

سورة النمل

٤٠٩	تفسير الآيات: ١ - ٣
٤١٠	تفسير الآيات: ٤ - ٧
٤١١	تفسير الآيات: ٨ - ١١
٤١٢	تفسير الآيات: ١٢ - ١٥
٤١٣	تفسير الآيات: ١٦ - ١٨
٤١٤	تفسير الآيتين: ١٩ و ٢٠
٤١٥	تفسير الآية: ٢١
٤١٦	تفسير الآيات: ٢٢ و ٢٤ و ٢٧
٤١٧	تفسير الآيات: ٢٨ - ٣٢
٤١٨	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥
٤١٩	تفسير الآيات: ٣٦ - ٤٠
٤٢٠	تفسير الآيات: ٤١ - ٤٤
٤٢١	تفسير الآيات: ٤٥ و ٥٠ - ٥٢
	تفسير الآيات: ٥٤ و ٥٥
٤٢٢	٥٩ - ٦١

تفسير الآيات: ٨٦ - ٨٨	٤٤٩	تفسير الآيات: ٢٣ و ٢٤
سورة العنكبوت		
تفسير الآيتين: ١ و ٢	٤٥٠	و ٢٦ و ٢٧
تفسير الآيات: ٣ - ٧	٤٥١	تفسير الآيات: ٣٦ - ٤١
تفسير الآيات: ٨ - ١١	٤٥٢	و ٤٣ - ٤٥
تفسير الآيات: ١٢ - ١٦	٤٥٣	تفسير الآية: ٤٦
تفسير الآيات: ١٧ - ١٩	٤٥٤	تفسير الآيات: ٥٩ - ٦٣
تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٢	٤٥٥	تفسير الآيات: ٦٤ و ٦٥
		و ٦٧ - ٦٩
		٤٦٣